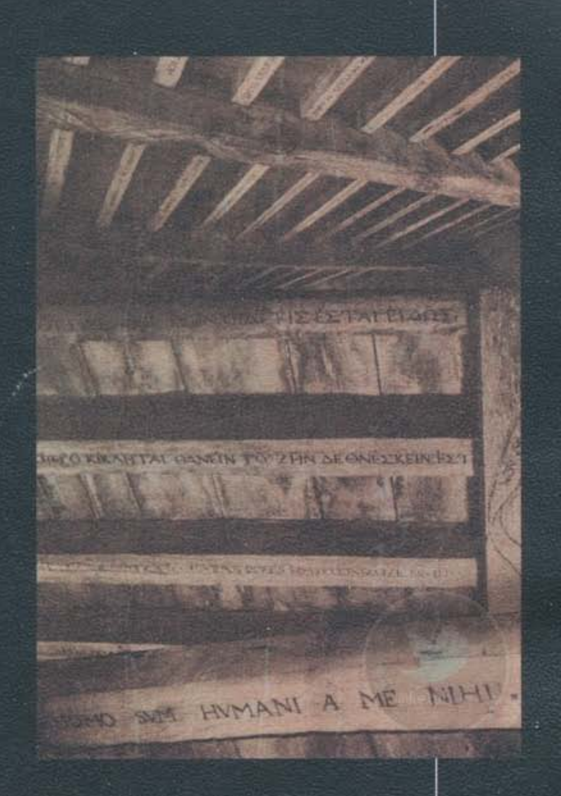
المقالات

الكتاب الثاني

12.2.2022



مشيل دو مونتيني

ترجمة: فريد الزاهي



المقالات

الكتاب الثاني


MANA.NET

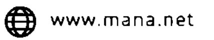
المقالات
الكتاب الثاني
تأليف: مشيل دو مونتيني
ترجمة: فريد الزاهي
الطبعة الأولى: 2021
ISBN: 978-603-91637-1-8
رقم الإيداع: 1443/952

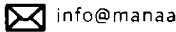
هذا الكتاب ترجمة لـ:
Michel de Montaigne,
Essais
Traduction en français moderne
de texte de l'édition de 1595 par Guy Pernon Mi-
chel de Montaigne,

Cover image by: Hebah Almufada



الناشر:
دار معنى للنشر و التوزيع







المحتويات

الفصل الأول

عن تقلّب أفعالنا

1. مَنْ يتفحَّص أعمالِ البشر، لن تصيبه الحيرة إلا حِينَ يرأبها معًا بغية فهمها وتقديمِها في الوقت نفسه. إنها تبلغ من التناقض مبلغًا يتعذّر معه أن تكون صادرة عن الشخص نفسه. فماريوس الصغير*)[1](كان يجدُ نفسَه تارةً ابنًا للإله مارْس*[2]، وأخرى ابنًا لفِينُوس*[3].

2. زعمُوا أنَّ البابا بونيفاس الثامن*[4]، أخذ عبْء مسؤوليتِه كثعلب، ومَارسها كَليثٍ، ومات كَكلبٍ[5]. ومَن سيُصدِّق أن نيرون، مضرب المثل في القسوة، هو من قال، في الوقت الذي كانوا يجعلونه، حسب المعتاد، يوقّع على الأحكام على المتهمين: «حمدًا لله أنِّي لم أتعلم القراء قطّ»، من شدّة إحساسه بالانقباض حين يُسْلم أحدهم للمِقْصَلة.

3. ثمّةُ الكثيرُ من الأمثلةِ في هذا المِضْمَارِ، وكلُّ واحدٍ مِنّا، يُمكنه أن يعْثُر منها لنفسه على الكثير، بحيث إني أندهش من أن أرى أحيانًا، أناسًا فَطنين يجهَدون كثيرًا، كي يجعلوا تلك الأفعالَ مطبوعةً بالانسجام. ذلك أن التردُّد يبْدو لي أكبرَ مثالب طبيعتَنا البشرية وأبرزها. ذلكم هو ما يشهد عليه هذا البيت الشعري الشهير لبُوبْليلْيُوس سِيرُوس*[6]، صاحب المسرحيات الهزلية:

«كلُّ قرارٍ يكونُ سَيِّئًا، حينَ لا نستطيعُ تغْييرَه».

4. إنه لَعيْنُ العقلِ أنْ نحْكُم على امريْءٍ من سمات حياته اليومية البادية؛

---

(1) * ماريوس الصغير (108/109 ق.م - 82 ق.م) قائد عسكري وسياسي وقنصل روماني، وهو ابن القائد والقنصل الروماني جايوس ماريوس.

(2) * إله الحرب لدى الرومان.

(3) * إلهة الحب والجمال لدى الرومان.

(4) * البابا بونيفاس الثامن (1235م تقريبًا - 1303م) اعتلى كرسي البابوية في الفترة من 1294م حتى 1303م، بعدما أغرى سلفه البابا سلستين الخامس بتحقيق رغبته في التنحي عن البابوية، ثم سجنه في قلعة فومولي وسرعان ما مات، ما أثار شكوك خصوم بونيفاس في ضلوعه في قتل البابا سلستين. ثم نشب نزاع كبير بين ملك فرنسا فيليب الرابع الشهير بفيليب الوسيم، والبابا بونيفاس الثامن، الذي حاول فرض هيمنته على ملوك أوروبا، ما انتهى إلى اعتقال البابا بونيفاس لمدة يومين ربما تعرض خلالهما لإيذاء بدني ونفسي كبيرين أديا الى وفاته بُعيد إطلاق سراحه.

(5) يستعيد مونتيني هنا شاهدة قبر البابا بونيفاس الثامن.

(6) * كاتب لاتيني عاش في القرن الأول قبل الميلاد، كان معاصرا لشيشرون، واشتهر بمسرحياته الهزلية، المترعة بالحِكم والأمثال.

لكنني، بالنظر إلى التقلّب الطبيعي لعوائدنا وآرائنا، اعتقدتُ دومًا، أن الكُتَّاب الكبار أنفسهم مُخْطِئون، حين يصرّون على أن يجعلوا منَّا تركيبةً ثابتةً راسخة. إنهم يختارون خلُقًا عالميًا، وتبعًا لهذا الأنموذج، نراهم يعمدون إلى تصنيف جميع أفعال شخصية ما وتأوُّلها؛ وحين لا يستطيعون تطْويعها تمامًا، يرون فيها طابع الرياء والتدْليس. بيْد أنَّ أغسطس قد أفلت منهم؛ ذلك أن هذا الرجل قد قدّم طوال حياته، وباستمرار، مزيجًا من السلوكِ والمواقفِ، بطريقةٍ بالغة المباغتة والوضوح، بحيث إنه حيّر أكثرَ القُضاةِ حزمًا، وبحيث إن قضيته ظلت من دون حَلٍّ. وبرأيي، أن ثبات الأفعال هو الأمر الأشد عُسرًا لدى الناس، فيما أنْ التقلّب فيها، هو الأمر الأشدّ يُسْرًا لديهم. ومن يقوم بالحكم الدقيق على أفعالهم، فعْلًا فعْلًا، سيحالفه الحظ في الاهتداء للحقيقة.

5. قلّما نعثر في العصور القديمة على زُمْرة من الناس، كرّسوا حياتهم تمامًا لمشروع دقيق وثابت، إذْ إنَّ ذلك هو مرْمى الحكْمة. فلكي نلخّصَ قواعدَ حياتِنا ونُجْمِلَها كلها في عبارةٍ واحدةٍ، كما قال أحدُ الحُكماءِ القدماءِ، إما أن نريد الشيء نفسه دائمًا، أو لا نرغب فيه أبدًا : «ليس لي ما أضيفه. أتمنى فقط أن تكون الإرادة حقَّةً؛ فإذا هي لم تكن كذلك، فمن المحال في هذه الحالة، أن تكون دومًا إرادة واحدة»[1]. والحقيقة أنني تعلمت في سابق حياتي، أنَّ الرذيلةَ ليستْ سِوى ضَرْبٍ من الاضطرابِ، وتعدُّدِ القواعِدِ والفوضى، وغيابِ الاعتدالِ. مِن ثمَّ، من المستحيل أن تكون لها علاقة بالثبات في الأفعال.

6. قال ديموستينيس: إن بداية كل فضيلة، تكون بالتفكير والتشاور، وغايتها وكمالها يكون في الثبات عليها. وإذا ما نحن اخترنا السبيل الذي سنسلكه، بالحِجاج؛ فإننا سنسلك أفضل سبيل، غير أن لا أحد يفكر في ذلك.

«إنه يريدُ، ثم لا يريدُ؛ ثم يريدُ من جديدٍ الشيءَ نفْسَه؛

(1) Sénèque (96), II, 20.

إنّه يتردّدُ، وحياته تناقضٌ دائمٌ»[1].

7. ما نقوم به عادةً، هو اتّباع تقلباتِ رغباتِنا، يمينًا وشمالًا؛ نحو الأعلى، ونحو الأدنى، ثمّة حيث تحملُنا رياحُ ظروفِنا. ونحن لا نفكر في ما نريدُ ونرغبُ، إلا في اللحظةِ التي يعِنُّ لنا ذلك، مثلنا مثل ذلك الحيوان، الذي يأخذ لونَ المكانِ، الذي نضعه فيه*[2]. وما يعِنُّ لنا القيام به اللحْظةَ، نغير الرأي فيه للتوّ، ثم بعده نتراجع عن ذلك. وكل هذا ليس سوى اضطراب وفوضى، وتقلّب في المزاج، والرأي:

«نحن متقلِّبُون كعَرائِسَ من الخشبِ
تُحَرِّكُها عضلاتُ شخصٍ آخرَ»[3].

8. إننا لا نتّبع هوانا، بل نحن مُسيَّرون، مثلنُا مثلُ الأشياءِ، التي تطفو تارةً بهدوءٍ، وتارةً بعُنْفٍ، حسبما يكون مجرى الماء هادئًا أم هائجًا:

«ألا نرى أنَّ كلَّ إنسانٍ جاهلٌ بما يريدُ
وأنَّه يبحثُ بلا كللٍ، ويتحركُ على الدوام
كما لو كان باستطاعته هكذا، أن يتخلص من عبئه»[4].

9. لكل يوم فكرته الجديدة، فمزاجنا يتقلّب على هوى الوقت:

«أحاسيسُ الناسِ تشْبهُ تلك الأشعةَ
المتغيِّرةَ التي أخْصَبَ بها يوبيتر بنفسِه الأرضَ»[5].

إننا نطْفُو بين آراءٍ عديدةٍ؛ فنحن لا نريدُ شيئًا بشكلٍ حرٍّ، لا نريد شيئًا مطلقًا، ولا شيئًا بشكل قارّ.

10. مَنْ يستطع أن يشرّع لنفسه، قوانينَ ونظامًا واضحًا، ويفرضها على ذهنه، فسيُبيِّن دومًا سلوكًا منسجمًا مع ذاته، وذلك بفضل نظامٍ،

(1) Horace (35), I, 2, v. 98.

(2) * الأمر يتعلق طبعًا بالحرباء.

(3) Horace (34), II, 7, v. 82.

(4)Lucrèce (47), III, v. 1070.

(5)Homère (32), XVIII-135-6.

وعلاقةِ انسجامٍ، بين مبادئه والأشياء الواقعية. بيْد أن أمبيدوقليس قد لاحظ، بالمقابل، لدى أهل مدينة أغريجنتو (بصقلّية) هذا الاضطراب؛ فهم ينساقون مع ملذات الحياة، كما لو أنهم سيموتون غدًا؛ ويشيّدون الصروح مع ذلك، كما لو أنهم سيعيشون أبدًا.

11. إننا نفسر بسهولة حياةَ امرئٍ تكونُ بهذا الانتظام. وذلك ما نلاحظه لِدَى رجلِ السياسةِ الروماني الرواقِي، كاتو الأوتيكي: فمن رقَن ملمسًا واحدًا من البيان، يكون كمَنْ رقَنَ كلَّ الملامس؛ وها نحن أمام تناغمٍ للأصوات المدوْزنة جيدًا، بحيث لا يمكن لنا إنكاره؛ أما لدينا فالأمر معاكس، إذْ ثمة العديد من الأفعال، والعديد من الأحكام الخاصة. والأمر الأوْكد -حسب نظري- هو أن نربطها بالظروف، من غير أن نسير أبعد من ذلك، ولا أن نستشفَّ منها الخلاصات.

12. خلال القلاقل، التي هزّت مجتمعنا البئيس، حُكي لي، أن فتاةً، في مكان قريب، من ذلك الذي كنت به، قد رمتْ بنفسها، من نافذة أحد البيوت؛ هربًا من عسكري أجْلف، كان ضيفًا علها. وبما أنها لم تلْقَ حتفها، من أثر السقطة؛ فقد أرادت أن تُجْهز على نفسها، بحزّ عنقها بسكينٍ. ولقد منعها الناسُ من ذلك، من غير أن يستطيعوا منعها من أنْ تصيب نفسها بجرحٍ بليغٍ. ثم إنها اعترفت بنفسها، بأن العسكري لم يتحرّش بها سوى بالكلام، وبالترغيب وبالهدايا، غير أنها كانت خائفة من أن يجبرها، في النهاية، على منح نفسها له. كل هذا بالكلمات، وبالحِشْمة، والدّم الشاهد على عفّتها، كما لو كانت لوكريتيا أخرى[1].

13. بيْد أنني، في الحقيقة، علمت أنها كانت، قبل الواقعة ومن حينئذٍ، من بائعات الهوى. وكما جاء في الخرافة: مهما كنتَ جميلًا وشريفًا، وحين لا تبلغ مبتغاك من عشيقتك، فلا تتسرعْ في الاستنتاج بأنها عفيفة في كل اختبارٍ، فهذا لا يعني أنَّ الحمّالَ لم ينلْ منها بُغْيَتَه، ويقضي منها وطره.

(1) هيلوكريتيا، زوجة لوكيوس تاركوينيوس كولاتينوس، التي صارت عفتها خرافية. فحين كان زوجها يشارك في حصار مدينة «أرديا»، اغتصبها سكستوس تاركوينيوس، بعد أن دخل عليها بيتها. وقد كشفت لأبيها وزوجها عن الجرم الذي تعرضت له، وأقدمت على قتل نفسها أمامهما، بضربة خنجر.

14. عطف أنتيغونوس، ملك مقدونيا على أحد عساكره؛ نظرًا لشهامته، وبسالته. فأمر أطباءه بعلاجه، من مرض تناسلي، كان يؤرقه من مدّة. وحين لاحظ بعد شفائه، أن إقدامه في المعركة، قد خفَت، سأله عما غيّره، وجعله جبانًا رغديدًا. فأجابه: «أنت يا سيدي، بعد أن خلّصتني من الآلام، التي جعلتني لا أتشبث بالحياة».

قام أحد جنود القائد العسكري الروماني لوكولّوس، الذي سلب منه الأعداء عتاده، بالانتقام منهم شرّ انتقام. وحين استعاد ما فقد، أراد القائد العسكري لوكولّوس، الذي أحسن تقدير صنيعه، تكليفه بعمل محفوف بالمخاطر، مستخدمًا ما في جعبته من النصائح الأشدّ سدادًا «**بكلمات تجعل من الجبان مقدامًا**»[1].

فردّ عليه، أن استخدموا في ذلك جنديًا فقد عتاده!

ولمّا كان جلِفًا، أجاب:

«سيروح حيثما شئتَ
ذلك الذي فقد ماله»[2].
ثم إنه رفض القيام بذلك.

15. يُحكى أن السلطان العثماني، محمدًا الثاني*[3]، حين رأى جيوشه، تتراجع أمام الهنغاريين، من غير أن يُبدي حَسن، قائد إنكشارييه، رباطة الجأش في المعركة، عاقبه عقابًا شنيعًا. ثم إن حسنًا، وهو في حاله هذا، وللجواب على ذلك، اندفع بقوة، وسلاحه في يده، مهاجمًا وحده، أول فيلق من جنود العدو ظهر له، حيث نال حتفه. حين نقرأ هذا نقول إن ما فعله حسن ليس لإبراء ساحته مما قدمت يداه، بقدر ما هو تبدّلٌ في الرأي؛ وهو ليس من قبيل الإقدام، بقدر ما هو حسرة وأسى جديد.

(1) Horace [35] II, 2, v. 36.
(2) Horace [35] II, 2, v. 39.
(3) * محمد الثاني أو محمد الفاتح (1432م – 1481م) هو سابع السلاطين العثمانيين، وفاتح القسطنطينية.

16. لا يدهشنَّك أن تجد من رأيت بالأمس في غاية الشجاعة لا مثيل له اليوم في الجبن؛ فالغضب، والضرورة، والخمر، أو حتى صوتُ بوقِ الحربِ، ربما كانت تمنحه قوةَ الشكيمةِ. وهذه الشجاعة، ليست صادرة عن العقل، فالظروف هي التي شحذتها؛ وليس من الغريب، أنْ جعلت منه ظروف مغايرة شخصًا مختلفًا.

17. إن هذا التغيُّر، وهذا التناقض، الذي قد نقف عليه فينا، بطابعهما الزئبقي، قد أدى بالبعض إلى أن يتخيل، أنَّ لنا نفسيْن اثنتين؛ وآخرين إلى أن يتصوّروا لنا قوّتيْن، تصاحِبا ننا وتحركاننا، كلٌ واحدةٍ بطريقتها: الأولى نحو الخير، والثانية نحو الشّر. وذلك لأنهم يعتقدون أن تقلُّبًا مفاجئًا من قبيل ذلك، قلّما يُعزى إلى باعث واحد أوْحد.

18. إنني لا أميل مع كل ريح فحسب؛ فأنا أتقلّب، وأحسّ بالاضطراب، بسبب تقلّب حالي، ومن يلاحظ نفسه، لن يجد نفسه أبدًا مرتين على الحال نفسه. فأنا أمنح لنفسي تارةً وجهًا، وأخرى وجهًا آخر، حسب ما أقلبها لهذا الجانب أو ذاك. وإذا كنتُ أتحدّث عن نفسي بطرائق متعددة؛ فذلك لأني أنظر إلى نفسي بطرائق متنوعة. كل التناقضات مكْنونة فيها، بطريقة أو أخرى: فأنا خجولٌ ووقحٌ، وعفيفٌ وماجنٌ، وثرثارٌ وصموتٌ، ونَشِطٌ وكسولٌ، وذكيٌ وساذجٌ، وبائس ومرح، وكاذبٌ وصادقٌ، وعالمٌ وجاهلٌ، ومُسْرِفٌ وبخيلٌ... أنا أرى كل هذه الأمور فيَّ، بشكلٍ ما، تبعًا للزاوية التي أتفحّص بها ذاتي. وكلُّ من يتأمل بعناية في نفسه، يكتشف فيها هذا التقلب وهذا النشاز، حتى في أحكامه الشخصية. فأنا لا أستطيع أن أقول شيئًا عن نفسي، بكلمة واحدة، وبشكلٍ مطلق، وبسيطٍ، وحاسمٍ، من غير اضطراب، وتشوُّش. وبعبارة أخرى، المفارقة هي سيّدة منطقي.

19. إنني مقتنع كل الاقتناع بوجوب قول الخير عن الشيء الخيّر، ولديَّ ميْل بالأحرى لأن أقدّم الأشياء، التي يمكن أن تكون خيّرة، بالشكل الأمثل. بيْد أن غرابة أحوالنا البشرية، تتمثل في أننا نكون مدفوعين بالرذيلة

نفسها إلى أن نقوم بما هو حسن، لو كان القيام بالفعل الحسن لا يعود إلا النوايا. فليس علينا أن نستنتج من فعلٍ شجاعٍ، أنَّ صاحبَه مِقْدامٌ؛ فمن كان كذلك حقًّا، سيكون مقدامًا فعلًا في كافة الظروف. وإذا كانت تلك الشجاعة لدى شخصٍ أمرًا معتادًا، لا مبالغة عابرة، فإنها ستجعل منه شخصًا مستعدًا لكافة الاحتمالات، سواء كان وحده أو بصحبة آخرين، في مجالٍ محدودٍ، كما في ساحةِ الوغى؛ ذلك أننا مهما كان رأينا، ليس ثمة شجاعة للمدينة وأخرى للحرب. فالشخص الجَسور سيتحمل بالشجاعة نفسها مرضًا من الأمراض في سريره، كما جرحًا في المعركة، ولن يخشى الموت لا في البيت، ولا في المعركة. وهكذا لن نرى الرجل نفسه يلقي بنفسه في المعركة برجولة وحزْم، ويأسى بعدها كامرأة، بأنه خسِر محاكمةً، أو فقد ابنًا.

20. حين نكون جبناء أمام الخزْي، والعار، وحازمِين إزاء الفقر، ضعيفِين إزاء مِبضَع الجرّاح، لكن غير جزعين أمام سيوف العدو، فعلينا أن نمتدح الأفعال لا أصحابها.

21. يقول شيشرون: إن اليونانيين يخشون رؤية العدو، غير أنهم يتحلّون بالصبر ورباطة الجأْش أمام المرض؛ أما الكيمبريون*[1] والكلتيبيريون*[2] فهم على النقيض تمامًا: «**لا شيء يمكن أن يكون منسجمًا، ما لم يقم على مبدأ حازم**»[3].

22. لا شجاعة تضاهي شجاعة الإسكندر الأكبر؛ غير أنها ليست شجاعة تقتصر عليه، وليست كاملة وشاملة. ومع أنها شجاعة لا تُضاهى، فهي لها هنّاتها: وهكذا نحن نراه مهمومًا بالشكوك البسيطة، إزاء أفراد حاشيته، الذين يرغبون في المسّ بحياته، ويتصرف في تحرّياته بعنف وتجبّر، يحرّكه في ذلك خوف، يقْلب عقله رأسًا على عقب. أما حالات التطيُّر التي كان يُبديها، فكانت تمنح عنه صورة شخص ضعيف،

(1) * قبيلة من القبائل الجرمانية.
(2) * جماعة من الشعوب الكلتية استوطنت شبه الجزيرة الإيبيرية في أعقاب القرون الأخيرة قبل ميلاد المسيح.
(3) Cicéron (21), II, 27, 65.

يكاد الخوف يوهِن قلبه. أمَّا الندم البالغ الذي أفصح عنه، بعد مقتَل كلايتوس*[1]، فهو يشهد على الطابع المتقلّب لمزاجه.

23. إنّ تصرفاتنا ليست سوى أضغاثٍ من نوازع شتى. الفضيلة لا يريد أن يمارسها الناس إلا لذاتها؛ وإذا ما وضع المرء القناع على وجهه أحيانًا، لأغراضٍ أخرى، فإنها لا تلبث أن تنزعه عنه. إنها عبارة عن صبْغٍ صارخ الألوان يتعذر استئصاله، حين تتشرَّبه النفس، من غير أن نقتَلع معها الجلد. لهذا، ولكي نحكم على إنسانٍ، علينا تتبّعه طويلًا وبعنايةٍ؛ وإذا ما لمْ يَقَرّ لسلوكه قرارٌ من تلقاء ذاته «**كمَن حدّد بعد تمحيصٍ أي سبيل يسلك**»[2]، وإذا ما دفعه تقلب الأحوال، إلى تغيير إيقاع خَطْوِه -أو بالأحرى إلى تغيير سبيله، لأن المرء يمكنه أن يسرع الخطو، أو يتأنى في المشي-حينئذٍ اتركْه يسير، ذلك أنه يميل مع كل ريح.

24. ليس من المدهش، كما يقول سينيكا، أن الصدفة لها آثار جمّة علينا، ما دمنا نعيش على هوى الصدف. فكل من لم يحدّد مسبقًا وإجمالًا وِجهة حياته، لا يمكنه أن ينظّم أعماله بتفصيلٍ. ومن لا يملك في ذهنه الخطة الإجمالية، لا يمكنه أن يتحكّم في التفاصيل. ما الجدوى من خزْن عُلَب الألوان والأصباغ، إذا لم يكن المرء يعرف الرسم؟ لا أحد يرسم الخطة العامة لحياته، فنحن لا نفكر في ذلك إلا خطوة خطوةً. والرامي عليه أن يعرف أولًا كيف يصوبّ السهم، كي يعرف أين يضع يده، وكيف يمسك بالقوس، والوتر، والسهم، فيكون التسْديدُ والقوةُ متلائميْن.

25. وإنّنا نخْفق في مشروعاتنا، لأنها لا وِجْهة لها ولا هدف. ولا يمكن أن تكون الرياح مواتية، لشراعٍ لا مرسى له. وأنا لا أؤيّد الحكم القضائي

(1) * كلايتوس الشهير بكلايتوس الأسود (375 ق.م تقريبًا – 328 ق.م) قائد مقدوني، كان رفيق الإسكندر الأكبر، الذي قتله في نوبة غضب وهو مخمور، لكنه ذاب أسىً وحسرةً من بعد ذلك.

(2)Cicéron (20), V, 1, 34.

الذي انتصر لسوفوكليس ضد ابنه*[1]، الذي اتّهمه في عقله، فنحن لن يمكننا، فقط من خلال مشاهدة إحدى مآسيه، أن نؤكد أنه كان ذا درايةٍ بتدْبير أمورِ بيته.

26. كما أنني لا أوافق على التقدير الذي خلص إليه البارثيّون، الذين بُعثوا لإصلاح حكومة الميلتيين، ولا أرى أنه كان كافيًا لتبرير ما انتهوا إليه من نتائج: بعد وصولهم الجزيرة، بحثوا عن أخصب الأراضي المزروعة، وأفضل عقارات الريف، وسجلوا أسماء أصحابها، ثم جمعوا كل مواطني المدينة، وعينوا هؤلاء المُلاك حكامًا وقضاةً جددًا للمدينة، مقدّرين أنهم إذا كانوا ناجحين في تدبير أمورهم الشخصية، فسيكونون ناجحين كذلك في تدبير الشؤون العامة.

27. نحن جميعًا مصنوعون من أضغاث مؤتلفة من عناصر مختلفة وبالغة التغيُّر، بحيث إن كل عنصر يلعب دوره في كل لحظة. بل ثمة الجمّ من الاختلاف بيننا وبين أنفسنا، مقدار ما بيننا وبين الآخرين من اختلاف: «**كنْ على ثقة من تعذّر أن تكون الشخص نفسه دوما**»[2].

28. لما كان الطموح يعلّم الناس الشجاعة، والزهد في الحياة، والحرية، بل والعدل نفسه؛ ولما كان الطمع قد يزرع في قلب موظّف عادي، تربى في الظل والعطالة، ما يكفي من الثقة، كي ترمي به بعيدًا جدًا عن موْطنه، في قاربٍ صغيرٍ، ضحيّةَ الأمواجِ وغضبِ الآلهة، وأنه أيضًا قد يعلمه الكتمان والحذر؛ ولمّا كانت أنفينوس نفسها تدعو الصبيان، الذين لا يزالون خاضعين «للتأديب» وللعصا، إلى الحزم والجرأة، وتزرع القسوة في قلب الصبايا، اللواتي لا يزلْن في حضن أمهاتهن:

«الفتاة تخرج خلسةً، تقودها فينوس

(1) * الابن المقصود هنا هو شاعر المأساة الأغريقي إيوفون بن سوفوكليس، الذي أراد الحجر على أملاك أبيه، فاتهمه في عقله، فما كان من الأديب العظيم سوفوكليس إلا أن قرأ على هيئة المحكمة بعضا من مأساة كان عاكفًا على تأليفها، وهي مسرحية «أوديبوس في كولونوس»؛ لإثبات سلامة ذهنه، فقضت له المحكمة بذلك، ورفضت دعوى إيوفون.

(2) Sénéque, (96), cxx.

متسللةً بين حراسها النائمين
ووحدها في الظلمات، تروح لملاقاة عشيقها»[1].

لما كان الأمر كذلك، فليس من قبيل الذكاء الخارق، أن يُحكم علينا فقط من أعمالنا الخارجية: على المرء أن يغوص بعيدًا في العمقِ، ويتأكَّدَ من النوابض، التي تجعل المجموع في حركة. بيْد أن هذا عمل محفوف بالمخاطر، ولهذا أريد ألَّا يكون ذلك، في متناول كافة الناس.

(1) Tibulle [104] II, 1, v. 75 sq

الفصل الثاني

في السُّكر

1. العالم ليس سوى ضروب من التنوع والتباين. أما الرذائل فهي كلها متشابهة باعتبارها رذائل، وربما هكذا يعتبرها الرواقيون. لكنها إذا كانت كلها رذائل، فإن الرذائل ليست كلها متساوية فيما بينها، ولا يمكننا أن نعتقد أنّ من تخطى الحدود بخطوات عديدة=

«وجاوزها أو بقي وراءها، لا يمكن أن يكون خيّرًا»(1)

=أدْهى مِمَّن يبعد عنها بعشر خطوات، وأن المروق ليس أدْهى مِن سرقة جَزَرةٍ في بستان!

«ومَن ينهبُ معبدَ الآلهةِ ليلا
من يسرق جزرًا من بستان الغير
لن يستطيع أحد التدليل على أنهما أيضًا آثمان»(2).

2. ألاّ يقوم المرء بالتمييز بين نوع الخطايا وأهميتها، سلوكٌ بالغ الخطورة. فالقتلة، والخونة، والجبابرة، لهم كبير مصلحة في ذلك. وليس من العدل، أن يهنأ ضميرهم، في وجود من هو خامل فاسق، أو منافق. كل واحد يميل إلى التشديد على الخطيئة لدى الجار، والتخفيف من خطيئته. كما أن المُرَبّين أنفسهم لا يصنّفون الخطايا تصنيفًا جيدًا، حسب رأيي.

3. قال سقراط: إن الدور الأساس للحكمة يكمن في التمييز بين الخير والشر. ونحن، الغارقين في الرذيلة على الدوام، خليق بنا قول الشيء نفسه عن العلم، الذي يسمح بالتمييز بين الرذائل؛ فمن دونه، ومن دون تطبيقه الحق، يظل الفاضل والرذيل متمازجيْن، سيختلط الصالح بالطالح.

4. أما السُكر -فيبدو لي- رذيلة فظة وحيوانية. ثمة رذائل أخرى، تحتل فيها الروح حصة أكبر. بل ثمة أيضًا رذائل لها ما لا أدري من نبْل وشرف، إن أنا استبحت لنفسي هذه العبارة. وثمة منها ما يتدخل فيه العلم،

(1) Horace [34] I, 1, v. 107.
(2) Horace [34] I, 3, 115-117.

والشجاعة، والحذر، والبراعة، والمهارة. والسكر محض لذّة جسمانية ودنيوية. ولهذا فإن الأمة الأشد فظاظة في أيامنا، هي الوحيدة التي تمنحه بعض القيمة[1]. أما الرذائل الأخرى فتشوِّه العقل. ورذيلة العقل هذه، تجْهز عليه وتهاجم الجسد:

«فتحْتَ سُلْطانِ الخمرِ
تثْقُل الأطراف، وتزلّ الرِجْلان
يصاب المرء بالترنّح، ويثقُل اللسان، والعقل يغرق لتوّه
تغدو العينان ساهمتيْن، ثم تنطلق الصرخات
وشهقات البكاء، ويبدأ العراك...»[2].

5. وأسوأ حال قد يعيشه المرء، هو حين يفقد الوعي والتحكّم في نفسه. يُقال حينئذٍ بأن من يفرطون في الشرب، تفضح الخمر أسرارهم الحميمة، مثلما يدفع التخمير عكارة النبيذ من قاع الدّن إلى سطحه[3]:

«اعلمْ
أن الحكماء يبوحون بالأسرار
والهموم، في رقصتهم المعربِدة»[4].

6. يحكي يوسيفوس فلافيوس*[5] أنه نجح في استجواب رسول من أعدائه بعدما أسكره. بيد أن أغسطس قد أفضى بأخصّ أسراره إلى لوكيوس بيزو*[6]، فاتح تراقيا، مثلما لم يخذل كوسّوس*([7]) الإمبراطور تيبيريوس*[8]، الذي أناط به جميع خططه ومشروعاته. ومع ذلك فنحن نعلم أن الرّجليْن كانا يتعاطيان الشراب بإفراط، بحيث كان من

(1) يتفق أغلب الشرّاح على أن الأمر يتعلق هنا بألمانيا، التي لم تكن تحظى بالتقدير من فرنسيي ذلك العصر.

(2) Lucrèce (47), III, 575-78.

(3) انظر بالأخص سينيكا ((28)، عن سكينة النفس، XVII، ص. 690) حيث يقول: «الحر Liber، الذي اكتشف الخمر، يسمى كذلك، لا لأنه يطلق الألسن، بل لأنه يحرر النفس من هموم تكون أسيرة لها...».

(4) Horace [37] III, xxi, 14-16.

(5) * يوسف بن متتياهو الشهير باسم يوسيفوس فلافيوس (37/38م – 100م) حاخام ومؤرخ يهودي، تعد كتبه من أهم مصادر التاريخ اليهودي.

(6) * لوكيوس كالبورنيوس بيزو الكاهن (48 ق.م – 32م) هو سيناتور روماني بارز، كان مقربًا من الإمبراطورين أغسطس وتيبيريوس.

(7) * كوسوس كورنيليوس لينتولوس هو سيناتور روماني كان مقربًا من الإمبراطور تيبيريوس.

(8) * تيبيريوس قيصر (42 ق.م – 37م) هو ثاني أباطرة الرومان بعد أغسطس قيصر.

الضروري إرجاعهما من مجلس الشيوخ سكرانيْن معًا.

«سكرانيْن على عادتهما ومنفوخي الجسم بالخمر»[1].

7. لقد كتم تيليوس كيمبر*[2] خطة اغتيال قيصر رغم إدمانه السكْر، مثلما أسرّها كاسّيوس* [3]، وكان لا يشرب إلا الماء. لذا قال مازحًا: «كيف لي أن أتحمل طاغية، أنا الذي لا أتحمل الخمر». ونحن نرى الألمان يدمنون الخمر، ورغم ذلك يتذكّرون كنتهم وكلمة المرور ومرتبتهم العسكرية:

«لن ننتصر عليهم بسهولة
كما هُمْ في عرْبَدَتهم، وثُقْل لسانهم، وترنُّحِهم...»[4].

8. لم أكن لأصدّق أن ثمة سكْرًا بالغ الحدّ، بحيث يترك صاحبه جثةً هامدةً، لو لم أقرأ لدى المؤرخين القدماء قَصصًا، كما هذه القصة التي سأحكيها. دعا أتّالوس*[5] لتناول العشاء باوسانياس*[6]-الذي قتل فيما بعد فليبوس ملك مقدونيا ذلك الملك الذي أبان بمزاياه، وخصاله الحميدة، عن التربية التي تلقاها، في بيت إبامينونداس*[7] وعلى يديه. ولكي يهينه جعله يفرط في شرب الخمر، حتى تعرّى عن غير وعْي منه،كاشفا عن عورته، كما تفعل ذلك المومس في الأسواق أمام الحمّالين في الأسواق وأحقر الخدم في البيت.

9. وإليكم ما حكته لي امرأة، أكِنُّ لها بالغ الاحترام والتقدير. قرب بوردو في الطريق نحو مدينة كاستر حيث تُقيم، كانت امرأة أرملة، ومعروفة بعفّتها، تقول لجاراتها، حين أحسّت بأول أعراض الحمل، إنها لو كان

(1)Virgile, (113), VI, 15.

(2) * لوكيوس تيليوس كيمبر(توفي 42 ق.م) هو سيناتور روماني، كان أحد الذين شاركوا في اغتيال يوليوس قيصر.

(3) * جايوس كاسيوس لونجينوس (86 ق.م تقريبًا – 42 ق.م) سيناتور روماني، وهو من دبر خطة اغتيال يوليوس قيصر.

(4)Juvénal (42), XV, 47-48.

(5) * أتالوس (390 ق.م تقريبا – 336 ق.م) قائد مقدوني، وكان يعمل في خدمة الملك المقدوني فيليبوس الثاني.

(6) * باوسانياس الأوريستيسي (توفي سنة 336 ق.م) كان أحد حراس الملك المقدوني فيليبوس الثاني.

(7) * إبامينونداس (توفي سنة 362 ق.م) هو قائد عسكري وسياسي إغريقي، من مواليد طيبة، كان فيليبوس الثاني أسيرًا عنده، وترعرع في كنفه في حداثة سنّه، وتعلم منه الفنون العسكرية والدبلوماسية.

لها زوج، فإنها ستعتقد نفسها حُبْلى فعلًا. بيْد أن الشك صار يكبر يومًا بعد يوم، حتى تأكدت من حملها، فصرّحت لقسّ الكنيسة بأن أحدًا إذا اعترف بأنه صاحب الفعْلة وصرَّح بذلك،فإنها ستسامحه، وإذا ما ارتأى ذلك ستتزوجه. ثم إن أحد خدم أحواز المدينة، شجعه ذلك التصريح، فاعترف بأنه وجدها في أحد أيام العيد، تغطُّ في نوم عميق قرب البيت، وفي وضع غير لائق، بحيث إنه قضى منها وطره، من غير أن يُفيقها من نومها. وقد تزوجا، ولا يزالان يعيشان معًا إلى اليوم.

10. من الأكيد أن هذه الرذيلة، لم تكن عُرضةً للشجب، والتنديد، في الأزمنة القديمة. فكتابات العديد من الفلاسفة، تتعامل معها من غير صرامة؛ بل إن ذلك نجده حتى لدى الرواقيين، الذين يسير بهم تساهلهم معها، حتى النصح بالانطلاق أحيانًا في الشُرْب، أكثر من المعقول، والشكر للآلهة لبلوغ انشراح النفس:

«وفي هذه المعركة الكبرى كان سقراط العظيم أيضًا
قد حاز الصدارة، فيما زعموا».

وقد أُعيب على كاتو*[1]، ذلك الرقيب والمصلح للعوائد، أنه كان يعاقر الخمر بإفراط.

«يُحكى أيضًا أن كاتو العجوز
كان يسخّن جيدًا فضيلته في الخمر»[2].

11. كان كورش، الأمير الفارسي الشهير، يجعل في صدارة المزايا التي يتشح بها، كي يُبين عن تفوقه على أخيه أردشير الثاني*([3])، مزيّة أنه شارب خمر أفضل من أخيه. بل إن التباري في مقدار شرب الخمر، أمر معتاد لدى الأمم الأكثر تنظيمًا وتمدُّنًا. فلقد سمعت سلفيوس، وهو طبيب باريسي ممتاز، يقول: إننا لكي نمنع معدتنا، من أن تصير كسولة في

(1) * هو ماركوس بوركيوس كاتو الشهير بكاتو الرقيب أو كاتو الكبير (234 ق.م – 149 ق.م)، سيناتور وخطيب وكاتب روماني كبير.

(2)Horace, 37, III, 21.

(3) * هو الملك الفارسي أردشير الثاني، الذي عاش في أعقاب القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد، وحكم الإمبراطورية الأخمينية خلال الفترة من 404 ق.م حتى 358/359 ق.م.

الهضم، ولكي ننشطها، من المستحسَن إيقاظها مرة في الشهر بالمغالاة في شرب الخمر. ويُقال أيضًا: إن الفُرْس كانوا يتداولون في أمورهم، بعد أن يتناولوا الخمر.

12. إن طبيعتي وأذواقي أكثر منافاة لهذه الرذيلة من عقلي. فعدا أنني أندرج بسهولة تحت إمرة آراء القدماء، إذا ما تأكدت أن الأمر يتعلق برذيلة تصم صاحبها بالجبن والغباء، فهي مع ذلك رذيلة أقل سوءًا، وأدنى خُبثًا من الرذائل الأخرى، التي تصيب المجتمع بقوة. وإذا لم نستطع أن نستمتع بالملذات، من غير أن نؤدي بعض ثمن ذلك، فإني أجد أن ثمنَ هذه الرذيلة، أهْوَن على ضميرنا من الرذائل الأخرى، خاصةً وأنَّ من السّهل تحقيق الإشباع من الخمر، وهو أمر لا يلزم إهماله.

13. قال لي رجل طاعن في السن وذو كبرياء وكرامة إن متعة تناول الخمر، هي من بين المُتع الثلاث الوحيدة التي فضَلَت له. فأين يُمْكن أن يجِدَ المرءُ هذه المتَع، إنْ هو لم يعثر عليها في نوازِعنا الطبيعية؟ بيْد أنه كان يفرط في ذلك إفراطًا. ففي هذا الشأن، من اللازم ترْك اللياقة جانبًا والحرص في انتقاء الخمر. فإذا أنت أقمتَ متعتك على جوْدتها، فإنك ستتعذب إذا أنت شربت خمرًا رديئًا. على المرء أن يكون له ذوق أقلّ صرامة، وأكثر انبساطًا. فلكي يكون المرءُ شرّيبًا للخمرِ، عليه ألا يكون له لسان ذوّاق.

14. يشرب الألمان كافة أنواع الخمور تقريبًا، بالمتعة نفسها، فهدفهم يكمن في تجرّعها، أكثر من تذوقها. وهم بذلك يستمتعون بها أفضل، بحيث إن لذتهم تكون أكبر وفي متناول يدهم. بل إن الشُرْب على الطريقة الفرنسية، وباعتدال، يعني ضبطًا للنفس إزاء نِعم إله الخمر. فعلينا أن نخصص له وقتًا أكثر، ومثابرة أكبر.

15. كان القدماء يخصصون للخمر ليالي بأكملها، وكان الأمر يمتد ليشمل قسطًا من النهار. علينا إذًا أن نمنح لاستهلاكنا العادي له، مدًى أكبر، وقوةً أوْفر. ففي زمني، رأيت نبيلًا كبيرًا، مشهورًا بحملاته وانتصاراته،

لا يشرب أقلَّ من عشرين قنينة من الخمر، خلال وجباته العادية، ويحافظ مع ذلك على وقاره ونباهته في تسيير شؤوننا الفرنسية.

16. إن اللذّة التي نخصها بالأهمية خلال حياتنا، يلزم أن تحتل مكانة كبرى. في لذة الخمر هذه، علينا، مثل العمال اليدويين والمستخدَمين، ألا نرفض أي فرصة تسنح لنا للشراب، وأنِ تظل تلك اللذة حاضرة في ذهننا. ويبدو أننا نقلّص كل يوم من تناولها، بحيث إن وجبات الغداء والعشاء والزوالية كانت، كما لاحظتُ ذلك في صباي، أكثر وُرودًا وتداولًا مما هي عليه اليوم. هل هذا يعني أننا نسير نحو تحسُّن معيّن؟ بالتأكيد لا. لعل الأمر بالعكس، هو أننا نكرِّس أنفسنا للفجور والمجون، أكثر مما كان عليه آباؤنا. وهما نشاطان يتناقضان، ويُضعف أحدهما الآخر. فمن جهة تضعف معدتنا، ومن جهة أخرى، يؤدي امتناعنا عن شرب الخمر، إلى جعلنا أكثر ميلًا للغواية، وأرقَّ في الغواية والغرام.

أبو مونتيني

17. وإني لا زلتُ مندهشًا، مما سمعت أبي يرويه، عن العفّة في زمنه. كانت رواية ذلك تخصّه شخصيًا: فقد كان ميّالًا بطبعه وطابعه إلى معاشرة النساء. كان يتكلم قليلًا وبلسان فصيح، ويرصِّعُ كلامه بالشواهد المستقاة، من كتب المحدثين، خاصةً الإسبان منهم، ومن بين هذه الأخيرة بالأخص، أحدها يسمى «ماركوس أوريليوس»[1]. كان حديثه لطيفًا ومتواضعًا، مع اهتمام خاص بالحشمة، في كل ما يخص شخصه ولباسه، سواء كان راجلًا أو على متن جواده. كان يصرُّ بشكلٍ مدهشٍ على البقاء وفيًا لكلمته؛ وكان ذا ضميرٍ ودقةٍ، بحيث إنَّ ذلك كان يبدو ضربًا من الهوس.

18. ومع أن أبي كان قصير القامة، فقد كان قوي البنية ومُعتدلَها. كان

(1) «الكتاب الذهبي لماركوس أوريليوس»، لكاتبه أنطونيو ديجيبارا، الذي عرف نجاحًا منقطع النظير.

ذا وجهٍ صبوحٍ، وذا بشرةٍ مائلةٍ إلى السُمْرة. وكان فطنًا، ويتقن كل الأعمال الشريفة. فلقد رأيته بأم عيني، يحمل عصيًّا مثقلةً بالرصاص، كان -كما يُحكى- يدرب ساعديه بها، على الرمي بالرمح، أو الحجر، أو المسايفة؛ وأحذية ذات نعالٍ محشوة بالرصاص، كي يجعل نفسه أكثر رشاقة في العدْو أو القفز. وهو في القفز بالرجلين ملتصقتين، قد حقّق بعض المفاخِر الصغيرة.

19. ورأيته، وقد جاوز الستين من عمره، يسخر من تمريناتنا في اللياقة، ويقفز بعباءته على ظهر جواده، ويدور على طاولة، مستندًا على إبهامه فقط. وكان لا يصعد أدراج السُلّم، المفضية إلى غرفته، إلا أربعاً أربعاً. وبخصوص الموضوع الذي أتحدث عنه، أي العفة، كان يقول إن في محافظة بكاملها، لم يكن ثمة إلا امرأة واحدة ذات سمعة سيئة، وكان يتحدث عن علاقات صداقة خارجة عن المعتاد، مع نساء نبيلات، لا يتسرب الشك إلى طابعهن النزيه. أما بخصوصه، فكان يردف الأقسام، بأنه ظل بكْرًا، لم يمسَّ امرأة، حتى زواجه، بالرغم من أنه شارك في حروب إيطاليا، التي ترك لنا عنها مذكّرات، تصف بالتفصيل الممل، ما جرى له فيها، سواء في الأمور العامة، أو في أموره الشخصية. وقد تزوّج في سنٍ متأخرة عام 1528م وكان قد بلغ الثالثة والثلاثين، حين عاد من إيطاليا. لكن لنعدْ لقنّيناتنا.

20. قد تثير فيَّ مساوئ الشيخوخة، التي تتطلب السّند والمواساة، لأسباب لعلها وجيهة، الرغبة في اللجوءإلى هذا المهْرب، ذلك أنها قد تكون آخر الملذات، التي تحرمنا منها رحلة حياتنا. فالحرارة الطبيعية، كما يقول العارفون، تغمر الأقدام أولًا، وتلك هي المتصلة بالطفولة. ومن ثمَّ تنتشر في الجذع، حيث تستقر لوقتٍ طويلٍ، وثمَّ تنتج -حسبي- الملذات الوحيدة الحقة لحياة الجسد، والملذات الأخرى لا تبلغ مبلغ تلك اللذة من بعيد. وفي النهاية، ثمة بخار يصعد ويطلق مفعوله لكي يبلغ الحلق حيث يحط الرّحال لآخر مرة.

21. بيْد أني لا أتمكن من فهم، كيف يمكن للمرء أن يُديم متعة الشرب، في ما يجاوز العطش، ويشكّل في خياله شهية مصطنعة، ومنافية للطبع. فأنا بطبيعة جسمي، لا أحس بالحاجة إلى الشرب، إلا لاستكمال ما أكلت، وذلك هو السبب في أن آخر جرعة أشربها، هي الأكبر دومًا. وما دمنا، ونحن نتقدّم في الحياة، يتّسخ حَلْقُنا بفعل الزكام، أو أنه يتعرّض للتلَف، بفعل تصرفات سيئة؛ فقد نستسيغ الخمر إذا كانت غُدَدنا نظيفة. وفي كل الأحول، فأنا نادرًا ما أستسيغ مذاقها من الوهلة الأولى.

22. كان أناخارسيس*[1] يندهش من كون اليونانيين يشربون الخمر في كؤوس أكبر، في نهاية الأكل، لا في بدايته. وذلك -حسب ما يبدو لي- للسبب نفسه الذي يدفع بالألمان إلى القيام بذلك، وإلى الانطلاق في تحدّي بعضهم البعض، من يشرب أكبر قدر من الخمر. كان أفلاطون يحرّم على الأطفال تناول الخمر قبل الثامنة عشرة، وأن يسكروا قبل بلوغ الأربعين. غير أنه كان يعذر من جاوز هذه السن، على الانغماس في السكر، وجعل ندماءه تحت تأثير ديونيسوس، هذا الإله الذي يعيد لبني البشر مرحهم، وللشيوخ شبابهم، والذي يلطّف من أهواء النفس، ويليّنها كما يَلِين الحديدُ تحت أثر النار.

23. وهو في حديثه عن القوانين والشرائع، يعتبر أن تلك المجامع، التي يعاقر فيها الناس الخمر، لها منافعها، فقط أن يكون ثمة رئيس للجماعة، يمكنه أن ينظّمها، ويضبط عربدتها أو هياجها. ذلك أن السكْر يشكل طريقة أكيدة لاختبار طبيعة كل واحد، وفي الوقت نفسه فهو قادر على أن يمنح لشخصٍ مسنّ، الانسياق لمتعة الرقص والموسيقى، وهي أمور نافعة، مع أنهم لا يجرؤون على القيام بها في باقي الأوقات. فالخمر قابل، لأن يحثّ النفس على الاعتدال، وهو نافع لصحة الجسم.

24. بيْد أن أفلاطون يتبنى المحاذير التي استقاها من القرطاجنيين، أي لزوم تفادي تناول الخمر خلال الحملات العسكرية، ولزوم أن

(1) * أناخارسيس، هو أمير وفيلسوف سكوثي، زار أثينا في أوائل القرن السادس قبل الميلاد.

يتفادى معاقرتها كل قاضٍ أو والٍ حين يكون على وشك القيام بمَهمّته، والتداول في الشؤون العامة؛ وألا يكرس المرء لها اليوم المخصص لشؤون ومهام أخرى، ولا لليلة التي تكرس للإخصاب والإنجاب.

25. يُحكى أن الفيلسوف ستيلبون*[1] حين شاخ ووهَن منه العظم، قام بتسريع لحظة موته بشرب الخمر الخالص*[2]. والخمر أيضًا، لكن هذه المرة بشكل غير مُبيَّت، هو الذي أجهز على الفيلسوف أركسيلاوس، بعد أن خارت قوى عمره. بل إن مسألة معرفة إذا كانت روح الحكيم تنفلت منه أمام قوة الخمر كانت مسألة قديمة ولطيفة:

«إذا ما أجهز الخمر على الحكمة المُختلية بنفسها»[3].

26. إلى أي درجة من الغرور، يقودنا هذا الرأي الحسن، الذي نعتقده في أنفسنا؟ فالنفس البشرية الأكثر انتظامًا والأكمل في الدنيا، أمامها الكثير مما تفعله كي تستقيم على قدميها، وتتفادى أن تغدو حُطامًا بسبب ضعفها ذاته. ولا وجود لنفس، من بين ألف نفسٍ، تمتاز بالاستقامة والصلابة للحظة واحدة في الحياة. بل يمكننا أن نشك في أنْ تمكّنها حالتها الطبيعية من ذلك أبدًا. أما إذا أضفنا لهذا الثبات، فسيكون ذلك آخر الكمالات، إذا افترضنا ألّا شيء سيقلْقِلَه، وهو ما تستطيعه الآلاف من الأحداث والوقائع.

27. لقد قضى الشاعر الكبير لوكريتيوس*([4]) حياته في التفلسف والإبانة عن حزمه، غير أن شراب العشق كان يكفي لكي يفقده رُشده. هل تعتقدون أن سكتة دماغية يمكن أن تصعق سقراط كما تصعق حمّالًا؟ البعض نسي حتى اسمه بفعل المرض، والجرح الخفيف أثّر على ملكة الحكم لدى البعض الآخر. يمكن للمرء أن يظل حكيمًا ما

(1) * ستيلبون (عاش في الفترة من 380 ق.م حتى 300 ق.م تقريبًا) كان فيلسوفًا إغريقيًا، من أتباع المدرسة الميغارية التي أنشأها الفيلسوف إقليدس الميغاري تلميذ سقراط.

(2) كانت الخمور اليونانية قوية المفعول ومليئة بالكحول، مثل شراب «بورتو» البرتغالي حاليًا أو «ماديرا»، وكان الناس يتناولونه مخفّفين قوته تلك بالماء.

(3) Horace (37), III, 28.

(4) * لوكريتيوس هو شاعر وفيلسوف روماني، عاش في القرن الأول الميلادي.

طاب له ذلك، غير أنه يظل إنسانًا. وما أضعف الإنسان وأتْعسه وأقْربه للعدم! فالحكمة لا تغير شيئًا من تصرفاتنا الطبيعية.

«تحت تأثير الخوف الشديد ينساب منا
العرق، وينتاب الشحوب جسدنا كله
يتلعثم اللسان في الفم، والصوت يخفت، والنظرة تخْبو
يعمّ الصفير الأذنين، وترتعش الأطراف
ثم إن الإنسان في الأخير يلْقى حتفه»[1].

28. وحتى الحكيم نفسه ترفْرف رموشه، أمام المصاب الذي يهدّد حياته. فإذا كان على حافة الهاوية، فليس له سوى أن يصاب بالرعشة كصبيّ؛ لأن الطبيعة استعملت سِمات سطوتها هذه، التي لا يمكن لعقولنا أن تكتنهها، ولا حتى الفضيلة الرواقية، لكي تذكرِّه بأنه كائن فانٍ، وبما هو موطن ضعفه. وها هو يشحب وجهه من الوجل، ويحمر من الخجل، ويئن تحت هجمات نوبة المغص الكلوي بصوت يائس ومدوٍّ، وإن كان به حشرجةٌ وانكسار.

«فليفكّر بأن ليس هناك شيء إنساني غريب عليه»[2].

29. الشعراء الذين يشكّلون كل شيء على طريقتهم، لا يجرؤون مع ذلك على حرمان أبطالهم من سكْب دموعهم.

«هكذا تكلم إينياس والدموع تنهمر من عينيه، فترك الأسطول يبحر»[3].

30. يكفيه أن يوازن بين ميوله ويلجمها، فليس في مُكنته أن يقف حاجزًا أمامها. وبلوتارخوس نفسه، الرجل الكامل والحكَم البارز على أعمالنا الإنسانية، حين رأى بروتوس*[4] وتوركواتوس*[5] ينكّلان بأبنائهما، أصابه الشكّ إن كانت الفضيلة يمكن أن تبلغ ذلك المبلغ القصيّ؛ أم

(1) Lucrèce (47), III, v, 155.
(2) Térence [109] I, 1.
(3)Virgile (112), VI, 1.
(4) * ماركوس يونيوس بروتوس هو سيناتور وسياسي روماني، اشتهر باشتراكه في مؤامرة اغتيال يوليوس قيصر.
(5) * تيتوس مانليوس توركواتوس قنصل وسياسي وقائد عسكري روماني.

أن تلك الشخصيات قد حركها وازعٌ آخر. كل الأعمال التي تخرج عن المعتاد، تخضع لتأوُّل سلبي، باعتبار أن ذوقنا لم يعد يتأقلم مع ما هو فوقه، مقارنةً مع تأقلمه مع ما هو تحته.

31. لنتركْ جانبًا المدرسة الفلسفية[1] التي تجعل من الفخر مبدأً علنيًّا من مبادئها. لكن حين نسمع هذا التفاخر من ميترودوروس[2]وهو من مدرسة تُعتبر أكثر لطفًا: «أيها القدَر، لقد استبقتك وهَأنذا أمسك بك؛ لقد أغلقت كل المنافذ التي منها يمكن أن تصل إليّ».

32. حين وُضع أناكسارخوس*[3] بأمر من نيكوكْريون الطاغية، حاكم قبرص، في حوض من الحجر، وصُرع بضربات من مطارق الحديد الكبرى، لم يكفَّ عن الصراخ والتّرْديد: «اضربوا. توقفوا. ليس هذا أناكسارخوس. إنكم لا تسحقون غير غلافه البدَني»[4].حين نسمع شهداءنا يصرخون في وجه الطاغية وسط ألسنة النيران: «إن جسمنا قد انشوى من هذا الجانب. قطّعه وكلْه. وافعل الشيء نفسه مع الجانب الآخر»[5]. حين نسمع كما يروي ذلك يوسف بن متتياهو*([6])، ذلك الصبي وقد مزقته الملاقط واخترقته سهام أنطيوخوس، ولا يزال يتحدى هذا الأخير، وهو يصرخ بصوت حازم وواثق من نفسه: «أيّها الطاغية، إنك تضيع وقتك؛ فأنا لا زلت أحس بنفسي في أحسن حال. أيْنهُ ذلك الألم؟ أيْنه العذاب الذي كنت تهدّدُني به؟ ألا تعرف سوى هذا فقط؟ ألا تعرف أن ثباتي يخلق لك من الألم أكثر من قساوتك؟ أيها الجبان النذل، أنت تعترف بهزيمتك، وأنا أغدو بالمقابل أكثر فأكثر قوةً. حاولْ أن تنتزع مني الشكوى، وتجعلني أنهزم وأستسلم، إن كنت على ذلك قادرًا. انفُثِ الشجاعة لجلّاديك وتابعيك، فلقد بدأ جأشهم

(1) يبدو أن الأمر يتعلق بالمدرسة الرواقية، وبعدها بالمدرسة الإبيقورية.

(2) لا يتفق الشراح على هوية هذه الشخصية. فبعضهم يعتقد أنه ميترودوروس اللامباكوسي الإبيقوري، ويرى آخرون أنه كان تابعًا لأناكساغوراس، فيما يرى آخرون أنه عاش بأثينا حوالي 330 ق. م، وكان تلميذًا لإبيقوروس وصديقًا له.

(3) * أناكسارخوس (380 ق.م تقريبًا – 320 ق.م تقريبًا) هو فيلسوف إغريقي من أتباع مدرسة ديموقريطوس.

(4) Diogène Laërce[45], IX, 39.

(5) Saint Laurent, **Prudence, Des Couronnes**, HymneII.

(6) * يوسف بن متتياهو الشهير باسم يوسيفوس فلافيوس. سبق التعريف به.

يفلت منهم، وبلغ منهم الوهن مبلغه. اشحذْ عزيمتهم ونشِّط هِمَّتهم»[1].

33. صحيح، يمكننا أن نفترض أن تلك النفوس، مهما كانت قداستها، تحوي بعض الجنون وبعض الخلل. فحين نصل إلى مقولات رواقية من قبيل هذه: «أفضِّل أن أكون أحمق على أن أكون شهوانيًا»، كما جاءت على لسان أنتيستينيس*[2]؛ أو حين يصرّح سكستيوس أنه يفضّل أن يخترقه حديد الألم على أن تحرقه نار الشهوة؛ وحين يستسلم إبيقوروس لمرض النقْرس ويرفض الراحة والعافية، فهو يتحداه ببهجة الآلام التي ألمّت به، محتقرًا الآلام الأقلّ عُتيًّا، مُعْرضًا عن مصارعتها ومنازلتها، متوقِّعًا منها الآلام الأكثر ضراوة، تلك التي يستحقها.

«تاركًا قطيعه التائه، حتى يأتيه خنزير
مزْبدًا، أو من الجبل ينزل إليه ليث متوحش»[3].

34. مَن منّا لا يرى أن ذلك عبارة عن خفقان قلب، بعيد عن موطنه الطبيعي؟ فأرواحنا لا يمكنها أن تبلغ الأعالي من غير أن تترك مكانها؛ عليها أن تهجره وتتعالى، وبغضب مفاجئ تأخذ الإنسان وتحمله بعيدًا جدًّا، بحيث إنه يصاب بالدهشة لما حصل منه.

35. هكذا، ففي الشؤون العليا للحرب، يدفع هياج المعركة الجنود البواسل غالبًا إلى المغامرة بأنفسهم، في أماكن من الخطورة بحيث ما إن يعود إليهم وعيهم، حتى يحسوا في أنفسهم بالرعب ممّا أقدموا عليه. والشعراء أيضًا يكِنُّون الإعجاب الكبير لأعمالهم، بحيث إنهم لا يستطيعون استعادة المسير الذي قادهم هناك. وهو ما نسميه لديهم بـ«الحماسة» و«الجنون».

(1)In Flavius Josèphe, **Histoire des Macchabées**, VIII.

(2) * أنتيستينيس (446 ق.م تقريبًا – 366 ق.م تقريبًا) هو فيلسوف إغريقي من تلاميذ سقراط.

(3)Virgile (112), IV, v. 158.

.36 إذا كان الإنسان العادي، كما يقول أفلاطون[1]،يدق باب الشعر بلا جدوى، فكذلك لدى أرسطو[2] لا تخلو نفس بشرية من ذرة جنون. وهو كان على حق أن يسمي «جنونًا» كل انطلاق يُجاوز حكمنا الخاص وتعقُّلنا، مهما كان جديرًا بالثناء؛ ذلك أن الحكمة هي العمل المنتظم بشكل محْكم لأنفسنا، الذي تقوم به باعتدال وتلتزم به. يزعم أفلاطون إذًا أن ملكة التكهُّن لا قِبل لنا ببلوغها، وأن علينا أن نُجاوز أنفسنا كي نبلغها. وعلى حكمتنا أن تكون معطّلةً بالنوم، أو بأحد الأمراض، أو أن تكون عرضة لغفوة سماوية.

(1)Platon (75), **Ion** ; Sénèque (28), **De la tranquilité de l'âme**, VII, p. 691.

(2) يستقي مونتيني هذا الأمر أيضًا من سينيكا في المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث

عادة من عوائد جزيرة «كيا»*[1]

(1) * إحدى الجزر اليونانية التي تقع في بحر إيجه.

1. إذا كان التفلسف يعني الشك، كما يقول البعض، فإن قول أشياء تافهة تبعًا للمزاج والخيال، كما أفعل أنا، أمر يعني بالتأكيد الشك أكثر؛ ذلك أن المساءلة والمناقشة شأن المبتدئين، وعلى المعلم حلّ المعضلات. ومعلّمي أنا هو سلطة المشيئة الإلهية التي تسيّرنا بلا منازع، والتي توجد فيما فوق هذه المناقشات البشرية التي لا جدوى منها.

2. حين دخل فيليبوس بجيوشه إلى منطقة بيلوبونيسوس، قال أحدهم لملك إسبرطة يوداميداس: إن الإسبّرطيين سوف يتعذبون كثيرًا، إذا هم لم يستسلموا له. فأجابه يوداميداس: «يا لك من جبان، من أين سيأتي العذاب لمن لا يهابون الموت؟». وهو ما يشبه السؤال الذي كان يُطرح على آجيس أحد ملوك إسبرطة: «ما الذي على المرء عمله كي يعيش حرًّا؟ فيجيب: «عليه أن يزدري الموت».

3. إن هذه الكلمات والمئات غيرها من الشاكلة نفسها، التي نصادفها بهذا الصّدد، تعني طبعًا أنْ ليس علينا أن نكتفي بأن ننتظر بصبر، أن يأتي الموت ليأخذنا، ففي الحياة أشياء يصعب تحمّلها أكثر من الموت نفسه. تشهد على ذلك قصة ذلك الطفل الإسبرطي، الذي أسره أنتيغونوس وباعه كعبد. حين أراد سيده أن يجبره على القيام بأفعال مُشينة قال له: «سترى مَن اشتريت. سأخجل من الخدمة كعبد، والحرية في متناولي». وما إن قال ذلك حتى رمى بنفسه من أعلى البيت.

4. بما أن أنتيباتروس كان يهدّد بفظاظة الإسبرطيين كي يجبرهم على قَبول ما يريد، قالوا له: «إذا كنت تهدّدنا بشيء آخر غير الموت، فالموت أهْون علينا من ذلك». وقد أجابوا فيليبوس المقدوني الذي كتب لهم بأنه سيعارض أشد المعارضة مشروعاتهم: «ماذا؟ هل ستستطيع أن تمنعنا من الموت أيضًا؟»[1]. ولذلك يُقال إن الحكيم يعيش طويلاً، ما وجب عليه ذلك، لا ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. فأفضل هدية قدمتها لنا الطبيعة، والتي تمنعنا من الشكوى من شرطنا البشري مهما كان

(1) Cicéron [21] V, 14.

السبب، أنها قد تركت لنا مفتاح الأمور: فقد وضعت مفتاحًا واحدًا مدخلًا للحياة، ومئة ألف مخرجًا منها.

5. «قد تنقصنا الأراضي لنحيا فيها، غير أنها لن تنقصنا كي نموت فيها»، ذلك كان جواب بويوكالوس*[1] للرومان. لماذا تشكو من هذا العالم؟إنه لا يمنعك من الرحيل. إذا كنت تعيش في الهم والغم، فالجبن هو السبب في ذلك. ولكي يموت المرء لا يحتاج سوى للرغبة في ذلك.

«الموت في كل مكان، فالله حرص على أن يكون الأمر كذلك
يمكن للمرء أن يسلب الحياة من أخيه الإنسان
غير أنه لا يمكن أن يسلبه الموت
فكل الطرق تؤدي إليه»[2].

6. الموت ليس فقط دواء لمرض واحد، فهو الدواء لكل داء. إنه مرفأ آمن، ليس علينا أن نهابه، وإنما أن نسعى إليه دومًا. أن يُميت المرء نفسه أو أن يتعرَّض للموت، أن يتحداه أو أن ينتظره؛ الأمر سيان، فالموت من حيثما أتى يكون موتًا. أينما أصاب الموت خيط الحياة، يُصاب الحبل كاملًا، فذلك منتهى البكَرة*[3]. أما الموت الأجمل فهو ذلك الذي نختاره. فإذا كانت الحياة رهينة بإرادة الآخرين، فالموت لا يرتهن إلا بإرادتنا. وليس ثمة شيء يلزمنا أن نستوعبه في مزاجنا أكثر من الموت. ولا علاقة للسُّمعة بأمر من قبيل هذا، ومن الرعونة الاهتمام بها.

7. أنْ يعيش الإنسان يعني أن يكون عبدًا، إذا لم تتوفر له حرية أن يموت. وتقنيات العلاج المعتادة تفعل فعلها على حساب الحياة. فالمعالج يقوم بحزّ العليل وكيّه وبتْر عضو من أعضائه، ويخرج منه الأطعمة والدم؛ ووقتًا بعد ذلك ها نحن قد شُفينا. لماذا يكون عرق المريء أقلّ طواعيةً من عرق الساعد؟ فكلما كان المرض أخطر كلما كان الدواء أعتى. حين

(1) * الاسم محرّف في الأصل الفرنسي، وبويوكالوس هو زعيم قبيلة الأنسيباريين الجرمانية، ورغم ولائه للرومان، فقد خاض حربًا ضدهم سنة 59م.

(2) Sénèque [93] I, 151-153.

(3) * إشارة إلى ربات الأقدار اليونانية كلوثو وأختاها لاخيسيس وأتروبوس. كلوثو تغزل خيط الحياة، ولاخيسيس تحدد طوله، وأتروبوس تقطعه عند لحظة الوفاة.

أصيب سيرفيوس النحوي بداء النِّقْرِس لم يجد من حلّ ناجع سوى أن يطلي رجليه بالسمّ ليقتلهما: كيْ تغدوا جامدتيْن إذًا، فقط ألا تكونا حساستين للألم. الربّ يبيح لنا أن ننصرف من الحياة، حين يجعلنا في حال من الوهَن، بحيث تغدو الحياة أشقّ علينا من الموت.

8. وإنّ لمن باب الضعف أن يستسلم المرء للآلام التي تلمّ به، لكن من الرعونة تغذية تلك الآلام.

9. يقول الرواقيون: إن الحكيم حين يختار التخلّي عن الحياة، حتى وهو في أقصى سعادته، فتلك طريقة للعيش متوافقة مع الطبيعة، حين يقوم بذلك في الوقت المناسب؛ أما الأبله فهو يختار البقاء على قيد الحياة حتى لو كان تعيسًا. فما يهمّ هو مطابقة المرء لحياته في مجملها مع الطبيعة.

10. أنا لا أخرق القوانين المشرَّعة ضد السارقين، حين آخذ ما أملك، أو أنفح نفسي النقود من مالي الخاص، كما لا أخرق تلك المشرَّعة ضدّ شاعلي النار، حين أحرق غابتي الخاصة؛ فأنا لا أخضع إذًا للقوانين ضد القتلة، إذا أنا قتلت نفسي بنفسي.

11. كان هجيسياس يقول: إن طريقة الموت كما طريقة الحياة، يلزم أن تخضع لاختيارنا. وحين التقى الفيلسوف سبيوسيبّوس الفيلسوف ديوجينيس، وكان يعاني من داء الاستسقاء من زمن، بحيث لا يتحرّك إلا على مِحْمَل، صرخ فيه: «السلام عليك يا دويجينيس». فردّ عليه ديوجينيس: «لا سلام عليك أنت، الذي يتحمل العيش في حال كهذا». ولم يمرّ وقت طويل، حتى قتَل سبيوسيبّوس نفسه، بعد أن كلّ وملّ من حياته البائسة.

12. بيْد أن ذلك لا يخلو من معارضة. فالبعض يزعمون أننا ليس علينا التخلي عن مكاننا في الحياة، من غير أن يأمرنا بذلك من وهب لنا تلك الحياة، وأن الله هو من أرسلنا للعيش في هذه الدنيا لا لأجل أنفسنا، وإنما

خدمةً لعظمته ولكي نخدم الآخرين، بحيث لا يمكننا أن نغادر الحياة إلا حسب مشيئته، وليس لنا أن نقرّر في ذلك بأنفسنا. وزعموا أيضًا أننا لم نولد لأنفسنا فقط وإنما لبلادنا: فالقوانين والشرائع يمكن أن تحاسبنا لمصلحتها الخاصة، ويمكنها أن تنطبق علينا حتى تقضي علينا عند الحاجة. وإذا ما تصرّفنا بشكل مغاير، فسيطالنا العقاب في هذه الدنيا كما في الآخرة:

«قريبًا منا يوجد من قتلوا أنفسهم بأنفسهم
مليئين بالأسى؛ ولأنهم يمقتون النور
رموْا بأرواحهم إلى جهنم»[1].

13. يلزمنا من ثبات العزم الكثير، كي نفُلَّ السلسلة التي تكبّلنا أكثر مما يتطلبه منا كسرها، والأكثر من صرامة النفس لدى ريغولوس*[2] منه لدى كاتو. إن غياب الحكم وخطؤه كما التسرّع هو ما يدفعنا للتهوّر. لا وجود لحدَث مؤسف يمكنه أن يجعل الفضيلة ترجع القهقرى، فهي تتغذى من المآسي والآلام؛ وتهديد الطواغيت والتعذيب والجلادون، أمور تشحذ همَّتها وتحيي عزيمتها:

«كما شجرة البلوط حين يشذبها السّاطور
على الجبل الخصيب، ذي الأوراق المعتمة
خساراته وجروحه، وحتى الحديد الذي يضربه
يمنحه قوة متجددة»[3].

14. وكما يقول آخر:

«لا يا أبي، الفضيلة ليست الخوف من الحياة
كما تعتقد. فهي مواجهة الآلام
وألا تدير وجهك للوراء أبدًا، وألا تتراجع البتّة»[4].
«من السّهل في الضرّاء كُرْه الموت

(1)Virgile (112), VI, 434.

(2) * ماركوس أتيليوس ريغولوس هو قائد عسكري روماني.

(3) Horace (37), IV, 57-60.

(4)Sénèque (93), I, 190-192.

إذ يلزم الإنسانَ رباطةُ جأش أكبر، كي يتحمل أحواله»[1].

15. إنه لمن الجبن، لا من باب الفضيلة، أن يرقد الإنسان في حفرة تحت شاهد قبرٍ هائل، كي يتفادى صولات القدَر. الفضيلة لا تغير من مجراها ولا من خطْوها، مهما كانت العواصف عاتيّة:

«إذا ما انهار العالم وتشظّى
ستقبل الفضيلة انهياره بلا خوف أو وجل»[2].

16. غالبًا حين نهرب من بعض عوادي الدهر، نجد أنفسنا مدفوعين لعواديَ أخرى، وأحيانًا حين نهرب من الموت نرمي بأنفسنا فيه:

«أليس من الجنون أن يموت المرء خوفًا من الموت؟»[3].

17. مثل أولئك الذين من شدة رُهابهم من الجرف، يلقون بأنفسهم فيه.

«الكثيرون من كثرة خوفهم من الضرّاء يخاطرون بأنفسهم
شهمٌ مَن أمام الخطر
يكون متأهبًا لمواجهته لو اقتضى الأمر
ويعرف مع ذلك كيف يتفاداه لو استطاع لذلك سبيلا»[4].

«وغالبًا ما يكون الإنسان الذي يهاب الموت
كارهًا للحياة وماقتًا لنور النهار
فيقتل نفسه في يأس كاسر، ناسيًا
أن مصدر المآسي هو الخوف من الموت»[5].

18. يحكم أفلاطون في شرائعه بالدفن غير اللائق، على من سوَّلت له نفسه قتل قريب أو صديق، أي قتل نفسه، وغيّر مسير قدَره من غير أن يكون ذلك تبعًا لحكم علني أو بسبب ضربة من ضربات القدَر لا مشيئة

(1)Martial 51), III, 3, 7-8.
(2)Horace (37), III, 7-8.
(3)Martial (51), II, 80, 2.
(4)Lucain (46), VII, 104-107.
(5) Lucrèce (47), 79-82.

له فيها، ولا لكي يمْسح عنه العار، وإنما بسبب جبْن نفسه الخائفة وضعفها. الرأي الذي يزْدري حياتنا رأي سخيف؛ فهذه الحياة في آخر المطاف هي وجودنا نفسه وكلّيتنا ذاتها. ومن لهم وجود شريف يمكنهم أن يسخروا من وجودنا، لكن ليس من باب الفطرة ازدراء المرء لنفسه وعدم إيلائها الأهمية اللازمة. إن مرض مقْت النفس وكرهِها ذاك مرض عُضال، ولا نصادفه لدى أي مخلوق إلا الإنسان.

19. وإنّ طيشًا من قَبيل هذا أيضًا، هو ذلك الذي يدفع بنا لأن نكون مختلفين عما نحن عليه. ونتيجةهذا السلوك لا مصلحة لنا فيها، لأنها تتناقض مع نفسها وتصارع ذاتها: فمن يرغب في المرورمن حال الإنسان إلى حال الملاك لا يستفيد منه في أي شيء، بل إنه في كل الأحوال ليس بأفضل من حاله البشري؛ ما دام ليس بين بني جنسه من سيفرح لهذا التغيُّر ويحسه غيره هو.

«لكي يعيش المرء الشرور والعذاب الآتي
عليه أن يكون حيًا حين يصيبه ذلك»[1].

20. الأمان وعدم الإحساس بالألم وهدوء الأعصاب، وانتزاع الآلام من هذه الحياة، وكل ما نأمله لدرْء الموت، كلها أمور لا فائدة لنا منها. فمن لا يستطيع التمتع بالأمان، لا جدوى له من تفادي الحرب، ولا جدوى لمن لا يتمتع بالراحة من تفادي الألم والعذاب.

21. ثمة بين المدافعين عن الانتحار نقاشٌ كبير عن هذه المسألة: «أي ظروف معقولة تجعل الإنسان يختار أن يقتل نفسه؟». ذلك ما يسمى «المخرج المعقول». فبالرغم من زعمنا أننا نموت لأسبابٍ تافهة، بما أن تلك التي تجعلنا نحيا ليست بمهمة، علينا مع ذلك أن نقدم رأيًا متوازنًا في هذه القضية. ثمة أحاسيس غريبة وغير عقلانية دفعت، لا فقط بعض الناس، وإنما أيضًا شعوبًا بكاملها إلى تحطيم نفسها. وقد قدمتُ آنفا أمثلة على ذلك[2]. ونحن نجد في الكتب أن عذارى جزيرة ميليتوس، كن

(1)Lucrèce (47), 874.

(2) الكتاب الأول، الفصل 14.

يشنقن أنفسهن الواحدة بعد الأخرى، بسبب الغضب الشديد العام، حتى وضعت المحكمة حدًا لذلك؛ مصدرةً أمرًا بأن كل بكر وُجدت مشنوقة سيتم جرْجرة جسدها عاريًا وبحبل الشنق عبر أزقة المدينة.

22. قام ثريكيون*[1] بالإفتاء على كليومينيس بأن يضع حدًا لحياته، بسبب سوء أحواله، في الوقت الذي كان قد تفادى ميْتةً أكثر شرفًا خلال المعركة التي تعرض فيها للهزيمة، والتي لم يستطع فيه الغالب أن يفرض عليه فيها موتًا، أو حياةً ملؤها العار. بيد أن كليومينيس أبان شجاعة، خليقة بالإسبرطيين والرواقيين، إذ رفض تلك النصيحة التي ستجعل منه جبانًا ومتأنثًا، وقال: «إنه مخرج لن يغيبَ عن بالي، غير أنَّي لن ألجأ إليه، ما دام هناك بصيص أملٍ. فأنْ يحيا المرءُ هو أحيانًا دليلٌ على ثباتِ الجأشِ وعلوِّ الهِمّةِ؛ وأنا أريد أنْ يكونَ موتي أيضًا في خدمة بلدي؛ أريد له أن يكون فعل شرف وشجاعة». لم يثق ثريكيون إلا في نفسه وانتحر. وسوف يقوم كليومينيس بالأمر نفسه لكن لاحقًا، بعد أن جرَّبَ الفرصةَ التي فضَلَتْ له. ليست كلُّ الشرورِ تسْتحقُ أن يرغَبَ المرءُ في الموتِ هربًا منها.

23. فضلًا عن ذلك، فإن الأمور الإنسانية خاضعةٌ للتغيّر، بحيث يصعب القول في أي وقت إنه لا فسحة للأمل:

> **«حتَّى حين يكون المحارب الروماني المهزوم ممدَّدًا في الحلبة**
> **يأمل في العيش، مع أن الجماهير الصاخبة**
> **تكون قد قلبت إبهامها للأرض»**[2].

24. يقول مثلٌ قديمٌ: «إن كل الآمال ممكنة ما دمنا على قيد الحياة». يردّ سينيكا على ذلك: «نعم، لكن لِمَ سأفكر بأن القدَر يمكنه أن يخص الإنسان الحي بكامل مبتغياته، فيما أنه لن يحرك ساكنًا لمن يعرف أن أجله آتٍ؟». فنحن نلاحظ مثلًا أن يوسف متتياهو، المحاط بخطرٍ محيق قريب ولا ريب فيه، لأن الشعب انتفض ضدّه، لم يكن أمامه

(1) * أحد أصدقاء الملك الإسبرطي كليومينيس.
(2) إشارة يعنى بها أن الجماهير ترغب في أن يقتله خصمه الغالب.

بحق أي حظ للإفلات من الموت؛ ومع ذلك حين نصحه أحد صَحْبه بالانتحار، رفض ذلك وأصر على الأمل في الحياة، ذلك أن القدَر، وخارج كل تقديرٍ بشريٍ، حرَّف وجهة هذا المصير المؤلم، بحيث إن يوسف أفلت من الموت من غير أن يصيبه ضرر. بالمقابل فإن كاسّيوس وبروتوس أجهزا على ما تبقى من الحرية الرومانية، التي كانا مع ذلك حامييْها، بتسرعهما وتهورهما في الانتحار، قبل أن يحين الأجل والظرف المواتي لذلك[1].

25. في معركة تشيريزولي*[2]، حين أحس كونت أنجان*[3] باليأس من مجريات المعركة، التي كانت كارثية في المكان الذي يوجد به، حاول لمرتين أن يذبح نفسه بسيفه، وكاد بتهوره وتسرّعه أن يحرم نفسه من انتصار باهر.

26. رأيت مئة أرنبٍ تنفلتْ من بيْن أنيابِ الكلابِ الصيّادةِ:

«فلان انفلت من بين يديِّ جلّاده»[4].

«الوقت والأيام المتقلبة في مجراها
عادةً ما تعيدُ للمرءِ مصائرَ تعرَّضتْ للخطرِ
وغالبًا ما يعودُ الحظُ في الحياةِ
لمن حطَّمَهم سابقًا، ليضعَهُم في مكانٍ أمينٍ»[5].

27. يقول بلينيوس: ليس هناك إلا ثلاثة أمراضٍ لنا الحق في تفاديها بالانتحار. وأقساها هو مرض «الحُصيّ» في المثانة حين يحبس نزول

---

(1) بعد مقتل يوليوس قيصر، لجأ بروتوس وكاشيوس وأتباعهما إلى روما، بعد أن جعل أنطونيوس الشعب ينتفض ضدهما. لكن كاشيوس في عام 42م تعرض للهزيمة بمقدونيا في جناحه الأيسر، على يد أنطونيوس وأوكتافيوس، فأقدم على قتل نفسه، غير عالم بأن بروتوس كان منتصرًا في الجناح الأيمن لجيشه. فاضطر بروتوس للتراجع في الغد بعد معركة جديدة، ورمى بنفسه على نصل سيفه.

(2) معركة وقعت سنة 1544 م انتصر فيها الجيش الفرنسي بقيادة فرنسوا دو بوربون كونت أنجان، على جيشي الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة إسبانيا.

(3) * السيد كونت أنجان هو فرنسوا دو بوربون كونت أُنجان وقائد الجيش الفرنسي في هذه المعركة.

(4) Sénèque (96), XIII.

(5) Virgile (112), XI, 425.

البول[1]. وسينيكا لا يذكر منها إلا تلك التي تقلْقل طويلاً ملكات العقل.

28. ثمة من يعتبر أن من الأفضل الموت على طريقته، على أن يتعرض لموتٍ شنيعٍ. حين اعتقل ديموقريطوس، قائد الأيتوليين*[2]، واقتيد أسيرًا إلى روما، وجد السبيل إلى الهرب من السجن ليلًا. لكنه حينَ لحق به الحراس، عمد إلى بقْرِ بطْنِه بسيْفِه.

29. حين رأى أنتينوس وثيودوتوس مدينتهما إبيروسو قد دمرها الرومان عن آخرها، اقترحا على شعبهما انتحارًا جماعيًا. لكنن لمّا كانت غلبة الرأي لمن أرادوا الاستسلام، فقد واجهوا الموت بمهاجمة العدو، وفي نيتهم الهجوم لا الدفاع عن أنفسهم.

30. بعد أن ضمَّ الأتراك جزيرة غوزّو[3] إلى إمبراطوريتهم، قام رجل صقليٌّ كانت له بنتان حسناوان بقتلهما بنفسه، ثم أجهز على أمّهما، التي هرعت نحوهما بعد أن وصلها خبر مقتلهما. وبعد أن قام بذلك خرج للشارع مسلحًا بقوس ونشاب وبندقية بارود، وقتل أول تركيّيْن تقدّما من باب بيته، ثم أخذ سيفه في يده وهاجم الأتراك الذين قطعوه إربًا إربًا. وهكذا أفلت من العبودية بعد أن حرّر أهله منها.

31. بعد أن تقوم النساء اليهوديات بختان أبنائهن، كن يرمين بأنفسهن معهم في الهاوية؛ كي يفلتوا من قساوة أنطيوخوس. وقد علمتُ أن رجلًا فاضلًا كان بالسجن، وبلغ الخبرُ أبويه بأنه سيُحكم عليه بالإعدام، ولتفادي هذا الموت المخزي؛ طلبا من قسٍّ أن يقولَ للرجل التعيس: إن أفضل سبيل لكي يحرّر نفسه، هي أن يتجه لولي صالح معين، وأن يقوم بهذا النذر وذاك، وأن يصوم تمامًا لثمانية أيام، مهما بلغ به الوهن. وهو ما قام به، وبذلك أفلت في الآن نفسه ومن غير وعي منه من الحياة، ومن المصير الذي كان يتهدّده.

---

(1) عانى مونتيني مدة طويلة من المغص الكلوي الذي كان يسمى حينئذٍ مرض الحصى.

(2) * نسبةً لأيتوليا وهي منطقة جبلية تقع في وسط اليونان. والاتحاد الأيتولي أو الرابطة الأيتولية كان تحالفًا مكونًا من عدة مدن وقبائل يونانية قديمة ضد مقدونيا وحلفائها من الآخيين.

(3) جزيرة صغيرة غرب مالطة.

32. نصحت سكريبونيا ابن أخيها ليبو بالانتحار، دون أن يسلّم نفسه للعدالة. قائلة*[1] له: إن الحفاظ على الحياة يعني تولي زمام الأمر من الآخرين، وتسليم النفس ووضعها بين يديْ أولئك الذين سيسلبون الحياة منه بعد ثلاثة أو أربعة أيام، وأنَّ الحفاظ على دمه،كي يمنحه لهم، كما يُمنح سَقْط الطريدة بعد ذبحها للكلاب، أمرٌ يُعدُّ خدمةً تُقدَّم للعدو.

33. جاء في الكتاب المقدّس أن نيكانور*[2]، مُضطهِد من اتّبعوا شرائع الله، أرسل تابعيه كي يأتوه بالعجوز الطيّب رازيس الذي كان ينُعت بـ «أبي اليهود» نظرًا لفضائله. وحين أدرك هذا الرجل الشهم أن لم يعد أمامه ما يفعل، وأن بابه قد تعرض للحرق، وأن الأعداء كانوا على وشك الإمساك به، اختار ببسالة أن يموت، على أن يقع بين أيدي الجند ويتعرض للإهانة، رغم علوّ مرتبته، فاستلّ سيفه وطعن به نفسه؛ لكنه في عجلته تلك لم يصب من نفسه مقْتلًا، فهرول إلى أعلى سور، فاتحًا طريقه بين الجنود، الذين أوسعوا له المجال كي يمرّ، ورمى بنفسه ورأسُه إلى الأسفل. لكنه حافظ مع ذلك بعد السقطة على بعض الأنفاس، فلمْلم قواه ونهض وهو مضرّج بالدماء والكدمات والجرّاح، وتلمّس سبيله بين الحشود حتى بلغ صخورًا شديدة الانحدار، وهناك بعد أن بلغ به الوهن مبلغه، أدخل يديه من جرح فاغر في بطنه، وأمسك بأحشائه بيده، واقتلعها ورمى بها متابعيه، داعيًا عليهم بغضب الله ولعنته، ومُشهِدًا إياه عليهم.

34. من بين أنواع العنف، أشدُّها وأخسُّها على الضمير هو -برأيي- ذلك الذي ينصبُّ على عفّة النساء المصونات، لأنه يمتزج فطريًا ببعض اللذة الجسمانية، ولذلك فإن المقاومة التي تبديها المرأة، لا يمكن أن تكون تامة، ومن ثم فهي تمتزج بالضرورة ببعض القَبول. ويحفل تاريخ الكنيسة بنماذج العديد من النساء القانتات، اللواتي طلبن من الموت

(1) * في الأصل استخدم ميشيل دو مونتيني ضمير للذكر رغم أن سكريبونيا المشار إليها هي زوجة الإمبراطور الروماني أغسطس. كما أنه يذكر نقيض ما دعت إليه سكريبونيا، التي حضّت ابن أخيها ليبو دروسوس على تسليم نفسه للعدالة دون الانتحار؛ لأنه بانتحاره يكون قد حقق مرام أعدائه، حسبما يذكر سينيكا في الرسالة 70.

(2) * نيكانور بن بتروكلُس (توفى 161 ق.م) هو القائد السلوقي المذكور في سفري المكابيين الأول والثاني، حيث قاد جيشًا لإخماد ثورة المكابيين، لكنه مُني بالهزيمة.

حمايتهن من التجاوزات، التي كان الطواغيت يتأهبون لممارستها على إيمانهن وعلى ضميرهن. لقد بلغت بيلاجيا*[1] وسوفرونيا*[2] بذلك القداسة: فسفرونيا قتلت نفسها غرقًا في النهر، بعد أن رمت فيه بنفسها هي وأمها وأخواتها؛ تفاديًا لأن يغتصبهن معها الجنْد. وبيلاجيا قتلت نفسها؛ تفاديًا لأن يغتصبها الإمبراطور مكسنتيوس*[3].

35. سيكون بالتأكيد شرفًا لنا في القرون المقبلة، أن يعرف الناس أن عالِمًا من زمننا، خاصةً أنه عالم باريسي، قد جهد في إقناع النساء في عصرنا، أن عليهن بالأحرى أن يخترن سبيلًا آخر غير الاستسلام لليأس، والانسياق وراء حلّ رهيب من قبيل قتل النفس. وأنا آسَفُ لأنه لم يكن على علم بهذه العبارة، التي بلغتني في مدينة تولوز، من امرأة سقطت بين أيدي بعض الجنود؛ حتى يضيفها لقَصصه وعِبره، فقد قالت: «حمدًا لله أني، ولمرة واحدة في حياتي، سكرت من نشوة الجماع، من غير أن يكون ذلك خطيئةً من الخطايا».

36. وفي الحقيقة، فإن هذه الأعمال الشنيعة ليست من شيَم الوداعة الفرنسية. والحمد لله أنها لم تعدْ تسمّم جوّنا منذ أن أُطلق هذا النذير الذي يستحق الثناء: «يكفي أن يقُلن: «لا» وهنّ يقمن بالجماع» حسب قاعدة العزيز كليمو مارو*[4].

37. يعجُّ التاريخ بنماذج أناس بدّلوا حياة الآلام بالموت. فقد انتحر لوكيوس أرّونتيوس*[5]؛ كي ينفلت، كما قال، من المستقبل كما من الماضي[6]. وقتل غرانيوس سيلفانوس وستاتيوس بروكسيموس نفسيْهما، بعد أن حصلا على العفو من نيرون؛ إما لأنهما لم يرغبا في أن يعيشا حياةً يدينان بها لعفو

(1) * هي القديسة بيلاجيا الأنطاكية أو بيلاجيا التائبة (توفت 301 م تقريبًا).

(2) * شهيدة مسيحية عاشت في القرن الرابع الميلادي، قتلت نفسها تحت وطأة اضطهاد المسيحيين إبان عهد الإمبراطور مكسنتيوس، وهي قديسة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

(3) * ماركوس أوريليوس فاليريوس مكسنتيوس (توفي 312 م) هو إمبراطور روماني حكم خلال الفترة من 306 م حتى 312 م.

(4) * كليمو مارو (1496 م – 1544 م) شاعر فرنسي من شعراء عصر النهضة.

(5) * لوكيوس أرّونتيوس (توفي 37 م) كان قنصلاً وعضوًا بمجلس الشيوخ الروماني.

(6) Tacite, **Annales**, VI, 48, 1-3.

ومغفرة رجلٍ كريهٍ جدًا، أو أنهما قاما بذلك؛ تفاديًا لأن يطلبا الغفران منه مرة أخرى، خاصةً وأن نيرو كان معروفًا بالشكّ، واتهام الناس الشرفاء.

38. أما سبارغابيسيس ابن الملكة تومريس، فحين وقع أسير حرب في يد كورش، استعمل في الانتحار أول معروف أسداه له بفك قيوده. وأول شيء كان ينتظر من حريته من القيد تلك، هو أن يتمكّن من الانتقام من نفسه لأنه تعرض للأسر.

39. حين تعرض بوجيز، حاكم منطقة إيونيا*[1] تحت إمرة الملك خشايارشا، لحصار الجيوش الأثينية التي كان يقودها كيمون، رفض الصفقة التي اقتُرحت عليه بأن يعود لآسيا بأمان مع كافة ممتلكاته؛ لأنه لم يتحمّل البقاء حيًّا بعد أن فقد ما ائتمنه عليه سيده. وبعد أن دافع باستماتة عن مدينته حتى آخر رمق، ولم يبق لهم ما يقتاتون منه بها، قام في الأول برمي كل الذهب في النهر، وكافة ما يمكن أن يُعتبر غنيمة للعدوّ، ثم إنه أمر بإضرام نار هائلة وأمر بذبح النساء والأطفال والجواري والخدم والحشم، ورمى بهم للنار ثم ألقى بنفسه فيها.

40. بعد أن أحس نيناشوتوان، وهو من أعيان بلاد الهند، أن نائب بلاد البرتغال يفكر، من غير سبب وجيه، في تجريده من المهمة التي يقوم بها على شبه جزيرة ملقا*[2]، ليمنحها للملك قمبر*[3]، قرر سرًا ما يلي: فلقد قام بنصب منصة طولها مثل عرضها، وضعها على أعمدة، زينها بفخامة ملكية، ووضع فيها أجمل أنواع الزهور والورد وضمخها بالعطور؛ ثم إنه خرج للشارع مرتديًا عباءة مرصعة بالذهب، وبالعديد من الأحجار الكريمة النفيسة، وطلع الأدراج المؤدية للمنصة التي أُشعلت نار في جانب منها.

41. حجّت الحشود لتعرف لأي غاية أقيمت هذه الاستعدادات، غير المعتادة

(1) * أو إيونية وهي منطقة كانت جزءًا من بلاد الإغريق القديمة وهي تقع على الساحل الغربي لآسيا الصغرى على البحر المتوسط (تركيا الآن).

(2) * شبه جزيرة ملايو حاليًا (الإقليم الغربي من الاتحاد الماليزي).

(3) * قمبر أو قمبر علي خان هي مدينة ضمن إقليم السند في باكستان حاليًا.

على قدمٍ وساق. قام الحاكم نيناشوتوان حينئذٍ، بملامح حانقة وحازمة، بعرض الواجب الذي يجب أن تلتزم به تجاهه الأمة البرتغالية. فلمّا كان قد وفى بمهمته إزاءها؛ ولما كان قد أبان للآخرين، وسيفه في يده، أن الشرف أعزّ إلى قلبه من الحياة، فهو رجل لم يكن ليتخلى عن شرفه لغرض مصالحه الشخصية، ولما كان القَدَر قد حرمه من أي سبيل لدرْء الإهانة التي ستوجّه له، فإن بسالته تحتّم عليه إيقاف المعاناة التي تنجم عن ذلك، وكيْلا يغدو حكايةً تلوكها ألسن الشعب، ولا انتصارًا لأناس قيمتهم أدنى من قيمته. وما إن انتهى من كلامه حتى رمى نفسه في النار المتَّقدة.

42. قامت سكستيا، زوجة سكاوروس*[1]، وباكسيا، زوجة لابيو*[2]، لتمكين زوجيْهما من الفرار من المخاطر المحيقة بهما، والتي لا تعنيهما إلا من جانب العاطفة الزوجية، بالتضحية بحياتهما لمساعدتهما والبقاء بصحبتهما، جاعلتيْن من نفسيهما مثالًا لهما في هذا الموقف العصيب[3]. وما قامتا به من أجل زوجيهما، قام به كوكّيوس نيرفا*[4] من أجل وطنه، بنجاحٍ أقل، لكن بالقدر نفسه من الحبّ. فرجل القانون هذا الذي كان يتمتع بصحة جيدة، وكان غنيًا ومشهورًا وأحد الأفراد المهمين في حاشية الإمبراطور، كان يحسّ بالأسى من الحالة المتردّية، التي وصلت إليها الشؤون العامة الرومانية بحيث إنه قتل نفسه لهذا السبب وحده[5].

43. أما الرّقة التي اتّسم بها موت زوجة فولفيوس، الذي كان على معرفة بالإمبراطور أغسطس فإنها فريدة متفرّدة[6].فقد اكتشف أغسطس أن فولفيوس قد سرّب سرًا مهمًا كان قد أسرّ له به. وحين جاء فولفيوس لمقابلته، صبّ عليه جام غضبه. عاد فولفيوس لبيته وقد استبدّ به

(1) * ماميركوس إيميليوس سكاوروس (توفي 34 م) هو خطيب وشاعر وعضو بمجلس الشيوخ الروماني، اتّهم بالخيانة في عهد الإمبراطور تيبريوس، وقبيل محاكمته، نصحته زوجته سكستليا بالانتحار، ثم انتحرت بعده.

(2) * هو بومبونيوس لابيو (توفي 34 م) حاكم منطقة مويسيا في عهد الإمبراطور تيبريوس، الذي اتهمه بإساءة الحكم، فعمد إلى الانتحار هو وزوجته.

(3) Tacite, Annales, VI, 29.

(4) * ماركوس كوكّيوس نيرفا (5 ق.م – 33 م) هو أحد أفراد حاشية الإمبراطور الروماني تيبريوس، وجدّ سميّه الإمبراطور الروماني ماركوس كوكّيوس نيرفا (30 م تقريبًا – 98 م).

(5) Tacite [100], VI, 29.

(6) Plutarque (78), IX, **Du trop parler**.

اليأس، وحكى لزوجته بأسًى بأن البلاء الذي ألمّ بهمن الهول بحيث قرَّ قراره على الانتحار. «إن لمن العدل أن تقوم بذلك لأنك لم تحتط من ثرثرتي، التي أحسستَ دومًا بطابعها الطائش. لكن اتركني ألقى حتفي أنا الأولى». ومن غير أن تتردّد أكثر أدخلت سيفًا في أحشائها.

44. يئس فيبيوس فيريوس*[1] من إنقاذ مدينته كابوا التي حاصرها الرومان، وقنط من استدْرار رحمتهم بالرغم من محاولات عديدة قام بها في هذا الاتجاه. وخلال المداولات الأخيرة لمجلس شيوخ المدينة، وصل في النهاية إلى نتيجة مفادها أن الأفضل أن يصلوا بأنفسهم إلى الإفلات من مصيرهم المحتوم. وبذلك سيحظون بتقدير العدو الروماني، وسيدرك حنبعل أنه تخلى عن أصدقاءَ يتحلُّون بكامل الوفاء. وهكذا دعا من يتفقون معه إلى مأدبة عشاء أعدّها لهم ببيته، وأكلوا ما لذّ وطاب مما قُدّم لهم، وشربوا من الخمور ما سيحرّر أجسادهم من العذاب، ونفوسهم من الشتائم، وعيونهم وآذانهم من كافة الآلام العصيبة التي يكيلها الغالبون البالغو القسوة والفظاظة. فقال لهم: «لقد أخذت التدابير اللازمة، كي أجد أناسًا مستعدين للرمي بنا إلى المحرقة حيث سنهلك».

45. كان هناك العديدون الذين اتفقوا معه على ذلك القرار. غير أن القليلين من بينهم، من حذوا حذوه. تبعه في ذلك سبعة وعشرون شيخًا، وبعد أن حاولوا بالسُكْر نسيان الفكرة الرهيبة لما سيحلّ بهم، أنهوا المأدبة بتناول الطَّبق المسموم القاتل. ثم إنهم قبّلوا بعضهم بعضًا، بعد أن تأسّوْا للمصير التعيس لبلدهم. انصرف بعضهم إلى بيوتهم، فيما مكثَ الباقون مع فيبيوس، كي يُرمى بهم في النار معه. عاشوا كلهم احتضارًا بطيئًا جدًا؛ لأن الخمر ملأ شرايينهم وأخّر مفعول السمّ، بحيث كاد بعضهم لساعة فقط أن يشهد دخول العدوّ لمدينة كابوا، التي تمّ الاستيلاء عليها في الغد، ويقع من ثمَّ ضحية الويْلات التي دفعوا الثمن غاليًا للإفلات منها.

46. التقى تاوريا يوبيلّيوس، وهو مواطن آخر من المدينة، القنصل

(1) * أحد أعضاء مجلس شيوخ مدينة كابوا.

فولفيوس عائدًا من المجزرة المشينة، التي نكّل فيها بمئتين وخمسين من أعضاء مجلس شيوخ المدينة، فناداه بكبرياء باسمه وقال له: «مُرْ أن يُنكّل بي أنا أيضًا بعد الآخرين العديدين، كي تتبجّح أنك قتلت رجلًا ذا بأسٍ أكثر من بأسك». ولما كان فولفيوس يزدريه معتبرًا إياه أحمق، وكما أنه تلقى أيضًا أخبارًا من روما، تندّد بالطابع الوحشي لما قام به في حق أعيان المدينة، جعلته يحجم عن أي فعل، فقد تابع يوبيلّيوس قوله: «ما دام بلدي تعرض للاحتلال، وأصدقائي هلكوا، وبيدي قتلت زوجتي وأبنائي؛ كي أكفيهم شرّ هذه الكارثة، ومن المستحيل عليّ الموت بالطريقة نفسها التي هلك بها أبناء مدينتي، سأطلب من الفضيلة أن تخلصني من هذه الحياة التعيسة». ثم إنه استلّ سيفًا كان قد خبأه، وغرسه في صدره وخرّ صريعًا عند قدميْ القنصل.

47. بينما كان الإسكندر الأكبر يحاصر إحدى مدن الهند[1]، قام الناس الذين وجدوا أنفسهم محاصَرين فيها، بأخذ قرار شجاع، يتمثل في أن يحرموه من لذّة ذلك الانتصار. وبالرغم من الطابع الإنساني الذي عُرف عن الإسكندر، فضّلوا أن يحرقوا أنفسهم جماعةً في الآن نفسه وفي مدينتهم. تلكم حقًا حربًا من نوع جديد: كان العدو يحارب لكي ينقذهم، وهم يحاربون ليفقدوا أنفسهم، ويعملون لضمان موتهم كل ما يعمله الإنسان عادةً لضمان حياته.

48. قام سكان المدينة إذًا بتجميع خيراتهم وأثاثهم في ساحتها، ووضعوا عليها النساء والأطفال، وأحاطوا كل ذلك الركام بالخشب وبالمواد القابلة للاشتعال، وتركوا قرب ذلك خمسين شابًا لتنفيذ ما قرروا. ثم سلكوا من مخرجمن المدينة، بحيث إنهم إذا لم يستطيعوا الانتصار سيلقون حتفهم جميعًا. أما الخمسون رجلًا الذين بقوا في المدينة، فبعد أن نكّلوا بكل نفسٍ حية وجدوها بالمدينة، وأوقدوا النار في المحرقة، رموا بأنفسهم فيها مفضّلين وضع حدّ لحريتهم النبيلة، معطّلين كل إحساسٍ في نفوسهم، على أن يتحملوا عذاب الخزي والعار. وهكذا أبانوا للعدوّ أن القدَر لو شاء لكانت لهم الشجاعة أيضًا لهزمه مقدار حرمانهم من النصر، وذلك بجعله نصرًا بشعًا بل مريرًا وقاتلًا، كما كان الأمر

(1) Quinte-Curce (83), IX, 4.

مع أولئك الذين جذب أنظارهم، لمعان الذهب السائل في لجّة اللهب، فاقتربوا من المحرقة كثيرًا، وماتوا حرْقًا أو اختناقًا. ذلك أن الناس هرعت إليها أفواجًا وتزاحمت، بحيث صار من المستحيل النجاة من لهيبها.

49. بعد أن حاصر فيليبوس المقدوني سكان مدينة أبيدوس*[1] حصارًا كبيرًا، قرّر هؤلاء القيام بالمثل. لكنهم لما كانوا يفتقرون للوقت الكافي لذلك، فإن الملك لم يرتأ القيام بذلك القتل الجماعي بشكل متسرّع. وبعد أن حجز المدّخرات والأثاث التي وضعوها في أماكن متنوعة؛ لإشعال النار فيها أو تحطيمها، أمر جنده بالانسحاب، وأعطاهم ثلاثة أيام؛ كي ينتحروا بانتظام، كلٌّ حسب هواه. كانت ثلاثة أيام دموية مطبوعة بالقتل والتنكيل بالنفس، تُجاوز بكثير الفظاعات التي يمكن أن نتصورها صادرةً من العدوّ. ولا أحد أفلت من مصيره، إلا إذا كان هناك عائقٌ ماديٌّ منعه من الانتحار. ثمة العديد من الأمثلة عن قراراتٍ من شبيهِ تلك، أخذها الشعب واتسمت فظاعتها بالمبالغة بحيث كان أثرها عالميًا. إنها مع ذلك قرارات لا تبلغ لفظاعة القرارات الفردية، فالعقل حين لا يستطيع فعل فعله في الفرد يقوم به في الجماعة، لأن الحماسة الجماعية تعطّل الحكم الفرداني.

50. في زمن تيبيريوس، كان المحكوم عليهم بالإعدام، وهم ينتظرون تنفيذ الحكم فيهم، يفقدون ممتلكاتهم ويجدون أنفسهم محرومين من الكفن. لكن من يستبقون الأمر بالانتحار، كانوا يحظون بالدفن والكفن، بل يمكنهم تحرير وصيتهم.

51. لكن قد يحدث أيضًا أن يرغب المرء في الموت؛ طمعًا في خيرٍ عميمٍ. فقد قال القديس بطرس[2]: «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح». وقال أيضًا[3]: «مَن ينقذني من جسد هذا الموت؟». حين قرأ كليومبروتوس أمبراسيوتا محاورة «فيدون» لأفلاطون، صار بالغ الافتتان بالحياة الآخرة، بحيث إنه من غير سببٍ آخر هرع لرمي نفسه بالبحر. ونحن

(1) * أبيدوس الدرندنهل: مدينة إغريقية قديمة تقع أطلالها في محافظة جناق قلعة بتركيا حاليًا.

(2) In. *Épître aux Philippiens,* (I, 23).

(3)**Aux Romains,** VII, 24.

نرى هنا أن من غير اللائق أن نسمي «يأسًا» ذلك التدمير الإرادي الذي يقودنا إليه الأمل في الغالب، وفي الغالب أيضًا العزم الهادئ الذي يقوم على ملَكة الحكم. حين رأى جاك دو شاستيل، أسقف سواسّون، في إحدى الرحْلات التي قام بها فيما وراء البحار، بأن الملك كان يعتزم العودة لفرنسا محفوفًا بجيشه كاملًا، من غير أن يحلّ المسائل الدينية فعلًا، فضّل الرحيل إلى الجنّة. وبعد أن ودّع صحْبه، هاجم وحده جيش العدو، على مرأى ومسمع من الكل، فقطع العدو جسده إربًا إربًا.

52. في إحدى ممالك الأراضي المستكشفة حديثًا[1]، وخلال مراسيم طواف مقدّس، حين يتم التجوال بالصنم المعبود من الشعب في الشوارع على عربةٍ هائلة تجرّها الخيول، نرى أشخاصًا يقطعون مِزَقًا من لحمهم يمنحونها له، بل البعض منهم يسجدون وسط الساحة وينصاعون للسحق تحت العجلات؛ كي يكتسبوا بعد مماتهم التبجيل الذي تستحقه قداستهم.

53. في حال هذا الأسقف، [الذي يتحدث عن هتاسيتوس[2]] الذي لاقى حتفه وسيفه في يده، يكون الشرف سابقًا على الأحاسيس، لأن حدَّة المعركة كانت قد استولت جزئيًا على نفسه.

54. بعض الدول أرادت إصدار قوانين ومراسيم؛ لتقرير إن كان القتل في حال من يقتل نفسه إراديًا أم أمرًا مبرَّرًا. وفي مرسيليا، كان يتم في القديم حفظ السمّ المأخوذ من نبتة الشوكران السّامة على نفقة المدينة، ويخصص لمن يرغبون في تسريع أجلهم. وكان عليهم أولًا الحصول على مصادقة الشيوخ الستمئة، أي مجلس شيوخهم، إذ لم يكن من المباح المسّ بالنفس إلا بموافقة قاضٍ، ولأسباب تعتبر مشروعة.

55. كان ذلك القانون يوجد في أماكن أخرى. حين كان سكستوس بومبيوس يقصد آسيا مرّ بجزيرة كيا التابعة لنجروبون. وبينما هو مقيمٌ بها، حدث

(1) لا يتعلق الأمر فقط بأمريكا، وإنما أيضًا بالهند كما هي الحال هنا.

(2) Tacite [100] VI, xxix, 1-2.

بالصدفة -كما أخبرنا بذلك أحد أناس الجزيرة- أن امرأة من الأعيان، بعد أن أخبرت مواطنيها بالأسباب التي دفعتها للرغبة في الموت، ابتهلت لبومبيوس بأن يشرفها بحضوره احتضارها، كي يجعل منه موتًا أشرف. وهو ما قام به. وبعد أن استعمل لمدة طويلة الفصاحة، التي كان يبرع فيها؛ كي يثنيها عن صنيعها، قَبِل في الأخير أن تفعل ما ترتئيه خيرًا لها. كانت المرأة قد جاوزت التسعين عامًا، وهي في حال جسماني ومعنوي مغمور بالبهجة والسعادة. لكن في ذلك اليوم وهي مُمدّدة على سريرها، ومرتدية أجمل ما لديها، ومتحلية بأنْفس ما تملك، على غير عادتها، قالت وهي متكئة على كوعها: «يا بومبيوس، لتباركْك الآلهة، لا تلك التي أتركها وإنما تلك التي سألاقيها، لأنك لم تبخل عليَّ بنصحك لي بالحياة، ولأنك قبلت أن تكون شاهدًا على موتي. أما فيما يخصني، فما دام القدَر قد أبانَ لي عن وجهه الطيب، وخوفًا من أن تكشف لي الرغبة في البقاء أكثر على قيد الحياة عن وجهها الآخر، فإني سأرحل بنهاية سعيدة، كي أحرّر بقايا نفسي، تاركةً من صلبي بنتين وحشدًا من الأحفاد».

56. وبعد ذلك، قدمت النصائح لأهلها، داعيةً إياهم للاتحاد والسِّلم، وقسمت ممتلكاتها بينهم، وأوصت آلهة البيت ببنتها البكر خيرًا، ثم أمسكت بيد واثقة قدح السمّ. وبعد أن صلت للإله ميركوريوس، مبتهلةً له بأن يجعل مثواها سعيدًا في الآخرة، تجرعت دفعة واحدةً السم القاتل. ثم إنها أخبرت الحاضرين بسريان السم في شرايينها، وكيف أن مختلف أطراف جسمها أصيبت بالرعشة الواحد بعد الآخر، حتى قالت: إن السم يغشى منها القلب والأحشاء. فنادت على بناتها؛ كي يقمن بواجبهن الأخير ويغلقن جفنيها.

57. يحكي بلينيوس أن لدى بعض الشعوب، وبفعل الجو المعتدل، لا تكون نهاية حيوات السكان عادةً إلا بإرادتهم. لكن بأنهم يسأمون الحياة، فإن العادة لديهم حين يتقدم بهم العمر، أن يرموا بأنفسهم من أعلى جرْف صخري مخصَّص لهذا الغرض، بعد أن يتمتعوا بمأدبةٍ فاخرةٍ أخيرة.

58. العذاب الذي لا يُحتمل، والموت الذي يُجاوزه برهبته، يبدوان لي الباعثَين للانتحار الأدعى للغفران.

الفصل الرابع

لنرجئ ذلك إلى الغد

1. إني لأمنح عن جدارة الجائزة لجاك أميوت من بين كل كتّابنا الفرنسيين؛ وذلك أولًا لسلاسة لغته وفصاحتها، وهو في ذلك لا نظير له من بين أقرانه، وكذا للعزم والثبات في عملٍ طويل النفَس، كما لعمق معارفه الذي مكّنه من أن يكشف بسعادةٍ بالغة لنا عن كاتب شائك وعميق. قد يقول لي ما يرغب امرؤ في قوله، فأنا لا أفقه شيئًا في اللغة اليونانية، بيد أن المعنى بالغ الانتظام والتجانس في كامل ترجمته، بحيث يبدو من البدهي أن تلك الترجمة قد اخترقت فكر المؤلف وأمسكت به؛ أو أن الارتياد الطويل للمترجم لهذا المؤلف، قد مكّنه من أن يتمثّل في روحه جوهر بلوتارخوس، بحيث إن ما يمنحه له يبدو من صميمه ولا شيء يأتي ليكذّبه. لكني فوق كل هذا ممتنٌّ له لحسْن اختياره لكتاب سامٍ ليمنحه هديةً مناسبة لبلده[1].

2. نحن الجهلة ما كنّا لنخرج من غفْلة جهالتنا لو لم ينقذنا هذا الكتاب من ورطتنا. فبفضله نجرؤ اليوم على الكلام والكتابة؛ والنساء النبيلات منّا يقدمن عنه دروسًا للمعلمين والأساتذة. لو كان هذا الرجل الفاضل حيًّا اليوم[2] كنت سأقترح عليه أن يقوم بالعمل نفسه مع كسينوفون، أي ترجمته للفرنسية. وهي مَهمّة أيسر تلائم أفضل سنّ النضج. ثم إني لا أعرف بالضبط لماذا -يبدو لي- بالرغم من أنه ينجح بمهارة في ترجمة المقاطع الغامضة، يكون أسلوبه أكثر سلاسة حين لا يخضع لإكراهات الصعوبة في الترجمة، ويستطيع الانسياب بشكلٍ عفويّ.

3. كنت أتحدّث عن ذلك المقطع حيث يقول بلوتارخوس[3] في معْرض كلامه عن نفسه: إن روستيكوس، حين كان يحضر إحدى محاضراته بروما، تلقى خطابًا من الإمبراطور، وانتظر لفتحه انتهاء المحاضرة. وحسْبه فإن الحاضرين امتدحوا ذلك الطابع الجدّي لتلك الشخصية. وبلوتارخوس، وهو يتناول قضية الفضول، وذلك الولع البالغ

(1) نشر كتاب أميوت عام 1572 م، ونفترض أن هذا الفصل قد حرّر في السنة التالية. وفي فترة كانت تعيش فيها فرنسا اضطرابات عميقة، كانت قراءة كتابات بلوتارخوس تعتبر فعلًا أمرًا مناسبًا.

(2) ولد أميوت عام 1513 م، وهو كان يقارب الستين في الوقت الذي حرّر فيه مونتيني هذا الكلام. وهو لم يتوفّ إلا عام 1593 م، ولم يترجم مع ذلك كسينوفون للفرنسية قط.

(3) Plutarque [78], **De la curiosité**, X, v.

بـ«الأخبار» الذي يجعلنا نترك كل شيء آخر بالكثير من التسرّع ونفاد الصبر كي نتحدث مع وافدٍ جديد، ونفقد الاحترام، وكل سلوك متسم باللياقة، كي تُفضَّ خواتم الخطابات التي تصلنا، في أي مكان وُجدنا فيه - قد كان على حق في امتداح جدّية روستيكوس. بل إنه كان الأحرى به أن يضيف إلى ذلك، امتداح تحضّره ولباقته؛ لأنه لم يقطع مسير محاضرته هو أيضًا. لكني لست بالمقابل متأكدًا، من أننا يمكننا أن نمتدح حكمته؛ لأن من الممكن وهو يتلقى على غفلة خطابًا خاصًا، من غير أن يفتحه ويقرأه لتوّه، وإذا كان ذلك الخطاب صادرًا عن الإمبراطور، أن يكون لذلك عواقب وخيمة.

4. أما العيْب المضاد للفضول فهو التراخي، وعدم الاكتراث، الذي أميل إليه أنا بطبعي. وقد رأيت أناسًا ينساقون له بحيث إننا، ثلاثة أيام أو أربعة، نجد الخطابات التي أرسلناها لهم لا تزال مغفولة في جيوبهم لم تُفضّ بعد.

5. وأنا لم أفتحها قط: لا فقط الخطابات التي عُهِد لي بها، وإنما أيضًا تلك التي بفعل الصدفة تسقط بين يديَّ. والأمر يتعلق -بحسبي- بمسألة ضمير، حين أكون جنب شخصية سامية، فتقع عيناي مصادفةً على بعضٍ من فحوى الرسالة المهمة، التي يكون بصدد قراءتها. لا أحد يمكن أن يكون أقل فضولًا مني، بحيث يستنكف أكثر عن دسّ أنفه في شؤون الآخرين.

6. في زمن آبائنا كاد السيد دو بوتيير، الذي كان يتعشى في صحبةٍ رائقةٍ، أن يفقد مدينة تورينو؛ لأنه أجَّل قراءة تحذير بلغه مكتوبًا، يتعلق بأعمال الخيانة والتآمر، التي تُحاك ضدّ تلك المدينة التي كان حاكمًا لها. وقد علمت من قراءتي لبلوتارخوس نفسه، أن يوليوس قيصر كان سينجو من القتل، لو أنه في اليوم الذي كان يتوجّه فيه لمجلس الشيوخ، قد قرأ الوثيقة التي قُدّمت له. وهو يحكي أيضًاعن أرخياس طاغية طيبة، الذي تلقى قبل يوم من قرار بيلوبيداس قتله، ليحرر

بلده من طغيانه ، خطابًا من شخص أثيني يدعى أيضا أرخياس يخبره فيه بالتفصيل بما ينتظره من جزاء. لكن، لما كان الخطاب قد سُلّم له وهو يتناول غداءه، فقدحدث أنه لم يفتحه للتوّ، قائلًا، ما ضار فيما بعد مثلًا في بلاد اليونان: «لنرجئ ذلك إلى الغد».

7. بإمكان شخص حكيم -في نظري-أن يؤجل الاطلاع على فحوى الخطابات والأخبار، التي يؤتى له بها، كما فعل روستيكوس؛ حتى لا يبلْبل برعونة المجمع، أو حتى لا يقطع مجريات شأن من الشؤون المهمة. لكن الأمر لا يُغتفر، حين لا يقوم بذلك كيْلا يقطع غداءه أو نومه مثلًا، خاصةً إذا كان ذلك الرجل يشغل منصبًا عامًا. وفي روما، كانت الساحة «القنصلية»، كما كان يُطلق عليها، الأكثر تشريفًا لتناول الوجبات؛ لأنها كانت المكان الأفسح والأسهل لبلوغها لمَن يرغب في اللقاء بمن هو جالس فيها. وهو ما يعني من ثمّ، أن رجال الدولة يمكن أن يتناولوا فيها طعامهم، من غير أن يغفَلوا عما يمكن أن يحدث في الشؤون التي تهمهم.

8. وبعد ما أسلفناه، ما أصعب أن نضع قاعدة منطقية ودقيقة لتصرفات البشر لا تدع مجالًا للصدفة.

الفصل الخامس

في الضّمير

1. وأنا في سفر مع أخي السيد دولابروس، خلال فترة حروبنا الأهلية، لاقينا رجلًا نبيلًا ذا وجهٍ حسنٍ كان مع خصومنا، وهو ما كنت أجهله؛ لأنه كان يوحي بغير ذلك. وأسوأ سوْءات تلك الحروب، هو أن الأوراق تختلط بشكلٍ بالغ، بحيث إن عدوك لا يمكن تمييزه عنك بأي ميزة ظاهرة، لا في لغته ولا في سلوكه، وبحيث يبدو لك أنه تكوّن في ظل القواعد والشرائع نفسها، وله المظهر والعوائد ذاتها التي لك، ومن ثم يغدو من العسير تفادي الخلط والفوضى. وهذا يجعلني أخشى أن ألاقي جنْدنا في مكانٍ لا أكون فيه معروفًا، وأن أجد نفسي مضطرًا للتصريح باسمي أو مدفوعًا لأن أقوم بما هو أسوأ.

2. وذلك فعلًا ما حدث لي في السابق. فبسبب خطأ من قبيل ذاك، فقدت رجالي وجيادي وقُتل لي، من بين ما قتل، تابعٌ إيطالي طيّب الأعراق كنت أربيه بعناية. وهكذا انطفأت معه طفولة رائعة، مليئة بالوعود في المستقبل. لكن حتى نعود إلى نبيلنا الذي صادفناه في رحلتنا، كانت تبدو عليه علائم خوفٍ بالغ، وكنت أراه يكاد يُغشى عليه، كلما لاقينا في طريقنا فرسانًا، أو عبرنا مدنًا تحت إمرة الملك، إلى درجة أني خمّنت أن ضميره هو ما يجعله على تلك الحال. فقد كان ذلك الرجل المسكين، يخال أن الناس يمكن أن يقرؤوا ما يجول بخاطره، ويتبيّنوا أسراره ومقاصده خلف قناعه، وبالرغم من الصّلبان المطبوعة على سترته. ما أروع عمل الضمير. فهو يجعلنا نكشف عن سريرتنا ونتهم أنفسنا ونحاربها، وحين لا يكون ثمة من شاهد على ذلك، يخلق شاهدًا ضدنا هو أنفسنا بذاتها:

«إنه يسوطنا كما الجلاد، بسوطٍ خفيّ»[1].

3. هذه الحكايات يتداولها الصبيان: قام رجل من مملكة بايونيا يدعى بيزوس،يومًا، عنوةً بتخريب عشٍّ للعصافير وقتلها، وحين أعيب عليه ذلك أجاب بأنه كان على حق، لأن تلك العصافير الصغيرة لم تكفَّ عن اتهامه بقتل أبيه. وكانت تلك الجريمة لحدّ ذلك الوقت سرًا مكتومًا وغير معروف. لكن الغضب العام للضمير انتقم من القاتل؛ فجعله

(1) Juvénal (42), XIII, v, 195.

يكشف بنفسه عن الجريمة، التي يلزم أن يلقى عليها عقابه.

4. يقول هسيودوس، مصحِّحًا ما قاله أفلاطون عن اقتفاء العقاب أثر الإثم: إن العقاب يولد في الوقت نفسه، الذي يولد فيه الجرم، وفي الآن نفسه الذي تُقتَرف فيه الخطيئة. كل من ينتظر العقاب ينزل عليه، وكل من يستحقه ينتظره. فالشر ينقلب على صاحبه:

«العاقبة الوخيمة تكون وخيمة بالأخص لصاحبها»[1].

إنه مثله مثل النحلة التي تلسع الغير وتؤذيه، فهي تؤذي أكثر نفسها؛ لأنها تفقد في وخزها ذاك شوكها وقوتها مرة إلى الأبد:

«إنها تفقد حياتها في اللسعة التي تقوم بها»[2].

5. يجد الذباب الإسباني[3] في ذاته ترياقه ضد سمّه نفسه، وذلك من خلال مبدأ التضادّ الطبيعي. بالشكل نفسه، فبمقدار ما نستمتع بالرذيلة، يستوطن ضميرَنا قرفٌ مضاد، يغرس فينا الهواجس بأفكار معذِّبة سواء كنا في حال النوم أو اليقظة:

«فكم من مجرمين يتهمون أنفسهم بأنفسهم
خلال منامهم، أو في خرف الحمى
كاشفين بذلك عن آثام
ظلت لحدّ ذاك الوقت في طيّ الكتمان»[4].

6. كان أبولّودوروس يحلم بأن بعض السكوثيّين يسلخونه حيًّا، ثم يوقدون النار تحت مرجل، وأن قلبه يهمس له: «أنا علّة كافة آلامك». وقد قال إبيقوروس: إن لا مخبأ يمكنه أن يسَع الأشرار، لأنهم لن يكونوا فيه واثقين أنهم في الخفاء، فضميرهم يكشف عنهم لأنفسهم:

«أول عقاب للجاني

(1)Aulu-Gelle (9), 5.
(2)Virgile (114), IV, v, 238.
(3) كان الذباب الإسباني معروفًا بفضلاته للهيجة جنسيًا.
(4)Lucrèce (47), V, 1157.

ألا تبرئه محكمةُ ضميره»[1].

إذا كان الضمير يملأنا بالرهبة فهو يملأنا أيضًا بالثقة. ويمكنني القول: إنني في العديد من الوضعيات الخطيرة سرْت بخطًى واثقة أكثر؛ لأنني كنت واثقًا وثوقًا كبيرًا بما أريد، وببراءة مراميَّ وأهدافي.

«قلبنا يكون مليئًا بالأمل أو الرهبة
حسب الحكم الذي يحكم به على نفسه»[2].

وفي ذلك أمثلة لا تُحصى. وسأكتفي بأن أقدم منها ثلاثة تتعلق بالشخصية نفسها.

7. وُجِّهت التهمة يومًا لسكيبّيو أمام الشعب الروماني، باقترافه أعمالًا خطيرة. وبدلًا من أن يعتذر عن صنيعه أو يُداهن القضاة قال لهم: «إليكم يعود اتخاذ القرار، بخصوص مصير من تَدينون له بهذه السلطة، في الحكم على كل شيء». ومرةً أخرى، بدلًا من أن يدافع عن نفسه، وجوابًا على التهم التي وجهتها له محكمة الشعب؛ اكتفى بالقول: «هيّا يا مواطنيَّ الأعزاء، نشكر الآلهة على النصر، الذي منحتني إياه على القرطاجنيين، في يوم شبيه بهذا اليوم». ولما كان قد توجه نحو المعبد، ها هي هيئة المحكمة بكاملها، ومنها من كان يدينه، تتبعه برمّتها.

8. قام كاتو بحثٍّ بيتيليوس على محاسبة القائمين على صرف الأموال على مقاطعة أنطاكية. وحين جاء سكيبيو إلى مجلس الشيوخ لهذا الغرض، قدم كتاب الحسابات الذي كان تحت عباءته، وصرح بأن ذاك الكتاب يتضمن المداخيل والمصاريف كلها بالتمام والكمال. لكن حين طُلب منه وضعه لدى القاضي رفض ذلك قائلًا إن ذلك سيكون عارًا عليه. ثم إنه وأمام أنظار مجلس الشيوخ مزقه إربًا إربًا.

9. وإني لا أظنّ أن شخصًا، حتى لو كان ذا ضميرٍ فاسد، كان سيُبْدي ثقة بالنفس من قبيل تلك. فقد كان رجلًا ذا قلب كبير بالفطرة، وكان

(1) Juvénal (42), XIII, v, 2.
(2) Ovide (67) I, 485-486

معتادًا على مصائر سامية، كما يقول تيتوس ليفيوس، كي يكون مجرمًا، ويُذِل نفسه بالدفاع عن براءته.

10. التعذيب اختراع مُبتكَر خطير، ويبدو أنه اختبار على الصبر والجلَد، مثلما أنه اختبار للحقيقة. فمن يستطيع تحمله يُخفي الحقيقة، مثله مثل ذلك الذي لا يصمد أمامه. فلماذا إذًا سيجعلني التعذيب أقول فعلًا ما ليس حقًّا؟ بالمقابل، فإن الشخص البريء مما يُتَّهم به، حين يكون من القوة بحيث يصمد أمام ما يُسام من عذاب، لم لا يكون المجرم قادرًا على ذلك هو أيضًا، حين يكون ما يُقترح عليه هو أن يُترك حيًا؟ وإني لأعتقد أن أساس هذا الاختراع يكمن في الاعتبار الكبير الذي يُمنح للمجهود الذي يقوم به الضمير. ففي حال المجرم، قد يعمل التعذيب على إضعاف همّته، كي يعترف بفعلته؛ بالمقابل، فهو يقوّي الإنسان البريء إزاء العذاب الذي يطاله. لكنه، في الحقيقة، وسيلة مليئة بالمخاطر والمحاذير. فكيف لا نصرّح بما لم نقم به، ونقوم بما لا يُتصور؛ للإفلات من العذاب الأليم؟

«العذاب يدفع حتى الأبرياء للكذب»[1].

11. يحدث إذًا أن يقوم القاضي الذي يُخضع إنسانًا للاستنطاق بالتعذيب، كي يجعله يتفادى الموت إذا كان بريئًا، أن يجعله في نهاية الأمر يموت بريئًا. وفوق ذلك بالتعذيب. ثمة أناس كثيرون ألصقوا بأنفسهم التهمة؛ بالإدلاء باعترافات زائفة. ومن بينهم أذكر فيلوتاس*[2]، والظروف التي أحاطت بالمحاكمة التي أقامها له الإسكندر الأكبر، وحالات التعذيب التي تعرّض لها.

12. زعموا أن التعذيب هو الأمر الأقل سوءًا، الذي ابتدعه ضعف النفس البشرية. إنه مع ذلك أمر غير إنساني وغير مجدٍ في نظري. فثمة الكثير من الشعوب أقل «بربرية» ووحشية من الإغريق والرومان يعتبرونه

(1) Publius Syrius (92).

(2) * قائد عسكري مقدوني، كان يعمل في خدمة الإسكندر الأكبر.

كذلك[1]، ويعتبرون أن من الوحشية تعذيب وفكّ أوصال إنسان، لم يثبتْ ارتكابه لجرْم. فما الذي يستطيعُه المسكين أمام هذه الجهالة؟ ألا تكون ظالمًا حين تسومه عذابًا أشدّ عليه من الموت، بذريعة ألا تقتله من غير سبب؟ والدليل على أن الأمر كذلك، انظرْ إلى أنه أحيانًا كثيرة يفضل الموت من غير سبب، على أن يعيش تلك المحنة. فهي محنة أضنى وأشقُّ على المرء من عقوبة الإعدام، وعادةٌ من الشراسة بحيث إنها تجاوزهُ وتطبّقُه أيضًا.

13. لا أدري من أين استقيت هذه القصة[2]، لكنها تعكس جيدًا الضمير الذي تَبِين عنه عدالتنا. فأمام القائد الأكبر للجيوش، والحاكم العادل، قامت امرأة قروية باتهام عسكري بأنه حرم أطفالها الصغار من الحساء، الذي فضَل لها لتسدّ به رمقهم، بعدما أتت الجيوش على الأخضر واليابس. أمر القائد الأكبر المرأة أن تفكر جيدًا فيما تتفوَّه به، لأنها ستتحمل مسؤولية تهمتها إذا ما كانت كاذبة. لكن أمام إصرارها، فتح بطن الجندي للوقوف على حقيقة زعمها. فكانت المرأة على حق. ذلك لعَمري حكْم يلزم أن نسْتقي منه الدروس..

(1) نحن نعلم أن اليونانيين كانوا يسمون الشعوب التي ليست يونانية «برابرة». وفقط فيما بعد ألصق بهذا الاصطلاح المعنى القدحي الذي نعرفه، والذي كان هو نفسه في القرن السادس عشر، كما نقف على ذلك هنا. وهو المقابل لاصطلاح «الأعاجم».

(2) يتعلق الأمر بالسلطان العثماني بايزيد الأول.

الفصل السادس

في التجْربة

1. يصعب على الاستدلال كما على التعلم، حتى ولو وثقنا بما يعلماننا إياه وثوقًا بالغًا، أن يقودانا حتى الفعل إذا لم نعوّد أنفسنا على الدُّربة من خلال التجارب، لكي تأخذ الإيقاع في السير الذي نرغب لها أن تمشي به. فمن دون هذه التجارب، وعندما يحين الوقت الذي يلزمنا أن نجعلها فيه فاعلة، فإنها سوف تعرف التردّد والحيرة. لهذا فإن أولئك من بين الفلاسفة الذين أرادوا بلوغ المزيّة السامية، لم يكتفوا بالانتظار في خمولٍ متفادين مشكلات القدَر، خوفًا من أن تفاجئهم تلك المشكلات، وهم لا يزالون عديمي التجربة ومبتدئين في هذه المعركة. على العكس من ذلك نُلفيهم من طلائع الجنْد منطلقين بإرادة وعزم لاختبار المعضلات. بعضهم تركوا ثروتهم للمجاهَدة في العيش في فقر مرغوب فيه. والبعض الآخر سعوْا إلى العمل بأيديهم وأجسامهم، واتّبعوا حياة الزهد والكدّ؛ لكي يتقوَّوا على الآلام ويتحملوا التعب أفضل. بل إن آخرين منهم قد حرموا أنفسهم من أعضاء الجسم الأكثر حيوية، كأعضاء التناسل أو العينين[1]. خوفًا من أن يكون استعمالها اللذيذ واللطيف مصدر تراخٍ لهم، بحيث يلطّف من قوة شكيمة أنفسهم.

2. بيْد أن الموت، وهو أكبر مهمّة علينا إنجازها، لا يكون فيه للتمرينات العملية أي فائدة. يمكن للمرء فعلًا بالتعوُّد والدُّربْة، أن يقوي النفس ضدّ الآلام والبؤس، وغيرها من مثيلاتها من عوادي الدهر والحوادث. لكن، حين يتعلق الأمر بالموت، لا حقَّ لنا إلا في محاولة واحدة. وكلنا نكون فقط متعلمين مبتدئين حين نلاقيه في سبيلنا.

3. ولقد عاش في سالف الأزمان أناس كانوا حريصين جدًا على الوقت الذي كان عليهم عيشه بحيث إنهم سعوا إلى تذوُّق الموت نفسه والتلذُّذ به. وقد أجهدوا عقولهم في محاولة معرفة ماهية ذلك البرزخ، غير أنهم لم يعودوا ليُعلمونا بما خَبروا منه.

«لا أحد يفيق حين تمسك به
رعشة الموت وبرودة الراحة الأبدية»[2].

---

(1) يتعلق الأمر بإبيقوروس الذي يُحكى أنه أقدم على فقء عينيه.

(2)Lucrèce (47), III, 942-43.

4. كان كانيوس يوليوس، أحد أعيان الرومان، وهو رجل معروف بقوة وشجاعة وصرامة لا تُضاهى، قد حكم عليه بالإعدام ذلك النذل كاليغولا. وبعد أن قدم لمرات عديدة البرهان على عزمه وإصراره، وحين كان على وشك أن يُقدم للمقصلة، سأله أحد أصدقائه الفلاسفة: «آه يا كانيوس، في أي حال توجد نفسُك الآن؟»، فردّ عليه: «كنت أفكر بعد أن استجمعت قواي، أن أستعد لكي أحاول أن أرى، إنْ كنتُ قادرًا على أن ألاحظ شيئًا من خروجها من جسدي. وإذا ما توصلت إلى خبر ما، أرغب في العودة من الآخرة إذا ما استطعت؛ كي أُخطِر بذلك صحْبي وأصدقائي». هو ذا إنسانٌ يتفلسف، حتى خلال موته نفسه. يا للثقة الرائعة في الذات، ويا للقلب النبيل أن يرغب الإنسان في أن يكون موته درسًا له، وأن يكون قادرًا على التفكير في شيء آخر وهو يعيش محنة حاسمة.

5. لكن يبدو لي أن ثمة سبيلًا لترويضه، ومن ثم وبشكل ما لتجريبه. يمكننا عيش تجربة الموت إما كاملًا مكتملًا أو على الأقل بالشكل الذي لا يكون فيه نافلًا، بحيث يُقوّي عزيمتنا ويجعلنا أشدّ وثوقًا من أنفسنا. وإذا لم نتمكّن من بلوغه، يمكننا التعرف عليه؛ وإذا لم نبلغ وسط الساحة العامة نفسها فسنرى على الأقل الشوارع التي تفضي إليها.

6. ليس من النافل أن يُفرض علينا النوم، فله شَبه بالغ بالممات. فيا لها من سهولة، أن نمر من اليقظة إلى النوم. قد يبدو النوم غير مفيد ومضادًا للطبيعة؛ لأنه يحرمنا من كل إحساس. بيد أن الطبيعة تعلمنا أنها صنعتنا لكي نموت كما لكي نحْيا، ومن الولادة تمنحنا صورة عن هذه الحال التي سوف تحتفظ بنا إلى الأبد بَعدها، كي نتعود على الموت وتخلّصنا من الخوف منه.

7. لكن أولئك الذي توقف قلبهم عن النبض من جرّاء حادثٍ عنيف، والذين فقدوا الوعي، أولئك في رأيي كادوا أن يروا الوجه الحقيقي للموت؛ ففيما يتعلق بلحظة الانتقال للعالم الآخر والمكان الذي يتمّ

فيه ذلك، من الأكيد أن يكون ذلك مصدرًا لعذابٍ أو ضيقٍ ما، ما دمنا لا نستطيع أن نحس بأي شيء خارج المدة الزمنية[1]. فلكي نتعذّب ننحن بحاجة إلى الوقت، وزمن الموت من القِصر والسرعة بحيث يستحيل علينا الإحساس به. فما علينا أن نخشاه فيه هو «مُمهّداته»، ومنها يمكن أن نكتسب التجربة.

8. الكثير من الأشياء تبدو في خيالنا أكبر مما هي عليه في الواقع. فقد قضيت قسطًا من حياتي في صحة جيدة (لا فقط جيدة بل تامة ومهتاجة). وأنْ أحسّ نفسي بهذا العنفوان وبهجة الحياة أمرٌ كان يجعلني أعتبر الأمراض عبارة عن أشياء رهيبة، بحيث إني حين جرّبتها وجدت أن مُصابها خفيف وضعيف مقارنة مع ما كنت أخشاه.

9. إليكم شيء أحسه في كل يوم: إذا كنتُ في مكان دافئ، وفي غرفة مريحة خلال ليلة عاصفة، أخشى على حياة مَن يبيتون على الطَّوى في الخارج وأتألَّم لهم. فأنا هنا ولا أرغب في أن أكون في أي مكان آخر.

10. أما أن ألازم دومًا الغرفة نفسها، فأمر يبدو قُنوطًا مستحيلًا. وقد اضطُررت لذلك بشكل مفاجئ خلال أسبوع كامل، عليلًا وواهِن القوى. وقد لاحظتُ أنني حين كنت في صحة جيدة، بِتُّ أجد أن المرضى يستحقون الشفقة أكثر مما أستحقها أنا، لو كنتُ في مكانهم عليلًا، وأن الفكرة التي كنت أكوّنها عنهم تزيد -حقيقةً، وواقعَ هذه الحال- هؤلًا بالنصف أو أكثر. وأنا أتمنى أن يكون الأمر كذلك أيضًا عن الموت، وألا يستحق الجَهد الذي أبذله في التهيؤ له، ولا عناصر النجدة التي أبحث عنها لأخفف من وطأته وصدْمته. لكن لا أحد على علمٍ بالغيب. فنحن لا نستطيع حماية أنفسنا من الأجَل أكثر مما يجب.

(1) إنه تصور من الدقة والعمق بحيث يقطع مع الأفكار السائدة.

سقْطة خطيرة

11. خلال حربنا الدينية الثالثة -أو الثانية، لا أتذكر جيدًا- رحت في أحد الأيام للنزهة على بعد فرسخ من مسكني الذي يوجد في قلب[1] كل الاضطرابات والقلاقِل والفتن التي نجمت عن الحرب الأهلية، التي كانت فرنسا ضحية لها. كنت أعتقد أني في مأْمن منها، علمًا أني كنت غير بعيد عن بيتي، بحيث لم أكن محتاجًا إلى حاشية وعتادٍ أكبر، لذا امتطيت جوادًا طيِّعًا وسهل الانقياد، لكنه غير موثوق بسرعته. وإذْ كنت في طريق العودة، وحاولت أن أدفع بجوادي لفعل ما لم يكن معتادًا على فعله، ولا مستعدًا له، ها أحد رجالي وكان ممْتطيًا جواد حرْث قوي البنية لم يكن سهل الانقياد أيضًا، غير أنه ظلّ فتيًا وقويًا، يقدِم على العدْو السريع بجواده في الطريق الذي أسلك، وذلك للتباهي ولكي يسبق باقي رفقائه. وفي حركته تلك، اصطدم بثقله اصطدامًا عنيفًا كعملاقٍ أسطوري، بالرجل القصير الراكب على حصان صغير، بحيث رمى بنا أنا والحصان في السماء لنهوي على رأسينا في الأرض. وها هو حصاني ممدّدٌ مصعوق، وأنا على بعد عشر خطوات أو أكثر قليلًا ممددٌ على ظهري، ووجهي مليء بالكدمات ومسلوخ، والسيف الذي كان في يدي، ترامى على بعد أمتار مني، ونطاقي ممزق، غير قادر على الإتيان بحركة، أو الإحساس بما يدور حولي، كما لو كنت جذعًا ميّتًا. (إنه الإغماء الأكبر الذي عرفته لحدّ ذلك اليوم).

12. حاول الأشخاص الذين يرافقونني بكل السبل أن يعيدوني لوعيي، ثم إنهم حسبوا أني أسْلمت الروح، فحملوني بمشقّة بين أيديهم حتى مسكني، على بُعد نصف فرسخ فرنسي[2]. وفي الطريق، وبعد أن كنت أُعتبر في حساب الأموات لما ينيف عن الساعتين على الأقل، بدأت أطرافي تتحرك واستعدت تنفسي. لقد كانت معدتي ممتلئة بالماء بحيث لكي تفرغها الطبيعة منها، كانت بحاجة إلى استنفار قواها كلها. أوقفني

(1) يوجد قصر مونتيني بالفعل بين «البواتو» و«غوينيا» وهي منطقة كانت مسرحًا لمعارك عديدة خلال الحروب الدينية.

(2) الفرسخ الفرنسي كان يمثل أربع كيلومترات ونصف، مختلفًا عن أنواع الفراسخ الأخرى.

الرجال على قدمي، فتقيأت سطلًا كاملًا من الدم المختر. وهو ما حدث لي مرات أخرى عديدة خلال طريقنا. وبذلك بدأت أعود إلى نفسي وأستعيد الحياة لكن رويدًا رويدًا. وهو أمر أخذ وقتًا طويلًا، بحيث إن أحاسيسي كانت كلها قريبة من الموت أكثر منها من الحياة.

«ذلك أن النفس وهي لا تزال غير واثقة من العودة للجسم في انكسارها ذاك لا تستطيع أن تشدَّ عضُدها»[1].

13. إن هذه الذكرى المحفورة عميقًا في ذهني، وهي تُبدي لي عن وجه الموت، وما هو عليه بشكل قريب جدًا من الحقيقة، جعلتني أتصالح معه شيئًا ما. وحين استعدتُ بصري، كانت الرؤية ضبابية وضعيفة ومنعدمة، بحيث لم أكن أتميز شيئًا غير بصيص النور.

«مثل رجل يفتح عينيه تارة وتارة يغلقهما،
ما بين النوم واليقظة»[2].

أما وظائف العقل، فإنها كانت تنبعث من جديد مع وظائف الجسم. أدركتُ أني كنت مضرَّجًا بالدماء، وصدريتي الضيقة ملوثة كلها بما سال مني من دم. كان أول انطباع لدي أني تلقيت طلقة بندقية بارود في الرأس. والحقيقة أننا كنا نسمع طلقات كثيرة من حولنا. خِلتُ أن حياتي لا تلتصق إلا بشفتيَّ، فكنت أغمض عيني، حسب ما بدا لي، كي أدفع بها إلى الخارج. كنت أستلذُّ بفتوري وخمولي. وكانت تلك الفكرة تطفو على سطح ذهني، بحيث إنها كانت بلزوجة باقي أحوالي وضعفها. لكنها فكرة في الحقيقة لم تكن فقط خالية من الألم أو القرف، بل كانت لها تلك اللطافة التي يحسها من ينصاعون لذبذبات النوم.

14. وأنا أعتقد أن ذلك هو حال من نراهم في حال فتور ووَهَن يُحتضرون. وإني لأرى أن من الخطأ الشفقة عليهم، لاعتقادنا أنهم فريسة للآلام العاتية، أو أن نفسهم مضطربة بالأفكار الأليمة. وأنا، خلافًا لرأي الكثيرين، حتى إيتيان دو لابويسي، أقول إن من نراهم ممدَّدين ويبدون

(1)La Tasse (Torquato Tasso) (103), XII, 74.

(2)La Tasse (Torquato Tasso) (103), VIII, 26.

كما لو كانوا غافين عند اقتراب أجلهم، أو إن من هدّهم طويلًا مرضٌ عُضال، أو تعرضوا لسكتة الدماغ أو الصَّرع=

«غالبًا ما ينهار الإنسان، حين يستسلم لمرضه
ويخرّ أمام أعيننا، كما لو أصابته الصاعقة
يزغي ويزبد، ويطلق الآهات، ويرتعش
يهذي ويتصلّب، ويتلوى ويتهدّ، تُنهكه التشنجات»[1].

=أو أيضًا إن أولئك المصابين بجرح في الرأس، والذين نسمعهم يئنّون أو يطلقون مرةً مرةً تنهيدات تفلّ الصخر، وبالرغم من أننا ننتزع منهم بعض الإشارات التي تدل على حضور بديهتهم، ومعها الحركات التي نراهم يقومون بها، أقول: إن هؤلاء عقلهم كما جسدهم يكونان كما لو أنهما غافيان أو في كَفنٍ، وذلك ما اعتقدته دوما.

«إنه يحيا من غير أن يعرف ذلك»[2].

15. لم أكن لأصدق أن العقل يمكنه بأطرافٍ مشلولة، وبحواسّ مهدودة، أن يجد في صلبه من القوة ما يتركه على وعي. وبذلك لا يمكن لأي تفكير عقلي أن يعذبهم، ويجعلهم يحسّون ببؤس وجودهم؛ ومن ثم فهم لا يستحقون فعلًا الشفقة.

16. لا أتصور حالًا أرذل من أن يكون للمرء نفس حيّة لكنها عليلة، بحيث لا تستطيع الإفصاح عن ذاتها. ذلك ما ينطبق على من يُنْذرون للمقصلة بعد أن يُقطع لسانهم، سوى أن في نوع الموت هذا يكون الموت الأخرس هو الأكرم، إذا ما صاحَبه وجهٌ حازمُ وقاسي الملامح. لكنه أيضًا حال أولئك السجناء المساكين، الذين يُقعون بين أيدي جلادين شرسين، هم الجنود في عصرنا، الذين يعذبونهم بجميع أنواع القساوة والتنكيل؛ كي يُكرهوهم على وغدهم بفديةٍ بالغةٍ لا يستطيعون تحمُّلها، والذين يجدون أنفسهم اليوم في مكانٍ ووضعية لا يتوفرون فيها على أي وسيلة للتعبير، ولا للتعريف بألمهم الجسماني وعذابهم النفسي. ولقد تصور الشعراء بعض الآلهة رحيمين

(1)Lucrèce (47) III, v, 487 sq.
(2)Ovide (63) 3, v. 12.

بأولئك الذين يتعرضون هكذا لموت يتأخر عن الراغبين فيه.

«تلقيت الأمر بأن أحمل لإله جهنم
غنيمته، وبذلك أحررك من جسدك»[1].

17. الكلمات القليلة والأجوبة المقتضبة، التي تُنتزع أحيانًا من أفواه السجناء، من كثرة الصراخ في آذانهم والتنكيل بهم، والحركات التي يبدو أنها تعبر عن قَبول ما يُطلب منهم، كل هذا لا يعني البتة أنهم أحياء، أو على الأقل أنهم أحياء حقًا. ذلك ما يحصل لنا نحن أيضًا حين نكون على وشك النوم، قُبيل أن يستحوذ علينا النعاس. فنحن نحسّ كما لو كنا في حلم بما حولنا، ونسمع الأصوات عبارة عن همْهمات، كما لو كانت تأتينا من تخوم الموت؛ والأجوبة التي نردُّ بها على الكلمات الأخيرة التي وُجِّهت لنا، إن كان لها من معنى، فإنه معنى يَدين بذلك للمصادفة.

18. والآن وقد خبرتُ ذلك عن تجربة، لم يعد لديَّ من شك في أن حكمي عليه فيما قبل كان صائبًا. أوَّلًا لأنني بالرغم من أني كنت مُغمى عليَّ، كنت أجهَد بأظافري لحل صدريتي (إذْ لم أكن أرتدي درْعًا) من غير أن يكون لديّ وعي بأني جريح. وهو ما يعني أننا نأتي حركات أحيانًا لا تكون صادرة عن قرارٍ منا.

«في لحظة احتضار المحارب تتحرك الأنامل
كما لتمسك مرةً أخرى بالسيف»[2].

ومن يسْقطون في ساحة الوغى، يطلقون أيديهم للأمام بغريزة عفوية، إذ أن أطرافنا تتداعى لبعضها البعض بحركات خارجة عن إرادتنا.

«يُقال بأن عربات الحرب المدجّجة بالرماح
تخرق بسرعة الأطراف
بحيث نرى أجزاءها تنتفض في الأرض
قبل أن يصل الألم إلى النفس
من فرط سرعة الإصابة»[3].

(1) فرجيليوس (112) 702، IV. هذه الغنيمة عبارة عن «خصلة شعره». وإيريس الرسول هي التي تتحدث هنا.
(2)Virgile (112) X, 396.
(3)Lucrèce (47) III, v. 642 sq.

19. وبما أن بطني كان مليئًا بذلك الدم المتخثّر، كانت يداي تتحسّسانه، كما اعتدنا الفعل دومًا، في المكان الذي نحس فيه بالحكّة وبشكل خارج عن إرادتنا. ثمة الكثير من الحيوانات بل والناس أيضًا، نرى عضلاتهم تنتفض وتتحرّك بعد موتها. كل منا يعلم بالتجربة، بأن بعض أطراف جسده تتحرك وتتقلص وتتمدّد، في أحايين كثيرة من غير إرادته. وهذه الحركات التي تُفرض علينا، والتي لا تؤثر علينا إلا سطحيًا، ولا تمسّ إلا «قشرتنا»، إن أبحنا لنفسنا هذه العبارة، لا يمكن أن تكون منا. فلكي تكون منا، يلزم أن يكون الفرد مندمجًا فيها كليةً. والآلام التي تصيب القدم أو اليد عند نومنا لا تشكل حقًّا جزءًا منا.

20. وأنا أقترب من بيتي، وقد سرى خبر سقطتي وبلغ أهلي وأقاربي، خرج هؤلاء وهم يتصارخون كما يحدث في مثل هذه النوازل. ولم أكْتفِ فقط بأن أجيب ببضع كلمات، عن الأسئلة التي طُرحت عليَّ، بل إني حسب ما حُكي لي فيما بعد، بدأت أطلق الأوامر بأن يُمنح جوادٌ لزوجتي التي كنت أراها تتعثر في أثوابها، وتجاهد في الهرولة نحوي، في المسلك المنحدر والصعب. يبدو أن هذه الفكرة كان عليها أن تصدر عن ذهن يقظ، والحال أن ذهني لم يكن كذلك البتّة. والواقع أن أفكاري كانت جوفاء وضبابية، وتحركها الأحاسيس النابعة من العينين والأذنين، إذ إنها لم تكن صادرةً عني. فأنا لم أكن أدري لا من أين أتيت، ولا إلى أين أنا ذاهب، ولم يكن بمستطاعي تقدير ما كان يُطلب مني أو يتمّ سؤالي عنه، فذلك لم يكن إلا أثرًا ضعيفًا تنتجه الحواس بذاتها كما في العادة. وما كان العقل يقوم به، كان في الحلم يبدو ضبابيًا، كما لو أنه لا يشتغل كلية، وترويه الانطباعات الرخوة التي تأتيه من الحواس.

21. كان حالي في ذلك الوقت وفي الحقيقة يتسم باللطافة والسكينة. لم أكن أحس بالبلْوى والأسى لا لنفسي ولا للآخرين، كان فقط حالًا من الوَهن البالغ، ومن غير أي ألم جسماني. رأيت بيتي من غير أن أتعرف عليه. وحين مدّدوني أحسست من جراء ذلك براحة كبرى، ذلك أن أوْصالي كادت تتقطّع، حين جهد أولئك الرجال المساكين في حملي على سواعدهم، في طريق طويل وصعب المسالك، بحيث حين كان يهدّهم

التعب، كانوا يتبادلون الحمل مرتين أو ثلاث مرات. قُدمت لي التِّرياقات والأدوية، التي لم أتناول منها واحدًا؛ متيقّنًا أني أصبت بالبارود في رأسي. وكان ذلك سيكون موتًا سعيدًا؛ لأن ضعف عقلي كان يمنعني من الوعي به، ووَهن عقلي يمنعني دومًا من الإحساس بأي شيء. كنت أترك نفسي أغوص بيُسرٍ كبيرٍ وبشكلٍ رائق، بحيث إني لم أعرفْ عملًا أقلَّ جَهدًا من ذلك.

22. حين انتعشت فيّ الحياة، وتمكنتُ من استعادة حيويتي وقواي=

«حين أخيرًا انتعشت فيَّ الحواس»[1].

=أي ثلاثة أو أربعة أيام بعد ذلك، أحسست بالألم يغشاني من جديد، وبأطرافي كما لو كانت قد سُحقت، وأوصالي تهشّمت، بفعل السقْطة. وعشت في اليومين أو الثلاثة، التي تلت ذلك حالة عصيبة، بحيث خِلتُ أنني سوف أموت مرة أخرى بميْتة أشقّ وأشد ضراوة هذه المرة. ولحدّ اليوم، لا زلتُ أحس بآثار تلك الصدمة. ولا أريد أن يفلت مني حكْي ما يلي: آخر شيء استطعت استعادته هو ذكرى ذلك الحادث. وقد طلبتُ منهم أن يكرّروا لي مرات عديدة، إلى أين كنت ذاهبًا ومن أين أتيت، وفي أي وقت وقع لي ما وقع، قبل أن أتوصّل إلى إدراك ما حصل. أما الطريقة التي حصلت بها السقطة، فقد أُخفيتْ عني شفقةً بمن كان السبب فيها، وابتُدعت أسبابٌ أخرى. لكن وقتًا طويلًا بعد ذلك، حين استعدتُ خيوط ذاكرتي، واستطعت أن أتصور الحال الذي كنت عليه، في اللحظة التي أبصرت فيها بالحصان يتجه بسرعة فائقة نحوي، ذلك أني أبصرت به وهو يلاحقني، بحيث تصورت نفسي لن أنجو من الموت، بيد أن تلك الفكرة كانت فُجائية بحيث إن الخوف لم يجد الوقت كي يغشاني- بدا لي أن بريقًا ساطعًا ضرب نفسي وأني أُبعث حيًا من الآخرة.

23. سيكون حكْي حدث عادي كهذا نافلًا، لو لم أسْتقِ منه الدروس التي تهمني. ففي الحقيقة، لكي يعتاد المرء على الموت، ليس ثمة أفضل سبيلًا

(1)Ovide (63) I, III, 14.

ولا أسهله من الاقتراب منه. وكما يقول بلينيوس[1]: كل امرئٍ منا يكون لنفسه بمثابة موضوع جيّد للدراسة، عليه فقط أن يفحص نفسه عن قرب. وما أروي هنا ليس ما يخالج ظنّي، وإنما ما خبرتُ وعشتُ، وليس درْس الآخرين وإنما درسي أنا.

24. وعليكم ألا تؤاخذوني إن أنا كشفت عن هذا الدرس[2]. فما هو مفيدٌ لي يمكن أن يكون -بالمناسبة نفسها أيضًا- مفيدًا للآخرين. وفي كل الأحوال فأنا لا أسبِّب ضررًا لأحد؛ ما دمت أستخدم فقط ما يعود لي. وإذا ما أنا تفوَّهت بكلام هُراء، فذلك سيكون على حسابي ومن غير أي ضرر للآخرين. إنها تداعيات وخَرف سيموت معي، ولا نتائج وخيمة له. ومن بين من اتَّبع هذا السبيل نحن لا نعرف إلا كاتبيْن أو ثلاثة من القدماء. ولا يمكننا الجزم بأنهم تناولوا الموضوع كما فعلت هنا، ما دمنا لا نعرف إلا أسماءهم. ولا أحد بعدهم اقتفى أثرهم. إنه لعمل صعبٌ وحساسٌ أكثر مما يُخيل لنا أن نتَّبع مسيرًا جوّالًا جوَلان عقولنا، والغوص في الأعماق الكثيفة لثناياه الباطنة، وتمييز العديد من المظاهر في اضطراباته الصغيرة، والإمساك بها للتوّ. وهو عبارة عن تزْجية جديدة رائعة للوقت، تنتزعنا من الانشغالات العامة في هذه الدّنيا، بل هي الأهمّ والأفيَد من بينها.

25. من سنوات عديدة خَلتْ وأنا الموضوع الأوْحد لأفكاري، بحيث لا أفحص ولا أدرس إلا أناي. وإذا ما أنا أبديت اهتمامًا بشيء آخر: فلكي أطبقه للتوّ على نفسي، بحيث أستبطنه في ذاتي. وأنا لا أعتقد أني على غَيٍّ أو على خطأ، إذا أنا أفصحْت للآخرين عمّا تعلمته هنا، كما يتمّ الأمر في علوم أخرى أقل فائدة بكثير، بالرغم من أني لست راضيًا أبدًا عن مستوى تقدُّمي في هذا المضمار. لا شيء أصعب من الكتابة عن الذات، ولا شيء أفيَد منها مع ذلك. لكن هذا الأمر يتطلب من المرء أن يتجمَّل ويتزيَّن بأجمل ما لديه، ويحسِّن هيئته قبل الظهور للملأ. وأنا لا

(1)Pline (77), XXLL, 24, C.

(2) الفقرات الموالية، حتى نهاية الفصل، كلها إضافات بخط اليد على «مخطوط بوردو»، فهي إذًا تالية على عام 1588م. وهي تمثل تطور كتاب «المقالات» باتجاه ما يمكن تسميته «رسم الذات».

أكفُّ عن إعداد نفسي؛ لأني لا أكف عن وصف نفسي. من المعتاد اعتبار حديث المرء عن نفسه أمرًا مُستهجنًا، بل هو يُحرَّم؛ خشية السقوط في التفاخر والتبجُّح بالنفس، الذي يتصل بما يقال عن الذات. إنه لَعَمري كمن أراد تقبيل الرضيع فبقر عينه.

«الخوف من الخطأ يدفعنا إلى ارتكاب الجريمة»[1].

26. وأنا أجد في هذا الدواء من المنفعة أكثر مما فيه من الضرر. حتى لو كان صحيحًا أن ثمة بالضرورة بعض الصلافة والاعتداد بالنفس في الرغبة في الحديث للناس عن الذات، فإذا أنا احترمت مرماي العام، فليس عليَّ أن أرفض هذا النزوع المرضي لأنه موجود في باطني. وليس عليَّ أن أخفي هذا الغيّ، الذي لا أكتفي بالإسرار به لنفسي وإنما أبوح به للعموم. بلْ حتى أُفصح عما يجول بخاطري بصدد ذلك. من الخطأ إدانة الخمر، لأن البعض يسكرون ويعربدون بسببه، فلا يُفرط المرء إلا في طيّبات الأشياء. وأعتقد أن هذه القاعدة لا تنطبق إلا على ضعف بني البشر، فهي أشبه بعقال الدّواب، الذي لا يستعمله لا القدّيسون -الذين يتحدثون عن أنفسهم جهرًا وبشكل لافت- ولا الفلاسفة ولا علماء اللاهوت، ولا أستعمله أيضًا، أنا الذي لا يضاهي في علمه لا هؤلاء ولا أولئك. وإنْ هم لم يكتبوا عنوةً عن أنفسهم، فذلك لا يمنعهم، حين تتاح لهم الفرصة لذلك، أن يتباهوا بمزاياهم في المنصّات.

27. عمَّ يتحدّث سقراط أكثر إلا عن نفسه؟ وإلامَ يجرّ مريديه وتلامذته للحديث سوى عن أنفسهم؟ فعوض الحديث عن الدرس المستقى من الكتاب، ألا يتحدثون عن حركة أنفسهم وحالها؟ إننا نكشف أنفسنا بوَرع لله، كما لقسّ الاعتراف، بالشكل نفسه الذي يقوم به جيراننا[2] باعترافاتهم أمام الملأ. لكن سيُقال لي إننا لا نفصح سوى عن الأشياء التي نُدين بها أنفسنا. وهو ما يعني أننا نقول كل شيء! إن فضيلتنا نفسها عُرضة للتهمة وخاضعة للتوبة. وإن حرفتي وفني يكمن في أن أحيا. ومن ينكر عليَّ أن أتحدث عن ذلك، حسب فكري وتجربتي

(1)Horace (33, 31).

(2) الجيران المقصودون هنا هم البروتستانتيون، الذين كانت اعترافاتهم تتم علنًا.

وممارستي للحياة،كمن يأمر المهندس المعماري بأن يتحدث عن المعمار، لا حسب تصوُّره، وإنما حسب تصوره هو.إذا كان ضربًا من الخُيلاء أن يعرِّف المرء نفسه على مزاياه، فلماذا لا يركز شيشرون على مزايا هورتنسيوس وهورتنسيوس على مزايا شيشرون؟

28. قدْ يُنتظر مني أن أشهد على نفسي، من خلال المعاملات والأعمال، لا بالكلمات فقط. لكن ما أقوم بوصفه هو بالأخص تفكيري، وهو موضوع لا شكل له، ولا يمكن أن تكون له آثار ملموسة. فأنا أجهد جهْدًا في نفْثه في كلمات هي نفسها مصنوعة من النّفَس. لقد عاش أناس من بين أكبر العلماء وأكثرهم وَرَعًا، وهم يتفادوْن القيام بأي عمل مشْهود. أفعالي وحركاتي تُبين عن الصدفة أفضل من إفصاحها عني. فهي تشهَد على دورها نفسه لا على دوري أنا، إن لم يكن ذلك مُصادفةً وبشكل مبهم، كما لو أنها عيّنات ذات مظهر خاص. أما أنا فبالعكس أعرض نفسي كاملًا، كما لو كنت كائنًا «مسلوخًا» سنرى فيه في لمحة واحدة، الشرايين والعضلات والأعصاب، كل واحد في مكانه. حين تحدثتُ عن السُّعال كنت أفصح عن جزء مني، ومع الشحوب ونبض القلب أفصح عن جزء آخر، بهذا القدر أو ذاك من اليقين.

29. ليست أفعالي هي ما أصِف، وإنما أصفني أنا وأصف ماهيّتي نفسها. وإني لأعتبر أنّ على المرء أن يتحلى بالحذر حين يحكم على نفسه، وأن يُبين عن وعي بالغ كي يشهد على ذلك، إن خيرًا وإن شرًا. لو كان لديّ الإحساس أني حقًا خيّر وحكيم أو أقرب إلى ذلك، فإني سوف أصرخ بذلك جهرًا. وإنّ لمن الغباء، لا من التواضع، ألا يفصح المرء بما يكفي عن نفسه مقدار ما تقتضيه الحقيقة. فحسب أرسطو، أن يكون أجْرنا أقلّ من قدْرنا يعني الجبن أوالتوجّس. فليس ثمة من فضيلة يُعرف قدْرها بالكذب، والحقيقة لا تكون أبدًا تربة خصبة للخطأ. أن يتحدث المرء عن نفسه أكثر مما ينبغي له، ليس دومًا أمرًا من قَبيل التبجّح؛ وإنما من قبيل الغباء. وأن يرتاح المرء بشكل مفرط فيما هو عليه، وأن ينساق لعشق ذاته بشكل مبالغ فيه، ذلك هو جوهر تلك الرذيلة التي نسميها الادّعاء. والدواء الناجع ليبرأ منه المرء، هو أن يقوم بعكس

ما يأمرنا به أولئك الذين، وهم يحرّمون عليه الحديث عن نفسه، يحْرمونه أكثر من التفكير في ذاته.

30. الكبرياء يكمن في الفكر، واللغة لا يمكنها أن تحتلّ فيه إلا مكانة ضئيلة. ولدى أولئك الناس يُعتبر الاهتمام بالذات أشبه بمحاباة النفس؛ وارتياد النفس وإقامة علاقات مع الذات يعني لهم العشق الزائد للمرء لنفسه. وهو أمر مُحتمل. بيد أن هذه المغالاة لا تتولّد إلا لدى أولئك الذين لا يتفحّصون أنفسهم إلا بشكل سطحي، والذي يحكمون على أنفسهم تبعًا لنجاح شؤونهم، والذين يسمون الاهتمام بالنفس تهويمًا وتزْجية للوقت، والذي يعتبرون بناء شخصيتهم واكتساب المناعة كبناء قصور من ورق. إنهم يعتبرون ذاتهم شيئًا برّانيًا وغريبًا عن أنفسهم ذاتها.

31. إذا ما ولع أحد بالمعرفة التي يكتسبها عن نفسه، لأنه يرى فيما تحت ذاته، ولأنه يرنو للأعلى، نحو القرون الماضية، فإنه يحني الرأسحين يعثر على عقول تعلو بكثير على عقله. وإذا كانت الحماسة تقوده إلى ادّعاء يدغدغ فكره، فليتذكّر حيوات سكيبّيو وإبامينونداس، والعديد من الجيوش والكثير من الشعوب، التي سبقتْه بكثير إلى المجد. ليس ثمّة من مزيّة خاصة سوف تدفع للغرور والخُيلاء شخصًا، سيأخذ بالحسبان -في الآن ذاته- العديد من طرائق العيش الضعيفة وغير الكاملة، وفي نهاية المطاف، العدم الذي يسِم قدَر الإنسان.

32. وإذا كان سقراط قد تملَّكَ جيدًا تعاليم إلهه القائلة: «اعرف نفسك»، وبفضل دراسة نفسه انتهى إلى احتقارها، فإنه وحده اعتبر أنه يستحق لقب الحكيم. ومن عرف نفسه بهذه الطريقة، فليكشف عن نفسه وليصرِّح بذلك جهْرًا.

الفصل السابع

عن التشْريفات

1. يذكر من ترجموا للإمبراطور أغسطس عن سيرته العسكرية، أنه كان بالغ الكرم إزاء من يستحقون ذلك، وأنه كان يولي العناية للتشريفات الخالصة[1]. بل إنه كان قد تلقّى من عمه يوليوس قيصر كافة التشريفات، قبل أن يرتاد لأول مرة ساحة الوغى. إنها لفكرة رائعة تبنتها أغلب الحكومات، تلك التي تتمثل في بعض الجوائز الفخرية بقصد مجازاة بعض النبلاء، من قبيل إكليل الدفلى والبلوط والآس، وشكل بعض الألبسة، وامتياز التجول بالعربة داخل المدينة أو ليلًا على ضوء المشاعل، والمكان المحجوز لها في المجامع العمومية، والحق في حمْل بعض الأسماء أو الألقاب، والحق في إضافة بعض الشارات للسلاح الشخصي، وغيرها من الأمور الشبيهة بذلك، والتي تمَّ الإقرار باستعمالها في أشكالٍ عديدة، في الكثير من البلدان والتي لا تزال سارية المفعول.

2. أما لدينا ولدى العديد من جيراننا، فيوجد وسام الشرف من درجة فارس، الذي لم يُقرّ إلا لهذا الغرض[2]. إن هذه الطريقة في الاعتراف بقيمة أشخاص مميزين ولا مثيل لهم، هي في الحقيقة عادة جيدة ومفيدة؛ تهدف إلى إدخال البهجة إلى نفوسهم بتمكينهم من مكافآت لا تكلف الشعب ولا الأمير شيئًا. وما لاحظناه من وقت طويل، ويمكننا الوقوف عليه لحدّ اليوم، هو أن الناس المميَّزين يُبدون عن غبطة حين يحوزون هذا النوع من المكافآت أكثر من المكافآت التي يمكن أن يجنوا فيها الربح المادي، وهو ما يبدو أن له أسبابًا تبدو دوافعها عن حقّ. فإذا ما امتزجت بالجائزة، التي تشكل فقط تشريفًا، امتيازات مادية ومالية، فإن هذا المزيج بدل أن يُعلي من التقدير المنتظَر منها، ينزل به إلى الحضيض.

3. إن وسام القديس ميشيل[3] الذي ظلّ يحظى بقيمة سامية لدينا لمدة طويلة، لم يكن له من مزايا سوى أنه كان فاقدًا لها. وهو ما جعل النبالة

(1) يبدو أن مونتيني حرّر هذا الفصل بمناسبة إصدار «وسام الشرف للروح القدس»، بدلاً عن «وسام الشرف للقديس ميشيل» الذي لم يعد ذا قيمة تُذكر.

(2) أحدثت هذه الأوسمة في الأصل للصراع ضد «الكافرين والمارقين» الذين اكتسبوا قوة جبارة وثراءً فاحشًا. وتدريجيًا قامت الملكية بتحجيمها وتحويلها الى أوسمة شرفية خالصة.

(3) أنشأ هذا الوسام عام 1469م الملك لويس الحادي عشر. وظل محافظًا على هيبته تحت حكم هنري الثاني. وفي عهد شارل التاسع شابته شوائب (ذكرها مونتيني) لطخت سمعته.

الفرنسية لا تتوق إلى مسؤولية أو منصب مقدار توْقها إلى ذلك الوسام، ولا مزايا يمكنها أن تمنح لها القيمة والاحترام غيره؛ ذلك أن بعض النبلاء كانوا يقبلون، بل ويصبون أكثر، لمجازاة تكون ملائمة لطبيعتهم نفسها، بحيث يفضلون المجد على المنفعة. أما الهبات الأخرى، فليس لها قيمة بمقدار ذلك النبل والشرف، خاصةً وأنها تُستعمل لكافة الأغراض، إذ يتم بها مجازاة خدمات الخادم وساعي البريد والراقصين والبهلوانات؛ وأيضًا كافة الخدمات التي يمكن أن يتلقاها صاحب الهبة. بل حتى الرذيلة والتزلّف والقوادة كان يؤدّى عنها بذلك. وليس من العجيب أن هؤلاء الفضلاء يتلقون ويسعون أقل إلى هذا الضرب من العادة الجارية، منها إلى المجازاة الخاصة والنبيلة والكريمة. وأغسطس كان على حق في أن يكون أكثر اقتصادًا وحزصًا في هذا التشريف منه في الهبات، خاصةً وأن التشريف امتياز يمتّح خاصيته الأساس من ندرته، وهو الأمر الذي يسري أيضًا على الفضلاء.

«فمن لا يبدو له أن هنالك أشرار، هل يمكن له أن يُميّز الطيّبين من بين الناس؟»[1].

4. إننا حين نمتدح شخصًا، لا نأخذ بعين الاعتبار الطريقة التي بها يربي أبناءه، فمهما كان قدره يبدو ذلك أمرًا عاديًا. بالشكل نفسه، لا يتم تقدير شجرة عالية في غابة مليئة بالأشجار. فأنا لا أعتقد أن مواطنًا من مواطني إسبرطة قد مُجِّد لشهامته، لأن تلك كانت شيمة متداولة بين أهلها. والأمر نفسه يسري على الوفاء ومقت الثروات. والعادة ألا تتم مجازاة فضيلة من الفضائل مهما كانت عظيمة، حين تصير عادة جارية. بل إني أشك في أن نعتبرها عظيمة إذا كانت عادة جارية.

5. ولما كانت هذه المكافآت التشريفية لا قيمة لها ولا ثمن، غير أن تكون مخصوصة بعدد قليل من الناس، فيكفي لإبخاسها توسيع عدد أصحابها. فأنْ يوجد أناس اليوم أكثر من الماضي يستحقون وسامنا هذا، أمر لا يبيح المسّ بسُمعته وقيمته. بل قدْ يكثُر فعلًا عدد مستحقيه ويتزايدون، ذلك أنْ ليس ثمة من فضيلة تنتشر بسرعة أكثر من القيمة

(1)Martial (51), XII, 182.

العسكرية. هناك قيمة أخرى حقيقية وكاملة وفلسفية (وأنا أستعمل هذه الكلمة بفحواها الحالي) لم أتحدث عنها، وهي أهم من القيمة العسكرية وأكثر منها اكتمالًا: إنها قوة النفس وثباتها، بما يجعلها قادرة على أن تمقت بالطريقة نفسها كل الأحداث المؤسفة، وبحيث تكون دائمًا واثقة من نفسها، متكاملة وثابتة القرار، وهي فضيلة لا تشكّل الفضيلة العسكرية إلا صورة باهتة لها. فالعادة والتربية والمثُل والتقاليد لها تأثير كبير على الفضيلة العسكرية التي أتحدث عنها، ويمكن ذلك أن يجعل منها فضيلة جارية كما نرى ذلك في أيام الحرب الأهلية هذه. ولو استطعنا اليوم توحيد شعبنا من جديد وإذكاء جذوة حماسته للقيام بعمل مشترك، فإن زهور سمعتنا العسكرية القديمة سوف تتفتح من جديد.

6. من الأكيد أن وسام القديس مشيل باعتباره جزاءً، لم يكن يجازي فقط الشهامة والشجاعة، بل يتعدّاها لأمور أخرى. إنه لم يجاز قطّ الجندي الشجاع، وإنما القائد المجيد؛ فالطاعة لم تكن تستحق جزاءً شريفًا كهذا. وهو وسام كان يفترض في الماضي معرفة خبيرة وأكثر كونية بشؤون الحرب، بحيث تشمل أغلب المزايا العسكرية وأعظمها، ذلك أن مواهب الجندي ليست هي مواهب القائد. كما كان التشريف يفترض أيضًا وضعية اجتماعية مرموقة متلائمة مع تلك الجدارة. لكني أزعم أننا، مهما كثُر عدد الناس الجديرين بالتشريف في أيامنا هذه مقارنة مع الماضي، لم يكن علينا منحه بطريقة موسَّعة. فلقد كان من الأفضل عدم منحه لكل من استحقوه، على أن نفقد إلى الأبد استعمال أمر له من الفوائد الجمّة الكثير، كما حدث ذلك.

7. لا أحد من الفضلاء يفكر في أن يستفيد مما يتقاسمه مع الآخرين. ومن لم يستحق تمامًا هذا التشريف من أناس أيامنا هذه، هم أكثر ممن يتظاهرون بازدرائه، راغبين بذلك في أن يتساووا مع أولئك الذين تتم الإساءة إليهم بتحقير مزيّة تعود حصرًا إليهم، والعمل على إشاعة ذلك التحقير.

8. والأمل في محْو هذا التشريف وحذفه، يمكنه فجأة أن يعيد الشرف لمبادرة من هذا النوع، وهو عمل ليس ملائمًا لعصر فوضوي ومريض كعصرنا. فالنتيجة ستمنحنا مبادرة جديدة تعاني منذ ولادتها من العيوب التي تسبَّبت في انهيار المبادرة السابقة. يلزم على قواعد منح هذا الوسام الجديد أن تكون صارمة وحازمة؛ كي تضمن له امتيازه، إذ أن هذه الفترة المضطربة ليست قادرة على «تقصير اللجام» وتنظيم الأمور بشكل جيّد. من ناحية أخرى، وقبل منح أي صدْقية لهذا الوسام الجديد، علينا نسيان الوسام السابق، والمقت الذي أحاط به.

9. يمكننا الاستفاضة -شيئًا ما هنا- في الاعتبار الذي علينا منحه للشجاعة وما يميزها عن الفضائل الأخرى؛ غير أن بلوتارخوس قد تناول مرارًا هذه المسألة، بحيث سيكون من المفيد أن نُثبت هنا ما جاء به. وما يستحقّ منا التشديد هو أن مجتمعنا قد جعل «الشجاعة» في مقدمة فضائله (كما يدل على ذلك اسمها، الآتي من الفضل والقيمة)، وأننا في عوائدنا حين نقول عن شخص إنه «رجل ذو قيمة» أو إنه «إنسان خيّر»، بأسلوب البلاط والنبلاء، فذلك لا يعني شيئًا آخر غير أنه «إنسان شجاع»، كما هو الأمر لدى الرومان. فالمصطلح العام «فضيلة» يستمد أصله اللغوي من «القوة»[1]. ومن المحتمل أن «الفضيلة» الأولى التي ظهرت لدى بني البشر، كانت تلك التي استطاع من خلالها الأقوياء أن يصيروا أسيادًا للضعفاء، وحازوا بذلك على مرتبة وسمعة خاصة، ومن ثمَّ أصلُ النبل الذي ظل مرتبطًا بهذه التسمية. هذا إلا إذا كان ذلك راجعًا لكون تلك الشعوب المحاربة، قد منحت القدْر الأكبر، والمرتبة الأرْفع، للفضيلة، التي كانت لديهم أليفة أكثر من الفضائل الأخرى. وهو ما يشبه كوْن شغفنا بالنساء، واهتمامنا المرَضي بعفتهن،أمرًا يجعل لدينا عبارات من قبيل «زوجة فاضلة» و«زوجة خيّرة» و«زوجة فاضلة وشريفة»، فقط طرائق لقول «زوجة عفيفة». وهو ما يعني أننا لكي نلزمهن بهذا الواجب، نقوم بإزاحة الواجبات الأخرى، كما لو أننا كنا مستعدين لنغْفر لهن كل خطيئة أخرى، كيْلا يقترفن تلك الخطيئة.

(1) فعلاً، فكلمة «virtus» (فضيلة) هي من الجذر نفسه لكلمة «vis» (القوة)، وهذا الترابط نجد مصدره لدى شيشرون.

الفصل الثامن

عن عطف الآباء وحنوّهم على أبنائهم

1. سيدتي[1]، لو لم تكن رياح الابتكار والجدّة، اللذين يمنحان في العادة قيمةً ما للأشياء، تهبّ لصالحي، لم أكن لأخرج مخرجًا طيّبًا يشرفني من هذا العمل المغامر. فهي مهمة بالغة الغرابة وذات طابع يشذّ عن المعتاد، بحيث إن ذلك قد يفتح أمامها سُبل النجاح. ولقد خطر لي الدّلو بدلْوي في هذا الموضوع بسبب مزاج مكتئب، ومن ثمّ غريب عن تكويني الطبيعي، ناجمٌ عن أسى الوحدة التي رميت بنفسي فيها من سنوات قليلة[2]. وبما أن ذهني كان فارغًا والأفكار فيه شحيحة، أخذتُ ذاتي منطلقًا للكتابة وموضوعًا لها؛ باعتبار ذلك هو الكتاب الوحيد من نوعه في العالم، الذي يتّسم بالعجب وغرابة الأطوار. وليس في هذا الكتاب ما يستحق أن يلاحَظ إلا ذلك الطابع الغريب العجيب؛ فهذا الموضوع الضعيف والمتدني لا يمكن لأيّ كاتب بارع حتى ولو كان الأجود والأفضل في الدنيا أن يمنحه الشكل الذي يجعله مقبولًا وجديرًا بالنشر.

2. ولما كنت مضطرًا لوصف نفسي بشكل فوري، سيدتي، فإن ثمة شيئًا كان سينقص هذا الوصف للذات إن لم أصور الرفعة التي أقدّرها لمزاياك. وقد أردتُ أن أضع ذلك في صدارة هذا الفصل، لأن من بين مزاياك الأخرى، أن العطف والحنو الذي حبيْت به أبناءك، يأتي في طليعتها. وحين نعلم في أي عمر مبكر ترمّلتِ[3] من زوجك السيد ديستيساك، وكم من مُقترح زواج مشرِّف يليق بسيدة فرنسا من مرتبتك تلقّيتِ، وكيف استطعتِ خلال العديد من السنين، بثبات وحزم، ورغم المصاعب الشائكة، السهر على مصالح أولئك الأبناء. وحين نعلم كيف أن ذلك قادك إلى كافة جهات فرنسا، وكيف اهتممت بهم رغم ذلك، وحين نرى كيف حرصتِ على بلوغهم مبتغاهم، الذي صنعتِ لهم بحكمتك وحظك الجميل، فإن الكل سيقول عنك كما أقول: إننا لا نملك مثالًا لحنوّ الأم وعطفها على أبنائها، يضاهي مثالك في عصرنا.

---

(1) السيدة ديستيساك هي أم شارل ديستيساك الذي صاحب مونتيني خلال رحلته إلى إيطاليا. وقد ترملت منذ 1565 م، وكانت لها بنت اسمها كلود تزوجت عام 1587 م من الكونت دو لاروشفوكو.

(2)حسب مونتيني نفسه، حين تعب من مسؤولياته العمومية، قرر الاعتزال في «مكتبته».

(3) كانت فعلاً لا تزال في زهرة عمرها عام 1565 م. ونحن نعلم أنها تزوجت مجددًا عام 1580 م (أي زمنًا قليلاً بعد أن حرّر مونتيني هذا المقال)، بروبير دو كومبو، قهرمان الملك هنري الثالث.

3. وأنا أحمد الله يا سيدتي أن هذا الحنوّ قد استُعمل أحسن استعمال؛ ذلك أن المأمول من ابنك السيد ديستيساك قد أبانه بوصفه ابنًا بارّا، بأن يكنّ لك الطاعة والعرفان بالجميل حين يبلغ العمر الملائم لذلك. لكن، وبما أنه بالنظر إلى صغر سنه، لم يكن له أن ينتبه للخدمات الكبرى التي تلقّاها دومًا منك، أتمنى لأن تكون هذه الكتابات، إذا ما سقطت يومًا بين يديه، شاهدة مني على ذلك، حين لن تسعفني القوة والكلام على قوله. لكنه سيتلقى توكيدًا لذلك أكثر حيوية بالآثار السعيدة التي ستتركها في نفسه إن شاء الله. وعلينا القول إن لا نبيل في فرنسا سيكون مَدينًا لأمه أكثر منه، وأنه لن يُبين في المستقبل عن الدليل الأمثل لمزاياه، إلا بالاعتراف بالأم الفاضلة التي أحسنت تربيته، وهي أنت.

4. إذا كان هناك من قانون طبيعي حقّ، أعني غريزة موجودة دائمًا لدى الحيوان كما لدى الإنسان -وهو ما لا يخلو من جدل- فإنه سيكون في نظري، بعد غريزة البقاء على قيد الحياة، والتهرب من كل ما يشكل ضررًا -هو حنوّ الوالد على ذريته. وبما أن الطبيعة قد أوصتنا بشكل خاص بذلك، بسهرها على تقدم وتوسع عناصر هذا العمل الذي يعود لها، فليس من الغريب ألا يكون الارتباط أيضًا من الجانب الآخر بمقدار تلك القوة، أي من جانب الأبناء مع الآباء.

5. زيدي على ذلك هذه القولة لأرسطو[1]: من يفعل الخير في شخص، يحبه أكثر مما يحبه هذا الأخير؛ ومن ندين له بالخير، يفصح عن محبة لنا أكثر من المحبة التي نفصح لها عنه. كل عامل يحبّ عمله أكثر مما يحبه ذلك العمل، لو قُدِّر له أن يملك العواطف والأحاسيس. ولأننا نحب الوجود، ولأن الوجود يتكون من حركةٍ وفعل، فإن كل واحد منا حاضر فيما يقوم به. فمن يفعل الخير يقوم بعملٍ جميلٍ وجليلٍ؛ ومن يتلقى الخير يكون فعله فقط بالطريقة التي تكون له ذات منفعة. والحال أن ما هو نافع لا يستحق الحبّ مقدار استحقاق ما هو جليل، فما هو جليلٌ ومشرّفٌ ثابتٌ ودائمٌ، ويمنحُ لصاحبه رضًا لا ينضب. أما النافع فهو بالمقابل يندثر ويُنسى بسهولة، بحيث لا تظلُّ ذكراه طريّة

(1)Aristote (7), IX, 7.

وعذبة. فالأشياء تظلّ عزيزة على قلبنا كلما كانت قيمتها كبيرة، وحين نمنح، تكون قيمة ذلك أكبر من أن نتلقّى.

6. لما كان الله قد شاء أن يحبونا بقدرة ما على التعقُّل، حتى لا نكون مثل الحيوان،خاضعين خانعين للقوانين المشتركة، وأن نمارسه بمثابرةٍ تبعًا لحكمنا وحرية إرادتنا، فإن علينا مع ذلك أن نتكيَّف قليلًا مع القوة البسيطة للطبيعة، لكن من غير أن ننصاع لجبروتها: فالعقل وحده يتوجَّب عليه أن يتحكّم في نوازعنا. وأنا من ناحيتي قليل الاعتبار لتلك الحركات التي تتمّ فينا، من غير أن تتدخّل فيها أفهامنا. مثلًا، وبخصوص الموضوع الذي أطرق هنا، فأنا لا أميل كما يفعل الآخرون إلى تقبيل الرُّضَّع، الذين تكون أنفسهم هامدة، وأجسامهم في شكل يجعل منهم محبوبين، لكنهم لم يأخذوا بعدُ أشكالهم الكاملة. ولم يحدث أن تحملت عن رضا أن يُربّوا بالقرْب مني.

7. إن حنوًّا وعاطفة معقولَيْن وحقّيْن يلزم أن يولدا ويتطورا مع أولئك الرضّع؛ وحينئذٍ، وإذا ما هم استحقوا ذلك، فإن النزوع الطبيعي المساير للعقل سيجعلنا نكنّ لهم عاطفة تكون أبوية حقًّا. لكن وبالشكل نفسه، وفي الحال المعاكس، علينا أن نحكم عليهم بحكم يكون عادلًا، من غير أن ننصاع للقوة التي تمارسها علينا الطبيعة. بيْد أن ما يحدث في الغالب هو الأمر المعاكس، بحيث نكون في الغالب متأثرين بهرج أولادنا ومرجهم، وألعابهم وتفاهاتهم الصبيانية، مقدار تأثرنا فيما بعد بأفعالهم المكتملة الصادرة عن تملٍّ وتفكير. فذلك يكون كما لو أننا نحبهم تسليةً لنا، أي كما لو أنهم قرود صغيرة لا من بني البشر. ومن يغدق عليهم الألعاب في صباهم، ها هو حين يصيرون كبارًا، يتذمر إزاء أبسط مصروف يقوم به عليهم. ويبدو أن الغيرة التي نُحسّها وهم يبرزون في المجتمع، ويتمتعون بوجودهم فيه، في الوقت الذي نكون فيه على وشك ترك الدنيا، يُضطرنا إلى أن نصير أكثر اقتصادًا وتقتيرًا إزاءهم. بل لا نعود نحب أن يتقفَّوا خطانا، كما لو أنهم يدفعوننا دفعًا نحو المخرج من الحياة! وإذا ما كان ذلك مصدر احتراس وخوف، ولو أن نظام الأمور جعلهم لا يستطيعون العيش ولا الوجود إلا على حساب وجودنا وحياتنا، فالأجْدى والأفْيد لنا حينئذٍ ألا نفكّر في أن نكون آباء.

8. وإني، فيما يخصني، أرى أن من القساوة والظلم ألا نجعلهم يستفيدون من خيراتنا، وألا نعاملهم كرفقاء في تدبير شؤون حياتنا، حين يغدون قادرين على ذلك، وألا ننقص من امتيازاتنا لنضْمن لهم امتيازاتهم، بما أننا أنجبناهم لهذا الغرض. وإليكم ما أعتبره أمرًا غير عادل: رجلٌ عجوزٌ أنهكته السّنون ويبدو نصف ميت، يتمتع وحده في زاوية من البيت بخيرات تكفي لإعالة العديد من الأطفال، تاركًا إياهم مع ذلك يُضيعون زهرة أيامهم بسبب قلة ذات اليد، من غير أن يستطيعوا الارتقاء الاجتماعي ولا التعرف على أناس العالم. إنه يُضطرهم إلى اليأس أو البحث عن مخرجٍ مهما كان، ومهما كان غير مشروع، كي يلبّوا حاجياتهم.

9. وهكذا رأيتُ في وقت ما شبابًا من عائلات محترمة تعوَّدوا على السرقة تعوُّدًا بحيث لم يثنهم عن ذلك أي زجر أو عقاب. وأنا أعرف واحدًا من بينهم، من عائلة مرموقة، تحدثت إليه يومًا في هذه القضية بطلب من أحد إخوانه، وهو رجل من النبلاء بالغ الشهامة والشرف. وقد أجابني معترفًا لي ببساطة أنه اضطُر إلى ارتياد هذا الحضيض بسبب بخل أبيه وصرامته، غير أنه اليوم قد تعوّد على الأمر، بحيث لم يعد يمكنه التخلّي عنه. وقد كان حينئذٍ قد ضُبط متلبّسًا بمحاولة سرقة خواتم سيدة نبيلة، وجد نفسه، حين أفاقت به، بحضرة أناس عديدين.

10. وقد ذكّرني ذلك أيضًا بما سمعت من رجلٍ نبيلٍ آخر: فقد كان يُتقن هذه الحرفة الجميلة ومتعودًا عليها منذ يفاعته، بحيث إنه حين صار سيدًا لخيراته، وقرّر التخلي عن تلك الممارسات، لم يستطع منع نفسه، وهو مارٌّ بحانوتٍ يوجد فيه شيء يحتاجه، من أن يسرقه، ولو أدى به ذلك إلى أن يبعث أحدًا كي ينقد صاحبه ثمنه. وقد وقفت على آخرين كثيرين ذوي دُرْبة هائلة على السرقة، وناذرين أنفسهم لها، بحيث إنهم كانوا يسرقون أشياء حتى من رفقائهم ليعيدوها لهم فيما بعد.

11. أنا من منطقة غاسكونيا، ومع ذلك ليس من رذيلة أنفُر منها أكثر من السرقة. وأنا أكرهها عن مزاجٍ أكثر مما أدينها عن اقتناع. فأنا لا أسلب شيئًا من أي

واحد حتى لو كان ذلك الشيء هو ما أرغب فيه. ومنطقتنا، بهذا الصّدد، ذات سمعة سيئة أكثر من المناطق الأخرى في فرنسا. وقد رأينا في حياتنا، مع ذلك وفي أوقات عديدة، أناسًا من عائلات محترمة من مناطق أخرى بين يديْ العدالة، ومصرّين على اقترافهم للعديد من السرقات الجسيمة. وإني لأخشى أن يجد هذا الفساد الأخلاقي أصله في رذائل الآباء.

12. قد يردّ عليَّ أحدهم، كما فعل نبيلٌ ذو عقل ثاقب، بأن ذلك الأب قد يكون قد كنز ثرواته فقط بُغية أن تجعل منه رجلًا مُكرّمًا ومحبوبًا لدى أهله وأقاربه، وبما أن التقدم في السن وقد أوْهن قواه، فقد كان ذلك السبيل الأوْحد، لكي يحافظ على تفرُّده وسطوته بين أهله، وتفادي أن يصير موضعًا للمقت والكراهية من قِبل كل الناس. والحقيقة أن الشيخوخة ليست وحدها، كما يقول أرسطو، هي التي تؤدي إلى البخل؛ وإنما كافة أنواع الضعف والوهَن. إنها طريقة للنظرِ إلى الأمور. لكن ذلك يعني درْء شرّ كان بالإمكان منعه من الظهور. فالأب يكون تعيسًا جدًّا، إذا هو لم يحافظ على حنوّ أبنائه إلا لأنهم بحاجة لنجدته، هذا إذا سمَّيْنا ذلك حُنوًّا وعطفًا.

13. ما يلزم هو أن يصير المرء كائنًا محترمًا بقيمته وقدراته، ومحبوبًا بطيبَته ووداعة سلوكه. فحين تكون المادة غنية يكون حتى رمادها ذا قيمة، إذ نحن نمنح الاحترام والاعتبار لعظام ورُفات الأشخاص الذين يستحقون التشريف والتكريم. ومن عاش الشرف في كهولته لا يعرف الشيخوخة مهما كان الوهن والاحْدِوْداب فيها، ولا يمكن إلا أن يحافظ على قدْر من الاحترام والتبجيل خاصةً من لدُن أبنائه، الذين يكون قد ربّاهم على اتِّباع واجبهم لا بالضرورة أو الحاجة وإنما فقط بالصرامة والقوة.

> **«يبدو لي، أننا بعيدون عن الحقيقة، إذا ما نحن اعتقدنا أن السلطة تكون أكثر حزمًا واستتْبابها أشدُّ بالقوة لا بالحنو»[1].**

(1)Térence (111), Adelphes, 1, v, 40

14. وإني لأُدين كلّ عنفٍ في تربية نفسٍ وديعةٍ، نرغب في تكوينها لسبيل الشرف والحرية. ثمة شيء من الخسّة في القسوة والإكراه. وأنا لا أعتبر أن ما يمكن أن نتوصّل إليه بالعقل والحذق، لا يمكننا التوصّل إليه بالقوة. هكذا كانت تربيتي، إذ يُقال إني حين كنت صبيًا لم أتعرّض للجلْدِ إلا مرتين وبرفقٍ بالغ. وكان عليَّ من ثمَّ أن أعامِل أبنائي بالمثل، غير أنهم توفوا كلهم في الحضانة. وليونور، ابنتي الوحيدة التي أفلتت من هذا المصير البائس، بلغت الست سنين أو أكثر، من غير أن يُستعمل في تربيتها، وفي عقابها على ما ارتكبتْ من أخطاء، شيء آخر غير الكلام، والكلام العطوف. وتسامُح أمها معها كان له دخْل كبير في ذلك. وحتى لو خابت توقُّعاتي، فثمة قضايا أخرى كثيرة يمكن الاهتمام بها، من غير أن أردّ اللائمة لطريقتي في التربية، التي أعرف مقدار عدالتها وفطريتها. وكنت سأكون أكثر صلافة في هذا المضمار مع الأولاد الذين لا يولدون ليكونوا في الخدمة، والذين يكون طابعهم أكثر حرية. كنت سأرغب في أن أملأ قلوبهم بالنبل والشرف والحرية. فأنا لم أر أحدًا يبلغ ما يبتغي بالسوط، سوى أن يجعل نفوس الأبناء أكثر جبنًا أو مطبوعةً بعنادٍ ماكر.

15. هل نرغب في أن نكون محبوبين من أطفالنا؟ هل نريد أن ننزع من قلبهم كل رغبة في أن يتمنوا موتنا؟ رغم أن أي عقلٍ لا يمكن أن يكون عادلًا ولا معذورًا في أن يتمنى شيئًا بَشِعًا كهذا؛ «إذ لا جُرْم يمكن أن نبرره عقليًا»[1]. لنعملْ إذًا ما في وُسعنا كي نسهّل عليهم حياتهم بشكلٍ معقول. وعلينا لهذا المبتغى ألا نتزوج صغارًا بحيث يختلط عمرنا مع عمرهم، فثمة عائق يزجّ بنا في مصاعب عويصة. وأنا أتوجه بهذا الكلام بالأخص للنبالة، التي كما يُقال تعيش ترف العيش ولا تحيا إلا من ريعها. ففي الأُسَر التي تضطر للسعي وراء قوتها، يكون عدد الأبناء وضرورة العيش معهم أمرًا يعود لتوافق الأسرة، وتلكمْ عناصر إضافية ومفيدة للاغتناء.

16. لقد تزوجتُ وأنا ابن الثالثة والثلاثين، وأتفق مع اختيار عمر الخامسة

(1)Tite-Live, (105), XXVIII, 28.

والثلاثين، الذي يُزعم أنه نصيحة أرسطو[1].كما أن أفلاطون[2] ينصح المرء بألا يتزوج قبل الثلاثين غير أنه على حقٍّ في السخرية من أولئك الذين يقومون بذلك بعد الخمسين، ويعتبر أن ذرّيتهم لا تستحق الإطعام والحياة. أما طاليس فقد أقام لذلك الحدود الأصحّ: فحين كان شابًا، أجاب أمه التي كانت تلحّ عليه في الزواج، بأن الوقت لم يحن بعد؛ وحين صار عجوزًا، بأن الأوان فات لذلك. فمن اللازم على المرء أن يرفض كلّ فعلٍ لا يكون في وقته، باعتباره غير مناسب.

17. كان الغاليون يعتبرون أن النكاح قبل سن العشرين أمرٌ قابل للتجريم، وكانوا ينصحون الرجال، وبالأخص منهم الذين ينذرون أنفسهم للحرب، أن يحافظوا على بكارتهم أطول وقت ممكن، معتبرين أن القلوب تصبح واهنة وضالة بنكاح النساء.

«لكن حينئذٍ، وهو متزوج بامرأةٍ شابة
وسعيدٌ بأن يُرزق منها بأولاد
تكون عاطفته كأب وزوْج قد أضعفت شجاعته»[3].

18. كان مولاي الحسن، سلطان تونس، الذي أعاده كارلوس الخامس إلى العرش، ينتقد ذكرى أبيه مُعيبًا عليه الإكثار من معاشرة النساء، ويصفه بأنه «رخو وولّاد».

19. يسجل التاريخ اليوناني[4] أن الرياضيين: إيكّوس التارنتي، وخريسوس، وأستيلوس وديوبومبوس، وغيرهم، كانوا لكي يحافظوا على قوتهم من أجل العدْو في الألعاب الأولمبية؛ يمتنعون عن كل مضاجعة خلال ذلك الوقت.

20. في منطقة من بلاد الهند الإسبانية، كانوا لا يسمحون للرجال بالزواج إلا بعد الأربعين عامًا؛ فيما كانوا يسمحون بالزواج للصبايا في سن العاشرة.

(1)Aristote (6), VII, 16.
(2)Platon (73), V.
(3)Le Tasse (Torquato Tasso) (103), X, 39.
(4)Platon (71), VIII.

21. إن نبيلًا في الخامسة والثلاثين لم يبلغ بعدُ العمر لكي يترك مكانه لابنه ذي العشرين عامًا؛ فهو لا يزال قادرًا على المشاركة في الحملات العسكرية، والمشاركة في بلاط أميره. وهو لا زال بحاجة لخيراته، وإذا ما كان عليه تقاسُمها معه، فلن ينسى حصته منها. إنها الحالة التي ينطبق عليها هذا الردّ الذي غالبًا ما يرِد على لسان الآباء: «لا أريد أن أتجرّد من ثيابي قبل الخلود إلى النوم».

22. لكن أبًا هدّته السنون والآلام، ويحرمه وَهنه وصحته العليلة من عالم الرجال، يخطئ في حقّ نفسه وأهله في حضانة الثروات الهائلة. فإذا كان يملك بذرة من الحلْمِ والحكمة، فإن الوقت يكون قد حان له كي «يتجرّد من ثيابه قبل الخلود إلى النوم»، من غير أن يبقى عاريًا في قميصٍ، لكن بحفاظه على لباس النوم الدافئ. أما باقي أغراضه التي لم يعد بحاجة لها، فعليه أن يهديها عن طيب خاطر إلى من ستعود إليهم في نهاية المطاف، تبعًا للنظام الطبيعي للأشياء. ومن البدْهي أن يضعها تحت تصرّفهم؛ بما أن الطبيعة حرمته من استعمالها. وإذا تصرَّف خلاف ذلك، فإن الأمر لا يعدو أن يكون تعبيرًا من جانبه عن خبثه وغيرته. كان ذلك أفضل عمل قام به إمبراطور إسبانيا كارلوس الخامس، حاذيًا في ذلك حذْو بعض الشخصيات من مرتبته في العصور القديمة، بحيث إنه اعترف بأن من العقل أن «نتجرّد من ملابسنا» حين تغدو ثقيلة علينا وتحرجنا، وأن «نخلد للنوم» حين لا تسعفنا أرجلنا على الوقوف. فقد تخلَّص من ثرواته ومن مجده وسلطته لصالح ابنه، حين أحس أنه لم يعد يملك الصرامة والقوة اللازمين لتسيير شؤون مملكته، بالمجد الذي اكتسب خلال فترة ملكه.

«احرصْ على خلع عُدّة فرسك العجوز
حتى لايكون محطًا للسخرية وهو يكبو ويتنفّس من الإنهاك»[1].

23. إن عدم تعرُّف المرء مبكرًا على العجز، وعدم إحساسه بالتدهور، الناجم بالطبيعة عن التقدّم في السنّ، وما يجره معه في النفس والجسد بشكل متساوٍ -على ما يبدو لي- أو ربما أكثر في جانب النفس،

(1)Horace (35) n I, 1.

ذلكم هو الخطأ الذي دمّر سمعة أغلب الرجالات الكبار في هذا العالم. ففي حياتي شهدتُ بل وعرفتُ رجالًا، ذوي نفوذ كبير، فقدوا بشكل لا تخطئه العين قدراتهم السابقة، التي كنت مع ذلك أعرفها بشهرتهم التي طبَقت الآفاق في وقت سابق. وإني لكنت أفضّل أن أراهم مُخْتلين مرتاحين في بيوتهم، زاهدين في الشؤون العمومية والعسكرية، التي لم تعد أكتافهم قادرة على تحمل عبئها. وذلك كان سيُحسب لهم كعمل مشرف.

24. كنت فيما مضى معتادًا على ارتياد بيت أحد النبلاء، وكان أرملًا وطاعنًا في السنّ، مع أنه ظل بالغ اليناعة في شيخوخته. كان له عدة بنات في سن الزواج، وولد بلغ سن الرشد. وكان ذلك يجرُّ عليه الكثير من المصاريف، وزيارات غرباء لم يكونوا يروقون له، لا بهاجس في الاقتصاد، ولكن لأنه مع التقدم في العمر انتهج أسلوبًا في الحياة بعيدًا جدًا عن أسلوب حياتنا. قلت له في أحد الأيام بنوع من الوقاحة، على عادتي، أن من الأفضل له أن يترك لنا المكان، وأن يترك لابنه البيت الرئيس (إذ أنه هو البيت الوحيد الذي كان منظمًا ومريحًا)، وأن يعتزل بنفسه في أرض كانت في ملكه في الجوار، حيث لا أحد سيقلق راحته في خلْوته، بما أنْ لا حلَّ له لتحملنا غير ذلك، بالنظر إلى وضعية أبنائه. ووقتًا بعد ذلك استحسن الأمر ووجد راحته في ذلك.

25. بيْد أن هذا لا يعني أن المرء لا يمكن أن يتراجع عن التزامه. فأنا أيضًا، ولأن الوقت سيحين لكي ألعب هذا الدور، يمكنني أن أترك لأبنائي التمتّع ببيتي وخيراتي، لكن مع الحق في التراجع عن ذلك بحرية، إذا ما هم منحوني سببًا لذلك. سأترك لهم حق استعمال جميع ممتلكاتي ما رغبتُ في القيام بذلك. فأنا مؤمنٌ بأن من دواعي البهجة لأبٍ عجوز أن يخبر أبناءه بمآل شؤونه، وأن يعمل ما دام هو على قيد الحياة على التحكم في سلوكهم، مانحًا إياهم نصحه ورأيه النابع من تجربته، وأن يضع بذلك سمعة بيته بين أيدي خلفائه، مانحًا لنفسه بذلك الضمانات عن الآمال التي يضعها في سلوكهم المستقبلي. وأنا من هذا المنظور، لا أريد أن أعتزلهم، بل بالعكس أن أمدَّهم بالنُّصح عن قرب، وأن أستمتع

حسب المستطاع ببهجتهم وبحفلاتهم وأعيادهم.

26. وإني، من غير أن أعيش في وسطهم -فذلك غير ممكن من غير أن أعكّر عليهم صفْو حياتهم بالكآبة المتصلة بعمري، والإكراهات الناجمة عن أمراضي- وأيضًا من غير المسّ بقواعد حياتي وطرائقها التي ستكون لي حينئذٍ - أرغب على الأقل في العيش بقربهم، في جناح من بيتي، لا ذلك البادي أكثر، وإنما ذلك الأكثر ملاءمة لي. فأنا لا أريد أن أتصرف مثل عميد سانت هيلير دو بواتييه[1] الذي رأيته من بضع سنوات غارقًا في كآبته، منغمسًا في وحدة بالغة، بحيث حين دلفْت إلى غرفته، لم يكن قد تركها منذ اثنين وعشرين سنة حتى للتمشّي بضعة أمتار. كان مع ذلك تام الأطراف، لا يعاني من إعاقة، وقادرًا على الحركة والتنقّل. فهو لم يكن يعاني إلا من زكام يُثقل صدره. كان بالكاد يسمح لأحد من معارفه بزيارته مرة في الأسبوع، فقد ظلّ يعيش على الدوام محبوسًا في غرفته، عدا الخادم الذي يأتيه بأكْلته اليومية الوحيدة، ولا يقوم سوى بالدخول للغرفة والخروج منها. وكانت تزجية الوقت الوحيدة التي يقوم بها هي أن يتمشى طولًا وعرضًا في الغرفة، وأن يقرأ بعض الكتب (فقد كانت له معارف في مجال الآداب)، ويصر على أن يموت على ذلك الحال، وهو ما حدث له فعلًا وقتًا قصيرًا بعد ذلك.

27. أما أنا، فإني سأسعى بالعناية اللطيفة، أن أوطّد مع أبنائي صداقة حقّة، وعطفًا يوليانهما لي. وهو أمر يمكن بلوغه بسهولة لدى أشخاص من بيوتٍ شريفة؛ ذلك أنهم إذا كانوا عبارة عن وحوشٍ منطلقة العقال، كما هم كُثْر ويتناسلون بالآلاف في وقتنا الحالي، علينا مقْتهم والتهرب منهم من حيث هم كذلك. وأنا أناهض تلك العادة المتمثلة في منع الأطفال من استعمال كلمة «أبي»، وإكراههم على استعمال عبارة أخرى غريبة عن العائلة وأكثر تبجيلًا، بما أن الطبيعة لم توفر لنا ما يكفي من السطوة. إننا نسمي الرب العلي القدير «أبانا»، وننكر على أبنائنا أن ينادوننا كذلك. ولقد صحّحت هذا الخطأ في عائلتي. كما أن

(1) يتعلق الأمر بجان دبستبساك، عميد سانت هيلير من 1542 إلى 1571 م، والذي توفي عام 1576 م، وقد لقيه مونتيني عام 1574 م.

من باب الرعونة والظلم، حرمان الأطفال حين يكبرون من الألفة مع آبائهم، والرغبة في الحفاظ معهم على جمودٍ متقشّفٍ ومكروه؛ معتقدين بذلك، الحفاظ عليهم في الخوف والطاعة. إنها كوميديا لا جدوى منها، تجعل من الآباء كائنات مملّة لدى أطفالهم، بل أكثر من ذلك أناسًا سخيفين؛ فأبناؤنا يملكون الشباب والقوة، وهم من ثمَّ ينتظرهم مستقبلٌ واعدٌ ويحظون بعناية كبرى. ولذلك فهم ينظرون بعين السخرية لملامح الكبرياء والجبروت، لدى رجل لم يعد له دم، لا في القلب ولا في الشرايين، ويبدو كفزّاعة حقول. فحتى وإن كنت أرغب في أن يخشاني الآخرون، فإني أريد بالأحرى أن يحبوني.

28. حال الشيخوخة يعاني من النقص في الكثير من الأشياء، فهو موسوم بالعجز البالغ ويسهُل احتقاره، بحيث إن أفضل ما يمكن أن يفعله العجوز هو أن يستميل عطف ومحبة أهله وأقاربه. فالتسلط والخوف ليسا سلاحًا ملائمًا له. ولقد عرفت أحد هؤلاء الآباء وكان متسلطًا جدًا في شبابه، وحين كبر في السن، ومع أنه حافظ على صحته ما أمكنه ذلك، ظلّ يضرب ويطلق الأقسام على عواهنها. إنه الشخصية الأكثر مزاجية بفرنسا؛ فالهموم والحذر ينخرانه، وكل ذلك ليس سوى كوميديا يشارك فيها كل أفراد العائلة: فالآخرون يحصلون على الحصة الكبرى من مخزن حبوبه، كما من قبْو حفظ اللحوم، ومن صُرة أمواله، وهو مع ذلك يحتفظ بالمفاتيح في حافظته، ويحرص عليها أكثر من بؤبؤ عينيه. وبما أنه يحس بالسعادة في الادخار؛ لأنه كان بخيلًا في مصاريف الأكل، كان أفراد العائلة يعيشون حياة الحرية والانطلاق في كافة أطراف البيت، بحيث يلعبون، ويبذرون المال، ويتحاكون قصص غضْباته النافلة، واحتياطاته التي لا تُجدي نفعًا. كان كل واحد متحزّبًا ضده. فإذا ما حدث أن ارتبط به خادم صغير، يشرعون في إطلاق الشكوك حوله، وهو أمر ينصاع له العجائز بسهولة. كم من مرة تبجَّح أمامي بأنه يتحكم في أهله، وبالطاعة والاحترام اللذين يحظى بهما، وكيف أنه متبصر بشؤونه:

«كان وحده جاهلًا بكل شيء»[1].

(1)Terence (111), Adelphes, IV, 2.

وأنا لا أعرف شخصًا يمكن أن يُفصح أكثر منه، عن مزايا فطرية ومكتسبة قابلة لأن تضمن له التحكم في الوضْع، وهو ما جُرِّد منه كما لو كان لا يزال صبيًا. ولهذا الغرض اخترت حالته من بين العديد من الحالات الأخرى التي أعرف، لأن حاله أنموذجي.

29. سيكون مثيرًا للجدل أن نعرف إنْ كان هذا الرجل مرتاحًا هكذا، أم أنه سيكون أفضل في حال آخر. فكل شيء في حضرته ينصاع لطاعة أوامره. إنهم يتركون سلطته المزعومة تتابع مسيرها، بحيث لا أحد يقاومه بشكل مفضوح. كلهم يصدّقونه ويحترمونه ما طاب له ذلك. فحين يصرف خادمًا من عمله، تراه يجمع حاجياته ويروح. لكن كل ذلك في الظاهر فقط ومن أجله وحده. وحين يأتي الوقت لذلك، يتم بعث رسائل من بعيد، مليئة بالاستعطاف والابتهال، وبالوعود بالعمل الأفضل، فيتمكّن الخادم «المطرود» من العودة إلى عمله حائزًا على العفو المنشود. وإذا ما بعث السيد رسالة مساومة، أو رسالة لا تروق للعائلة، يتم كتْمانها، ثم يتم بعدها ابتداع ما طاب لهم من الأسباب والعلل، لتبرير عدم تطبيق أي شيء من ذلك، أو لأنه لم يتوصل بأي جوابٍ على رسالته. لا رسالة آتية من الخارج تصله هو الأول، فهو لا يرى إلا تلك التي يرون أنها ملائمة له. وإذا ما حصل بالصدفة أن يتلقاها، وبما أن من عادته أن تُقرأ له رسائله، فإنها سوف تحمل ما يرغب هو في أن يكون فحواها، وهاهو من يمارس الشتيمة في رسالته يتحول إلى طالب للمغفرة. إنه لا يرى في نهاية المطاف من شؤونه إلا الصورة المرسومة بإتقان، والمؤلّفة بما يمنحه الرضا عن نفسه. فالأهمّ هو تفادي إثارة حفيظته. ولقد رأيت، وبأشكال مختلفة، بيوتًا يتم تدبيرها لمدة طويلة بالكثير من الثّبات، والتي تؤول للنتيجة نفسها.

30. النساء ميّالات بطباعهن إلى مماحكة أزواجهن. فهن يصطدن كل فرصة تبرّر معارضتهن لهم، وأول مبرر يصادفْنه يغدو مبررًا عامًا. وقد رأيت إحداهن تسلب من زوجها كميات هائلة من المال، كي تقوم بها بصدقات أكبر قيمة، كما زعمت للراهب الذي تلقى اعترافاتها. ولكُم أن تصدقوا هذه الحرية المؤمنة! ليس ثمة من شأن يحمل في نظرهن

كرامة ما،إذا ما منحه لهن أزواجهن. عليهن استلاب ذلك إما بالحيلة والمكر وإما بالقوة، لكن دومًا بطريقة غير صائبة، كي يمنحن أنفسهن النعمة والسلطة. وكما ذكرت ذلك آنفًا، حين يواجهن عجوزًا مسكينًا لصالح أبنائهن، فإنهن يقفزن على هذه الذريعة، ويستخدمنها لإشباع هواهن، جاعلين منها مجْدًا لهن؛ وكما لو كنَّ أيضًا خاضعاتٍ للعبودية التي يرزح تحت نيرها أبناؤهن، يتآمرن بسهولة ضد سيطرة السيد وسلطته. وإذا ماكان الأولاد كباراً وطموحين، فإنهم هم أيضًا يُغرون بالقوة أو بالرشوة، ومن غير تردّد، القائم على البيت أو المقتصد والآخرين كافة.

31. العجائز الذين ليس في حياتهم لا امرأة ولا أبناء، نادرًا ما يعيشون هذه الشرور، لكن بشكل أقسى وأحطّ بالكرامة أيضًا. فقد قال كاتو الكبير: «كلما كان لديك عدد من الخدم، حظيت بالعدد نفسه من الأعداء». فنحن بالنظر إلى الطابع الطاهر لوقته مقارنةً مع وقتنا، يمكننا التساؤل: إن هو لم يرغب في تحذيرنا بأن المرأة والولد والخدم هم دومًا أعداء لنا؛ فأن نكون عجائز وَهَن منا العظم، أمر يمنح لنا على الأقل هذا الامتياز المريح بألا نعير الاهتمام لأي شيء، وبأن نظل جاهلين لكل ما يحيط بنا، وأن ننصاع بسهولة للخداع. ولو كنا واعين بذلك، فما أبْأس حالنا وأحقرَهُ. وخاصةً في هذا الوقت، حيث القضاة الذين عليهم الحكم في قضايانا، يميلون بالأحرى لجانب الشباب، بحيث ينصاعون عادةً وبسهولة لرِشَاهم.

32. وإذا أنا ما لم أنتبه لهذه الخدعة، فأنا أنتبه على الأقل إلى أنني امرؤ سهلٌ خداعُه. فهل سنكشف بما يكفي عن ثمن الصداقة هذا، الذي يُدفع لتلك المواضعات المتمثلة في الزواج؟ وكم أُبدي عن تقديس علاقة الصداقة هذه حين أصادفها لدى الحيوان. فإذا كان الآخرون يخدعونني، فإني لا أخطئ في اعتبار نفسي قادرًا على حفظ نفسي من خُدَعهم، أو بإجهادي لذهني كي أبلغ ذلك. أنا أحترس من هذه الخدائع بالتبصّر في بواطني، لا بممارسة الفضول القلق والنزق. فأنا بالأحرى أتفادى التفكير بذلك وبشكل حازم. حين يبلغني وضْع أحدهم، لا أقوم

بالسخرية منه، بل أتفحص بواطني كي أدرك ما الأمر، فكل ما يتعلق به يمسّني. وما يحدث معه يجعلني في حيطة من أمري، ويوجه اهتمامي في تلك الوجهة. نحن في كل يوم وفي كل لحظة نقول عن شخص آخر ما نقوله بالأحرى وأكثر عن أنفسنا، إذا عرفنا طبعًا كيف ندير نحونا نظرنا عِوَض توجيهه نحو الآخرين. والعديد من المؤلفين يتسبّبون في الضرر بهذه الطريقة لدفاعهم عن قضيتهم الخاصة؛ بالجري بتهوّر نحو تلك التي يصارعون، وبإطلاقهم نحو خصومهم بتلميحات يمكنها أن تنطبق عليهم أكثر.

33. بعد أن فقد الرّاحل المارشال دو مونْلوك[1]ابنه، الذي توفي في جزيرة ماديرا، وهو رجل نبيل طيّب كان يضع عليه آمالا كبرى، أخبرني من بين ما أخبرني إياه، بالأسى والحزن والحرْقة التي أحس بها؛ لأنه لم يستطع أبدًا أن يكشف له عن مكنوناته. وقال بأنه بسبب مزاجه الأبوي الصارم وشدّته، فقَد كل وسيلة لمعرفةٍ أفضل لابنه ولتقديره له، كما كل فرصة لكي يفصح له عن العطف الكبير الذي يكنّه له، والحكم الممتدح الذي يحمله عن قيمته. ثم إنه أضاف: «وهذا الولد المسكين، لم يرَ مني إلا الجبين المقطّب، والسلوك المليء بالمقت؛ وقد رحل عنّا، ظانّا أني غير قادر على حبّه، أو تقديره حقّ قدره. فلِمَ إذًا كنت أوفّر البوح بهذا العطف والحنان اللذين كنت أكتّهما له؟ أليس هو من كان يجب أن يتمتع بذلك ويعترف به؟ لقد جهدت وتعذبت كي أحافظ على ذلك القناع البليد، وفقدت بذلك متعة الحديث معه، ومعها خسرت حنانه وعطفه: فهو لم يكن له إلا أن يظلّ بارد العاطفة معي، ما دام لم يحسَّ من جانبي إلا بالقساوة والسلطة المستبدّة». أعتبر أن هذا الندم كان صادقًا ومعقولًا لأني كما أعرف ذلك بالتجربة الحية الشخصية، لا عزاء في فقدان أحبابنا أسْلى من استظهار ما قلناه لهم، واستذكار وصْلنا إياهم على الدوام. أيْ صديقي، أكان خيرًا أم شرًا، أني قد ذقت من هذه الكأس؟ لا جَرَم أنه خير. فإن في الندم عزاءً ووفاءً. أليس الحداد الأبدي واجبٌ يحقق الراحة ويفصح عن الإخلاص؟ أيكون فيه مسرة تضاهي هذا الفقدان؟

(1) للمارشال دو مونلوك، الذي كتب مذكرات بعنوان «شروح وتعاليق»، توفي عام 1577 م، وابنه عام 1566 م.

34. أنا أسرّ بأموري لأهلي ما استطعت ذلك، وأخبرهم بمشروعاتي وبحكمي عليهم كما على أي كائن آخر.وأنا لا آلو جهدًا في الظهور، وفي تقديم نفسي، لأني لا أرغب في أن يخطئ أحد في حقي بأي شكلٍ كان ذلك.

35. من بين العوائد الخاصة التي كانت لأسلافنا الغاليين حسب ما جاء على لسان يوليوس قيصر، كان ثمة عادة جارية في أن الأولاد لم يكونوا يقفون في حضرة آبائهم، ولا الظهور في المجال العمومي إلا حين يبدؤون في حمل السلاح. وذلك يعني أنهم بدءًا من تلك اللحظة يمكنهم أن يكونوا جزءًا من معارف آبائهم وصحابهم.

36. ولقد وقفت أيضًا على ضرب آخر من الجلف من لدن بعض الآباء في وقتي، وهو يتمثل في أنهم لا يكتفون بحرمان أبنائهم، خلال حياتهم الطويلة، من الحصة التي تعود لهم شرعًا في ثروتهم، وإنما يتركون بعد وفاتهم لنسائهم تلك السلطة على كافة خيراتهم، مع الحقّ في أن يتصرفن فيها على هواهنّ. وهكذا فقد رأيت سيدًا نبيلًا ينتمي للضباط الأوائل للعرش، والذي كان يبلغ ريعه أكثر من خمسين ألف ريال فرنسي يموت في فقْر مدقع ورازحًا تحت الديون، وأمه وقد جاوزت الخمسين من عمرها، لا تزال تتمتع بكافة خيراته تبعًا لإرادة أبيه، الذي كان قد عاش ما يناهز الثمانين عامًا. وهذا أمر لا يبدو لي معقولًا البتّة.

37. وإني لأعتبر أن من غير المجدي أن يسعى شخص، تسير شؤونه كما يرغب في ذلك، إلى البحث عن امرأة ترهق كاهله بمهرٍ بالغ. فليس ثمة من ديْن خارجي يكون سببًا في تدمير العائلات أكثر من ذلك. والسابقون لي قد جروا على عادة اتّباع هذه القاعدة، وأنا أحذو حذْوهم في ذلك. لكن أولئك الذين ينصحوننا بتفادي الزوجات الثريّات؛ خوفًا من أن يكنَّ أقل طاعةً وأقل اعترافًا بالجميل، مخطئون تمامًا. فهم مخطئون في أن يحرمونا من امتيازات مهمة لا تقاس بتلك المشكلات البسيطة. فالنساء غير العاقلات يستطعن الاستهتار بالسبب الوجيه كما بغير الوجيه، فذلك لديهن سِيان. وكلما كنّ على خطأ كلما كنّ سعيدات

بأنفسهن. والحيف يمارس جاذبيته عليهن، مثلما يفتنُ شرفُ الأعمال الفاضلة النساء العاقلات من بينهن، وهنّ يكنّ عاقلات مقدار ثرائهنّ، كما أنهم يكنّ بالغات العفّة بمقدار توفرهن على الحسن والجمال.

38. من العدل ترك تدبير شؤون البيت للأم،ما دام كان الأطفال لا قِبل لهم بذلك شرعًا. لكن سيكون الأب قد أخطأ في تربيتهم أحسن تربية، إن لم يتوخّ منهم عند رشدهم أن يكون لهم من الحكمة والمؤهلات أكثر من زوجته، بالنظر إلى الضعف الطبيعي لهذا الجنس. لكن سيكون من باب منافاة الطبيعة، أن يدع الآباء الأمهات رهْن قرارات أبنائهن. فعليهم أن يمنحوهن ما يكففْن به حاجاتهن، حسب ظروف البيت وتبعًا لعمرهن، خاصةً وأن الفقر والخصاص يكونان صادميْن لهن، وأكبر من أن يتحملنهما مقدار تحمّل الرجل لهما. فمن الأفضل أن يجعلوا الأطفال يتحمّلون ذلك.

39. أصحُّ الطرائق عمومًا لتقسيم خيراتنا عند وفاتنا هو -حسب ما يبدو لي- أن نقوم بذلك حسب عوائد البلد. فالقوانين والشرائع قد فكرت في ذلك أفضل منا، ومن الأفضل أن نتركها تخطئ في اختياراتها على أن نخاطر بذلك نحن عِوضها. وهذه الخيرات ليست في الحقيقة خيراتنا، إذ حسب الشرائع التي سُنت في غيبتنا، هي منذورة لبعض خلَفنا. ومع أن لنا الحرية في تغيير ذلك، فأنا أعتقد أن من اللازم وجود سبب خطير وبدْهي، يدفعنا إلى حرمان شخص مما خصَّه القدر به، ومنحته إياه العدالة؛ وأن من باب الشَّطط غير المعقول استعمال تلك الحرية لإرضاء أهوائنا الشخصية. وأنا لي الحظ أني لم يُتح لي أبدًا أن أداور اعتباري للقاعدة الشائعة والشرعية. وثمة بعضهم لا سبيل ولا جدوى في إثنائهم عن قرارهم. فكلمة رعناء واحدة كافية لمحو مزايا عَقد كامل. وما أسعد من يكون حاضرًا كي يُداهن وصاياهم الأخيرة. العمل الأخير الذي يقوم به الفرد تجاه الإنسان المقبل على الموت يكون هو الحاسم، لا العناية المتوالية والمنتظمة، وإنما العناية الأخيرة، التي قام بها الفرد في الوقت المناسب.ها هم أناس يستعملون وصاياهم للإيراث، كما لو كانت حبات تفاح أو خُشيْبات حسابٍ لجزاءٍ أو عقاب من يطمع فيها، تبعًا لأعمال كل واحد منهم. وهو أمر له نتائج بعيدة المدى وأهمية بالغة

بحيث لا يمكن التقلب في اتخاذ القرار بصددها في كل لحظة. والحكماء من بين الآباء يقومون بذلك مرة إلى الأبد، معتمدين في ذلك على العقل والعادة بالأخص.

40. يبدو أن أعزَّ شيء إلى قلب الناس في هذا المضمار هو «التواتر الذكوري»[1]، بحيث نسعى بأسمائنا إلى خلود سخيف. كما أننا نمنح أهمية مبالغ فيها للتخمينات التي نقوم بها بخصوص مستقبل الأبناء انطلاقًا مما نلاحظه لديهم. ربما كان من الظلم إسقاطي من مرتبتي كابن بكر، لأني كنت الأخرَق والأقل ذكاءً، والأبطأ في التعلّم والأكثر تهربًا من الدروس، لا فقط من بين إخواني وإنما من بين كافة أبناء المنطقة، سواء تعلق الأمر بأعمال العقل أو الأعمال البدنية. إنه لمن البلاهة القيام باختيارات انطلاقًا من تلك التكهنات التي تلعب في الغالب بتوقعاتنا. فإذا كنا قادرين على خرق القاعدة العادية، وتغيير الأقدار المخصوصة بورثتنا، فإن على ذلك أن يتم تبعًا لعاهة جسمانية كبيرة وواضحة، أي على خلَل مستدام ولا يمكن تصحيحه أو تسويته بحيث يشكل ضررًا بالغًا.

41. وهذه المحاورة اللطيفة لأفلاطون التي تتم بين المشرّع ومواطنيه[2]، توضح ما أقول: «كيف يمكن إذًا، كما قالوا وهم يحسون بأجلهم قريبًا، ألا نتصرّف في ما لنا لصالح من يعجبنا؟ أيتها الآلهة، يا للقساوة ألاّ يكون بإمكاننا أن نقرّر على هوانا في ما سنهب لأقربائنا، حسب خدمتهم لنا، في وقت مرضنا وشيخوختنا، وحسب حرصهم وسهرهم على شؤوننا». فكان جواب المشرِّع: «أصدقائي، الذين لن يتأخر الأجل عنهم بالتأكيد، أنتم لا تستطيعون البتّة اليوم أن تعرفوا من أنتم ومعرفة ما يعود لكم، تبعًا لما هو مكتوب على جبين القدَر. وأنا الذي يشرّع القوانين، أزعم أنكم لا تنتمون لأنفسكم مقدار ما لا تملكون ما تتمتعون به. فأنتم وخيراتكم تنتمون لأسركم، الماضية والمستقبلة. لكن أنتم وأسركم تنتمون قبل

(1)Substitution masculine وهو اصطلاح يعني أن المشرع الفرنسي يدعو وريثًا أو أكثر لأخذ مكان الوريث الأول المعيّن، كيلا يستحوذ وحده على الإرث. وهو تواتر للإرث يخص الذكور فقط.

(2)Platon (71), XI.

كل شيء لمدينتكم. لهذا فإن مهمتي تتمثّل في القيام بوصيةٍ غير عادلة، تحت تأثير أهوائكم، أو بتأثير من أحدهم من ذوي العبارات المداهنة. لكن احترامًا للمصلحة العامة للمدينة، وخدمة أيضًا لمصالح أسركم سأصدر القوانين وأسهر بإعمال العقل على التضحية بالمصلحة الفردية لفائدة المصلحة العامّة. فإليّ يعود السّهر على تركتكم، أنا الذي لا يفضل شيئًا على آخر، ويحرص حسب المستطاع على المصلحة العامة».

42. لكني سأعود لحديثي عن قضية النساء: يبدو لي، ولا أدري لماذا، أن النساء اللواتي لهن سلطة على الرجال نادرات، إلا اللواتي يملكن بشكل طبيعي السلطة الأمومية، وإلا مَن مِن الرجال يخضع لهن بسبب مزاج مرضي أو عقاب معيّن. لكن هذا لا يخصّ النساء العجائز اللواتي أتحدث عنهن هنا. وبداهة هذا الرأي هو ما جعلنا نبلور ونثبّت عن طواعية ذلك «القانون» الذي لم يشهده أحد، والذي يتمثل في حرمان النساء من اعتلاء العرش[1]. وليس ثمة من إقْطاعة في العالم لا تحيط ذلك الحرمان، كما لدينا، بمظهر عقلاني يمنحه سلطة تامة. بيد أن الصدفة منحت لذاك القانون مصداقية أكبر في بعض الأماكن منها في أماكن أخرى. فمن الخطير أن نمنح للمرأة الحكم في تقسيم تركاتنا، تبعًا للاختيار الذي تطبقه على الأبناء، والذي يكون في الغالب غير عادل وأخرق. فنحن نراهُنَّ عادةً يرتبطن بالأضعف من بينهم، وبمن لا يملك من بينهم بنية قوية، أو أولئك الذين يتشبثون بتلابيبهن، أو يتعلقون بعنقهن، إذا ما تبقى لهن عنق. فلما كنَّ لا يملكن قوة الحكم لاختيار وتبنّي المستحِق من بينهم، نُلفيهن ينْصعن إلى ما تبتغيه الطبيعة من غير تقاسم، مثلهن مثل الحيوانات، التي لا تتعرف على أبنائها، إلا حين يكونون ملتصقين بحلْمات أثدائها.

43. علاوة على هذا، وكما توضح ذلك التجربة، من السهل أن نرى أن هذا العطف، الذي نمنحه أهميةً كبرى، له جذور كبيرة في الضعف. فنحن

(1) يتعلق الأمر بـ«القانون السالي»، أي الفرنكيين الساليين، الذي تم إصداره في عهد الملك كلوفيس ثم شارلماني. وهو يحرم النساء من إرث الأرض، وتمّ تعميمه ليحرمهن من العرش. وفي وقت كتابة المقالات هذه، كان الأمر قضية راهنة، لأن الناس كانوا يعتقدون أن هنري الثالث لن ينجب أولادًا. ومونتيني يدافع عن هذا القانون باعتباره «معقولًا»، لا باعتباره قانونًا تقليديًا يقوم على نصّ قديم.

من أجل أجر زهيد ننتزع يوميًا من الأمهات أبناءهن كي نكلفهن بإرضاع أبنائنا، ونحن نُكره المرْضعات السقيمات على ترك رُضَّعِهن أحيانًا إلى الماعز كي نكلفهن برُضَّعْنا. ونحن نمنعهن ليس فقط من إرضاعهم، مهما كان الخطر الذي يتهدَّدهم من جراء ذلك، بل حتى من أن يكونوا بحاجةٍ لهن، كي نجعلهن تمامًا وكليةً في خدمة رُضّعنا. ونحن نلاحظ بسرعة، أن لدى أغلب تلك الأمهات، يتطور بالعادة حنانٌ هجينٌ، أكثر حيوية من الحنان الطبيعي، وعناية أكبر بأطفالٍ عُهد بهم لهن، يفوق حنانهن على أطفالهن. وإذا ما تحدثتُ عن الماعز، فلأن من المعتاد من حولنا أن نرى نساء القرى، حين لا يستطعن منح أثدائهن لإرضاع أبنائهن يطلبن نجدة الماعز لذلك. وأنا لديَّ في هذا الوقت خادمان لم يرضعا حليب أمهما إلا لمدة أسبوع. وهاته المعْزات متعودات على إرضاع الصغار، بحيث إنها تتعرف على صراخهم فتهرع إليهم. وإذا ما قُدم لمعزة رضيعٌ غير رضيعها تنفر منه. وقد رأيت في أحد الأيام أحد الرّضع تُنتزع منه عنزته؛ لأن أباه كان فقط قد استعارها من الجيران، ولم يتعوّد على أي عنزة أخرى فمات جوعًا. فالحيوانات تغير بصورة أسهل منا حنانها وعطفها الطبيعي.

44. يقول هيرودوتس: إن الرجال في بعض مناطق ليبيا يمارسون معاشرة حرة مع النساء، بيد أن الصبي، ما إن يمشي على قدميه،حتى يختار الأب الذي يميل إليه طبعه من بين الرجال. وأظن أن ذلك لا يمكن أن يتمّ من غير أخطاء واردة[1].

45. وإذا كنتُ الآن أتناول مسألة أننا نحب أبناءنا لسببٍ بسيط، هو أنهم من لحمنا ودمنا، بحيث نسميهم «أشباهنا» بفعل ذلك، فيبدو لي أن ثمة شيئًا آخر صادرًا عنا له ما لذلك من القيمة. بل بالعكس، فما نلده بأرواحنا، أي أبناء روحنا وقلبنا ومعارفنا، هي منتَجات من جزءٍ أشرف فينا من الجزء البدني، وهي من ثم بنوَّتنا أكثر. ففي عملية الولادة هذه،

---

(1) يتعلق الأمر بممارسات عرفتها المجتمعات الأميسية. ويتحدث المؤرخون وعلماء الأنثربولوجيا التاريخية أيضًا أن النساء في جزيرة العرب قبل الإسلام كنّ ينصبن خيمة ويعاشرن رجالًا يخترنهن، كي ينسبن المولود منهن للأشرف من بينهم [المترجم].

نحن في الآن نفسه الأب والأم. وأولئك الأبناء ندفع ثمنهم أغلى، غير أنهم يمنحوننا شرفًا أكبر من قيمتهم. فقيمة أبنائنا «الجسمانيين» هي بالأحرى قيمتهم هم أكثر من قيمتنا نحن، والحصة منا التي نضعها فيهم أقل وأخفّ. أما أبناء عقولنا، فإن جمالهم وسموّهم وقيمتهم هي جمالنا وسمونا وقيمتنا. وبهذا فهم يمثلوننا بشكل أفضل من الأبناء الآخرين.

46. يضيف أفلاطون أن هؤلاء أبناء خالدون يخلّدون آباءهم بل يؤلهونهم، كما كان حال ليكورغوس وسولون ومينوس. ولما كانت لحكايات القديمة مليئة بالأمثلة عن هذا الحب المعتاد الذي يكنّه الآباء لأبنائهم، فإنني لا أعتبر أن من باب الاستطراد أن أثبت هنا بعضًا منها.

47. لقد فضّل هليودوروس،ذلك الأسقف الشجاع لمدينة تريكا، أن يفقد الكرامة والمزايا والقداسة المرتبطة بمكانته الرفيعة كأسقف عِوَضًا عن فقدان «ابنته»[1] التي لا تزال تعيش لحدّ اليوم في كامل بهائها، مبالغةً بحقّ في حسن مظهرها وحلْيتها، محبوبة بشكلٍ مفرطٍ فيه أيضًا، مع أنها البنت الكنَسية والقُداسية.

48. كان يعيش في روما رجل اسمه لابيانوس*[2]، وهو رجلٌ ذو نفوذ وقيمة كبيرة، وكان من بين مزاياه أنه رجل بارع القلم في كل الآداب. كان -فيما يبدو لي- ابنًا لذلك الرجل العظيم لابيانوس، أول وأكبر قائد ليوليوس قيصر في حرب الغاليين، والذي تحالف فيما بعد مع بومبيوس الأكبر بشجاعةٍ وبأسٍ شديد، حتى تحدّاه يوليوس قيصر في إسبانيا. ولابيانوس الذي أتحدث عنه هنا، كان له من الحساد الكثيرون؛ بسبب حريته وما ورثه من أحاسيس أبوية ضد الاستبداد، والتي نفثها بالتأكيد في كتاباته ومصنَّفاته. قام خصومه برفع دعوى ضده بروما، وحصلوا على حكم من المحكمة يقضي بأن العديد من المؤلفات التي ألّف محكوم عليها بالحرق. ومعه بدأ هذا الضرب من الأحكام الذي

(1) هذه البنت ذات طابع روحاني خالص، لأن الأمر يتعلق بروايته «القصة الإثيوبية»، التي ترجمها أميوت للغة الفرنسية.

(2) * هو المؤرخ والخطيب والأديب الروماني تيتوس لابيانوس، واسمه المستعار رابيالوس.

تم تطبيقه فيما بعد على آخرين غيره بروما، والذي يتمثّل في الحكم بالإعدام على الكتب بل حتى على مسوّداتها الأولية.

49. إننا نحسّ كما لو لم يكن للقساوة موضوعات ووسائل كافية، حتى نمزج بها أشياء حرمتها الحياة من كل إحساس، ومن ثم من كل معاناة، من قبيل شؤون العقل ومنتجاته، وكما لو أننا علينا أن نضفي الآلام الجسمانية على العلوم والأعمال التي تلهمها آلهة الفن. لم يستطع لابيينوس أن يتحمل ألم ذلك الفقدان، ولا اتباع مصير تلك الذرّية التي كانت عزيزة على فؤاده. فعمد إلى حبس نفسه حيًا، في معبد أسلافه، لينتحر ويدفن نفسه به في الآن نفسه. لا يمكننا أن نقدم أبدًا مثالًا مقنعًا عن العطف الأبوي أفضل من هذا. أما كاسّيوس سيفيروس، وهو رجلٌ فصيحٌ كان من أصحاب لابيينوس، فحين رأى كتب هذا الأخير تُحرق صرخ قائلًا: إن الحكم نفسه بالحرق كان من اللازم أن يقع عليه هو أيضًا، لأنه يملك كافة الكتب ويحفظها عن ظهر قلب.

50. والضيْم نفسه ألمّ بغريونتيوس كوردوس*[1]، حين اتُّهم بإنشاد مدائح بروتوس وكاسيوس في كتبه. وهكذا قام مجلس الشيوخ المقيت والفاسد، الخليق بإمبراطور أنذلَ وأخسَّ من تيبيريوس، بإدانة كتاباته بالحرق. فقرّر هو نفسه اللحاق بها موتًا بالصيام مُطلقًا عن الأكل.

51. وكان لوكانوس*[2] الشهم الطيّب قد حكم عليه الوغد نيرون بالموت. وفي اللحظات الأخيرة التي سبقت موته، وحين كاد الدم يفرغ منه سائلًا من شرايينه التي طلب من طبيبه فتحه طلبًا للانتحار، وبما أن البرودة استبدت بأطرافه لتقترب من المناطق الحيوية، كان الشيء الأخير الذي تذكّره، هو بعض الأبيات من شعره، من ملحمة «فارساليا». قام بإنشادها ثم أسلم الروح، وتلك كانت آخر الكلمات التي نطق بها. ألمْ يكن ذلك ألطف طريقة أبوية وأرقّها يودّع بها أبٌ «أبناءه»؟ ألم يكنْ

(1) * Cordus Greuntius هكذا في الأصل، والاسم محرف والصواب أنه للمؤرخ الروماني كريموتيوس كوردوس (21 ق.م – 25 م).

(2) * ماركوس أنايوس لوكانوس (39 م – 65 م) شاعر روماني.

ذلك يمثّل بقوة الوداع والعناق الذي نقوم بهما لأقاربنا حين يرحلون عن هذا العالم؟ أليس ذلك مثالًا عن نزوعنا الطبيعي لتذكّر الأشياء العزيزة على قلبنا طيلة حياتنا، في هذه التخوم الأخيرة لحياتنا؟

52. مات إبيقوروس، كما يقول هو نفسه، وهو يعاني من عذاب لا يُحتمل بسبب المغص الكلوي، لا يواسيه في ذلك إلا روعة المذهب الذي كان يعلّمه لأتباعه. هل كان سيستقي من فلذات كبده العديدين الأصحاء والنجباء، لو كان أنجبهم، سعادةً أكبر من كتاباته الرائعة؟ لو كان لديه الاختيار في أن يترك خلفه ولدًا أهْوج ومستنسخًا، أو كتابًا سخيفًا ومملًّا، أفلا يختار -لا هو فقط وإنما كل رجلٍ عالمٍ مثله- أن يصيبه الشّر الأول لا الثاني؟ سيكون الأمر بمثابة كفر لدى القديس أوغسطينوس (على سبيل المثال) لو طلبنا منه أن يقبر كتاباته، التي استقت منها ديانتنا فائدةً عظيمةً، أو يَئد أبناءه، لو كان له أبناء[1]. أما أنا، فإني أفضّل إنجاب ابن مكتمل الصورة من آلهة الفن، على إنجاب ابن من زوجتي.

53. ولابني هذا: أي «مقالاتي»، وبالصورة التي هي عليها، أهب كليةً ونهائيًا ما هو أهل له، مثلما أفعل ذلك مع ذرّيتي. والثروة القليلة التي منحته إياها لم أعد أملكها. فهو يعلم ربما أشياء كثيرة غابت عن ذهني، وورث مني ما لم أحتفظ به، وما يلزمني عند الحاجة أن أستعيره منه، كما لو كنت غريبًا عنه. وإذا كنت أكثر حكمة منه، فهو أكثر ثراءً مني.

54. ثمة القليلون من الناس الذين يتعاطوْن قرض الشعر لن يحسّوا بالفخر بكونهم آباء ملحمة «الإنيّادة» لفرجيليوس أكثر من كونهم آباء لأوْسم فتيان روما، والذين لن يتحمّلوا بسهولة خسارة هذا أو ذاك منهما. فحسب أرسطو، يُعتبر الشاعر من بين كافة العمال الأولع بعمله. من الصعب علينا أن نصدّق أن إبامينونداس، الذي كان يتباهى بأن يترك خلَفًا له فتيات يسْعدن في يوم ما أباهنّ (أي الانتصارين الكبيريْن

(1) كان للقديس أوغسطينوس أبناء، وكتابه «الاعترافات» ينبئنا بذلك، غير أن مونتيني يبدو أنه لم يطّلع عليه.

اللذين حازهما على الإسبّرطيين)، قد قبِل باستبدالهن بأجمل فتيات بلاد اليونان؛ أو الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، اللذيْن لم يتمنيّا أبدًا أن يُحرما من عظمة منجزاتهما الحربية المجيدة، ويستبدلاها بإنجاب أولاد يكونون ورثةً لهم، مهما كان كمالهم واكتمالهم.

55. والحقيقة أنني أشكّ كثيرًا في أن يمنح فيدياس، أو غيره من خيرة النحاتين، أهمية خاصة للحفاظ على أبنائه الواقعيين أكثر من الأهمية التي سيوليها لمنحوتة ممتازة تامة الاكتمال تبعًا لمعايير الفن وقواعده السامية، قضى في إنجازها مدة طويلة من العمل الحاذق المثابر. أما تلك الأهواء المجنونة والآثمة التي ألهبت أحيانًا محبة الآباء لبناتهم ومحبة الأمهات لأبنائهن، فإنا نجد أمثلة لها في تلك القرابة الخاصة، التي تشهد عليها قصة بيجماليون، الذي بعد أن أنجز منحوتة امرأة باهرة الجمال، سقط صريع حب ذلك العمل الفني الذي كان مع ذلك عمله، بحيث كان من الضروري أن تنفخ فيها الآلهة الروح.

«لمس العاج الذي فقد صلابته
فصار رخْوًا حيًا تحت أنامله»[1].

(1) Ovide, (62) X, 283.

الفصل التاسع

عن أسلحة البارْثيين

1. إنه لسلوك مُشين من النبلاء في وقتنا، وعلامة منهم على الضعف، ألا يحملوا السلاح إلا عند الحاجة الماسّة وأن يتركوه عندما يبعُد الخطر إلى هذا الحدّ أو ذاك. عن ذلك تنجم نتائج وخيمة كثيرة: فحين يتصارخ الجميع ويتجارؤن لحمل السلاح وقت المعركة، يكون البعض لا يزالون يحزمون شرائط دروعهم، فيما يكون رفقاؤهم قد لقوا الهزيمة. كان آباؤنا يتركون قلنسوتهم ورمحهم وقفافيزهم الجلدية، لكنّ باقي عتادهم يظل ملازمًا لهم ما داموا في الخدمة. إن جنودنا اليوم مضطربون وغير منظمين، وذلك بالارتباك الناجم عن عتادهم أمتعتهم، وعن الخدم الذين يلازمون أسيادهم، حاملين أسلحتهم.

2. يقول تيتوس ليفيوس متحدثًا عن أناس بلدنا: «ولأنهم كانوا عاجزين عن تحمل معاناة التعب، كانوا يجهدون في حمل أسلحتهم على أكتافهم»[1]. فالعديد من الشعوب كانت تروح بالأمس للحرب وتروح لها في أيامنا هذه من غير حماية نفسها، أو باحتياطات غير كافية.

«إنها تسير للحرب ورأسها محمي بالفلين»[2].

3. كان الإسكندر الأكبر، القائد الذي لم تعرف البشرية نظيرًا له، لا يلبس إلا في النادر الأقل القلنسوة والدرع. وأولئك منا الذين يمقتون هذه العدّة لا يؤثر ذلك على قدراتهم القتالية. وإذا ما حدث أن يُقتل أناس لأنهم لم يكونوا يرتدون الدروع، فالموت يصيب أيضًا من يلبسونها؛ نظرًا لأن كثرة العُدّة والعتاد يجعلهم أضعف بسبب ثقلها، أو لأنهم يعانون من الجراح أو من كسر باطني ناجم عن اصطدام قوي. فالحقيقة أننا حين نرى ثقل دروعنا وسمكها، ندرك أننا لا نسعى إلا للدفاع عن أنفسنا، بحيث نرى أنها تورّطنا أكثر مما نحس بأنها حاميةٌ لنا. وهكذا يكون علينا الجَهْد في تحمل ثقلها، بحيث نحس بأنفسنا محبوسين ومعوقين، كما لو كان القتال يعني القتال فقط بها، وكما لو لم تكن لنا حاجة للدفاع عنها كما ستحمينا هي أيضًا.

---

(1) Tite-Live (105), XXVII, 48.

(2) Virgile (112), VII, v, 742.

4. يصف تاسيتوس بمرح المقاتلين الغاليين باعتبارهم أناسًا يتدجّجون بالسلاح فقط لحماية أنفسهم، غير قادرين على جرح أي أحد ولا أنفسهم، بحيث لا يستطيعون النهوض إذا هم سقطوا أرضًا. رأى لوكولّوس بعض العسكر لدى الميديين كانوا في واجهة جيش الملك الأرمني تيجران، مدجَّجين بالسلاح ويتحركون كما في حبس من الحديد. وقد استخلص من ذلك بأنه سوف يُلحق بهم شر هزيمة وبسهولة، ومنهم بدأ هجمته التي قادته إلى النصر.

5. والآن وقد صارت البنادق الخفيفة تقليعة جديدة، أعتقد أنهم سيخترعون شيئًا لحمايتنا منها، وسوف يحبسوننا فيها، وسيقودوننا للحرب محبوسين في معاقل حصينة مثلما كان القدماء يدرّعون بها فيلتهم. إنه تصوّر بعيد جدًا عن تصور سكيبيو إيميليانوس الذي قام بتوبيخ جنوده لنصبهم فخاخًا تحت الماء في الخندق الذي كان يمكن لأناس المدينة التي كانوا يحاصرون أن يخرجوا منها، قائلًا لهم إن عليهم أن يضعوا نصب أعينهم الهجوم لا الدفاع. فقد كان يخشى أن تدفع هذه الترتيبات الحمائية إلى النقص من حذرهم ويقظتهم وهم يحرسون العدو. كما أنه قال لجندي شاب كان يستعرض عليه بإعجاب درْقته: «إنها درقة جميلة يا بُنيَّ، لكن الجندي الروماني عليه أن يثق بيده اليمنى لا باليسرى».

6. وليس غير الاعتياد يمكنه أن يجعلنا نتحمّل ثقل دروعنا.

«جنديان هنا كانا يحملان
الدرع الخفيف على الجسم والقلنسوة على الرأس
ومنذ أدخلوهما لهذا القصر
لم ينزعا عنهما عدّتهما
فهما يلبسانها بُيسرٍ لباسهما العادي
من فرط الاعتياد عليهما»[1].
كان الإمبراطور كراكلّا يرتاد البلاد على رأس جيوشه مدجّجًا

(1)Ariosto (49), XII, 30.

بالسلاح من الرأس إلى أخمص القدمين.

7. وكان جيش المشاة الرومان لا يرتدون فقط القلنسوة ويحملون السيف والدرْقة وإنما أيضًا من المؤونة ما يكفيهم خمسة عشر يومًا، ومعها عدد من الأخشاب المسنّنة لبناء حصنهم، وهي حَمولة تناهز أحيانًا الثلاثين كيلوغرامًا. أما الدرع كما يقول شيشرون فإنهم من فرْط اعتيادهم عليها فوق ظهورهم لم تعد تزعجهم أكثر من أطراف أجسامهم: «إذ يُقال إن أسلحة الجندي بمثابة أطرافه»[1].

8. لقد كان انضباطهم العسكري أكثر قساوة من انضباطنا، وتنجم عنه آثار بالغة الاختلاف. وإليكم ملمح مدهش منه: أُخِذ على جندي من إسبرطة أنه شوهد محتميًا من أهوال الحرب في بيت، خلال إحدى الحملات العسكرية. لقد كان أولئك الجنود متعوّدين على رباطة الجأش، بحيث كان ضربًا من العار رؤيتهم تحت سقف ليس هو سقف السماء، سواء كان الوقت شتاءً أو صيفًا. وحين كان سكيبيو إيميليانوس يعيد تشكيل جيوشه بإسبانيا أمر جنوده ألا يتناولوا طعامهم إلا وقوفًا وألا يَطْعَموا من شيء مسَّته النار. وبهذا الشكل يمكننا أن نقود جيوشنا إلى أبْعد نصر مكين اليوم.

9. علاوة على ذلك، قام أميانوس ماركلّينوس*[2]، وهو خبير كبير في الحروب الرومانية، بالتسجيل الدقيق للطريقة التي كان بها يتسلح البّارثيون، خاصةً وأنها طريقة مخالفة جدًا لطرائق الرومان.

10. وهو يقول: «كانت لهم دروع مصنوعة من ريش صغير. وكانت لا تعوق حركاتهم ومع ذلك كانت من الصلابة بحيث تصطدم بها سهامنا (وهي تشبه الحراشف المعدنية التي كان يستعملها أسلافنا). ويضيف في صفحة أخرى: «كانت لهم جياد قوية ومتينة، يسرجونها بالجلد الغليظ، ومدرّعين من الرأس إلى أخمص القدمين، بصفائح غليظة

---

(1)Cicéron (21), II, 16.

(2) * أميانوس ماركلّينوس (330 م تقريبًا – 395 م) هو آخر كبار المؤرخين الرومان، وهو من مواليد أنطاكية.

من الحديد، منظمة بشكل تبيح معه حركة الأطراف في المفاصل. حين تراهم تخالهم أناسًا من حديد، إذ كانت لهم قلانس لصيقة بشكل دقيق بملامح وجوههم، بحيث لا يمكن بلوغها إلا من خلال ثقوب دقيقة مدوّرة في مكان العينين، تمكنهم من الرؤية، وفي موضع المنخرين لتمكينهم من التنفُّس بشكل صعب حسبما يبدو».

«إنه لمنظر رهيب. المعدن المرن للدرع
يبدو كما لو تحركه الأطراف التي يغلف..
نخالها منحوتات من حديد تتحرك
محاربون من معدن، ومع ذلك من خلاله يتنفسون
الجياد تكتسي بالكسوة نفسها: جباهها تهدد العدوّ
مغلفة بالحديد، وجوانبها مصفّحة
تتحرك في مأمن من الجراح»[1].
ها هو وصْف يشبه بقوة عدّة محارب فرنسي، مكسوًا بكافة قطع درعه.

11. يقول بلوتارخوس إن ديميتريوس طلب لنفسه وللقائد الذي كان يتبعه في المرتبة درعًا كاملة كانت تزن ستين كيلوغرامًا، فيما كانت الدروع العادية لا يتعدى وزنها الثلاثين.

(1) Claudien [23] II, 358.

الفصل العاشر

عن الكُتب

1. لا شك في هذا الأمر: فأنا يحلو لي، غالبًا، الحديث عن أمور يعالجها المختصون بها، أفضل مني وبعمق أكبر. وإني لا أقوم هنا إلا باستخدام قُدراتي الطبيعية لا المعارف المكتسبة؛ وإذا ما أقنعني أحد بجهالتي، فإن ذلك لن يمسّني؛ لأنني سأكون في ورطة من أمري لعدم قدرتي التامة على تبرير ما أقول لنفسي، ولا أكون راضيًا عنه. من كان يبحث عن العلم فليسْعَ إليه حيثما كان؛ أما أنا فلا شيء أمتهنه أقل من ذلك. ما أقوله هنا هو بنات أفكاري، وأنا لا أسعى إلى التعريف بالأشياء وإنما بنفسي. سوف أعرف يومًا ما ربما الموضوعات التي أتناول، وقد تكون مطروقة قبلي، وقادتني الصدفة حيثما طُرقت بوضوح. لكن ذاكرتي أضعف من أن تحافظ على ذلك، وإذا كنت شخصًا قد قرأ بعض الكتب، فأنا واهنُ الذاكرة.

2. وبذلك فأنا لا أضمن شيئًا سوى أن أستعرض إلى أيّ مدى بلغت معرفتي بنفسي إلى حدّ اليوم. فلا تهتموا بالموضوعات التي أطرق، وإنما بالطريقة التي أعالجها بها.

3. فلتنظروا فيما أستقيه من الكتب إذا ما كنت اخترت شيئًا يعزّز أو يسند بشكل ملائم الباقي، الذي هو من بنات أفكاري. فأنا أقوّل الآخرين، لا في البداية وإنما فيما بعد، ما لا أستطيع أن أقوله بشكل جيّد، بسبب ضعف لغتي أو عقلي. أنا لا أحسب الشواهد التي أستقي من الآخرين وإنما أزنها. ولو كنت أرغب في تقويمها بعددها، كنت استشهدت بما يعادل ذلك مرتين. وهي شواهد آتية كلها أو جلّها من أسماء شهيرة وقديمة بحيث يبدو لي أنْ لا ضرورة للتعريف بها. فأنا أخفي أحيانًا في الحجاج والمقارنة والبراهين، التي أزرع في حقلي كي أمزجها بنظيرتها لديّ، اسم صاحبها عنوةً، كي أحدّ من تهور تلك الانتقادات المتسرّعة التي تُطلق عن كل أنواع الكتابات خاصةً منها المحدثة. إنها مؤلفات ينشرها أناس لا يزالون أحياءً بلغة «مبتذلة»، لغة أيامنا هذه، وهو ما يسمح لأي واحد بالحديث عنها، وما يمنح الانطباع بأن تصور العمل المنشور ومراميه هي أيضًا مبتذلة. وأنا أريد لمن يريد أن يصفعني أن يوجّه الصفعة بالأحرى لأنف بلوتارخوس، وأن يصبحوا مسخرة بشتم سينيكا من خلالي. فأنا مضطر لأن أخفي ضعفي خلف هؤلاء المشاهير.

4. ورغبتي هي أن يكتشفني أحدٌ تحت ذلك، ويعرف اكتشافي بوضوح حكمه، وفقط بتفحص قوة الكلام وحسن العبارة. فأنا الذي تخونه الذاكرة ولا يقدر على فرزها بالتعرف على مصدرها، أستطيع مع ذلك، وأنا على وعْي تام بقُدراتي، على الاعتراف بأن تربتي عاجزة عن تغذية تلك الزهور البالغة الغنى المزروعة فيها، وأن كافة ثمار أجود خمور لا يمكن أن تضاهيها.

5. وإني مُلزم بتبرير فعلي إذا ما أنا تورطت في تحاليلي، أو إذا ما وُجد في ما أقول بعض الغرور أو الرذيلة، ولم أحس بهما أو لم أكون قادرًا على الوقوف عليهما حين يُشار إليهما. فثمة الكثير من الأخطاء تنفلت منا مهما كان حرصنا على الصواب؛ لكن ثمة خطأ في الحكم لدينا حين يكشف لنا شخص آخر عنه ولا نستطيع مع ذلك تبيُّنه. يمكن للعلم والحقيقة أن يوجدا فينا من غير حُكم، والحُكم من غيرهما. وأن يعرف المرء كيف يعترف بجهله لهو الشهادة الأجْمل والأوْثق عن الحكم التي يمكننا العثور عليه. فأنا لكي أنظم شذراتي هذه، لا مُعين لي غير الصدفة. فبمقدار ما تفصح استيهاماتي عن نفسها، أراكمها؛ وهي تارة تتجمع وأخرى تتتابع. أنا أريد أن يقف القارئ على خطْوي الطبيعي والعادي، مهما كان غير منتظم. فأنا أسير بالإيقاع الذي يلائمني. بل إني لا أتناول هنا موضوعات يحرُم على القارئ تجاهلها أو الحديث عنها مرةً مرةً أو بنوع من الاستخفاف.

6. مُنْيتي أن يكون لي فهم أفضل للأشياء، لكني لا أرغب في أن أؤدي ثمن ذلك. ومُبْتغاي هو أن أقضي ما بقي لي من العمر في طمأنينة لا في الضَّنَك. لا شيء يستحق مشقّة التفكير، ولا حتى العلم مهما كانت أهميته. وأنا لا أبحث في الكتب سوى عن التمتّع بها، باستجمام صادق. وإذا ما أنا مارست الدراسة، فليس ذلك إلا بحثًا عن العلم، الذي يتناول معرفتي بنفسي، والذي يعلمني حُسن العيش وحُسن الممات:

«ذلكم هو الهدف الذي ينبغي على جوادي المتصبّب عرقًا أن يعدو نحوه»[1].

---

(1) Properce (80), IV, v, 70.

7. وإذا ما وجدت صعوبةً في القراءة، فأنا لا أتحسّر على ذلك، بل أترك الكتاب حيثما كبوْت بعد أن تنطّعت للفهم مرة أو مرتين. وإذا ما بقيت في مكاني، فإني سأضيع في القراءة وأُضيع وقتي فيها. فأنا لي عقل اندفاعي، وما لا أفطن له من الوهلة الأولى أراه أقل وضوحًا إذا ما أصررت على ذلك. وإني لا أقوم بأي شيء إذا لم يكن ذلك بمرح، والعناد والتوتّر البالغ يكلّسان حُكمي ويجعلانه تعيسًا وينهكانه في الأخير. ثم إن نظري يغشاه الضباب ويصبح شاردًا، وعليّ أن أضعه على شيء آخر وأستعيده بالهزات.

8. وإذا ما كان كتاب مملًا أطرحه وآخذ آخر، ولا أعود إليه إلا في اللحظات التي يغمرني فيها الملل من عدم القيام بشيء. أنا لا أحس بالانجذاب للكتب الحديثة، فكتب القدماء تبدو لي أكثر امتلاءً وأشدّ متانة؛ ولا بكتب اليونان، لأن حكمي لا يمكن أن يتفتّق بما أن فهمي يظلّ في مستوى فهم طفل أو مبتدئ.

9. من بين المصنّفات التي أعتبرها فقط رائقة لدى المحدثين ثمة: «الدّيكاميرون» لبوكاتشو*[1]، ورابليه*[2]، و«القبْلات» ليوهانس سيكوندوس (إذا ما أبحنا لأنفسنا وضعها في هذه الفئة)، وهي تستحق أن نمنحها بعض الوقت. أما رواية «أماديس» والكتابات من قبيلها، فهي لم تستهوني حتى في صباي. أريد أن أضيف ما يلي، بحماس أو بتهوّر: إن نفسي العجوز وروحي الثقيلة، شيئًا ما، لم تعد تنصاع لدغدغات الإغراء الذي يمارسه لا فقط أريوستو، وإنما أيضًا الكاتب الفاضل أوفيديوس؛ فسهولته وابتداعاته التي سحرني بيانها في السابق، لا تكاد تثيرني اليوم.

10. وإني لأقدّم رأيي بحرية في كل شيء، وبالمناسبة حتى في تلك التي تجاوز ما أعرف، والتي لا أزعم أن لي فيها رأيًا مرجعيًا. وما أقوله عنها فلكي أبيّن سعة منظوري لا قدْر تلك الأشياء. حين أجد نفسي مُثبطًا أمام محاورة «أكسيوخوس»*[3] لأفلاطون، وهو كتاب واهنٌ لا يليق بمؤلف

---

(1) * جوفاني بوكاتشو (1313 م – 1375م) شاعر وأديب إيطالي.

(2) * فرنسوا رابليه (1494 م تقريبًا – 1553 م) أديب وطبيب وفقيه لغة فرنسي.

(3) * هي محاورة منحولة منسوبة لأفلاطون. وأكسيوخوس رجل كان يحتضر وسقراط كان يواسيه في هذه المحاورة.

من قيمته، أشك في حكمي، إذ هو حكم ليس من الوثوق بحيث إنه يعارض سلطة حكم القدماء الشهيرين، أولئك الذين يعتبر أنهم أساتذته وشيوخه، والذين في حضرتهم يكون سعيدًا بالوقوع في الخطأ. إنه حكم لا يهاجم إلا ذاته، ويعاتب نفسه على الاكتفاء بالقشرة عاجزًا عن الغوص في العمق؛ أو بالنظر للأمور من باب الضلال. فهو يكتفي بأن يحمي نفسه من الحيرة والغلوّ. أما ضعفه فهو يعترف به ويبوح به بلا حرج. وهو حكم يعتقد أنه يمنح تأويلًا صحيحًا للمظاهر كما تقدمها له ملكاته، غير أنها ملكات ضعيفة وغير كاملة. أغلب أمثولات أيسوبوس*([1]) لها عدة معانٍ وتأويلات؛ ومن يضفون عليها طابعًا أسطوريًا يختارون منها جانبًا ملائمًا للحكاية، لكن ذلك الجانب بالنسبة لأغلبها ليس سوى الجانب الأول وهو سطحي، إذ ثمة جوانب أخرى،أشدّ حيوية، وأكثر جوهرية وعمقًا، لم يستطيعوا النفاذ إليها. وذلك ما أقوم به أنا.

11. ولكي أتّبع فكرتي، أقول: إن فرجيليوس وكاتولّوس ولوكريتيوس وهوراتيوس كانوا ومن بعيد في الطليعة في مجال الشعر. وبالأخص منهم فرجيليوس في كتابه «الجيورجيات» الذي أعتبره أكمل الدواوين في مضمار الشعر. والذي بالمقارنة معه، ثمة في الإنْيادة لفرجيليوس مقاطع يبدي فيها الشاعر عن التصنع واستعمال المحسّنات البديعية إذا ما سمح له الوقت بذلك. يبدو لي أن الكتاب الخامس من الإنْيادة هو الكتاب الأكمل. وأنا أحب أيضًا الشاعر اللاتيني لوكانوس، وأقرأه عن طيب خاطر، لا لأسلوبه؛ وإنما لقيمته الشخصية ولحصافة آرائه وأحكامه.

12. أما الفاضل ترنتيوس*([2])، الذي كان يملك أسرار اللغة اللاتينية وروعتها، فأنا أجده بديعًا في طريقة تصويره لحركات النفس ورسم أمزجتنا. و سلوكنا وتصرفاتنا تذكرني به في كل لحظة. وأنا أستطيع أن أقرأه في أي وقت أرغب في ذلك، وأجد فيه في كل مرة جمالًا وروعة جديدة. كان المعاصرون لفرجيليوس يشتكون من مقارنته بلوكريتيوس، غير أني أجد صعوبة في الدفاع عن هذا الرأي حين أجد

(1) * أيسوبوس أو أيسوب هو حكيم وحكّاء إغريقي، ذكر هيرودوتس أنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد.
(2) * بوبليوس ترنتيوس آفر (195 ق.م تقريبًا – 159 ق.م تقريبًا) ثاني أكبر كتاب للمسرح الروماني بعد بلاوتوس.

نفسي مفتونًا بمقطع من المقاطع الأجمل لدى لوكريتيوس. فإذا كانت تلك المقارنة تغضبهم فما سيقولون في أولئك الذين يقارنون اليوم أريوستو*[1] بفرجيليوس، وما سيقوله أريوستو نفسه في ذلك؟

«يا أيها القرن الأجْلف والفاقد المذاق»[2].

13. أعتبر أن القدماء كانوا يشتكون من أولئك الذين يقارنون بلاوتوس*[3] بترنتيوس (فهذا الأخير أكثر تميزًا) شكوى أكبر من أولئك الذين يقارنون لوكريتيوس بفرجيليوس. فالتقدير والتفضيل اللذان يمكن أن يكونا لنا عن ترنتيوس رهينان أكثر بكون أبي الفصاحة اللاتينية، أي شيشرون، يتحدث كثيرًا عنه وأنه الأوْحد من الشعراء الذين يتحدث عنه، لكنه يعود أيضًا لحكْمِ أوَّل حَكَم للشعراء الرومان[4] بخصوص رفيقه بلاوتوس. وما لاحظته مرات كثيرة هو كيف أنّ من يمارسون كتابة الكوميديات في أيامنا -مثل الإيطاليين الذين ينجحون في ذلك كثيرًا- يستعملون ثلاثة أو أربعة موضوعات مستقاة من ترنتيوس أو بلاوتوس لبنائها. فهم يراكمون في الكوميديا نفسها خمس أو ست حكايات لبوكاشتو. وما يجعلهم يراكمون المواد هكذا هو خشيتهم ألا يعضدوا أنفسهم بمزاياهم الشخصية. فعليهم أن يجدوا قاعدة يستندون إليها، وبما أنْ ليس لهم في جعبتهم ما يثيرون به انتباهنا يسعَون إلى إضحاكنا. وهو العكس تمامًا لدى الشاعر الذي أتحدث عنه: فكمال أسلوب كتابته وجمله يجعلنا نتجاهل موضوعاته. وتميزه ورهافة حسه يتملّكان حواسنا وعقولنا. وهو في كل شيء رائق وبديع.

«رشيق وشبيه بالأثير الخالص»[5].
كما يملأ منا النفس بسحره بحيث ننسى سحر قصته.

14. تقودني هذه التأملات بعيدًا أكثر: فأنا أعتبر أن الشعراء الفطاحل القدماء كانوا يتفادون التكلّف والتفخيم تفاديهم البحث عن أنواع

---

(1) * لودوفيكو أريوستو (1474 م - 1533 م) شاعر إيطالي.

(2)Catulle (14), XLIII.

(3) * تيتوس ماكيوس بلاوتوس (254 ق.م تقريبًا - 184 ق.م) كاتب مسرحي روماني كبير.

(4) يعني هوراتيوس.

(5)Horace (35), II, 2, v, 120.

التمثيلات، بل حتى عن الآثار المعقولة كالمحسنات البديعية التي سترصع كافة الكتب الشعرية في القرون اللاحقة. لهذا ليس هنا حكَم عادل يتأسّى لغيابها لدى القدماء، ولا يُعجب إعجابًا بالميزة الثابتة والعذوبة والجمال الزاهر للقصائد التصويرية لكاتولوس، كما للرؤوس الحادة التي يسلّح بها مارتياليس*([1]) عجُز أبيات قصائده. إنه المبدأ الذي تحدثت عنه آنفًا، والذي يستخدمه مارتياليس لصالحه: «**لم يكن له أن يبذُل جهدًا يُذكر، فالموضوع كان له بمثابة الروح والعقل**».

15. هؤلاء القدماء لا يتعبون أو يتحمسون كي يكونوا في متناول فهم القارئ، فلهم ما يضحكهم من غير أن يدغْدغوا أنفسهم في كافة مناطق جسدهم. أما الآخرون فعليهم أن يبحثوا عن النجدة في مكان آخر، إذ هم بحاجة أكثر للبدن منهم للعقل، وهم يمتطون الحصان لأن قواهم خائرة. والأمر يسري، في حفلاتنا الراقصة، على هؤلاء الناس ذوي الأصول الوضيعة الذين يتحدثون عن حمل لقب النبلاء وعن أدبهم، لأنهم لا قدرة لهم على مضاهاتهم، والذين يسعون لإثارة انتباهنا في الرقص بقفزات خطيرة وغيرها من الحركات الغريبة الخليقة بالأحرى ببهلوانات الحفلات العامة.

16. كما أن السيدات النبيلات يستفدْن أكثر من الرقصات التي تحتوي صورًا متنوعة من حركات الجسد، منها من رقصات الاستعراض هذه، حيث ليس عليهن سوى المشي بخطوات طبيعية بطراوتهن ورشاقتهن العادية. وهكذا رأيت ممثلين ممتازين، مرتدين لباسهم العادي، وبسلوك عادي أيضًا يمنحوننا مع ذلك كامل المتعة التي يمكننا أن نستقيها من فنهم. أما المبتدئون والذين لا يحلقون عاليًا في سماء الفنّ، فهم بحاجة إلى طلاء وجوههم، والتقنّع والتلوّي والغمز واللّمز، كي يتوصلوا إلى إضحاكنا. وأنا لا يمكن أن أوضح تصوري إلا بالمقارنة بين هاتين القصيدتين: «الإنيادة» و«أرولاندو الغاضب» لأريوستو. فالقصيدة الأولى تحلّق بحركات جناحين سريعين ومتواصلين عاليًا في السماء محافظةً على وجهتها. والثانية تحلّق واطئةً بخبطات جناح عشوائية متقافزة من

(1) * ماركوس فاليريوس مارتياليس (41:38 م - 103 م تقريبًا) شاعر روماني.

حكاية لأخرى كما من فَنَنٍ لآخر، ولا تطير بجناحيها إلا لمدة قصيرة، بحيث تحطّ بين الفينة والأخرى خشية من أن تفقد نفَسها وقوتها. «فالمسافة التي تجرؤ عليها قصيرة المدى»[1]. ها هم إذًا المؤلفون الذين أكنّ لهم الإعجاب أكثر.

17. أما كتاب قراءتي المفضل الآخر، والذي يمزج أكثر بين الإفادة والمتعة، تلك التي بها أتعلم دوْزنة سلوكي وتنظيم أذواقي، فهو بلوتارخوس، منذ أن تُرجم للغة الفرنسية[2] وسينيكا. فهما معًا لهما تلك الحظوة المرموقة لديّ بأن أعثر على المعرفة التي أبحث عنها معروضة في شكل شذرات لا تتطلب دراسة طويلة لستُ أهلًا لها. وذلك هو بالأخص حال كتيِّبات بلوتارخوس ورسائل سينيكا، التي تشكل الجزء الأفضل والأكثر إفادة في مصنّفاتهما. فذلك لا يطلب مني جهدًا في القراءة وأتركهما متى عنَّ لي ذلك، لأن الأمر يتعلق بمصنّفات لا تتوالى فيها العناصر والمكونات، ولا تترابط فيما بينها.

18. يتلاقى هذان المؤلفان في أغلب الآراء المفيدة والرصينة؛ فهما بالصدفة يتقاسمان تقريبًا القرن نفسه[3]؛ فلقد كانا هما الاثنان مدرّسيْن لإمبراطوريْن رومانييْن[4]. وكانا معًا وافديْن من بلاد أجنبية، وكان كلاهما ثريّيْن وذويْ نفوذ. كانت تعاليمهما تشكّل أفضل ما أنتجته الفلسفة، مكتوبة بطريقةٍ بسيطةٍ ووجيهة. بلوتارخوس أكثر انسجامًا وثباتًا في الرأي، أما سينيكا فأكثر تماوجًا وتنوُّعًا. فالأول يجهد ويتصلّب ويتشنّج كي يشحن الفضيلة ضدّ الضعف والخوف والنزوع نحو الرذيلة، فيما يمنحنا الآخر الانطباع بأنه لا يعير اهتمامًا لهذا الجهد ويكره التسرّع ويتحلّى بالحيطة. يتبنى بلوتارخوس تصورات أفلاطونية معتدلة ملائمة لمجموع المواطنين. أما الآخر فإنه إبيقوري ورواقي وآراؤه بعيدة عن أفكار الناس، غير أنها في نظري أعمقُ فائدة

(1)Virgile (112), IV, v, 194.

(2) نشر جاك أميوت عام 1572 ترجمته للأعمال الأخلاقية لبلوتارخوس، التي كان قد ترجم منها عام 1559 ما يتعلق بحياة الناس للشاهير. ومونتيني كان على اطلاع على هذه الترجمات.

(3) القرن الرابع ق. م.

(4) كان سينيكا مؤدّب نيرو، الذي أرغمه على الانتحار عام 65 م. والبعض يزعم أن بلوتارخوس كان مؤدب الإمبراطور ترايانوس والإمبراطور هدريانوس.

للفرد وأكثر ثباتًا وتماسكًا. يمكننا أن نعثر لدى سينيكا على بعض الدماثة والتسامح إزاء استبداد أباطرة عصره. فأنا أعتقد أنه دان قضية قتلة يوليوس قيصر عن إكراه، أما بلوتارخوس فقد ظل دومًا حرًا. سينيكا مليء بالدقائق وبالمُلح والطُّرَف، أما لدى بلوتارخوس ما يهمّ هو المضمون. الأول يثيرك ويملؤك عاطفة جياشة والثاني يمنحك أكثر ويجازيك أفضل: إنه يرشدنا فيما الآخر يدفعنا.

19. وأما شيشرون، فمن بين مؤلفاته التي تخدم مراميَّ وأهدافي، هي تلك التي تتناول القضايا الفلسفية وخاصة فلسفة الأخلاق. وإذا كان عليَّ أن أقول الحقيقة بجرأة - ذلك أننا ما إن نتجاوز حواجز الوقاحة لا أحد يمكن أن يحبسنا- فسأقول إن طريقة كتابته تبدو لي مملّة، ملّلَ كل ما نقرأ لديه. فالعُروض والتعريفات والتقسيمات، وما فيها من أشياء حيّة يتم خنقها بالتطويل في عرض الأمور. وإذا ما أنا قضيت ساعة في قراءته -وهو شيءٌ فائقٌ لديّ- وتذكرت ما استقيت منه من نسْغ ولبّ، فإني في غالب الأوقات لا أحصد سوى الريح، وذلك لأنه لم يتطرق بعدُ للبراهين والحجج التي تعزز قوله، وللاستدلالات التي تتعلق بالضبط بالنقطة التي تهمّني.

20. وأنا الذي لا أطلب سوى أن أصير أكثر حكمة وأشدّ علمًا وفصاحةً لا تلائمني تلك العروض المنطقية والأرسطية. فأنا أريد أن يتم البدء بالخلاصة، لأني أعرف بما يكفي ما هو الموت والشهوة كيْلا يتم التمادي في تشريحهما. وما أبحث عنه للتوّ هي الاستدلالات المقبولة والصلبة التي تمكنني من مواجهة الأمور. فلا دقائق النُحاة ولا الترتيب الماهر للكلمات والبراهين يمكنها أن تفيد في شيء. أريد استدلالات تمكّن من المعالجة المباشرة للمشكلة الحاسمة، واستدلالاته تحوم فقط حول المشكل. إنها استدلالات صالحة للمدرسة والمحامين وللقسم، حيث يمكننا الإغفاء على راحتنا، ونظل مع ذلك ربع ساعة بعد ذلك، قادرين على استعادة خيوط ما تم قوله. فبتلك الطريقة علينا الحديث للقضاة الذين نرغب في إقناعهم عن حقٍّ أو عن خطأ، وللأطفال وللشعب الذي علينا أن نقول له كل شيء كي نرى ما هو أنجع.

21. لا أريد أن يتمّ التقافُز كي يتم دفعي إلى الانتباه، والصراخ عشرات المرات: «اسمع»، كما يقوم بذلك المُنادون. كان الرومان يقولون: «انتبهوا» كما يقال لدينا نحن: «لتسمُ القلوب»[1]. وهي كلمات لا معنى لها لدي، فأنا آتي من بيتي مستعدًا تمام الاستعداد، ولا حاجة لي لهذه «المقبّلات»، بل لا حاجة لي أيضًا لإضافة المرَق للطعام. فأنا أتناول عن طيب خاطر الوجبات طازجة؛ وعوض إثارة شهيتي بهذه الاستعدادات والمشهّيات، يتم بالعكس إتعابي وإفقادي للمذاق.

22. هل لي الحق في عصرنا أن تكون لي هذه الوقاحة والرِّجس، أي أن أعتبر محاورات أفلاطون نفسه طويلة أكثر من اللازم، بحيث تنتهي إلى خنق ما يريد قوله، وأن آسى لكون هذا الرجل الذي كان له أشياء أفضل لقولها لنا، قد قضى كل ذلك الوقت في تلك المناقشات التمهيدية الطويلة وغير المجدية؟ سيكون لجهلي أن يمنحني مبرّرًا إذا قلت إني لا أرى شيئًا مُستحسنًا في طريقة كتابته. فأنا بحاجة بالأخصّ للكتب التي تخدم العلوم لا تلك التي تؤسسها.

23. لا حاجة لبلوتارخوس وسينيكا وبلينيوس ومن حذا حذوهم لأن يقولوا: «انتبهوا»، فهم يخاطبون أناسًا ملتزمين أصلًا بهذه التعاليم؛ أو إن ذلك الأمر بالأحرى يتعلّق بتحذير أكثر تماسكًا، وبمقطع شعري له علة وجوده.

24. وأنا أيضًا أقرأ عن طيب خاطر «الرسائل إلى أتّيكوس»[2]، لا فقط لأنها رسائل تتضمن الكثير من المعلومات عن تاريخ وشؤون عصره، وإنما بالأخص لأستكشف فيها الأحاسيس الشخصية. فأنا، كما قلت ذلك في مكان آخر، أملك فضولًا حادًّا للنفس، وللآراء الحميمة للمؤلفين الذين أقرأ لهم. عليَّ الحكم على قريحتهم، لا على طريقة حياتهم ولا على حياتهم نفسها، تبعًا لما يمنحونه للعالم في كتاباتهم.

---

(1) «sursum corda» هي الكلمتان اللتان كان الراهب ينطق بهما خلال الصلاة، في بداية «التمهيد»، وهي دعوة للانتباه.

(2) هنا الكتاب لشيشرون. وسوف يذكره مونتيني من جديد في الكتاب الثاني، الفصل الثالث عشر، الفقرة التاسعة. وقد انتقد بشدة هذه الفلسفة «التفاخرية والثرثارة».

25. كم من مرة أسفت لفقدان الكتاب الذي ألفه بروتوس عن الفضيلة، لأن من المهم تعلم النظرية لدى من هم جيّدون في التطبيق. بيد أن الموعظة شيء آخر غير الواعظ، ولعلّي أحب قراءة بروتوس لدى بلوتارخوس أكثر من قراءته بقلمه. وأنا مهتم أكثر بما قاله تحت خيمته لأحد أصدقائه المقرّبين عشية معركة من المعارك، منه بما قاله في الغد لجيشه، وبما كان يفعله في مكتبه وفي غرفته أكثر مما كان يقوم به في الساحة العامة أو في مجلس الشيوخ.

26. أما بخصوص شيشرون فأنا أتبع الرأي العام: فعدا معارفه، لا نجد مزايا كبرى لديه: لقد كان من طبع بالغ الطيبة، كما هم في الغالب الناس الضخام والبشوشون، وهو ما كانه. لكن ومن دون افتراء، كان كثير الليونة والغرور والطموح. ولا يمكن أن أعذره أنه ارتأى نشر أشعاره، إذ أن كتابة شعر رديء ليس عيبًا كبيرًا، لكن أكبر عيْب وأخسَّه ألا يتم الإحساس إلى أي حدٍّ هي أشعار ليست في مستوى المجد اللصيق باسمه. أما فصاحته فلا مجال للمقارنة بها، وأنا أعتقد أن لا أحد يمكن أن يضاهيها.

27. وشيشرون «الصغير»، الذي لا يشبه أباه إلا بالاسم، حين كان يقود جيوشه بآسيا، وجد يومًا حول مائدته عددًا من الغرباء ومن ضمنهم كيستيوس، جالسًا في الطرف الأسفل من المائدة، كما يقوم بذلك المرء عادة حين يتسلل لمائدة كبار القوم. استخبر شيشرون الصغير أحد خدمه ليعرف من هو، فأخبره الخادم باسمه. لكن بما أنه كان يفكر في شيء آخر ونسي ما قيل له، طلب ذلك مرة أو مرّتين أخريْن. وحتى لا يضطر الخادم لتكرار الأمر نفسه مرات ومرات، ولكي يتذكر ذلك مرتبطًا بشيء آخر، أجابه: «إنه كيستيوس الذي قيل لك عنه إنه لا يقدّر أي تقدير فصاحة أبيك مقارنة مع فصاحته هو». فثارت ثائرة شيشرون الصغير عند سماع ذلك، وأمر بالقبض على كيستيوس المسكين، وأمر بجلده أمامه. فها هو مضيف قليل اللياقة.

28. بعد طول تفكير، ومن بين أولئك الذين اعتبروا أن فصاحة شيشرون لا تضاهى، ثمة من لاحظ فيها أخطاء، كذلك العظيم بروتوس، صديقه، الذي كان يقول: إن تلك فصاحة مكسورة لا قِوام لها. كما أن الخطباء المعاصرين عابوا عليه أيضًا اهتمامه الغريب «بحسن التخلص» المسهب، في نهاية مطوّلاته، ولاحظوا أنها كانت تتضمن هذه الكلمات: «يبدو أن». أما في ما يخصّني، فأفضل «حسن التخلُّص» القصير، المقسم إلى مقاطع شعرية قصيرة وطويلة. إنه يمزج جيدًا أحيانًا الإيقاعات التي يستعمل، لكن ذلك أمر نادر. وإليكم بيت حفظته أذناي لفظاظته: «أما أنا فأفضّل أن أكون عجوزًا لمدة قصيرة على أن أصبح عجوزًا قبل الأجل».

29. أما أفضلُ ما أفضّل فهُمْ المؤرخون، لأن قراءتهم تكون رائقة وكتبهم سلسة. ثم إن ما أبحث عنه، أي الإنسان عامة، يكون في كتبهم أكثر حيوية واكتمالًا منه أي مكان آخر، بتنوع أحاسيسه الباطنة وحقيقتها، في عمومها كما في تفاصيلها، وبتنوع الطرائق التي يجمعها مع الأحاسيس الأخرى، وبتنوع الحوادث التي تهدّده. إن من يكتبون «سيرة حيوات المشاهير»، حين يهتمون بالتأملات أكثر من الأحداث، وبما ينبع من الباطن أكثر مما يحدث في الخارج؛ هؤلاء مؤرخون يلائمونني تمامًا. ولهذا السبب فإن بلوتارخوس هو في كل الأحوال كاتبي المفضّل. وإني لأحسّ بالأسف ألا يكون لنا دزينة من ديوجينيس، وأنه لم يخلف كتبًا أكثر أو أنه لم يكتب بطريقة أعمق. فأنا أيضًا أتشوق لمعرفة حياة أولئك الذين أعتبرهم أنموذجًا كبيرًا للبشرية مقدار فضولي لتنوع آرائهم وأفكارهم.

30. حين ندرس التاريخ، علينا من دون أفكار مسبقة تصفح المؤلفين القدماء والجدد، سواء ألّفوا بلغاتٍ أجنبية أو بالفرنسية، كي نتعلّم منهم مختلف الأشياء التي يتناولون. بيْد أن يوليوس قيصر، يبدو لي، أنه يستحق أن ندرسه، لا فقط لمكانته التاريخية وإنما لذاته، لأنه يجاوز الكثيرين بسموّه وكماله، بالرغم من أنسالوستيوس لا يحيد عن القاعدة. والأكيد أني أقرأ هذا المؤلِف بقدر أكبر من الاحترام والتبجيل مما نقوم به للمصنّفات البشرية؛ فأنا أتصفّحه تارةً من زاوية عظمته، وتارةً من الطابع الخالص الصقيل للغته الذي لا يُضاهى، والذي لم

يجاوز فقط كل المؤرخين، كما قال شيشرون، بل قد لا يضاهيه أيضًا شيشرون نفسه. فهو يُبين عن قدْر كبير من الصدق في الحديث عن خصومه، بحيث عدا الألوان المشرقة التي يغلف بها قضيته الخائبة، والتقزز الذي نحسه إزاء طموحه الماكر، يبدو لي أن الشيء الذي يمكن نقده هو أنه كان كثير الكتمان في أموره الشخصية. فهو لا يمكن أن يكون قد أنجز هذا الجمّ من الأشياء العظيمة من غير أن يكون قد عانى في ذلك الأمرّين أكثر مما يُبدي عن ذلك.

31. وإني لأحبّ المؤرخين سواء كانوا بسطاء أو ممتازين. فأولئك الذين يقومون ببساطة بعملهم يتفادون أن يضيفوا إليها من عنديّاتهم، بحيث لا يعملون سوى على الإسراع الضروري في تجميع ما يبلُغهم ويسجلون الأمور بصدق وحسن نيّة من دون اختيار أو فرْز. فهم يتركوننا نحكم بأنفسنا على ما هو صحيح وصائب. ذلك هو حال المؤرخ فرواسّار*[1]، من بين حالات أخرى مشابهة، الذي قام بعمله بصدق وحسن نيّة، بحيث حين وقع في خطأ تم تنبيهه له، لم يخشَ من الاعتراف بذلك وتصحيحه في المكان الذي وقع فيه. وهو يعرّفنا بتنوع الإشاعات السارية وبتنويعات القصص التي تُحكى له. إنها مادة التاريخ نفسها عارية ومن غير تشكيل، وكل واحد يمكن أن يستفيد منها حسب ذكائه.

32. أما المؤرخون الممتازون فعلًا، فهم قادرون على اختيار ما يستحق أن يُعرف، ويمكنهم التميز مِن بين تقريريْن تاريخييْن ما هو الأكثر احتمالًا. وهم يستنبطون من السلوك الطبيعي للأمراء وأمزجتهم مقاصدَهم ويمنحونهم الكلام الذي يلائم السياق. إنهم قادرون على صياغة رأينا انطلاقًا من رأيهم، وهو أمر ليس بمقدرة العديدين.

33. والمؤرخون الذين يوجدون في المنزلة بين المنزلتيْن، وهم الأكثر عددًا، فإنهم يفسدون علينا كل شيء. إنهم يريدون أن يمضغوا لنا التاريخ، بحيث يسمحون لأنفسهم بإصدار الأحكام، وجعل التاريخ يميل لجهة الرأي

(1) * جون فرواسار (1337 م - 1405 م) مؤرخ فرنسي، تعرض في مؤلفاته لتاريخ القرون الوسطى.

الذي لهم عنه. وبما أن حكمهم يميل إلى جانب، فإنهم لا يتورّعون عن صوْغ روايتهم وملاءمتها تبعًا لذلك اللَّيِّ لعنق التاريخ. فهم يشرعون إذاً في اختيار الأشياء التي تستحق أن تُعرف، ويخفون عنا غالبًا هذه العبارة أو تلك، وهذا الفعل الشخصي أو ذاك، الذي يمكن أن يكون مصدر خبر أفضل لنا. وهم يُوارون الأشياء التي لا يفهمونها البتّة باعتبارها أشياء غير قابلة للتصديق؛ وربما يوارون أشياء أخرى لأنهم يعجزون عن التعبير عنها بلغة لاتينية أو فرنسية فصيحة. لَهم أن يستعرضوا علينا بوقاحة فصاحتهم وحجاجهم، ولَهم أن يحكموا من وجهة نظرهم، لكن عليهم أن يتركوا لنا نحن أيضًا أن نحكم بعدهم، وليس عليهم من ثمَّ تحريف أي شيء من المادّة التاريخية نفسها أو تغييبه، باختيارهم واقتطاعهم منها، بل عليهم أن يستعيدوها لنا خالصة وبكافة أبعادها. المؤرخون الذين يُعتدّ بهم هم الذين يعرفون عمَّ يتحدّثون، إما لأنهم شاركوا في الأحداث أو لأنهم كانوا قريبون من أولئك الذين صنعوها.

34. وغالبًا ما يتم اختيار أناس من الشعب لوظيفة المؤرخ هذه، وبخاصة في عصرنا، لسبب بسيط هو أنهم يعرفون كيف يتحدّثون، كما لو كنا نسعى إلى تعلّم النحو في كتبهم. وهم معهم الحق ألاّ يولوا اهتمامًا لهذا الأمر، بما أنهم لم يُستخدَموا إلا لذلك وبما أنهم لا يبيعون غير هذَرهم. فمن كثرة الكلمات الرنّانة يصنعون لنا كعكة من الفاكهة التي يجنون في ملتقيات الطرق.

35. إن كتب التاريخ الوحيدة التي تستحق القراءة هي تلك التي كتبها أولئك الذين كانوا حينئذٍ مُسايرين للأمور، مُعايشين لمسير لأحداث، أو على الأقل أولئك الذين تُتاح لهم الفرصة في تسيير أحداث من الضرب نفسه. ذلك هو حال أغلب المصنّفات التاريخية اليونانية والرومانية. فلمّا كان العديد من شاهدي العيان كتبوا عن الموضوع نفسه (وهو ما كان يتمّ حينئذٍ حيثما كانت العظمة والعلم يجتمعان في الشخص نفسه)، إذا ما كان ثمة أخطاء تاريخية، فإنها لا تكون إلا طفيفة وتتعلق بأحداثٍ غامضة. وهم حتى لو لم يُعاينوا ما يرْوون كان لهم على الأقل فضْل تجريبهم لأحداث مماثلة، وهو ما كان يجعل من حكمهم أكثر وثوقًا.

36. ما الذي يمكننا أن ننتظره من طبيبٍ يتناول الحرب أو من طالب يتناول مشروعات الأمراء؟ إذا ما أردنا التشديد على تبكيت الضمير الذي كان للرومان بهذا الصدد، فيكفي لذلك مثال واحد: كان أسينيوس بوليو*[1] قد وجد بعض الخطأ في روايات يوليوس قيصر نفسه، تعود إلى أن قيصر لم يستطع أن يفحص بنفسه كافة مواقع جيشه، وأنه قد وثَق بمن كانوا يرْوون له أشياء غير متحققين منها كفاية، أو لأن قائديه لم يمنحوه الأخبار الدقيقة عن العمليات العسكرية التي قاموا بها في غيبته. إننا نرى من خلال ذلك كم أن البحث عن الحقيقة أمر عسير إلى درجة أننا لا يمكن أن نثق، في رواية أحدث معركة ما، حتى في ذلك الذي كان قائدًا لها، ولا أكثر في الجنْد إذْ لا يمكننا أن نطلب منهم معرفة ما حدث بالقرب منهم، إلا إذا نحن قمنا بالمواجهة بين الشاهدين، كما نقوم بذلك بخصوص معلومة قضائية، حيث يتم القبول بالملاحظات تبعًا للأدلة التي يتمّ تقديمها في كل نقطة تبعًا لتفاصيل كل حدث. والحقيقة أن المعرفة التي لنا عن كل شأن من شؤوننا أكثر غموضًا. لكن ذلك في نظري قد تناوله بودان، وفي تلاؤم مع وِجهة نظري للأمور.

37. ولكي أتدارك، شيئًا ما، ضعف ذاكرتي وهنّاتها (وهو ضعفٌ تام بحيث حدث لي مرارًا أن أتناول مجدّدًا كتبًا كما لو كانت جديدة لم يسبق لي الاطلاع عليها، مع أني سنوات قليلة قبل ذلك قرأتها بتمعُّن ولطختها بحواشيَّ العديدة)، اعتدت من مدة قصيرة أن أسجل في نهاية كل كتاب (على الأقل تلك التي لا أرغب في استعمالها أكثر من مرة) تاريخ انتهائي من قراءتي له، والحكم العام الذي خصّصته له، كي يذكّرني ذلك على الأقل بالانطباع الذي تركه لديّ، وبالفكرة العامة التي كوّنتها عن المؤلف وأنا أقرأه. وسوف أستنسخ هنا بعضًا من تلك الحواشي.

38. وهاكم ما كتبت من عشر سنوات عن كتاب غويتشارديني*[2] (لأني كيف ما كانت لغة كتبي أتكلم معها بلغتي): «ها نحن أمام مؤرخ ذي ضمير حي، من خلاله يمكننا في نظري أن نتوصل للحقيقة عن شؤون عصره،

(1) * جايوس أسينيوس بوليو (76 ق.م - 4 م) مؤرخ وخطيب وشاعر روماني.

(2) * هو فرانتشيسكو غويتشارديني. واسمه المذكور في النص الأصل Guichardin محرّف.

بالدقة نفسها التي يتمتع بها أي مؤرخ آخر. فهو قد كان فاعلًا بنفسه في أغلب الوقائع وفي مستوى رفيع[1]. من ثمّ لا أخال أنه قد حرّف الوقائع، بفعل الحقد أو الغرور أو المصلحة، وهو ما تشهد عليه الأحكام البالغة الحرية التي يسلطها على أكثر الناس من ذوي النفوذ، وخصوصًا أولئك الذين رقّوْه لمناصب الشؤون العامة كالبابا كليمونصو السابع. أما تلك التي يبدو أنه يرغب في الاستفادة منها أكثر، أي استطراداته واستدلالاته، فثمة من بينها البعض الجيّد، بالرغم من أنه فيها بالغ الكياسة والمحاباة. فهو من كثرة إحاطته بالموضوع يستوفيه حقّه من جميع جوانبه، وحين يكون الموضوع بالغ الشسوع والكثافة، قريبًا من اللاتناهي، يغدو ضبابيًا ونحس معه بأن الأمر يتعلق بثرثرة مدرسية.

39. وقد لاحظتُ من بين الكثير من النفوس والوقائع، التي يقوم بالحكم عليها، أن من بين العديد من المشروعات والقضايا، نراه لا ينسب أي واحد منها إلى الفضيلة والدين أو الضمير، كما لو أن هذه الفضائل قد اندثرت من العالم، بالرغم من جمالها، لسببٍ وضيعٍ أو للغاية المستفادة منها. ومن المحال أن نتصور أن من بين العدد الذي لا يُحصى من الأعمال التي يجعل من نفسه حكَمًا عليها، ليس ثمة واحد ينجُم عن العدل. ليس ثمّة فساد يمكن أن يستبد بالخليقة كليةً بحيث لا يفلت منه عمل واحد فاضل. وهذا أمر يجعلني أخشى ألا يكون حكمه خطأً: فلربما كان يحكم على الآخرين انطلاقًا من نفسه».

40. وفي نسختي من كتاب فيليب دو كومين، سجّلت ما يلي: «ستجدون هنا لغة لطيفة ورائقة ذات بساطة سلسة، وحكْيٍ دون إسناد، يتبدى فيه صدق المؤلف بطريقة لا غبار عليها، ومن دون غرور حين يتحدث عن نفسه، ومن غير عاطفة أو انفعال أو حقد حين يتحدث عن الآخرين. وتأملاته ومواعظه مصحوبة بالحماس والصحة أكثر منهما بالعلم والمعرفة، وفي الكتاب بكامله نجد لديه السلطة والصرامة، التي تميز

(1) إن غويتشارديني Guichardin قد تولى فعلاً مناصب مهمة، فقد كان سفيرًا للجمهورية في فلورنسا لدى ملك قشتالة فرناندو الخامس؛ كما كان في خدمة البابوات بروما، وحاكمًا لمدينتي مودينا وريدجو(1518 م)، ثم مدينتي بارما (1521 م) وبولونيا (1531-1534 م).

الرجل النبيل المنذور للشؤون العظيمة».

41. وبخصوص مذكرات السيد دو بيليه: «من الرائق دومًا قراءة أشياء كتَبها[1] أولئك الذين سعوْا إلى سياستها بأحسن السبل. لكن لا يمكننا أن ننكر لدى هذين السيدين فقدانًا كبيرًا للصراحة والحرية في الكتابة، التي كانت أمرًا مشهودًا ببريقه لدى القدماء الذين كتبوا في السياق نفسه مثلهما. وذلك هو أمر السّير دو جوانفيل*[2]، الذي عمل في خدمة الملك لويس التاسع، وحال أينهارت*[3] مستشار شارلماني، وحديثًا حال فيليب دو كومين*[4]. إننا نجد هنا عوض كتاب عن التاريخ مرافعة عن الملك فرانسوا الأول ضد الإمبراطور كارلوس الخامس. وأنا لا أعتقد في أنهما غيّرا شيئًا في الأحداث الأساسية، غير أنهما أبانا عن قدرة فائقة على تحريف الحكْم الذي تقدمه الأحداث لصالحنا، وغالبًا ما يكون ذلك التحريف مخالفًا للعقل والمنطق، كما قاما بالصمت على كل ما هو مشكلٌ في حياة ملكهما. يشهد على ذلك الخزْي والنكبات التي أصابت مونتمورنسي وبريّ، وكون اسم السيدة ديتامبّ لا يأتي له ذِكْر أبدًا. يمكننا أن نخفي الأعمال السرّيّة، لكن إخفاء أشياء يعرفها الغادي والبادي، والأشياء التي كانت لها نتائج عمومية ذات أهمية كبرى؛ فذلك أمر لا يمكن الصَّفْح عنه. بالجملة، إذا كنا نرغب في تكوين نظرة كاملة عن الملك فرنسوا الأول والأمور التي عرفتها فترة حكمه، فعلينا أن نبحث عنها في مكان آخر إذا ما صدَق رأيي. والمستفاد الممكن من هذا الكتاب يكمن في الرواية الشخصية للمعارك وأعمال الحرب، التي وجد فيها أولئك النبلاء أنفسهم متورّطين، والمساومات والمفاوضات التي قادها السيد النبيل دو لانجي. فثمَّ كمّ هائل من الوقائع تستحق أن تُعرف وتأملات نادرة».

(1) المؤلف الأساس للكتاب هو مارتان دو بيليه، أما أخوه غيوم فقد حرر للجلدات من الخامس إلى الثامن.

(2) * دو جوانفيل (1224 م تقريبًا – 1317 م) مؤرخ فرنسي، اشتهر بترجمة سيرة حياة الملك لويس التاسع.

(3) * أينهارت أو أينهارد (770 م تقريبًا – 840 م) مؤرخ وأديب فرانكي خدم في بلاط الملك شارلماني، وكتب ترجمة مهمة عن سيرة حياته.

(4) * فيليب دو كومين (1447 م – 1511 م) كاتب ودبلوماسي، خدم في بلاط الملك الفرنسي لويس الحادي عشر.

الفصل الحادي عشر

في القساوة

1. يبدو لي أن الفضيلة شأن آخر، وأمر أكثر شرفًا ونبلًا من النوازع إلى الطيبة التي تتولّد فينا. فالأنفس العاقلة فطريًا، والشريفة الأصل، تسير معًا، وتُبين في أفعالها عن الوجه نفسه، الذي يكون للنفوس الفاضلة. بيد أن الفضيلة تفصح عن نشاط أكبر من كوننا نكتفي بالانسياق على راحتنا ورِسْلنا وراء العقل تبعًا لطبيعة مرحة. فحين يكون لنا طبع لطيف وظريف فإن من المستحب النفور من الإهانة؛ لكن الأفضل لك، حين تصيب الإهانة منك مقتلًا بحيث تثير حفيظتك، أن تستعمل سلاح العقل ضد الرغبة في الانتقام، وتتحكم في ذلك بعد معركة ضارية. ففي الحالة الأولى يكون عملنا من باب الخير؛ وفي الثانية من باب الفضيلة. السلوك الأول يسمى «طيبةً» والثاني «فضيلة». من ثم يبدو أن اسم «الفضيلة» يفترض مشكلة وتعارضًا، ولا يمكن ممارستها من غير خصم. وربما لهذا السبب نقول عن الله إنه طيّبٌ وقويٌّ وكريمٌ وعادلٌ، ولا نقول عنه أبدًا إنه «فاضل»، فما يقوم به يقوم به عن طبيعة ومن غير جَهد.

2. حينما عاتب أحدهم الفيلسوف الرّواقي أركسيلاوس على أن العديد من الناس كانوا ينتقلون من مدرسته إلى مدرسة الإبيقوريين لا العكس أبدًا، أجاب بظَرفٍ بهذه الكلمة الحقة: «طبعًا. فمن الرجال يمكن أن نصنع خصيانًا كثيرين، لكننا لن نصنع أبدًا رجالًا من خصيان». لكن الحقيقة أن الرواقيين لا يبلغون شأو الإبيقوريين، في باب الحزم والصرامة التي تتحلى بهما آراؤهم ومبادئهم. أحد الرواقيين أبان عن حسن نية أكبر من أولئك المجادلين الذين، لكي يحاربوا إبيقوروس ويخلقوا الظروف المواتية لذلك، يقوّلونه أشياء لم يفكّر فيها أبدًا، محرّفين معنى عباراته نحو اتجاه مغاير، مُشتقين من النّحو برهانًا للتأويل المغاير لكلامه، ورأيًا منافيًا لذلك الذي نعرف حق المعرفة أنه رأيه في فكره كما في سلوكه. قال أحد الرواقيين يومًا: إنه إذا كان قد تخلى عن أن يكون إبيقوريًا، فذلك من بين أسباب أخرى لأنه وجد أن طريقهم أكثر سموًا ولا يمكن بلوغه: «**ذلك أن من نسميهم عاشقي الشهوة، هم في الحقيقة عاشقون للشرف والعدل، وهم يحبون**

كافة الفضائل ويمارسونها»[1]. ورغم كل هذا، واتباعًا هنا للرأي العام -الذي أعتبره خطأً من جهتي- وبخصوص قيمة الطرفين، سأقول: إن من بين الفلاسفة، لا الرواقيين فقط، ولكن أيضًا الإبيقوريين، ثمة الكثيرون ممن اعتبروا غيرَ كافٍ أن يكون للمرء نفس قويمة ومنظمة ومهيأة للفضيلة، وغير كافٍ أن نضع قراراتنا وأفكارنا فوق ضربات القدَر، وإنما علينا البحث عن فرص أخرى لإثبات أنفسنا. إنهم يرغبون إذًا في ملاقاة الألم والضرورة والمقت كي يحاربوها ويُجهدوا أنفسهم: «**إذ الفضيلة تزكو كثيرًا بالصراع**»[2].

3. لهذا السبب فإن إبامينونداس، الذي كان ينتمي إلى «مدرسة» ثالثة رفض ثروات وضعها القدر بين يديه بشكل مشروع: «كي يضطر، كما قال، للصراع ضد الفقر». وقد استمر في العيش فعلًا في فقر مُدْقع. وسقراط -حسبما يبدو لي- قد دخل في المجاهَدة والجلَد بتحمل شرور زوجته، وهو ما يشكل إجمالًا وضع الحديد الحامي على الجرح. كان ميتيلّيوس*[3] وحده، من بين كافة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني من شرع بشجاعته وحدها يقاوم عنف ساتورنينوس، ممثل عامة الشعب بمجلس الشيوخ الروماني، الذي كان يريد أن يمرّر عنوةً قانونًا غير عادل لصالح الشعب. وبما أنه تعرض لذلك للحكم بالإعدام الذي سنّه ساتورنينوس ضد معارضيه، فإنه قال لأولئك الذين يقودونه لهذا الميْتة القاسية في الساحة: «إنه لمن اليسر والجبن القيام بفعل الشر، والقيام بالخير أمر عادي حين لا يكون هناك خطر. لكن عمل الخير في حضرة الخطر المحدق هو واجب الإنسان الفاضل». إن هذه العبارات تبين لنا بوضوح تام ما أردت البرهنة عليه، أعني أن الفضيلة ترفض أن تكون رفيقة للسهولة، والسبيل الذي تسلكه الأقدام التي يقودها الميل الفطري، بسهولته وانحداره الطفيف، ليس سبيل الفضيلة. فهذه الأخيرة تتطلب على العكس من ذلك طريقًا وعرًا ومليئًا بالأشواك، فهي تريد صعوبات خارجية تُجاوزها (كما تلك التي واجه ميتيلّوس)، فيها

---

(1) Cicéron, Ép. fam.[106] t. V, xv, 19.

(2) Sénèque [96] XIII.

(3) * المقصود هنا هو كوينتوس كايكيليوس ميتيلّيوس نوميديكوس (160 ق.م تقريبًا – 91 ق.م) قائد وسياسي وقنصل روماني، كان مشهودًا له بالنزاهة.

يحلو للقدَر أن يعوق مسيرها، أو صعوبات باطنة كما تلك التي توفّرها الأهواء، والميول الفوضوية، والنواقص الرهينة بوجودنا البشري.

4. لقد بلغت بسهولة هذا المبلغ. لكن وقدْ شارفت مُنتهى عرضي، إليكم ما طرق ذهني: هل عقل سقراط، وهو الأكمل، فيما بلغني، سيكون بذلك المعنى عقلا لا قيمة كبرى له؟ فأنا لا يمكنني أن أتصوّر لديه أيًا من الشهوات الرذيلة. ولا يمكنني أن أتخيل أن أي صعوبة تعوق مسير فضيلته[1]. أعلم أن العقل كان لديه من القوة والسيادة على كل شيء، بحيث لم يسمح بتولّد أبسط رغبة شهوانية. وإني لا أجد ما يمكن أن أعارض به فضيلة بهذا السموّ. فأنا أخالها تتقدّم بخطى غالبة ومنتصرة، وبأبهة عظيمة ومنسابة من غير عائق أو عثرة.

5. إذا كانت الفضيلة لا يسطع نجمها إلا بمحاربة الرغائب المناقضة لها، فهل سنقول مع ذلك بأنها لا يمكنها الاستغناء عن معونة الرذيلة، وأنها تَدين لها بالاعتبار وبالتشريف الذي نحيطها به؟ وما سيكون مصير الشهوة الإبيقورية الجميلة والطيبة، التي تزعم أنها تغذي الفضيلة نفسها وتجعلها تلعب كصبية، إذا ما هي منحتها الموت والآلام كلُعب؟ فإذا كنت أطرح كفرضية أن الفضيلة الكاملة تتحمل الألم بصبر، وأنها تقاوم بجَلد هجمات داء النّقْرس بثبات وعزيمة؛ وإذا ما جعلت لها هدفًا إلزاميًا المرارة والمصاعب، فما ستصيره الفضيلة حين تبلغ هذا المقام حيث إنها لا تمقت فقط الألم، بل تبتهج له وتجد في الهجمات الرهيبة للمغص الكلوي إثارة ممتعة؟ما سيكون إذًا حال تلك الفضيلة التي أرساها الإبيقوريون، والتي ترك لنا الكثيرون من بيننا عنها دلائل قاطعة؟

6. ذلكمْ أيضًا حال آخرين كثيرين جاوزوا في الواقع القواعد التي سنّتها لهم عقيدتهم أو مذهبهم. وذلك كان حال كاتو الأوتيكي: فحين أراه يموت ويمزق أحشاءه[2]، لا أكتفي بالاعتقاد فقط بأن روحه كانت

(1) ألم يقل مونتيني مع ذلك بضعة سطور من قبل إن سقراط «قد دخل في المجاهدة والجلد بتحمل شرور زوجته؟».
(2) حين حاصر يوليوس قيصر مدينة أوتيكا بعج كاتو بطنه بالسيف.

حينئذٍ متجردة تمامًا من القلق والرعب. ولا أستطيع أن أصدّق أنه كان يتصرّف فقط حسبما تتطلبه قواعد المدرسة الرواقية، أي أن يظل هادئًا ساكنًا من غير عاطفة ومتجردًا من أي شعور. ففي فضيلة هذا الرجل كان ثمّة الفائض من المرح والبهجة والطراوة حتى يكتفي بذلك. أعتقد أنه أحس بالمتعة والنشوة من عمل بتلك الرّوعة، وأحس بمحبة نفسه أكثر من أي وقت في حياته. «**لقد رحل عن هذه الدنيا فرحًا، بأنه عثر على السبب الأمثل لقتل نفسه**»[1].

7. وإني لمتيقّن من ذلك بشدة، بحيث أشك في أنه قد يتنازل عن فرصة للموت مثل هذه. ولو أن مزيّة طبيعته، التي جعلته يهتم بالمصالح العمومية أكثر من مصالحه، منعتني من ذلك، لكنت تبنّيت عن طيب خاطر وجهة النظر القائلة إنه قد حمد المصادفة التي جعلته يمدّ يد العون إلى قاطع الطريق ذاك (أي قيصر) كي تطأ قدماه الحرية العتيقة لوطنه. وأنا أقرأ في هذا السلوك مرح روح لا يضاهيه مرح، ونفحة متعة رائعة ونشوة فحولية، متساوِقة مع نبله وسموّ تصرفه:

«كانت نفسه أكثر فخرًا حتى إنها عزمت على الموت»[2].

إنها نفسٌ لا يحركها أمل المجد، كما تحاول أن توهمنا الأحكام المبتذلة والواهنة لبعض الناس. وهذا الموقف من الحقَارة بحيث لا يسمو إلى قلبٍ بالغ النبل والاعتزاز والحزم. بل هي نفسٌ يحركها جمال الشيء في ذاته، إذْ كان هو يراها في نصاعتها وقمة كمالها، هو الذي تحكّم في مصيرها بالموت بما نعجز نحن عن القيام به.

8. لقد ملأتني الفلسفة بالراحة، وهي تعتبر أن عملًا رائعًا كهذا لا يمكنه أن يجد موطنًا له في حياة أخرى غير حياة كاتو، كيْ يستقبلها بما يليق بها، وأن حياته لم يكن لها أن تنتهي إلا بتلك الطريقة. لهذا الغرض أوصى ابنه والشيوخ الذين كانوا يرافقونه، أن يدبّروا مشكلتهم بطريقة أخرى: «ظل كاتو، الذي

(1)Cicéron (21), I, 30.

(2)Horace (37), I, 37.

حبته الحياة بجدّيّة باهرة، والذي عزّزها بحزم لا ينفَلّ، متشبثًا بمبادئه، وكان عليه الموت، على أن يتحمّل رؤية طاغية»[1].

9. كل موت عليه أن يكون متوافقًا مع الحياة التي جاءت لتضع له خاتمته. نحن لا نصير شخصًا آخر لحظة الموت؛ فأنا أفسر الموت دومًا بالحياة التي يكون المرء قد عاشها. وإذا ما قُدّم لي موتٌ قويٌّ متصلٌ بحياةٍ كانت ضعيفة، فسأعتبر أنه بالأحرى موتٌ ناجمٌ عن علّة ضعيفة بالعلاقة مع ما كانت عليه تلك الحياة.

10. إن يُسر هذا الموت والسهولة التي اكتسبها المرء بقوة نفسه، هل نقول إنه يخفّف شيئًا ما من الطابع الباهر لفضيلته؟ ومَن مِن بين من يملكون في عقولهم نفحةً من الفلسفة الحقّة يمكنه أن يكتفي بتصور سقراط، متجردًا من الخوف والألم، في المصيبة التي تمثّلت في حبسهِ وتقييدهِ بالسلاسل، وفي الحكم عليه بالموت؟ مَنْ ذا الذي لن يتعرّف فيه ليس فقط على الحزم وثبات الرأي -فقد كان ذلك سلوكه العادي- وأيضًا على ضرب من الفرح الإضافي والبهجة، وهو يتفوَّه بكلماته الأخيرة ويعيش لحظاته الأخيرة؟ وقشْعريرة اللذة التي أحسها وهو يحكّ رجله حين أزيل منها القيْد، ألا تشير إلى العذوبة والفرح، التي تحسّ بها النفس وقد تحرَّرت من قيودها، التي تمثلها المصاعب السابقة، مستعدة لحظَتَها لمواجهة معرفة الأمور التي ستأتي. ليعذرْني كاتو: فموته في نظري أكثر مأساوية وأشدُّ توتُّرًا، أما موت سقراط فهو بشكل ما أكثر بهاءً. ولقد صرّح أريستيبّوس لمن كانوا يأسوْن على ذلك الموت: «فلتمْنحني الآلهة موتًا كهذا».

11. إننا نرى في نفس هاتين الشخصيتيْن، كما في نفوس المحاكين لهما - إذْ إني أشك في أن يكون أحد قد أشبههما- اعتيادًا كاملًا مكتملًا على الفضيلة، بحيث تشرّبها مزاجهما. الأمر لم يعد يتعلق بفضيلة مُضنية ولا بالأوامر التي يطلقها العقل، والتي يكون على النفس أن تتصلّب

(1)Cicéron [19] I,31.

لإنجازها. الأمر صار جوهر نفسهما وسلوكها الفطري العادي. وهما جعلا تلك النفس كذلك، بالممارسة الطويلة لمبادئ الفلسفة، التي لاقت في نفسيْهما فطرةً حسنةً وثريةً. فقوة نفسهما وثبات قوامها، تخنق الشهوات وتطفئها حالما تبدأ في التأجُّج.

12. لا يمكننا الشك في الطابعِ الرائع، والعزم السامي والنبيل للمرء، في وقفِ الفتن والأهواء، ولتهيُّئه للفضيلة، بحيث تُقتلع بذور الرذائل من الجذْر بالقوة، عِوَض وقف تناميها والتسلح والتصلّب لوقفها في الطريق والانتصار عليها. لكن لا يمكننا الشك أيضًا بأن هذا السبيل الثاني أفضل وأمثل، من أن يكون للمرء فقط طبيعة طيبة تنفر بذاتها من الفجور والرذيلة. فيبدو لي أن هذا السبيل وأسلوب الحياة الثالث هذا يجعل من الإنسان بريئًا لا فاضلًا، إذ هو غير قادر على فعل الشر، لكنه ليس قادرًا بما يكفي على فعل الخير. ثم إن هذا السلوك قريبٌ جدًا من عدم الكمال ومن الضعف، بحيث يصعب عليَّ التمييز بين تخومهما والتمييز بينهما.

13. من ثمَّ يأتي أن اسميْ «الطيبة» و«البراءة» نفسيهما لهما معنى قدحيّ. وأنا أسجل أن العديد من الفضائل كالعفّة والحصانة والاعتدال، يمكننا أن نتمتع بها فقط في حال الوهن الجسماني؛ أما الحزم أمام الخطر - إذا ما جاز لنا أن نسميه كذلك- وكره الموت، وثبات العزيمة أمام رجّات القدَر؛ فهي تتولّد ونصادفها لدى الناس فقط بعدم حكمنا كما ينبغي على ما يحدث لهم، وعدم أخذ تلك الحوادث في طابعها الواقعي الحق. فالخطأ في الفهم والغباء يشبه أحيانًا السلوك الفاضل. ولقد حدث أحيانًا، كما لاحظت ذلك، أن يتم امتداح أناس على أعمال كان عليهم أن يُلاموا عليها.

14. كان أحد النبلاء الإيطاليين يتفوّه أمامي بعبارات، لم تكن أبدًا في مصلحة بلاده. فقد قال: إن حصافة الإيطاليين وحيوية فكرهم كانتا من العمق، بحيث إنهم كانوا يتكهّنون بالحوادث والمخاطر المحيقة بهم وقتًا طويلًا قبل حدوثها؛ ومن ثم ليس علينا أن نندهش إذا رأيناهم

دومًا، في حال الحرب، يحرصون على أمانهم أولًا قبل أن يتعرفوا على الكارثة؛ وأضاف أن الإسبان ونحن الفرنسيين، بما أننا لا نملك الفطنة الكافية؛ نسير أبعد منهم، لأن علينا أن نرى بأم أعيننا الخطر الداهم ونلمسه باليد قبل الخوف منه، وأننا حينئذٍ نفقد كل مقاومة؛ وأن الألمان والسويسريين، لأنهم غِلاظٌ وثقالٌ أكثر منا، لا يكون لهم الوقت حتى لاسترداد قواهم، وهم يتلقون الضربات تلْو الأخرى. وإني لأعتقد أنه لم يتفوّه بذلك إلا على سبيل المزاح: لكن من الصحيح في شؤون الحرب، أن المبتدئين يمنحون أنفسهم للخطر بخفّة عقْل، لن يستطيعوا الحفاظ عليها بعد أن يحتدم وطيس المعركة.

«من غير أن نتجاهل ما يستطيعه في المعركة مجدٌ
جديد، والأمل العذب في اللمعان في خوض الصراع»[1].

لهذا، قبل الحكم على عمل أحدهم، علينا النظر إلى الظروف المحيطة بها ومَن المسؤول عنها كليةً.

15. وحتى أتحدّث شيئًا ما عن نفسي، أقول: إن أصحابي قد سمّوْا أحيانًا «حكمةً» ما كان يعود فقط للمصادفة، واعتبروا شجاعةً وصبرًا ما يعود بالأحرى للفكر والرأي. وهكذا فهم منحوني ميزةً مكان ميزة أخرى، أحيانًا في صالحي وأخرى في غير صالحي. علاوة على ذلك، هيْهات لي أن أصل إلى هذا المستوى الأول من التميُّز في كماله، حيث الفضيلة تصبح عادة، وأنا لم أنجحْ في البرهنة على قدراتي في المستوى الثاني. وأنا لم أجهد كثيرًا في قمع رغباتي التي تغشاني بإلحاح، ففضيلتي، أو بالأحرى براءتي، عارضة ونافلة. ولو كنتُ وُلدت بمزاج أقلّ خضوعًا للقواعد، لكنتُ أخشى على نفسي من مصير يؤسَف له، إذ إني لم أجد في نفسي ما يكفي كي أكبح نوازع وأهواءً فيَّ بالغة العنف. كما أني لا أنصاع للصراع مع نفسي والجدل معها. فأنا لا يمكن أن أثني على نفسي بخلوّ نفسي من بعض الرذائل.

«لو أن لي القليل من العيوب، وتكون طفيفة
وطبيعة حسنة في المجموع

---

(1)Virgile [112] XI, v. 154.

مثل جسد جميل، بالرغم من بعض العيوب الطفيفة»[1].

16. **وإني لأَدين بذلك أكثر للمصادفة منها للعقل. فقد جعلتني أولد في** أسرة ذات سمعة طيبة ومن أبٍ رائع. ولا أدري إن كان أورثني قسطًا من مزاجه، أو أن نماذج البيت والتربية الحسنة التي تلقيتُ في صباي قد كان لها يدٌ في ذلك؛ وربما بكل بساطة أني وُلدتُ على هذه الشاكلة.

«أن يكون برج الميزان أو العقرب شهدا ولادتي
-وهي نظرة رهيبة- أو هو جبروت برج الجدي
قد ساد على أمواج هسبيريا»[2].

17. ومع ذلك لا يزال لدي إحساس بمقْت أغلب الرذائل. وجواب أنتيستينيس على من سأله عن أي الأشياء الأهم لتعلُّمها: «أن تكره تعلّم الشر» يبدو أنه يؤكد على ذلك. فأنا أكرهها كُرْهًا بالفطرة وبطريقة شخصية، بحيث إن هذا الضرب من الحدس الذي رضعته في حليب مُرضعتي، حافظتُ عليه ولم أتخلّ عنه في أي لحظة من حياتي. والأمر يسري على ما يتعلق بأحكامي الشخصية. فبما أنها انزاحت عن السبيل العام، فهي قد تقودني بسهولة إلى القيام بأعمال، تجعلُني ميولي الطبيعية أمقتها.

18. ما سأقول قد يبدو أمرًا شنيعًا، غير أني سأقوله مع ذلك: أنا أحسّ في سلوكي حشمةً واحترامًا للقواعدِ أكثر منها في فكري، وأجد أن فكري أكثر فوضوية من رغباتي.

19. دعا أريستيبّوس إلى آراء جريئة لصالح الشهوة والثروة، بحيث إنه أثار ثائرة كافة الفلاسفة. أما سلوكه... فإن الطاغية ديونيسيوس حين قُدّمت له ثلاث حسناوات كي يختار من بينهن واحدةً، أجاب إنه سيأخذ الثلاثة؛ لأنه يعلم ما قاد إليه اختيار باريس[3]. لكنه حين أخذهن إلى بيته، أرجعهنّ من حيث أتين، من غير أن يمسَّهن. وحين أحسّ بأن

(1)Horace (34), I, vi, 65.
(2)Horace (37), xvii, 17-20.
(3) نحن نعلم أن اختيار باريس كان في أصل حرب طروادة.

خادمه يرزح تحت ثقل المال الذي يحمل، أمره بأن يرمي عنه ما يزعجه.

20. إبيقوروس الذي كانت مبادئه غير دينية وموجّهة نحو اللذة، تصرّف بطريقة مؤمنة ومليئة بالمجاهدة. وقد كتب يومًا لأحد أصدقائه بأنه لا يعْتاش إلا من الخبز والماء، راجيًا إياه أن يبعث إليه بجرّة جبن حتى يجعل منه حين يعِنّ له ذلك وجبة فاخرة[1]. هل من الصحيح إذًا أن المرء لكي يكون طيّبًا حقًا، أن يكون بالضرورة بالفطرة وباستعداد خفيّ وكونيّ، في غير حاجة لا للعقل ولا للقوانين ولا للنماذج؟

21. حالات الفوضى التي وجدتُ نفسي فيها منساقًا، ليست لحسن حظي هي الأسوأ. فأنا استنكرتها في نفسي كما تستحقّ ذلك، لأن ملكة الحكم لديَّ لم تتعرض لعدواها. بالعكس، فأنا أستنكرها في نفسي أكثر من شجبها لدى الآخرين. لكن الأمر توقّف عند ذلك الحدّ، فعلاوة على ذلك تراني أبدي حيالها القليل من المقاومة، وأترك نفسي أنزلق للجهة الأخرى من الميزان، إلا إذا أردت التلطيف منها ولكي أمنعها من الاختلاط برذائل أخرى؛ فهي رذائل متآزرة فيما بينها، وتتسلسل متعاقدةً فيما بينها، إذا ما نحن لم ننتبه إليها. أما رذائلي، فقد قمت بعزلها، وحبستها في نفسي جاعلًا منها رذائل أبسط وأيْسَر ما استطعت لذلك سبيلًا:

«أنا لا أعزُّ بشكلٍ مفرطٍ شهواتي»[2].

22. يقول الرواقيون: الحكيم حين يقوم بالفعل يستعمل كافة الفضائل، حتى لو كان ثمة فضيلة أبرز من الفضائل الأخرى. وبهذا الصدد يمكننا تشبيه ذلك بالجسم الإنساني، لأن الغضب لا يمكن أن يتمّ مثلًا، إلا إذا شاركت فيه كافة غرائزنا، حتى لو كان الغضب هو المهيمن. لكن حين يريدون من ذلك استنتاج أن من يرتكب خطأً، يقوم بذلك بسبب كافة رذائله، فأنا لا أصدقهم للتوّ. أو إني لا أفهمهم؛ لأن العكس هو ما أحس به. إنه جملة من دقائق الأمور تتشبث بها الفلسفة أحيانًا مع أنها من غير قيمة تُذكر.

(1) حسب ديوجينيس: «ابعث لي بجرة جبن حتى أُهيِّئ، حين أرغب في ذلك، وجبةً فاخرة».
(2) Juvénal (42), VIII, v, 164.

23. أحيانًا أنساق مع بعض الرذائل، وأحيانًا ثانيةً أنفر من أخرى مثلما قد ينفر منها قدّيس.

24. المشّاؤون ينكرون أيضًا هذا التصور الذي يجعل من الرذائل كلًّا متصلًا لا ينفصم؛ وأرسطو يعتبر أن شخصًا حكيمًا وعادلًا يمكن أن يكون مزاجيًا وقليل العفّة.

25. كان سقراط يبوح لمن يبدو له من ملامحه ميلٌ للرذيلة، أن ذلك فعلًا منزعه الطبيعي، غير أنه صحّحه بالقواعد التي فرضها على نفسه. وكان أتباع الفيلسوف ستيلبون يقولون: إنه مع ميله الكبير منذ صباه للخمر والنساء، أقلع عن الأول والثاني بفضل جهوده الخاصّة.

26. أما أنا فما فيَّ من أشياء خيّرة، أدين بها لمصادفة مولدي، ولا أدين بها لا لقانون معيّن، ولا لمبدأ أو مجاهدة وتعلّم ما. فالبراءة التي فيّ براءة فطرية. وهي لا قوة كبرى لها ولا اصطناع. ومن بين الرذائل أكرَهُ ما أكرَه هو القساوة، بشكل عفوي وبشكل عقلي، باعتبارها أكبر الرذائل كلها. وهو أمر يصل لديّ إلى درجة من الضعف، بحيث لا أرى دجاجة تُذبح من غير تقزُّز، ولا أحب سماع أرنب يئنّ بين أسنان كلابي، بالرغم من أن القنص لديّ متعة عاتية.

27. كل من يسعوْن لمحاربة الشهوات، ولكي يبرهنوا على أنها رذيلة كليةً وغير معقولة، يستعملون برهان أنها حين تكون في ذروتها تستبدّ كليةً بنا، بحيث إن العقل لا يجد إليها مدخلًا. وهم يقدمون مثالًا لذلك، ما نحسّه حين نعاشر النساء:

> **«حين يبدأ الجسد في الإحساس باللذة، وتكون فينوس على وشك إخصاب الحقل الأنثوي»[1].**

فهم يبدو لهم أن اللذة تحملنا بعيدًا خارج وعينا، بحيث إن عقولنا،

(1) Lucrèce (47), IV, 1106-7.

وقد استبدّت بها الشهوة وعطّلتها، تغدو غير قادرة على لعب دوره.

28. لكني أعلم أن الأمر قد يكون مختلفًا، وأننا يمكن أحيانًا أن نردَّ النفس إلى طريق أفكار أخرى، غير أن من اللازم بسطها وتصليبها وجعلها دومًا على حذر. أعرف أن من الممكن التحكّم في قوة تلك اللذة وما أكْبَر خبْرتي بذلك: فأنا لم أجد في فينوس إلهة بتلك الخطورة، كما يدّعي ذلك أناس أكثر عفة مني. وإني لا أعتبر معجزةً ولا شيئًا بعيد المنال أن أقضي لياليَ بكاملها في حرية وطمأنينة، مع عشيقة مشتهاة من زمن، محترِمًا وعْدي أن أكتفي منها بالقبلات والمداعبات، كما رأت ذلك ملكة نافارا في إحدى حكاياتها في كتاب «هيبتاميرون»، وهو كتابٌ رائعٌ في مجاله. أعتقد أن اللذة التي نتمتع بها في القنص ستكون هنا مثالًا أفضل: فبما أن ثمة لذة أقل، ثمة أيضًا حماس ومفاجآت أكبر، وهذا ما يجعل عقلنا لا يجد الفرصة للتهيؤ للقاء. وحين بعد سعْي طويل، تظهر الطريدة فجأة أمام ناظرينا، في مكان لم نكن نتوقّع ظهورها فيه، فإن المباغتة وحدّة الصرخات التي نطلق حينئذٍ، تصيبنا بحيث سيكون من الصعب على من يعشق هذا النوع من الصيد، أن يفكر في شيء آخر. ثم ألا يمنح الشعراء للإلهة ذْيانا النصر على لهب كيوبيد وسهامه؟

«من ينسى وسط ملذّاتٍ كهذه
الهمومَ القاسية للحبّ؟»[1]

29. وحتى أعود إلى حديثي، فأنا أحس بشفقة كبيرة على مصائب الآخرين، وكنت أبكي بسهولة ويُسر بسبب عدوى رؤية الدموع، إذا ما استطعت البكاء في مناسبةٍ ما. فلا شيء يدعو للبكاء أكثر من رؤية الدموع، لا فقط الدموع الحقة، وإنما كافة أنواع الدموع، سواء كانت دموع التماسيح أو الدموع المرسومة. وأنا لا أبكي الموتى بقدر ما أغبطهم، غير أني أشفق كثيرًا على من يُحتضَر. والمتوحشون لا يسيئون لي حين يشْوُون جثامين موتاهم ويتناولونها، أكثر من أولئك الذين يعذبونهم ويضطهدونهم حين يكونون أحياء. وحتى الإعدامات القضائية مهما كانت مبرّرة لا أستطيع تحمل رؤيتها.

(1)Horace (36), II, 27.

30. أحدُهم[1] لكي يشهد على رحمة يوليوس قيصر صرّح قائلاً: «كان رؤوفًا في انتقامه. فبعد أن أكره على العودة القراصنةَ الذين أسروه وطلبوا الفدية منه، وبما أنه هدَّدهم بصلبهم، قام بالحكم عليهم بما هدّدهم به. بيد أنه قام بذلك بعد أن أمر بشنْقهم». أما أمين سره فليمون الذي سعى إلى تسميمه، فإنه قام فقط بقتله من غير أن يسعى إلى عقابه عقابًا أشدّ. ولن نذكر ذلك المؤلف اللاتيني، الذي يجرؤ على ادعاء، أن الرحمة لا تتمثل سوى في قتل أولئك الذي أساؤوا للمرء؛ ولنُعرِضْ عن الحديث عن ذلك المؤلف اللاتيني الذي جرؤ على الزعم أن علينا قتل فقط من أساؤوا إلينا، باعتبار ذلك دليلًا على رحمتنا؛ فمن السهل أن نخمن أنه صُدم بنماذج القساوة الحقيرة والرهيبة، التي أرساها الطغاة الرومان عادةً.

31. وفيما يخصّني، كل ما يجاوز في العدالة الموت، يبدو لي، قساوةً خالصةً. وخاصةً لنا نحن الذين علينا إرجاع الأرواح لبارئها كما هي في طبيعتها، وهو أمر مستحيل بعد جلجلتها وتيْئيسها بألوان التعذيب غير المحتملة.

32. قبل وقت غير طويل، أبصر جندي من البرج الذي كان محبوسًا فيه، أن الجماهير تتجمع في الساحة العامة، وأن النجّارين يبنون بها خشبة التعذيب، فاعتقد أن الأمر مخصوص به. وبعد أن أخذ قرارَ أن يقتل نفسه، لم يجد في متناول يده ما يحقق به مبتغاه سوى وتِد عربة وضعته الصدفة بين يديه. فصوّب به ضربتين للحلق، غير أنه لما أدرك أن ذلك كان من دون جدوى، وجّه به ضربةً للبطن، تاركًا الوتد منغرسًا فيه. وأول حارسٍ دخل زنزانته وجده على تلك الحال صريعًا، لا يزال حيًا، غير أنه مطروحٌ أرضًا، واهِن القوى بسبب الضربات. ولاستغلال الوقت الذي بقي له قبل أن يُسلم الروح قاموا بقراءة الحكم على مسامعه. وبعد أن سمع ذلك ولم يكن محكومًا عليه سوى بقطع الرأس، بدأ يستعيد بعضًا من قُواه، فقبل الخمر الذي مُنح إياه والذي رفضه قبلًا، وشكر القضاة على لطف حكمهم، الذي لم ينتظره منهم، قائلًا إنه اختار قتلَ نفسه: خوفًا من موتٍ أكثر قسوةً من أن يتحمله. فهو حين رأى الاستعدادات في الساحة العامة، اعتقد أنهم سوف يسومونه أشد العذاب هناك. وبدا كما

(1) يتعلق الأمر بسويتوليوس. وهو من سيأتي الحديث عنه في الفقرة اللاحقة.

لو أنه تحرّر من الموت، لأن هذا الأخير لم يعد هو نفسه.

33. إذا رغب الناس أن تصلح أمثلة القساوة هذه للحفاظ على طاعة الشعب، فأنا أنصح أن تطبق على جثامين المجرمين. فأن يراهم الشعب محرومين من الدفن ومرمِيّين في الماء الحارق ومقطوعين إربًا إربًا سيكون له أثر يساوي أثر العذاب الذي يُسام للأحياء، بالرغم من أن ذلك ليس كثيرًا، أو إنه لا شيء بتاتًا كما جاء في الإنجيل: «**لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر**»[1]. والشعراء يتنافسون على التشديد على هوْل هذه الأعمال، الأكثر ضراوةً من الموت:

«ملكٌ محروقٌ في نصف جسده
يتسايل منه الدم الأسود، مجرورًا على الأرض»[2].

34. في أحدِ الأيام وجدت نفسي بروما في الوقت الذي كان سيتم فيه إعدام كاتينا وهو سارقٌ شهير[3]. فقد تمَّ شنقه، من غير أن يثير ذلك عاطفة الحاضرين، لكن حين حلّ وقت قطع أطرافه، لم يكن ينزل عليه الجلاد بضربة من غير أن يطلق الملأ صرخات أسيّة وتنهدات، كما لو أن كل واحد قد مَنح حساسيته لتلك الجثة.

35. هذه المبالغات اللاإنسانية يلزم ممارستها على البدن الميّت، لا على الجسم الحي. وهكذا قام أردشير*[4] في حال مشابه، بتليين صرامة القوانين القديمة لبلاد فارس. فقد أمر بأن يتم عقاب المَرازِبة، الذين لم يقوموا بواجبهم، لا بجلدهم كما جرت العادة، وإنما بتجريدهم من ملابسهم، وبجلد تلك الملابس عِوَضهم. وعِوَضا عن اقتلاع شعرهم كما جرت العادة قبلًا، أمر بأن يُجرّدوا فقط من قبعاتهم.

(1) Luc, XII, 4.

(2)Ennius, in Cicéron (21), I, xvi.

(3) هذا الإعدام كان في 14 يناير 1581 م. ويحكيه مونتيني في «مذكرات رحلته».

(4) * المشار إليه هنا هو الملك الأخميني أردشير الثاني.

36. كان المصريون، المعروفون مع ذلك بورعهم، يعتقدون أنهم يُرضون العدالة الإلهية بالتضحية بصور لخنازير يشكلونها في تماثيل صغيرة. وذلكم ابتكارٌ جريء جرأة ذلك الذي يتمثل في التقرّب من الربّ باعتباره مادةً جوهريةً، بالرسوم والصور.

37. أنا أعيشُ في عصرٍ يعجّ بالأمثلة الرهيبة على هذه الرذيلة، وذلك بسبب الفوضى التي نجمت عن حروبنا الأهلية. ونحن لا نرى شيئًا أسوأ في التاريخ القديم مما نشهده يوميًا، غير أن ذلك لم يعوِّد نفسي عليه البتّة. وأنا لم أصدّق من قبل أن أقف بنفسي على ذلك، أي أن توجد نفوس رهيبة قادرة على اقتراف جرائم القتل، لا لشيء إلا للمتعةِ الشخصية، وقطعِ أطرافِ الناس بساطور، والتحمس لابتداع ألوان تعذيبٍ وتنكيلٍ وأشكال موتٍ جديدةٍ؛ ومن غير أن يكون الوازع في ذلك كله لا النزاع الحميم ولا تصيُّد الربح، وإنما فقط بقصد التمتّع بالمشاهدة الرائقة للحركات والإشارات البائسة وللأنين والصراخ الحزين لرجل يُحتضَر في عذاب أليم. تلكم هي النقطة القصوى التي يمكن للقساوة أن تبلغها. «**أن يقتل رجل رجلًا آخر من غير غضب، ومن غير وَجل، فقط لكي يراه يسلم الروح...**»[1].

38. أما فيما يخصني، فلم أرَ أبدًا من غير تقزّز مطاردة حيوان بريء أعزل لم يقترف ذنبًا وقتلَه. وكما يحدث عادةً أن الأيِّل، حين يفقد نفَسه ويحس بوَهن قواه، لا يجد مفرًا من أن يستدير ويستسلم لنا نحن متابعيه، مستعطفًا رأفتنا،

«وبشكواه وهو يتضرّج في دمائه
كما روحٌ تعيش الألم...»[2].

فإنّ ذلك بدا لي دومًا مشهدًا بغيضًا جدًا[3].

(1)Sénèque (96), XC.
(2)Virgile (112), VII, 501.
(3) مع ذلك فإن مونتيني في الفقرة 28 كان على ما يبدو يمتدح الإثارة التي تستبد بالقناص.

39. أنا لا أمسك أبدًا بحيوانٍ حيّ لا أمنح له الانطلاق مجدّدًا في البطحاء. ولقد كان فيثاغوراس يشتريها من الصيادين وصيادي الطيور ليقوم بالشيء نفسه:

«أعتقد أن دم الحيوانات المتوحشة
تضرج الحديد بالدم أولًا»[1].

إن الطبيعة الدموية تجاه الحيوان، تشهد على نزوع طبيعي إلى القساوة.

40. حين اعتاد المرء بروما على مشاهد قتل الحيوانات، مرّ لمشاهد قتل المصارعين الرّومان. فأنا أخشى أن تكون الطبيعة قد منحت الإنسان نزوعًا نحو اللاإنسانية. لا أحد يتلذّذ برؤية الحيوانات تتلاعب وتداعب بعضها البعض، لكنّ كل الناس يتمتعون برؤيتها وهي تتقاتل بشراسة.

41. فلا تسخروا إذًا من التعاطف الذي أحسه إزاءها. فاللاهوت نفسه يحثّنا على الرفق بها. وهو يعتبر أن الربّ نفسه وضعنا في هذا القصر كي نعبده، وأن الحيوان أيضًا مثلنا فرد من أفراد أسرته. فاللاهوت على حقّ إذْ يحثّنا على أن نكّن للحيوان الاحترام والعطف. لقد استقى **فيثاغوراس** فكرة تناسخ الأرواح من المصريين القدماء، غير أن العديد من الشعوب تبنّتها منذ ذلك الوقت، ومن بينهم كهنتنا الغاليون.

«الأرواح لا تموت؛ فبعد أن ترحل عن مقامها
تروح للعيش في مقام جديد، حيث تحط الرحال»[2].

42. كانت ديانة الغاليين القدماء تعتبر أن الأرواح بما أنها خالدة، لا تفتر عن الحركة وتغيير المكان من جسمٍ إلى آخر، ويرتبط هذا الأمر الغريب بفكرة معينة عن العدل الإلهي. فقد كانوا يعتقدون أن الروح حين سكنت مثلًا الإسكندر الأكبر، وتبعًا لسلوكها، يمنحها الله جسمًا آخر تسكنه، يكون مُعرضًا إلى هذا القدْر أو ذاك من المصائب والمحن، ويكون على علاقة مع قدَرها الإنساني.

(1)Ovide (62), XV, 106.
(2)Ovide (62), XV, 106.

«فهو يسجن الأرواح، في البدن الصامت للحيوانات
وأرواح القساة في الدّببة، والسارقين في الذئاب
والمخادعين في الثعالب؛ وبعد أن يرحّلهم
في العديد من الصور، طوال سنوات
يطهّرهم في نهر النسيان
ويُعيدهم لصورتهم الإنسية...»[1].

43. وإذا ما كانت الروح شجاعة سيضعها في جسم ليْث؛ ولو كانت شهوانية سيضعها في جسم خنزير؛ ولو كانت جبانة سيضعها في جسم أيْل أو أرنب؛ وماكرة في جسم ثعلب، وهلمّ جرا. حتى إذا صارت طاهرة بهذا العقاب، تستعيد مظهر جسم إنسان آخر:

«وأنا أتذكر خلال حرب طروادة
كنت في صورة يوفوربوس*[2] **بن بانثوس...»**[3].

44. أما هذه القرابة بيننا وبين الحيوان فأنا لا أوليها أهمية كبرى، بالنظر إلى أن العديد من الشعوب، خاصةً منها القديمة والنبيلة، لم تقبل بالحيوان فقط في مجتمعها وفي رفقتها، بل منحته درجة أسمى منها. وذلك لأنهم كانوا يعتبرونه طورًا حيوانًا أليفًا ومفضلة لدى الآلهة، ويحيطونه باحترام وتبجيل أكثر مما يحيطون به الإنسان؛ وطورًا كانوا لا يعترفون بإله آخر غيره: **«حيوانات يؤلهها البرابرة الذين يستفيدون منها أي استفادة»**[4].

«بعضهم يعبدون التمساح، وبعضهم يرَهبون
أبا منجل الذي سمُن من أكل الثعابين
هنا يلمع تمثال من ذهب
لقردٍ ذي ذيلٍ طويل
وهناك مدن بكاملها تقدّس

(1) Claudien (23), ii, 482.

(2) * أحد أبطال ملحمة طروادة.

(3) Pythagore, in Ovide (62), xv, 160-161.

(4) Cicéron (18), I, 36.

تارة حوتًا وتارة كلبًا»[1].

45. والتأويل الوجيه الذي يقدمه بلوتارخوس لهذا الخطأ أمر لا يزال يشرّفهم. فهو يقول: إن المصريين لم يكونوا يعبدون القط أو الثور، وإنما يعبدون في تلك الحيوانات صور الصفات الإلهية: ففي الثور تراهم يعبدون الجلَد والفائدة، وفي القط يعبدون الحيوية -كما لدى جيراننا البورغنديين*[2] وفي كافة أرجاء الأراضي الألمانية وعدم تحمل الانحباس، وهو ما كان يمثّل لديهم الحرية التي يعشقون ويقدسون أكثر من أي صفة إلهية أخرى. وكذلك الأمر مع الحيوانات الأخرى. لكني حين أصادف من بين الآراء الأكثر اعتدالًا، حِجاجًا يسعى إلى البرهنة على المقدار الكبير لشبهنا بالحيوان، وكيف أنها تندرج في ما نعتبره امتيازاتنا الكبرى، ومقدار الاحتمال الذي به يمكننا مقارنتها بنا، فإني أخفّف كثيرًا من اعتدادنا، وأستقيل توًّا من هذه المملكة الخيالية التي تنسب للمخلوقات الأخرى.

46. وإذا ما نحن أبَحْنا لأنفسنا مناقشة هذا الأمر، فنحنُ مع ذلك نَدينُ باحترامٍ معيّن وبواجب إنساني عام، لا فقط للحيوانات، التي تتمتع بالحياة والإحساس، ولكن أيضًا للأشجار وحتى للنباتات. نحن ندين للناس بالعدل وبالعناية واللطف للكائنات الأخرى، التي يمكنها أن تحس بها. فثمة علاقات بيننا وواجبات متبادلة. وأنا لا أخشى البوح بالحنان اللصيق بطبيعتي الصبيانية، إلى الحدّ الذي لا أرفض لكلبي الاحتفاء الذي يقوم به معي، أو أنه يطلبني حتى لو لم يكن الوقت مُؤاتيًا.

47. الأتراك لديهم مارستانات وصدقات خاصة بالحيوانات والدوابّ. وكان للرومان مصلحة عمومية مكلفة بإطعام الإوز التي بفضل يقظتها تم إنقاذ الكابيتولوس[3]. وقد أمر الأثينيون أن يتم تحرير البغال والبغّالين الذين خدموا في تشييد صرح المعبد المسمى «هيكاتوبيدون»،

(1)Juvénal (42), XV, 2-6.

(2) * البورغنديون من الشعوب الجرمانية الشرقية، وموطنهم الأصلي منطقة إسكندنافيا.

(3) فلقد أيقظ إوز الكابيتول للدافعين عنه بصرخاته، بحيث منع احتلال المدينة بالمباغتة.

وأن يسمح لها بالرّوْث في كل مكان من غير قيد أو شرط.

48. كان من عادة أهل أغريجنتو بصقلية أن يدفنوا حيواناتهم التي أحبّوا، كالجياد مثلًا التي خدمتهم باستحقاقٍ نادر،كما الكلاب والطيور الأليفة وحتى منها تلك التي كانت تستعمل لتسلية أبنائهم. والجمال والروعة التي كانوا يُبْدون عنها في كل شيء كانت تظهر بالأخص في فخامة وعدد القبور التي يبنون لتلك الحيوانات، والتي ظلّت شاهدةً على صنيعهم قرونًا بعد ذلك. وكان المصريون القدماء يدفنون الذئاب والكلاب والقطط في الأماكن المقدسة، وكانوا يحنطون جثثها ويقيمون الحداد على موتها.

49. قام كيمون ببناء قبر جليل للأفراس، التي حاز على متنها ثلاث مرات، بجائزة في الألعاب الأولمبية. وقد دفن كسانثبّوس*[1] الكبير كلبه على رأس بحري في الساحل، صار من حينئذٍ يحمل ذلك الاسم. وقد أحس بلوتارخوس بوخز الضمير، كما يحكي ذلك، من بيعثور خدمه لسنين، وإرساله إلى المجزرة.

(1) * ربما هو القائد والسياسي الإغريقي كسانثبوس والد بركليس.

الفصل الثاني عشر

دفاعًا عن رامون سيبيودا

1. المعرفة -في الحقيقة- مجالٌ شاسعٌ وبالغُ الإفادة، ومن يزدرونها يُبينون بذلك عن أي حماقة يقترفون. بيْد أنّي لا أوليها مع ذلك قيمة مبالغًا فيها كما يقوم بذلك البعض، من قبيل هيريلّوس الفيلسوف*([1])، الذي كان يضع فيها الخير السامي، ويعتبر أنها المسؤولة عن جعلنا سعداء وحكماء. أنا لا أومن بهذا ولا أيضًا بما قاله آخرون، من قبيل أن المعرفة أم الفضائل، وأن كل رذيلة مصدرها الجهالة؛ أو إذا كان الأمر صحيحًا فهو يتطلب نقاشًا طويلًا.

2. ظلّ بيتنا منذ زمن طويل مفتوحًا في وجه أهل العلم والمعرفة، وهو بيتٌ معروفٌ لديهم. وأبي الذي كان سيّده لأكثر من خمسين عامًا، والذي تشبّع بالحماس الجديد الذي أبداه الملك فرانسوا الأول للاهتمام بالآداب ووضْعها في مرتبة مشرّفة، صرف الأموال الطائلة في استجذاب صحبة العلماء الكبار. وكان يستقبلهم ببيته كقدّيسين أو أناس أُلهموا الحكمة الإلهية، فيسجّل أقوالهم وتأملاتهم كما لو كانت منزّلة، بالكثير الجمّ من التقدير والتبجيل الديني، بحيث لم يكن له ما يحكم به عليها، فلم تكن له معرفة بالآداب، ولا كانت لدى أبويه وأسلافه. أما أنا فإن كنت أقدرهم فلا أكنّ لهم مع ذلك هذا التبجيل!

3. كان من بين العلماء الذين يرتادون بيتنا بيير بونيل، المعروف بعلمه الغزير في تلك الفترة، والذي توقف ببلدة مونتيني حيث استقبله أبي بضعة أيام ومعه أناس من صنفه، وترك له عند رحيله كتابًا بعنوان: «اللاهوت الطبيعي أو كتاب المخلوقات، للأستاذ رامون سيبيودا*([2])». وبما أن أبي كان يتحدث اللغتين الإسبانية والإيطالية، وأن الكتاب كان محرّرًا بلغة إسبانية ممزوجة بنُتَفٍ لاتينية، فإن بونيل قد قدّر أن أبي لن يحتاج لكثير عونٍ كي يستفيد منه. فأوصاه بقراءته ككتاب مفيد جدًا في ظروف ذلك الوقت، إذ كانت مستجدات لوثر قد بدأت في الانتشار، وتخلخل في أماكن كثيرة عقيدتنا التقليدية. وهو كان في ذلك على حق، فقد قاده تفكيره العقلي إلى أن يرى في أن بداية المرض تلك سوف تستشري لتتحول إلى إلحاد مَقيت.

---

(1) * فيلسوف رواقي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان من تلامذة الفيلسوف الرواقي زينون.

(2) * رامون سيبيودا (1385 م – 1436 م) أديب وطبيب ولاهوتي وفيلسوف كتالوني.

4. لا يملك أناس الشعب القدرة على الحكم على الأشياء بذاتها، بحيث ينساقون مع المصادفة والمظاهر. من ثَم ما أنْ نمنحهم الجرأة على مقْت ونقد الآراء، التي نظروا إليها حتى ذلك الوقت بالكثير من التبجيل، كتلك المتعلقة بخلاصهم، ومتى ما تمَّ التشكيك في بعض مبادئ عقيدتهم ووضعها في الميزان[1] تراهم ينظرون لكافة المبادئ الأخرى بعينِ الشك؛ لأنهم لا يملكون من سلطة ولا من أساسٍ إلا ما تم خلْخلته بالضبط. وها هم يزحْزحون كل ما يأتيهم من سلطة الشرائع، أو من احترام التقاليد كما لو كان نيْرًا استبداديًا.

> **«ذلك أن الناس تدوس بحماس على ما كانت تهاب فيما قبل»[2].**

ثم إنهم يشرَعون من حينئذٍ في رفض كل شيء لم يتفحصوه ويقبلوه مسبقًا.

5. وهكذا، وبضعة أيام قبل أن يَحين أجلُ أبي، عثرت بالصدفة على هذا الكتاب تحت ركامٍ من الأوراق المهملة، فطلب مني أن أترجمه له إلى الفرنسية. وقد كان من السهل عليَّ أن أترجم مؤلفين من قبيل هذا المؤلف، إذ ليس ثمَّ غير ترجمة المضمون. لكن حين يتعلق الأمر بأولئك الذين يمنحون أهمية كبرى لفصاحة اللغة وبراعتها، فإن ترجمتهم للغة أضعف من لغتهم أمر تحيق به مخاطر شتى. كان ذلك عبارة عن انشغال جديد. وبما أني من حسن الحظ، لم أكن مأخوذًا بأي شغل حينئذٍ، وأني لم أكن لأرفض أي طلب صادر عن أفضل أبٍ منحه لي الله، فإني سعيتُ للقيام بتلك المهمة حسب استطاعتي. وقد وجد في ذلك متعة لا تُضاهى وأمر بطبعه وهو ما كان له بعد وفاته.

6. وجدت أن أفكار هذا المؤلف حسنة، وتنظيم كتابه متقن، ورسومه مليئة بالورع. وبما أن الكثير من الناس يتمتعون بقراءته، خاصةً الراهبات اللواتي نحتاج لمساعدتهن، فقد وجدت نفسي مراتٍ عديدة

(1) لم يفتأ الشراح في التأكيد على أن مونتيني قد نقش عام 1576 م لنفسه ميدالية فيها ميزان بكفتين متوازنتين يرمز بها إلى الاستحالة التي عرفها حينئذٍ في تبني هذا الرأي أو الآخر. لكن هذا الارتياب عرف تغيّراتٍ قوية.

(2) Lucrèce (47), V, 1140.

أُسعفهن بتبرئة هذا الكتاب، من مأخذيْن أساسيين يؤُاخذ عليهما. لقد كان مرماه جسورًا وشجاعًا ذلك أنه يقوم، وبيراهين إنسية وطبيعية، بإرساء مبادئ الديانة المسيحية والبرهنة عليها ضدًا على الملاحدة. وعليَّ القول إنه يقوم بذلك بالكثير من الحزم وبالأكثر من السعادة، بحيث إني لا أعتقد أن أحدًا، يمكنه أن يقوم بذلك أفضل منه في هذا المضمار، وأن لا أحد ضاهاه من قبل في ذلك. بدا لي هذا الكتاب كثير الجمال والثراء حتى يحرّره مؤلف كان شبه مجهول، والذي لا نعرف عنه سوى أنه كان إسبانيًا وطبيبًا بمدينة تولوز من مئتي سنة خلتْ. استعْلمت إذًا في أحد الأيام لدى أدريانوس تورنيبوس الذي كان خبيرًا بكل شيء، كي أعرف ما أمر هذا الكتاب. فأجابني أن الأمر يتعلق، في نظره، بما يشبه النسغ المُستقى من القديس توما الأكويني، لأن لا عقل إلا عقله المليء بالعلم والمعارف والمتسم بالدقة البالغة يكون قادرًا على الإتيان بمثيل تلك الأفكار. وعلى كل حال، فمهما كان مؤلف الكتاب أو مبتكره (ومن غير العدل حرمان سيبيودا من هذا اللقب من غير مبررات أخرى)، فالأمر يتعلق برجلٍ ذي موهبة فذّة يتحلى بمزايا كثيرة.

7. أول ما يُنتقد به الكتاب، هو أن ديانة المسيحيين لا تقوم إلا على إيمانٍ ووحْي، خاصين من النعمة الإلهية، وأنهم يُخطئون في حقّها بالرغبة في تعزيزها ببراهين ذات طبيعة بشرية. وبما أن هذا الاعتراض نابع من حماس ورِع، فعلينا أن نستقبله بالكثير من اللطافة والاحترام، لمن يُشرعونه في وجه المؤلف. وهذا الدور خليق أكثر برجل علّامة في اللاهوت أكثر مني أنا، الذي لا يفقه في ذلك شيئًا. لكن إليكم ما أراه في الأمر: إن هذه الحقيقة التي شاءت حكمة الله أن تُنيرنا بنورها هي أمرٌ ربوبي بحيث تُجاوز كثيرًا العقل البشري، وبحيث إن من اللازم أن نستعين به، بفضلٍ كبيرٍ خاصٍ منه، حتى نستطيع تصورها واستبطانها فينا. وأنا أعتقد أن الوسائل البشرية المحضة عاجزة عن ذلك بتاتًا.

8. والحقيقة أن العديد من تلك العقول المتفرّدة والمستنيرة، ذات الخصال الطبيعية التي عرفناها لها في القرون الماضية، لو وُجدت لما توانت بفكرها في إفراز هذه المعرفة والوصول إليها. الإيمان وحده يمكنه أن يسمح

لنا بالشمول الحق والعميق لمكنونات وأسرار ديانتنا. لكن هذا لا يعني أن العمل المتمثل في استعمال الملكات الطبيعية والبشرية، التي منحنا إياها الله لخدمة إيماننا ليس عملًا محمودًا. بل ليس من شك أن ذلك هو الاستعمال الأشرف والأنبل، الذي يمكننا توظيفنا لها، وأن ليس ثمة من اشتغالٍ ولا من هدفٍ أكثر خلاقة بمسيحي من سعْي المرء بدراسته وتأملاته إلى تحسين وتوسيع مجال عقيدته. إذ إننا لا نكتفي بخدمة الرب بعقلنا وروحنا، فنحن نَدين له بالتقديس الجسماني، ونحن نستعمل لتبجيله أطرافنا نفسها وحركاتنا وكل ما يحيط بنا. وعلينا القيام بالأمر نفسه مع العقل، واستعمال العقل الذي نملك لمصاحبة إيماننا، لكن دومًا بهذا التحفظ: أي علينا ألا نعتقد أن عقيدتنا رهينة بنا، ولا أن حججنا وبراهيننا يمكنها يومًا أن تبلغ معرفة ذات طابع إلهي وخارق.

9. الإيمان، إذا هو لم يلجْ بواطننا بتشبّع خارق، وإذا هو لم يُداخلها فقط بالاستدلالات والحجج وإنما بسبل بشرية بسيطة، فهو لن يكون فينا بتمام كرامته وبهائه. ومع ذلك أخْشى ما أخشاه هو ألا نتمتع به إلا بهذه الطريقة. فإذا كنّا متعلقين بالله بفضْل إيمانٍ حي، وإذا ما تعلقنا به لا بنا وإنما به، فإن تقلبات النفس البشرية لن تستطيع أن تكسر جناحنا كما تفعل دومًا: فأنفسنا القوية لن تستسلم أمام هجوم يكون ضعيفًا. إن عشق الجديد والإكراهات التي يمارسها الأمراء الإقطاعيون، وانتصار هذا الطرف أو ذاك، والتغير المتهوّر والنافل في آرائنا، لا شيء من كل هذا سيملك ما يكفي من القوة لزعزعة معتقدنا أو تحريفه عن مسيره. لن نترك أنفسنا تتعكّر بالبرهان الأول المطروح، ولا حتى بالإقناع مهما كان ثمرة بلاغة كاملة المحتوى ولا مثيل لها: سوف نساند تلك الأمواج بحزمٍ لا يفلّ ولا يكلّ.

> **«مثلُ صخرة هائلة ترد الأمواج التي تصدمها**
> **وبكتلتها تنثر الموجات**
> **المتلاطمة من حولها»**[1].

10. لو أن شعاع الألوهية يمسّنا، شيئًا ما، لشُهِد ذلك في كل مكان، فليس

---

(1) مؤلف مجهول يحاكي فرجيليوس (الإنيادة، 587، VII).

كلامنا بل أفعالنا أيضًا ستحمل شعاعه وبريقه. وكل ما سيصدر عنا سوف يستنير بذلك الوضوح السامي. علينا أن نخجل من رؤية أن التاريخ لم يشهَد أبدًا، في طائفة دينية إنسانيةما، تابعًا واحدًا كانت عقيدته غريبة وصعبة، لم يوائم سلوكه وحياته معها، في حين أن المسيحيين، المنتمين لمؤسسة بالغة الألوهية والسماوية كما هي مؤسستهم، لا نراهم موسومين بغير الكلمات.

11. تريدون أن تقفوا على ذلك؟ لنقارنْ عوائدنا مع عوائد مسلم أو وثني، فهي تظل دومًا دونيّة. فيما أن علينا بالنظر لتفوّق ديننا أن نسطع بالامتياز، في مسافة كبيرة عليهم لا تُضاهى. وعلينا إذًا القول: «هل هم عادلون ورحيمون وطيبون بهذا القدْر؟ إذًا فهم مسيحيون!». المظاهر الخارجية مشتركة بين كافة الديانات، من أمل وثقة وأحداث ومراسيم ومقصلة وشهداء. أما السمة الخاصة لحقيقتنا فيلزم أن تكون هي الفضيلة، وهي في الوقت نفسه السمة الأكثر سماوية والأشد صعوبة، والتدليل الأكثر شرفًا على الحقيقة. لقد كان البابا لويس على حق، حين أراد ذلك الملك التّتاري، الذي اعتنق المسيحية، أن يأتيه إلى ليون ليقبّل قدميه، ويرى بأم عينيه القداسة، التي اعتقد أنه سيجدها في عوائدنا - كان على حق حين أثناه عن عزمه بإلحاح؛ خشية أن يرتدّ عن عقيدتنا المقدسة، إذا ما هو وقف على طريقة عيشنا المنحلّة. لكن الحقيقة أن الأمر كان غير هذا، مع ذلك الآخر الذي، حين راح إلى روما للأسباب نفسها، ووقف فيها على الحياة المنحلّة للأساقفة وللشعب في ذلك الوقت. فلقد كبُر بالعكس إيمانه بديننا مُقدِّرًا ما ستكون عليه قوته وقداسته، كي يحافظ على كرامته، وسط هذا الفساد المتفشي، وبين أيدٍ متْخنةٍ بالرذيلة.

12. جاء في الكتاب المقدس أننا لو كان لنا قطرة إيمان لحرّكنا الجبال[1]. لو كانت أعمالنا خاضعة لمشيئة الله وهَدْيه ومصحوبة بعنايته، فلن تكون أعمالًا بشرية وإنما شيئًا معجزًا، مثلها مثل عقيدتنا. «**فالإيمان وسيلة سريعة لتكوين حياة المرء على الفضيلة والسعادة**»[2].

(1) BibledeL.Segond, Matth., XVII, 20
(2)Quintilien, **Institution Oratoire, XII, 2.**

بعضهم يجعلون كل الناس يعتقدون أنهم يؤمنون بما لا يصدقون. والآخرون وهم أكثر عددًا، يجعلون أنفسهم يعتقدون ذلك، غير قادرين على أن يعرفوا حقًا ما هو الإيمان.

13. من الغريب في الحروب التي تستشري اليوم في بلدنا، أننا نرى الأحداث تتقلَّب وتتطور بشكل عام وعادي، وذلك لأننا لا نمارس فيها إلا فعلنا. والعدل الموجود في أحد الطرفيْن المتحاربيْن ليس سوى زخرف وغطاء؛ فهو فيه مزعوم، لكنه ليس فيه قارّا ولا أمرًا متبنًّى تماما. إنه فيه كما هو بين شفتي المحامي لا في قلبه، أو كما في أحاسيس المُدافع عن قضيته. فالخلاص بالله وبمعونته، أمر يعود للإيمان والدين، لا إلى أهوائنا. والناس هم من يمسكون بحبل اللعبة ويستخدمون الدين، والحال أن العكس هو ما ينبغي.

14. هل تحسّون بذلك؟ إننا نوجّه الدين بأيدينا بحيث نبلور، كما من الشمع، الكثير من الأشكال المختلفة انطلاقًا من قاعدة بالغة الاستقامة والصرامة. فمتى حدث أن شهدنا ذلك أكثر، كما في فرنسا هذه الأيام؟ هناك من أخَذ بالدين من الشِّمال وهناك من أخذ به من اليمين، وهناك من يراه أسود، وهناك من يراه أبيض، وكلهم يستخدمونه بالطريقة نفسها لأعمالهم الوصولية والفظة، ويتعاملون معه بالطريقة نفسها، في مجال الانتهاكات والظلم، بحيث يجعلون الناس تشكّ بالتأكيد في الآراء، التي لهم عن ذلك الشيء، الذي يتحكم في قواعد حياتنا، الذي هو الدين. فهل من الممكن أن نرى عوائد بالغة التشابه، وأنماط سلوك بالغة التطابق، تتخرَّج من المدرسة نفسها ومن التعليم ذاته؟

15. انظروا بأي وقاحة نتلاعب بالعلل الربانية، وكيف نرمي بها ثم نستعيدها، من غير ضمير دينيّ تبعًا لتقلبنا من جانب لآخر، وفي غمرة العواصف التي رجّت مجتمعنا. لنأخذْ هذه المسألة البالغة الأهمية: هل يجوز للرعيّة أن تعلن العصيان على أميرها، وتتسلح ضده للدفاع عن الدين؟ تذكّروا من أجاب بالإيجاب عن ذلك، في العام الماضي،

وأي حزب كان هذا التوكيد مذهبًا له. وتذكّروا عندئذٍ أي حزب كان التوكيد المعاكس يشكل مذهبًا له. والآن هل تسمعون من أي جانب تصدر الأصوات التي تطالب بهذا المذهب أو ذاك؟ وما بالُك لو ما كانت صلْصلة الأسلحة أقلّ، لأجل هذه القضية أو تلك؟ إننا نرمي للمحرقة بالناس الذين يقولون: الحقيقة يلزم أن تخضع للضرورة. لكن ألا تقوم فرنسا بأسوأ وأدهى من قول ذلك فقط؟

16. لنقبلْ بالاعتراف بالحقيقة: إن من يقوم في الجيش النظامي بفرْز من ينخرطون فيه فقط بحماسة الإيمان الديني، عمَّن لا يهتمون سوى بحماية قوانين بلدهم أو بخدمة أميرهم، سوف لن يجد العدد الكافي لتكوين فيلقٍ كاملٍ من رجال الحرب. من أين يأتي إذًا ألَّا يوجد فيه قلة قليلة حافظوا على الإرادة نفسها، والمسعى ذاته في فتنتنا الأهلية، بحيث نراهم تارة يخْطون وتارة يعْدون؟ من أين يأتي أننا نرى الناس أنفسَهم طورًا يسيئون لمصالحنا وشؤوننا بعنفهم وتعنّتهم، وطورًا بلامبالاتهم ورخاوتهم وجمودهم؟ أليس الأمر لأنهم مدفوعون لذلك باعتبارات شخصية وظرفية، بحيث إنهم يمارسون أفعالهم تبعًا لتنوعها؟

17. يبدو لي من البدْهي أننا لا نمنح للإخلاص إلا ما يدغدغ أهواءنا. ليس ثمة من خصوماتٍ أقسى وأشد من خصومات المسيحيين. وحماسنا يتألّق حين يسير في الاتجاه نفسه، الذي يسير فيه نزوعنا الطبيعي للكراهية والقساوة والطموح والجشع والوشاية والعصيان. لكن، بالمقابل، أي من جهة الطيبة والعناية والاعتدال، إذا كان ثمة مزاجٌ يدفع أحدًا له بمعجزةٍ من المعجزات، فإنه لا يسيرُ إليه لا مشيًا ولا عدْوًا. فإذا كان هدف ديننا هو استئصالُ الرذائل، فهو يخفيها ويغذيها ويستثيرها.

18. ليس علينا أن نمرّغ الله في التراب، كما يقال، إذا كنّا نؤمن به باعتقادٍ عاديٍّ، حتى لا أقول عن إيمان حقّ. وإذا كنا -وأنا أقول ذلك لحيرتنا الكبرى- نؤمن به، ونعرفه في صورة جديدة باعتباره أحد رفقائنا، سنحبه فوق كل شيء لخيره اللامتناهي، ولجماله المطلق، اللذين

يسْطَعان فيه. وهو، على الأقلّ، سيسير في العطف علينا بالإيقاع نفسه، لثرواتنا وملذّاتنا ومجدنا وصحْبنا.

19. حتى الأفضل من بيننا لا يخشى المسّ بالدين، غير أنه يخشى المسّ بجاره وقريبه وسيّده. إذا كان لنا، من جانبٍ، موضوعُ أحد ملذاتنا الرّذيلة، ومن الجانب الآخر الإيمان التام بمجْد خالد، فهل هناك ذو عقل أهْوج يمكن أن يوازن بين الاثنين في الميزان نفسه؟ ومع ذلك فنحن نتخلى مرات كثيرة عن الجانب الثاني بفعل ازدراء خالص؛ فما الذي يدفعنا إلى الكفر غير محبة المروق؟

20. قال الفيلسوف أنتيستينيس، وهو يخضع لتعلم الأسرار الأورفيوسية، إذْ قال لَه الكاهن: إن من يتّبعون هذه الديانة سيعرفون بعد الموت سعادةً أبديةً كاملة: «إذا كنت تصدق ذلك، فلماذا لا تموت أنت؟»

21. قام ديوجينيس، بطريقته الفجّة وبعيدًا عن موضوعنا، بالتصريح للكاهن الذي كان يسعى أيضًا لإقناعه بالالتحاق بطائفته كي يطمع في خيرات الآخرة: «هل ترغب في أن أصدّق أن أجيسيلاوس وإبامينونداس، اللذين كانا رجلَيْن عظيمَيْن، سيكونان بائسَيْن، فيما أنت الذي لستَ سوى ثور ولا تقوم بشيء جيّد، ستكون سعيدًا لأنك كاهن؟»[1].

22. لو تلقّينا هذه الوعود الكبيرة بالنعمة الأبدية، مانحين إياها السلطة نفسها، التي نمنحها لتعقُّلٍ فلسفيٍ ما، فإنّنا لن نحسّ أمام الموت برهبة كبيرة، كتلك التي نحس بها عادةً.

«من غير أن يشكو المحتضر من موته نراه يسعد
بالرحيل وتركِ جثمانه، كما يترك الثعبان جلدته
وكما يترك الوعل، إذا شاخ، قرنيْه البالغيْ الطول»[2].

(1) Diogène Laërce ([45], **Diogène**, p. 717.
(2) Lucrèce [47] III, 612.

23. وكما يُقال، أريد أن أفنى وأكون صحبة يسوع المسيح. ألم تدفع قوة خطاب أفلاطون عن خلود الروح بعض أتباعه إلى الموت، كي يتمتعوا بسرعةٍ أكبر بالأماني التي كان يمنحها إياهم؟

24. كل هذا هو العلامة البدهيّة بأننا لا نجعل من هذه الديانة ديانتنا إلا على طريقتنا وبوسائلنا الخاصّة، وأن الديانات الأخرى لا يتمّ تلقّيها بشكل مخالف. فنحن وُجدنا في بلدةٍ كانت تلك الديانة سائدة فيها، ونحن نأخذ بالاعتبار قِدمها في التاريخ وحظوة من ساندوها، ونحن نخشى الوعيد الذي تتوعّد به المنافقين، ونحن نجري وراء ما تعدنا به. هذه الاعتبارات يلزم أن تخدم اعتقادنا فيها، غير أنها لست سوى اعتبارات ثانوية، فوعدٌ ووعيدٌ متشابهان يمكن أن يؤدّيا بنا إلى اعتناق ديانة أخرى. نحن مسيحيون إذًا بالشكل نفسه الذي نحن به فرنسيون أو ألمان.

25. يقول أفلاطون: إن ثمّة القليل من الناس يكونون حازمين في إلحادهم[1] بحيث لا يُعيدهم خطر داهِم إلى الاعتراف بالقوة الإلهية. لكن هذا الأمر لا يهمّ مسيحيًا حقًّا: فالديانات البشرية تتمثل في أنها تبلغ الناس بطريقة بشرية. وما سيكون مآل الإيمان، الذي يغرسه في قلبنا الضعف والجبن؟ يا له من إيمان ممْتع ذلك الذي لا يؤمن بما يؤمن إلا لأن ليس له الشجاعة في ألا يؤمن به! فهل يمكن لعاطفةٍ سيئةٍ كالحزمِ الواهنِ أو الخوفِ أن تخلقَ في أنفسنا شيئًا ما معقولًا؟

26. وهوُ يقولُ أيضًا: إن أولئك الناس يطرحون بالعقل والحكم، أن ما يُحكى عن جهنّم والعذاب فيها ضربٌ من الخيال، لكن سيحلّ اليوم الذي سيجربون فيه ذلك، فحين ستقربهم الشيخوخة والأمراض من الموت، فإن الرهبة التي ستجتاحهم ستملؤهم بمعتقدٍ جديد بما أن الرعب مما ينتظرهم يكون عظيمًا. وبما أن أفكارًا من مثيل ذلك تزرع الرعب في القلوب، فأفلاطون يدافع في شرائعه عن كل ذكر لوَعيد

(1) لم تأتِ كلمة إلحاد على لسان أفلاطون.

مشابه، وعن كل ما يمكن أن يعضّد فكرة كون الآلهة يمكن أن تسبّب للإنسان في ألمٍ ما، إلا إذا كان ذلك لفائدته إذا تعلق الأمر مثلًا بالدواء. يقال: إن بيون البوريسثيني*[1] كان قد أُعْدي بإلحاد ثيودوروس*[2]، وأنه سخر طويلًا من الناس المتديّنين. لكنه حين فاجأه الموت، انصاع لأبلد حالات التطيُّر: فكما لو أن الآلهة يمكن أن تغيب وتحضر على هوى حالة بيون!

27. يقودنا أفلاطون وأمثلته إلى نتيجة أنّنا نعود للإيمان بالله بالتعقّل أو بالرهبة. فالإلحاد مقترحٌ شائهٌ بشكلٍ ما ووحشي، ومن الصعب أن نجعل العقل الإنساني يقبله لأنه بالغ الوقاحة والفوضى. لكننا رأينا عددًا من الناس، بدافع من الغرور أو الكبرياء، يبلورون آراءً مبتدَعة ويزعمون إصلاح العالم ويتبنّون هذا الرأي. إنهم لا يملكون القوة الكافية، ولا الجنون الكافي، لكي يكونوا قد تبنَّوْا ذلك الرأي عن وعْيٍ حقّ، بحيث إذا ما أنت وجّهتَ لهم ضربة سيف قاضية ستراهم يرفعون أيديهم للسماء تضرّعًا للخالق. وحين يخفّف الخوف أو المرض من هذا الحماس الاستفزازي وغير المستقر، فإنهم لنْ يتوانوا عن الانسياق الخفيّ نحو المعتقدات والنماذج العادية. إن معتقدًا يُتَمثَّل بطريقة حقّة هو شيء، وهذه المواقف السطحية شيء آخر؛ فبما أنها مواقف نابعة من عقل لا ضوابط له، فهي تطفو بدون تفكير ومن غير يقين في مفاوز الخيال. إنهم أناس بؤساء، ولا عقل لهم يجهَدون في أن يصيروا أسوأ مما هم عليه!

28. إن خطأ الوثنية والجهل بحقيقتنا المقدسة قد أدت بروح بأفلاطون، وهي روّح عظيمةٌ بالتأكيد لكنها عظمة بشرية فقط؛ إلى تبنّي تلك الفكرة الخطأ بأن الأطفال والعجائز هم من يكونون مهيّئين أكثر لتلقي الدين، كما لو أن الديانة تولد وتمْتح قوتها من بلاهتنا!

29. العقدة التي ينبغي أن يُعقد حكمنا العقلي بإرادتنا، والتي ينبغي أن تعانق

(1) * بيون البوريسثيني (235 ق.م تقريبًا – 250 ق.م تقريبًا) فيلسوف إغريقي من المدرسة الكلبية.

(2) * ثيودوروس الملحد (340 ق.م تقريبًا – 250 ق.م تقريبًا) فيلسوف إغريقي من المدرسة القورينية.

روحنا وتوحّدها بخالقنا، يلزم أن تكون عقدة تمتح قوتها وتشابكاتها لا من اعتباراتنا واستدلالاتنا وعواطفنا، وإنما من عناق رباني وخارق، ليس له إلا صورة واحدة، ووجه واحد، وشكل واحد، هو سلطة الله ونعمته. وبما أن قلبنا وروحنا يخضعان لأحكام الإيمان، فمن المشروع أن يُستعمل هذا الأخير لخدمة هدف كل ملكاتنا الأخرى حسب قدراته. لهذا لا يمكن إلا أن نعتقد أن وراء هذه الآلية الكبرى للعالم كلها بعض العلامات والبصمات، من يد هذا المهندس الأعظم، وأن ثمة بين كل الأشياء الموجودة في العالم، صورة تذكرنا بالصانع الذي شكّلها وشيَّد صرْحها. فهو قد أبان في تلافيف صنيعه السامي ذاك طابع ألوهيته، وإذا لم نستطع اكتشاف ذلك،فهو أمر لا يعود إلا إلى ضعفنا. وذلك ما يقوله لنا بنفسه، فصنائعه المخفية يكشف لنا عنها بصنائعه البادية.

30. لقد تصدى سيبيودا لهذه المهمة الشريفة التي تتمثل في تبيان كيف أن لا شيء في العالم يأتي لتكذيب خالقه. وسيكون من باب المس بالخير الإلهي إذا لم يكن العالم ملائمًا لما نؤمن به. فالسماء والأرض والعناصر وجسمنا وروحنا، وكل شيء يتوافق مع ذلك. يكفي أن نجد السبيل لاستعمالها بحيث تفيدنا إذا ما كانت لدينا مقدرة على الفهم. إن هذا العالم عبارة عن معبد مقدّس، وُضع فيه الإنسان؛ كي يتأمل تماثيل لم تنحتها يدٌ بشرية، بل جعلها الفكر الإلهي محسوسة، كالشمس والنجوم والبحار والأرض، حتى يمنحنا صورة عما ليس معقولًا. فكما يقول القديس بولس: تظهر الأشياء المخفية التي خلقها الله في الأزل عبر خلق العالم، إذا ما نحن قدّرنا حكمته الأزلية وألوهيته من خلال تلك المخلوقات.

«لا يمنع الله الأرض من رؤية السماء:
إن ذاك وجهه وكيانه، الذي يكشف لنا عنه
وهو يديره باستمرار فوق رؤوسنا.
إنه يكشف لنا عن نفسه وينطبع فينا
حتى نستطيع التعرّف عليه
وتأمل مسيره، وطاعة شرائعه»[1].

(1)Manilius (50), IV, 907.

31. وإن شروحنا واستدلالاتنا العقلية الإنسانية هي ضرْب من المادة الخام والعقيمة، والنعمة الإلهية هي التي تمنحها صورتها، فهي التي تشكّلها وتمنحها قيمتها، كما أن الأعمال الفاضلة لسقراط وكاتو الأوتيكي تظلّ نافلةً، ولا جدوى منها؛ لأنها لم تبلغ غائيتها، إذ إنها تجاهلت محبة وطاعة الخالق البارئ المصور لكل الأشياء، ولأنها تجاهلت الله. وذلك حال أفكارنا وتعقُّلاتنا، فهي تملك جسمًا، غير أنها كتلة لا صورة لها ولا تخوم ولا بريق، إذا لم ترتبط بالإيمان بالله وبنعمته. والإيمان الذي يلوّن ويوضّح دلائل سيبيودا يجعلها حازمة وثابتة: هي يمكنها أن تهدينا، فهي أول مرشدٍ لشخص متعلّم كي تهديه سواء سبيل المعرفة. فهي تشكله بصورة ما وتمكّن النعمة الإلهية من إكمال واستكمال معتقدنا فيما بعد.

32. أعرف رجلًا مهمًا وذا ثقافة بالغة، اعترف لي أنه أفلت من خطيئة الكفر بفضل دلائل سيبيودا. وحتى لو نحن نزعنا عن تلك البراهين برنقها، وأزحنا عنها عون الإيمان وتوكيده، واعتبرناها بِدعًا إنسانية محضة، فإنها ستظهر في المعركة ضد من سقطوا في براثن الإلحاد الرهيبة، أمتنَ وأوثَقَ من كافة البراهين والأدلّة من النوع نفسه، التي يمكن معارضتها بها. لهذا يمكن أن نقول لخصومنا:

«إذا كانت لكم أدلة أفضل أخرجوها
وإلا فليس أمامكم سوى الاستسلام»[1].

فسواء خضعوا لأدلتنا، أو أظهروا لنا أخرى، وعن أي موضوع آخر، فستكون أدق نسجًا وتفصيلًا.

33. لكني، ومن غير شعور مني، ها إني دخلت مسبقًا في الاعتراض الثاني على سيبيودا، الذي رغبت في الردّ عليه: بعضهم يقولون:إن استدلالاته ضعيفة، وغير قادرة على البرهنة على ما يبتغي. وهم يحسون بأنهم قادرون على تحطيمها بسهولة. علينا مواجهة هؤلاء الخصوم بطريقة أشرس لأنهم أخطر.

(1) Horace (35), I, 5.

34. إننا نتأوّل ما يقوله الآخرون تبعًا لآرائنا وبشكل قبْلي، ولدى المنكِر للكتابات المقدسة علاقة ما بالإلحاد؛ لأنه يدسّ سمّه في المادة الطاهرة. علاوة على ذلك، يبدو لي أننا نمنح لهم الظروف المواتية والحرية لكي يحاربوا ديننا بأسلحة بشرية خالصة، فيما أنهم عاجزون عن محاربتها في كامل جلالة سلطتها وسيادتها.

35. والطريقة التي أستخدم لمحاربة هذا الاهتياج، وهي الأمثل لذلك في نظري، هو أن أحطم الكبرياء والنخوة البشرية وأن أسحقها. علينا أن نجعل أولئك الناس يحسون بعبثِ الإنسان وغروره وعدمه، وأن ننتزع من بين أيديهم الأسلحة الواهنة للعقل، وأن ننكّس رؤوسهم تحت سلطة الاحترام والجلال الإلهي. فإليه وإليه وحده يعود العلم والحكمة، وهو وحده بإمكانه تقدير شيء ما بذاته، والتقدير الذي لدينا عن أنفسنا نستقيه منه. «**ذلك أن الله لا يسمح لأي شخص غيره أن يكون متكبّرًا**»[1].

36. لنحطّمْ هذا الادّعاء، باعتباره الأساس الأول لطغيان العقل الماكر: «**الله يقاوم المتكبّرين ويهبُ نعمته للمتواضعين**»[2].

يقول أفلاطون: إن العقل موجود في كل الآلهة، وليس موجودًا مطلقًا أو قليلًا لدى بني البشر.

37. ومع ذلك، إنه لمن باب التشجيع الكبير لنا، أن نرى قدراتنا الفانية والزائلة متوائمة كليةً مع عقيدتنا المقدسة والإلهية، بحيث حين نستخدمها بخصوص أمور تكون أيضًا بطبيعتها فانية وزائلة، فإن تلك القدرات لا تكون متلائمة مع تلك الموضوعات. لنرَ إذًا إذا كان الإنسان يتوفر على براهين أخرى أقوى من براهين سيبيودا، وإذا ما كان قادرًا على الوصول إلى يقين ما بالحجج والبراهين العقلية.

(1)Hérodote (38), VII, x.
(2)Saint Pierre, Epîtres, I, V, 5.

38. حين قام القديس أوغسطينوس بمجادلة الملاحدة، وجد سببًا لمؤاخذتهم على انعدام العدل لديهم؛ لأنهم يعتبرون قواعد عقيدتنا، التي لا يبرهن على صحتها العقل، قواعد خطأ. وللبرهنة على أن أشياء كثيرة يمكنها أن توجد أو أنها وُجدت، في حين لا يستطيع عقلنا أن يقدم لنا لا عللها ولا طبيعتها، يقوم أوغسطينوس بالتوكيد على بعض التجارب المعروفة التي لا يمكن الشكّ فيها، التي يعترف الإنسان أنه لا يفهم فيها شيئًا. وهو يقوم بذلك، كما بصدد أشياء أخرى، ببحث دقيق ويقظ. بيْد أننا يمكن أن نقوم بما هو أفضل من ذلك، ونبيّن للناس أننا لكي نؤكد على ضعف عقلهم، ليس من الضروري البحث عن أمثلة نادرة. فالعدل لديهم بالغ العجز والعماء بحيث ليس ثمة من بداهة، مهما كان وضوحها، تكون واضحة لديه، والصعب والسهل في منظور ذلك العدل هما الشيء نفسه، فيما أن الطبيعة في مجموعها تفنّد شريعته وتفسده.

39. ما الذي تقوله لنا الحقيقة الإلهية حين تدعونا إلى النفور من الفلسفة الدنيوية، وحين تعلمنا غالبًا أن حكمتنا ليست سوى جنون أمام الله، وأن من بين أنواع الغرور التافه أكثرها لا جدوى هو الإنسان نفسه، وأن الإنسان المعتدّ بعلمه لا يزال لا يعرف ما معنى العلم والمعرفة، وأن الإنسان باعتباره لا شيء، إذا ما هو اعتقد نفسه شيئًا مهمًا، هو متوهم على نفسه ومخطئ؟ إن هذه الحِكم في رسالة إلى الكورنثيين[1] تُفصح بوضوح وقوة عمّا أريد الدفاع عنه، بحيث لن أحتاج لدليل آخر ضد أناس سوف يستسلمون لسلطته ويذعنون لها تمامًا. بيد أن الملاحدة الذين أتحدّث عنهم لا يُجلدون إلا بسلاحهم ، ولا يقبلون تفنيد براهينهم العقلية إلا بالعقل نفسه.

40. لننظرِ الآن للإنسان وحده، من غير معونة خارجية، مدرَّعًا بسلاحه وحده، ومحرومًا من النعمة والعلم الإلهييْن، اللذين يشكّلان، مع ذلك، نبله وقوته وأساس وجوده. لننظرْ كيف يتصرف في هذه العدّة البهية.

(1) إنها الحكم التي أوحى بها الروح القدس إلى القديس بولس، كما جاء في «رسالة إلى الكورنثيين». وبعض هذه الحكم كانت منقوشة باللاتينية على أعمدة مكتبة مونتيني.

وليفْهمني بفضل عقله، على أي أسس شيّد هذه الامتيازات الكبرى التي يعتقد أنه يفوق بها كافة المخلوقات. من أقنعه بأن هذه الحركة الرائعة لقبة السماء، والنور السرمدي لتلك المشاعل التي تسير بشكل رائع فوق رأسه، والتقلبات الخارقة لذلك البحر اللامتناهي؛ من أقنعه أن كل هذا قد أُرسِي ويتابع حركته منذ قرون لصالحه وخدمةً له؟

41. هل من الممكن أن نتصوّر شيئًا أكثر سخافة من هذا المخلوق البائس السقيم، الذي لا يملك ناصية نفسه، والذي يتعرّض لكافة الاعتداءات، والذي يعتبر نفسه إمبراطور الكون؟ إنه مخلوق لا يملك معرفةً ولَو الجزء الصغير منه، حتى يزعم أنه قادر على تسييره. وهذه الحظوة التي يمنحها الإنسان لنفسه، أي أن يكون الوحيد في هذا الصرْح الشاسع، الذي يتعرّف على جماله ونظامه، والوحيد القادر على أن يشكر مهندسه، والتكفل بدفتر حسابات الخسارة والربح في العالم، من منحها له؟ فليكشفْ لنا عن الرسائل العلنية لهذه المسؤولية الرائعة الكبرى. هل هي مُنحت فقط للحكماء من بين الناس؟ حِينئذٍ هي لا تهم إلا قلة قليلة من الناس. فهل المجانين والأشرار خليقُون بفضلٍ رائع من قَبيل هذا؟ وبما أنهم من أحطّ الناس، فهل تمَّ تفضيلهم عن باقي الآخرين؟

42. هل لنا أن نصدّق من يقول: «**لمن خُلق العالم؟ بالتأكيد للناس الذي يستخدمون العقل: الآلهة وأكثر المخلوقات كمالا؟**»[1]. إننا لا نحارب بما يكفي هذه المزاوجة بين الآلهة والناس. لكن هذا الكائن المسكين، ما الذي يميزه ويجعله خليقًا بذلك الامتياز؟ حين ننظر لهذه الحياة غير الفاسدة للأجسام السماوية ولجمالها وعظمتها وحركتها المنتظمة بإحكام،=

«حين نرفع نظرنا إلى قبّة السماء
ونحو النجوم الساطعة الثابتة في عليائها
وحين نفكر في تعاقب الشمس والقمر»[2].

(1)Cicéron, **De naturadeorum II, LIII,135.**
(2)Lucrèce (47), V, 1204-6.

43. =حين نتأمل السيطرة والقوة، التي تملك تلك الأجسام، لا فقط على حيواتنا ومصائرنا.

«لأن الله يرهن أعمال الناس وحيواتهم بالكواكب»[1].

بل أيضًا نوازعنا وأفكارنا ورغباتنا، التي تتحكم فيها وتدفعها وتحركها تبعًا لتأثيرها، كما يعلمنا ذلك عقولنا ويدلّل عليه:

«إنها ترى أن تلك الكواكب البعيدة
تحكم أرضنا بقوانين خفيّة
وأن الكون بأسره يتبع إيقاعًا منتظمًا
وأن مصيرنا رهينٌ بتلك العلامات»[2].

44. حين نرى أن ليس الإنسان المفرد وإنما أيضًا الملك والأسر الملكية والإمبراطوريات، وكل هذا العالم بأسره يخضع لأدقّ حركات الكون،

«فكم هي عظيمةٌ آثار أدقّ حركاته
وكم هي قويةٌ هذه الإمبراطورية السماوية، التي تتحكم في الملوك أنفسهم»[3].

ولو أن كانت فضيلتنا ورذائلنا وعلمنا وكذا توقعاتنا التي نكوّنها عن مسير الكواكب، وتلك المقارنة التي نقيّمها معهم، لو أن كل هذا أتانا، كما نراه بالعقل، بوساطتها وبأفضالها=

«أحدهم مجنونًا بالعشق
قطع البحار وأسقط طروادة
والآخر مصيره إصدار الشرائع
أطفالٌ يقتلون أباهم، وآباءٌ أبناءهم
وفي الأخير إخوة يتقاتلون!
هذه الجرائم ليست من شأننا
فالحديد الذي يعاقبهم، وأطرافهم ممزقة

(1)Manilius (50), III, 68.
(2)Manilius (50), I, 60.
(3)Manilius (50), I, 55 ; IV, 93.

هو شأن القَدَر؛ وشأنه أن يتحدث عنها أيضًا»[1].

=وإذا كنا أخيرًا ورثنا من التوزيع الذي قامت به السماء هذا القدْر من العقل الذي نملك، فكيف نقوم بمضاهاتها؟ كيف يمكننا أن نخضع جوهرها ومزياتها لعلمنا؟

45. كل ما نراه في تلك الأجسام السماوية مصدر دهشةٍ لنا: «**ما هي الأدوات والرافعات والآلات والعمّال الذين بنوا هذا الصرح العظيم الهائل؟**»[2]. فلماذا نحرمها من الروح ومن العقل؟ هل شهدنا فيها بعض البلاهة الجامدة، نحن الذين لا نقيم علاقة معها إلا علاقة الطاعة والخضوع؟ وهل سنقول إننا لم نجد لدى مخلوق آخر، غير الإنسان، هذا الاستعمال لعقل قادر على التعقُّل؟ وماذا أيضًا؟ هل شهدنا شيئًا مماثلًا في الشمس؟ هل تتوقف عن الوجود، لأننا لم نرَ شبيهًا لها؟ وهل تتوقف حركاتها، لأن الكون ليس فيه مثيلٌ لها؟ فإذا كان كل شيء لا نراه غير موجود، فإن معرفتنا سوف تجد نفسها ضيّقة: «**كم هي ضيّقة حدودُ عقولنا**»[3]. أليس حلمًا مصدرُه الغرور ذلك الذي يجعل من القمر أرضًا سماوية؟ وأن يتصور فيه المرء جبالًا ووهادًا كما فعل ذلك أناكساغوراس[4]؟ وأن تُقام فيه مساكن ومقامات إنسانية، وأن تقام فيه مستعمرات لنا كما فعل ذلك أفلاطون وبلوتارخوس[5]؟ وجعل أرضنا كوكبًا مشعًا ومنيرًا؟ «**من بين عاهات الطبيعة البشرية ثمة عماء العقل، الذي لا يكره المرء على ارتكاب الأخطاء، وإنما يجعله يحب أخطاءه... الجسد الفاسد يثقل كاهل الروح وهذا المقام الدنيوي يضفي الكآبة على العقل في أفكاره المتعددة**»[6].

46. الادّعاء مرضنا الطبيعي والأصلي. وإن أكثر المخلوقات بؤسًا وهشاشة هو

---

(1)Manilius (50), IV, 79, 89, 118.

(2)Cicéron (18), I, 8.

(3) Cicéron (18), I, 31.

(4) Diogène Laërce [45] **Anaxagore**, II, 8.

(5) Plutarque [78] LXXI, **De la face qui apparait au rond de la lune**.

(6) Sénèque (95), II, ix.

الإنسان[1]، وأكثرها كبرياء في الآن نفسه. فهو يحسّ نفسه موجودًا في الدنيا وسط الوحل وأزبال العالم، مربوطًا ومشدودًا لأكثر مناطق الكون سوءًا وأكثرها مَواتًا وركودًا، في الدرك الأسفل الأكثر بعدًا عن قبة السماء، مع الحيوانات الأكثر سوءًا من الثلاثة[2]. ومع ذلك فهو مخلوق يضع نفسه بالفكر فوق دائرة القمر، ويجعل السماء تحت قدميه. فالإنسان بغرور فكره ذاك يتنطّع لمضاهاة الله، فتراه يمنح لنفسه صفات إلهية، ويعتبر نفسه مميزًا عن جمهرة المخلوقات الأخرى، ويقوم بتقسيم الحصص التي تعود لزملائه، مانحًا إياهم على هواه هذا القدر أو ذاك من الملكات أو القوى. كيف يمكن له أن يعرف بعقله الحركات الباطنة والخفية للحيوانات؟ وبأي مقارنة بينهم وبيننا يخلص إلى البلادة التي ينسبها لها؟

الحيوان والإنسان

47. حين ألاعب هرّتي، من يدري إن لم أكن عنصر تسلية لها بدل أن يكون العكس؟ فنحن نتمازح بشكل متبادل. فإذا كان لي وقت للعب معها أو لرفض ذلك فالأمر يسري عليها أيضًا. حين يصف أفلاطون «العصر الذهبي» تحت إمْرة ساتورنوس*[3]، يضع التواصل الذي يقوم به مع الحيوانات في مستوى أهم المحاسن التي يملكها الإنسان في زمنه. فحين كان يسائلها ويستخبر منها، يعرف مزاياها الحقيقية والاختلافات التي تميزها؛ بحيث كان يستخلص من ذلك عقلًا كاملًا وحكمة باهرة، وهو ما كان يمكّنه من تدبير حياته، بشكل أسْعد مما يمكن أن نقوم به نحن. هل نحن بحاجة إلى دليل أفضل؛ كي نحكم على الوقاحة البشرية بخصوص الحيوانات؟ فهذا المؤلف العظيم[4] قد اعتبر بأن الطبيعة في أغلب الحالات، منحتها صورة جسمانية تقوم أساسًا على الاستعمال الذي يمكن الإنسان فيما بعد أن يستفيده منها في الكهانات، تبعًا لعوائد ذلك الوقت.

(1) شطب مونتيني في «نسخة بوردو» عبارة «قال بلينيوس»، وهو ما يعني أنه في مراجعته استعاد الشاهد لحسابه الخاص.

(2) من بين «الشروط الثلاثة»، أي الهواء والماء والتراب، يعتبر العنصر الأخير هو «الأسوأ».

(3) * إله الخصوبة والزراعة في الأساطير الرومانية.

(4) يعني أفلاطون في محاورة «تيمايوس» (74)، 72.

48. إن هذا العيب الذي يعوق التواصل بين الحيوان وبيننا، لماذا لا يكون مصدره فينا لا فيها؟ يبقى لنا فقط التكهّن بمن يعود الخطأ له في عدم فهمنا: ذلك أننا لا نفهمه بالمقدار الذي يفهمنا به. ولهذا قد تعتبرنا الحيوانات بلداء كما نعتبرها نحن كذلك. وليس من المدهش أننا لا نفهمها، فنحن لا نفهم أيضًا الباسكيّين ولا التروغلوديتيّين*[1]. ومع ذلك فإن البعض يتبجّحون بفهمهم، كأبولّونيوس التّياني، وميلامبوس*[2]، وتيريسياس*[3]، وطاليس وغيرهم. وبما أن ثمة شعوبًا، كما يقول الجغرافيون، تختار كلبًا ملكًا عليها، يكون على أناسها أن يترجموا كلماته وحركاته ويتأوّلوها. وعلينا مع ذلك أن نلاحظ هذه المساواة بيننا، التي تتعلق بأننا لنا وعي معيّن بما تحسه الحيوانات، وهي أيضًا في الموقف نفسه إزاءنا. فهي تتودّد إلينا، وتهدّدنا وتتوسّل إلينا، ونحن أيضًا نقوم بذلك إزاءها.

49. علاوة على ذلك، نحن نرى جيدًا أن ثمة تواصلًا تامًا بيننا وبينها، وأنها تتفاهم فيما بينها؛ لا فقط الحيوانات من الصنف نفسه وإنما المختلفة الصنف.

«الحيوانات المحرومة من الكلام، والحيوانات المتوحشة
بالصرخات المتنوعة والمختلفة تعبر عن
الخوف أو الألم أو اللذة»[4].

يعرف الحصان أن الكلب غاضب حين يعمد إلى النباح بطريقة معينة، ومن نوع نباح خاص لا تراه يجفل. حتى الحيوانات المحرومة من الصوت، تملك في داخلها أنظمة أخرى لتبادل الخدمات، تجعلنا نفكر أن ثمة بينها سبيلًا للتواصل، فحركاتها تعبر عن استدلالاتٍ وتعرضُ أفكارًا معينة.

«ليس ذلك ببعيدٍ عما نلاحظه لدى الأطفال،
الذين يعوضون بالحركات عسر التعبير باللّسان»[5].

(1) * Les Troglodytes شكّان الكهوف. وفي العصور القديمة كانوا يُعدون أحد الشعوب الأسطورية، التي تقطن جنوب شرقي مصر في المنطقة المطلة على خليج السويس، وقال الجغرافي اليوناني سترابون، إنهم يسكنون الكهوف، وذكر المؤرخ الروماني بلينيوس أن هذا الشعب كان يأكل الثعابين، ولم تكن له لغة، بل يتفاهمون بالصياح.

(2) * معالج أسطوري في الأساطير اليونانية.

(3) * أحد أنبياء الإله أبولّون في الأساطير اليونانية.

(4)Lucrèce (47), V, 1058.

(5)Lucrèce (47), V, 1030.

50. ولم لا؟ نحن نرى البُكْم يتواصلون، ويمارسون الاستدلال ويتحاكوْن القصص بالإشارات. وقد رأيت منهم من يملك من الحذق والتهيؤ لذلك، بحيث إنهم في الحقيقة لا ينقصهم شيء، ويتفاهمون بتمام وكمال. والعاشقون منهم يغضبون من بعضهم ويتصالحون، ويتواعدون، وفي الأخير يفصحون عن كل شيء بالأعين.

51. وما القول في الأيدي؟ نحن نطلب ونعدُّ، وننادي ونصرِف، ونهدّد ونتوسل، وننكر ونرفض، ونتساءل ونُعجب، ونحسب ونبوح، ونندم ونخشى، ونحس بالخجل ونشك، ونعلِّم ونشهد، ونُدين ونغفر، ونشتم ونزدري، ونتحدّى ونغضب، ونتملّق ونصفّق، ونُهين ونسخر، ونُصالِح ونفرح، ونطالب ونشكو، ونتأسّى ونيْأس ونندهش، ونصرخ ونصمت. ما الذي لا نقوم به بتنوع بالغ المدى شبيهما تمكننا منه اللغة؟ ونحن بالرأس نستدعي ونصرف، نعترف وننكر، نفنّد ونستقبل، نشرّف ونبجّل، نزدري ونطلب، نطرد ونُفرِح، نأسى ونداعب، نوبّخ ونقترح، ونواجه بيأس وننصح، ونهدّد ونُطمئن ونستنطق. وما القول في الحاجبيْن؟ وفي الكتفين؟ ليس ثمة من حركة أو إيماءة لا تتكلم؛ إنها لغة معقولة من غير أن يتمّ تعلمها، ومع ذلك فهي لغةٌ عامة، بحيث إننا حين نرى تنوع اللغات الأخرى والاستعمال الخصوصي لها، نميل إلى أن نرى في ذلك خاصية الطبيعة الإنسانية. وأنا لا أهتم هنا بما تعلمه الضرورة للذين يحسون بالحاجة الماسة والمفاجئة لذلك، أعني أبجدية الأصابع ونحْوَ الإيماءات، والمعارف التي لا تعبر عن نفسها إلا بذلك السبيل. والأمر نفسه لدى الشعوب التي يقول عنها بلينيوس إنها ليس لها من لغة أخرى.

52. قام سفير من مدينة أبديرا اليونانية، بعد أن تحدّث طويلًا لأجيس ملك إسبرطة، بسؤاله: «أيها الملك، أي جواب تحب أن أعود به لمواطنيَ؟»، فأجابه: «إنني تركتك تفرغ ما في جعبتك، وكل ما في جعبتك، من غير أن أنبس ببنت شفة». أليس ذلك صمتًا فصيحًا ومعقولًا؟

53. بل الأدهى من ذلك، هل يوجد ثمة نوع من المعارف البشرية لا نعثر

عليها في أفعال الحيوانات؟ أثمة مجتمع منظم بالكثير من الصرامة وبالأكثر من المهمات والمراسم وتتم المحافظة عليه بالكثير من الاستقرار والثبات أكثر من مجتمع النحل؟ وهل يمكننا أن نتصوّر أن تنظيمًا باهرًا كذاك للوظائف والأفعال يمكنه أن يوجدَ من غير العقل والحكمة؟

«وعن علامات هذه النماذج قال البعض
إن النحْل تلقّى قسْطًا من الروح الإلهية
وأنوارًا سماوية»[1].

54. طيور السنونو التي نراها عائدة من الربيع، كانت تعشّش في كافة أرجاء بيوتنا، فهل هي تسعى في الأرض من غير حكْم، وهل هي تختار من غير تبصّر، بين المئات من الأمكنة الأكثر ملاءمة لعشها؟ وفي صرحها الجميل المنظم، كيف يمكن للطيور أن تستعمل شكلًا مربّعًا لا شكلًا مدوّرًا، وزاوية منفرجة لا زاوية قائمة، من غير أن تعرف خصائصها ولا نتائجها؟ وهل هي تعبُّ الماء تارة والوحل أخرى، من غير أن تعرف ما هو الصّلب الذي يصبح رخوًا وما هو الرطيب؟ وهل تضع موادًا رخوة ومشعَّرة في قعْر العش، من غير أن تعرف أن الأطراف الرخوة لصغارها ستكون مرتاحة فيها؟ وهل تحمي نفسها من الريح الماطرة، وتعمل على أن تكون أعشاشها أيضًا محمية منها في المشرق من غير أن تكون عارفةً للخصائص المختلفة لتلك الرياح وأن تعرف أن أحدهما أفضل لها من الآخر؟ ولماذا تنسج العنكبوت شبكتها أكثر انْشدادًا في مكان وأكثر امتدادًا في الآخر، وتستعمل هنا عقدة وفي مكان آخر عقدة أخرى، إذا هي لم تكن قادرة على التفكير والتعقُّل والاستنتاج؟

55. نحن نرى جيدًا في العديد من أعمال الحيوان إلى أي حدّ هو متفوّق علينا، وكم أن صنائعنا التقليدية تكاد تخفق في محاكاتها ومضاهاتها. بيد أننا يمكننا أن نلاحظ في صنائعنا حتى الأكثر فظاظة منها، المَلَكات التي نوظّفها فيها، وكيف أن أنفسنا وبكامل قواها تمارسها بإتقان. فلماذا سيكون الأمر مختلفًا لدى الحيوان؟ لماذا تُنسب الأعمال

(1) Virgile (114), IV, 219.

الحيوانية التي تُجاوز ما نستطيع فعله بالطبيعة، أو بالفن والصناعة إلى ملَكة طبيعية مبدعة؟ ونحن في هذا نعترف له بتفوق كبير علينا، لأن الطبيعة وبلطف أمومي، تصاحبه وترشده، كما لو أنها تمسك بيده في كل الأعمال وفي كافة ضروريات حياته، في الوقت الذي تتركنا نحن لمصادفات القدر، مضطرين في حالنا ذاك إلى ابتكار الأشياء الضرورية للحفاظ على حياتنا؛ وترفض لنا أحيانًا الوسائل التي نتوصل بها، عبر كافة أشكال التنظيم وإعمال العقل، إلى المهارة الطبيعية التي يملكها الحيوان: فبلادته كحيوان تفوق بسهولة، وفي كل الأشياء المفيدة، كل ما نستطيع عمله بعقولنا وذكائنا الإلهي.

56. والحقيقة أننا بهذا الصدد سنكون على حق أن نسمي الطبيعة أُمًّا غير عادلة. لكن الأمر ليس كذلك أبدًا، فتنظيمنا الاجتماعي لا يشوبه العيب وليس شاذًا. والطبيعة دلّلت كافة مخلوقاتها، ولا واحد منها ليس يملك الوسائل الضرورية لكي يحمي نفسه. وأنا أسمع مرارًا الناس -الذين تقودهم تقلبات أحاسيسهم، طورًا نحو الأعالي السامية، وطورًا تنحدر بهم للحضيض- يتشكّون من كوننا الحيوان الوحيد المتروك عاريًا على الأرض، لا حوْل له ولا قوّة، ولا يمكنه أن يتسلح أو يتدثّر إلا بجثث المخلوقات الأخرى، بينما كافة المخلوقات قد حبتها الطبيعة بالأصداف أو القرون، أو اللحاء أو الشعر، أو الصوف أو الجلد، أو الوبر أوالريش، أو القشور أو الجزّة أو الحرير حسب حاجتها؛ فيما سلحتها بالبراثن والمخالب والقرون للهجوم والدفاع عن نفسها؛ بل علمتها ما يصلح لكل صنف منها، كأن تسبح أو تعدو أو تطير - الإنسان لا يعرف لا المشي ولا الكلام ولا الأكل، بل فقط البكاء من غير تعلُّم،

«الطفل راقد، مثل ملاّح رمته الأمواج العاتية
على الشاطئ عاريًا تمامًا، مُسجى على الأرض وغير قادر على الكلام
لا يملك شيئًا ضروريًا للحياة
في اللحظة نفسها الذي تنتزعه الحياة
من بطن أمه وترميه في قلب النور
يملأ بنحيبه المكان الذي وُلد فيه
وهو على حق في ذلك إذ يبقى له

الكثير من الشرور، لتحمّلها خلال حياته.
بالمقابل، فالحيوانات الأليفة من كل صنف
كبيرةً وصغيرةً تنمو من غير عناء.
ولا حاجة لها بلُعب صاخبة الأصوات
ولا بثرثرة الحاضنة الحنون
ولا حاجة لها باللباس المتنوع حسب الفصول
ولا بالسلاح والأسوار العتيدة
كي تدافع عن خيراتها، أي الأرض
والطبيعة المبدعة تمنح لها كل شيء بوفرة»[1].

وإذًا فإن شكوى كتلك لا شرعية لها، فليس ثمة في تنظيم العالم مساواة وعلاقة منسجمة كما تلك التي بين الحيوان ونحن بني البشر.

57. إن جلْدتنا تقاوم مثل جلدتهم عَوادي الزمن. وتشهد على ذلك تلك الشعوب التي لم تستعمل بعد اللباس. لم يكن أسلافنا الغاليّون يستعملون اللباس، ولا جيراننا الإيرلنديون، تحت سماء لا حرارة فيها. ونحن نحكم على ذلك بأنفسنا، فكافة أطراف جسدنا التي نحب تعريضها للريح والهواء، هي تلك التي تكون مهيأة لتحمّله. وإذا ما كان ثمة جزء من جسمنا يبدو أنه يخشى البرد، فسيكون هو المعدة حيث يتم الهضم. فقد كان آباؤنا يتركونها عارية، والسيدات لدينا مهما كانت نعومتهن ورقّتهن كنّ يعرين جسدهن حتى السّرة. كما أن شرائط القماط وشدّ وسط الصبيان ليست ضرورية أيضًا، إذ كانت الأمهات الإسبَرطيات يربّين أبناءهن تاركاتٍ الحرية التامة لأطرافهم، من غير تقْميط أو تغليف. إن طريقتنا في البكاء تشبه كافة الحيوانات، وليس من بينها من لا يشكو ويئن وقتًا طويلًا بعد الولادة، لأن ذلك سلوك طبيعي، في حال الضّعف الذي نوجد فيه. أما الحاجة للأكل فهي طبيعية، لدينا كما لديها، ولا تتطلب دُرْبة أو تعلمًا:

«فكلٌّ كائنٍ يحسّ بالاستعمال
الذي يمكّنه أن يقوم به لمزاياه»[2].

---

(1)Lucrèce (47), V, 223, sq.

(2)Lucrèce (47), V, 1033.

58. من يشك في أن صبيًا اكتسب القوة على التغذّي، لن يعرف كيف يسعى وراء قوته؟ فالأرض تنتج ما يكفيه وتقدم له حاجياته، من غير حرث أو أي تدخّل لأي شيء آخر. وإذا لم يكن ذلك متوفرًا في كل الفصول، فهي لا تفعل ذلك مع كافة الحيوانات، ويشهد على ذلك المخزون الذي يدّخره النمل وغيره من المخلوقات الأخرى ليتغذى به في الفصول العقيمة من السنة. والشعوب التي اكتشفنا، تملك من المؤونة والمشروبات الطبيعية، التي توفرت لها من غير عناء ولا عمل مُضْن، علمتنا أن الخبز ليس طعامنا الأساس، وأننا من غير أن نحرث الأرض فإن أمنا الطبيعة قد وفرت لنا كليةً ما نحتاجه، وربما أكثر مما توفره لنا اليوم بعد أن أضفنا لها صناعاتنا.

«وكانت الأرض تنتج بذاتها في البداية
حصادًا أسمر وكرومًا ضاحكة
وتمنح لبني البشر فاكهة لذيذة
والمراعي، وكل هذا الآن
لا يكاد ينبت، وبرغم مجهودنا نتعب في الحرث
وتُنهك قوى مزارعينا»[1].

إن فوضى جشعنا والإفراط فيه يفوق كل ما نبتدع لكي نشبعه.

59. أما الأسلحة، فلدينا الطبيعية منها أكثر مما لدى الحيوان. فحركات أطرافنا أكثر تنوعًا، ونحن نستفيد من ذلك أيما استفادة، من غير أن نكون قد تعلّمنا ذلك. وحركات الرجال الذين تعلموا فنون الحرب عراة، تجعلهم يرمون بأنفسهم وسط المخاطر مثلهم مثل الآخرين. فإذا كانت بعض الحيوانات المتوحشة تفوقنا في الخفة والرشاقة، فإننا نفوق في ذلك الكثير منها. ونحن قد طورنا، بضربٍ من الغريزة الطبيعية، فنّ تقوية جسمنا وحمايته بعناصر مُضافة له. والدليل على أن الأمر كذلك، أن الفيل يشحذ نابيْه اللذين يستعملهما في الحرب (إذ له نابان خاصّان لذلك الاستعمال ولا يستخدمهما لغير ذلك). حين تكون الثيران في حال عراك، تنثر الغبار وترميه حوالها بحوافرها؛

(1)Lucrèce (47), II, 1157.

والخنازير تشحذ أنيابها؛ والنمس حين يكون عليه مواجهة تمساح، يدهن بدنه بالوحل الكثيف الذي يصلح له درْعًا. فلماذا نقول: إن الأمر طبيعي لنا أن نتسلّح بالخشب والحديد؟

.60 أما اللغة، فمن الأكيد أنها إذا لم تكن طبيعية فهي ليست ضرورية. وأنا أعتقد مع ذلك أن طفلًا يُرّبى في عزلة تامة، مُبْعدًا عن كل علاقة بشرية - وهو أمر من الصعب تحقيقه - سيكون له مع ذلك ما يشبه اللغة للتعبير عما يشعر به؛ ذلك أن من المحال أن الطبيعة ستحرمنا مما مُنحت للحيوانات الأخرى. فهل اللغة شيء آخر غير تلك الملَكة التي تمكّنها من الشكوى والفرح والاستنجاد والحب، كما تقوم بذلك باستعمال أصواتها؟ كم من طريقة نتحدث بها مع كلابنا وهي تجيبنا! إننا نخاطبها باستعمال لغة أخرى وكلمات مغايرة لما نقوم به مع الطيور والخنازير والثيران والجياد: فنحن نغيّر لغتنا تبعًا لأصناف الحيوانات التي نخاطبها.

«وهكذا فإن النمل
وسط فيْلقه الأسود يتحادث
متسائلًا ربما عن الطريق وعن الغنيمة»[1].

.61 يبدو أن لاكتانتيوس*[2] ينسب للحيوانات ليس فقط الكلام، وإنما الضحك أيضًا. واختلاف اللغات الذي نلاحظه لدى بني البشر من مناطق مختلفة، يوجد لدى الحيوانات من الصنف نفسه. يستشهد أرسطو هنا بأصوات الحجَل، المختلف حسب المنطقة التي نراه فيه.

«الأنواع المختلفة من الطيور لها زقزقة مختلفة
حسب الأوقات وبعضها ينوع من إنشاده الأجشّ
حسب الجو المحيط»[3]...

.62 يبقى أن نعرف أي لغة سيتحدّث هذا الطفل الذي تربى في عزلة تامة عن بني البشر. وما نقول من باب التخمين لا قيمة كبرى له. وإذا ما

(1)Dante (3), **Purgatoire**, XXVI.
(2) * لوكيوس كايكيليوس لاكتانتيوس (250 م تقريبًا – 325 م تقريبًا) مؤرخ وكاتب روماني.
(3)Lucrèce (47), V, vv. 1078, 1081, 1083-84.

عارض أحد، ما قلتُ آنفًا،إن الصمّ بالولادة لا يتحدّثون مطلقًا، فإني سأجيب بأن ذلك لا يعود فقط إلى أنهم لم يتربَّوْا على الكلام بواسطة الأذن، وإنما لأن حاسة السّمع التي حُرموا منها مرتبطة بحاسة الكلام، وأنهما مرتبطان بشكل طبيعي؛ بحيث إننا حين نتكلّم، علينا أن نتكلم مع أنفسنا أولًا، وأن نسمع أولًا ما نقول وما سنبعث لآذان الآخرين.

63. أقول هذا كله لأشدّد على التشابه الموجود بين الأمور البشرية والحيوان، حتى نعود لنرتبط بمجموع الخلائق. فنحن لسنا لا فوق باقي المخلوقات ولا دونها: كل ما يوجد تحت السماء كما يقول الحكيم[1] يتّبع شريعةً ومصيرًا متشابهين.

«كلهم مقيَّدون بسلاسل قَدرهم»[2].

ثمة بعض الاختلافات، وطوائف ومراتب، لكن في صورة الطبيعة نفسها.

«كل شيء يتطوّر على طريقته، وكل الأشياء تحافظ على الاختلافات التي أرساها النظام الثابت للطبيعة»[3].

64. علينا أن نحافظ على الإنسان في حدود النظام الاجتماعي. فالمسكين لا يستطيع أن يجاوزه، إذ هو مقيّد ومعوق، وخاضعٍ للضرورات نفسها، التي تخضع لها المخلوقات الأخرى من جنسه، فهو من شرط متوسط، بلا امتيازاتٍ خاصة، وبلا بتفوقٍ حقيقي وجوهري. وذلك التفوّق الذي يخاله لنفسه في مخيلته وفكره، ليس له من طابع ملموس أو متماسك. وإذا كان صحيحًا أنه الوحيد من بين الحيوانات الذي يتوفر على حرية الخيال، وانعدام الحدود في التفكير، الذي يمكّنه من أن يتصوّر ما يوجد وما لا يوجد وما يبتغي، والصواب والخطأ؛ فإنه أمر يؤدي عنه ثمنًا غاليًا، بحيث لا يمكن أن يفخر به كثيرًا؛ لأن ثمَّ يوجد الأصل الأساس للشرور المحيقة به، كالخطيئة والمرض والحيرة والقلق واليأس.

(1) Ecclésiaste, 9-2.

(2)Lucrèce (47), V, v, 876.

(3)Lucrèce (47), V, v, 923-24.

65. أقول إذًا؛ حتى أعود لموضوعي الأول: إن الحيوانات لا يمكنها بتاتًا بنزوعها الطبيعي أو عنوةً أن تقوم بالأشياء التي اخترنا القيام بها، والتي نقوم بها بفضل مهاراتنا. وعلينا أن نختم بأن النتائج نفسها تعود للملَكات نفسها، وأن النتائج الأهم تعود لملَكات أكبر. ومن ثم علينا أن نقبل أن تلك القدرات التي نملك، والطريقة التي نستعمل، لتحقيق أعمالنا هي أيضًا تلك التي تملكها الحيوانات، بل إن لها أحيانًا قدرات أفضل. لماذا إذًا نتصور لديهم إكراهًا طبيعيًا لا نحسه نحن في أنفسنا؟ لنضفْ إلى ذلك أن من المشرّف والموافق لمشيئة الله أن تتصرف المخلوقات تبعًا لقواعد معيّنة، وانطلاقًا من ميولها الفطرية الضرورية، على أن تتصرَّف باستعمال حرية متهورة وطارئة. ومن الأوْثق لنا أن نترك الطبيعة توجّه تصرفاتنا على أن نقوم بذلك بأنفسنا. إن غرورنا واعتدادنا بأنفسنا من القوة بحيث نفضّل أن ننسب قيمتنا لقوانا، لا لحرية تصرفاتنا. فنحن نمنح للحيوانات خيرات طبيعية، ونتركها لها كي نغترّ بالخيرات التي كسبنا. إنه سلوك بالغ السذاجة، فأنا سأمنح قيمة لمزايا أملكها تكون فطرية على أن أمنحها لمزايا سوف أتسوّلها، وأحصل عليها بالتعلُّم. نحن لا يمكننا أن نطمع في الوصول إلى وضع نُحسد عليه، إلا ذاك الذي يكون لنا بمشيئة الله والطبيعة.

66. انظرْ مثلًا ما يفعله أهل مدينة تراقيا حين يريدون عبور نهرٍ جامد: إنهم يطلقون أمامهم ثعلبًا[1]، وحين يبلغ هذا الأخير الشطّ، يقرب أذنه من سطح الجليد كي يعرف إن كان الماء تحته قريبًا أو بعيدًا، فيُستنتج من ذلك أن سُمْك الجليد يمكّن من التقدم أو التراجع. حين نقف على هذا الأمر، ألا نعتقد أن الأفكار التي تمرّ بذهن الثعلب، هي تلك التي تمرّ بذهننا في الوضع نفسه، وأن الأمر يتعلق هنا باستدلالٍ عقلي، وباستنتاج آتٍ من الحسّ المشترك الفطري، من قَبيل: «ما يُصدر صوتًا هو هائج؛ وما هو هائج ليس متجمّدًا؛ وما هو ليس متجمّدًا سائل، وما هو سائل لا يمكن أن يتحمّل ثقلًا». فأن ننسب هذا السلوك فقط لرهافة أذنٍ خاصة، من غير أن نتحدث عن الاستدلال والاستنتاج، هو وهْم، ولا يمكن لذلك أن يجد مكانًا في عقولنا. والحكم نفسه يسْري على العديد من الحيل والتدخّلات، التي تحمي بها الحيوانات نفسها من أفعالنا.

(1) Plutarque [78] LVIII, **Quels animaux sont les plus avisés**, f 513 G.

67. وإذا كنا نعتقد أننا نجني فائدةً من إمكان القبض عليها واستعمالها على هوانا، فلا يتعلق الأمر هنا إلا بحظوة نملكها البعض على البعض الآخر، فنحن نفرض هذه الأمور على عبيدنا. وفي سوريا، ألم تكن الجواري سلالم، إذ كن يركعن حتى يكنَّ درَجًا للسيدات الراغبات في صعود عرباتهن[1]؟ أغلب الناس الأحرار يقبلون أن يسلّموا أنفسهم وحياتهم لسلطة الآخرين، مقابل امتيازات قليلة. كانت نساء التراقيين وسراريهم يتنازعن الحق في اختيارهن ليُحْرقن على قبر أزواجهن. ألم يكن للطغاة ما يكفيهم من الناس الأوفياء لهم؟ وألَمْ يضف البعض منهم لهذا التبجيل إلزامهم بمصاحبتهم في الحياة كما في الموت؟

68. ثمة جيوش بكاملها وضعت مصيرها بين أيدي قادتها. لقد كانت الصيغة القاسية لدى المصارعين الرومان تتضمن الكلمات التالية: «نقسم بأن نترك أنفسنا نقيَّد ونُحرق ونُضرب ونُقتَل بالسيف، وأن نتحمّل كل ما يتحمله المصارعون المحترفون من سيّدهم، مانحين بأريحية جسدهم وروحهم في خدمته».

«احرق رأسي إذا أردت ذلك، واطعنّي بالسيف
واحرث ظهري بضربات السّوط»[2].

كان ذلك التزامًا حقًّا، ومع ذلك كان ثمة المئات في السنة الذين ينخرطون في هذه الطائفة ويفقدون الحياة فيها.

69. حين كان السكوثيون يدفنون ملكهم، كانوا يقومون على رفاته بخنْق جاريته المفضّلة، وغلامه وسائس جواده، وخادمه الشخصي وطباخه. وفي ذكرى وفاته، كانوا يقتلون خمسين جوادًا مع فرسانها من النبلاء، يطعنونهم حتى الحلق، ويتركون الكلّ حول القبر كما في استعراض جنائزي[3].

---

(1) Plutarque [78] VII, **Comment on pourra discerner le flatteur d'avec l'amy**, f° 41 A

(2)Tibulle (104), I, 9, vv. 21-22.

(3)Hérodote, IV, 71-72

الحيوانات الأليفة

70. الرجال القائمون على خدمتنا يقومون بذلك بأثمنة بخسة، وهم لا يحظون بحسن المعاملة التي تحظى بها طيورنا وجيادنا وكلابنا التي تتطلب منا راحتها الكثير. ويبدو لي أن الخدَمَ الأكثر تواضعًا لا يفعلون عن طيب خاطر، ما يفعله الأمراء بالكثير من المحاباة مع دوابهم. حين أدرك ديوجينيس أن أبويه يرغبان في شراء عبوديته قال: «يا لهم من مجانين! إن من يهتم بي ويطعمني هو عبدي!». ومن يهتمون بالحيوانات سيقولون في أنفسهم إنهم بالأحرى يخدمونها لا هي التي تخدمهم.

71. ثم إن الحيوانات فيها من النبل أكثر مما فينا: فنحن لم نر ليْثًا في خدمة ليث آخر، ولا جوادًا في خدمة آخر؛ نظرًا لضعف شجاعته. وكما أننا نروح لصيد الحيوانات، تروح الليوث والنمور لصيد الناس؛ وهم يقومون بالشيء نفسه فيما بينهم، فالكلاب تصيد الأرانب، وسمك الزُّنجور يأكل سمك الكُمْه، والخطاطيف تقتات من الصراصير ، والنسور تقنص طيور الهزار والسنونو.

«يغذي اللقلق صغاره بالثعابين الصغيرة
ومن السحالى التي يصيدها في الخلاء،
والنسر الملكي يصيد في الغابات
الأرنب واليحْمور...».

72. نحن نتقاسم ما نصيد مع كلابنا، كما نتقاسم معهم جهودنا ومهاراتنا. وفوق أمفيبوليس*[1] في مدينة تراقيا، يتقاسم الصيادون والصقور الوحشية الغنمية مناصفةً. والأمر كذلك في مروج ميوتيدا[2]، إذا لم يترك الصياد فيها بشرف للذئاب حصّة من السمك تكون مساوية لحصته، فإنها تقوم بتقطيع شباكه.

(1) * بلدة إغريقية مندثرة.
(2) أي بحر آزوف.

73. وإذا كنا نمارس حصص صيد، تتطلب الدقة أكثر من القوة، وكما نضع نحن أشراكًا أو صنارات، نرى لدى الحيوانات أمورًا شبيهة بذلك. يقول أرسطو[1]: إن سمك الحبّار الشائع يخرج من جوفه وترًا طويلاً مثل صنارة، يرمي به بعيدًا ليعيده إليه متى شاء. فهي سمكة تختبئ في الرمل في القاع وحين ترى سمكة صغيرة تقترب منها، تتركها تعض طرف الوتر وتجذبها إليها رويدًا رويْدًا، حتى تصير السمكة قريبة منها، بحيث تقدر على الإمساك بها بقفزة واحدة.

74. أما بخصوص القوة، فعلينا القول إن لا وجود لحيوان في العالم أكثر تعرّضًا للهجوم من الإنسان. لن نتحدث عن الحوت أو الفيل أو التمساح، ولا عن حيوانات أخرى يمكن لواحد منها أن يقضي على عدد كبير من الناس. فقد كان الدود كافيًا لكي يوقف دكتاتورية سولا[2]. وقلب وحياة إمبراطور منتصر، ذلكم هو غداء دودة صغيرة.

75. لماذا الزعم بأن الإنسان يتوفر على معرفةٍ وعلمٍ راسخٍ بالاستدلال العقلي والمهارة، فقط لأنه قادر على تمييز الأشياء المفيدة لوجوده، ولمداواةِ أمراضه، أو لأنه قادر على معرفة فضائل الأعشاب العلاجية؟ حين يصاب ماعز جزيرة كريت بسلاح رماية، يختار من بين المئات من الأعشاب ريحانة الأرض التي سيداوي به جرحه. وحين تلتهم السلحفاة الحية تبحث للتوّ عن نبتة السّمسق كي تطهّر نفسها من السمّ. والتّنين[3] يحكّ عينيه ويجعلهما أكثر نضارة بنبتة الشُّمّار. واللقالق تقوم بنفسها بغسل ذاتها بماء البحر. والفيلة تخرج بخرطومها الرماح والنبال التي أصابتها، وتلك أيضًا التي تصيب الفيلة الأخرى، بل حتى التي تُصيب أسيادها (يشهد على ذلك فيل الملك بوروس*([4]) الذي تحداه الإسكندر الأكبر)، وهي تنتزعها بحذق لا نستطيعه مع التسبب في القليل الأقل من الألم. فلماذا إذًا لا نقول ونحن نرى كل هذا إنّ

(1) Aristote [5], in. Plutarque [78] LVIII, **Quels animaux sont les plus avisés**, f° 519.
(2)Plutarque [79], **Sylla**, p. 887

(3) مرة أخرى نلاحظ أن مونتين يستقي أخبارًا من مؤلفين قدماء من غير تمحيص.

(4) * الملك بوروس هو أمير هندي هزمه الإسكندر الأكبر في معركة هيداسبس، أثناء اجتياحه الهند، وتحديدًا في منطقة البنجاب (باكستان حاليًا).

الأمر يتعلق بعلم وتفكير. فأنْ نزعم، احتقارًا منا للحيوان، أنه لا يعرف ذلك إلا بفطرة الطبيعة، أمرٌ لا يسمح لنا مع ذلك بأن نحرمه من العلم والحكمة، بل بالعكس أن ننسبهما له عن حقّ أكثر مما ننسبهما لنا، بما أن له مُعلِّمة جهْبذ من قَبيل الطبيعة.

الكلب الجدلي

76. كان خريسيبّوس أكثر ازدراءً من أي فيلسوف آخر لوضعية الحيوان. لكنه في مفترقٍ لطرق ثلاثة أبصر بكلب يبحث عن صاحبه الضال أو المطارد لطريدة فسبقه. وبما أنه رآه يحاول طريقًا بعد الآخر، وبعد أن تأكد أن الطريقيْن الأولين لا أثر فيهما لصاحبه، انطلق في الطريق الثالث من غير تردّد، فاضطُرّ لأن يعترف أن في ذلك الكلب استدلالٌ عقلي من قبيل: «تبعت سيدي حتى مفترق الطرق هذا، ولا يمكن إلا أن يكون قد اتبع أحد الطرق الثلاثة؛ وبما أنه ليس لا هذا ولا ذاك، فمن اللازم أن يكون قد سلك الطريق الثالث». فالكلب وهو يؤسس يقينه على هذا الاستدلال العقلي، لم يعد حينئذٍ محتاجًا لحاسة الشّمّ في الطريق الثالث ولم يتحقق منه، بل فوّض أمره للعقل. هذا الموقف الجدلي الخالص، وهذا الاستعمال للجمل المنطقية المقسمة ثم المبنية من جديد، والتعداد التام للمقولات الكافي للوصول للنتيجة، كل هذا ألا يمتحه الكلب من نفسه لا من جورجيوس الطرابزوني[1]؟

77. ليس من المحال تربية الحيوان على طريقتنا. فنحن نعلّم الكلام للهزار والغراب وطائر العقْعق والببغاء، ونحن نعترف لها بتلك القدرة على أن تمنحنا صوتًا ونفَسًا منسابًا ومطواعًا بحيث يمكن أن نجعلها تنطق ببعض الحروف والكلمات. وهو أمر يشهد بأن لها في ذاتها أهلية للتعقُّل تجعلها قادرة على هذا التعلُّم وراغبة فيه. وأنا أعتقد أننا نسأم في النهاية من رؤية الألعاب البهلوانية التي يلقّنها البهلوان لكلبه، من رقصات بحيث لا يخطئ في إحدى النوتات التي يسمعها، ومن حركات مختلفة

(1) عالم نحوي يوناني كانت رسائله في النحو تُدرّس في المدارس في زمن مونتيني.

وقفزات لا يتحكم فيها إلا بالكلام. لكني أندهش أكثر من السلوك الذي تقوم به الكلاب المصاحبة للعُمْيان في المدينة كما في البادية، مع أنه أمر معتاد. فقد لاحظت كيف هي تتوقّف أمام بعض الأبواب، التي يتلقّون فيها الصّدقة، وكيف تعرف تفادي العربات، مع أنها لو كانت وحدها لكان لها المرور بيسْر بينها. بل إني رأيت منها كلبًا طوال خندق في المدينة، يترك مسلكًا معبدًا ويختار آخر وعرًا، فقط لكي يجنّب صاحبه الأعمى الخندق. كيف تمّ إذًا إفهام هذا الكلب أن مهمته تكمن في السهر على سيده، وأن يتخلى عن عوائده كي يخدمه أحسن خدمة؟ كيف يمكنه أن يدرك أن مسلكًا يسعه هو لا يمكن أن يسع الأعمى؟ هل يمكن أن يُفهم كل هذا من غير تفكير وتعقُّل؟

78. علينا ألا ننسى أن بلوتارخوس يقول عن كلبٍ رآه في روما، في مسرح ماركيلّوس بمعية الإمبراطور فسباسيانوس الأب: كان ذلك الكلب في خدمة بهلوان يؤدي أدوارًا بمشاهد متعددة وشخصيات متنوعة، وله فيها دور. ومن بين الأدوار التي عليه تأديتها أن يمثّل كلبًا ميتًا لبعض الوقت كما لو كان قد تجرع سمًا. فبعد أن تناول الخبز الذي يمثل السمّ، بدأ جسمه في الارتعاش والهزهزة، كما لو كان مصابًا بالدُّوار، ثم تمدّد بكامل جسمه وتصلّب، كما لو كان قد أسلم الروح متحركًا من مكان لآخر في الخشبة، كما هو مطلوب في المسرحية. ثم إنه لما أحس بأن الوقت قد حان، بدأ ينتفض ببطء كما لو أنه يُفيق من سُبات عميق، ثم رفع رأسه وأداره هنا وهناك بشكل أدهش النظّارة.

79. في حدائق سوسة*[1]، كان ثمة ثيران تُستخدم في ريّ الحديقة تُدير ناعورة ماء بها دِلاء (كما نرى ذلك في منطقة اللانغْدوك*[2]. وقد عُوّدت بالقيام كل يوم مئة دورة، بحيث كان من المحال أن يضيفوا لها ولو بالقوة دورة واحدة زائدة، وبحيث ما إن تنتهي الثيران من مهمتها، حتى تثبت في مكانها بلا حراك. وكنا نحن يافعين لا نعرف العدّ حتى المئة، بل إننا اكتشفنا شعوبًا لا تعرف علم الأعداد.

(1) * سوسة أو شوشان (شوش بالفارسية) مدينة فارسية مندثرة، كانت عاصمة الإمبراطورية الأخمينية.
(2) * مقاطعة من مقاطعات فرنسا.

80. يلزمنا من الذكاء لتعليم الغير أكثر منه لتعليم أنفسنا. لنترك جانبًا ما كان ديموقريطوس يفكر به ويريد البرهنة عليه، أي أن أغلب الفنون علَّمنا إياها الحيوان، فالعنكبوت علمنا النِّساجة والخياطة، والخطاف البناء، والهَزار ممارسة الموسيقى، وتعلمنا الطب بمحاكاة ما تفعله حيوانات كثيرة أخرى. يقول أرسطو: إن طيور الهَزار تعلم صغارها الغناء وتكرس لذلك الوقت والعناية اللازمين، ولذلك السبب فإن غناء التي نربيها منها في قفص، والتي لم تُتح لها فرصة متابعة دروس آبائها، يفقد الكثير من روعته. يمكننا أن نستنتج من ذلك بأن الغناء يتحسّن بالدُّربة والدراسة، وهو لدى الطيور الحرة أيضًا ليس أحاديًا ولا أحادي الشكل، فكل طائر يأخذ حصّته منه حسب مستطاعه. وفي حماس التعلُّم نراها تتنافس بطريقة معينة وتتعارك بشجاعة، بحيث إن المغلوب يلقى حتفه في ذلك، إذ ينقصه النفَس لا الصوت. الصغار منها تتأمل شاردة، وتدرّب نفسها على محاكاة بعض المقاطع: فنرى التلميذ ينصت لدرس أستاذه ويكرره بعناية كبيرة. وهي تسكت كل حسب دوره، ونسمعها تصلح أصواتها، وندرك بعض تصويبات الأستاذ.

81. قال آريّوس[1]: «رأيت فيما مضى فيلاً يحمل صِنْجًا في كل قَدم، وآخر في الخرطوم، يقرعها فتدور الفيلة الأخرى راقصةً، رافعة قدميها الأمامية، وحانية رأسها، تبعًا لإيقاع الآلة الموسيقية التي ترشدها. وكنا نجد متعة في الإنصات لهذا التناغم». وفي العروض لتي كانت تتم بروما كنا نرى عادة فيلة مروَّضة على الحركة، والقيام على إيقاع الصوت، برقصات ذات صور متعددة، بإيقاعات متقطّعة ومتنوعة من الصعب تعلُّمها. وكنا نرى بعض تلك الفيلة تتمرّن وحدها بعناية ودقة، حتى لا تتلقى من سيدها توبيخًا أو ضربًا.

82. بيد أن حكاية طائر العقْعق، التي يضمن بلوتارخوس بنفسه صحّتها؛ رائعة. كان ذلك الطائر يوجد في حانوت حلاق بروما، وكان يحاكي بروعة كل ما يسمع. في يوم ما حدث أن أبواقًا توقفت أمام المحل،

(1) يبدو أن هذه الحكاية مستقاة من «التاريخ الهندي» للمؤلف نفسه.

وظلت تطلق أصواتها لوقت طويل. ومن حينئذٍ وطوال اليوم الموالي، ظل الطائر يبدو شاردًا وكئيبًا. اندهش الكل لذلك، ظانّين أن أصوات الأبواق قد أصمّت العقْعق، وأصابته بالدوار، بحيث فقد صوته مع سمعه. غير أنهم أدركوا في الحال، أنه كان في حال من التركيز العميق، والخلوة الباطنة، يتمرّن ويهيئ صوته لتقليد صوت البوق؛ ذلك أن الأصوات الذي أطلق الطائر بعد ذلك كانت هي تلك الأصوات، بالتعبير التامّ عن وقفاتها واستعاداتها وتنويعاتها. ومع عملية التعلّم الجديدة تلك، ترك الطائر كل ما تعلّمه سابقًا وأنكره.

83. لا أريد أيضًا أن أنسى ذكْر هذا المثل الآخر لكلب قال بلوتارخوس إنه صادفه، وأنا أحس أني لا أحترم ترتيب هذه الأمثلة في تقديمها، غير أني لا أحترم الترتيب في كل ما أكتب. كان بلوتارخوس على ظهر سفينة، وكان الكلب يحاول لعْق الزيت الذي كان في قُلَّة من غير جدوى، بسبب ضيق عنقها، كما أن لسانه لم يكن طويلًا بما يكفي حتى يصل إلى قاعها. وهكذا راح يبحث عن أحجار وملأ بها القلة حتى ارتفع مستوى الزيت بما يكفي كي يلعقه.

قَصص عن الفيلة

84. وهذه القصة تشبه، شيئًا ما، القصة التي يحكيها عن الفيلة ملك من بلادها هو يوبا*[1]: حين تمكن الصيادون بالحيلة إسقاط أحدها في الخنادق العميقة، التي هيّأوها لذاك الغرض وغطوها بالأغصان، جاء رفقاؤه بالصخور وقطع الخشب، كي يتمكن من الخروج من الخندق. بيد أن ملَكات هذا الحيوان تشابه ملكات الإنسان، في الكثير من الحالات الأخرى، التي إن رغبت هنا في إثبات ما بيّنته التجربة بالتفصيل، فسيكون لي ما أدعّم به الفكرة التي أدافع عنها عادة، وهي أن ثمة اختلافًا أكثر بين إنسان وإنسان أكثر مما بين حيوان وإنسان[2].

(1) * ملك أمازيغي قديم.

(2) إنها الفكرة نفسها التي عبّر عنها مونتيني آنفًا. الكتاب الأول، الفصل 42، الفقرة الأولى.

85. في بيت من البيوت السورية، كان سائس فيل يسرق نصف طعام الحيوان. وفي يوم ما أراد سيد البيت أن يطعمه بنفسه، ووضع في مِذوده كمية الشعير المخصّصة له. نظر الفيل لوصيفه نظرة شزراء، وبخرطومه قسم الشعير إلى حصّتين، مشيرًا بذلك إلى الظلم الذي يصيبه. وكان لفيل آخر سائسٌ يخلط طعامه بالحصى لتكبير حجمه، اقترب من القدْر الذي كان يطهو فيه الوصيف طعامه وملأه بالرماد. إنها حالات خاصة، لكن ما استطاع رؤيته كل واحد ويعرفه الكلّ، هو أن كافة جيوش بلدان المشرق تمتح قوتها الأساس من الفيلة، التي كانوا يجْنون منها فائدة عظيمة مقارنة مع ما نجْنيه اليوم نحن من مدفعيتنا، التي تحتل المكان نفسه تقريبًا في معركة نظامية -والذين يعرفون التاريخ القديم يمكنهم بسهولة الحكم على ذلك- وأسلافها من الفيلة خدمت حنبْعل وقرطاج:

«قادتُنا الحربيون ومولوسوس الملك
يحملون على ظهورها فيالق وجحافل
وكانت هي أيضًا تسير للحرب...»[1].

86. كان الإنسان ملزمًا طبعًا بالوثوق في هذه الحيوانات، وفي ذكائها مانحًا لها طليعة المعركة؛ ففي ذلك المكان، يكفي لخسران الحرب أن تتوقف، ولو للحظة، بسبب ضخامة أجسامها، وعلوّ قامتها، أو أن يجعلها أبسط وَجَل ترتدّ ضد أصحابها. ليس ثمة الكثير من الأمثلة على ذلك، وعلى أنها ارتدَّت ضد جيوشها، فيما نقوم نحن ضد بعضنا البعض ونتجه نحو الهزيمة. كان القادة العسكريون يكلفونها لا بهجمة بسيطة فقط، وإنما بأقسام متعددة من المعركة. وكان الإسبان يستعملون الكلاب في الاستعمار الحديث لبلدان الهنود، ويمنحونها أجرة ويخصصون لها حصتها من الغنيمة. وكانت تلك الحيوانات تُبين عن الكثير من الحذق والعزْم، في متابعة انتصارها أو وقْفه، والهجوم أو الارتداد حسب الظروف، كما في التمييز بين الأصدقاء والأعداء، بحيث كانت تبرز الكثير من الحماس والعزيمة.

(1)Juvénal (42), XII, 107 sq.

87. نحن نُعجب بالأشياء الغريبة ونقدّرها أكثر من الأشياء العادية. ومن غير ذلك لم أكن لأن أقيم هذه اللائحة الطويلة؛ ففي نظري من يتفحّص عن قرب ما يمكننا ملاحظته، لدى الحيوانات التي تعيش بين ظهرانيْنا، يمكن أن يجد لديها أشياء بحجم روعة تلك التي نَجمع عنها في البلدان الأجنبية، أو في عصور سابقة. فهي تُبدي لديها عن الطبيعة نفسها. ومن يقوّم حالها الراهن، سيتمكن لا محالة من أن يستخلص منها معرفة ماضيه كما مستقبله. ولقد رأيت في السابق أناسًا، أُتي بهم عبر البحار من بلدان بعيدة، ولأننا لا علم لنا بلسانهم، وأن سلوكَهم وتصرفاتهم ولباسهم بعيدة كل البعد عما لدينا، من منا لم يعتبرهم متوحشين أو أجلافًا؟ منْ ذا الذي لم ينسبْ لهم البلادة والتوحش، لأنهم ظلّوا لا ينبسون ببنت شفة، ولأنهم جاهلون باللسان الفرنسي، وبلباسنا وعوائدنا. كما لو أننا الأنموذج الذي يلزم أن تتلاءم معه الطبيعة البشرية!

88. إننا نُدين كل ما يبدو لنا غريبًا فنعجز عن فهمه. وذلكم شأنُ الحكم الذي نطلقه على الحيوانات: فهي لها ملامح تشبهنا، بحيث يمكن أن نستخلص منها بالمقارنة بعض التخمين. أما فيما يخصها وحدها، ما الذي نعرفه عنها؟ الجياد والثيران والكلاب والشياه والطيور وأغلب الحيوانات الأليفة تتعرف على صوتنا وتُذعن له. ذلك حال سمكة أبو مريئة لكراسوس*[1] التي كانت تأتي إليه حين يناديها، كما تفعل أسماك الأنقليس في سقاية أريثوسا بمدينة سيراقوسة الإيطالية. وقد رأيت في العديد من أحواض الأسماك، السمك يهرع لتناول ما يُمنح له من طعام، حين يطلق له المكلّفون بتغذيته أصواتًا معينة.

«لها أسماء، ونحو صاحبها
تهرع كلها حين يناديها»[2].

89. يمكننا الحكم على ذلك كله. ويمكننا القول أيضًا، إن الفيلة قادرة على امتلاك بعض الحسّ الديني، باعتبار أنها بعد العديد من عمليات الغسل والطهارة، نراها ترفع خرطومها كما لو كان يديْها، وترفع

(1) * ماركوس ليكينيوس كراسوس (115 ق.م تقريبًا – 53 ق.م) قائد عسكري وسياسي روماني.
(2)Martial (51), IV, 29.

عينيها نحو الشمس المشرقة، وتبقى متأملة طويلًا فيها في بعض أوقات النهار، بشكل فطري، من غير أن تُربّى على ذلك. لكن، لا يعني أننا حين لا نلاحظ شيئًا مثيلًا لدى الحيوانات الأخرى أن علينا أن نعتبر أنها لا ديانة لها. فنحن لا نستطيع أن نكوِّن فكرة عما هو مخْفيٌّ عنا.

90. يمكننا مع ذلك أن نرى معنىً ما في هذا السلوك، الذي لاحظه الفيلسوف كليانثس، لأن له علاقة مع سلوكنا. فهو يحكي أنه رأى نمْلًا يخرج من كثيبه حاملًا نملة ميتة، فأتى الكثير منه لملاقاته، كما للتداول معه. وبعد أن ظلّ النمل على حاله ذاك، عاد الحشد الأخير كما لاستشارة الآخرين. وهكذا كان الرواح والأوْبة مرة أو مرتين، ربما بسبب مشكلات في استسلام أحد الطرفين. ثم إن النمل عاد في الأخير حاملًا دودة من كثيبه للنمل الآخر، كما لكي يؤدي فدية النملة الميتة، ثم إن الحشد الأول من النمل حمل الدودة ليخزنها لديه، تاركًا جثة النملة الميّتة للآخرين. ذلك هو التأويل الذي يقدمه كليانثس للمشهد مُبيِّنًا بذلك أن الحيوانات البكماء ليست مع ذلك محرومة من التواصل فيما بينها. وإذا لم نكن نشارك في هذا التواصل؛ فذلك لأننا عاجزون عن ذلك، ومن الغباء أن نرغب في قول رأينا في المسألة هذه.

91. تتصرف الحيوانات بأشكال كثيرة تُجاوِز كثيرًا ممكناتنا. فنحن لا نستطيع محاكاتها، لأنها أمورٌ لا نقْدر أحيانًا على تصوّرها. وهكذا فإن البعض يشدّد على أن سفينة القيادة، التي كان أنطونيوس يقودها، خلال المعركة البحرية الأخيرة، التي انهزم فيها أمام أغسطس، قد أوقفها ذلك السمك الصغير الذي يسميه اللاتينيون «ريمورا»، بسبب خاصيته في أن يوقف أي سفينة يلتصق بها. كما أن الإمبراطور كاليغولا وهو يبحر بأسطولٍ هائلٍ طوال ساحل روميليا، أوقف ذلك السمك الصغير سفينته وحدها؛ فأمر بصيده وأصيب بخيبة أن حيوانًا صغيرًا من مثله، يمكنه أن يعاند البحر والرياح وكافة مجاذيفه بالرغم من أنه لا يلتصق إلا برأسه بسفينته (لأنه سمك ذو قوقعة). بل إنه اندهش أكثر، وعن حقّ، من أنه لاحظ أنه ما إن وضعه في السفينة حتى فقد القوة التي أبان عنها خارجها.

92. اكتسب مواطن من مدينة كيزيكوس*[1] اليونانية في الماضي شهرة عالم كبير لأنه درس سلوك القنفذ. فهذا الأخير يحفر لجحره فتحات في الكثير من المواضع، تكون معرضة لرياح مختلفة. وحين يخمّن أي ريح ستهبّ يقفل الجحر من ذلك الجانب. وحين لاحظ المواطن المعني ذلك، صار يقدم لأبناء مدينته توقعات تحول الرياح وحول الريح التي ستهبّ عليها.

93. تأخذ الحرباء لون المكان الذي توجد به. بيد أن الأخطبوط يأخذ اللون الذي يستهويه، تبعًا للظروف، كي يخفي نفسه مما يخشى منه أو يمسك بما يرغب فيه. هذا التغيُّر لدى الحرباء سكوني ولدى الأخطبوط فعّال. ونحن بدورنا نعرف بعض التغيّر في اللون، فالإحساس بالخوف أو الغضب أو الخجل أو غيرها من الأحاسيس يغيّر من لون وجهنا. بيد أنه أثر نخضع له مثل الحرباء. فإذا كان مرض الصُّفيْراء يجعلنا مضمَّخين بالصّفرة، فنحن لا يمكننا أن نقوم بذلك بإرادتنا. وإن هذه الآثار التي نلاحظها لدى الحيوانات، والتي تكون أكبر منها لدينا، تبيّن أن لديهم ملَكة متفوقة علينا لا نعرفها. والأمر نفسه يسري ربما على العديد من الجوانب الأخرى من قُدُراتها لا تصلنا منها أية إشارة.

94. من بين كافة التكهّنات التي تمَّت فيما مضى من الأزمان، تلك التي كانت تُستقى من تحليق الطيور كانت الأكثر وثوقًا والأعرق في القِدم. وليس لنا شيء أشبه بها ولا أشدّ إدهاشًا منها. فتلك القاعدة والنظام الذي تتمّ به رفْرفة الأجنحة والتي يتم من خلاله استقاء التعاليم الخاصة بالأمور التي ستأتي، لا يمكن إلا أن يكون كلا سائرًا بشكل ممتاز، بحيث يكون له ذلك الأثر النبيل. سوف نتحدث بلا جدوى إذا نحن أرجعنا ذلك إلى ملَكة طبيعية، من غير أن نتحدث عن الذكاء والقبول والتعقّل الذي لدى الحيوان الذي ينتج ذلك. وهكذا فإن سمَك الرّعاد الكهربائي، يمكنه لا فقط أن يشلّ أطرافنا التي يلامسها، ولكنه من خلال الشباك التي تشكل نصف دائرة يمكنه أن يبث ذلك الثقْل وذلك الشلل لأيدي الصيادين الذين يتناولونه ويحركونه. بل يُقال أيضًا إن المرء إذا صب عليه الماء أن تياره الكهربائي يصله من خلال الماء.إن هذه القوة لَمدهِشة، غير أنها مفيدة له. فهو يحسها ويستخدمها، إذ للإمساك بالطريدة التي يريد؛

(1) * مدينة إغريقية مندثرة.

يختفي تحت الرواسب، حتى يستطيع بلوغ السمك الذي يمرّ فوقه، وشلّه بالصعقات الناجمة عنه، فيغدو لقمة سائغة في فمه.

95. إن طيور الكُرْكي والخطاطيف وغيرها من الطيور المهاجرة، التي تغير منازلها حسب الفصول، تُبدي بذلك عن قدرتها التنبُّئية وتطبِّقها. ويؤكد لنا الصيادون أننا إن أردنا الاختيار بين العديد من الجِراء لنعثر على الأفضل من بينها ونحتفظ به، يكفي أن نترك الكلبة الأم تختاره لنا: فإذا ما أخرجناها من مأواها، فإن أول جرْو ستعيده إليه هو دومًا الأفضل؛ وأيضًا إذا ما تظاهرنا بإشعال النار حول المأوى فسيكون هو أول جرْو ستهرع لنجدته. ومن ثم نستنتج أن الكلبة لها طريقة تنبئية لا نملكها نحن، أو أنّ لها حسًّا أشد حدّة من حسِّنا في الحكم على مزايا صغارها. ففي ما يخص أطفالنا، من الأكيد أن ليس ثمة ما يمكّننا من أن نختار من بينهم إلا المظهر الجسماني، حتى يتقدموا شيئًا ما في العمر.

96. طريقة الولادة والإخصاب والغذاء والعمل والحركة والحياة والموت لدى الحيوانات قريبة من طرائقنا، وكل ما ننقص من العِلل التي تحرّكها كي نضيفها لأنفسنا، كي نُبَوِّئَ أنفسنا مرتبة فوق مرتبتها لا يمكن أن يعود إلى نظرةٍ عقلية. فالأطباء يقترحون علينا مثال حياة الحيوان قاعدةً لصحتنا، لأن هذه العبارة ظلت في كل الأزمان مُتداولة بين الشعب: «حافظوا على دفء القدمين والرأس»؛ أي عيشوا كالحيوان.

97. التوالد هو الوظيفة الطبيعية الرئيسية. فنحن لدينا تنظيم معين للأطراف ملائم بشكل خاص لهذه العملية. لكن هذا لا يمنع الأطباء من أن يأمرونا باتباع أوضاع الحيوان باعتبارها أكثر فاعلية:

«المرأة أكثر خصوبة فيما يبدو
في وضعية الحيوان على قوائمه الأربع
فالبذرة تبلغ مبتغاها بشكل أفضل حين يكون الصدر للسفل
والكليتان في الأعلى...»[1].

(1)Lucrèce (47), IV, 1261-64.

وهم يرفضون تلك الحركات الرعناء والصادمة، التي أضافت لها النساء من عندياتها، لأنها مضرّة، لكي يجعلوها تتّبع أنموذج وطريقة الحيوان الأنثى، لأنها أكثر اعتدالًا وهدوءًا:

«لأن المرأة تمنع نفسها من الولادة إذا ما هي
تلوّت بأردافها، وأثارت لذة الرجل
وأسالت من أردافه المنهكة مياهه
فيرميها خارج موطنها
مُحيدة البذرة عن مرماها»[1].

.98 إذا كان من العدل أن نرد لكلٍّ دينْه، فالحيوانات التي تخدم أصحابها وتحبهم، والتي تلاحق الغرباء أو من يسيئون لها وتهدّدهم، لها تصرفات مشابهة نوعًا ما لعدالتنا. والأمر نفسه حين تحرص على المساواة، في تقسيم الغذاء بين صغارها. أما الصداقة فتتجاوز أي مقارنة؛ لأنها أحَدُّ وأوْثق وأثْبت لديها مما هي لدى بني البشر. فهيركانوس كلب الملك ليسيماخوس، حين توفي سيده لم يفارق سريره رافضًا الطعام والمشرب. وفي اليوم الذي أحرق فيه الجثمان، قفز راميًا بنفسه في النار حيث مات محروقًا. وذلكم أيضًا ما قام به كلب أحدهم، يُدعى بيروس: فقد لزم سرير صاحبه بعد وفاته، وحين أخذوا صاحبه، تركهم يأخذونه معهم؛ لكي يرمي بنفسه في النهاية في المحرقة، حيث يُحرق جثمان صاحبه.

.99 ثمّة ميول عاطفية تتولّد أحيانًا فينا من غير أن يساهم فيها العقل، وتكون نابعة من حماس نافل يسميه البعض «تعاطفًا»، والتي يستطيعها الحيوان كما بنو البشر. والجياد يكون بينها تآلف متبادل، بحيث نجد صعوبةً في أن نجعلها تعيش أو ترتحل بشكل منفرد: فنحن نراها تتعلق من بين رفقائها بذلك الجواد، الذي له لون شعر معيَّن أو سحنة معينة. وحين تُلاقي جوادًا مثل هذا، تلتحق للتوّ به مُحْتفية به، مُبينة بشكل واضح عن عنايتها به. الحيوانات مثلنا لها تفضيلات في الحب، بحيث تقوم ببعض الاختيارات من بين الإناث. وهي ليست محرومة من غيرتنا وكراهيتنا الحادة التي لا تقبل المصالحة.

(1)Lucrèce (47), IV, 1269-73.

100. الشهوات إما طبيعية وضرورية كالمأكل والمشرب، أو طبيعية وغير ضرورية كمعاشرة النساء، أو أيضًا هي غير طبيعية وغير ضرورية. وشهوات بني الإنسان ورغباتهم أغلبهما من هذا الصنف الأخير، بحيث إنها نافلة ومصطنعة. فمن المدهش أن نرى كيف تكتفي الطبيعة بأقل الأشياء، وكيف أنها لا تترك لنا ما نشتهي إلا القليل: فما نُعد في مطابخنا لا يعود لها، والرواقيون يقولون: إننا يمكننا أن نتغذى بحبة زيتون واحدة كل يوم. وهي لا تملي علينا جودة خمورنا، ولا ما نضيفه علاوة على ذلك إلى شهواتنا العاشقة:

«لا حاجة لي لعجيزة ابنة قنصل كبير»[1].

101. هذه الرغبات الغريبة، التي نفثتها فينا الجهالة والأفكار الخطأ، من الكثرة بحيث إنها تطرد الشهوات الطبيعية، تمامًا كما لو أن مدينة غمرها عددٌ وفير من الأجانب، بحيث مع الوقت طردوا السكان الأصليين، أو أضعفوا سلطتهم ونفوذهم القديم، بحيث استحوذوا عليها استحواذًا. أما الحيوان فإنه يتصرّف بطريقة أكثر تنظيمًا منا، ويحافظ على الاعتدال في الحدود التي سنّتها الطبيعة؛ لكن إلى درجة لا تشبه أبدًا فوضانا.

وكما حدث أن شهواتٍ دفعت بعض الناس لنكاح الحيوان، كذلك الحيوان يتعلق عشقًا بنا وينساق للشغف بجنس آخر غيره مضاد لطبيعته. ذلك كان حال الفيل الخصم لأريستوفانيس النّحوي في التعلق بفتاة بائعة للورد في مدينة الإسكندرية. فقد كان يضاهيه مضاهاة تامة في تصرف العاشق المتيَّم بالهوى. فحين يتجول في السوق حيث تباع الفواكه، يمسك ببعضها بخرطومه ويهديها لها. كان نظره لا يحيد عنها، متى ما كان ذلك ممكنًا على الأقل، ويدخل خرطومه من فتحة القميص حتى حضنها، كي يداعب نهديها.

وتُحكى أيضًا قصة تنّين مولوع بفتاة، وقصة إوزّة هامت بصبي في مدينة أسوبوليس*[2]، وقصة تيْس يراود جلوكيَا عازفة الموسيقى عن نفسها.

---

(1)Horace (34), I, ii, 70.

(2) * أسوبوليس أو أسوبوس: مدينة إغريقية مندثرة، كانت تقع في مقاطعة لاكونيا القديمة.

كما نرى عادةً قردةً تتعلق حبًا بنساء، ونرى أيضًا بعض الحيوانات من الذكور تُسافد ذكورًا من بني جنسها.

102. يقدم أوبينوس الصقلي بعض الأمثلة تبيّن الاحترام الذي تكنّه الحيوانات للقرابة خلال تزاوجها، غير أن التجربة تبيّن لنا العكس من ذلك:

«لا تخجل البقرة الولود من مسافدة أبيها
والمهرة من الحصان الذي منحها الوجود
والتيس يسافد المعزات التي ولد
والعصفورة تسافد العصفور الذي منحها الحياة»[1].

103. أما بخصوص الحيلة الماكرة، فليس هناك من مثال أفضل من بغْل الفيلسوف طاليس. فحين كان يعبر نهرًا وهو محمَّل بالملح، كَبا فجأة وبلّل أكياس الملح التي يحمل على ظهره. وبما أنه أحس أن الملح المتحلّل قد خفّف من عبء حَمولته، لم يفتأ كلما عبر غديرًا أن يغطس فيه بأكياسه، حتى أدرك صاحبه حيلته، فصار يحمّله بالصوف. وبما أن حيلته انفضحت تخلى عنها تمامًا. ثمة حيوانات تعكس لنا بشكل طبيعي صورة جشعنا، لأنها تسعى إلى الاستحواذ على كل شيء تستطيعه، وتخفيه بدهاء حتى لو لم تستعمله أبدًا.

104. وفي مسألة الاهتمام بالبيت،يتفوق علينا الحيوان، لا فقط بذلك التبصُّر الذي يجعله يخزن المؤونة للأيام الآتية؛ لكنه أيضًا يُبين عن معرفة جيدة بما يلزم معرفته في هذا المضمار. ينشر النمل في الخارج الحبوب التي يجمع؛ لتهويتها وتجفيفها، حين يدرك أنها بدأت تتعفّن وتطلق رائحة الزّنخ؛ كيْلا تفسد. بيد أن الحذر الذي به يقضم الحبوب يفوق كل ما يمكن أن نتصوّر. فالحبوب لا تبقى دومًا جافة ولا صالحة بل تصبح لدنة ولزجة، وكالحليب حين تبرعم؛ حينئذٍ وخوفًا من أن تصبح بذرة، وتفقد طبيعتها، وخصائص الحفاظ عليها كطعام صالح؛يقوم بقرض المكان الذي منه يخرج برعم الحبة.

---

(1)Ovide (62), X, v. 325.

105. أما الحرب وهي أكبر وأروع الأعمال الإنسانية، فأنا أرغب في معرفة إن كان بإمكاننا أن نستخلص منها دليلًا على تفوُّقنا على الحيوان، أم بالعكس أن نستخلص منها دليلًا على ضعفنا وعدم كمالنا. إنها فن يمزقنا ويدفعنا للتقاتل، وإحداث الدّمار وفناء جنسنا، ويبدو لي أنها لا تقدم لنا شيئًا يُذكر يمكن أن يغبطنا عليه الحيوان ولا يكون عارفًا به.

«متى قام أسد أشد بأسًا
بقتل أسد آخر؟
في أي غابة مات خنزير بأنياب خنزير آخر
أشد قوة وبأسًا منه»[1]؟

106. بيد أن الحيوانات لا تُستثنى كلها من ذلك. تشهد على ذلك المعارك الطاحنة بين «ملكات» النمل، التي تشبه الحملات الحربية لأميرين خصمين.

«عادة ينفجر النزاع بين «ملكتين»
ينجم عنه الشغب؛ ويمكننا أن نتصور حينئذٍ
الهياج والتناحر الحربي
الذي يستبدّ بشعب النمل»[2].

لا أقرأ هذا الوصف الرائع من غير أن أرى فيه صورة البلاهة والغرور البشري. فتلك الحركات الحربية التي تجعل الرعب والفزع يستبدّان بنا، وتلك العواصف من الصراخ والأصوات.

«صليل السيوف يتعالى في السماء
والأرض تشع ببريق النحاس
والتراب يردّ إيقاع وقع خطى الجنود
والجبال التي تتلقى هتافاتهم
تردّ صداها حتى الكواكب البعيدة»[3].

وإنه لأمر مبهج أن نرى أن كل هذا الانتشار المخيف لآلاف الجنود المدجَّجين بالسلاح، وكل ذلك الهياج والحماسة والبسالة ينطلق

(1) Virgile (114), IV, v. 67.
(2) Virgile [114] IV, v. 67.
(3) Lucrèce (47), ii, vv. 325-328.

لأسباب واهنة وينتهي لأسباب نافلة أيضًا.

«زعموا أن عشق باريس أغرق بلاد اليونان
في حرب طاحنة ضد البرابرة»[1].

107.وهكذا سارت آسيا بكاملها إلى حتفها وأنهكت نفسها في الحروب بسبب زنا باريس! إن رغبة رجل واحد، أكان مرارةً أو متعةً أو غيرةً حميمة، وكل ما لا يمكن أن يؤدي بامرأتيْن إلى التشابك بالأيدي؛ ذلك كان هو علّة تلك العاصفة الهوجاء. وإذا ما نحن أردنا تصديق من كانوا المسؤولين عن ذلك، والفاعلين الرئيسين فيه، لننصتْ لأكبرهم، القائد الأكثر انتصارًا من بينهم والأقوى في كل العصور: ها هو[2] يسخر ويستهزئ، بطريقة تهكمية وروحانية، من العديد من المعارك الخطيرة التي قيدَتْ برًا وبحرًا، ومن دم خمس مئة ألف جندي تبعوه ولاقوْا مصيره نفسه، ومن القوى التي أنهكها والثروات التي بذّرها بأعماله:

«لأن أنطونيوس ضاجع غلافيرا*([3])
تفرض عليّ فولفيا أن أقوم بمثل صنيعه!
فهل أخدع فولفيا؟
ولمَ لا مانيوس إن هو طلب مني ذلك؟
لنكنْ عاقلين...
لقد قالت: ممارسة الحب أو الحرب.
آه،الأحرى بي أن أفقد الحياة على أن أفقد قضيبي.
فلتُقرعْ طبول الحرب»[4].

(وأنا أستعمل هنا لغتي اللاتينية بتصرف كبير، انطلاقًا من الإذن الذي منحته لي سيدتي[5]).

---

(1)Horace (35), I, 2.

(2) يتعلق الأمر بالإمبراطور أغسطس الذي يمنحه مارسيالوس الكلمة في الأبيات التالية.

(3) * هي العاهرة غلافيرا التي ضاجعها ماركوس أنطونيوس.

(4) Martial (51), XI, 21.

(5) يتعلق الأمر بالأميرة مارغريت دو فالوا بنت هنري الثاني وزوجة هنري الثالث ملك نافارا، الذي سيصبح الملك هنري الرابع، والتي سيخاطبها فيما بعد أيضًا.

108. والآن هذه الهيئة ذات الملامح والحركات الكثيرة التي تبدو وكأنها تهدّد السماء والأرض.

«إنهم من الكثرة كأمواج بحر ليبيا
حين يغطس فيها أوريون المتوحش حين يحلّ الشتاء
إنهم بكثافة السنابل التي أحرقتها الشمس من جديد
في الصيف في سهول هيرموس أو حقول ليسيا..
تصطفق الدروع بالصدى والأرض ترتجف تحت وقْع أقدامهم»[1].

هذا الغول الهائج برؤوسه وأذرعه العديدة، هو دومًا الإنسان، ذلك الكائن الضعيف البائس والتعيس. إنه ليس سوى كثيب النمل الغاضب الهائج الذي«**تتقدم جحافله في السهل**»[2].

109. حركة ريح معاكسة، ونعيق طيران الغربان، وكبوة فرس، والمرور غير المرتقب لنسر، وحلم وكلمة وإشارة، وضباب صباحي، كل هذا يمكن أن يحطم ذلك الجيش ويقلبه رأسًا على عقب. أطلِقوا عليه فقط شمسًا حارقة في الوجه، وهَأنتم سترونه يندثر وينعدم. ولْتكتفوا فقط بنفث الغبار في عينيه، كما للنحل لدى شاعرنا[3] وها هي كل راياته وجحافله مكسورة ومحطمة، وبومبيوس الأكبر بنفسه على رأسها. ذلك أنه هو نفسه على ما يبدو لي، ذلك الذي هزم سيرتوريوس في إسبانيا، بتلك الأسلحة الفاخرة التي استخدمها أيضًا آخرون، كيومينيس ضد أنتيغونوس، وكسورينا ضدّ كراسّوس:

«نوبات الغضب الهائج هذه، وتلك المعارك الرهيبة،
تكفي حفنة غبار لتهدئتها»[4].

110. لنطلقِ النحل لملاحقة هذا الغول المدجَّج بالسلاح، فسوف يُلحق به شرّ هزيمة. من زمن قصير فقط، كان البرتغاليون يحاصرون تاملي في بلاد

(1) Virgile (112), VII, vv. 718.

(2) Virgile (112), IV, v. 404.

(3) Virgile, **les Géorgiques**.

(4) Virgile(114), IV, 86.

الشياظمة[1]. فقام أهل المدينة بإحضار العديد من خلايا النحل التي يتوفرون عليها بكثرة، وأشعلوا النار لطرد النحل منها نحو العدوّ بحيث إن هؤلاء تراجعوا، غير قادرين على تحمل لسعاتها وهجماتها. وهكذا أمَّنوا حرية مدينتهم بمعونة نوع حربي جديد، وبنجاح كبير بحيث عند العودة من المعركة، لم تكن نحلة واحدة قد نقصت من الخلايا!

111. إن الأباطرة والإسكافيين مخلوقون من الطينة نفسها. حين نتأمل أهمية أعمال الأمراء نقتنع بأنها ناجمة عن عِلل وازنة ومهمة. بيد أننا مخطئون: فهم يتحركون ويتراجعون في حركاتهم بالمصائر نفسها التي تحرّكنا. وهو السبب نفسه الذي يجعلنا نتخاصم مع الجار ويجعل الأمراء يرمون بأنفسهم بين براثن الحرب. والنفس التي تجعلنا نؤدّب خادمًا، حين يتعلق الأمر بملك تجعله يخرّب محافظة بكاملها. فهم لهم رغبات نافلة كما نحن، غير أنهم لهم سُلطانًا أكبر. فرغبات من قَبيل هذه تستثير نملة كما تستثير فيلًا.

من قصص الكلاب

112. وبخصوص الوفاء، يمكننا القول إن لا وجود لحيوان في الكون أكثر خيانة من الإنسان. فكتب التاريخ تحكي كيف أن بعض الكلاب سعت إلى الثأر لمقتل سيدها. حين لاقى الملك بيروس كلبًا يحرس رجلًا ميتًا، وبعد أن وصل سمعَه أن الكلب ظل هناك لم يبرح القبر لأيام عديدة، أمرَ بدفن الجثمان وأخذ الكلب معه[2]. لكن في يوم ما، وهو يحضر للاستعراضات الكاملة لجيوشه، أبصر الكلب بقاتلي سيّده، فهرع عدْوا نحوهم بقوة جارفة وبنباح كثير وبغضب شديد، مانحًا الدليل الأول الذي حرّك عجلة العدالة، ومكّنه من الثأر لتلك الجريمة بُعيْد وقت من ذلك. وكلب الحكيم هسيودوس قام بالأمر نفسه حين اختلط عليه أمر أبناء قاتليْ صاحبه. ثمة كلب آخر، حارس لمعبد أثينا، حين

---

(1) الشياظمة قبيلة بالمغرب الأقصى.

(2) Plutarque [78] **Quels animaux...**

رأى سارقًا كافرًا يستحوذ على أفضل ذخائر المعبد، قام بالنباح عليه بما استطاع من قوة. وبما أن الحراس لم يستيقظوا على نباحه سار يتقفّى أثره. وحين انبلج الفجر وطلع النهار قبع في مكان غير بعيد عنه، من غير أن يُضيع أثره. وكلما منحه الرجل أكلًا رفض ذلك، غير أنه كان يُبَصْبص لكل مارّ ويقبل من أيديهم كل ما يجودون به عليه من طعام. وإذا ما توقّف السارق للنوم يتوقف في المكان نفسه. وبما أن قصة الكلب بلغت أسماع حراس المعبد، تقفّوا أثره سائلين الناس عن شكله، وعثروا عليه أخيرًا في مدينة كروميون*([1])، غير بعيد عن السارق الذي نقلوه لأثينا حيث تمت معاقبته على صنيعه. وقد قام القضاة جزاءً له على حسن فعله، بتخصيص قدْر من القمح من الخزينة العامة لإطعامه، وأوْصوا الكهنة بالمعبد بالرفق به. يحكي بلوتارخوس هذه الحكاية كما لو كانت مشهورة وأنها وقعت في زمنه.

113. أما الامتنان -إذ يبدو لي أن علينا أن نعيد الاعتبار لهذه الكلمة- فهذا المثال كافٍ لذلك[2]. يحكي أبيون*[3] هذه القصة قائلًا إنه كان شاهدًا عيانيًا عليها. يقول: «في أحد الأيام، بينما كانت السلطة تمنح لأهل روما متعة مشاهدة الصراع ضد حيوانات متوحشة، أوتي بها من بلدان بعيدة، وخاصةً منها أسود بقامات هائلة، أثار أحدها انتباه الحاضرين بتصرفه الهائج وقوة وضخامة قوائمه، وهديره وزمجراته القوية والمخيفة. ومن بين العبيد الذين تم إهداؤهم للشعب في الصراع مع الوحوش هذا، كان ثمة أحدهم يسمى أندرودوس، كان مؤلى نبيل روماني من مرتبة قنصل. وما إن رآه الأسد من بعيد حتى توقّف في مكانه فجأة، كما لو أنه أصيب بالدهشة، واقترب منه بتؤدة، وبهدوء بالغ، كما لو أنه يسعى إلى التعرّف عليه. وما إن تمّ له ذلك وتأكد منه، حتى بدأ يهزهز ذيله مبصْبصًا به كما الكلب المحتفي بسيّده، ويلحس يدي ورجلي الرجل المسكين، الذي كان متجمّدًا من الرعب ومستعدًا للاستسلام. بيد أن أندرودوس استعاد وعيه أمام سلوك الأسد؛ فجرؤ

(1) * بلدة إغريقية مندثرة قريبة من كورنثوس.

(2)AuluGelle [9] V, 14.

(3) * هو أبيون النحوي (20:30 ق.م – 48:45 م تقريبًا) نحوي وسفسطائي مصري، من مواليد واحة سيوة.

على رفع عينيه نحوه، وبعد أن تفحّصه تعرّف عليه. كان منظرًا فريدًا ورائقًا رؤيتهُما يتبادلان المداعبات. وبعد أن أطلق الجمهور صرخات الفرح، دعا الإمبراطور العبد كي يخبره بدواعي هذه المغامرة الطريفة.

فحكى له العبد هذه القصة الطريفة والعجيبة:

114. قال: «سيدي، حين كنت عبدًا للقنصل بإفريقيا، كنت مضطرًا للفرار؛ بسبب المعاملة القاسية التي كان يخصّني بها، بحيث كان يضربني كل يوم. وحتى أختفي عن أنظار رجل له نفوذ كبير على المنطقة، ارتأيت أن أسير وحيدًا في البادية الرملية الخلاء لذلك البلد، عازمًا على قتل نفسي، حتى لو لم أجد ما أقتات به. كانت الشمس حارقة جدًا في الظهيرة والحرارة لا تُحتمل، فاكتشفت مغارةً مخفيةً وصعبة المسالك، فاختبأت بها. وقتًا بعد ذلك جاءني هذا الأسد، بقائمة مليئة بالدماء مجروحة، يئن ويزمجر من الألم الذي تسبّبه له. وحين دخل المغارة أُصبت بالرعب، لكنه حين رآني منزويًا في ركن من عرينه تقدّم مني بتؤدة، مقدمًا لي قائمته الجريحة، مادًا إياها نحوي، كما لو أنه يطلب النجدة مني. نزعت من قائمه قطعة خشب كبيرة كانت منغرسة فيها، وبما أني تآلفت معه، استطعت أن أشدّ جرحه وأخرج منه كل القيح الذي تجمع به، وقمت بتنظيفه بأفضل ما استطعت. ثمّ إنه حين أحس بسكون الألم وتخفّفه، تمدّد ونام تاركًا لي قائمه بين يديّ. ومن تلك اللحظة، عشنا معًا هو وأنا في المغارة لمدة ثلاث سنوات. كنا نتقاسم الطعام نفسه: كان يحمل أفضل قطع لحم الحيوانات التي يصطاد، وكنت أشويها في الشمس لعدم إمكان إيقاد النار، وكنت أتغذى منها. ومع الوقت تعبت من هذه الحياة المتوحّشة، وحين راح الأسد يومًا للصيد على عادته، تركت المكان ورحلت. وفي اليوم الثالث، ألقى عليّ القبض جنود أعادوني من إفريقيا إلى هنا، لدى سيّدي الذي أمر بإعدامي رميًا بي للحيوانات المتوحشة. ورأيت أن الأسد أيضًا قد ألقي عليه القبض وقتًا قصيرًا بعد ذلك، وأنه أراد مجازاتي اليوم على عنايتي به، وعلى الشفاء الذي حصل له».

تلكم هي القصة التي حكاها أندرودوس للإمبراطور، وشاعت بين الناس، بحيث إنه نزولًا عند طلب الكلّ، تم تحريره وإعفاؤه من الحكم عليه. ولإدخال الفرْحة على الشعب تمّ منح الأسد له. ومن حينئذٍ، كما قال أبيون، كان من الممكن رؤية أندرودوس يتجول بأسده مشدودًا إليه بطوق، من حان إلى آخر، قابضًا المال الذي يُنْفَحُه. وصار الأسد يترك الناس يرمون عليه الورد، وكل واحد يقول حين يلقاهما: «ها هو الأسد المضياف، وها هو الرجل الذي عالجه».

115. نحن نبكي عادةً فقدان الحيوانات التي نحبّ؛ وهي أيضًا تقوم بالشيء نفسه.

«وبعدها تقدّم آيثون جواد بالاس من غير عدّة
كان يبكي، ورأسه مضمَّخ بالدموع».

116. النساء لدى بعض الشعوب كائناتٌ مشتركة، ولدى البعض الآخر لكل رجل امرأته. أليس الأمر كذلك لدى الحيوان؟ وألا نرى في ذلك زواجًا أكثر احترامًا من الزواج لدينا؟

117. يمنح الحيوان لنفسه مجتمعًا وتنظيمًا معيّنًا، فهو يشكّل فيما بين أفراده رابطات ليُنجد بعضه البعض. حين يسمع الثيران والخنازير وغيرها من الحيوانات صرخات الدابة التي تعذَّب، يهرع القطيع بكامله لنجدتها، ويتحالف للدفاع عنها. حين تبلع سمكة أبو مصْقار[1] شصّ سنارة تتجمع بنات جنسها حولها وتقرضُ الصنارة. وإذا ما حدث أن وقع أحدها في شبكة صيد، تقدم لها سمكة أخرى ذيلها كي تعض عليها بأسنانها البارزة وتجرّها لتخلصها منها. وحين يتم الإمساك بإحدى أسماك البوري في صنارة، تقوم الأسماك الأخرى من جنسها بتوقيف شوكة مسننة على ظهرها، وتحكها على الصنارة لقطعها، وهو ما يتمُّ لها.

118. أما الخدمات التي نُسديها لبعضنا البعض، لحاجاتنا الحيوية، فنحن نجد لها مثيلًا لدى الحيوان أيضًا. فلقد زعموا أن الحوت لا يتنقل

(1) سمك تلتحم أسنانه وتشكل ما يشبه المنقار، ويعيش في البحر للتوسط.

في البحر من غير أن يتقدّمه سمك شبيه بعشيق البحر، يسمى لهذا السبب «الربّان». يتبعه الحوت وينساق لتعرُّجاته كما لو كان دفّة سفينة تتحكّم في حركاتها. وكجزاء له، وفي الوقت الذي يتعرّض كل شيء آخر يدخل فم هذا الحيوان الضخم إلى البلع والموت، سواء كان قاربًا أو حيوانًا، فإن هذا السمك الصغير يجد ملجأً آمنًا في بطنه، يأوي إليه بأمان للنوم. وخلال سباته يظل الحوت ساكنًا، لكن، ما إن يخرج من بطنه حتى يبدأ في اتباعه بلا كلل. وإذا ما هو حاد عنه فإنه سيظل ضالًا هنا وهناك بحيث غالبًا ما يصطدم بالصخور، مثل سفينة لا دفّة لها. ذلك هو ما يشهد بلوتارخوس أنه رآه[1] في جزيرة أنتيكيرا*[2].

119. ثمة مجتمع من النمط نفسه بين العصفور الصغير الذي يسمى «المُلَيْك» والتمساح. فالمليْك يشكل حارسًا لهذا الحيوان الضخم. وإذا ما تقدم منه خصمه النِّمس لمصارعته، يقوم هذا العصفور الصغير، خوفًا من أن يداهمه وهو نائم، بإيقاظه بغنائه وبضرباتٍ من منقاره لإخطاره بما يجري حوله. وهو يعْتاش من الفُتات الفاضل على هذا الوحش، الذي يقبله بألفة في فمه، ويسمح له بالنقْر في فكّيه، وبين أسنانه؛ بحثًا عن فُتات اللحم الباقي فيها. وإذا ما أراد التمساح إغلاق فمه، يُخطر العصفور بضرورة الخروج منه، مُغلقًا إياه بتؤدة حتى لا يدْعسه أو يجرحه.

120. يعيش المحار الذي نسميه الصَّدَف أيضًا مع حيوان صغير من نوع السلْطعون، الذي يكون له بمثابة الحاجب والبوّاب. فهو يمكثُ في فتحة المحار التي يتركها دومًا منْفرجة حتى تلج منها سمكة صغيرة تكون الطريدة الملائمة له. حينئذٍ يدخل السلطعون للمحار ويقرصه في لحمه مكرهًا إياه على إغلاق دفتي الباب. وهكذا يتناول الاثنان معًا الطريدة التي حبساها في المكان المناسب.

121. نحن نلاحظ في طريقة عيش سمك التونة معرفة فريدة بالأقسام

(1) Plutarque [78] **Quels animaux**..., XXXI.

(2) * اللفظ محرف في الأصل، وأنتيكيرا مدينة ساحلية وميناء يوناني على خليج كورنثوس، وليست جزيرة كما توهم مونتيني ربما نقلًا عن كتاب قدماء أخطأ بعضهم في تحديد هذه المدينة.

الثلاثة للرياضيات. فهي تعلّم الإنسان علم الفلك: لأنها تتوقف حيثما تفاجئها ذرْوة الشتاء، ولا تتحرك من ثمَّ حتى يتساوى الليل والنهار. ولهذا يمنحها أرسطو نفسه هذه المعرفة. أما الهندسة والجبر، فنحن نرى أنها أسماك تشكل دومًا مكعّبًا متساوي الأطراف، بجيش عتيد منغلق وموزّع على الجهات الستة للمكعّب، وتبحر بتلك التشكيلة المربّعة، المتساوية العرض في الأمام وفي الخلف، بحيث حين نراها ونحسب طرفًا منها يمكننا بسهولة استنتاج العدد التام للسِّرْب بكامله، بما أن عددها في العمق مساوٍ لعددها في العرض والطول.

122. أما بخصوص الكبرياء، فمن الصعب أن نقدّم مثلًا أكثر إدهاشًا من مثال الكلب الكبير الذي بُعث به من الهند للإسكندر[1]. فقد قُدِّم له في البداية وعْل لمصارعته، ثم خنزير، ثم دبّ، فلم يحرك ساكنًا وظل ثابتًا في مكانه. لكنه حين رأى أسدًا، وقف لتوّه على قائمتيه، موضحًا على ما يبدو أنه الوحيد الذي يعتبره خليقًا بمصارعته.

123. وعن الندم والاعتراف بالأخطاء، يُحكى أن فيلًا قتل سائسه في لحظة غضب جارف، ندم على ذلك؛ بحيث امتنع بعدها عن الأكل حتى لقي حتفه. أما في الرحمة فيمكننا إثبات حال نمر، وهو الحيوان الأقل عطفًا من بين الحيوانات. فحين منحوه جدْيًا طعامًا، تحمل الجوع يومين من غير أن ينقض عليه، وفي اليوم الثالث كسر القفص للبحث في الخارج عن طريدة أخرى، رافضًا التهام الجدْي رفيقه وضيفه.

124. وأما العلاقات الطيبة التي تنسجها الحياة في المجتمع، فنحن نعلم أننا عوَّدنا القطط والكلاب والأرانب على أن تعيش مجتمعة. بيد أن ما تعلّمنا التجربة عن طيور الهالكيون*[2] للذين يبحرون في اليمّ وبخاصة في بحر صقلية، يفوق كل ما يمكن أن نتصوّر. هل هناك فصيلة واحدة من الحيوان شرَّفت الطبيعة طبقاتها وتوالدها وولادتها تشريفًا؟ يخبرنا الشعراء أن جزيرة ديلوس، وحدها، والتي كانت فيما مضى تجرفها تيارات

(1) Plutarque [78] **Quels animaux...**, XIX.

(2) * هو من الطيور البحرية، ويسمى الغطاس عند العرب.

البحر، قد تم تثبيتها لتمكين ليتو*([1]) من الولادة. بيد أن الله شاء أن يكون البحر كلّه هادئًا مسطَّحًا من غير أمواج ولا ريح أو مطر، حين كان طائر الهالكيون يمنح الحياة لذرّيته. وبفضل هذه الحظوة صارت لنا سبعة أيام وسبع ليالٍ في قلب الشتاء، يمكننا فيها الإبحار من دون خطر يُذكر. وإناث الهالكيون لا تعرف ذكَرًا لها غير ذكرها. وإذا ما أصيب بالجنون أو العنَّة والوهن، تحمله على ظهرها وتخدمه حتى يصل أجله. لكن لا أحد عرف كيف يبني الهالكيون عش فراخه ولا بأي شيء يبنيه.

125. وبلوتارخوس الذي رأى منها الكثير يعتقد أن الأمر يتعلق بعظام الأسماك يتم الجمع والربط بينها، متشابكة طولًا وعرضًا بمنحنيات ودوائر، تتم إضافتها للحصول على سفينة مدوّرة قادرة على الإبحار. وحين يكتمل بناء العش، يحمله الألسيون للبحر، ثمة حيث يصدمه الموج برفق، ليبيّن له الأمكنة التي يلزم ترميمها وتعزيزها في الهيكل؛ كي تكون قادرة على مواجهة أمواج البحر العُجاج. وبالمقابل فإن توالي الموج يشدِّد المفاصل، بحيث لا يمكن للعشّ أن ينقطع أو ينحلّ، ولا أن يُحطَّم بضربات الحجر أو الحديد إلا بجَهد جهيد. وما هو أروع هنا هي المقاييس والتقعُّر، فقد تم تصوُّرها بحيث لا يمكن أن تؤوي إلا الطائر الذي شيد العشّ. فهو صرح لا يمكن أن يتسرب له شيء، مغلق بإحكام على كل شيء بحيث حتى ماء البحر لا يمكن أن يتسرَّب إليه. ها هو وصف إذًا واضح ومستقى من مصدر موثوق به[2] عن هذه السفينة. ومع ذلك يبدو لي أنه لا يخبرنا كفاية عن تعقد هذا المعمار. فأي غرور يمكن أن نُبين عنه كي نحتقر أشياء لا نستطيع فهمها؟

126. وإليكم ما يمكن أن نضيف كي نمدّد أكثر هذا الحديث المتعلّق بالمساواة الموجودة بيننا وبين الحيوان. فهذا الامتياز الذي تتمجَّد به أنفسنا، والذي يتمثل في جعل طبعها مصدرًا لكل ما تتصوّر، وفي تجريد كل ما يأتيها من مزاياه الفانية والجسمانية، وفي إكراه الأشياء التي تقدّر أنها خليقة بها على التجرّد من خصائصها الفاسدة، وفي الطّرح جانبًا للكثافة والعمق والوزن

(1) * الربة ليتو أم الإلهين أبولّون وأرتميس.

(2) Plutarque (78), **Quels animaux**..., XXXV.

واللون والرائحة والخشونة والصقالة والصلابة والرخاوة وكل ما هو محسوس، كي تربطها بطبيعتها الخالدة والروحانية، بحيث إن باريس أو روما مثلًا التي لي في الذهن، باريس التي أتخيلها، أتخيلها وأدركها من غير أن يكون لها حجم أو حجر أو جصّ أو خشب. هكذا إذًا ! هذه الحظوة تعود أيضًا للحيوانات فيما يبدو لي. الجواد المتعوّد على النفير وطلقات البندقية وعلى المعارك، الذي نراه يتهزهز ويرتعش وهو نائم في مرْبضه كما لو كان في قلب المعركة، لا بد أن يتصور في ذهنه قرع الطبول، من غير أن يكون ثمة صوت، وأن يتصوّر معركة من غير سلاح ولا جمود.

«سترى حقًا جيادًا قوية متمددة ونائمة
غارقة في العرق في أحلامها، تتنفس بعمق
وتستَنْهض قواها لتفوز بجائزة السّباق»[1].

127. الأرنب البريّ الذي يتخيله السلوقي في الحلم والذي نراه يلهث وراءه وهو نائم، محاكيًا تمامًا حركات المطاردة، هو أرنب من غير زغب ولا عظام.

«كلاب الصيد وهي خاملة في راحتها
تحرك فجأة قوائمها وتنبح
متشمّمة الهواء بحركات مطّردة، كما في مطاردةِ
حيوان متوحّش أخيرًا عثرت عليه. وغالبًا حين تفيق
تراها لا تزال تطارد الوعل الوهمي، وتراه هاربًا
حتى يتبدّد الخيال، وتعود لنفسها»[2].

128. نحن نرى عادةً كلاب الحراسة تزمجر وهي غافية، ثم تنبح حقًا لتفيق من سباتها مفزوعة، كما لو أنها أبصرت بغريب يقترب من البيت. هذا الغريب الذي تراه في مخيلتها، هو إنسان غير محسوس، من غير أبعاد أو لون ومن غير وجود واقعي.

«الكلاب الصغيرة الأليفة، وهي فصيلة ودودة
غالبًا ما تقفز من مكانها، وتقف قلقةً

(1)Lucrèce (47), IV, 987-989.
(2) Lucrèce (47), IV, 991 sq.

متوهمةً أنها أبصرت بوجه مجهول غريب»[1].

129.وأما جمال الجسد، فعلينا أن نعلم أولًا، قبل أن نسير أبعد، إن كنا متفقين على تحديده. فمن المحتمل أننا لا نعرف ما هو الجمال في ذاته، بما أننا نمنح الكثير من المظاهر لجمالنا البشري. فلو وُجدت صورة محدّدة، فإننا سنتعرف عليها جميعًا باتفاق مشترك، كما يحدث لنا مع حرارة النار. والحال أننا نتصور أشكالها على هوانا.

«إن لونًا بلجيكيًا سيكون بشعًا في وجهٍ روماني»[2].

130.في بلاد الهند[3] هكذا يصفون الحسن: سوداء وقمحية، بشفتين ممتلئتين وأنف أفطس عريض، وأرنبة أنف مملوءة بخزائم ذهبية كبرى من الذهب حتى تنزله إلى الفم؛ والشفّة السفلى مزينة أيضًا بدوائر مرصعة بالأحجار الكريمة لإنزالها نحو الذقن. ومن الرشاقة الإبانة عن الأسنان حتى جذورها. وفي بلاد البيرو، تعتبر الآذان الكبيرة الأكثر حسنًا، بحيث يتم تمديدها اصطناعيًا لتكبير حجمها. يحكي أحد معاصرينا[4] أنه لاحظ لدى شعب من شعوب المشرق الاهتمام بتكبيرهما، فيتمّ إثقالهما بالحليّ الضخمة، بحيث يمكنه أن يمرّر من غير عناء يده في ثقبهما حتى ولو كان لابسًا قميصه.

131.ونحن نلاقي في أماكن أخرى شعوبًا غيرها تكحّل بعناية أسنانها وتزدري من يملكها بيضاء. وفي أماكن أخرى أيضًا يتم صبغها بالأحمر. وليس لدى الباسكيين وحدهم تعتبر المرأة نفسها أجمل بعد أن تحلق شعرها، وإنما أيضًا في بلدان أخرى، بل أيضًا حتى في بعض الأمصار المتجمدة كما يروي بلينيوس. ويعتبر المكسيكيون صغر الجبهة علامة على الحسن*[5]، وإذا كانت النساء ينزعن شعر جسدهن كاملًا، فالجبهة هي التي تحظى بعنايتهن ويعتنين بنماء شعرها باهتمام حاذق. وهن يعتبرن كبر نهودهن

(1) Lucrèce (47), IV, 999 sq.

(2) Properco (80), XVIII, 26.

(3) Gomara, [26] II, 20.

(4) Balbi, **Viaggiodell'Indioorientali**, éd. 1590, p. 76.

(5) * في عصر مونتيني كانت الجبهة العريضة الكبيرة من علائم الحسن لدى النساء.

من الأهمية بمكان، بحيث يزعمن القدرة على إرضاع أبنائهن من وراء ظهورهن. وهو أمر سيكون لدينا علامة على البشاعة بامتياز.

132. الحسن لدى الإيطاليين يتمثل في المرأة البدينة الضخمة؛ ولدى الإسبان في المرأة النحيفة. أما لدينا فالحسناء بيضاء لدى البعض، وسمراء لدى البعض الآخر. فالواحد يراها رخوة ورائقة وهي قوية وخدومة لدى الآخر. أحدهم يطلبها حلوة وحنونة والآخر ذات كبرياء وجلال. فكما أن الكرة هي الصورة الأمثل لدى أفلاطون، فالهرم أو المربّع لدى الإبيقوريين هو الصورة الأكمل، إذ هو يمكن أن يحتوي الإله في شكل كرة.

133. لكن، مهما كان الحال، فإن الطبيعة لم تفضلنا في ذلك أكثر من الأشياء الأخرى في قوانينها المشتركة. وإذا ما نحن تمحّصنا في الأمر، فإننا سنرى أنَّ ثمة حيوانات إذا كانت لا تبلغ شأونا في الحسن، فثمة عدد كبير منها يفوقنا حسنًا. «ففي الحسن كثيرة هي الحيوانات التي تتفوّق علينا»[1]؛ بل حتى الحيوانات الأرضية رفيقتنا في الحياة. ففيما يخص الحيوانات البحرية، إذا ما نحن تركنا جمال الجسم، الذي لا يمكن مضاهاته بمقدار اختلافه عنا، فنحن لا نصل شأوها في الألوان والبريق والطابع الصقيل والمرونة. ونحن لا نضاهي أقل الحيوانات الطائرة. أما الامتياز المتمثّل في قوامنا المنتصب الذي يرنو لأصله السماوي، والذي ينشده الشعراء=

«ففي الحين الذي تنحني وجوه الحيوانات لترنو للأرض
رفع الله هامة الإنسان وأمره
أن يتأمل السماء ويرفع نظره نحو الكواكب»[2].

=فهو حقًا بالغ الشاعرية، لأن العديد من الحيوانات يتجه نظرها حقًا نحو السماء؛ وعنق الجمال والنعام، أجده أكثر ارتفاعًا وأكثر قوامًا من عنقنا.

---

(1)Cicéron (18), 1, 10.

(2)Ovide (62), I, 84.

134. ما هي الحيوانات التي لا تتوجه بوجهها نحو الأعلى، وتنحو نحو الأمام، والتي لا تنظر أمامها مثلنا، والتي لا تكتشف في وضعها العادي، قسطًا كبيرًا من السماء؟ وماهي مزايا تكويننا الجسماني الذي تحدّث عنه أفلاطون أو شيشرون، التي لا يمكننا أن ننسبها إلى مئات الفصائل من الحيوانات؟

135. الحيوانات التي تشبهنا أكثر هي الأكثر بشاعة، والأكثر حقارة من بين كافة الحيوانات. ففي ما يخص مظهر الوجه، تكون هي القردة وبالأخص منها قرد المغرب.

«كم يشبهنا القرد، الأبشع من بين أنواع الحيوان!»[1].

أما الباطن والأجزاء الحيوية فالخنزير أشبه بنا، إذا ما نحن وثقنا في زعم الأطباء. صحيح أنني حين أتخيل الإنسان عاريًا تمامًا- وحتى حينما يتعلق الأمر بالفرج الذي يبدو الأكثر تضمُّنا للجمال- فإن عيوبه وخنوعه الطبيعي ونواقصه، تجعلني أقتنع أكثر بأن نستر أنفسنا أكثر من أي حيوان آخر. نحن معذورون لأننا أخذنا ممّن حبتهم الطبيعة بما هو أفضل مما حبتنا به، وأننا تحلَّينا بما يشكل جمالها، وبأننا وارينا أنفسنا تحت غطائها من الصوف والريش والحرير.

136. لنلاحظْ أيضًا أننا الحيوان الوحيد الذي يشكل العُرْي عارًا لدى بني جنسه، والوحيد الذي عليه أن يتوارى عن أنظار بني جنسه لقضاء حاجاته الطبيعية. كما أن ثمة جانبًا خليقًا بالاعتبار ينصح به المتخصصون في المجال كدواء للشغف العاشق، أي رؤية جسد المحبوب أو المحبوبة عاريًا تمامًا، ويزعمون أننا لكي نخفف من الولع ليس لنا إلا أن نرى بحرية ما نحب.

«من يكتشف في واضحة النهار المناطق الحميمة
لجسد المحبوب، يحس بولعه يخفت
وسط الحب الجامح...»[2].

(1) Ennius, in Cicéron (18), I, 35.
(2) Ovide (64), v. 429.

137.ونحن لو فسرنا فعالية هذه الوصفة بمزاج لطيف متقزّز، فتلك علامة باهرة على عدم كمالنا، إذ أن العادة والمعرفة تجعلنا نهجر بعضنا بعضًا. ليس الحياء وإنما الحذق والحكمة هو ما يجعل نساءنا مصرّات على رفض دخولنا إلى غرفة نظافتهن، قبل أن يكن قد لبسن وتحلّيْن وتجمّلن كي يظهرن للملأ=

«ربات جمالنا يعرفن ذلك جيدًا ويخفين بدقة
كواليس حياتهن على الرجال
الذين يرغبن في امتلاك قلوبهم وتقييدهم»[1].

=في حين لدى الكثير من الحيوانات، ليس هناك شيء لا نحبه فيها ولا يروق لحواسنا، فمن روثها ومن إفرازاتها، لا نستخلص فقط أطباقًا شهية لطعامنا؛ وإنما أيضًا عناصر زينتنا البهيّة، وأفضل عطورنا.

138.ما قلته هنا لا يتعلق سوى بطريقة عيشنا العادية، وليس من قبيل الكفر والزندقة أن نُدخل فيه حتى ذلك الحسن الإلهي والخارق، الذي نراه أحيانًا يلمع بيننا كنجوم تحت غطاء جسماني ودنيوي.

139.علاوة على ذلك، وباعتراف منا، فإن الحصة التي نخصّ بها الحيوانات من فضائل الطبيعة هي في صالحها. فنحن نخصّ أنفسنا بخيرات خيالية وزائلة، وبخيرات مستقبلية غائبة عنا، لا يمكن للعقل الإنساني أن يتيقَّن منها، أو أيضًا بخيرات ننسُبها لأنفسنا بحكم خطأ كالعقل والعلم والشرف. ونحن نترك لها خيرات أساسية محسوسة نتشاركها معها: كالسّلم والراحة والأمان والبراءة والصحة. الصحة! هي الهدية الأكثر جمالًا وغنى التي يمكن للطبيعة أن تمنحنا؛ إلى حدّ أن الفلاسفة وحتى الرواقيين يقولون: لو أن هيراقليتوس وفيريكيديس*[2] استطاعا استبدال حكمتهما بالصحة والتخلص بهذه الصفقة، الأول من داء الاستسقاء والثاني من مرض الجلْد، اللذين كانا ينكدان عليهما حياتهما، كانا سيفعلان ذلك عن طيب خاطر.

---

(1)Lucrèce (47), IV, vv. 1185-1187.

(2) * هو الفيلسوف فيريكيديس السيروسي.

140. وهم بذلك يمنحون قيمة كبرى للحكمة بجعلها موازنة للصحة، أكثر مما يفعلون ذلك في هذا الرأي الذي يُنسَب لهم، والقائل: إن كيرْكي*([1]) لو أنها قدمت لأوديسيوس شرابيْن، الأول لجعل الحكيم أحمق والآخر لجعل الأحمق حكيمًا، فإن أوليس كان سيختار الشراب الذي يجعله أحمق على أن تغير كيركي هيئتها لبشرية إلى حيوان. وهم يقولون: إن الحكمة كانت ستكلم أوليس بهذه الطريقة: «اتركني، اهجرني، على أن تضعني في ملامح وجسم حمار». ما الذي حدث؟ فهل يترك الفلاسفة إذًا ذلك العلم العظيم والإلهي، من أجل هذا الغشاء الجسماني والدنيوي؟ وإذًا فنحن لا نتفوّق على الحيوانات بالعقل والحكم والروح، وإنما بجسْمنا ولون بشرتنا الجميل، والتوزيع الرائع لأطرافنا، ومن أجل ذلك الحسْن علينا أن نتخلى عن ذكائنا وحكمتنا وعن كل ما تبقى.

141. فليكن! وأنا أقبل هذا الاعتراف الصريح والساذج. فهم حقًا اعترفوا بأن تلك الملكات التي تقيم لهم وزنًا كبيرًا ليست سوى خيالٍ عابر. ومع أن الحيوانات قد تملك كافة الفضائل والعلم والحكمة وقدرات الرواقيين، فإنها لن تكون إلا حيوانات، ولا يمكن مقارنتها بإنسان بائس وشرير وأخرق. وفي الأخير، كل ما ليس مثلنا ليس شيئًا ذا قيمة؛ والله نفسه، وحتى نتعرف عليه، عليه أن يشبهنا، كما سيُذكر ذلك لاحقًا. نحن نرى من خلال ذلك أننا نفضل أنفسنا على الحيوانات ونعزل أنفسنا عن حياتها وعن صحبتها، لا انطلاقًا من برهانٍ معقولٍ؛ وإنما بكبرياء خرقاء وبعناد فقط.

142. وحتى أعود لموضوعي، أقول إن حصتنا تتمثل في عدم الثبات وعدم القرار والحيرة والأسى والتطيُّر والخوف من الأشياء المقبلة، حتى الغيبية منها، والطموح والجشع والغيرة والحقد والرغبات الجامحة والشهوات الغريبة التي لا يمكن كبحها، والحرب والكذب والخيانة والنميمة والفضول. صحيح أننا أدّينا غاليًا ثمن هذا العقل الرائع الذي نمجد أنفسنا بامتلاكه، وتلك القدرة على الحكم والمعرفة، إذا ما نحن اقتنيناها بثمن هذا العدد الذي لا يُحصى من الأهواء التي نصارع باستمرار. إلا إذا منحنا القيمة، كما فعل سقراط، لهذا الامتياز الذي

(1) * ساحرة في الأساطير اليونانية.

لنا عن الحيوانات والمتمثل في أن الطبيعة إذا كانت قد حدّدت الشهوة الجنسية لديها في بعض الفصول وبعض الحدود، تركتنا نحن أحرارًا أن نتعاطى لها في كل وقت وكل فصل. **«يكون الخمر نادرًا طيب المذاق للمرضى، وهو مضرّ بهم في الغالب؛ لهذا من الأفضل ألا نمنحهم إياه البتّة على أن نخاطر بحياتهم بغْية شفاء غير مؤكّد. كذلك الأمر في هذه الحيوية في الفكر وذلك التبصّر، وتلك البراعة التي نسميها «عقلًا»، بما أنه يكون مضرًا بالكثيرين ونافعًا للقليلين، ربما كان من الأفضل للجنس البشري ألا يُمنح له بتاتًا، على أن يكون قد مُنح له بحرية وبشكل واسع»**[1].

143. ما المنفعة التي يمكن أن تكون قد جلبتها لفارو وأرسطو هذه المقدرة على فهم الكثير الجمّ من الأشياء؟ فهل حرّرتهما من المشكلات الإنسانية؟هل حررتهما من عبء البلايا التي أصابت الحمّال؟ هل استقيا من علم المنطق ما يخفّف عنهما مرض النّقْرِس؟ وهل حين علما أنه داء يصيب المفاصل، هل خفَّف ذلك عنهما الإحساس بآلامه؟ هل تفاهما مع الموت حين علما أن بعض الشعوب تبتهج له، وأنهما خُدعا لأنهما يعرفان أن النساء في بعض البلدان مَشاع بين الرجال؟ وبالمقابل، وبالرغم من أنهما احتلا المرتبة الأولى في العلم والمعرفة، أحدهما لدى اليونان والثاني لدى الرومان، وفي زمن كان فيه العلم أكثر ازدهارًا، نحن لا نعلم أنهما عاشا حياة رائعة ومميَّزة. بل إننا نعلم أن الفيلسوف اليوناني قد وجد صعوبة في محْو بعض اللطخات السوداء من حياته.[2]

144. هل نعرف إذا ما كانت الشهوة والصحة أكثر لذة لدى من يعرف علم الفلك والنحو؟

«هل تكون أطرافنا أقل تصلّبًا لأن المرء أميّ؟»[3].

(1) Cicéron (18), III, 27.

(2) Cornelius Agrippa, **De incertitudinescientiarum**, LIV.

«كان الإبيقوريون يتهمون أرسطو بأنه عاش شبابه في المجون، وأنه في حياة أفلاطون، أنشأ مدرسة مناوئة لمعلمه».

(3) Horace (36), VIII, v. 17.

«والعار والفقر، هل يكونان مرغوبيْن أقل؟
بالتأكيد، ستتفادى بذلك المرض ووَهن الشيخوخة
والضّنى والهموم؛ وحياتك ستكون أطول
ومصيرك أفضل»[1].

145. رأيت في حياتي عشرات المزارعين والصنّاع أكثر حكمة وأسعد من عمداء جامعات، وأنا أفضّل أن أشبههم هم. قد يكون العلم جزءًا من الأشياء الضرورية للحياة، مثله في ذلك مثل المجد والشرف والكرامة، أو على الأكثر مثل الثراء وغيره من المزايا المفيدة حقًا، لكن عن بُعد، وفي الخيال أكثر مما في الطبيعة.

146. ليس البشر بحاجة أبدًا لوظائف أكثر، ولقواعد وقوانين تفوق ما للطيور أو النمل. ومع ذلك نراها تتصرّف بها بشكل عادي ومن غير تعلُّم. لو كان الإنسان حكيمًا كان سيمنح للأشياء ثمنها الحق، حسب فائدتها ومُلاءمتها لحياته.

147. إذا ما قُسِّمْنا تبعًا لأعمالنا وسلوكنا، سنجد عددًا أكبر من الناس الرائعين بين الجهلة منهم بين العلماء، وذلك في كافة مجالات الفضيلة. يبدو لي أن روما البدائية قد منحتنا عددًا أكبر من الرجالات النابهين، في مجال السلم كما في مجال الحرب، أكثر من روما العالمة التي كانت سببًا في دمار نفسها. وبالرغم من أن الباقي سيكون متشابهًا، فإن الصدق والصفاء سيظلان مرتبطين بروما القديمة، لأنها كانت رديفًا للبساطة.

148. بيْد أنني سأترك هذه القضية جانبًا، لأنها ستفضي بي إلى الخروج عن موضوعي. سأقول فقط ما يلي: وحدهما التواضع والطاعة يمكنهما أن يكوّنا رجلًا خيِّرًا. ليس علينا أن نترك التقدير لكل واحد لأن يعرف أين يكمن واجبه: علينا أن نحدّده له ونلزمه به على أن نتركه يختاره بحرية. وإلا فإننا نظرًا لضعف عقولنا وآرائنا وتنوعها اللامتناهي، سنصوغ في النهاية واجبات

(1) Juvénal (42), XIV, 156-158.

ستقودنا حتمًا إلى أن نفترس بعضنا البعض كما يقول إبيقوروس[1].

149. أول قانون سنّه الله للإنسان هو الطاعة الخالصة. كان ذلك حكمًا مجرّدًا وبسيطًا، لم يكن للإنسان أن يعلم عنه أو أن يقول عنه شيئًا، خاصةً وأن الطاعة هي الواجب العادي لنفس عاقلة، تعترف بوجود خالق عليّ أعلى. ومن الخضوع والاستسلام تولد الفضائل كلها، كما من كل كبرياء تولد الخطيئة. بالمقابل، فأول فتنة ابتُليت بها الفطرة الإنسانية وسمُّها الأول، كان الشيطان هو من زرعها فينا واعدًا إيّانا بالعلم والمعرفة. «ستكونون مثل الآلهة، تعرفون الخير والشرّ»[2]. وذلك أيضًا كان حال الحوريات في ملحمة هوميروس، فهي لخداع أوليس واستدراجه لشَرَكها الخطير القاتل وعدته بالعلم. الطاعون لدى الإنسان هو أنه يعتقد أنه مالك للمعرفة. ولهذا فإن ديننا يوصينا بالجهل باعتباره يقوي إيماننا وطاعتنا.«**انظروا أن لا يكون أحدٌ يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل، حسب تقليد الناس، وحسب أركان العالم** [3].

150. ثمة إجماع عام بين كافة الفلاسفة من كل المدارس على هذه النقطة: الخير الحق يوجد في طمأنينة الروح والجسد. لكن أين نعثر على هذه الطمأنينة؟

«بالجملة، لا يرى الحكيم سوى الإله يوبيتر فوقه
حرًا ومشرَّفًا وغنيًا وجميلًا وملك الملوك
وزاهيًا بصحته، عدا حين يتقيّأ ماء مرّارته»[4].

يبدو في الحقيقة أن الطبيعة لكي تواسينا في حالنا البائس والسقيم، لم تمنحنا ما نتقاسمه غير الاعتداد بالنفس. ذلك ما يقوله إبيكتيتوس: «ليس للإنسان شيء خصوصي يملكه غير استخدام أفكاره». نحن لا نملك ما نتقاسم غير الريح والدخان. يقول الفيلسوف: «الآلهة تملك الصحة والعافية في الواقع، وهي ليست مرضى إلا في الخيال. أما الإنسان فهو بالمقابل لا يملك الأشياء إلا في الخيال، وبلاؤه بالمقابل

(1) Plutarque [78] in **Contre Colotès,** LXIX.
(2) **Genèse,** III, 5.
(3) Saint-Paul, **Épitre aux Colossiens,** II, 8.
(4) Horace (35), I, i, 106-108.

واقعي». لقد كان معنا الحقّ في التباهي بقوة خيالنا، لأن كل ممتلكاتنا خيالية. اسمعوا إذًا الحيوان البائس المسكين يتظاهر بالفخر.

151. يقول شيشرون: «ليس ثمة شيء يكون ألطف من تكريس المرء نفسه للآداب؛ تلك الآداب التي منها تنكشف لنا العظمة اللامتناهية للطبيعة، والسماوات فوق هذا العالم، والبحار والأراضي. فهي التي علّمتنا الدين والاعتدال وشرف النفس، واقتلعت أنفسنا من الظلمات كي تفتح عينها على الأشياء السامية والوضيعة والأولى والأخيرة والوسطى. وهي التي تمنحنا ما نعيش به بخير وسعادة، وتهدينا كي تمرّ حياتنا من غير ضنى أو عذاب»[1]. هذا الإنسان، ألا يبدو أنه يتحدث عن الله الجبار القاهر؟ وفي واقع الأشياء، ثمة المئات من النساء المسكينات عشن في القرية حياةً أكثر عذوبة واستقرارًا مما كانت حياته.

«ميميوس العظيم كان إلهًا، نعم إلهًا
فهو الأول الذي أوجد نمط الحياة هذا
الذي نسمّيه اليوم حكمة، والذي بعلمه
انتزع الحياة من تلك العواصف والظلمات المدلهمّة
كي يضعها في ذلك الهدوء الفائق وذلك النور الساطع»[2].

152. ها هي كلماتٌ جميلةٌ طنّانة؛ بيد أن حادثًا طفيفًا وضع عقل أصحابها في وضع أسوأ من وضع الراعي البسيط، بالرغم من وجود هذا الإله المعلّم[3] وتلك الحكمة الإلهية. وذلك الوعد الذي نجده في كتاب ديموقريطوس مشابه في وقاحته لذلك: «سوف أقول كل شيء»، ومشابه للعنوان الأبله الذي يمنحه لنا أرسطو «الآلهة الفانية»، وحُكم خريسيبّوس القائل: إن ديونيسيوس«كان فاضلًا مثل الله نفسه». وعزيزي سينيكا يعترف، كما يقول،إن الله منحه بما يمكنه العيش به، لكن العيش الطيب يستقيه من ذاته، تبعًا لما يقوله مؤلف آخر: «**لنا الحقّ في تمجيد فضيلتنا؛ ولا يمكننا**

(1) Cicéron (21), V, 36.

(2) Cicéron (47), V, 8.

(3) إنه إبيقوروس الذي يجعل لوكريتيوس من نفسه حواريه. ومونتيني يشير هنا إلى تقليد يقول إن لوكريتيوس قد جُنّ بفعل مشروب قدّمته له زوجته، وأنه قد نظم قصيدته في لحظات الصفاء قبل أن يلقى حتفه.

القيام بذلك إذا استقيناها من إلهٍ ما، لا من أنفسنا»[1].

153. زيدي على ذلك القول أيضًا لسينيكا: «**الحكيم له شجاعةٌ شبيهةٌ بشجاعة الله، لكن على خلفية ضعف بشري، وبذلك فهو أسمى منه»**[2]. ليس ثمة ما هو أكثر مدعاة لليأس من هذه السخافة. وليس من بيننا من يسفّه نفسه، بأن يجد نفسه يقارَن بالله، مقدار الحطّ به إلى مصافّ الحيوان. فنحن مهتمون بمصلحتنا أكثر من اهتمامنا بمصلحة خالقنا.

154. علينا الدّوس بالأقدام على هذا الغرور الغبيّ، والزعْزعة الحادّة والجَسورة للأسس السخيفة، التي تقوم عليها هذه الأفكار الخطأ. فما دام الإنسان مقتنعًا أنه يتوفر على وسيلة ما أو قوة ما بذاته، فهو لن يعترف أبدًا بما يَدين به لسيده: إذ سوف يصنع دومًا من بيضه دجاجات كما يقال؛ وعلينا أن نصل به حتى تجريده كليةً من ملابسه. ولْنستعرضْ إذًا بعض الأمثلة من فلسفته الشهيرة.

155. كان بوسيدونيوس[3]، وهو يعيش العذاب بسبب مرض أليم كان يلوي ذراعه ويصك أسنانه، يعتقد أنه يسخر من الألم حين يقول: «يمكنك فعلُ ما شئت فلن أقول إنك شرّ». إنه يحس بالمعاناة نفسها التي يحسها خادمي، غير أنه يتقوّى بإمساك لسانه تبعًا لقوانين مدرسته: «**لا جدوْى من التظاهر بالكبرياء قوْلًا والاستسلام لها فعلا»**[4].

156. كان أركسيلاوس يعاني من داء النّقرس. وحين جاء كارنياديس*[5] لعيادته ورجع وهو يحسّ بالأسى، نادى عليه ليريه رجليه وصدره وقال له: «لم يصعد شيء من الأسفل إلى الأعلى كما ترى». هذا الرجل تصرّف تصرفًا أفضل شيئًا ما، فهو يحس بألمه ويرغب في التخلّص

---

(1) Cicéron (18), III, 36.

(2) Sénèque, [96] LIII.

(3) هو بوسيدونيوس الأفامي، فيلسوف رواقي، تحدث عنه مونتيني في الكتاب الأول، الفصل 40، الفقرة 19.

(4) Cicéron (21), II, 13.

(5) * هو الفيلسوف كارنياديس القوريني.

منه. بيْد أن شجاعته لم تنهدَّ ولم تنفلّ. أما الرجل السابق فإنه، وهو ما أعتقد، يتعلق بصرامته اللغوية أكثر من صرامته الواقعية. وأما ديونيسيوس الهيراكلي[1] الذي كان يعاني من حروق بالغة في العينيْن، فقد كان مضطرًا إلى التخلي عن قراراته الرواقية.

157. لكن، لو افترضنا أن العلم يقوم فعلًا بما يُزعَم له، أي إضعاف المصائب التي تلاحقنا والتخفيف منها، ما الذي يقوم به سوى ما تقوم به الجهالة بشكل أكثر جذرية وبديهية؟ حين كان الفيلسوف بيرّون في عرض البحر تحت رحمة عاصفة هوجاء، لم يجد مثالًا يقدمه لمن كانوا يصاحبونه،أفضل من محاكاة رباطة جأش خنزير، كان يسافر معهم لم تكن تظهر عليه علامات الخوف والرعب[2]. فالفلسفة فيما وراء تعاليمها تحيلنا على مثال الرياضي والحمّال، اللذيْن نلاحظ لديهما عمومًا حساسية قليلة تجاه الموت والآلام وغيرها من الشرور، والكثير الأكثر من الحزم، مما لا يجود به العلم على من وُلد بتلك المزايا،أو لم يستعدَّ لذلك بنفسه.

158. ما الذي يجعلنا نحزّ أو نقطع الأطراف اللطيفة لصبي (أو أطراف حصان) بسهولة أكبر مما نقوم به مع أطرافنا، إذا لم يكن أنهما لا يتوقعان ذلك؟ كم من واحد جعلته قوة الخيال وحدها مريضًا؟ نحن نرى عادةً أناسًا يجرحون أنفسهم، ويطهرون أنفسهم، ويتناولون الأدوية والعقارات، للاستشفاء من أمراض وهمية. فحين لا تصيبنا الأمراض الحقّة، يسعفنا العلم بمنحنا أمراضه: هذا اللون الشاحب علامة نزلة برد؛ والفصل الحار يهدّدك بكافة أنواع الحمّى. وهذا الجرح في خطوط راحة يدك اليسرى يخْطرك بوعكة مُحيقة. وفي النهاية: يلزمك إخراج الدم بالحجامة والقوة. ولْتُقارنْ حياة شخص خاضع لهذه التخيُّلات، مع حياة مزارع ينصاع لنوازعه الفطرية، بحيث يقيس الأشياء فقط بالعلاقة مع الحاضر، من غير علوم ومن غير أن يهتم لذلك سلفًا، إذ هو لا يعرف المرض إلا إذا أحس به حقًا، فيما الآخر يحمل دومًا حصاةً فوق نفسه قبل أن يجدها في كليتيه. كما لو أن الوقت لا يكفي لتحمل المرض، حين يصيب المرء، فيهرع

(1) فيلسوف من القرن الثاني قبل الميلاد. ومن كثرة تنقله بين المدارس الفلسفية نعتوه بـ«المنشق».
(2) حكى مونتني هذه الواقعة سابقًا في الكتاب الأول، الفصل 40، الفقرة 18.

هذا الأخير لاستباقه ويجري قُدمًا أمامه.

159. ما أقول بخصوص الطبّ ليس سوى مثال، ويمكن أن ينطبق على أي علم. ومن ثم يأتي تصوّر الفلاسفة القدماء، الذين يعتبرون أن الاعتراف بضعف حكمنا يشكل الخير الأمثل. يمنحني جهلي العديد من حالات الأمل والخوف، وبما أني ليس لي من قاعدة لصحتي غير تلك التي أمتحها من الأمثلة التي يمنحها لي الآخرون، وما أراه يحدث في الظروف الأخرى المماثلة، فإني أرى كل الأصناف منها، وأمتلك شخصيًا التقاربات التي تكون الأكثر في صالحي. وأنا أستقبل بأذرع مفتوحة الصحة، التي أريدها حرة كاملة ومكتملة، وأشحذ ذوقي كي أستمتع بها أكثر، خاصةً وأنها ستصير لديَّ أنْدر وأقل اعتيادًا. وأنا أحترس كثيرًا من إزعاج راحتها وعذوبتها بالتبنّي الإرادي لنمط حياة جديدة: فالحيوان يُبيّن لنا كم أن قلق العقل يأتينا بالأمراض.

160. حين يُقال لنا بأن أهل البرازيل لا يموتون إلا بالشيخوخة، بسبب الطمأنينة ولطافة مناخهم، فأنا أعتقد بالأحرى أن السبب في ذلك هو طمأنينة النفس وسكينتها، وخلوُّها من كل عاطفةٍ أو فكرٍ أو همٍّ اضطراري أو مزعج. إنهم أناس يقضون حياتهم في بساطة رائعة وجهالة ماتعة. من غير ثقافة ولا قوانين ومن غير مَلك ومن غير ديانة كيفما كانت.

161. ومن أين يأتي أن التجربة تبيّن لنا أن الأناس الأجلاف والثِّقال الظل هم الأفضل وهم الذين تبحث عنهم النساء في المنجزات العاشقة؟ وأن حب الحمّال يكون عادة مقبولًا أفضل من حبّ رجل مُرهف الحسّ، لأن هذا الأخير تنكّد قلاقل نفسه على قوته الجسمانية وتحطمها، مثلما تُنهِك تلك القوة عادةً نفسها بنفسها؟ فما الذي يزعج تلك القوة ويدفعها عادة إلى الجنون سوى سرعتها وحدّتها ورشاقتها وقوتها نفسها؟ ممَّ يتكوّن الجنون الأكثر لطافة سوى من الحكمة الأكثر رهافة؟ فكما أن الصداقات الكبرى تتولّد من الحميمة العميقة، والأمراض القاتلة من حالات الصحة والقوة، كذلك تتولّد أنواع الجنون الخارقة والغريبة من الحركات الأكثر حيوية في

عقولنا، فلا يفصل بين هذه الحال وتلك غير دورة مفتاح واحدة.

162. يبيّن لنا سلوك المجانين جيدًا كيف يشتغل الجنون انطلاقًا من العمليات القوية للعقل. من منّا لا يعرف كم هو ضعيفٌ الفارق بين الجنون والصُّروح الحماسية لعقل حرّ، أو بينه وبين آثار فضيلة سامية وخارقة؟ يقول أفلاطون: إن الناس المصابين بالكآبة هم الأسهل في التعليم والأفضل. وهم الأكثر عرضة للجنون. فالعديد من العقول حطمتهم حيويتهم ومرونتهم الخاصة. يا لها من قفزة مميتة[1] ناجمة عن الإثارة والقلق، قام بها أحد الشعراء الإيطاليين الأكثر خيالًا والأكثر صنعة، والأكثر تهيؤًا للشعر القديم الخالص، الذي لم نرَ له مثيلًا من زمان، من كثرة الإثارة وقلق التفكير. أليس له هنا ما يدفعه للامتنان لحيوية الروح التي أجهزت على عقله؟ ولذلك الوضوح الذي أعماهُ؟ وللسعي الجهيد والدقيق للمعرفة الذي قاده إلى البلادة؟ وللقدرة النادرة على إعمال العقل، التي منعته من إعماله بعد ذلك، وسارت به حتى الحرمان من العقل؟ ولقد أحسستُ أكثر بالخيبة مني بالشفقة وأنا أراه، في مدينة فيرّرا في حال يُرثى لها، يكاد يُقارب الموت بحيث لم يعدْ يعرف نفسه، ولا حتى كتبه نفسها، تلك الكتب التي تمَّ التعريف بها من غير أن يعلم ذلك وصدَرت كما هي من غير تنقيح أو مراجعة.

163. هل تريدون إنسانًا بالغ الاتزان بسلوك ثابت وصلب؟ انثروا عليه الظلمات والعطالة وثقل العقل. علينا أن نتبلّه كي نهدأ، وأن نعمى كي نستهديَ طريقَنا. يُقال: إن فضيلة أن يكون لنا نزر يسير من الشهوات، وأن نكون قليلي الإحساس بالألم والمصائب؛ هي أنها تخلق سوْءة أن نصير أقل حساسية وأقل انجذابًا للتمتّع بالخيرات وبالملذات. إنه لأمر صحيح، غير أن بؤس قدَرنا الإنساني وأن لنا أكثر من الأشياء التي يلزمنا تجنبها، من تلك التي يلزمنا التمتُّع بها، وأننا نخضع لألم صغير أكثر من خضوعنا للذة القصوى. «**الناس أقل إحساسًا باللذة منهم بالألم**»[2].

(1) يتعلق الأمر بالشاعر توركواتو تاسو، صاحب القصيدة الشهيرة: «القدس محرّرة» [103]، الذي تم إيداعه مارستان للمجانين على إثر نوبات جنون ألّمت به بدءًا من عام 1574 م.

(2) Tite-Live [105] XXX, 21.

فنحن لا نحسّ بالصحة التامة نفس إحساسنا بأقلّ الأمراض إيلامًا.

«الخدش البسيط يُثير قلقنا
أما الصحة فلا نحسّ بها أبدًا
أنا سعيدٌ لأني لا أشكو من ألم لا في الصدر ولا في القدم
غير أني لا أحسّ بنفسي صحيحًا»[1].

164. ما نسميه «حياة رفاهية» ليس سوى غياب لـ «شظف العيش». لهذا لم تحدّدها المدرسة الفلسفية التي امتدحت كثيرًا الشهوة إلا باعتبارها غياب العذاب. فعدم الإحساس بالألم هو أفضل خيْر يمكن للمرء أن يتمناه، كما قال إينّيوس: «**إنها لسعادة لا تضاهى ألا يُلمّ شر بالإنسان**»[2].

إن تلك الإثارة، وتلك الدغدغة التي نحسها في بعض الملذات، والتي تحملنا إلى ما وراء الصحة التامة وغياب الألم، وتلك الشهوة الفعالة والمتغيرة، التي تبدو حارقة وقارصة، لا تبتغي إلا هدفًا واحدًا: تفادي الألم. فالحماس الذي يجعلنا نميل للنساء لا يسعى إلا لطرد العذاب الذي تسبّبه لنا الرغبة الحادة والهائجة، ولا تبتغي غير إشباعها وإراحتها وتبديد تلك الحمّى. والأمر نفسه بخصوص الشهوات الأخرى. وأنا أقول إذًا: إن البساطة إذا كانت تقودنا نحو غياب الشر والألم، فإنها تقودنا في الواقع نحو حال من السعادة يشمل أحوالنا. علينا إذًا ألا نخالها مفتوحة إلى درجة ألا يكون لها أي ذوق.

165. كان الفيلسوف كرانتور[3] على حق في محاربة عدم الإحساس بالألم الذي دعا له إبيقوروس إذا ما كان عدم الإحساس ذاك من الكِبر بحيث إن انبثاق الألم ووجوده نفسه يمكن أن يكونا غائبين منه. وأنا لست من الدّعاة لهذا الغياب التام للألم، الذي ليس ممكنًا ولا مستحبًا. وأنا فرحانٌ لأني لست مريضًا، لكني إذا كنت كذلك أرغب في معرفة أني كذلك، وإذا ما تمّ تكبيلي أو حزّي أو كيّي أرغب في الإحساس بذلك. ففي الحقيقة، إذا

(1) **Poemata,** de La Boétie.

(2) Cicéron (17), II, 13.

(3) هو فيلسوف من الأكاديمية القديمة (القرن الثالث قبل الميلاد). ونحن لم تصلنا منه إلا بعض المقاطع من كتاباته. وقد قلّده شيشرون في بعض كتاباته.

ما تمّ اقتلاع المعرفة التي لنا بالألم، فيتم في الآن نفسه اقتلاع المعرفة بالشهوة، وفي الأخير يتم إعدام ما يكوّن الإنسان. «إن عدم الإحساس بالألم يؤدي المرء ثمنه غاليًا، إذ يصاب بتبلّد الذهن». فالألم له مكانه لدى الإنسان؛ وليس عليه أن يتهرّب دومًا من الألم، ولا اتباع شهواته دومًا.

166.* حين لا يتوصّل العلم إلى منحنا القوة لمقاومة الألم يرمي بنا بين أيدي الجهل، ويكون ذلك مشرّفًا لهذا الأخير. وبما أن العلم يكون مضطرًا لهذا التوافق، فهو يطلقُ لنا العنان ويسمح لنا باللجوء إلى أحضان الجهل، وجعلنا بذلك في مأمَن من ضربات القدَر. فما الذي يريد قوله لنا العلم حين ينصحنا بعدم التفكير في آلامنا التي تلمّ بنا، وإنما في الشهوات الغائبة، وبأن نستخدم ذكريات ماضية، لمواساتنا في آلامنا الحاضرة، وأن نستنجد بمُتَع تبدّدت لمعارضة ما يضايقنا؟

«إن إبيقوروس يقترح علينا للتخفيف من آلامنا أن نغير مجرى أفكارنا المعذبة لتذكر الملذات»[1].وإذا ما لم تسعف المريض القوة، تسعى المعرفة إلى استخدام الحيلة؛ وإذا ما وَهنت قوة الجسم والساعديْن، فإنها تنعطف جانبًا بخطوةً، وبمرونة. هل يمكننا فعلًا أن نطلب لا فقط من فيلسوف؛ وإنما من إنسان بسيط عاقل، بأن يكتفي بذكرى نبيذ يوناني، حين يحس بحرقة حمّى قوية؟ أليس ذلك أشبه بأن نَنقُده مالًا مزيفًا؟ ومن ثمّ نعمّق خطورة حاله؟

«أن يسترجع المريض ذكرياتٍ سعيدةً يعني مضاعفة ألمه»[2] .

167. إليكم نصيحة أخرى من الصنف ذاته، والفلسفة هي التي تقدّمها لنا: ألا نحافظ في الذاكرة إلا على السعادة الماضية، وننسى كافة الهموم والمشكلات التي مرت بنا. كما لو أن بإمكاننا أن ننسى هذا وذاك. ها هي ذي إذًا نصيحة رديئة.

«ما أعذب ذكرى لحظات السعادة التي مضت»[3].

(1) Cicéron (21), III, 15.

(2) Dante, « Nessunmaggiordolore / chericordarsidel tempo felice / ne la miseria » (**Enfer**, V, vv. 121-123).

(3) Cicéron (17), II, 32, 105.

ترجم شيشرون هذا البيت للآتينية من يوريبيديس، ومونتيني أثبت البيت باللغة اللاتينية.

168. كيف يصل الأمر بالفلسفة، التي يُنتظر منها أن تمنحني السلاح لمحاربة المصائب، والقوة على دوس كل العداوات البشرية؛ كيف يصل بها الأمر إلى هذا الضعف الذي يتمثل في جعلي أهرول هنا وهناك، مثل أرنب، قائمًا بمداورات خوّافة وسخيفة؟ تمثل لنا الذاكرة لا ما نريد وإنما ما يعجبها. وليس ثمة شيء يحفر في ذاكرتنا بقوة ما، أكثر من الرغبة في نسيانه. إنها طريقة حسنة للحفاظ على شيء من النسيان وحفره في الذهن، عِوَض أن نطلب من المرء نسيانه.

ما سيأتي أمر خطأ: «**بإمكاننا دفن مآسينا في نسيان تام، وتذكّر أمورنا الرائقة بسعادة**»[1]. لكن هذا القول صحيح: «**أنا أتذكر حتى ما لا أبغي تذكّره؛ فأنا لا أستطيع نسيان ما أريد نسيانه**»[2].

ولمن تعود هذه الفكرة؟ لذلك الذي «وحده تجرّأ على أن يجعل من نفسه حكيمًا»[3]:

> **«هو الذي سادت عبقرّيته على الجنس البشري**
> **حاجبًا كل شيء كما الشمس الغائبة**
> **تحجب عند طلوعها كل النجوم».**

أن نفرغ الذاكرة وننظّفها، أليس ذلك هو السبيل المفْضي إلى الجهل؟
«الجهلُ دواءٌ ضعيفٌ لآلامنا»[4].

169. نحن نعرف تعاليم عديدة من الصنف نفسه، تدعونا إلى أن نستقي من الشعب آراءً واهنة، حين لا يستطيع العقل الحيّ القويّ أن يفرض نفسه، متمنّين فقط أن تجلب لنا الراحة والتلطيف من الألم. حين لا نستطيع مداواة الجرح، من الأفضل تنويمه وتضميده. وأنا أعتقد أنْ لا أحد سيُعارضني: إذا استطعنا أن نحافظ على لحظة حياة رائقة وهادئة بجعلها ثابتة ومنظمة، ولو كان ذلك ناجمًا عن ضعف ما، وعن

---

(1) Cicéron (17), I, 17.

(2) Cicéron (17, II, 32.

(3) شيشرون (17)، 7، 3، II (متحدثًا عن إبيقوروس).

(4) Sénèque (94), III, 117.

نقصان في الحكم العقلي، فإننا سنقوم بذلك لا محالة.

«سأبدأ في الشّرب وفي نثر الورود
حتى ولو حسبوني في ذلك مجنونًا»[1].

170. كثيرون هم الفلاسفة الذين سيتفقون مع رأي ليقون*([2])؛ إذ هُو يعيش عوائده المنتظمة، وحياته الهادئة والمطمئنة بين أهله وذويه، ولا يتوانى عن القيام بواجباته إزاء أهله وأقاربه أو الغرباء، متفاديًا الأمور المستهجَنة - عنَّت له فكرة جاءته بعد أن أصيب بخللٍ عقلي، أنه يوجد دومًا في مسرحٍ يشاهد فيه عروضًا مسلّية، وأجمل كوميديات العالم. وبعد أن شافاه الأطباء من تلك الحالة المزرية، قام للتوّ برفع دعوى عليهم كي يُعيدوه إلى عذوبة أحلام يقظته.

«هيهات يا أصدقائي، أن تكونوا قد شافيْتموني، فقد قمتم بقتلي
لقد سلبتم مني سعادتي
بهذا الوهم الذي كان مصدر فرح لي»[3].

171. كان جنونه يشبه جنون تراسيلاوْس بن بيثودوروس، الذي كان يجزم أن السفن التي كان ترسو بميناء بيرايوس باليونان وتقلع منها، كانت كلها في خدمته وحده. وكان سعيدًا بحظه الحسن ذاك ويستقبلها بفرح. وبعد أن عالجه أخوه كريتون كي يستعيد عقله، صار مُلتاعًا لفقْد ذلك الحال الذي عاشه في المرح والحبور، خاليًا من الهموم. ذلك ما يقوله هذا البيت الشعري بالإغريقية القديمة:

«عدمُ التفكير يمنح للحياة جاذبيتها»[4].

ثمّة بعض المحاسن في ألا يكون المرء ذكيًا. وقد جاء ذلك في سِفْر الجامعة أيضًا: «الكثير من الحكمة يعني الكثير من الضّنى؛ فمن يملك المعرفة يملك أيضًا الألم والعذاب».

---

(1) Horace (35), I, 5, vv. 14-15.

(2) * هو الفيلسوف ليقون الطروادي (299 ق.م تقريبًا – 225 ق.م تقريبًا) كان من المدرسة المشائية. ورد الاسم محرفًا في الأصل، وأشار المحقق أنه لا يعرف من المقصود باسم «بكاس».

(3) Horace (35), II, 2, vv. 138-140.

(4) Sophocle (88), v. 554.

172. يقبل الفلاسفة عمومًا بضرورة إنهاء المرء لحياة لا يستطيع تحمّلها، باعتبار ذلك حلًا أخيرًا لكافة الهموم والمشكلات. «**هل يروقك ذلك؟ إذًا استسلمْ لقدَرك. ألا يروقك ذلك؟ اخرج من ذلك كيفما شئت**». «**أتحسّ بوخز الألم؟ أم بعذابه؟ إذا كنت أعزل أمامه ابسطْ عنقك للموت؛ لكن إذا كنت مدجَّجًا بأسلحة الإله فولكانوس، أي مُتسربلًا بالشجاعة، فلك أن تقاوم**».

وهاكم أيضًا هذه العبارة من المأدبات اليونانية، التي يطبقونها على هذه الحالة: «إما أن يشرب أو فليرحلْ»، وهي التي يرنّ معناها في لغة غاسكونيّ يستبدل نطق «ب» بحرف «ق»، أكثر منه في لغة شيشرون:

«إذا لم تكن تعرف كيف تعيش، اترك مكانك لمن يعرف ذلك
كفى من اللعب، كفى من الأكل، كفى من الشرب. حان وقت الرحيل
كيلا يشرب المرء أكثر مما ينبغي
وكيلا يسخر منك الشباب المحتفل ويطردك»[1].

لكن ألا يعني ذلك للفلسفة اعترافًا بعجزها؟ أليس ذلك مجرّد إحالة إلى الجهل، كي يكون فيه المرء محميًا، وإحالة إذًا إلى عدم الإحساس وإلى اللاوجود؟

«حين أحس ديموقريطوس بشيخوختهِ ووهنِ ذاكرته
وانهيار ملَكاته، سار بنفسه
ليمنح رأسه لمصيره»[2].

173. ذلكم ما كان يقول أنتيستينيس: «علينا خزن الفطرة السليمة للفهم، أو الحبال لشنق النفس». ويسير خريسيبّوس أبعد من ذلك بالاستشهاد بهذا القول للشاعر تيرتوس: «علينا التقرّب من الفضيلة أو من الموت»[3]. أما الفيلسوف كراتيس فكان يقول: إن الحب يُشْفى بالجوع، وإلا فإنه يشفى مع الوقت. ومن لا تعجبه هاتان الوسيلتان، عليه بالحبل ليشنق به نفسه.

---

(1) Horace (35), II, 2. Vv. 213-216.

(2)Lucrèce (47), III, 1052 sq.

(3) Plutarque [78] LXVIII, **Des communes conceptions contre les Stoïques.**

174. حين قام سكستيوس، الذي يتحدث عنه سينيكا وبلوتارخوس بتقدير، بترك كافة شؤونه ليكرس نفسه لدراسة الفلسفة، قرّر رمْي نفسه في البحر؛ لأنه وجد أن دراسته طويلة وتقدّمه فيها ضئيل. فبما أنه لم يستطع بلوغ العلم هرع نحو الموت. وإليكم ما يقوله القانون في هذا الشأن: «إذا ما ألمّ بنا مُصاب لا يمكن أن نشفى منه، فالمرسى قريب: يمكن للمرء أن يهرب من جسده عومًا، كما نفعل بقارب يدخله الماء؛ ذلك أن الخوف من الموت لا الرغبة في الحياة هي التي تترك الأبله مرتبطًا بجسده».

175. البساطة تجعل الحياة أعذب، وتجعلها أيضًا أوْثق وأفضل، كما شرعت في بسْط ذلك آنفًا. يقول القديس بولس: إن الناس البسطاء والجهلة يتعالون نحو السماء ويبلغونها؛ أما نحن بكامل علمنا، فنغوص في هاوية الجحيم. لن أقف طويلًا عند فالنس*[1] ولا عند ليكينيوس، وهما معًا إمبراطوران رومانيّان وعدوّان لدودان للعلم والآداب، اللذين كانا يسميانهما السمّ. ولا عند النبي محمد، الذي كما سمعت ذلك، حرّم العلم على أتباعه*[2]. لكن مثال ليكورغوس*[3] العظيم بجلاله، له ثقله في الميزان، ومعه الإعجاب الذي يستحوذ علينا إزاء مدينة إسبرطة العظيمة والرائعة، والتي عاشت لمدة طويلة في كمال الفضيلة والسعادة، من غير أن تكون الآداب قد دُرّست بها ولا مورستْ.

176. أولئك الذين يعودون من العالم الجديد، الذي اكتشفه الإسبان في زمن آبائنا، يمكنهم الشهادة على أن تلك الشعوب التي لا تتوفر على قضاة أو قوانين، تعيش بطريقة أشدَّ تنظيمًا وأكثر نزاهةً من شعوبنا، حيث ثمة ضباط العدالة والقانون أكثر من وجود الناس العاديين ومن القضايا في المحاكم:

«من كثرة المطالب والمهام
والمعلومات والوكالات
أيديهم وجيوبهم مليئة بها

(1) لقد أسبغ كورنيليوس أغريبا، الذي يحيل إليه مونتيني هنا، هذا اللقب على الإمبراطور الروماني الذي كان يسمى «فالنس»، والذي توفي عام 378 م.

(2) * ربما يشير مونتيني هنا إلى الحديث النبوي «إنّا أُمّةٌ أمّيّةٌ لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ» [البخاري: 1913].

(3) * مشرع إسبرطي قد يكون أسطوريًا، ومن المفترض أنه عاش في القرن التاسع قبل الميلاد.

وبحزم الأوراق والشروح، والاستشارات والإجراءات القانونية.
معهم لا يجد الناس العاديون راحتهم
محاطين من كل جانب بالموثّقين
والوكلاء والمحامين».

177. كان مستشار روماني من القرون الأخيرة يقول: إن نَفَس سابقيه كان يعبق برائحة الثوم، وأن معدتهم معطَّرة براحة الضمير، وبالمقابل أن مستشاري زمنه لا نشم فيهم إلا رائحة الخارج، أما بواطنهم فتنبعث منها رائحة كافة أنواع الرذائل. ويبدو لي أنهم كانوا بالغي العلم، غير أنهم كانوا يعانون من نقص فظيع في الفضيلة. فالسذاجة والجهل والبلاهة والفظاظة تكون مصحوبة عادة بالبراءة؛ والفضول والدقّة والعلم تجرّ وراءها الشراسة؛ والتواضع والخوف والطاعة والعناية (التي هي مزايا أساس لدوام المجتمع البشري) تتطلب أن تكون لنا نفْس بكْر وطيّعة وقليلة الصلافة والادّعاء.

178. يعرف المسيحيّون جيدًا إلى أي حدّ يكون الفضول شرًا طبيعيًا وفطريًا لدى بني البشر. فمع اهتمام الإنسان بأن يغدو أكثر علمًا وأكثر حكمة بدأ انهيار الجنس البشري. ومن ثمَّ نذَر نفسه للّعنة الأبدية. الكبرياء والغرور هو ما يرمي بالإنسان إلى حتفه وفساده. الغرور هو ما يرمي بالإنسان خارج السبل المعتادة، ويجعله يحب الجديد ويفضل أن يكون قائد فرقة سائرة على دروب الضلال، ويفضّل أن يكون معلّمًا للخطأ والكذب على أن يكون تلميذًا لمدرسة الحقيقة، منصاعًا لقيادة أيادٍ أخرى على الدروب المعروفة، أي على الطريق الصواب. ربما هنا علينا أن نرى معنى العبارة اليونانية القديمة القائلة: «**التطيّر يتّبع الكبرياء ويطيعها كما يطيع أباه**»[1].

179. أيها الكبرياء، لكم كنت عائقًا في حياتنا! حين علِم سقراط أن إله الحكمة منحه صفة الحكيم أصابته الدهشة، ومع أنه تفحّص الأمر وقلّب نفسه من كل الجوانب، لم يعثر على أي مبرّر لهذا المرسوم الإلهي. فقد كان يعرف

(1)Socrate, in Stobée, **Sermo** XXII.

أن ثمة آخرين كانوا عادلين ومعتدلين وشجعانًا وعلماء مثله، وعلاوة على ذلك فصيحين وأجمل منه وأكثر فائدة لبلدهم. فاستنتج أخيرًا أنه لا يتميّز عن الآخرين، وأنه ليس حكيمًا إلا لأنه لا يعتبر نفسه كذلك؛ وأن إلهه يعتبر أن أكبر بلاهة للإنسان هو أن يعتبر نفسه عالمًا، وأن المذهب الأمثل هو الجهل، والبساطة السبيل الأفضل ليكون المرء حكيمًا. •

180. يعتبر الكتاب المقدّس بؤساء مَنْ مِن بيننا يحملون نظرة سامية عن أنفسهم، فيخاطبهم: «أيها الوحل والرماد، كيف يمكن أن تمجّد نفسك؟». بل «إن الله على صورة ظلّه؛ ومن سيحكم عليه حين سيبتعد النور ويتبدّد الظل؟». نحن لا شيء؛ وقُوانا غير قادرة على تصور التعالي الإلهي، وصنيع خالقنا ومن بينه ذلك الذي يحمل بشكل أمثل بصْمته، وذلك الذي يكون حقًا وبداهة صنيعه هوذلك الذي نفهم أقلّ. إن لدى المسيحيين أن يلاقوا شيئًا خارقًا سبب للإيمان بأمر خارق: فهذا الشيء من العقلانية بحيث يكون ضد العقل البشري، إذ إذا كان يعود للعقل فلن يكون أمرًا خارقًا. وإذا ما كان ثمة مثال عن ذلك، فلن يكون الأمر بالخارق. فقد قال القديس أوغسطين: «الله يعرف أفضل إنْ كنّا جهلة». وقال تاسيتوس: «من القداسة والاحترام أن نؤمن بأفعال الآلهة على أن نعرفها شخصيًا». كما أن أفلاطون يعتبر أن من باب الكفر الرذيل أن نتساءل بإفراط عن الله والعالم والعِلل الأولى للأشياء.

يقول شيشرون: «**من الصعب في الحقيقة أن نعرف ربّ هذا الكون، وإذا ما نحن توصّلنا إلى ذلك، فمن الكفر أن نصرّح به للعامة**»[1].

181. صحيح أننا نستعمل عبارات «القوة» و«الحقيقة» و«العدل»: إنها عبارات تحيل إلى شيء ما عظيم؛ لكن هذا الـ«شيء ما»، أمر نحن لا نراه أبدًا، ولا يمكننا تصوُّره. نحن نقول: إن الله يحترس، وإن الله يغضب، وإن الله يحب.

«**بحيث نضع كلمات كائنات فانية على أشياء أزلية**»[2].

(1) Platon [74] II.
(2) Lucrèce (47), V, v. 122.

الأمر يتعلّق هنا بأحاسيس وعواطف، لا يمكن أن نضعها في الله بالصور، التي لها في أنفسنا، ولا يمكننا أيضًا تصورها بالشكل التي هي عليه لديه. فلله وحده مشيئة أن يعرف نفسه وأن يدرك أفعاله ويتأولها. وهو يقوم بذلك بشكل غير مكتمل بلغتنا، كي يتواضع وينزل إلى مستوانا نحن الذين نظل مشدودين إلى هذه الدّنيا.

182. كيف يمكن للحكمة أن تكون ملائمة معه، هي التي تُعتبر اختيارًا بين الخير والشرّ، بما أنْ لا شر يمكن أن يبلغه؟ وما القول في العقل الذي نستخدمه لنجعل الأشياء المبهمة مرئية، بما أن لا شيء مبهم لدى الله؟ والعدل الذي يمنحه لكل واحد ما يعود له، والذي تمّ إرساؤه لصالح المجتمع البشري، ما الشكل الذي يأخذه لدى الله؟ والزهد، الذي ليس غير الاعتدال في الملذات الجسدية التي لا مكان لها فيه؟ والشجاعة والمجهود والمخاطر، كل هذا لا علاقة كبيرة له به، فهذه الأشياء لا تبلغه. لهذا فإن أرسطو[1] يعتبر أن الله منزه عن الفضيلة والرّذيلة. «**العطف والغضب غريبان عنه، فهذه الأهواء لا تهمّ إلا النفوس الضعيفة**»[2].

183. المعرفة التي لنا عن الحقيقة، مهما كانت، لم نكتسبها بقوانا الخاصة. الله هو الذي علمنا إياها بواسطة من اختارهم كشاهدين من الشعب، بسطاءَ وجهلةً، كي يبلغنا أسراره الرائعة: وإيماننا ليس شيئًا اكتسبناه بذواتنا، إنما هو هدية تعود لحريّة الآخرين.نحن لم نتلقّ ديننا بتعقُّلنا وعقولنا وذكائنا؛ وإنما بسلطة وأمر خارجيْن. إن ضعف حكمنا يساهم في ذلك أفضل من قوته، وعمانا أكثر من تبصّرنا. فنحن عارفون بالعلم الإلهي بجهلنا أكثر من علمنا. ليس من الغريب إذًا إنْكانت قدراتنا الطبيعية والدنيوية، لا يمكنها أن تبرز هذه المعرفة الخارقة والغيبية. لنكتفِ بأن نساهم فيها بطاعتنا وخنوعنا، كما جاء في الإنجيل: «**سأبيد حكمةالحكماء، وأرفض فَهْمَ الفُهَمَاء. أين الحكيم؟ أين الكاتب؟ أين مُبَاحِثُ هذا الدهر؟ ألم يَجْهلِ اللهُ حِكْمةَ هذا العالم؟ لأنه إذْ كان العالَمُ في حكمة الله لمْ يَعرفِ اللهَ بالحكمة، استحسن الله أن يُخلِّص**

(1) Aristote [7] VII, I.

(2)Cicéron (18), I, 17.

المؤمنين بجَهالة الكِرَازة»[1].

184.لهذا عليّ في الأخير أن أتفحّص إذا ما كان في مقدور الإنسان أن يعثر على ما يبحث عنه، وإذا كان هذا المسعى الذي يتابع منذ قرون قد أغناه بقوّة ما وبحقيقة صلبة ما.

185.وإني لَأعتقد أنه سيعترف لي بصدقٍ بأن ما جناه من حملة صيدٍ طويل الأمد،هو أنه تعلم معرفة ضعفه. فالجهل المتأصّل فينا بالطبع، قد تحققنا منه وأكدناه من خلال هذه الدراسة الطويلة. وما حدث لمن هم حقًا علماء حدث لسنابل القمح: فهي تتعالى وتعلي بفخر رأسها كلما كانت فارغة، لكن حين تكون ممتلئة في نضجها، تبدأ في التواضع وحسْر الرأس. وذلك حال الناس الذين بعد أن سبروا عمق كل شيء، وبعد أنْ لم يجدوا في هذا الركام من العلوم والموارد المختلفة شيئًا صلبًا وثابتًا، وإنما فقط غرورًا، تخلّوا عن اعتدادهم بأنفسهم وقبلوا بوضعيتهم الطبيعية.

186.ذلك ما أشار إليه فيلّيّوس موجهًا إشارته إلى كوتا شيشرون، من أنهم علموا من فيلون الإسكندري أنهم «لم يتعلموا شيئًا». حين كان فيريكيديس، أحد الحكماء السبعة يُحتضر كتب إلى طاليس: «أمرت أقربائي، حين يحين وقت دفني، أن يحملوا إليك كتاباتي. فإذا ما هي راقت لك وللحكماء الآخرين، انشرها وإلا فلْتدمّرها. فهي لا تشكل أي يقين يمكنه أن يرضيني أنا؛ فإني لا أزعم معرفة الحقيقة، ولا أن أتوق لذلك، إذ أنا أفتح الأشياء أكثر مما أعرّيها». حين سُئل سقراط، أكثر الناس حكمة في كل الأزمان، عمّا يعرف، أجاب أنه يعرف أنه لا يعرف شيئًا. وهو يؤكد بذلك ما يُقال: أكبر حصة مما نعرف هي الأقل مما نجهل. أي أن ما نعتقد أننا نعرفه هو جزء بسيط جدًا من جهلنا. يقول أفلاطون: «نحن نعرف الأشياء في الحلم، ونجهلها في الحقيقة»[2]. «كافة القدماء قالوا إننا لا يمكننا معرفة أي شيء، ولا إدراك أي شيء، وأن حواسنا محدودة، وذكاءنا ضعيف وحياتنا قصيرة».

(1) Saint Paul, **Épître aux Corinthiens**, I, 1, 19.
(2) Platon[76] XIX.

187. قال فاليريوس عن شيشرون نفسه، الذي يدين بقيمته للعلم والمعرفة: إنه في نهاية حياته صار ينفر من الآداب. وفي الوقت الذي كان يمارسها، كان ذلك بحرية من غير أن يكون منتميًا لأي مذهب، متبعًا ما كان يبدو له ممكنًا، تارة في «مدرسة» وتارة في أخرى. وكان يراوح دومًا في موقف الشك الأكاديمي. «سأتحدث من غير أن أؤكد أي شيء؛ سأبحث دومًا، ممارسًا الشك في الغالب، وغير واثق كثيرًا من نفسي»[1].

188. سيكون سهلًا عليَّ لو أني رغبت في اعتبار الإنسان في مظهره العادي وفي إطار المجموع؛ ويمكنني مع ذلك أن أقوم بهذا باتباع قاعدته نفسها، التي تحكم على الحقيقة لا بقيمة الأصوات وإنما بعددها. لنترك الشعب هناك=

«من ينام في كامل يقظته، وبرغم أنه حي
والعيون مفتوحة، لا شيء له بتاتًا غير حياة ميّتة»[2].

=ذلك أن الشعب لا وعي له بنفسه، ولا حكم له، ويترك أغلب ملَكاته الفطرية في عطالة. أما أنا فأعني الإنسان في وضعيته الأكثر سموًّا.

189. لنتأمله من خلال هذا العدد الصغير من الناس السّامين النادرين الذين كانوا يملكون منذ البداية وبشكل طبيعي قوة نفس رائعة واستثنائية، الذين قاموا بتعزيزها بالجَهد والدراسة والفنون، وساروا بها إلى أعلى علّيين من الحكمة. وقد استعملوا تلك القوة في جميع الاتجاهات وفي جميع الصيغ، وعزّزوها ودعموها بكل ما يمكن أن يسندها، وأغنوها وجمّلوها بكل ما يمكن استعارته لصالحها، سواء في الدنيا أو في الآخرة: فلديهم نجد الطبيعة الإنسانية في شكلها الأكثر سموًّا. فلقد نظّموا العالم من خلال المؤسسات والقوانين؛ وعلّموه بالتقنيات والعلوم، وكذا بسلوكهم الأنموذجي. لن آخذ بعين الاعتبار إلا هؤلاء الناس وتجربتهم، ولْنرَ إلى أي حدّ ساروا وأين توقفوا. والفوضى أو العيوب التي سنلاحظها لديهم، سيمكن للعالم أن يعتبرها عيوبهم وفوضاهم من غير تردّد.

(1) Cicéron (16), III, vv. 1046 et 1040.
(2) Lucrèce (47), III, vv. 1046, 1048.

190. حين نبحث عن شيء ما، ثمّة دومًا لحظة نقول فيها إما أننا وجدنا ذلك الشيء، أو أنه مستحيلٌ العثور عليه، أو أننا لا زلنا نبحث عنه. والفلسفة بكاملها تنقسم إلى هذه الأنماط الثلاثة. وغايتها البحث عن الحقيقة والعلم واليقين. لقد اعتقد المشّاؤون والإبيقوريون والرواقيون وغيرهم أنهم عثروا عليها. وهم صاغوا لنا العلوم التي نعرف، وتعاملوا معها كما لو كانت يقينيّات. أما كليتوماخوس*([1]) وكارنياديس والأكاديميون فقد يئسوا تمامًا من التوصّل إليها؛ واعتبروا أننا لا نملك الوسائل الكافية لتصوّر الحقيقة. واستنتاجهم يتمثل في محصلة الجهل والضعف البشريْن. وقد كان لهذه المدرسة تابعون بالغو الأهمية وممثلون من أشرف ما نعرف.

البّيرونيّون

191. وأما بيرون وغيره من الشكّيين أو «معلّقي الحكم»، والذين استقوا آراءهم، حسب العديد من المؤلفين القدماء،من هوميروس والحكماء السبعة ومن أرخيلوخوس*[2] ويوريبيديس وكذا من زينون وديموقريطوس، فيقولون إنهم ما زالوا باحثين عن الحقيقة. وهم يعتبرون أن من يعتقدون أنهم وجدوها خاطئون كلّيّةً، بل يعتقدون أن ثمة الكثير من الغرور لدى من يعتقدون أن القوى الإنسانية غير قادرة على بلوغها. فلكي نقيس قدرتنا على المعرفة والحكم على صعوبة الأشياء، علينا أولًا أن نُبين عن علم تام، وهم يشكون في أن يكون الإنسان قادرًا على ذلك.

> **«من يعتقد أننا لا نعرف شيئًا، لا يعرف حتى**
> **إن كنّا قادرين على أن نقول: إننا لا نعرف شيئًا»[3].**

192. الجهل الذي يعرف نفسه، ويحكم على نفسه، ويُدين نفسه؛ ليس جهلًا

(1) * كليتوماخوس (186/187 ق.م – 109/110 ق.م) فيلسوف إغريقي من مواليد قرطاج.
(2) * شاعر إغريقي عاش في أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد.
(3) Lucrèce (47), IV, 470.

تامًا. فلكي يكون ذلك جهلًا عليه أن يجهل نفسه؛ بحيث إن موقف البيرونيّين*[1] يتمثل في التردّد والشك والبحث، وألا يكون المرء متيقّنًا من شيء، ولا مسؤولًا عن شيء. فهم لا يعترفون من الوظائف الثلاثة للعقل، أي الذكاء والحساسية والحكم، إلا بالوظيفتين الأوليَيْن، ويتركون الوظيفة الأخيرة غامضة، من غير أن يُبينوا عن موافقة أو ميل، مهما كان، لهذا الطرف أو للطرف الآخر.

193. كان زينون يصور بالإيماءات الطريقة التي كان يتصور بها ملَكات العقل: فاليد المبسوطة تمامًا تمثل الاحتمال؛ واليد المغلقة نصفيًا بالأصابع المنْثنية تمثّل الموافقة؛ واليد المقبوضة تمثل الفهم؛ وحين تنقبض اليد اليسرى أكثر يعني ذلك العلم.

194. والصفة التي يمنحها البيرونيون لحكمهم من أنه مستقيم ولا ينثني، ويقبل كل ما يستعرض له، من غير أن يعلنوا عن موافقتهم، تؤدّي بهم إلى الطمأنينة باعتبارها نمط عيش هادئ ومريح، خال من الاضطرابات التي تأتينا من الرأي والمعرفة التي لنا عن الأشياء. فمن هذه الاضطرابات يأتينا الخوف والجشع، والحسد والرغبات الجامحة، والطموح والكبرياء، والتطيُّر وحبّ الجديد، والعصيان والتمرّد والعناد، وأغلب آلامنا الجسمانية. وهم بذلك يتفادوْن الخصومات التي يمكن أن يثيرها مذهبهم؛ ذلك أن نقاشهم قليل الحدّة، ولا يخشوْن أبدًا من التناقض.

195. وحين يقولون: إن كل جسم ثقيل يتجه نحو الأسفل، سينزعجون إذا نحن صدقناهم، ويفعلون كل ما بوسعهم من أجل أن نعارض قولهم؛ كي يثيروا الشكّ ويعلقوا كل حكم، إذ ذلك مرْماهم. فهم لا يؤكدون على آرائهم إلا لكي يحاربوا آراءنا. فإذا ما أنت تبنّيتَ وجهة نظرهم، يقومون للتوّ بمساندة وجهة النظر المعاكسة: فكل شيء لديهم لامبالاة، ولا تفضيل لديهم لهذا على ذاك. فإذا أنت أكدت على أن الثلج أسود، فسيسعون بالمقابل إلى البرهنة على أنه أبيض؛ لكن إذا أنت قلت إنه لا

(1) * أتباع الفيلسوف الإغريقي بيرون (360 ق.م تقريبًا - 270 ق.م تقريبًا).

بالأسود ولا بالأبيض، سيجهدون للبرهنة على أنه أبيض وأسود في الآن نفسه؛ وإذا صرحت أنك متيقّن أنك لا تعرف شيئًا فسيدافعون على أنك تعرف شيئًا. وحتى إذا ما صرحت بشكل قاطع أنك تشك في الأمر، فسيسعوْن إلى البرهنة على أنك لا تشك أبدًا، أو أنك لا يمكنك الإقرار بأنك تشكّ في ذلك. من ثم، فبهذا الشك البالغ الذي يسير إلى حدّ تحطيم أسسه الخاصة، نراهم يتميّزون وينفصلون عن العديد من وجهات النظر، ومن ضمنها تلك التي دعّمت بشكل أو بآخر الشك والجهل.

196. بما أن أولئك الذين يتّبعون مذهبهم يمكنهم أن يصرح أحدهم برأي وآخر بنقيضه، فلماذا لا يكون لهم هُم الحق في الشك؟ هل ثمة شيء يُطلب منك قبوله أو رفضه لا يمكن اعتباره شيئًا غامضًا؟ أما الآخرون فهم يتمايلون كما لو كانت تحملهم عاصفة، نحو المدرسة الإبيقورية أو الرواقية، من غير أن يقرروا ذلك أو يختاروه، بل أحيانًا قبل أن يبلغوا سنّ التبصّر، تبعًا لعوائد بلدهم أو بسبب التربية، التي تلقوا من آبائهم أو بفعل المصادفة، فيجدون أنفسهم ملتزمين بها ومستعبَدين، كما لو أنهم وقعوا في شَرَك لا يمكن أن يفلتوا منه: «**إنهم يتشبثون بمذهب كما بصخرة رمتهم عليها العاصفة**»[1]. فلماذا إذًا لا يُعتَرَف لهم بأنهم يحافظون على حرّيتهم، كي يتفحصوا الأشياء من غير إكراه أو عبودية؟ «**إنهم بالغو الحرية والاستقلال بحيث يملكون قدرة مطلقة في الحكم**»[2].

197. أليس من باب الامتياز ألا يكون المرء خاضعًا للضرورة التي تكبح جماح الآخرين؟ أليس من الأفضل أن يحتفظ بالأحرى برأيه على أن ينغمس في كافة الأخطاء التي أنتجها الخيال البشري؟ أليس من الأفضل أن يعلّق المرء معتقَده، على أن يخالط تلك الفصائل الانشقاقية والمتجادلة؟ فما الذي سأختار؟ ما يروق لك، فقط أن تكون أنت الذي يختار. ياله من جواب ساذج، لكنه جواب يبلغه مع ذلك كل منزع دوغمائي، هو الذي لا يسمح لنا بتجاهل ما نجهل. خذِ الطرف الأكثر شهرة، فلن تكون متأكدًا للدفاع عنه، أنَّ عليك أن تحارب عشرات الأطراف الأخرى المعارضة له. أليس

(1) Cicéron (15), II, iii.

(2) Cicéron (15), II, iii.

من الأفضل تفادي هذه الزحمة؟ وسيُسمَح لك أن تتبنّى، كما لو كان الأمر مسألة شرف، رأي أرسطو عن أزلية الروح، ومعارضة أفلاطون لذلك وتفنيده. له وهل سيكون محرّمًا عليهم هم أن يشكّوا في ذلك؟ إذا كان من الممكن لباناتيوس*[1] أن يخص حكمه عن المآسي والأحلام والتكهنات المقدّسة وغيرها من النبوءات التي لا يشك فيها الرواقيون أبدًا، فلماذا لا يجرؤ حكيم أن يتصرّف بخصوص كل شيء بالشكل نفسه الذي يتصرّف به باناتيوس بخصوص الأمور التي تعلّمها من شيوخه، والتي تم إرساؤها باتفاق عام في المدرسة التي يُعتبر تابعًا لها ومتعصّبًا لأفكارها؟

198. إذا كان طفل هو من يُطْلق بالحكْم، فهو لا يعرف بم يتعلّق الأمر؛ أما إذا كان حكيم هو من يقوم بإصدار الحكم، فإن له أفكارًا مسبقة. لقد منح البيرونيّون لأنفسهم امتيازًا رائعًا في المعارك، بتخليهم عن حماية أنفسهم. فهم لا يهمهم تلقي الضربات، شريطة أن يضربهم خصومهم. وهم يستفيدون من كل شيء: فإذا كانوا منتصرين فمقترحك أعرج، وإذا كنت منتصرًا فمقترحهم هم أعرج. وإذا ما أخطأوا فهم يبرهنون على الجهل؛ وإذا ما أنت أخطأت، فأنت تبرهن على جهلك. وإذا ما دلّلوا على أن المرء لا يعرف شيئًا، فذلك أمر حسن. وإذا هم عجزوا عن التدليل على ذلك، فالأمر حسن أيضًا. «**بحيث إنهم وهم يجدون الأسباب المستحسنة للرأي والرأي المعاكس، يغدو من الأسهل الاحتفاظ بالحكم على هذا الأمر أو ذاك**»[2]. وهم يتباهون بالعثور على علة خطأ الشيء، أكثر من تباهيهم بالعثور على علّة كونه صحيحًا.

199. وإليكم طرائقهم في التعبير: «أنا لا أؤكّد شيئًا؛ فالأشياء ليست هكذا أكثر من كونها غير ذلك، أو أنها لا هذا ولا ذاك. أنا لا أفهم هذا. فالمظاهر هيَ هيَ في كل مكان. والرأيُ والرأيُ المعاكس هما الشيء نفسه. ولا شيء يبدو حقيقيًا إلا ويمكن أن يبدو خطأً»[3]. فشعارهم هو «**أحتفظ**

---

(1) * هو الفيلسوف الرواقي باناتيوس الرودسي (185 ق.م تقريبًا – 109/110 ق.م تقريبًا).

(2) Cicéron (15), I, 12.

(3) نقش مونتيني أغلب هذه الصيغ (باليونانية)، المستقاة من سيكستوس إمبيريكوس، على العوارض الخشبية لسقف مكتبته. ويمكننا أن نشاهدها اليوم (بعد ترميمها جزئيًا).

بحكمي، ولا أقرّر شيئًا».[1] تلك هي لازمتهم مع صيغ أخرى من الصنف نفسه. وما يحصلون عليه هو تعليق للحكم تامّ وكامل ومكتمل. وهم يستعملون عقلهم للمساءلة والنقاش، لا بهدف الاختيار والقرار. ومن يتصور اعترافًا دائمًا بالجهل، وحكمًا من غير نزوع أو ميل، في كل وقت وحين، فذلك الشخص يمكنه أن يتصور ما هو مذهب البيرونية. وأنا أستعرض طريقتهم في التفكير ما استطعت لذلك سبيلًا، لأن الكثيرين يجدون صعوبة في تصور ذلك المذهب، ولأن المؤلفين القدامى أنفسهم يقدمونه بشكل مبهم شيئًا ما وبتنويعات مختلفة.

200. أما أعمال الحياة اليومية، فهي تتمّ بشكل عاديّ. فهي تلائم النزوعات الطبيعية وتتكيّف معها، كما مع الغرائز وإكراهات الأهواء، وتدابير الشرائع والتقاليد الفكرية: **«ذلك أن الله شاء أن تكون لنا، لا معرفة الأشياء؛ وإنما فقط معرفة استعمالها»**[2]. إنها تنصاع للإرشاد في أعمالها الجارية بتلك الأشياء من غير حكم أو تحزّب. لهذا من الصعب عليَّ أن ألائم هذا التصوّر مع الصورة التي تُمنح لبيرون، الذي يقال عنه إنه بليد وغير منظّم، يعيش حياة متوحشة وغير اجتماعية، بحيث إنه لم يكن يتفادى حتى العربات التي تصدمه ولا المنحدرات، ويرفض الانصياع للقوانين. وذلكم جانب من المبالغة في مذهبه. فلم يرغب لا في بيت ولا في ذرّية، وإنما ظلّ فقط رجلًا يعيش ويفكّر ويتعقّل، يتمتّع بكافة الملذات والامتيازات، التي منحته إياها الطبيعة، مستخدمًا كافة مؤهلاته الجسمانية والروحية، تبعًا للقواعد المتعارَف عليها وباستقامة تامة. أما الامتيازات الخيالية والمفرطة والواهية، التي أراد الإنسان أن يتملّكها لتدبير الحقيقة وتنظيمها وإرسائها، فإنه رفضها عن طيب خاطر وتخلى عنها.

201. بل ليس ثمة من مدرسة لا تنتهي إلى أن تسمح «لحكيمها»، إذا ما هو رغب في أن يحيا، بأن يتوافق مع أشياء كثيرة، ليست مفهومة ولا معترف بها ولا مقبولة. فهو حين يقوم بالإبحار، يتّبع فكرته من غير أن يعرف إنْ

(1)Cicéron (15), I, 12.
(2)Cicéron (16), I, 18.

كانت الرياح مواتية له. إنه ينصاع لظروف افتراضية: هل السفينة جيدة؟ وهل الربان محنّك؟ والوقت هل هو ملائم للإبحار؟ وهو مضطر إلى أن يتظاهر، وأن ينصاع للمظاهر في حدود أنها ليست معاكسة لهدفه بشكل علني. إنه يملك جسدًا وروحًا: فالحواسّ تدفعه لمصيره والعقل يحركه. وحتى إن لم يجد في ذاته معيارًا شخصيًا ووحيدًا للحكم على الأشياء، وإذا ما قدَّر أنْ ليس عليه أن يشجّع قبوله، باعتبار أن الخطأ يمكن أن يشبه الحقيقة، فهو يسير بحياته بشكل كامل وبشكل رائق.

202. كم من الأنشطة الفكرية تقوم على التنبؤ لا على العلم؟ والتي لا تقرر في الحقيقي والخطأ، وإنما بالأحرى تتّبع ما يبدو بذهيًا؟ يقول البيرونيّون إن ثمة الحقيقي والخطأ، وثمة فينا ما يلزم للبحث عنه، لكن لا شيء لتقريره كما نفعل بحجر المحكّ[1]. ونحن لا نحس بأنفسنا إلا بشكل أفضل حين ننساق من غير بحث تبعًا لنظام الكون. إن نفسًا لا تملك أحكامًا مسبقةً، تجد نفسها ذات امتيازات تقودها على سبيل الطمأنينة. ومن يحكمون وينتقدون قضاتهم لا يقومون بذلك كما يجب. فكم هي العقول البسيطة قليلة الفضول وأكثر خنوعًا وأكثر انقيادًا للشرائع الدينية والسياسية، مقارنةً مع تلك العقول التي تراقب بنفحة تربوية الأمور الإلهية والبشرية.

203. ليس هناك من بين ما ابتدعه الإنسان أكثر واقعية ونفعًا من مذهب بيرون ذاك. فهو يبيّن الإنسان عاريًا وأعزل، معترفًا بضعفه الطبيعي، ومن ثم مستعدًّا لأن يتلقى من الأعلى بعض القوة الخارجية، محرومًا من المعرفة البشرية، ومن ثمَّ أكثر أهلية لكي يترك في ذاته مكانًا للمعرفة الإلهية، مُعدِمًا حكمه كي يترك المكان للإيمان. إنه مذهب يُبيّن الإنسان كشخص ليس بكافر، غير أنه لا يشهر أي عقيدة منافية للشرائع، والقواعد المتواضع عليها، كإنسان متواضع ومطيع وقادر على ضبط نفسه، ومثابر وخصم لدود للهرطقة، ومن ثم في مأمن من الآراء اللادينية التافهة، التي تدعو لها المدارس الضالة. إنه مثل الورقة البيضاء المهيّأة لأن يطبع عليها الله الصورة التي يريد أن ينقشها عليها. فكلما أسلمنا أنفسنا لمشيئة الله كلما أوكلنا له أمرنا، وكلما تخلينا عن أنفسنا كلما كبُر

(1) قطعة من حجر الهلب كانوا يختبرون بها الذهب والفضة.

قدرنا. جاء في سفر الجامعة: **«خُذ القسط الأكبر من الأشياء كما تأتي إليك، بوجهها ومذاقها، يومًا بعد يوم؛ أما الباقي فيفوق ما يمكن أن تعرف»***[1]. **«الربّ يعرف أفكار الإنسان أنها باطلة »**.[2]

204. ها هما إذًا مدرستان من بين المدارس الفلسفية الثلاثة تدعو للشك والجهل بشكل معلن، وفي الثالثة، التي هي مدرسة الدوغمائيين[3]، من السهل أن نرى أن أغلبهم تظاهروا باليقين فقط حتى يكون لهم مظهر أفضل. فهم لم يهتموا بأن يُرْسوا لنا يقينًا معيّنًا، بقدر ما اهتمّوا بأن يبيّنوا لنا، إلى أي حدّ ساروا بعيدًا في عملية صيْد الحقيقة هذه: **«العلماء يفترضون أكثر مما يعرفون»**.

205. حين كان على تيمايوس أن يُعلِم سقراط ما يعرفه عن الآلهة والعالم والناس، اقترح أن يتحدّث عن ذلك كما يمكن أن يقوم به أي شخص، ورأى أن ذلك كافٍ، باعتبار أن شروحه معقولة مثلها مثل شروح أي شخص آخر، لأن الشروح الحقيقية ليست في متناول يده ولا في متناول أي بشر. وذلك ما حاكاه أحد تلامذته يقول: **«سأقوم بالتوضيح ما وسعني ذلك. لكن وأنتم تنصتون لي، لا تعتقدوا أنكم تسمعون أبولون على منصّته، ولا تأخذوا ما أقول كأنه قصص حقيقية. أيها الفنانون الضعفاء، أنا أسعى بالتكهنات إلى أن أكتشف المعقول»**[4]. وهو قال ذلك عن مقت الموت، وهو موضوع طبيعي وفي متناول الجميع. وفي مكان آخر، ترجم ذلك مستعيدًا عبارات أفلاطون نفسها: **«إذا ما لم أستطع، وأنا أتحدث عن طبيعة الآلهة وأصل العالم، أن أبلغ المرام الذي استهدفت، فلا تندهشوا؛ فلتتذكروا أني أنا الذي يخاطبكم وأنتم الذين تحكمون، نحن بشر. وإذا لم أقل إلا أشياء محتملة فلا تطلبوا مني شيئًا آخر»**[5].

---

(1) * هذا الاقتباس غير موجود في الكتاب المقدس، ولا في ترجمته اللاتينية التي اعتمد عليها مونتيني.

(2) * مزمور 94: 11. وإحالة المحقق خطأ.

(3) لنتذكّر أن الأمر يتعلق لدى مونتيني بالمشائين والإبيقوريين والرواقيين، وكل من «اعتقدوا أنهم عثروا على الحقيقة».

(4) Cicéron (21), I, 9.

(5) يستخدم مونتيني هنا الترجمة (غير التامة) التي قام بها له شيشرون، محاورة «تيمايوس»، الفصل الثالث.

206. يمطرنا أرسطو عادة بالعديد من الآراء والمعتقدات المختلفة كي يعارضها برأيه ومعتقده ويبيّن لنا كيف أنه راح بعيدًا، وكيف أنه قارب كثيرًا المعقول الممكن. لا يمكننا في الواقع أن نحكم على الحقيقة تبعًا لسلطة الآخرين وشهاداتهم. لهذا تفادى إبيقوروس بحرْص أن يضمّن كتاباته الآراء الأجنبية عنها. أرسطو «أمير» الدوغمائيين، ومع ذلك فهو من يعلّمنا أن العلم البالغ يؤدي إلى الشكّ أكثر. ونحن نلفيه غالبًا يغلّف نفسه بشكل إرادي بغموض كثيف، لا يمكن فكه، بحيث من المستحيل تلمسّ رأيه الشخصي. إنه بشكل ما ضرب من «البيرونية» في صورة توكيدية.

207. إليكم ما يقول شيشرون الذي يفسّر لنا رأي الغير برأيه: «إن من يرغبون في معرفة ما نفكر به شخصيًا عن كل شيء يدفعون بفضولهم بعيدًا. فهذا المبدأ الفلسفي الذي يتمثّل في الجدل في كل شيء، من غير الحسم في أي شيء، الذي أقامه سقراط واستعاده أركسيلاوس وأكّده كارنياديس - لا يزال قائمًا إلى يومنا هذا. ونحن من بين من يقول إن الخطأ يمتزج بالحقيقي، وأنه يشبهه كثيرًا، إلى حدّ أنْ ليس ثمة من علامة تمكّن من الحكم أو الحسم بيقين تامّ في ذلك».

غموض الفلاسفة

208. لماذا يُعتبر أغلب الفلاسفة -لا أرسطو فقط- عسيري القراءة، إذا لم يكن ذلك للإعراب عن غرور موضوعهم، وإثارة فضول عقولنا، مانحين إياه هذا العظم المجوَّف والخالي من اللحم للقضم؟ كان كليتوماخوس يؤكّد أنه وهو يقرأ كتابات الفيلسوف كارنياديس لم ينجح في فهم رأي المؤلف. لماذا تفادى إبيقوروس السهولة في مصنّفاته، ولماذا نُعت هيراقليتوس «بالمعْتم»؟ الغموض وسيلة يستعملها الحكماء مثل أولئك الذين يمارسون ألعاب الحيل في الأسواق، كي يُخفوا ضعف علمهم، الذي تكتفي به البلاهة البشرية بشكل كبير.

«جعلته لغته الغامضة مشهورًا لدى اليونان[1]
خاصةً لدى البلهاء، الذين يفضلون ما ليس واضحًا
والذي يعتقدون فهمه في لغة ملغزة»[2].

209. يُعيب شيشرون على بعض صحْبه أنهم كرّسوا وقتًا لعلم الفلك والقانون والجدل والهندسة أكثر مما تستحق هذه العلوم. كان يقول: إن ذلك يصرفهم عن واجبات الحياة وهي لهم أشرف وأكثر ضرورة. كان الفلاسفة القورينيون (الليبيون) يزدرون علم الطبيعة كما الجدل. وقد صرح زينون في بداية «جمهوريته» أن فنون الحرب كلها كانت غير ذات جدوى.

210. كان خريسيبّوس يقول: إن أفلاطون وأرسطو قد كتبا عن المنطق، وهما قد كتبا عن ذلك من باب اللعب وكتمرين فقط، وهو لم يصدّق أنهما تناولا بجدّية مبحثًا نافلًا من قبيل ذلك. ويقول بلوتارخوس الشيء نفسه عما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا)، وكان إبيقوروس سيقول الشيء نفسه، عن البلاغة والنحو والشعر والرياضيات، وكافة العلوم الأخرى إلا الطبيعة. يرى سقراط الشيء نفسه عن كافة العلوم، إلا علوم العوائد والحياة. فمهما كان الأمر الذي نتساءل بصدده، كان دومًا في المقام الأول يعود بالشخص الذي يسائله إلى الحديث عن الطريقة التي عاش بها، والتي يعيش بها، وذلك ما كان يقوم بتفحّصه والحكم عليه، معتبرًا أن كل شيء آخر يمكن أن نتعلمه أمر نافل وثانوي. «**لا تهمني تلك الثقافة التي لا تجعل من يملكها شخصًا فاضلا**»[3].

211. لقد ازدرى العلماء أنفسهم أغلب ميادين العلم والمعرفة. لكنهم لم يعتبروا خروجًا عن السياق أن يُزْجوا وقتهم ويُلهوا عقلهم، بتطبيق ذلك على أشياء لا تمنحنا أي صلابة مفيدة. وقد اعتبر البعض أفلاطون دوغمائيًا، وآخرون شكّيًا، وآخرون اعتبروا أنه كان دوغمائيًا

(1) يتعلق الأمر بهيراقليطوس.

(2) Lucrèce (47), I, 639-41.

(3) هذا الشاهد مستقى من :سالوستيوس، [87]، LXXXV.

بخصوص بعض الموضوعات، وشكيًا في أخرى. وسقراط الذي يسيّر محاوراته، يجهد دومًا في إثارة النقاش، ويعمل على عدم إيقافه. فهو لا يكون راضيًا أبدًا، ويقول: لا علم لديه غير المعارضة بالرّدود.

212.لقد منح هوميروس، المؤلف المفضّل لدى القدماء، الأساس لكافة المدارس الفلسفية، جاعلًا إياها كلها على قدم المساواة، وموضحًا مدى لامبالاته بالطريق التي يمكن أن يختار كلٌّ منها. يُقال: إن أفلاطون قد ألهم ست مدارس فلسفية مختلفة. لهذا لم تكن ثمة -في رأيي- أبدًا تعاليم فلسفية أكثر ترددًا ولا أقل دوغمائية من تعاليمه. كان سقراط يقول: إن النساء القابلات حين كنّ يخترن مهنة توليد الأخريات، كنّ يتخلّين عن الولادة بأنفسهن؛ وأنه هو حين تلقى من الآلهة لقب «الرجل الحكيم»، تجرّد جسمانيًا وذهنيًا من ملكة الإنجاب. كان يقول إنه يكتفي بالمساعدة، وبإنجاد اللواتي يلدن؛ بتهيئة أعضائهن، وشحذ هممهن وسلوكهن، ميسّرًا لهن عملية الوضع، وبتقويم حيوية الوليد، وبتسميته وإرضاعه وتقْميطه وختانه، وبتقوية ذهنه أمام مخاطر الآخرين.

213.وحال أفلاطون لا يختلف عن أغلب مؤلفي هذا النمط الثالث[1]، كما لاحظ ذلك القدماء في كتابات أناكساغوراس، وديموقريطوس، وبارمينيدس، وكسينوفانيس وغيرهم: فهم لديهم طريقة شكّية في مراميها كما في شكلها، بحيث إنها تسائل أكثر مما تطلق التعاليم، بالرغم من أنهم يدرجون في كتاباتهم أحيانًا ملامح دوغمائية. ألا نقف على ذلك أيضًا لدى سينيكا وبلوتارخوس؟ ألا يقدمان لنا لمن يتفحص كتاباتهما عن قربتارةً وجهًا، وتارةً أخرى وجهًا مغايرًا؟ وأولئك الذين يسعون إلى خلق التناغم بين نصوص المشرّعين، عليهم أن يبدؤوا بأن يجعلوا كل واحد منهم في تناغم مع نفسه. ويبدو لي أن أفلاطون، إذا كان قد أعجبته هذه الطريقة في التفلسف من خلال الحوارات، فذلك لأنها تسمح له بالعرض الأيْسر ومن خلال أفواه كثيرة لاختلاف الفكر وتنويعاته.

(1) أي «الدوغمائيين»، بالرغم من أن النص ليس واضحًا بما فيه الكفاية هنا.

214. إن تفحُّص المشكلات من زوايا متعددة يعني عرضها بشكل مماثل، بل بشكل أفضل من عرضها من زاوية نظر واحدة، إذ يعني هذا القيام بذلك بشكل أكْمل وأفْيد. لنأخذ مثالًا من أيامنا هذه: تشكل مراسيم العدالة الدرجة النهائية للخطاب الدوغمائي القاطع. ومع ذلك فإن المراسيم التي تقدمها مجالسنا التشريعية للشعب باعتبارها الأكثر أنموذجية، والأكثر قابلية لأن تثير فيه الاحترام الذي عليه أن يفصح عنه لها، بالنظر للقدرات الهائلة لمن يطبقونها، تلك المراسيم تمتح جمالها، لا من نتيجتها، التي يعتبرها أولئك الناس تافهة ومعتادة لدى كل قاضٍ؛ وإنما من النقاش ومواجهة وِجْهات النظر المتنوعة والمتناقضة أحيانًا، التي تقبل بها الممارسة الحقوقية.

215. والحقل الأوسع الذي ينفتح أمام نقّاد فلاسفة مدرسة ما مقابل مدارس أخرى، ينبع من التناقضات التي يجد كل فيلسوف نفسه محشورًا فيها، إما بشكل إرادي لكي يبيّن كيف أن العقل الإنساني يتعرض للتذبذب في كل الظروف، وإما بسبب جهله للتقلّبات والغموض المتأصّل في الأشياء.

216. ما الذي تعنيه هذه اللازمة الشعرية[1]: **«لنتركْ معتقدنا في المكان المنزلق والمتغير»**، سوى ما قاله يوريبيديس:

«مخلوقات الله بأشكال متعددة
تتركنا فاغري الفاه من الدهشة»[2].

ذلك ما كتبه أمبيدوقليس هو أيضًا، كما لو كان يحركه في ذلك غضب إلهي، ومُكرهًا على قول الحقيقة: «**لا، لا، نحن لا نحسّ شيئًا، ولا نرى شيئًا، فكل الأشياء متوارية عنا، وليس من بينها شيء يمكننا أن نقول بيقين ما هو**»[3]. وهو أمر يذكّر بالكلمة الإلهية: «**أفكار الفانين خجولة، وابتداعاتنا وتوقعاتنا غير موثوق بها**»[4]. ليس من المدهش إذا كان ثمة أناس، ومن غير أن ينتظروا التوصّل إلى شيء محدّد، قد وجدوا لذةً في

(1) Plutarque (78), XLVII, f°348.

(2) هذان البيتان مستقيان من بلوتارخوس [78]، وأيضا XLVII, f°348 (من غير إحالة ليوريبيديس).

(3)In Cicéron (15), **Seconds Académiques**, I, xii, 44.

(4) Lire de la Sagesse, IX, 14.

عملية الصيد هذه، فالدراسة في حدّ ذاتها انشغال ممتع. إنها من اللذة بحيث إنّ من بين الشهوات التي يحرّمها الرواقيون تلك التي تنبع من الاشتغال بأمور العقل، بحيث إنهم يسعون لكبحه؛ إذ يعتبرون أن من الغلوّ الإفراط في المعرفة.

217. حين أكل ديموقريطوس حبات تين لها رائحة العسل، بدأ يبحث ذهنيًا من أين أتته تلك العذوبة غير المنتظرة. ولكي يستوْضح الأمر ترك المائدة وراح لرؤية الطبق الذي وُضع عليه التّين. وبما أن خادمته أدركت سبب وقوفه، قالت له ضاحكة: أنْ ليس عليه أن يقلق لذاك الأمر، لأنها هي التي وضعت حبات التين في وعاء كان به عسل. فغضب ديموقريطوس لأنها ضيَّعت عليه فرصة البحث والتقصيّ، وأطفأت فضوله المعرفي. فقال لها: «روحي، لقد أغظْتني؛ لكني لن أتخلى مع ذلك عنه البحث عن علّة ذلك، كما لو كان الأمر يتعلّق بعلّة طبيعية». ولا شك في أنه عثر على علّة حقّة لهذا الحدث الخيالي والخطأ.

218. إن هذا المثال عن فيلسوف كبير وشهير يوضح جيدًا الولع المثابر الذي يدفعنا إلى متابعة أشياء نيأس من بلوغها. يحكي بلوتارخوس قصة مشابهة لذلك: وهي قصة شخص لم يكن يرغب في أن تُفَسَّر له الأمور التي يشك فيها، حتى لا يفقد لذّة البحث عنها. وكذلك حال ذلك الشخص الآخر الذي لم يكن يرغب في أن يحرمه طبيبه، من التغيُّر الحاصل له بسبب الحمّى، حتى لا يفقد اللذة التي أحسها وهو يهدّئ منها بتناول الخمر. «الأفضل تعلُّم الأشياء النافلة من ألا نتعلّم أي شيء بتاتًا»[1].

219. اللذة التي نحسها في الطعام تكتفي بذاتها، وكل طعام رائق ليس بالضرورة مغذِّيًا ولا صحيًّا. كذلك ما تمتحه عقولنا من العلم لا يخلو من ملذة، غير أنه ليس طعامًا وليس مفيدًا للصحة.

220. إليكم ما يقول الفلاسفة: «إن ملاحظة الطبيعة غذاء ملائم لعقولنا؛

(1)Sénèque (96), LXXXVIII.

فهي تسمو بنا وتوفر لنا سبل الراحة بجعلنا نزدري الأشياء الوضيعة والدنيوية، لأنها تقارنها لنا بالأشياء العلوية والسماوية. والبحث عن الأشياء السامية والغيبية أمر ممتع، حتى لمن لا يخرج منها إلا باحترام وجِل ويخشى الحكم عليها». إنها الكلمات التي يستعملون في إعلان مذهبهم. بيْد أن صورة الفضول المرَضي من هذا النوع نجده أفضل في المثال التالي، الذي يتردّد كثيرًا على أفواههم ويجعلون منه شعارًا لهم: كان يودوكسوس*[1] يتمنى أن يرى ولو مرة واحدة الشمس عن قرب، ويعرف شكلها وحجمها وجمالها حتى لو احترق لتوّه؛ وكان يبتهل للآلهة لأجل ذلك. كان يرغب في أن يضحي بحياته ثمنًا لمعرفة سيُحرم منها للتوّ. وكان مستعدًا من أجل هذه المعرفة المفاجئة والزائلة، أن يفقد كافة المعارف التي يملك، ويتخلى عن تلك التي يمكن أن يكتسب فيما تبقى له من حياته.

221. لست مقتنعًا حقًّا بأن إبيقوروس وأفلاطون وفيثاغوراس قد منحونا بسذاجة «ذراتهم» و«أفكارهم» و«أعدادهم». فقد كانوا من الحكمة بحيث لا يمكنهم أن يعتبروا أشياء غير يقينية وقابلة للنقاش مُعتقدات إيمانية. لكن كل واحد من هذه الشخوص العظيمة قد جهَد في الظلام والجهل في أن يحمل قَبَسًا من نور. وهم كرّسوا عقولهم لابتكارات لها على الأقل مظهر لطيف وممتع ويمكنها أن تعزّز التناقض، حتى لو كانت خطأً. «عبقرية هؤلاء الفلاسفة هي التي ابتدعت هذه الأنظمة، لا معرفتهم»[2].

222. أحد القدماء، ممَّن عيب عليه أن يتباهى بالفلسفة فيما لا أثر لذلك في أحكامه، أجاب بأن التفلسف يكمن في ذلك. فالفلاسفة أرادوا تفحّص كل شيء ومناقشة كافّة الأمور، ووجدوا أن هذا الانشغال ملائم تمامًا لفضولنا الفطري. وقد كتبوا عن بعض الأشياء التي تهم الحياة العمومية كالديانات؛ ومن المفرح تبعًا لذلك أنهم لم يريدوا تشريحها كليَّةً؛ حتى لا يثيروا الفِتَن في الخضوع للشرائع والقوانين والعوائد في بلدانهم.

(1) * هو الفلكي الإغريقي يودوكسوس الكنيدوسي (408 ق.م تقريبًا – 355 ق.م تقريبًا).
(2)Sénèque Le Rhéteur, **Suasoriae**, IV, 3.

223. يتناول أفلاطون هذه المسألة من غير أن يخفي لعبته. فحين يكتب بشكل شخصي، نراه لا يثبت أي شيء بشكل قاطع. لكن حين يريد لنفسه أن يكون مُشرِّعًا يستعمل أسلوبًا سلطويًا وآمرًا، ويمزج بحديثه بجسارة بِدَعه الأكثر غرابة، المفيدة لإقناع الجمهور لكن السخيفة مقارنةً مع فكره. ونحن نعلم إلى أي حدّ نحن قادرون على قَبول كافة الآراء، وخاصةً منها الأشد غرابة والأكثر شذوذًا.

224. لهذا فهو في كتاب «الشرائع»، يحرص على ألا تُقال بشكل علني إلا الأشعار التي تنتهي حكاياتها الخيالية إلى عبرة مفيدة. فمن السهل نفث صور خيالية في أذهان الناس بحيث من الأجدى منحهم الأكاذيب المفيدة، على منحهم أكاذيب غير مفيدة أو مضرّة. وهو يقول بكل بساطة في كتاب «الجمهورية»: إن من الضروري القيام بخداع الناس لأن ذلك في صالحهم! ومن السهل أن نستنتج أن من بين المدارس الفلسفية، تابعت بعضها الحقيقة فيما تابعت الأخرى المنفعة؛ وأن هذه الأخيرة هي التي عرفت الشهرة لذلك السبب. إنها مأساة قَدرنا، فغالبًا ما أنَّ ما يبدو لعقولنا الأكثر حقيقةً، لا يبدو لوجودنا الأكثر نفعًا. والمدارس الأكثر جرأة كالمدرسة الإبيقورية والبيرونية والأكاديمية الجديدة، مضطرة لأن تخضع للقانون العام في نهاية المطاف.

225. ثمة موضوعات أخرى مرّرها الفلاسفة في غربالهم، بحيث سعى كل واحد يمينًا وشمالًا إلى أن يمنحها مظهرًا مقبولًا سواء كان مبرَّرًا أمْ لا. وبما أنهم لم يجدوا شيئًا مخفيًّا لا يرغبون في الحديث عنه، عمدوا في الغالب إلى صوْغ تكهّنات هشّة وجريئة، لا ليتخذوها هم أنفسهم أساسًا ولا لإرساء حقيقة ما، وإنما لكي تكون لهم بمثابة الدُّربة في دراساتهم. «**يبدو أنهم كتبوا لا بدافع الاقتناع، بقدر ما كتبوا لتمرين عقلهم على صعوبة الموضوع**»[1].

226. ولو لم يكن الأمر كذلك، كيف لنا أن نقبل بآراء بهذا التنوّع وعدم الاتّساق

(1) Quintilien (84), II, xvii, 4.

كما تلك التي قدمتها لنا تلك العقول الممتازة والرائعة؟ مثلًا، هل هناك شيء لا طائل تحته أكثر من الرغبة في اكتشاف الله بتناظراتنا وتكهناتنا، وملاءمته مع العالم نفسه تبعًا لمقدراتنا وقوانيننا؟ أو أن نستعمل على حساب الله هذه العيّنة البسيطة من المعرفة التي شاء أن ينسُبها لطبيعتنا البشرية وبما أن من المستحيل أن نمدّ ببصرنا حتى عرشه المجيد، هل كان من الضروري مع ذلك أن نزجّ به في هذه الدنيا وفي فسادنا وبؤسنا؟

227. من بين كافة الآراء البشرية والقديمة المتعلقة بالدين، ذلك الرأي الذي يبدو لي أكثر وجاهة وأشدَّ تقعيدًا هو الذي يجد في الله جبروتًا غير قابل للفهم، يكون في أصل كافة الأشياء وفي ديمومتها، ويرى فيه طيبةً فائقةً، وكمالًا تامًا، يتقبّل عن طيب خاطر تمجيد بني البشر واحترامهم، في أي وجه، وبأي اسم، وفي أي صورة كان ذلك.

«يا يوبيتر ذا الجبروت، يا أب جميع الأشياء وأمها وكافة الملوك والآلهة»[1].

228. هذا الحماس الكوني نظرت إليه السماء بعين الرضا. كل المدن استفادت من إخلاصها؛ والكفار حصلوا في كل مكان على المصير الذي يستحقون، ومعهم أعمالهم. وكتب الوثنيين، تعترف في خرافاتها التي هي ديانتها، بالكرامة والنظام والعدل، وأن ثمة معجزات ونُبوءات أرسلت إليهم لمصلحتهم ولإرشادهم. فالله برحمته الواسعة يتفضّل أحيانًا عبر هذه السّمات الدهرية بتعزيز المبادئ الأولية لمعرفة مباشرة وفجّة يمنحها لنا عنه العقل البسيط من خلال الصور الوهمية لأحلامنا. والتصورات الخيالية التي يكوّنها الإنسان نفسه، ليست فقط خطأً وإنما كافرة ومُشينة. ومن بين كافة الديانات التي كانت تُبجّل في أثينا، اعتبر القديس بولس أن التي يمكن الغفران لها لدى اليونان، هي تلك التي ربطوها بإلهٍ خفيٍّ ومجهول[2].

229. قارب فيثاغوراس الحقيقة من كثب، معتبرًا أن معرفة العلّة الأولى، أي واجب الوجود بذاته، يلزم أن تظل غير متحدّدة من غير وصف أو تحديد،

(1) Valerius Sorianus, in saint Augustin (8), VII, 11.

(2) Actes des Apôtres, XVII, 23.

وأنها ليست سوى مجهود خيالنا الناحي نحو الكمال، وكل واحد يوسّع من الفكرة حسب إمكاناته. لكن أراد الملك نوما بومبيليوس أن يطابق ديانة شعبه مع هذا التصور، وحين أراد أن يجعل منه ديانة ذهنية خالصة، من غير موضوع محدّد ومن غير عناصر مادّية، كان ذلك ضربًا من الجَهد الذي لا طائل تحته: فالعقل الإنساني لا يمكنه أن يظل في هذا اللامتناهي من الأفكار غير المحدَّدة الشكل، بل هو بحاجة إلى تكثيفها في تمثيلات، تكون على صورته. لقد انصاعت الذات الإلهية للتحديد في حدود جسمانية: وأسرارها المقدّسة الخارقة والسماوية تحمل بصمات قدر الإنسانية؛ وعبادتها تعبر عن نفسها بشعائر وكلام له معنى لنا، ذلك أن الإنسان هو الذي يؤمن ويصلي ويبتهل. وأنا أترك جانبًا الدلائل الأخرى التي يتم تقديمها بهذا الصّدد؛ لكن سوف يجد الناس صعوبة في جعلي أصدّق أن رؤية الصليب واللوحات التي تمثل عذابه الفظيع، والزخارف والحركات الاحتفالية في كنائسنا والأناشيد التي تُكرَّس لعباداتنا الذهنية، وتلك العواطف التي نبعث بها بحواسنا -أن يجعلوني أصدق -كما قلت- بأن كل هذا لا يثير في نفوس الشعوب عاطفةً دينيةً تكون آثارها مفيدة.

صورة الله

230. لو كان علينا أن نختار بين الآلهة التي مُنحت لها أجسام تبعًا للضرورة البشرية، ووسط الهباء الكوني، فأنا أعتقد أني سأكون من بين أولئك الذين سيعبدون الشمس[1]=

«...النور المشترك
عين الله؛ وإذا كان الله يحمل في رأسه عيونًا
فأشعة الشمس عيونه المشعّة
هي تمنح الحياة للكل، تمسك بنا وتنظر إلينا
وأعمال البشر في هذه الدنيا تنظر
هذه الشمس البهيّة العظيمة، التي توالي لنا الفصول

(1) نلاحظ هنا أن مونتيني يستدعي مؤلفًا معاصرا، لا مؤلفًا يونانيًا أو رومانيًا.

حسب دخولها وخروجها من البيوت الاثني عشر[1]
والتي تملأ الكون بفضائلها المعروفة
والتي بلمحة من عينيها تبدّد الضباب والسحاب
روح العالم ونفْسه حارة وملتهبة
بعظمة هائلة كروية ورحّالة وصلبة
وتجعل باقي الأشياء تخومًا لها
في راحة من غير راحة، وفي خمول من غير خمول
البنت البكر للطبيعة وأم النهار».

=خاصةً وعلاوةً على أن هذه العظمة وهذا البهاء الملازمين لها، أنها القطعة الأبْعد منا في هذه الترسانة السماوية، وهي من ثم الأقل معرفة، بحيث يمكن أن نعذرهم إن هم كانوا معجبين بها ويكنون لها بالغ التبجيل.

231. كان طاليس، وهو أول من طرح على نفسه هذه الأسئلة، يعتبر أن الله روح خلقت كل شيء انطلاقًا من الماء. أما أناكسيماندروس فقد اعتبر أن الآلهة تولد وتموت تبعًا للفصول، وأن ثمة عوالم بعددٍ لامُنته[2]. أما أناكسيمينيس فقد كان الهواء لديه هو الله، مخلوقًا وشاسعًا ومتحركًا على الدوام. وكان أناكساغوراس الأول الذي دافع على أن طريقة وجود كافة الأشياء وتنظيمها، كانت صادرة عن قوة وفكر روح لانهائية.

232. وقد جعل ألكمايون الكروتوني من الشمس والقمر ومن الكواكب آلهة. أما فيثاغوراس فقد جعل من الله روحًا حاضرًا في طبيعة كافة الأشياء، وعنه انفصلت أرواحنا. واعتبر بارمينيدس الله عبارة عن دائرة تحيط بالسماء، وتُسْند العالم بحرارة النور. واعتبر أمبيدوقليس العناصر الأربعة[3]، التي منها تتكون كل الأشياء، آلهة. وصرّح بروتاغوراس أنه ليس له ما يقوله عن الآلهة، هل هي موجودة أو لا، ولا ما هي بالضبط. ويعتبر ديموقريطوس أن الآلهة هي تارة الكواكب وثوراتها، وتارة هي الطبيعة التي تحرّك تلك الكواكب التي هي إلهية، أو أيضًا هي معرفتنا وعقولنا.

(1) في علم الفلك، «البيوت» هي مناطق السماء التي تقابل الأبراج الاثني عشر، التي يبدو أن الشمس تمر بها سنويًا.
(2) تعدد العوالم يجد مكانه في ما وصلنا من فكر أنكسماندريس.
(3) الماء والهواء والتراب والنار.

233. يمنح أفلاطون وجوهًا متعددة لمعتقده. ففي محاورة «تيمايوس» يقول:إنّ أبا العالم لا يمكن تسميته. وفي كتاب الشرائع يقول ليس علينا البحث عما هو. وفي أمكنة أخرى في هذين الكتابين نفسيهما، يعتبر آلهةً السماء والكواكب والأرض وأرواحنا؛ وهو يتقبَّل فضلًا عن ذلك، الآلهة التي كرستها التقاليد في كل واحدة من المدن. ويُبين كسينوفون عن تنويعات مماثلة في تعاليم سقراط الذي يصرح حسْبه تارةً أن ليس علينا البحث عن معرفة صورة الله، وتارةً أن الشمس هي الله وأن الروح أيضًا هي الله، وتارةً أخرى أنْ ليس ثمة إلا إله واحد، وأخرى أن الآلهة كثيرة. أما سبيوسيبّوس ابن أخت أفلاطون فيقول: إن الله هو قوّة معينة تتحكّم في الأشياء وأنها تتمتع بالحياة.

234. يعتبر أرسطو أن الله تارةً هو الروح، وتارةً هو العالم؛ وتارةً يمنح لهذا العالم سيدًا آخر، وتارةً أخرى يجعل من حرارة السماء إلهًا. ويزعم زينوقراطيس أن ثمة ثمانية آلهة. الخمسة الأوائل منها تحمل اسم كواكب، والسادس يجمع كافة النجوم والثامن هو الشمس والقمر. أما هيراقليدس البُنطي فلا يقوم سوى بالتردد بين الآراء المختلفة، لينتهي إلى حرمان الله من الإحساس: فهو يجعله يتخذ تارةً هيئة، وأخرى هيئة أخرى، ثم يصرّح بأنه السماء والأرض. ويتردد **ثيوفراستوس**أيضًا بين عدة أفكار، ناسبًا تسيير العالم تارةً للفهم العقلي، وتارةً أخرى للسماء، وأخرى للنجوم. أما زينون فيعتبر أن القانون الطبيعي هو من يتحكّم في الخير ويحرّم الشر، وهذا القانون هو كائن حي؛ غير أنه يحذف الآلهة التقليدية كيوبيتر*[1] ويونو*[2] وفيستا*[3]. وأما ديوجينيس الأبولّوني[4]، فالهواء لديه هو الله.

235. جعل كسينوفانيس الله كرويًا متمتعًا بالرؤية وبالسمع، لكنه لا يتنفّس، ولا شبه له مع الطبيعة البشرية. ويعتبر أرسطون أننا لا يمكننا تصور هيئة الله، وأنه لا يتمتع بالحساسية، وهو يجهل إن كان كائنًا حيًا أو شيئًا آخر. أما كليانثس فالله لديه تارةً العقل، وتارةً العالم، وتارةً روح

(1) * رب الأرباب في الأساطير الرومانية.
(2) * ربة الزواج والإنجاب، وزوج يوبيتر في الأساطير الرومانية.
(3) * ربة للوقد والبيت والعائلة في الأساطير الرومانية.
(4) الملقب «بالفيزيائي» كان تلميذًا لثيوفراستوس. وقد خلف هذا الأخير على رأس مدرسته الفلسفية.

الطبيعة، وتارةً الحرارة القصوى، التي تحيط بكل شيء وتغلّفه. وقد زعم بيرْسيوس تلميذ زينون الكيتيومي أن اسم الآلهة يُطلق على من قدموا للحياة البشرية شيئًا مفيدًا خصوصيًا، كما على تلك الأشياء المفيدة نفسها. وكان خريسيبّوس يجمع بشكل فوضوي كافة الآراء السابقة عليه، ويدخل الناس الخالدين أيضًا، من بين الألف نوع للآلهة التي يقوم بابتداعها. أما دياغوراس[1] وثيودوروس[2] فقد أنكرا صراحةً وجود الآلهة. وأما إبيقوروس فقد تخيّل آلهة برّاقة وشفافة ونافذة للهواء، توجد بين قلعتيْن وبين عالمين في مأمن من الضربات، تتمتع بهيئة بشرية وأطراف كأطرافنا لا تصلح مع ذلك لشيء.

«اعتقدت دومًا أن الآلهة موجودة، وسأقول ذلك دومًا لكني أعتقد أنها لا تهتم بما يفعله الناس»[3].

236. ضعوا ثقتكم إذًا في الفلسفة! هل ستتباهون إذًا بالعثور على الإبرة في القشّ، وسط هذا الهرج والمرج للكثير من الأدمغة الفلسفية؟ لقد كان لفوضى العالم هذا الأثر في نفسي، بحيث إن الأفكار المختلفة عن أفكاري أتعلم منها أكثر مما أستهجنها، وتجعلني فخورًا، أكثر مما تهينني، حين أقارن بينها. وكل اختيار آخر لا يأتي من يد الله، يبدو لي غير ذي نفع. وأنا أترك هنا جانبًا العوائد المتوحشة أو المضادة للفطرة. فتكوين مختلف الدول لا يتعارض في هذا الموضوع أقلّ من المدارس الفلسفية، وذلك يبيّن لنا أن الصدفة نفسها ليست بأكثر تنوعًا وتغيّرًا من عقولنا، ولا أكثر عماءً وتهورًا.

237. الأشياء التي نعرف أقلّ هي تلك التي تتطلب أن نتحداها أكثر. من ثم، فأن نجعل من أنفسنا آلهة كما في القديم، أمر يبرهن على أمر أسوأ من ضعف كبير في التعقُّل. سأتبع بشكل أسهل من كانوا يعبدون الثعبان والكلب أو الثور، باعتبار أننا نعرف أقلّ طبيعتهم العميقة ووجودهم، وأن لنا أسبابًا كثيرة، لأن نتصور ما يعجبنا في تلك الحيوانات، ولأن ننسُب لها قدرات خارقة. لكن، أن نبتدع آلهة لها الشرط نفسه الذي

(1) دياغوراس الميلي الذي لقب «بالملحد» عاش حوالي 420 ق.م.

(2) ثيودوروس القوريني، الملقب أيضًا «بالملحد» كان تلميذًا وخلفًا لأريستبوس الصغير.

(3) Ennius, in Cicéron 16), II, 1.

لنا، والتي نعرف بالضرورة نواقصها، وننسب لها الشهوات والغضب والثأر والزواج والسلالة والقرابات والحب والغيرة وأطرافنا وعظامنا وحُمّانا وملذاتنا، فذلك يعود حقًّا لجنون باهر للفهم العقلي البشري.

«تلك الأشياء البعيدة عن الطبيعة الإلهية
التي لا تستحق أن توجد من بين الآلهة»[1].

238. «**نحن على علم بهيئاتها ولباسها وحليتها، وكذا بأنسابها وزواجها وقراباتها، وكل هذا يعود لصورة الضعف البشري؛ ذلك أن الناس ترسمها بنفوسٍ مفعمةٍ بالهوى، ولذا فنحن نفهم شهواتها وأساها وغضبها...**»[2]. وهكذا نُسبت الألوهية لا فقط للإيمان والفضيلة والشرف والوئام والحرية والنصر والورع، ولكن أيضًا للشهوة والاحتيال، والشيخوخة والبؤس، والخوف والحمى وسوء الحظ، وغيرها من الحوادث المؤسفة في حياتنا الهشّة والمهملة.

«ما الفائدة من إدخال عوائدنا للمعابد؟
أيتها النفوس المحنية نحو الأرض والمجرّدة من المعنى الإلهي!»[3]

239. كان المصريون يمنعون بحكمة عمياء كل شخص أن يقول إن سيرابيس وإيزيس كانا فيما مضى بشرًا، مع أن لا أحد كان يجهل هذا؛ وذلك تحت طائلة الشنق. وصورهما التي تظهرهما بإصبع موضوع على الفم كانت تعني، حسب فارو، ذلك الأمر السرّي لكهنتهما بأن يلزموا الصمت على أصلهما البشري الفاني، وإلا عطّل ذلك كل عبادة لهما.

240. لما كان الإنسان يرغب رغبةً عارمةً في أن يضاهي الله، فقد كان عليه، كما يقول شيشرون، أن يستمد منه الخصائص الربانية ويستجْذبها إلى الدنيا، على أن يرسل إلى الأعلى فساده بطرق مختلفة، ودومًا بالغرور نفسه.

---

(1) Lucrèce, (47), V, 123-24.

(2) حسب ترجمة إ. برهي، ضمن: الرواقيين (1)، ص. 434.

(3) Perse (70), II, 62 et 61.

الآخرة

241. حين ينبش الفلاسفة في تراتبية الآلهة، ويتسرّعون في تمييز تحالفاتهم ومهامهم وقوتهم، فأنا أعتقد أنهم ليسوا جادّين في الأمر. وحين يصف لنا أفلاطون حديقة بلوتون ونعيمها أو العذاب الذي ينتظرنا بعد الخراب وغياب أجسامنا، ويقوم بذلك بالطريقة التي نحس بها الأشياء خلال حياتنا.

«إنهم يختبئون في المسالك البعيدة، وغابة الآس
غلّفتهم، غير أن الغمّ والكرب يصاحبانهم في الممات»[1].

وحين يعد النبي محمد أتباعه بجنة مفروشة بالزرابي وبالنمارق والجواهر، وبها الحور العين اللواتي لا نظير لحسنهن، وأنواع الشراب والموائد المبثوثة، فأنا أرى هنا أفكارًا وأماني مسبوكة ملائمة لشهواتنا كأناس فانين، وعسَلًا لاستجذابنا، وخدعة على مقاس غبائنا. والبعض منا يكونون ضحايا خطأ مماثل، مُمَنّين النفس بعد البعث بحياة خالدة مصحوبة بكافة أنواع الملذات وألوانها من نعيم الدنيا. هل يمكن أن نصدّق أن أفلاطون، الذي كان ذا تصورات سامية وتواطؤ مع كل ما هو إلهي -إلى حدّ أن لقب «الربّاني» ظل لصيقًا به- قد اعتقد أن الإنسان، هذا المخلوق الضعيف، يملك في دواخله شيئًا يكون قابلًا لأن يتماهى مع تلك القوة غير المفهومة؟ وأنه ظنّ أن حصافة عقولنا ستكون كافية، وقوة حكمنا بالغة القوة كي تمكّننا من المشاركة في النعيم أو العذاب الأبديّن؟ علينا أن نقول له على لسان العقل البشري:

242. «إذا كانت الملذات التي تعدنا بها في الآخرة هي نفسها التي عرفتها هنا في الدنيا، فهذا أمر لا علاقة له باللامتناهي. ومع أن حواسي الخمسة ستكون مشبعة من اللذّة، وروحي ممتلئة بالسعادة التي تبتغي وتأمل، فنحن نعلم أن ما تقدر هي عليه ليس بالأمر الخارق؛ فإذا كان هناك شيء مني فلا وجود لشيء إلهي؛ وإذا لم يكن ثمّة إلا ما هو في متناول قدَرنا الإنساني، فذلك أمر غير محسوب. فسعادة البشر الفانين هي سعادة فانية. وإذا كانت فرحة

(1) Virgile (112), VI, vv. 433-34.

اللقاء من جديد بآبائنا وفلذات أكبادنا وصحْبنا، يمكن أن تدغدغ حواسنا بلذة في الآخرة، وإذا ما ظللنا نمنح القيمة للذةٍ كتلك، فإننا نبقى سجيني النعَم المحدودة للحياة الدنيوية. ونحن لا يمكننا أن نتصوّر حقًّا عظمة تلك الوعود الربانية السامية، إذا ما استطعنا تصوّرها بشكل من الأشكال. فلكي نتخيلها حقًّا، علينا أن نتخيلها غير قابلة للتصوّر وللقول وللفهم، ومختلفة إطلاقًا عما يمكن أن توفّره لنا تجربتنا البائسة». يقول القديس بولس: «العين لا يمكن أن ترى السعادة التي أعدّها الرب لمخلوقاته، وهو أمر لا يمكن أن يبلغ قلب الإنسان». وإذا كان علينا، لكي نستطيع ذلك، أن نصلح وجودنا ونغيّره -كما تقول ذلك يا أفلاطون «بعمليات تطهيرك»- فعلى هذا التغيّر أن يكون تامًّا ومن الحدّة والكمال بحيث إذا صدّقنا علوم الطبيعة، فإننا لن نكون نحن=

«كان ذلك هو هكتور يحارب في لجّة المعركة
لكن ما كانت خيول أخيلوس تجرُّ لم يكن هو»[1].

=وإنما كائنًا آخر سيتلقى أفضل الجزاء.

«التحوّل يؤدي إلى التحلُّل ومن ثم إلى الموت
لأن العناصر يتم تنقيلها وتحويلها»[2].

243. وإننا إذا قبلنا بمبدأ تناسخ الأرواح حسب فيثاغوراس، والهجرة التي تخيلها للأرواح، فهل سنعتقد أن الليث الذي تسكنه روح يوليوس قيصر، يعيش الأحاسيس نفسها التي كانت تعتمل في قيصر، وأن هذا الليث هو؟ وإذا كان هو، فإنهم على حقّأولئك الذين كانوا يحاربون تلك الفكرة لدى أفلاطون، ويؤاخذون عليه من ثمَّ أن ابنًا يمكنه أن يركب أمه، بما أن هذه الأخيرة لها جسم بغلة، وغيرها من السخافات! وهل يمكن أن نصدّق أن الناس الجدُد، ليسوا مختلفين عن سابقيهم في هذه التحولات، التي تتمّ بين أجسام الحيوانات من الجنس نفسه؟ يُقال[3]: إن طائر الفينيق يلد أولاً دودةً، تصبح بدورها طائر الفينيق. هل يمكن أن نتصوّر أن هذا الفينيق الثاني ليس فنيقًا مختلفًا عن الأول؟

(1) Ovide (63), III, 2, v. 27.
(2) Lucrèce (47), III, 756.
(3) Pline, **Hist. nat.** [77] X, 2.

فالدود الذي يصنع حريرنا، نراه يموت ويجفّ، وهذا الجسم تنجم عنه فراشة، وعن تلك الفراشة تصدر دودة قزّ أخرى، بحيث يكون من السخافة أن نعتبرها مثل السابقة. فما توقّف عن الوجود لا يعود موجودًا. بالرغم من أن الزمن يجمع مادّتنا.

«بعد الممات، هل نستعيد نور الحياة
واضعين إياه في نظامه الحالي
لا، فذلك لن يمسّنا أبدًا
لأن ذاكرتنا ستكون من حينئذٍ قد انكسرت»[1].

244. وحين تقول يا أفلاطون، في مكان آخر: إن الجزء الروحاني من الإنسان هو الذي سيحظى بمُتع الجزاء والنعيم في الآخرة، فأنت تقول لنا شيئًا يصعب كثيرًا جدًا أن يحدث=

· «وفعلًا فإن العين المنزوعة من باقي الجسد
مُقتَلعة من جذورها، لا يمكن أن ترى أبدًا»[2].

=ففي هذا السياق، ليس الإنسان ولا نحن من ثمَّ من سينعَم بتلك المتعة، إذ نحن مصنوعون من قطعتين أساسيتيْن، لا يؤدي الفصل بينهما إلا إلى الموت وتحطيم وجودنا.

«ذلك أن الحياة قد توقّفت، وحركات ما يكوّننا
تشتّتتْ في الهباء، خارج مدى حواسنا»[3].

نحن لا نقول إن الإنسان يتعذّب، حين يلتهم الدّود الأطراف، التي كان يستخدمها وهو حيّ، وأن الأرض تبتلعها.

«وهذا أمر لا يمسّ بنا، نحن الذين بوحدة
الروح والجسد نشكل كيانًا واحدًا»[4].

245. بل على أي أساس يمكن للآلهة أن تتعرّف على الإنسان بعد موته

(1) Lucrèce (48), III, 847 sq.
(2) Lucrèce (47), III, 563-564.
(3)Lucrèce (47), III, 860-861.
(4)Lucrèce (47), III, 857.

وتجازيه على أعماله الفاضلة والخيّرة، ما دامت هي التي نفثتها وغرستها فيه؟ ولِمَ ستستنكر الأعمال الشريرة وتنتقم منه؛ بما أنها هي التي وضعته في تلك الوضعية، التي أدّت به إلى الخطيئة، وأنها بحركة واحدة من مشيئتها كان يمكنها أن تمنعه من اقترافها؟ ألن يعارض إبيقوروس أفلاطون بهذه الأدلة بتظاهر كبير بالعقل الإنساني، لو أنه لا يتخفّى غالبًا خلف هذه العبارة القائلة إن «من المحال تقرير شيء يقينيّ يتعلق بالطبيعة الخالدة انطلاقًا من الطبيعة الفانية»؟ العقل لا يقوم إلا بحصر نفسه في أي مكان حلّ به، خاصة حين يحشر أنفه في الشؤون الإلهية. من الذي يحسّ بذلك أكثر منا نحن؟ فبالرغم من أننا منحناه مبادئ موثوقًا بها وسديدة، بحيث نحن نسدّد خطاه بالنور المقدس للحقيقة التي شاء الله أن يبلغنا إياها، فنحن نلاحظ يوميًا، حين نرى ذلك العقل ينزاح عن السبيل القويم، أو يتلافى السبيل المرسوم والمتّبع من قِبل الكنيسة، كيف أنه يضلّ ويحار، ويتعثّر ويدور على نفسه، ويطفو في هذا البحر المائج المتقلب للآراء الإنسانية، الجامحة والضالة من غير هدف. فحين يترك العقل السبيل المعتاد، يتوزّع ويتشتت ويتيه المئات من الطرق المختلفة.

246. يمكن للإنسان أن يكون ما هو، ولا يمكنه أن يفكر إلا حسب طاقته. وإنّه لادعاء كبير، كما يقول بلوتارخوس، أن يقوم من ليسوا سوى بشر، بالحديث والكلام عن الآلهة وأنصاف الآلهة. وهو أمرٌ أسوأ وأدهى من أن يرغب المرء الجاهل للموسيقى في الحكم على من يقومون بالغناء، أو شأن إنسان لم يشارك أبدًا في معركة حربية أن يرغب في النقاش في أمور السلاح والحرب، متخيلًا أنه يمكن أن يدرك بتكهّن مصْطنع الاشتغال بفنّ يفوق مقدراته.

247. لقد تخيّل أناس العصور القديمة، حسب اعتقادي، أنهم سيحلون مشكلة العظمة الإلهية واضعين إياها في المستوى نفسه من مرتبة الإنسان. فألبسوها لَبوس ملكاته ومقدراته الرائعة ونوازعه كما إكراهاته المخزية، ومنحوها طعامنا ورقْصنا وتهكّمنا ومستملحاتنا لتسليتها، ولباسنا لتدثّر به نفسها وبيوتنا لتسكنها، ونثروا عليها رائحة

بخورنا وأصوات موسيقانا وزينتنا وباقات ورودنا. ولكي عظمة الله مطابقةً لأهوائنا الشريرة، جعلوا من العدل الإلهي غضبًا ربانيًا، معتقدين أن الرب يكون راضيًا عن دمار وخراب الأشياء نفسها التي خلقها منذ القدم وحافظ علها. هكذا قدَّم تيبيريوس سيمبرونيوس، قربانًا للإله الروماني فولكانوس، بإحراق السلاح والغنيمة التي غنمها من أعدائه في سردينيا. وقد قام إيميليوس باولوس[1] بالشيء نفسه في مقدونية، تشريفًا للإلهيْن مينيرفا ومارس. أما الإسكندر الأكبر فحين بلغ المحيط الهندي، رمى فيه بأصصٍ كبرى، قربانًا للإلهة ثيتيس، وملأ مذابحها علاوة على ذلك بمجزرة كبيرة من الدواب البريئة، بل وحتى ببني البشر كصنيع العديد من الشعوب ومن بينها شعبنا[2]، التي كانت لها تلك العادة. بل إني أعتقد أن ليس ثمة من شعب لم تكن له.

«أمسك بثلاثة فتيان، وابن سولمونا*[3]
وأربعة آخرون تربّوا في أحضان أولفنس[4]
ليحرقهم في موطن الموتى ببالاس»[5].

248. يعتبر الجيتيون[6] أنفسهم خالدين، وأن الموت لديهم يتمثّل فقط في السير نحو إلههم زامولكيس. وكل خمس سنوات يبعثون بأحدهم إليه ليطلب منه أشياء ضرورية لهم. وهذا المندوب يتمّ اختباره بالقُرعة؛ والطريقة التي يُبعث بها بعد إخباره لفظاً بمَهمَّته، تتمثل في ثلاثة أشخاص وقوفًا برماح يطلقونها عليه بكامل قواهم. فإذا أصيب في مقتل ومات لتوّه، فذلك دليل على فضل الله؛ وإذا ما هو نجا يعتبرونه شريرًا ومكروهًا ويختارون عوضه شخصًا آخر يُضحّون به بالطريقة نفسها.

249. حين أخذ وَهن العمر مأخذه من أمستريس، أمّ خشايارشا، دفنت أحياءً، ومرة واحدة، أربعة عشر فتى من أفضل بيوت فارس على

(1) انتصر عام 168 ق.م على بيرسيوس ملك مقدونيا واتخذه أسيرًا. (انظر تيتوس ليفيوس، 33 ،XLV).
(2) أي الغاليين. فقد عُرف هذا الشعب أيضًا بتقديم القرابين البشرية للآلهة.
(3) بلدة إيطالية.
(4) لا نعلم إن كان الأمر يتعلق هنا باسم بشري أو باسم نهر.
(5) Virgile (112), X, 517-519.
(6) هم شعب من السكوثيين (يسميهم هيرودوتس «التراقيين») يعيشون على شط نهر الدانوب.

شرف إله سرّي، تبعًا لديانة البلد. واليوم لا تزال أصنام تينوختيتلان بالمكسيك مختومة بدماء الصبيان، ولا تحب قربانًا إلا قربان تلك الأرواح الطفولية والطاهرة. إنه عدل جشع للدم البريء:

«لقد ألهم الدين الكثير من الجرائم!»[1].

250. كان القرطاجنيون يقومون بإحراق أبنائهم قربانًا للإله ساتورنوس. ومن كان لا يملك ولدًا يشتريه، والأب والأم كانا مُلزمَيْن بشهود المراسم، متظاهرَيْن بالبهجة والحبور. كانت تلك فكرة غريبة أن يبتاع المرء النعمة الإلهية بالمصيبة، وهي الطريقة نفسها التي نهجها الإسبّرطيون الذين كانوا يداعبون إلههم ديانا بتعذيب الصبيان وجلْدهم حتى الموت. وتلكمْ حال نفسيةٌ عبثيةٌ أن يرغب المرء في استمالة المهندس الأعظم بتدمير بنيانه، وأن يرغب في تفادي الجزاء الذي يستحقه المجرمون بمعاقبة الأبرياء. وذلك كان حال إفيجينيا المسكينة التي أُحرقت في ميناء أوليس طلبًا لغفران الإله عن الكبائر التي قامت بها جيوش اليونان.

«ففي وقت بلوغها، محكومًا عليها بأن تظل عذراء سقطت المسكينة ضحية، وقد أحرقها أبوها نفسه»[2].

وما القول في تيْنك النفسين الجميلتين الكريمتيْن، ديسْيوس الأب والابن، اللذيْن لكي يستدرّا بركة الإله ساتورنوس على الشؤون الرومانية، رميا بنفسيهما وسط الأعداء؟ **«كم كان ظلم الآلهة كبيرًا؛ لأنها لم تبتغِ أن تسدل بركتها على الشعب الروماني، إلا بُقربان بشريّ من قبيل ذلك»**[3].

251. زيدي على ذلك أن المجرم لا ينبغي له أن يجلد نفسه على هواه. وحين يبتغي القيام بذلك، لا يأخذ القاضي بعين الاعتبار إلا العقاب الذي يتطلبه الحكم، ولا يعتبر عقابًا ما يمارسه الشخص على نفسه وعلى هواه. فالثأر الإلهي يفترض معارضتنا التامة لعدالته، وللحكم الذي خصّنا به.

(1) Lucrèce (47), I, 102.

(2) Lucrèce (47), I, 99.

(3)Cicéron (18), III, 6.

252. كانت فكرة بوليكراتس، الحاكم الطاغية لساموس سخيفة. فلكي يضع حدًّا للحظ الدائم الذي كان مصاحبًا له، ولأنه اعتقد بذلك أنه يستعيد للأمور توازنها، راح ليرمي في عرض البحر الدُّرة الأندر والأثمن التي امتلك، معتقدًا بذلك أنه سيغير مجرى مصيره، ويتغلب على تقلباته الضرورية. بيد أن القدَر ولكي يسخر من بلاهته، جعل هذه الدّرة تعود بين يديه، بعد أن تمّ العثور عليها في بطن سمكة. وما معنى الجراح وبتْر الأطراف التي كانت شائعة لدى الكوروبانتيين*[1] والميناديّات*[2]؟ وفي أيامنا هذه، ما دلالة الندوب التي يُكيلها المحمّديون لوجوههم ولصدورهم وأطرافهم ابتغاءً لمحبة نبيهم*[3]. بما أن التقصير في حق الله هو وليد الإرادة، لا الصّدر أو العينين أو الأعضاء التناسلية أو البطن أو الكتفين أو الحنجرة؟ **«مادام عقلهم مخبولًا وخارجًا عن طوره، بحيث يظنون أنهم سيهدئون الآلهة بمجاوزة قسوة الناس أنفسهم»**[4].

253. إن تنظيمنا الطبيعي لا يخصنا لوحدنا. فهو، بالطريقة التي نستخدمه بها، يتصل أيضًا بعبادة الإنسان لربه: من ثم لا يلزم المساس بذلك عنوةً، كأن نتقاتل لأي سبب كان. يبدو أن إثارة الاضطراب في الجسم وإعاقة قيامه بوظائفه مهما كانت بليدة ودونية؛ قصد جعل العقل يتفادى التحكّم فيه بشكل معقول هو ضرب من الخيانة الكبرى. **«فيمَ يخشى غضب الآلهة أولئك الذين يبتزّون هكذا فضلها؟ لقد أخصي رجال لخدمة شهوات الملوك؛ لكن لم يمسّ أحد نفسه بأذى للقيام بذلك، ولو أمره سيده بهذا الأمر»**[5].

254. كان الناس يمزجون بديانتهم العديد من الأشياء الفظيعة.

«... غالبًا أن الديانة نفسها

---

(1) * في الأساطير الإغريقية هم طائفة الراقصين المسلحين الذين كانوا يتعبدون للإلهة الفريجية كوبيلي بالرقص وقرع الطبول.

(2) * في الأساطير الإغريقية هن طائفة النساء المجذوبات اللاتي كن يعبدن الإله ديونيسوس، بطقوس يغلب عليها الهوس والجنون.

(3) * ربما يشير مونتيني هنا إلى طقوس التطبير لدى بعض الشيعة. وقد توهم أنها ابتغاء محبة النبي محمد، في حين تُعدّ تعبيرًا عن شدة الوجد لمصرع حفيده الإمام الحسين في معركة كربلاء (12 أكتوبر 680 م).

(4)Saint Augustin (8), VI, 10.

(5)Saint Augustin (8), VI, 10.

هي التي ولّدت أعمالًا آثمة وإجرامية»[1].

وهكذا فليس ثمة من تصرّف بشري يمكن أن يضاهي، في شيء، جانبا من جوانب الجوهر الإلهي، حتى لا يدنسه بنواقصه. فهذا الجمال وتلك القوة وذلك الخير اللامتناهي كيف يمكن أن يتحمل أن يضاهيه أو يشبهه شيء حقير كما نحن عليه، من غير أن يصيبه من ذلك ضرر أو انحطاط خارجيان؟ «**ذلك أن ضعف الله أقوى من ضعف البشر، وجنون الله أشدّ حكمة منهم**»[2].

255. حين سئل الفيلسوف ستيلبون عمّا إذا كانت الآلهة تبتهج للتشريف الذي نحفُّها به وللقرابين التي نمنحها لها، أجاب: «أنتم لا تستعينون على أموركم بالكتمان. إذا شئتم الحديث عن هذا الأمر لنتنحَّ جانبًا». لكننا مع ذلك نحن نرسم حدودًا لله، وقوتُه نشك فيها بتعقُّلنا باستمرار، لأننا نرغب في أن نستعبده للمظاهر السقيمة والتافهة لذكائنا، هو الذي خلقنا ومنحنا العقل. وأنا أسمي «استدلالات عقلية» أحلامنا وهواجسنا الزائلة، التي تُسندها الفلسفة، التي تقول إن الأحمق والشرّير نفسيهما يستعملان العقل وهما يُبينان عن حمقهما، غير أنه عقل من نوع خاص.

256. «بما أنْ لا شيء يمكن القيام به انطلاقًا من لا شيء، فإن الله لا يمكن أن يكون قد خلق العالم من عدم». فهل وضع بين أيدينا لذلك مفاتيح قوته؟ هل فرض على نفسه ألا يجاوِز حدود معرفتنا؟ لنسلِّمْ أيها الإنسان أنك استعطت أن تلاحظ هنا وهناك بعض الآثار لفعله: هل تعتقد أنه استعمل في ذلك كافة تصوّراته ومجمل أفكاره؟ ألا ترى نظام وتناسق هذا القبْو الصغير الذي تقيم فيه، إذا ما أنت رأيته حقَّ الرؤية؟ لكن حكم ألوهيته لانهائي ويمتد إلى ما وراء ذلك: فهذا الجزء لا مقدار له مقارنةً مع الكل.

«كل هذا، ولو مع السماء، ولو مع البحر
لا يعني شيئًا مقارنةً بمجموع الكل الكبير»[3].

---

(1)Lucrèce (47), I, 82.

(2)Bible, Saint Paul, **Epître aux Corinthiens**, I, 1, 25.

(3)Lucrèce (47), VI, 678-79.

تعدُّد العوالم

257. إنه قانون محلي ذلك الذي تدّعي، لأنك لا تعرف القانون الكوني. اهتمَّ بشؤونك الخاصة لا بشؤونه ، فهو ليس ندّك ولا قرينك. وإذا ما هو أراد أن يُعرف، فليس ذلك لكي يتواضع لحقارتك، ولا لكي يمكّنك من التحكم في سلطته. فلا يمكن للجسم البشري لا يمكنه أن يرق للسماء، وذلك أمر يتعلّق بك. الشمس لا تتوقف أبدًا عن مسيرها؛ وحدود البحر والبرّ لا يمكن أن تمتزج؛ والمياه غير مستقرة وسائلة؛ والجسم الصّلب لا يمكن أن يخترق جدارًا من غير أن يترك فيه فَجْوة؛ والإنسان لا يمكنه أن يبقى على قيْد الحياة بين ألسنة النار، ولا يمكنه أن يكون في الآن نفسه على الأرض وفي السماء، ولا يمكنه جسمانيًا أن يكون في أكثر من مكان واحد. لقد شرّع الله هذه القوانين من أجلك، وأنت المقيَّد بها. ولقد أبان للمسيحيين أنه خرقها كلها حين شاء ذلك. فلماذا سيحبس قوته في بعض الحدود وهو الجبار العظيم؟ ولأي سبب سيتخلّى عن امتيازاته؟ إن عقلك لا يكون معقولًا وذا أسس إلا متى ما أقنعك بتعدُّد العوالم.

> **«الأرض والشمس والقمر والبحر، وكل ما هو موجود ليست كيانات فريدة، وإنما بعدد لامتناهٍ»[1].**

258. والأشهر من بين أناس القرون الماضية اعتقدوا ذلك، بل أيضًا ثلة من المتأخرين من عصرنا، مخدوعين بالمعقولية التي يمنحه لذلك العقل البشري، خاصةً وأن في هذا الصرح ليس ثمة من شيء يكون وحيدًا وأوحد، كما نرى ذلك.

> **«ذلك أن في مجموع الأشياء لا شيء يولد أوْحدَ وينمو أوْحدَ»[2].**

وكما نرى أيضًا أن كافة الأجناس تناسلت وتشعّبت، فمن غير المعقول أن الله قد خلق هذا المخلوق وحيدًا من غير أن يمنحه ما يصاحبه، وأن مادة هذا المشروع قد تناهت مع هذا المخلوق الفرد.

---

(1)Lucrèce (47), II, 1085.

(2)Lucrèce (47), II, 1077-78.

«لهذا، وأكرّر ذلك، ثمة بالضرورة في مكان آخر تشكيلات أخرى مركّبة مشابهة لعالمنا يحتضنها الأثير بعناقٍ ملهوف»[1].

259. وخاصةً إذا تعلق الأمر بكائنٍ حي، فحركاته تجعل هذه الفكرة من الوَجاهة بحيث إن أفلاطون يؤكّدها وأن العديدين من بين أهل ديننا[2] يؤكدونها أو ينكرونها. فهم لا يجرؤون على معارضة هذه الفكرة القديمة التي حسْبها تكون السماء والنجوم والعناصر الأخرى في العالم مخلوقات مكوَّنة من جسم وروح فانييْن بفعل مكوناتهما، وخالديْن بمشيئة الخالق. وإذًا، فإذا كان ثمة عوالم عديدة، كما اعتقد ذلك كل الفلاسفة تقريبًا من قبيل ديموقريطوس وإبيقوروس[3]، فهل نحن على علم بأن القواعد المتعامل بها في هذا المضمار تنطبق على الآخرين؟ ألنْ يكون لها مظهر آخر وتنظيم مغاير؟

260. يعتقد إبيقوروس أن ثمة عوالم شبيهة بعالمنا وأخرى مخالفة له. ونحن نرى في هذا العالم نفسه اختلافًا وتنوعًا لا نهائيًا بين العديد من الأمكنة، فقط بسبب المسافة التي تفصل فيما بينها. فلا القمح ولا الخمر ولا أيٌّ من حيواناتنا مثلًا في هذا الجزء من العالم الجديد الذي اكتشفه آباؤنا يشبه ما لدينا. وفي القرون الغابرة، انظروا كيف أن عنب الإله باخوس وقمح مدينة سيريس الإيطالية كانا مجهوليْن في العديد من البلدان.

261. ولو نحن صدقنا بلينيوس الكبير وهيرودوتس، ثمة في بعض المناطق من العالم نوع من بني البشر لا يشبهوننا إلا قليلًا. هناك أشكال هجينة وملتبسة، تنتمي للإنسان والحيوان. وثمة بلدان يولد فيها بنو البشر من غير رأس، بالعينين والفم في الصدر، وبرأسٍ يشبه بالأحرى رأس الكلب لا رأسنا؛ وحيث نصفهم نصفه سمكة من الأسفل ويعيشون في الماء؛ وحيث النساء يضعن صغارهن بعد خمس سنوات من الحمل، ولا يعيشون إلا ثماني سنوات؛ وحيث إن الرأس وبشرة الجبهة من

(1)Lucrèce (47), II, 1063.

(2) كما هو حال للسيحيين من قبيل أوريجينيس.

(3) Diogène Laërce, [45] Démocrite, IX, 44 – Épicure, X, 85.

الغلظة والصلابة بحيث إن نصل السيف لا يمكن أن يخترقها؛ وحيث الرجال لا لحية لهم. والبعض منهم لا يعرفون استعمال النار. والبعض الآخر منهم لهم منيٌّ ذو لون أسود.

262. وما القول في أولئك الذين ينقلبون فجأة إلى ذئب أو فرس ليعودوا إلى حالهم البشري؟ وإذا ما وثقنا بقول بلوتارخوس، ثمة في وادي بالهند أناس من غير فم يتغذون من بعض الروائح. ومن بين هذه الأوصاف، كم ثمة من أوصاف خطأ؟ فإذا ما كان ممكنًا وجود أناس ليسوا قادرين على الضحك، ولا ربما على الحياة في جماعة بشرية، فإن الفكرة التي نكوّنها عن أنفسنا تغدو في مجملها خطأ.

263. ثم إنكم ترون كم نعرف من الأشياء تناهض تلك القواعد البديعة التي شكّلنا للطبيعة، والتي وصفناها لها. ونحن ندّعي مع ذلك أننا سنُخضع لها الله نفسَه. كم من الأشياء نسميها معجزةً ومنافيةً للطبيعة. فذلك يعود لكل إنسان ولكل شعب، تبعًا لمقدار جهالته! وكم نعثر على الخصائص الدفينة والجواهر المكنونة؟ فحسبَنا يكون المسير الطبيعي للأشياء هو ذلك الذي يتّبعه ذكاؤنا، والذي يمكن أن نُعاين، إذ ما يكون ضد الطبيعة يكون فوضويًا. لكن تبعًا لذلك، سيكون كل شيء مُنافيًا للطبيعة في نظر الفطنين من الناس. إن عقلهم قد أقنعهم أنه من غير أساس ولا قاعدة وأنه لا يمكن أن يضمن لهم أن الثلج أبيض (كان أناكساغوراس يقول إنه أسود)، كما لا يمكن أن تقول إن كان ثمة شيء وليس لا شيء، وإذا ماكان هناك علم أم جهالة لدى الإنسان؛ وهو ما كان ميترودوروس الخيوسي يعتبره مستحيلًا للإنسان. وحتى لو كنا أحياءً، فقد كان يوريبيديس يتساءل «**إذا ما كانت الحياة التي نعيشها هي حقًا الحياة، أم أنها ليست بالأحرى ما نسميه الموت الذي يكون هو الحياة**».

وذلك لا يخلو من بعض الحقيقة.

264. هل يمكننا حقًا أن نسعى للحياة بسبب تلك اللحظة التي ليست سوى لمحةٍ في المسير اللانهائي من الليل الأبدي، وانقطاعًا لبرهةٍ في مصيرنا

الطبيعي والأبدي، مع أن الحياة تحتل فيه ما سبق منه وما لحَق، بل بالأحرى قسطًا كبيرًا من تلك اللحظة نفسها؟ بعضهم، من قبيل تابعي ميليسّوس[1] يؤكدون أن ليس ثمّة من حركة، وأن لا شيء يتحرّك، ذلك إذا كان ثمة واحد أحد وإذا لم يكن قادرًا على الحركة الدائرية، ولا التنقّل من نقطة إلى أخرى كما يوضح ذلك أفلاطون[2]. إنهم يؤكدون أيضًا أن ليس ثمة من توالد أو فساد في الطبيعة.

265. يقول بروتاغوراس: إن الشك وحده موجود؛ وأننا يمكننا التساؤل عن كل شيء، حتى عن معرفة إذا كان بإمكاننا القيام بذلك. أما ناوسيفانيس*[3]، فيصرّح بأننا لا يمكننا أن نقول عن الأشياء التي يبدو لنا أنها موجودة بأنها موجودة أو غير موجودة، وأن اليقين الوحيد هو اللايقين. ويعتبر بارمينيدس أن من بين الأشياء التي تكون باديةً لنا، ليس ثمة واحدة لها قيمة كونية، وأن الواحد وحده هو الموجود. ويزعم زينون أن الواحد غير موجود وأن ليس هناك شيء بتاتًا. إذا ما وُجد الواحد، فهو سيوجد في ذاته أو في واحد آخر. وإذا ما هو وُجد في واحد آخر سيكون اثنيْن؛ وإذا ما هو وُجِد في ذاته، سيكون مرة أخرى اثنيْن: المحتوى والمحتوي. وتبعًا لهذه النظريات فإن العالم ليس سوى ظلّ إما خطأ أو فارغ.

266. لقد بدا لي دومًا أن هذه الطريقة في الكلام لدى إنسان مسيحي مليئة بالادعاء وبعدم الاحترام: «الله لا يمكن أن يموت، والله لا يمكن أن يتناقض في كلامه، والله لا يمكن أن يقوم بهذا أو ذاك». فأنا لا أستحسن أن نقوم بحبس القدرة الإلهية في قوانين تتحكّم في تعبيرنا. وما نعنيه بذلك يلزم التعبير عنه بطريقة أكثر دينية وبالأكثر من الإجلال.

(1) ميليسّوس الساموسي، فيلسوف من مدرسة زينون الإيلي، ويعتبر آخر فلاسفة تلك المدرسة.

(2) Théétète [72].

(3) * هو الفيلسوف ناوسيفانيس تلميذ بيرون وأستاذ إبيقوروس.

أهمية اللغة

267. للغتنا نواقصها، مثلها في ذلك مثل الباقي، وقضايا اللغة تكون في أصل أغلب الاضطرابات التي تصيب العالم. فمحاكماتنا لا تنجُم سوى عن تأويل القوانين، وأغلب الحروب عن العجز عن التعبير الواضح عن المعاهدات والمواثيق التي تتم بين الأمراء. كم من نزاعات كبرى نجمت عن الشكّ في معنى هذه الكلمة البسيطة: Hoc [1].

268. لنأخذ الجملة التي يعتبرها المنطق الجملة الأوضح من بين كافة الجمل. فإذا أنت قلت: «الجو صحو» وكنت تقول الحقيقة، فمعنى ذلك أن الجوّ صحو. أليس ذلك طريقة صارمة في الكلام؟ ومع ذلك، يمكنها أن تخدعنا. وللتأكّد من ذلك إليكم مثال: إذا أنت قلت «أنا أكذب»، وكنت تقول الحقيقة، معنى ذلك أنك تكذب[2]. فمسعى واستدلال وقوة هذه الجملة المنطقية الأخيرة هي نفسها في الجملة السابقة، لكن ها نحن متورطون. وأنا ألاحظ بأن الفلاسفة البيرونيين لا يستطيعون التعبير عن تصورهم العام بأي طريقة في الكلام، إذ أن ما يلزمهم هو لغة جديدة. فلغتنا تتكون من جمل توكيدية منافية تمامًا لفحواها؛ بحيث إنهم حين يقولون: «أنا أشك»، فإننا نكرههم للتوّ على الاعتراف بأنهم على الأقل يعرفون شيئًا ما ومتأكدون منه، أي أنهم يشكّون. فنحن ألزمناهم إذًا بالبحث عن النجدة في ذلك البرهان المستمدّ من الطب، الذي من دونه لا يمكن لموقفهم أن يكون قابلًا للتفسير: حين يقولون: «أنا أجهل» أو «أنا أشك»، يقولون إذًا إن هذه الجملة تخرج من ذاتها، في الوقت نفسه مع الباقي، لا أكثر ولا أقل من ذلك العقار الذي يطرد من الجسم الأمزجة السيئة، ويخرج معها هو نفسه.

269. هذه الفكرة يعبر عنها السؤال التالي بشكل أمثل: «ما الذي أعلم؟»، كما أحمله مصحوبًا برمز الميزان[3].

---

(1) إشارة إلى صراع «استحالة القربان» (أي استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد للمسيح) الذي كان موضوعه تأويل كلمة للمسيح: « Hoc est corpus meum» (هذا هو جسدي).

(2) يتعلق الأمر بمفارقة معروفة باسم «مفارقة الكذّاب».

(3) قام مونتيني عام 1576 م بسك ميدالية نقش عليها ذلك الميزان الرمزي مع شعاره ذاك. فـ«ما الذي أعلم؟» كان شعار الفيلسوف بيرون لنفسه.

270. لاحظوا الآن كيف تتمّ الاستفادة من هذه الطريقة المليئة بعدم الاحترام. ففي السجالات الدائرة اليوم في ديانتنا، إذا ما أنت ألححت كثيرًا على خصومك، سيقولون لك بكل بساطة: إن الله ليس قادرًا على أن يجعل جسمه في الجنة وعلى الأرض، أي في أمكنة مختلفة في الآن نفسه. وذلك الساخر العجوز بلينيوس، انظروا كيف يستفيد من ذلك: «على الأقل، كما قال، أليس هذا عزاءً ولو صغيرًا للإنسان أن يرى أن الله ليس قادرًا على كل شيء. فهو لا يستطيع أن يقتل نفسه حتى لو كانت تلك مشيئته، وهذا هو الامتياز الكبير في قدرنا الإنساني. وهو لا يستطيع أن يجعل من المخلوقات الفانية مخلوقات خالدة، ولا بعث الموتى، ولا جعْل من عاش لم يعش أبدًا، ولا من حصل على التشريفات أنه لم يحصل عليها أبدًا. ذلك أن لا سلطة له على الماضي غير النسيان». ولكي نؤكد بمثال ممتع العلاقة بين الإنسان والله، يضيف بأن الله لا يمكن أن يجعل من اثنين مضروبة في عشرة عشرين. ذلك ما يقوله بلينيوس، وما على إنسان مسيحي إلا أن يتفادى قوله، في حين بالمقابل، يبدو أن الناس يبحثون عن اللغْو المجنون للغة كي يجعلوا الله على مقاسهم.

«أن يغلف يوبيتر غدًا السماء بغيم أسود
أو بشمس وضّاحة يجعلها مشعّة
لا يمكنه أن يفكك ما هو موجود، ولا تغيير
ما حمله الزمن، كما لو أنْ لا شيء حدث»[1].

271. حين نقول إنَّ لاتَناهي القرون الماضية أو الآتية هي لدى الله لحظة فقط وأن خيره وحكمته وقوته لا تنفصل عن جوهره، فإننا ننطق بهذه العبارات من غير أن تتمكن عقولنا من فهمها. ومع ذلك فإن كبرياءنا ترغب في أن يمرّر الله في غربال من حرير، ومن ثمَّ ينبع كل الجنون والخطايا التي تصيب العالم حين يريد الإنسان أن يختزل في نفسه ويزن شيئًا بعيدًا عن مكاييله بميزانه الخاص:«**كم هي مدهشة غطرسة قلب الإنسان، حين يحثّه على ذلك نجاح بسيط»**[2].

(1)Horace (37), III, 29.
(2)Pline (77), II, 23.

272. يا لها من وقاحة تلك التي بها يزدري الرواقيون إبيقوروس حين يدافع هذا الأخير عن أن الله وحده يمكن أن يكون حقًا خيِّرًا وسعيدًا، وأن الإنسان الحكيم لا يمكنه أن يدرِك من هذه الحال إلا ظلًا يكون مشابهًا له بشكل بعيد. كم كانوا متهوّرين حين أرادوا أن يكون الله محكومًا بالقدر! ومُناي ألا يقترف أي واحد ممَّن يُسمَّوْن مسيحيين هذا الخطأ. لقد أخضعه طاليس وأفلاطون وفيثاغوراس للقدَرية. فهذا الادعاء بالرغبة في اكتشاف الله بأم أعيننا قد أدّى بشخصية مهمة من ديانتنا إلى أن تمنح لله هيئة جسمانية.

273. وفي هذا يكمن أصل ما يصيبنا كل يوم، أي أن ننْسب لله بالأخص الحوادث المهمة. فبما أن لها أهمية لدينا نعتقد أن لها الأهمية نفسُها لديه، وأنه يمنح قدْرًا من الاهتمام منه أكبر للأحداث التي تهمنا أقلّ، أو تلك التي ليس لها من وقْع أكبر علينا. «**تهتم الآلهة بالأشياء الكبرى لا بالتفاصيل النافلة**»[1]. ولْتعْتبروا بهذا المثال: «**الملوك نفسها لا تعير اهتمامًا للتفاصيل النافلة في الحكم**»[2].

274. كما لو أن ذلك الملك كان يرى اختلافًا بين نقل إمبراطورية من مكانها أو نقل ورقة شجرة. وكما لو أن قَدَره يكون مختلفًا حين يتعلق الأمر بالتأثير على تحليق بعوضة أو مخْرج معركة حربية. فاليد التي يمارس بها سلطته، تنطبق على كافة الأمور بالطريقة نفسها، وبالقوة ذاتها، وبالنظام نفسه. والاهتمام الذي نوليه له لا يغيّر في الأمر شيئًا، فهو لا يُبالي بحركاتنا وتقديرنا.

275. «**الله خالق الأشياء العظيمة هو أيضًا خالق الأشياء الصغيرة**»[3]. إن عنجهيَّتنا تقودنا دومًا إلى هذا السلوك الكافر المتمثل في مضاهاة الله. وبما أن انشغالاتنا تشكل لنا عبئًا، فقد أعفى الفيلسوف اليوناني الأرسطي الآلهة من أي واجب، كما هو الأمر لدى الرهبان. فالطبيعة في نظره هي التي تخلق كل شيء وتحافظ عليه، وهو بحركات وأوزان هذه الأشياء يبني مختلف مناطق العالم، مُعْفيًا الطبيعة الإنسانية في الآن

(1)Cicéron (18), II, 66.

(2)Cicéron (18), III, 35.

(3)Saint Augustin (8), XI, 22.

نفسه من خشية الحكم الإلهي: «**فلأنه سعيد وأزلي، فلا هموم له ولا يكون مصدرًا للهموم لأحد**»[1].

276. حسب الطبيعة، إذا كان هناك أشياء تقيم علاقة فيما بينها، فالأشياء المشابهة لها تملك العلاقة نفسها. والعدد اللامتناهي للكائنات الفانية يقابلها عددٌ لامتناهٍ من الكائنات الفانية. ولمّا كانت أرواح الآلهة لا لسان ولا عيون ولا آذان لها، وأنها تحسّ فيما بينها بكل ما تحس به الأخرى، وتحكم على أفكارنا، فإن أرواح البشر كذلك، حين تكون حرّة تتكهّن وتتنبّأ وترى أشياء لا تراها حين تكون متحدة بالجسد. يقول القديس بولس: «**البشر صاروا مجانين بالاعتقاد بأنهم حكماء، وحوّلوا مجد الله غير الفاسد إلى هيئة إنسان فاسدة**»[2].

277. انظروا لحظةً لمسخرة عمليات التأليه في العصور القديمة. فبعد البهرجة الكبيرة للدّفن، وفي الحين الذي يصل فيه لهب النار لقمّة الهرم ويلتهم سرير الميت، كانوا يطلقون في الآن نفسه نسْرًا، فيحلّق تعبيرًا عن أن الروح تروح للجنة. وقد احتفظنا بالعديد من الميداليات، وخاصةً منها ميدالية فوستينا[3] الشريفة، التي صُوّر هذا النسر فيها وهو يحمل تلك الأرواح المؤلَّهَة.

278. إنه لأمر مُزْرٍ أن نرى كم نحن منخدعون بتهريجنا وبِدَعنا.

«**إنهم يفزعون مما يبتدعون**»[4].

مثلهم في ذلك مثل الصبيان الذين يفزَعون من رؤية وجوههم حين يلطخونها ويسوِّدونها لإفزاع أصدقائهم. «**فليس أكثر بؤسًا من الإنسان الذي تستعبده أوهامه**»[5].

---

(1)Cicéron (18), I, 17.

(2)Epitre aux Romains, I, 22-23.

(3) المقصودة هنا فوستينا الصغرى ابنة الإمبراطور أنطونيوس ببوس، وزوجة الإمبراطور ماركوس أوريليوس، وقد جرى تقديسها بعد وفاتها رغم شائعات فجورها وعلاقاتها غير الشرعية مع المصارعين والجنود والبحارة.

(4)Lucain (46), I, 486.

(5)Saint Augustain (8), VIII, xxiii.

279. لقد حظي الإمبراطور أغسطس بمعابد أكثر من يوبيتر، وقد تمت خدمتها بالكثير من الإخلاص والإيمان بمعجزاته. وقام أهل ثاسوس[1]، اعترافًا بما تلقوْه من أجيسيلاوس من خير، بالتوجه إليه ليُعلموه بأنهم قد قاموا بتأليهه. فقال لهم: «هل لأمتكم السلطة في أن تجعل ممن تريد إلهًا؟ إذًا فلتجعلوا من أحدكم إلهًا، وحين سأرى كيف سيحسّ بنفسه، سأعبر لكم عن عظيم شكري بما تهبونه لي». إنه غير قادر على سكّ وحدة نقدية، وها هو يصنع آلهة بالعشرات.

280. لِتسْمعوا ما يقول مثلث العظمة*[2]، الذي يقوم أيضًا بمدح قُدراتنا: «من بين أكثر الأشياء روعة، أسماها هي أن الله استطاع أن يعثر على الطبيعة الإلهية وتحقيقها». وإليكم براهين نستقيها من الفلسفة نفسها.

«لأنها وحدها يمكن أن تعرف الآلهة والقوات السماوية
ووحدها التي تعلم أننا لا يمكن أن نعرفها»[3].

إذا كان الله موجودًا، فهو كائن حي؛ وإذا كان كائنًا حيًا، فله حاسة؛ وإذا كانت له حاسة فهو منذور للفناء. وإذا لم يكن له جسم، فليس له روح، ومن ثمّ فلا عمل له؛ وإذا كان له جسم، فهو قابل للزوال. يا له من نصر جميل في الحقيقة.

281. نحن غير قادرين على صنع العالم: ثمة إذًا جوهر سامٍ كانت له يدٌ في ذلك. سيكون من باب الغطرسة البليدة أن نعتبر أنفسنا أكمل شيء في هذا الكون. ثمة إذًا شيء أفضل منا، وهذا الشيء هو الله. حين تروْن بيتًا غنيًا وفاخرًا، حتى لو لم تعرفوا من هو سيده، فإنكم لن تقولوا إنه شُيّد للجرذان. وحين نرى العمران الإلهي للقصر السماوي، فكيف لا نقتنع بأنه مُقام سيد أعظم مما عليه نحن؟ فما هو أكثر سموًّا، أليس ما هو أكبر مقامًا؟ أما نحن فموجودون في الدرَك الأسفل.

---

(1) جزيرة ببحر إيجه.

(2) * مثلث العظمة Trismégiste. ومثلث العظمة لقب شخصية أسطورية وهو هرمس الحكيم، كما يمثل شخصية تجمع بين الإلهين هيرميس اليوناني وتحوت المصري، بعد توحيدهما معًا في شخصية واحدة. وينسب له التون الهرمسية.

(3) Lucain (46), I, 452.

282. ليس ثمة من شيء لا روح ولا عقل له يمكنه أن ينتج كائنًا حيًا يملك العقل والروح. والحال أن العالم أبدعنا، فهو يملك إذًا روحًا وعقلًا. يتوفر العالم إذًا على حكمة وعلى عقل أكثر مما هما لدينا. ومن أروع الأمور أن تكون لنا حكومة عظيمة كهذه. فالتحكم في العالم يعود لكيان يعيش الهناء. الكواكب لا تصيبنا بشرّ، فهي إذًا مليئة بالخير. نحن بحاجة إلى الطعام، والآلهة أيضًا، وهي تتغذى من بخار الدنيا. وخيرات هذا العالم ليست خيرات لله، فهي إذًا خيرات لنا. إن جرْح امرئ أو التعرض لجرح هما دليلان على ضعفنا: فمن الجنون الخوف أن نُصاب بجرح من الله. الله خيّر بطبعه، والإنسان خيِّر بأعماله، وهو أمر أسمى. الحكمة الإلهية والحكمة الإنسانية متشابهتان، إلا أن الأولى منهما أزلية. من ثمّ فإن المدة الزمنية لا تضيف شيئًا إلى الحكمة: وها نحن متساوون في هذا المستوى. نحن نملك الحياة والعقل والحرية، ونسعى بشغف للخير والإحسان والعدل، وهذه الصفات هي صفات الله[1].

الإنسان صنع الله على صورته

283. بالجملة، إن بناء الألوهية أو عدم بنائها كما ملامحها الخاصة يصنعها الإنسان تبعًا لما هو عليه. ياله من أنموذج! ويا له من مثال! لنُمَدِّد المزايا البشرية ونسمو بها ونضخّم منها، كما يحلو لنا. انفخْ نفسك أيها الإنسان وتمادَ في ذلك.

«قال: حتى ولو لقيت في ذلك حتفَك الذي يعرض نفسه هنا»[2].

«صحيح أن الناس، وهم يعتقدون أنهم يتصورن الله الذي لا يمكنهم تشكيله، لا يقومون سوى بتصور أنفسهم؛ إنهم يرون أنفسهم لا هو؛ وما يقارنون هو أنفسهم، لا معه هو وإنما معهم هم»[3]. النتائج في الطبيعة لا تفصح عن عِللها إلا جزئيًا. فما القول في الطبيعة الإلهية؟ إنها فوق نظام

(1) كافة هذه الأدلة مستقاة من شيشرون [18]، خاصة من 16 ،II.

(2) في هجائية هوراتيوس (الذي لمسرح ذاته هنا) تقوم شخصية داماسيبتوس بمعارضة الشاعر بالقصة المعروفة للضفدعة التي أرادت أن تكون بعظمة الثور، والتي يستعيدها لافونتين بالبهجة التي نعرفها.

(3)Saint Augustin (8), XII, 17.

الطبيعة؛ وطبيعتها أسمى وأبْعد بكثير وأقوى سيادةً من أن تقبل أن تعُقِلها استنتاجاتنا أو تعوقها. ونحن لا يمكن أن نبلغها من خلالنا، فسبيلنا واطئ كثيرًا. ونحن لسنا قريبين من السماء أكثر على جبل سينيس*[1] منه في قعر البحر، وهو ما يمكنك أن تتأكد منه على أسطرْلابك.

284. يتمّ الاستخفاف بالله حتى يزعم بعضهم أن له صاحبة. فكم مرة سيتم ذلك ومن أجل كم عدد من الأولاد؟ حين ظنت باولينا، زوجة ساتورنينوس والسيدة الشهيرة في روما، أنها تضاجع الإله سيرابيس[2]، وجدت نفسها بين يدي أحد عشاقها، بواسطة كهنة ذلك المعبد. وقد كتب فارّو، أكبر الكتاب اللاتينين علمًا وأكثرهم أدبًا، في كتبه اللاهوتية، أن خادم معبد هيراكليس، قام بالمُقامرة مع هيراكليس بحيث لعب ضده على عشاء وفتاة، بحيث إذا ربح فسيكون ذلك على حساب الأعطيات التي تمنح له، وإذا خسر فسيكون ذلك على حسابه الخاص. فخسر وكان عليه أن يؤدي الفتاة والعشاء. كانت تلك الفتاة تسمى لاورينتينا؛ فوجدت نفسها بين يدي الإله الذي قال لها: إنها في الغد سوف يمنحها أول رجل تلقاه بمثابة جزاء إلهي. وكان تارونتيوس الشاب الثري هو الذي سيقودها لبيته، وسيجعل منها فيما بعد وريثته. وحينئذٍ رغبت هي أيضًا في أن تقوم بشيء رائق في حق الإله ذاك، فجعلت من الشعب الروماني وريثًا لها، وهو ما كان في أصل ما نُسب لها من مزايا إلهية.

285. يبدو أن الأمر ليس كافيًا أن يكون أفلاطون ذا أصل إلهي من أبيه وأمه، وأن نبْتونوس*[3] كان جَدًّا لسلالته. بل يبدو أن هذه القصة كانت من باب المؤكد في أثينا: حين أراد أرسطون أن يتمتّع بالحسناء بريكْتيوني ولم يستطع بلوغ مأربه منها، كان الإله أبولّون قد أخطره في الحلم أن يتركها طاهرة، لم تمسّها يد حتى تضع حملها. والحال أن أرسطون وبريكْتيوني كانا والدي أفلاطون. كم نعثر في الكتب على هذه الخرافات الخادعة التي تختلقها الآلهة ضد الناس البؤساء! وكم من الأزواج

(1) * جبل في منطقة سافوا الفرنسية على الحدود الإيطالية.

(2) يتعلق الأمر في الحقيقة بأنوبيس، حسب الخرافة التي يختلقها كورنيليوس أغريبا (من بين آخرين)، في كتابه: De Vanitae scient، LVIV.

(3) * رب البحر في الأساطير الرومانية.

يُغتاب فيهم عن سوء نية لصالح أبنائهم!

286. في المنطقة الإسلامية تدفع معتقدات العامة إلى ولادة أطفال من غير آباء، وهم «أبناء روحيون» ولدوا كما المسيح في بطن أمهاتهم؛ وهم يحملون اسمًا له هذا المعنى في لسانهم[1].

287. 287. علينا أن نقرّ أنْ ليس لكل مخلوق بشري من شأن أهمّ ولا أكثر قدْرًا من نفسه (الليث والنسر والدلفين تعتبر أن لا شيء أكبر من جنسها)، وكل جنس منها يختزل مزايا الأجناس الأخرى في مزاياه الخاصة. بإمكاننا أن نمدّد من مزايانا أو نقلّص منها، وذلك فقط ما يمكننا فعله. فعقلنا لا يمكن أن تُجاوز هذه العلاقة وذلك المبدأ، ولا يمكنه تصوُّر شيء آخر، بحيث من المستحيل عليه أن يخرج من ذلك ويسير إلى ما هو أبعد. وذلك ما يمنح الأساس لهذه المعتقدات القديمة: «**من بين كافة الهيئات هيئة الإنسان هي الأجمل. والله له تلك الصورة**»[2] أو: «**لا أحد يمكن أن يكون سعيدًا من غير الفضيلة، ولا يمكن للفضيلة أن تكون من غير العقل، ولا عقل يمكن أن يوجد إلا في الهيئة البشرية؛ من ثم فالله له صورة بشرية**»[3]. «**عقلنا مكوّن بشكل يقوم معه حين يفكر في الله بمنحه صورة بشرية**»[4].

288. لهذا فإن كسينوفانيس كان يقول بمرح: إن الحيوانات إذا كانت تبتدع لها إلهًا، وكما أنه من المعقول أن تقوم بذلك، فإنها تتصورها بالتأكيد على صورتها، وتمجّد نفسها مثلنا. لماذا إذًا لا يقول عصفور صغير: «كل عناصر الكون خلقت على مقصدي: فالأرض تصلح لأمشي عليها، والشمس كي تنيرني، والنجوم لتؤثر على حياتي. أستعمل الرياح لصالحي وأتوفر منها على الماء. فلا شيء تراه قبة السماء بشكل إيجابي أكثر مني. أنا الابن المدلَّل للطبيعة. أليس الإنسان هو من يغذيني ويأويني ويخدمني؟ فمن أجلي يزرع

(1) لم نعثر على هذا الأمر في زمن الإسلام، وإن كان ما يشبه ذلك قد عرفته فترة الجاهلية [المترجم].

(2)Cicéron (18), I, 18.

(3)Cicéron (18), I, 27.

(4)Cicéron (18), I, 27.

الأرض ويطحن الدقيق. وإذا هو أكلني سيأكل الإنسان الذي هو رفيقه، وأنا آكل الدود الذي يلتهمه». قد يقول طائر الكُركيّ الشيء نفسه بل بشكل أكثر كبرياء، هو الذي يطير حيثما شاء، ويسود في هذا المجال العالي الجميل: «الطبيعة رائقة ومعطاءة ووديعة لما تخلق[1]».

289. إذا ما نحن اتّبعنا هذا الاستدلال، فإننا سنكون مسيَّرين بالقدَر، بحيث يُبرق العالم من أجلنا ويرعِد، وبحيث إن الخالق والمخلوقات، وكل شيء يوجد من أجلنا. ذلك هو المرمى والنقطة التي تسعى نحوها كونية الأشياء. انظروا للسجلّ الذي حررته الفلسفة لمدة ألفي سنة وأكثر عن الشؤون السماوية: سنخال أن الآلهة لم تقمْ بفعل ولم تتكلم، إلا لأجل الإنسان. فهي لا تمنحها اهتمامات ووظائف أخرى غير ذلك. وها هي مثلًا في حرب ضدنا.

«ها هي قد روّضتها يدا هيراكليس
والعمالقة، أبناء الأرض، الذين هزهزوا
المقام الساطع لساتورنوس الشائخ»[2].

وهاهم ينحازون إلى هذا وذاك في شِقاقاتنا، كي يعاملونا بالمثل، بعدما حشرنا أنفنا في شقاقاتهم.

«يكسر نبتونوس برمحه الثلاثي الأسوار
ويزعزع الأسس، ويقلب المدينة[3] رأسًا على عقب
غير أن يونو القاسية استحوذت على الأبواب المختومة»[4].

290. كان سكان دينة كاونوس[5]، ولكي يحافظوا بحرص على سيادة آلهتهم، يحملون أسلحتهم في اليوم الذي يروحون فيه للتعبّد، ويتجولون في المدينة، يضربون بسيوفهم في الفراغ يُمنة ويسرة؛ مطاردين بذلك الآلهة الغريبة وطارديها من مدينتهم.

---

(1)Cicéron (18), I, 27.

(2)Horace (37), II, 12, v. 6.

(3) مدينة طروادة بآسيا الصغرى. وكانت «الأبواب المختومة» هي التي تتحكم في مدخل المدينة.

(4) Virgile (112), II, v. 610.

(5) في آسيا الصغرى.

291. تُمنح السلطات للآلهة تبعًا لحاجاتنا. فأحدها يشفي الجياد، والآخر يشفي الناس، والثالث يشفي من الطاعون، والرابع من السعال، والخامس من الجرَب: «**ذلك أن التطيُّر يزجُّ بالآلهة حتى في الأشياء الصغيرة**»[1]. وها هو أحدها ينبت الكروم والآخر الثوم والآخر يسهر على الفجور والآخر على البضاعة. فلكل حرفيّ إلهه. أحدها له أراضيه في المشرق والآخر في المغرب[2]:

«هنا سلاح يونو، وهناك عربتها الحربية»[3].
«يا أبّولون المقدس، الذي يقيم في صرّة العالم»[4].
«أبناء كيكروبس[5] يعبدون بالاس[6]، وكريت جزيرة الملك مينوس*[7] تعبد ديانا
وأبناء بلاد هوبسيبولي*[8] يعبدون فولكانوس*[9]
وفي إسبرطة وموكناي مدينة البيلوبيديين*[10]، يونو هي الإلهة
وفاونوس*[11] يحكم أشجار الصنوبر بجبل ماينالوس
ومارس يُعبد في لاتيوم*[12]»[13].

292. بعض الآلهة لا يوجد إلا في قرية أو أسرة واحدة. والبعض الآخر يعيش وحيدًا، والآخر يعيش بين الناس بشكل إرادي أو إكراهًا.

«ومعبد حفيد الإله يكون لصيقًا بمعبد الجدّ»[14].

---

(1)Cicéron (16), II, 56.

(2) يتعلق الأمر هنا بقرطاج.

(3) Virgile (112), II, v. 16.

(4) شيشرون [16]، 56 ،II. كان اليونان يعتبرون مدينة ديلفوي مركز العالم.

(5) * ملك منطقة أتيكا الأسطوري.

(6) * بالاس هو لقب الربة أثينا ربة الحكمة لدى الإغريق التي تقابل مينيرفا عند الرومان.

(7) * مينوس هو ملك كريت الأسطوري، وهو ابن زيوس ويوروبا في الأساطير اليونانية.

(8) * هي الملكة الأسطورية، بنت ثواس ملك ليمنوس الجزيرة اليونانية، وقد أنقذت أباها حين قتلت نساء الجزيرة كافة رجالها.

(9) * إله النار والحدادة لدى الرومان.

(10) * بني بيلوبس، وهو ملك بيسا الأسطوري، وجدُّ السلالة التي حكمت موكناي في الأساطير اليونانية.

(11) * فاونوس إله الغابات والمراعي لدى الرومان.

(12) * لاتيوم هي منطقة تقع في وسط غربي إيطاليا، التي أنشئت فيها العاصمة روما.

(13)Ovide (67), III, vv. 81 sq.

(14)Ovide (67), I, 294.

ثمة من بينهم آلهة وضيعة (فعددها يناهز الستة آلاف)، بحيث من اللازم الابتهال لخمسة أو ستة منها من أجل سنبلة قمح[1]، وتحمل أسماءً متصلة بمهامها. ويلزم منها ثلاثة آلهة لباب: أحدها لألواح الخشب، والآخر للمفاصل والثالث للعتبة. وهيأربعة لصبي؛ أحدها يسهر على سرواله، والثاني على ما يشرب، والثالث على ما يأكل، والرابع يسهر على رضاعته. بعضها آلهة موثوق بها، والأخرى غير موثوق بها ومثيرة للريبة. وبعضها لم تزر أبدًا الجنة.

«بما أنها لا تستحق بعد أن تكون في السماء
لنتركها تقيم في الأراضي التي منحناها إياها»[2].

293.ثمة آلهة للعلوم، وأخرى للفنون وغيرها للحقوق. بعضها وسيط بيننا وبين الله. فهي من مرتبة ثانوية، وتُقدس من حيث هي كذلك، إذ لها أسماء ووظائف بعدد لا يحصى، وبعضها خيّر وبعضها شرير. بعضها أنهكها العمر، وبعضها من جنس بني البشر. كان خريسيبّوس يعتبر أن الآلهة يلزم أن تندثر في الاحتراق النهائي للعالم عدا يوبيتر. الإنسان يبتدع العديد من الترابطات الهزلية بينه وبين الله. لكن أليس هذا الأخير مواطنًا له؟

«كريت، مهْد يوبيتر...»[3].

294.وبخصوص هذا الموضوع إليكم التبرير الذي قدمه الحبر الأعظم سكيفولا[4] وفارّو اللاهوتي الكبير: من الضروري أن يجهل الشعب الكثير من الأشياء الحقيقية، ويعتقد في الكثير من الأشياء الخطأ[5]. «فعوض أن يقدم له الدين الحقيقة التي سوف يكون فيها خلاصه، يعتبر أن من الأفضل خِداعه لأن ذلك في صالحه».

(1) وذلك ما يقول القديس أوغسطينوس في مقطع ساخر جدًا وماتع للقراءة.

(2)Ovide (62), I, 194.

(3)Ovide (62), VIII, 99.

(4) «الحبر الأعظم» في 89 قبل الميلاد. شيشرون يحيل إليه، وكذلك القديس أوغسطينوس: «يا أيها الحبر الأعظم سكيفولا...»، في [8]، 27 ، IV.

(5)Saint Augustin, **Cité de Dieu,** IV, 27.

295. العين البشرية لا يمكن أن تبصر إلا ما تستطيع التعرُّف عليه. ونحن ننسى أي هاوية سقط فيها فايثون المسكين حين أراد أن يمسك بعنان جياد أبيه، هو الكائن الفاني[1]. إن عقلنا يسقط في هاوية مشابهة، ويدمر نفسه بالطريقة نفسها بسبب تهوّره. وإذا ما أنت سألت الفلسفة من أي شيء صُنعت الشمس، فما الذي يمكن أن تقوله لكم سوى أنها مصنوعة «من الحديد»، أو كما يقول أناكساغوراس من الصخر، أو من أي مادة أخرى نستعمل؟

296. إذا ما نحن طلبنا من زينون ما هي الطبيعة، سيجيب: «إنها نار غير أنها نار صانعة يمكنها أن تولِّد وتقوم بذلك بشكل نسقي». أما أرخميدِس شيخ هذا العلم الذي يبدو متقدّمًا على باقي العلوم في مجال الحقيقة واليقين، فإنه يقول: «الشمس إله الحديد الملتهب». أليس ذلك فكرة جميلة خرجت لتوها من صرامة الاستدلالات الهندسية؟ لكنها ليست مفيدة جدًا ولا ضرورية لكي يعتبر سقراط أنه يكفي معرفة ما يلزم. أما بوليانوس، المعروف مع ذلك كعالم شهير ورفيع المرتبة في هذا العلم فتعامل مع هذه البراهين بازدراء، معتبرًا إياها خطأً ومليئة بالغرور، حين ذاق عذوبة فاكهة حدائق إبيقوروس.

297. في كتاب «المذكرات» لكسينوفون يصف سقراط أناكساغوراس-الذي رفعه القدماء فوق كل الفلاسفة فيما يخص الأمور الإلهية- قائلًا بأنه قد شوّش الأذهان، مثله في ذلك مثل كافة الناس الذين يسعون بمبالغة إلى استكناه جوهر الأشياء التي تفوق استطاعتهم. حين اعتبر أناكساغوراس الشمسَ صخرةً ملتهبةً، لم يأخذ في حسابه أن الحجر لا يلمع في النار، وأنه أيضًا لا يحترق فيها. وحين جعل من الشمس والنار شيئًا واحدًا، فهو لم ينتبه أيضًا إلى أن النار لا تلوّح أولئك الذين ينظرون لها؛ وأننا يمكن أن نحدق في النار، وأن النار تقتل الأعشاب والنباتات. وإذا ما نحن وثقنا في قول سقراط، وفي رأيي أيضًا، فأفضل طريقة للحكم على السماء هي عدم الحكم عليها.

---

(1) كان فايثون ابن هيليوس (الشمس). فبعد أن استحوذ على عربة أبيه مز قربنا جنًا من الأرض بحيث كاد يحرقها؛ لذلك أسقطه الإله يوبيتر في الهاوية.

298. حين يتحدث أفلاطون عن القرناء[1] في محاورة «تيمايوس» يقول: «إنها مسألة تُجاوز قدراتنا. وعلينا تصديق القدماء الذين زعموا أنهم انحدروا منها. ليس ثمة من سبب لعدم الإيمان بأبناء الآلهة، بالرغم من أن أقوالهم لا تقوم على العقل الضروري ولا على المعقول، بما أنهم يزعمون أنهم يحدثوننا عن أشياء عائلية ومألوفة».

299. لننظرِ الآن إذا ما كان لدينا بعض الوضوح فيما يخص الشؤون البشرية والطبيعية. أليس أمرًا سخيفًا، بصدَد أشياء لا تستطيع معرفتنا بلوغها، وهو أمر نعترف به، أن نصنع لها جسمًا آخر، من خلال منحها هيئات صادرة لتوّها عن خيالنا؟ إننا نلاحظ ذلك مثلًا بخصوص حركة الكواكب: إذ لمّا كانت عقولنا قاصرة عن بلوغ مكانها، أو تصوّر مسيرها الطبيعي، فإننا نمنح لتلك الكواكب بإرادتنا، عِللًا مادية ملموسة ولها ثقل.

«كان التّيمون من الذهب، ومن الذهب أيضًا دوائر العجلات والأشعة من الفضة»[2].

300. إننا نخال أن الحوذيين والبنائين والصباغين قد راحوا هناك لينشئوا آلات بمواد وتقنيات متنوعة ويرتبوا الدّواليب والمسالك الدوّارة للأجسام السماوية ذات الألوان المبرقشة «حول محور الضرورة» كما يقول أفلاطون[3].

«العالم مسكنٌ هائلٌ، مُحاط بخمسة مناطق[4]
ومحفوفٌ باثنتي عشرة إشارة لامعة للنجوم
تستقبل العربة الحربية بجواديْن للقمر».

كل هذا ليس سوى أضغاث أحلام وهذيان. وكم نحن نأْسف لأن الطبيعة لا تريد فتح أبوابها حتى تُطلعنا حقًا على كيفية عملها ونظامها كي نتهيأ لذلك بأبصارنا. يا الله، كم من المفاسد والأخطاء سنجد في معرفتنا

(1) كان «الشيطان» في معناه اليوناني -كما لدى سقراط- ضربًا من «الملاك الحارس» الذي يرمز لمصير شخصية ما.
(2)Ovide (62), II, v. 107.
(3) أفلاطون [73]، 600c، X، ص. 529-530: «.. وقد رأوا وفي تلك الأطراف ممدودًا محور الضرورة الذي بواسطته تنتظم كافة الحركات الدائرية».
(4) يتعلق الأمر بأبيات لفارو رواها فاليريوس بروبوس في حواشيه على «نشيد الرعاة السادس لفرجيليوس».

البائسة! هل سأكون مخطئًا إذا أنا قلت: هل هي تعالج شيئًا واحدًا كما يجب؟ وسوف أرحل من هنا أكثر جهلًا بكل شيء آخر كما بجهلي.

301. ألم أقرأ لدى أفلاطون هذه العبارة الرائعة التي مفادها أن الطبيعة ليست شيئًا آخر غير شعر غامض، أو رسم قاتم محجوب تحت عدد كبير من الأنوار الباهتة، بحيث يثير تكهناتنا؟ «**كافة هذه الأشياء مغلفة في الظلمات الكثيفة، والعقل البشري ليس ثاقبًا بحيث ينفذ إلى أغوار السماوات وأعماق الأرض**»[1].

302. صحيحٌ أن الفلسفة ليست بدورها إلا ضربًا من الشعر صالحة للسفسطائيين. من أين يستمد بعض المؤلفين القدماء سلطتهم، إن لم يكن ذلك من الشعراء؟ بل إن الفلاسفة الأوائل كانوا هم بأنفسهم شعراء، وتحدثوا عن الفلسفة كشعراء. وليس أفلاطون إلا شاعرًا مميزًا عن الآخرين، فالفيلسوف طيمون الفليوسي وكافة العلوم الإنسانية تتدثّر بالشعر.

303. نحن نعلم أن النساء يعوضن الأسنان التي تنقصهن بأسنان من العاج، ويصنعن لونًا لبشرتهن غير لونهن من الأصباغ الطبيعية، كما أنهم يكبّرن أفخاذهن بالأثواب واللِّبَد ويزدن من بدانتهن بالقطن، وينسبن لأنفسهن، على مرأى ومسمع من الجميع، جمالًا زائفًا ومستعارًا. يقال: إن القانون يستخدم الخيال لإرساء حقيقة العدالة، ويقترح علينا العلم من جهته أشياء يعترف بأنه اختلقها. فأدوار الفلك الصغيرة[2] المتجاذبة والمتنافرة التي يلجأ إليها علماء الفلك لتنظيم حركة النجوم والكواكب، يقدّمها لنا باعتبارها أفضل ما ابتدعته في الموضوع، وتقدم لنا الفلسفة من جهتها، لا ما هو موجود أو ما تفكر به؛ وإنما ما تصطنع بشكل معقول وأكثر جاذبية. يصرّح أفلاطون بخصوص تشريح الجسم الإنساني كما الحيواني: «وأن يكون ما قلنا حقيقيًا، يمكننا التأكد من

(1)Cicéron (15), II, 39.

(2) الدورات الصغرى للكواكب هي دوائر صغرى يرسمها كوكب في حين يرسم مركز تلك الدائرة دائرة أخرى. فبالعودة لهذه الدورات الصغرى للكواكب قام بطليموس (القرن الثاني للميلاد) بوصف عدم انتظام الحركات التي لاحظها في مختلف الكواكب. وقد ظلت هذه النظرية سارية المفعول لمدة أربعة عشر قرنًا، ولم يتم تعويضها بنظرية كوبرنيكوس إلا تدريجيًا.

صحته لو أكد لنا ذلك تكهن رباني؛ غير أن ما يمكن أن نؤكّده هو أنه أكثر الأشياء معقولية يمكن لنا أن نصرح بها».

304. الفلسفة لا تضع حبالها وآلاتها وآلياتها في السماء؛ فلْنرَ ما تقوله عنا وعن تنظيمنا. ليس ثمة في ما أنتجه الفلاسفة لهذا الجسد الإنساني المسكين غير التراجع والارتجاج والتقرب والانقلاب[1] الذي يسم الكواكب والأجرام السماوية. فالفلاسفة كانوا فعلًا على حق بتسميته «كونًا مصغَّرا»، من كثرة ما استعملوا من قطع وأشكال لبناء صرْحه. إلى كمْ من جزء قسّموا أنفسنا كي يصفوا الحركات التي يلاحظون في الإنسان ومختلف الوظائف والملكات التي نحسها في أنفسنا؟ وإلى كم من مسؤولية واستعمال؟ لقد جعلوا من الإنسان جمهورية متخيّلة. إنه مجال يتحكمون فيه ويتلاعبون به. ونحن نترك لهم كامل الحرية للبرهنة عليه، وتنظيمه، وتجميعه، وتعزيزه، كلٌّ حسب هواه؛ ومع ذلك نراهم لا يتحكمون فيها لحدّ الآن. فهم لا يمكنهم، لا فقط في واقعه ولكن أيضًا في العقل، أن ينظموه بحيث لا ينفلت من ذلك إيقاع أو صوت من هندستهم له، حتى لو كانت تلك الهندسة هائلة أو مرتَّقة من أجزاء كثيرة خطأ وخيالية.

305. ليس ثمة من سبب لكي نعذرهم، فنحن نقبل بالرسامين كي يرسموا السماء والأراضي والجبال والجزائر النائية، وألا يمنحونا عنها إلا انطباعًا غامضًا؛ ونحن نكتفي من رسم تمهيدي يكون خياليًا إلى هذا الحدّ أو ذاك، حين يتعلق الأمر بأمور مجهولة لنا. لكن حين يحاكون الطبيعة أو يرسمون موضوعًا أو شخصًا مألوفًا لدينا ومعروفًا جدًّا، فإننا هذه المرة نطالبهم بتصوير مطابق وكامل للأشكال والألوان؛ ونحن لا نحس إلا بالاحتقار لهم إذا هم فشلوا في ذلك.

وأنا أحس بالامتنان لفتاة ميليتوس*[2]، حين رأت الفيلسوف طاليس يقضي سحابة يومه في تأمل قبّة السماء، وعيناه شاخصتان إليها،

(1) كل هذه الاصطلاحات تُستعمل في علم الفلك والتنجيم، لوصف الحركات الظاهرة للكواكب.

(2) مدينة إغريقية مندثرة تقع على الساحل الغربي من الأناضول.

فوضعت في طريقه شيئًا؛ كي يتعثّر فيه ويُنبهه إلى أن الوقت كان قد حان، لكيْلا يفكر في الاهتمام بما هو في السماء، قبل الاهتمام بما يوجد عند قدميه. لقد كانت على حقّ في نصحه في أن ينظر أولًا في نفسه على أن ينظر إلى السماء، كما يقول ذلك ديموقريطوس: «**إننا لا ننظر لما هو أمامنا بل نحدّق في السماء**»[1].

306.لكن ذلك نتاج طبيعتنا البشرية: فالمعرفة التي لنا عن الأشياء التي بين أيدينا بعيدة عنا أيضًا، إلى أنأى من الغمام والكواكب. وكما يقول سقراط على لسان أفلاطون، إنه لا يرى شيئًا مما هو أمامه. فكل فيلسوف يجهل ما يقوم به جاره، بل وحتى ما يقوم به هو نفسه، بل ويجهل ما هما الاثنان: حيوانًا أم بشرًا.

307.أولئك الذين يجدون أن علل سيبيودا ضعيفة جدًّا، والذين لا يجهلون شيئًا، ويحكمون العالم ويعرفون كل شيء=

«ما يتحكم في البحر وينظم الفصول
إذا ما كان للنجوم حركتها الخاصة
أو أن مسيرها التائه يُنظَّم من جهة أخرى
وهو ما يزيد من أسطوانة القمر ويقلّص منها
ما هي سلطة هذا التفاهم وغايته
بين عناصر متنافرة؟»[2].

=هؤلاء الناس، كما قلت، ألم يعثروا أحيانًا وسط الكتب، على الصعوبة التي نلاقيها في معرفة النفس؟ نحن نرى فعلًا أن إصبعنا يستطيع الحركة، ورجلنا كذلك، وأن بعض الأجزاء من جسدنا تتحرك بنفسها عن غير طواعية منا، وأن أخرى تتحرك بأمر منا. ونحن نلاحظ أن بعض الخوف يولّد الاحمرار، وبعضه الآخر يؤثّر فقط على الطّحال، وآخر على الدماغ. كما أن بعض العواطف تجعلنا نضحك وأخرى نبكي،وتخدّر حواسّنا، أو تثيرها، وتجمّد حركات أطرافنا؛ وأن شيئًا ما يثير معدتنا وآخر يثير ما تحتها.

(1)Cicéron (16), II, 13.
(2)Horace (35), I, 12.

308. لكن كيف يمكن لانطباع يعود للعقل أن يخترق جسمًا صلبًا وثقيلًا؟ ما هي طبيعة وتناظم هذه النوابض[1]؟ لا أحد عرف ذلك أبدًا. «كل هذا ليس في متناول العقل الإنساني ويظل مخفيًّا في عظمة الطبيعة كما يقول بلينيوس[2]. ويقول القديس أوغسطينوس بدوره: «إن وحدة **النفوس والأجسام عجيبة تجاوز الفهم البشري، ومع هذا فذلك هو ما يشكل الإنسان ذاته»**[3].

الأفكار المسبقة

309. إننا لا نشكك أبدًا في هذا، ذلك أن الآراء البشرية مشتقّة من معتقداتٍ قديمة لها نفوذها وصدقيتها، كما لو أن الأمر يتعلّق بديانة أو بنص تشريعي. هكذا يتم اعتبار ما هو مقبول عمومًا كما لو كان لغة سرية؛ ويتم تقبّل هذه الحقيقة مع ترسانة براهينها وأدلّتها كما لو كانت شيئًا صلبًا ومتماسكًا، لا يمكن خلخلته أو الحكم عليه. بالعكس ينحو كل واحد إلى تعزيز هذا المعتقد المتوارَث مضمِّدًا إياه حسب مستطاعه، وينفث فيه ذكاءه كله، باعتباره وسيلة مطواعة يمكن مداورتها وتتكيَّف مع كل الحالات. وهكذا يمتلئ العالم باللَّغْو والأكاذيب ويغدو جامدًا على حاله.

310. ما يجعل الناس لا تشكّك في أي شيء تقريبًا، هو أنهم لا يختبرون أبدًا الآراء السائدة. فهم لا يسبرون أساسها حيث يكمن ضعفها وزيفها؛ إذ لا يناقشون إلا الفروع، ولا يتساءلون إن كان هذا الرأي أو ذاك سديدًا، وإنما إن كان ذلك قد تمّ فهمه هكذا أو بطريقة مغايرة. لا يتساءل الناس إن كان جالينوس قد قال ما يمكن اعتباره مهمًا، وإنما إن قاله هكذا أو بطريقة مغايرة. فمن البديهي أن هذه الطريقة في لجْم أحكامنا وإكراهها، وهذا الاستبداد الرهين بمعتقداتنا، قد انتقلت عدواه حتى مدارسنا وفنوننا.

(1) حين يستعمل مونتيني كلمة «نوابض»، يتابع هنا للجار الميكانيكي الذي استعمله سابقًا بصدد الكواكب.
(2) Pline (77), II, 37.
(3) Saint Augustin (8), XXI, 10.

311. ربّ السكولائية هو أرسطو؛ ومن الخطيئة أن يتم نقاش قراراته، تمامًا مثل مراسيم ليكورغوس في إسبرطة. ومذهبه صار لنا قانونًا أساسًا، وهو قد يكون خطأً مثل أيّ مذهب آخر. وأنا لا أرى سبباً يمنعني من الدفاع عن أفكار أفلاطون، أو ذرات إبيقوروس أو الممتلئ والفارغ لليوكيبّوس وديموقريطوس، أو ماء طاليس أو لانهائية الطبيعة لدى أناكسيماندروس أو الهواء لدى ديوجينيس أو الأعداد والتوازي لدى فيثاغوراس أو اللاتناهي لدى بارمينيدس أو الواحد لدى موسايوس[1]، أو الماء والنار لدى أبولّودوروس، أو الأجزاء المتشابهة لدى أناكساغوراس، أو الصراع والصداقة لدى أمبيدوقليس أو النار لدى هيراقليتوس، أو غيرها من الآراء، في هذا الخليط اللانهائي من الآراء والأحكام الذي ينتج هذا العقل البشري الرائع بيقينه وتبصّره في كافة الأشياء التي يهتم بها، أقول: لا أرى سببًا يمنعني من أن أقبل بكل هذا، ومعه رأي أرسطو المتعلق بمبدأ الأشياء الطبيعية، الذي يبنيه انطلاقًا من عناصر ثلاثة: المادة والصورة والحرمان.

312. بل هل هناك بلادة أكثر من أن نجعل من الفراغ العلة التي تنتج عنها الأشياء؟ الحرمان مفهوم سلبي، فكيف جعل منه علة الأشياء ومصدر وجودها؟ لا أحد مع ذلك يستطيع أن يشرع هذا السؤال إلا باعتباره تمرينًا منطقيًا. فهو فعلًا يتمّ النقاش فيه، لا للشك في شيء ما؛ وإنما للدفاع عن مؤسس المدرسة[2] ضد الاعتراضات الأجنبية. فسلطته هي الهدف الذي لا يمكن بعده طرح الأسئلة.

313. صحيح أن من السهل بناء ما نريد على أسس معترف بها من الجميع، فباقي أجزاء الصرح ينبني بيسْرٍ ومن غير تناقض. بهذه الطريقة نجد أن عقلنا ذو أسس متينة، ويمكننا النقاش بكامل الطمأنينة. فأساتذتنا يحتلون مسبقًا الكثير من المجال في معتقدنا، بحيث يلزمهم لكي يستخلصوا النتائج المبتغاة، مثلهم مثل المهندسين بفرضياتهم، القبول والموافقة التي نمنحها لهم، والتي تعطيهم الوسيلة لجرنا وراءهم يمينًا

(1) ثمة ثلاثة أشخاص بهذا الاسم في التاريخ اليوناني، والمقصود هنا على الأرجح هو الشاعر المتنبي موسايوس الأثيني وهو شخصية أقرب للخيال منها للواقع، ذكر القديس أوغسطينوس في كتاب «مدينة الرب» أنه قال: «كلُّ ما جاء من الواحد إلى الواحد يعوده».

(2) أرسطو.

وشمالًا، وجعلنا ندور على أنفسنا على هواهم. ومن نمنح له افتراضاتنا هو سيدنا وإلهنا: وهو سيمنح لأسسه مخططًا واسعًا وملائمًا، بحيث بفضل تلك الأسس يمكنه أن يرينا إذا شاء حتى الغمام.

314. ومن هذه الطريقة في الاشتغال بالعلوم والمفاوضة بها، أخذنا حرفيًا عبارة فيثاغوراس القائل: إن كل خبير يلزم الثقة به في مجاله. فالجدلي يلجأ للنحوي بخصوص معنى الكلمات. والبلاغي يستقي من الجدلي موضوعات حجاجه. والشاعر يستعير من الموسيقي مقاييسه. والمهندس يأخذ من عالم الجبر الأحجام. والميتافيزيقيون يجعلون تكهنات الطبيعة أساسًا لهم. فكل علم له مبادئه المفترضة سلفًا، التي يجد الحكم الإنساني نفسه بها مُلجَمًا من كل جانب. وإذا ما أنتم هاجمتم هذا الحاجز، الذي يشكل الخطأ الأساس، فهم يردّدون لك هذه المسلَّمة: «ليس عليكم أن تناقشوا من يُنكر المبادئ».

315. والحال أن ليس ثمة من مبادئ أخرى لدى بني البشر غير تلك التي أوحى لهم بها الله. أما المبتدأ والوسط والمنتهى والباقي، فذلك ليس سوى أضغاث أحلام ودخان. وعلينا أن نعارض من يحاربون بالافتراضات وبالمسلَّمة نفسها موضوع النقاش، لكن مقلوبةً. فما يطرح المرء كمسلّمة لها السلطة نفسها التي لمسلّمة أخرى، إذا لم ينته العقل إلى وضع تمييز بينهما. علينا إذًا أن نضعها كلها موضع تساؤل، وأولها أكثر المسلَّمات انتشارًا، تلك التي تستبدّ بنا. الإحساس باليقين علامة على الجنون، وعدم اليقين التامّ. لا أحد أحمق ولا أقل فلسفة من المُتعالمين الذين ذكرهم[1] أفلاطون. علينا أن نعرف إنْ كانت النار حارة، والثلج أبيض، وإذا كان ثمة أشياء صلبة أو ليِّنة فيما نعرف من الأشياء.

316. والأجوبة على ذلك، كما نجدها في المتون القديمة، من قَبيل القول لمن يشك في الحرارة: أن يرمي نفسه في النار، أو لمن يشك في برودة الثلج: أن يضعه في حضنه، هي أجوبة لا تليق بمهنة الفيلسوف. لو كان هؤلاء

(1) أولئك الذين لهم عقل مليء بالأشياء المحفوظة من غير أن يبحثوا عن أسسها (انظر أفلاطون، الجمهورية، [73] V).

الناس تركونا في حالنا الفطري، نتلقى الانطباعات الخارجية كما تأتينا عبر حواسنا، وتركونا نتصرف حسب رغباتنا وطالعنا، كانوا سيكونون على حق في الحديث كما يفعلون. لكن هم الذين علمونا أن نكون حكَمًا على العالم؛ ومنهم أخذنا هذه الفكرة القائلة إن العقل الإنساني عليه أن يشمل كل شيء، وكل ما يوجد في خارج قبة السماء كما في داخلها، وأنه قادر على كل شيء، وأننا به نعرف كل شيء وبه كل شيء يغدو معروفًا.

317. هذا الضّرب من الجواب سيكون حسنًا لدى أكلة لحوم البشر، الذين يتمتعون بسعادة أن يعمّروا طويلًا في الحياة، التي يعيشونها بهدوئها وطمأنينتها، من غير تعاليم أرسطو ومن غير معرفة اسم علم الطبيعة. فهو جواب ستكون له قيمة أفضل لديهم، وسيكون أكثر صلابة، من تلك التي يمكن أن يستقوها من عقلهم أو خيالهم. فالحيوان وكافة الكائنات التي لا تزال تحتكم لقانون الطبيعة البسيط الخالص، يمكنها أن تفهم ذلك معنا، غير أنها تخلّت عن ذلك. ليس عليهم أن يقولوا لي: «إنه لأمر حقيقي بما أنك تحسّ به كذلك». عليهم أن يقولوا لي بالعكس إذا ما كان ما أعتقد إحساسه أحسه فعلًا، وإذا ما كنت أحسه. عليهم أن يقولوا لي لماذا أحسه وكيف وما هو؛ فليقولوا لي اسمه وأصله، وخصوصيات وعموميات البرودة؛ وخصائص الفاعل والذي يقع عليه الفعل. أو أن عليهم أن يتخلوا عن معتقدهم الذي يتمثل في عدم تقبّل أي شيء أو الموافقة عليه عن طريق العقل. إنه محكّ اختبارهم لأي شيء ولأي اختبار، وهو مليء بالأخطاء وبالنواقص.

318. وكيف يمكن أن نختبر أفضل هذا العقل إلا بنفيه؟ فإذا لم نستطع الوثوق به حين يتحدث عن نفسه، فكيف يمكن أن يكون قادرًا على الحكم على الأشياء الأخرى؟ وإذا كان له معرفة بشيء ما، فيلزم أن يكون ذلك معرفته بما هو وبموطنه. إنه يوجد في النفس، وهو جزء منها، أو أثر من آثارها. لكن العقل الحقيقي أي العقل الجوهري، ذلك الذي نستعير عن غير حق اسمه، هو الذي يوجد في الله. وفي ذلك موطنه وخلوته، ومن ثمّ ينطلق حين يشاء الله أن يرينا منه شعاعًا، كما حين انبثق العملاق بالاص من رأس أبيه كي ينكشف للعالم.

أين توجد النفس؟

319. لننظرْ إذًا ما الذي علمنا إياه العقل البشري عن ذاته وعن النفس؟ لا الروح عمومًا، التي يُشرك فيها أغلب الفلاسفة الأجرامَ السماوية والعناصرَ الأولية؛ ولا النفس التي يمنحها طاليس للأشياء ذاتها، التي نعتبرها جامدة، وازعُه في ذلك ملاحظته للمغناطيس؛ وإنما النفس التي نملكها والتي علينا أن نستقصي في معرفتها:

«ذلك أننا نجهل طبيعة النفس
هل تولد مع الجسد، أم تأتي إليه عند الولادة؟
هل تفنى في الوقت الذي نفنى فيه، بعد أن يدمّرها الموت؟
أم أنها بالمقابل تروح لمهاوي أوركوس*[(1)]؟
أم أنها تهاجر داخل حيوانات أخرى؟»[(2)].

320. يعتبر الفيلسوف كراتيس وديكايارخوس أن العقل يقول إن ليس ثمة من نفس، وإنما هو يتحرّك بحركة طبيعية[(3)]. أما أفلاطون فيعتبرها ماهية تتحرك بذاتها؛ ويعتبرها طاليس طبيعة لا راحة لها، وألكيبياديس يراها تمرينات للحواس؛ أما هسيودوس وأناكسيماندروس فيعتبرانها شيئًا مكونًا من التراب والماء؛ وبارمينيدس يعدّها من التراب والنار؛ وأمبيدوقليس يعتقد أنها من الدم.

«يتقيأ روحه دمًا»[(4)].
وأما بوسيْدونيوس وكليانثس وجالينوس فهي لديهم حرارة أو حالة حرارة:
«النفوس لها قوة النار بأصلها السماوي»[(5)].

---

(1) * إله العالم السفلي في الأساطير الرومانية.

(2)Lucrèce (47), I, vv. 113 sq.

(3) كافة الناشرين والشارحين لمقالات مونتيني يشيرون إلى أن هذا العرض لمختلف الآراء المتعلقة بطبيعة النفس مستقى من سيكستوس إمبيريكوس في كتابه «أوصاف واقعية»، ومن شيشرون (في كتابه «أكاديميات» [15]، وفي كتابه Tusculanes [21]).

(4)Virgile (112), IX, v. 349.

(5)Lucrèce (47), VI, v. 730.

=وهي لدى أبقراط روح منتشرة في الجسد؛ ولدى فارّو هي هواء يتم تلقّيه بالفم، ويسخن في الرئة ويغدو معتدلًا في القلب لكي ينتشر في كامل الجسد؛ ويعتبرها زينون جوهر العناصر الأربعة؛ ولدى هيراقليدس البُنطي هي النور؛ ويعتبرها زينوقراطيس والمصريون عددًا متنوعًا؛ فيما يعتبرها الكلدانيون قوة لا صورة محددة لها.

«إنها طريقة وجود للأجسام الحية
يسميها اليونانيون«هارمونيا»»[1].

321. علينا ألا ننسى أرسطو: فهو يعتبر أن النفس هي ما يحرك الجسد، ويسميها الوجود بالفعل أو الكمال الأول[2]. إنه ابتكار عقيم عُقم الباقي، لأنه لا يتحدث لا عن جوهر النفس ولا عن أصلها ولا عن طبيعتها، وإنما يكتفي بالإشارة إلى آثارها. وقد اعترف لاكتانتيوس وسينيكا وأغلب الفلاسفة الدوغمائيين أنها شيء لا يفهمونه. وبعد هذا العرض للآراء، يكتب شيشرون: «لله الحكم من بينها كلها أيها الرأي الحقيقي»[3].

322. يقول القديس برنار: «أما أنا فأعرف كم أن الله غير قابل للفهم، ما دمتُ لا يمكنني أن أعرف عناصر وجودي نفسها». كان هيراقليتوس، الذي يعتبر أن كل كائن مليء بالأنفس والشياطين، يزعم أننا مهما تقدمنا في فهم النفس، فلا يمكننا بلوغ ذلك حقًا؛ لأن جوهرها بالغ العمق.

323. كما أن الجدل في المكان الذي توجد فيها لا يقلّ حدّة. فأبقراط وهيروفيلوس*[4] يجعلان موقعها في بُطين الدماغ[5]. ويجعلها ديموقريطوس وأرسطو في الجسم.

«كما نقول عادةً بأننا «في صحة جيدة»

---

(1)Lucrèce (47), II, v. 100.

(2) «حالة من الكمال، والاكتمال التام للوجود، مقابل الوجود بالكمون، اللامكتمل».

(3)Cicéron (21), I, xi.

(4) * جراح وعالم تشريح يوناني من مواليد خلقيدون، يُعرف بأبي علم التشريح. والاسم محرّف في الأصل الفرنسي ولم يقف عليه المحقق.

(5) في التشريح التقليدي، كان يتم التمييز بين أربع بُطينات (مناطق) في الدماغ. لكن مونتيني يكتب «البُطين» فقط.

من غير أن نعني بذلك أنها جزء من الجسم»[1].
أما إبيقوروس فيجعل النفس في المعدة.
«ذلك أن قْشعريرة الخوف والخشية تصيبنا هناك
وهناك نحس مداعبات الفرح»[2].

ويجعلها الرواقيون في القلب وحوله. ويضعها إراسيستراتوس[3] قريبًا من الغشاء الذي يغلف الجمجمة. وأمبيدوقليس يجعلها في الدم، مثل النبي موسى الذي حرّم تناول دم الحيوانات لأن نفسها ترتبط به. وقد اعتبر جالينوس أن كل جزء من الجسم له نفسه الخاصة. وجعلها ستراتون*[4] بين الحاجبين. يقول شيشرون: «ليس علينا أن نبحث عما هي النفس، ولا في أي مكان توجد». وأنا أثبت هنا عبارته حرفيًا. فلماذا سأشوّه فصاحته؟ خاصةً أن لا فائدة كبرى في سرقة أفكاره، فهي قليلة وضعيفة ومعروفة.

324. بيْد أن البرهان الذي يجعل خريسيبّوس يضع النفس حول القلب مثل باقي فلاسفة مدرسته يستحق الانتباه له[5]. فهو يقول: «حين نريد التصديق على شيء، نضع اليد على الصدر؛ وحين نريد النطق بكلمة «أنا» (باليونانية) نحني الفك الأسفل نحو الصدر». ونحن لا يمكننا أن نقرأ هذا المقتطف من غير أن نسجل نزق شخصية عظيمة كهذه: فعدا أن هذه الاعتبارات ذات نزق لا يوصف، فإن الأخيرة منها إذا كانت تشكل دليلًا على أن النفس في ذلك المكان، فذلك لن يكون إلا لدى اليونان. فليس ثمة من حكم إنساني، مهما كان جدّيًا لا يكون أحيانًا فاترًا.

325. ما الذي نخاف قوله؟ ها هم الرواقيون، آباء الحكمة البشرية، يكتشفون أن نفس إنسان، سحقه انهيار في التربة، تترجرج وتجهد طويلًا في الخروج،

---

(1)Lucrèce (47), II, v. 103.

(2)Lucrèce (47), III, v. 140.

(3) * مُشرّح وطبيب يوناني عاش في النصف الأول من القرن الثالث قبل للميلاد، من مواليد جزيرة كيوس (كيا حاليًا) وعاش في الإسكندرية، حيث أسس فيها مدرسة للتشريح، ويُعد مؤسس علم وظائف الأعضاء.وهو حفيد الفيلسوف أرسطو.

(4) * المقصود هنا الفيلسوف المشائي ستراتون (توفي 270 ق.م تقريبًا) الذي تزعم مدرسة المشائين بعد الفيلسوف ثيوفراستوس.

(5) تشير طبعة لابلياد [61] لعام 2007 (الهوامش ص. 1605) أن هذا البرهان مستقى من ج. بروويس، حوارات ضد الأكاديميين الجدد، ص. 78.

ولا تستطيع التحرر من ثقل التراب، فتظل مثل فأرة في الشرَك. بعضهم يعتقدون أن العالم قد خُلق لعقاب الأرواح التي تجردت بخطيئتها عن الطهارة التي خلقت فيها، وذلك بمنحها جسمًا، لأن المخلوق الأول كان مجردًا من الجسم. لهذا فإنها، تبعًا لقربها أو بعدها من روحانيتها الأصل، يتم إدماجها في أجسام تكون بهذا الثقل أو ذاك، ومن ثم يأتي التنوع في المواد المخلوقة. بيد أن الروح التي تلقت عقابًا لها جسمَ الشمس، يبدو أنها قد اقترفت خطأً بالغًا واستثنائيًا. وفي نهاية تحقيقنا ننتهي دومًا إلى العماء. وكما يقول بلوتارخوس، بخصوص أصل القصص التي تُحكى: إنها مثل الخرائط الجغرافية، حيث تخوم الأراضي المعروفة تحتلها المستنقعات والغابات الكثيفة والصحاري والأراضي الخلاء. لهذا فإن المبالغات الخياليةالأكثر فجاجة وصبيانية نجدها لدى أولئك الذين يتناولون الأمور الأسمى والأعمق، وهي تنهار من ذاتها في فضولها وادّعائها.

326. يلتقي مبتدأ المعرفة ومنتهاها في السخافة نفسها. انظروا كيف يحلق أفلاطون عاليًا في سماء الشعر، انظروا لديه للغة السّرية للآلهة. لكن فيم كان يفكّر حين عرّف الإنسان كحيوان برجلين ومن غير ريش؟ لقد منح لمن يرغبون في التهكّم منه فرصة ممتازة ليقوموا بذلك. فهم بعد أن نزعوا الريش عن ديك حيّ صاروا يتجولون به منادينَهُ: «إنسان أفلاطون»!

327. أما الإبيقوريون، ألم يكونوا من البلاهة بحيث يتخيلون ذراتهم، التي يقولون عنها إنها أجسام لها وزن معين، ولها حركة طبيعية نحو الأسفل، قد بنت العالم؟ على الأقل حتى نبّهم خصومهم أن الأمر لو كان كذلك، فمن المحال أن تتلاقى وتنْشدَّ بعضها لبعض، بما أن سقطتها كانت عمودية وفي خط مستقيم، وتتم بالضرورة في مسارات متوازية! فوجدوا أنفسهم مضطرين لإضافة حركة جانبية تعود للصدفة. ثم إنهم انتهوا إلى منح ذراتهم أذيالًا ومنحنيات ملتوية؛ لجعلها قادرة على الترابط والتجمُّع.

328. ومع كل هذا، ها هم ينزعجون من أولئك الذين يعارضونهم بهذا الأمر: إذا كانت الذرات بفعل المصادفة المحضة، قد شكلت هذا القدر الكبير من الصور

والأشكال، فكيف لم تستطع أن تشكّل بيتًا أو حذاءً؟ ولماذا يُعتقد أن عددًا لانهائيًا من حروف اللغة الإغريقية إذا تم دَلْقها في ساحة عامة لا يمكن أن تنتج نصّ الإليادة؟ يقول زينون الكيتيومي: «**ما يستطيع أن يكون ذا عقل أفضل مما لا يستطيع ذلك. بيْد أنْ لا شيء أفضل من العالم: فهو إذًا يملك عقلا**»[1]. والبرهنة نفسها أفضت بكوتا[2] إلى جعل العالم رياضيًا؛ وأيضًا موسيقيًا وعازف أرغانون، تبعًا لبرهان زينون هذا: «**الكل أكبر من الجزء؛ نحن قادرون على الحكمة، ونحن جزء من العالم: فالعالم إذًا حكيم**»[3].

329. نحن نرى أمثلة كثيرة من النوع نفسه، تقوم على براهين لا تكون فقط خطأً وإنما بليدة وهشة، وتُبين لدى أصحابها لا فقط عن جهل بالغ وإنما عن السخافة. في النقد الذي يوجّهه الفلاسفة بعضهم لبعض، حول اختلافاتهم في الرأي وفي المدارس. فمن يستطيع جمع مزيج من الهُراء من «الحكمة» البشرية سيقوم بمعجزة. وأنا لي أيضًا مجموعة أنشأتها، من وجهة نظر لا تقل إفادةً واعتبارًا من تلك الآراء الجارية والمعتدلة. يمكننا الحكم من خلال ذلك عمّا علينا أن ننظر به للإنسان وعقله وروحه، بما أننا نجد عيوبًا بيّنة وفجّة لدى الشخصيات العظيمة، التي رفعت عاليًا القُدرات الإنسانية. وفيما يخصّني، أفضّل أن أعتبر أنهم تناولوا العلم مصادفةً، كما لو كان فقط لعبةً، واستخدموا عقلهم كما يستخدم المرء آلة ما لا أهمية لها، مقترحين كافة ألوان الأفكار والرؤى وأنواعها، بحيث تكون طورًا صارمةً، وطورًا ضبابيةً.

330. وأفلاطون نفسه، الذي يحدّد الإنسان كدجاجة، يقول في مكان آخر، بعد سقراط، إنه في الحقيقة لا يعرف ما هو الإنسان، وأنه أكثر العناصر في العالم استعصاءً على الفهم. إنهم بتقلبات آرائهم وتنوعها هذه يمسكون بنا في الأخير من اليد ويقودوننا ضمنًا إلى تلك النتيجة التي مفادها أنْ لا رأي قار لهم. وهم معتادون على ألا يقدموا رأيهم بصراحة وبشكل واضح؛ بحيث يخفونه تارةً في غموض الحكايات الشعرية، وتارةً أخرى خلف

(1)Cicéron (18), II, xxxvii, 93-94.

(2) قنصل روماني يذكره شيشرون في بعض رسائله.

(3)Cicéron '18), III, ix, 22-23.

أقنعة أخرى. فعدم كمالنا يتضمن أيضًا ذلك، أعني أن الأطعمة النيِّئة لا تلائم دومًا معدتنا، فعلينا تجفيفها وتغييرها وتحويلها. والفلاسفة يقومون بالشيء نفسه. إنهم يزرعون الغموض أحيانًا في آرائهم وأحكامهم الحقّة ويحولونها تكيُّفًا مع استعمال العوامّ. فهم كيْلا يدخلوا الرعب لقلوب الصبيان، لا يريدون التصريح بجهلهم، وتبيان ضعف العقل البشري، غير أنهم يكشفون لنا عن ذلك في شكل علم غامض وقليل الصلابة.

331. حين كنت بإيطاليا قدمت هذه النصيحة لشخص لا يتكلم الإيطالية، إذا كان لا يسعى إلا إلى أن يُفهم قوله من غير سعْي للتباهي: أن يستعمل فقط الكلمات الأولى اللاتينية والفرنسية والإسبانية أو الغاسكونية التي تتبادر إلى ذهنه؛ وأن يضيف إليها التابعة الإيطالية، فلن يخطئ في ذلك مصادفة لغة من لغات البلد سواء كانت توسكانية، أو رومانية أو بندقية أو بيمونتية أو نابولية، وسوف تمتزج الكلمة بذلك مع صيغة من هذه الصيغ العديدة جدًا. وأنا أقول الشيء نفسه عن الفلسفة: فهي لها العديد من الوجوه والتنويعات، وقد قالت الكثير الجمّ من الأشياء، بحيث يمكننا أن نعثر فيها على كافة أحلامنا و أوهامنا. فالخيال البشري لا يمكنه أن يتصور شيئًا حسنًا أو سيئًا لم يوجد من قبلُ فيه: «**لا يمكننا قول أي شيء، مهما كانت عبثيَّته، إلّا وعثرنا عليه لدى فيلسوف**»[1]. وأسمح لنفسي أن أترك نزواتي تنساب بحرية أمام الملأ: فبالرغم من أنها وُلدت فيَّ من غير أنموذج، أعرف أن علاقة ستولد بينها وبين رأي أو آخر من آراء القدماء، بحيث لن نعْدم أحدهم يقول: «من هنا استقى ذلك».

332. عاداتي طبيعية. فأنا لم أستنجد بأي تعليم كي أقيمها. وبالرغم من سذاجتها، حين جاءتني الرغبة في ذكرها، وألزمت نفسي بتعزيزها، بالاستدلالات والأمثلة؛ لكي أقدمها بشكل محترم للجمهور، اندهشت أنا نفسي بأني اكتشفت عن غير عمدٍ مني بأنها متوافقة مع الكثير من الأمثلة من الخطابات الفلسفية. من أي صنف كانت حياتي، ذلك أمر عرفته فقط بعد أن خبرتها وعشتها. إنها صورة جديدة للفيلسوف غير متوقّعة وغير قابلة للتوقُّع.

(1)Cicéron (16), II, 58.

333. وحتى نعود للنفس، حين جعل أفلاطون العقل في الدماغ، والغضب في القلب، والجشع في الكبد، ربما كان ذلك بالأحرى بتأويل حركات النفس لا بالسعي إلى التمييز والفصل كما يتم ذلك بين الجسم والأطراف. وأكثر الآراء معقولية للفلاسفة في هذا الموضوع، هي أن ثمة نفس واحدة هي ذاتها التي تتعقّل وتتذكّر، وتفهم وتحكم، وتشتهي وتمارس كافة الأنشطة الأخرى، مستخدمةً وسائل الجسم المختلفة، كما يسيّر البحّار سفينته تبعًا لتجربته، تارةً بشد الحبال أو إرخائها، وأحيانًا برفع سارية أو بتحريك دفّة القيادة، بحيث يُنتج العديد من الآثار بالجَهد نفسه. وهي توجد في الدماغ، كما نرى ذلك في كوْن الجِراح والحوادث التي يتعرض لها هذا العضو تعرِّض أيضًا للخطر ملكات النفس.

«الشمس لا تحيد عن طريقها أبدًا وسط السماء
ومع ذلك فهي تنير كل شيء بأشعتها»[1].

«مثلما أن الشمس تطلق من السماء نورها وقوتها وتملأ العالم
فباقي النفس، المنتثر في الجسم بكامله
يطيع ويتّبع أوامر الروح وحركاتها»[2].

334. قال بعضهم: إن ثمة نفسًا عامة، مثل جسم هائل عنه تصدر جميع النفوس الخاصة، وإليه تعود ملتحقةً باستمرار بهذه المادة الكونية.

«ذلك أن الله ينتشر في كل مكان، في الأراضي
وفي البحار، وفي أعماقِ السماء
ومنه تستقي الدواب والقُطعان والبشر والحيوانات المتوحشة
مبدأها الحيوي حين تولد
وإليه المعاد حين تتلاشى
فهنا لا مجال للموت»[3].

والبعض الآخر قال: إن هذه الأنفس لم تكن تقوم فيها سوى بالتلاقي والترابط؛ وآخرون إنها ناجمة عن الماهية الإلهية؛ وآخرون إنها صادرة

(1)Claudien, **Le Sixième consulat d'Honorius**, V, 411.
(2)Lucrèce (47), II, 144.
(3)Virgile (114), IV, 221-26.

عن الملائكة، بالنار والهواء. بعضهم يقول: إنها نفوس توجد منذ الأزل؛ وآخرون: إنها خُلقت في اللحظة التي تم فيها بالإحساس بالحاجة إليها. وبعضهم يعتقد أنها نزلت من كرة القمر وأنها إليها تعود.

335. أغلب المؤلفين القدماء يعتبرون أنها نفوسٌ تتوالد أبًا عن جدّ، بالطريقة نفسها وبنمط الخلق نفسه، الذي تولد به الأشياء الطبيعية الأخرى. وهم يبنون قولهم هذا على شبَه الأطفال لآبائهم.

«لقد ورثت فضيلة أبيك[1]
الشجعان يولدون من آباء شجعان وشديدي البأس»[2].

كما أننا نرى أن ما يتواتر بين الآباء والأبناء، ليست الملامح الجسمانية فقط؛ وإنما أيضًا طرائق الوجود والأمزجة، والميول والنَّوازع.

«لماذا كان الجنس القاسي للُّيُوث منذورًا للعنف؟
لماذا يتوارث الثعالب الحيلة والمكر
وتورَّث غريزة الفرار للأيائل، التي يجعلها الخوف رشيقة؟
لكل نفس بذرتها الخاصة، التي تنمو بعد ذلك»[3].

336. وهم يقولون أيضًا إن العدل الإلهي يتأسس فوقنا وهو الذي يعاقب الأطفال على الخطايا التي ارتكبها آباؤهم، خاصةً وأن عدوى الرذائل الأبوية تكون أحيانًا محفورة في نفوس الأبناء، وأن اضطراب إرادتهم يمسهم هم أيضًا. ويقولون أيضًا: إذا كانت النفوس آتية من شيء آخر غير التتابع الطبيعي، وأنها إن لم تكن شيئًا يوجد خارج الجسم، فيلزمها أن تتذكّر وجودها الأول، بالنظر إلى الملَكات الطبيعية التي لها في التفكير والتعقُّل والتذكُّر=

«إذا كانت النفس تلج الجسم عند الولادة
فلماذا لا نتذكر حياتنا السابقة؟
ولماذا لا يتبقّى لدينا شيء مما عملنا؟»[4].

(1) يقدم مونتيني هنا الترجمة اللاتينية لبيت شعري لهوميروس، الأوديسا، الجزء الثاني، ص. 71.
(2)Horace (37), IV, 4, 29.
(3) Lucrèce (47), III, 741.
(4)Lucrèce 47, III, 671.

337. فلكي نمنح لنفوسنا القيمة التي نبتغيها لها، علينا أن نفترض أنها عالمة بشكل بالغ، حتى وهي في بساطة خلوصها الطبيعي. ومن ثمَّ، بما أنها مُعفاة من سِجن الجسم، فهي ستكون قبل أن تدخله كما نريد لها أن تكون بعد أن تخرج منه. وعليها بالضرورة أن تحتفظ بذكرى تلك المعرفة حين تدخل جسمًا كما قال أفلاطون: «ما نتعلّم ليس سوى تذكُّر لما كنا نعلم به». وهو أمر خطأ كما يمكن لكل واحد أن يتأكد من ذلك[1]. أولاً لأن المرء لا يتذكّر بالضبط إلا ما تعلّم. ولأن الذاكرة إذا كانت تلعب دورها، فإنها ستقترح علينا على الأقل شيئًا يكون أكثر مما تعلمنا. من ناحية أخرى ما كانت تعرفه الذاكرة حين كانت في نقائها الأصل، كان معرفة حقة، ترجع للعقل الإلهي بالأشياء كما هي، أما في الدنيا فالكذب والرذيلة هو ما نعلّمه لها حين يتمّ تعليمها. فهي لا يمكنها أن تستعمل إذًا تذكُّرها، لأن هذه الصورة وهذا التصور لم يوجدا قطّ فيها.

338. أما القول بأن سجن الجسد يخنق ملَكات النفس الفطرية إلى درجة انطفائها فيه، فإن ذلك منافٍ للمعتقد القائل بأن قواها خارقة، وللآثار التي يدركها منها الناس في هذه الدنيا، وهي آثار عظيمة بحيث استنتج الناس من ذلك ألوهيتها وخلودها في الأزل وفي المستقبل.

«ذلك أن ملَكاتها لو فسدت كثيرًا
وفقدت النفس كل ذكرى لما فعلت
فهذه الحال لا تختلف كثيرًا-حسب رأيي- عن حال الموت»[2].

إضافة إلى ذلك، ففي الدنيا، لا في مكان آخر، علينا أن نمحِّص في قوة النفس وآثارها، فكمالاتها الأخرى هي لديها نافلة ولا جدوى منها، لأن الاعتراف بها، يلزم أن يكون في الوقت الحاضر، فتُجازى لذلك بالخلود، فهي لا تُحاسَب إلا بحياة الإنسان. وسيكون من باب الظلم حرمانها من وسائلها وقوتها، وتجريدها من سلاحها، لكي يتم فيما بعد التحرر من زمن أسْرها، ومن ضعفها ومرضها، ومن تلك الفترة التي تكون

(1) يعارض مونتيني هنا بوضوح نظرية «التذكر» التي يعرضها أفلاطون في محاورتي «فيدون» و«مينون» («ما نسميه تعلمًا هو إعادة تذكّر»). هذه النظرية «المثالية» للمعرفة لا تزال لحدّ اليوم تحظى باعتبار تابعي «علوم التربية» المزعومة، الذين يحيلون غالبًا إلى مونتيني. لكن الحديث كثيرًا عن مونتيني لا يعني بالضرورة أنهم قرأوه.
(2)Lucrèce (47), III, 674.

فيها مكرهة ومجبرة، ولكي يتم من ذلك استنتاج حكم عليها لفترة غير محدَّدة. كما سيكون من الظلم الاقتصار على وقت قصير، لساعة أو ساعتين، أو لقرن على الأكثر (وهو من منظور الأزل ليس سوى لحظة) وعدم اعتبار غير هذه اللحظة للحكم عليها. سيكون من باب عدم التبصر الظالم استنتاج تقدير خالد لحياة قصيرة جدًا.

339.ولتفادي هذه الصعوبة، يعتبر أفلاطون أن الأداء المستقبلي لا يلزم أن يتعدى مئة عام بالنظر إلى مدة حياة الإنسان، ولدى مفكري عصرنا، العديد منهم أيضًا أقاموا حدودًا زمنية لذلك. تبعًا لهذا، فإن الفلاسفة قد اعتبروا أن ولادة النفس كما حياتها ذاتها، متوافقة مع الشرط العادي للأمور البشرية. ورأي إبيقوروس وديموقريطوس هو الذي حظي بتلقٍّ أفضل بالنظر إلى مظهره الرائع: فيمكننا، حسبه، أن نرى ولادة النفس في جسم، حين يكون هذا الأخير قادرًا على ذلك، كما يمكننا أن نقف على نماء قوتها، كما على نماء القوى الجسمانية، وكذا التعرف على ضعف طفولتها، بالنظر إلى الوقت الذي فيه تبلغ قوة النضج، وفي الأخير الوقوف على انهيارها.

«نحن نحس فعلًا أن النفس تولد مع الجسم
ومعه تنمو وتشِيخ»[1].

340.وكانوا يلاحظون أن النفس قابلة لأن تشعر بالأهواء المختلفة، ويصيبها الاضطراب بحركات مُضنية، مما يجعلها تغوص في التعب والآلام، وأنها قابلة للفساد والتغير، وللبهجة والغفوة والفتور، وأنها تُعاني من أمراضها وجراحها نفسها، مثلها مثل المعدة والقدم.

«نحن نرى أن الروح تشفى كما الجسم
ويمكن أن تُعالج بالطب»[2].

ويمكنها أيضًا أن تتخدَّر وتضطرب بفعل الخمر، وتخرج عن طورها ببخار حمّى ساخنة، وتنعس بفعل استعمال بعض الأدوية وتُفيق بأخرى.

(1)Lucrèce (47), III, 446.
(2)Lucrèce (47), III, 505.

«ونحن نرى فعلًا أن النفس مادية
لأنها تحس بالصدمات الجسمانية وتتألم منها»[1].

341. لقد لاحظنا أن جميع الملكات يمكنها أن تتعرض للغيبوبة، فقط بسبب عضة كلب مريض، بحيث لا يمكن لأي صرامة للفكر، وأي مؤرد، وأي فضيلة، ولا أي قرار فلسفي، وأي صراع للقوى، مهما كانت كبيرة، من أن تمنعها من أن تخضع لهذه الحوادث. فلُعابُ صباح تعيس وهو يسقط على يد سقراط[2]، كافٍ كي يحطم كل حكمته، وكافة أفكاره العظيمة التي بناها، وتعطيلها بحيث لا يبقى منها أي أثر معرفته الأصلية.

«النفس مضطربة
وهي تنقسم، وعناصرها تتفتّت
بفعل هذا السمّ»[3].

342. وهذا السمّ لا يمكن أن يجد مقاومة في هذه النفس، أكبر من مقاومة طفل من أربع سنوات. إنه سمّ قادر أن يجعل الفلسفة بكاملها، لو كان لها جسد مادّي، مجنونة وهائجة. وهكذا فإن كاتو، الذي كان يسخر من القدَر ومن الموت نفسه، لم يستطع تحمُّل رؤية مرآة أو ماء، وقد استبدّ به الرعب وهو يتخيّل نفسه، وقد أصيب بسُعار كلب مسعور، وأصيب بالمرض الذي يسميه الأطباء «داء الكلب»[4].

«حين ينتشر الألم خلال كافة الأطراف
يمزّق النفس ويعذّبها ويجعلها تُرغي وتزبد
كما الموج يزْبد بفعل الرياح العاتية»[5].

343. في هذه النقطة، يمكننا القول إن الفلسفة قد سلَّحت جيدًا الإنسان؛ كي يتحمّل كافة الحوادث، بمنحه الثبات، وإذا ما كان الثبات صعبًا

(1)Lucrèce (47), III, 176.

(2) إشارة إلى اللعاب الناجم عن أثر السم، بعد أن ابتلعه سقراط.

(3)Lucrèce (47), III, 498.

(4) كان هذا المرض يعتبر من أمراض النفس في القديم. والأبيات التالية للوكريتيوس تحيل بالأحرى إلى الصرع لا إلى داء الكلب.

(5)Lucrèce (47), III, 494-96.

بلوغُه، بمنحه بهْجة سديدة تتمثل في الإفلات من كل إحساس[1]. لكنها وسائل مفيدة لنفس متحكّمة في ذاتها، ممتلكة لكامل قُواها، قادرة على التعقُّل والتفكير، لا في الوضعية المؤسفة، حيث نفْس الفيلسوف تغدو فيها نفسَ شخص مجنون مضطرب وضالّ. وهذه الحال يمكن أن ترجعَ في العديد من المناسبات، كما في حال قلق عنيف قد تخلقه النفس من تلقاء ذاتها، تحت تأثير ولَع بالغ، أو بفعل جرح في بعض أطراف الجسم، أو نابعة من المعدة التي تنتج اضطرابات ودُوارًا.

«الروح غالبًا ما تصبح ضالة حين يكون الجسم عليلا
فهي تغدو مجنونة وتطلق عبارات غير مفهومة
وأحيانًا يستبد بالنفس فتور وخَدر
ويغمسها في حال سُبات أبدي
فيما تنغلق العينان ويسقط الرأس»[2].

344. يبدو لي أن الفلاسفة لم يعيروا أي اهتمام أبدًا لهذه المسألة، ولا حتى لمسألة أخرى لها الأهمية ذاتُها. فلكي يجعلوا قدَر الإنسانية قابلًا للتحمُّل، نراهم يردّدون هذا الاختيار الصعب على الدوام: إما أن النفس فانية أو أنها أزلية. فإذا كانت فانية فليس عليها أن تخضع لأي شيء. وإذا ما كانت أزلية فهي ستسير وهي تتطوّر. بيْد أنهم لا يهتمون بالإمكانية الأخرى: ما الذي سيقع إذا هي سارت في تدهور؟ إنهم يتركون للشعراء خطر ألوان العذاب المقبلة، وبذلك يخرجون منها سالمين. إنهما أمران منسيان في الغالب في السواد الأعظم من مؤلفاتهم. وسأعود للمسألة الأولى.

345. هذه النفس تفقد حينئذٍ استعمال الخير السّديد للرواقيين، الذي يتطلب الثبات والحزم. وعلى حكمتنا البشرية الرائعة أن تقبل بذلك، وأن تستسلم بخصوص هذه النقطة. علاوة على هذا، فهم كانوا يعتبرون أيضًا، بسبب غرور العقل البشري، أن المزج والتعايش بين عنصريْن يكونان متعارضيْن، تعارضَ الكائن الفاني والخالد: أمر لا يمكن تصوُّره=

(1) يتعلق الأمر هنا بالانتحار.

(2) Lucrèce [47] III, 464.

«ذلك أن توحيد الفاني والأزلي، والاعتقاد
أنهما سيحسان الأمر نفسَه ويتعاضدان، ضرب من الجنون.
ليس من تناقض ولا من تنافر أكبر
من هاتين الماهيّتيْن، الفانية والأزلية
وكيف نزعم توحيدهما هكذا
كيف نُشرعهما معًا للعواصف العاتية؟»[1].

=وهم كانوا يحسون جيدًا أن النفس تسير نحو الموت مثلها مثل الجسم=

«إنها تنهار معه تحت ثقل السنين»[2].

346. =ذلك ما تبيّنه لنا بوضوح صورة النوم، حسب زينون، لأنه يعتبر أن الأمر يتعلق هنا بنقص وانهيار للنفس كما للجسد. «**إنه يرى في النوم انكماشًا للنفس وهمودًا لها**»[3]. وكوننا نلاحظ لدى البعض أن قوتها تبقى حتى نهاية الحياة، فهو أمر يعزونه لتنوع الأمراض، بالشكل نفسه الذي نرى به أناسًا في نهاية الحياة يحافظون أحدهم على حاسة أو أخرى، أحدهم على السمع والآخر على الشم من غير أن يفسدا. ونحن لا نرى وَهنًا كوْنيًا، مثل هذا لا تبقى فيه بعض الأجزاء سليمة وقوية.

«كما أن الأرجل يمكن أن تكون مريضة
من غير أن يلمَّ بالرأس أي ألم»[4].

إن رؤية حكمنا للحقيقة كرؤية البوم للمعان الشمس، كما يقول أرسطو. كيف يمكننا البرهنة على ذلك إلا بهذا العماء أمام نور بهذا السطوع؟

خلود النفس

347. والرأي النقيض، هو المتمثل في خلود النفس الذي كان، حسب

---

(1)Lucrèce (47), III, 801.
(2)Lucrèce (47), III, 549.
(3)Cicéron (16), II, 58.
(4)Lucrèce (47), III, 111.

شيشرون، قد أتانا به فيريكيديس السّيروسي حسبما جاء في الكتب، في زمن الملك تولّوس (غير أن آخرين ينسبون ابتداعه لطاليس، وآخرون ينسبون ذلك لآخرين غيره)، وهو الجزء من العلم الإنساني الذي تمّ تناوله بالكثير من الحذر والشك. والدغمائيون الأكثر صرامة يجدون أنفسهم مضطرين، خاصةً في هذه المسألة،إلى أن يغلّفوا رأيهم بظلال الأكاديمية. ولا أحد يجهل ما جاء به أرسطو في هذه الموضوع، ولا القدماء عمومًا، الذين يتناولونه بثقة نفس متأرجحة. «**إنه لأمر رائع أن يعِدوا أكثر مما يبرهنوا**»[1]. ولقد اختبأ أرسطو خلف ضبابية العبارات والمعاني، ضعيفة الوضوح والمعقولية، وترك تابعيه يتجادلون في حكمه كما في المسألة نفسها. وفي رأيهم ثمة شيئان يجعلان هذا الرأي مقبولًا: أولهما أننا من غير خلود النفوس، لا يمكننا إرساء الوعود النافلة للمجد، وهي مع ذلك ذات أهمية بالغة في هذه الدنيا؛ وثانيهما، كما يقول أفلاطون، أنها فكرة نافعة أن الرذائل، إذا كانت تتوارى عن أنظار العدل الإنساني، فهي تصطدم باستمرار بالعدل الإلهي، الذي سوف يتابعها حتى بعد موت الآثمين.

348. يظلّ الإنسان مهتمًا كثيرًا بتمديد حياته، وهو يوظف لذلك كافة مَلكاته. فلكي يحافظ على جسده، نراه يمارس الدفن في القبور؛ ولكي يحافظ على اسمه، له المجد. كان غير قادر على تحمل قدَره الإنساني، استخدم ذكاءه كاملًا، في إعادة بناء ذاته وتعزيزها باختراعه. ولمّا كانت النفس لا يمكن أن تظل واقفة، بفعل اضطرابها وضعفها تسعى باستمرار وراء العزاء والآمال والأسس، أو أي ظروف خارجية يمكن أن تتعلّق بها. ومهما كانت الآمال التي يصوّر لها خيالها صلبة، فهي ترتكز عليها بثقة أكثر من ذاتها وعن طواعية.

349. وأكثر الفلاسفة تشبثاً بفكرة خلود أرواحنا -التي لا يمكن الشك في صحتها ووضوحها- من الغريب الوقوف على مدى عجزهم عن إرساء هذه الحقيقة بقواهم البشرية وحدها. «**إنها أحلام إنسان يملك الرغبة غير أنه لا يبرهن على شيء**»[2] كما يقول أحد القدماء. يمكن

(1)Sénèque (96), CII.

(2)Cicéron (15), II, 38.

للإنسان أن يدرك من خلال ذلك، أنه يكتشف الحقيقة بنفسه، بفعل القدَر والصدفة وحدهما، بما أنها حين تكون بين يديه، لا يستطيع البتة الإمساك بها، والحفاظ عليها، وعقله لا يملك الفرصة للاستفادة منها. كل الأشياء التي تنتجها قدرتنا على المعرفة والحكم، سواء كانت مبنيةً على الصحّة أو الخطأ، غير موثوق بها، وتثير الجدل. فالله لكي يعاقبنا على كبريائنا، ويعْلمنا ببؤسنا وعِنَّتنا، زرع البلبلة في برج بابل القديم.

350. إن كل ما نقوم به من غير معونته، وكل ما نرى من غير أن نستنير بنعمته، ليس سوى غرور وجنون. فنحن بضعفنا نفسد جوهر الحقيقة نفسه، المنسجم والثابت، حين تمنحنا الصدفة الإمساك به. مهما كان السلوك الذي يتبنّاه الإنسان، يعمل الله دومًا على أن ينتهي إلى تلك البلْبلة التي يمنحنا صورة عنها بالعقاب العادل، الذي أنزله بالكبرياء المغرورة للنمرود، بحيث أبطل محاولاته اليائسة لبناء هرمه[1]. «**سأبيد حكمة الحكماء، وأرفض فهم الفُهماء**»[2]. وتنوع اللغات واللهجات الذي به بلْبل هذا الصّرح، أهو شيء آخر غير تنافر وجهات النظر والأدلة، الذي يصاحب المجهودات الفاشلة، لبناء العلم الإنساني؟ وبشكل لا جدوى منه.ما الذي يمكن أن يصْرفنا عن ذلك إذا ما كانت لنا فقط بذرة علم؟ وما يقول هذا القدّيس يسعدني كثيرًا: «**الظلمات التي تحيط بما هو نافع لنا هي تمرين لنا على التواضع وكبح لكبريائنا**»[3]. إلى أيّ حدّ من الادّعاء ومن الوقاحة نسير بعمانا وبسخافاتنا؟

351. ولأعدْ إلى موضوعي. من العادي جدًا أن حقيقة هذا المعتقَد النبيل، نحن لا ندين بها إلا لله ولنعمته، لأننا بمشيئته نتلقّى ثمرة الخلود، أي التمتع بالنعيم الرباني.

352. لنعترفْ بصدقٍ بأن الله وحده من قال لنا هذا، والإيمان أيضًا، فذلك ليس من تعاليم الطبيعة ولا العقل. ومن سيحلّل وجوده وقوّته، باطنًا وظاهرًا، من غير هذا الامتياز الرباني، ومن سيتأمل الإنسان من

---

(1) يعني برج بابل.

(2)Saint Paul, **Épître aux Corinthiens** I, 1, 19 ; Saint Augustin, **Cité de Dieu** [8] X, 28.

(3) Saint Augustin [8] XI, 22.

غير تجميله، لن يرى فيه قيمةً أو قدرةً، لا تنبعث منها رائحة الأرض والموت. فكلما أعطينا الله وأعدنا له عطاءه، تصرفنا بشكل مسيحي.

353. ما يزعم هذا الفيلسوف الرواقي أنه استقاه، من القَبول العادي للحكمة الشعبية، ألم يكن من الأفضل له أن يستقيه من الله؟ «**حين نناقش خلود النفس، فإن القبول الجماعي للناس، الذين يخشون آلهة جهنّم أو يكرمونها، ليس برهانًا قليل الثقل. وأنا أستفيد أيما استفادة من هذا المعتقد العام**»[1].

354. إن هشاشة الدلائل البشرية في هذا الموضوع، تظهر بالأخص عبر الظروف العديدة التي يربطونها بهذه الفكرة، لكي يجدوا طبيعة هذا الخلود الذي هو خلودنا. لنتركْ جانبًا الرواقيين: «**إنهم يمنحون لنا عمرًا طويلًا كما للغربان؛ ويقولون إن نفوسنا يلزم أن تعمّر طويلًا، لا بشكل أبدي**». فهم يمنحون للنفوس حياة تجاوز الحياة الدنيا، لكنها حياة محدودة. والفكرة الأكثر كونية والأكثر مقبولية والتي وصلتنا، كانت هي ما نُسب لفيثاغوراس، لا لأنه أول من قال بها، وإنما لأنها تستمد وزنًا وصدقية كبيرة بموافقته عليها، نظرًا لكبَر شأنه. وهي تقول: إن النفوس حين ترحل عنا لا تقوم سوى بالتنقّل من جسم لآخر، من ليث إلى حصان ومن حصان إلى ملك، متنقلة بذلك من مقام إلى مقام[2].

تناسخ الأرواح

355. وهو نفسه قال: إنه تذكّر أنه كان في جسد أيثاليديس*[3]، ثمّ إيوفوربوس*[4] ثمّ هيرموتيموس*[5]، وأخيرًا بيروس*[6]، ليمر أخيرًا إلى فيثاغوراس،

(1)Sénèque (96), cxvii.

(2) إنه مذهب تناسخ الأرواح الذي تم الحديث عنه آنفًا.

(3) * ابن الإله هيرميس في الأساطير اليونانية، وكان يتمتع بحافظة خارقة فيكاد لا ينسى أي شيء.

(4) * أحد أبطال حرب طروادة.

(5) * فيلسوف إغريقي عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

(6) * ربما المقصود بيروس الأثيني المثّال الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

متذكّرًا بذلك نفسه منذ مئتين وست سنوات[1]. ويضيف بعضهم أن هذه النفوس تصعد أحيانًا إلى السماء لتنزل منه بعد ذلك.

«يا أبي هل علينا الاعتقاد بأن هذه النفوس تتعالى حتى السماء
وتتلبَّس من جديد أجسامًا لها ثقل؟
كي تلهم هؤلاء التعساء
رغبةً عارمةً في الحياة كهذه؟»[2].

356. أما أوريجينيس فهو يجعلها تراوح باستمرار بين الحال الحسن والحال السيّء[3]. ويزعم فارّو أن النفوس بعد أربع مئة وأربعين عامًا من هذه التغيرات تعود لجسمها الأول. ويعتقد خريسيبّوس أن ذلك يلزم أن يحدث بعد وقت غير معروف وغير محدّد. ويقول أفلاطون، نقلًا عن بّنداروس والشعر القديم، بفكرة التقلبات المستمرة للتحولات التي تُكتب للنفس، بحيث لا ينتظرها غير العذاب والجزاء المؤقت في الآخرة، لأن حياتها فيها مؤقتة أيضًا. وينتهي إلى أنها تملك معرفة استثنائية بشؤون السماء والجحيم والدنيا التي مرّت بها مرارًا وأقامت بها مرات، وهو ما يمنحها مادة للتذكُّر.

357. وإليكم ما يقوله في مكان آخر عن تلك التحوّلات: «من عاش في الخير يلتحق بالجزْم المخصّص له. ومن عاش في الشرّ يدخل في جسم امرأة. وإذا هو رغم ذلك لمْ يصلح نفسه، يتحول إلى حيوان يلائم سلوكه الرذيل؛ ولن ينتهي عقابه حتى يعود إلى شكله الطبيعي، حين سيتجرد بمجهود عقله، من الملامح الفظة والبليدة والأولية التي كانت فيه»[4].

358. لا أريد مع ذلك أن أهمل الاعتراض الذي قام به الإبيقوريون على هجرة النفوس من جسم لآخر، لأنه ممتع: فهم تساءلوا عما سيحدث، إذا ما

(1)Diogène Laërce (45), VIII, 5.

(2) Virgile (112), VI, 719.

(3) حسب القديس أوغسطينوس، مدينة الرب [8]، 17، 16، XXI. والأمر نفسه بخصوص فارّو.

(4)Platon (74), 42, b-c.

كانت جمهرة الميتين، أكبر عددًا من جمهرة المولودين؟ حينئذٍ فإن النفوس التي انتُزعت من مأواها، سوف تتدافع وتتزاحم لتحصل على المكان الأول في جسم جديد. كما أنهم يتساءلون: كيف ستزْجي وقتئذٍ في انتظار شغور مكان تأوي إليه. أو بالعكس، فهم يقولون: إذا ما كان المولودون من الكائنات الحية أكثر من الميتين منهم، فإن الأجسام ستكون في حال يُرثى لها في انتظار نفس تُنفث فيها، وأن بعضها ستموت قبل أن تحيا.

«أليس من السخافة الافتراض بأن النفوس تنتظر
دورها في وقت علاقات الجماع التي تثيرها الإلهة فينوس
وولادة الحيوانات المتوحشة، بحيث إن النفوس الخالدة
تتزاحم لكي تنعم بأعضاء فانية
وتتجارى لتبلغ مرادها؟»[1].

359. بعض المفكرين أخضعوا النفس لجثث الميّتين، فهي التي تحرك الثعابين والدود وغيرها من الهوام، التي تتولّد، كما قيل، عن فساد أطرافنا بل ورمادنا أيضًا. والبعض الآخر يقسمها إلى جزءٍ فانٍ وجزءٍ خالد. والبعض الآخر يعتبرونها جسمانية، ورغم ذلك خالدة. وبعضهم يجعلونها خالدة، ولا علم لها ولا قدرة على المعرفة. بل إن من بين المسيحيين من اعتبر أن بعض نفوس المحكوم عليهم تولد من الشياطين، مثلما يعتقد بلوتارخوس أن هناك آلهة تولد من النفوس التي نعمت بالخلاص. فثمة القليل من الأشياء التي يؤكدها هذا المؤلف توكيده لهذا الأمر، فيما يحافظ في ما عدا ذلك على موقف ارتيابي وغامض.

360. وهو يقول: «علينا أن نعتقد بصرامة، أن نفوس الناس الفاضلين تصبح قدّيسة، تبعًا للفطرة والعدل الإلهي، والقديسة تصبح أنصاف آلهة؛ وأنصاف الآلهة بعد أن تتطهر وتتنظّف من الأدران تمامًا، كما يحدث ذلك في مراسيم التطهير، وتتخلص من كل إمكان للعذاب ومن كل خطر للموت، تصبح حينئذٍ بشكل معقول آلهة تامة وكاملة بانتهائها إلى نهاية سعيدة ومجيدة»[2]. لكن إذا أراد أحد أن يراه يمارس المسايَفة بشكل

---

(1)Lucrèce (47), III, 777 ;
(2)Plutarque (78), XIV.

أكثر جرأة، ويحكي لنا عن المعجزات في هذه المسألة، هو الأكثر اعتدالًا وتحفظًا من بين مجموع المؤلفين، فإنني أحيله إلى رسالته «عن القمر»[1] وإلى رسالة «شيطان سقراط»، حيث يمكننا بشكل أكثر بدهية أن نرى كيف أن ألغاز الفلسفة لها العديد من الأشياء الغريبة المشتركة مع الشعر. فالفهم البشري يلاقي الضلال وهو يسعى إلى سبر أغوار الأشياء حتى تخومها، والتحكّم فيها مثلنا نحن حين نرتدُّ إلى الصبيانية،وحين نعيش تعب وهموم المسير الطويل لحياتنا. هي ذي إذًا الدروس الجميلة والأكيدة، التي يمكن أن نسْتقي من المعرفة البشرية عن النفس.

361. وما تخبرنا به عن الجسد ليس بأقلّ مجازفة. لنختر من ذلك مثالًا أو مثالين، وإلا سوف نتيه في هذا البحر المائج من الأخطاء الطبية. لنرَ على الأقل إن كنا نتفق على الطريقة التي بها يتناسل بنو البشر. وفيما يخص ظهورهم الأصلي، فليس من الغريب أن يتشتت العقل البشري ويضطرب، إزاء هذا الحدث البالغ الأهمية والأقدمية. فأرخيلاوس*[2] عالم الطبيعة الذي كان سقراط تلميذه وغلامه قال -حسب أريستوكسينوس*[3]- بأن البشر كما الحيوانات قد خُلقوا من طمي أبيض ناجم عن حرارة الأرض. يقول فيثاغوراس: إن نطفتنا هي زَبَد خيرةِ ما فينا من دمٍ. ويقول أفلاطون إنها تأتينا من سيلان النخاع الشوكي، ويستند في ذلك على كون ذلك المكان هو الذي نحس فيه أولًا بتعب الجماع. ويعتقد ألكمايون أن ذلك جزء من مادة الدماغ، ويقدم دليلًا على ذلك أن الرؤية تتضبب، لدى أولئك الذين يُقبلون كثيرًا على ممارسة الجِماع. والأمر يتعلق لدى ديموقريطوس بمادة آتية من مجموع الجسم.

362. يعتقد إبيقوروس أن النطفة تأتي من النفْس الحالّة في الجسم. وأرسطو يعتبر أنها إفراز لما يغذّي الدّم، والأخيرة التي تنتشر في أطرافنا. ويعتقد آخرون أنها دم مطبوخ يتحول بفعل حرارة الأعضاء التناسلية؛ مستندًا إلى كوننا في الجماع القوي جدًا نُفرز دمًا. وهذا الرأي الأخير يبدو الأكثر وجاهةً إذا ما نحن استطعنا من هذه البلبلة التامة أن نستخرج احتمالًا ممكنًا.

(1) هو في الحقيقة: «عن الوجه الذي يظهر في دائرة القمر»، ضمن بلوتارخوس [78]، المجلد الثاني، LXXII، ص. 614. والإحالة المقبلة هي في المرجع نفسه، المجلد الثاني، LXXIII، ص. 636.

(2) * فيلسوف إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، كان تلميذ أناكساغوراس ويُعتقد أنه كان معلم سقراط.

(3) * أريستوكسينوس التارنتي فيلسوف إغريقي من مدرسة المشّائين عاش في القرن الرابع قبل الميلاد.

363. وكم نجد من الآراء المتناقضة لكي نفسر كيف تبلغ تلك النطفة هدفها. فأرسطو وديموقريطوس يعتبران أن النساء ليس لهن منيّ، وأن ما يفرزنه تحت سطوة الشهوة واللذة، ليس سوى إفرازٍ لا فائدة منه للتناسل. ويرى جالينوس وتابعوه أن من غير تلاقي النُّطف فالتناسل لا يمكن أن يتمّ. وها هم الأطباء والفلاسفة ورجال القانون وعلماء اللاهوت، في صراع فوضوي مع نسائنا، حول الوقت الذي تحبل فيه النساء. وأنا، تبعًا لتجربتي الخاصة، أساند أولئك الذين يقدّرون وقت الحمل بأحد عشر شهرًا. والعالم يستند على هذه التجربة، وليس ثمة من امرأة صغيرة وساذجة بحيث تقول رأيها في هذا النقاش، ومن ثم لن نكون على وفاق حول هذا الأمر.

364. وهذا يكفي للبرهنة على أن الإنسان لا يعرف عن نفسه، حين يتعلق الأمر بجسده، أكثر مما يعرف عن روحه. لقد وضعناه في مواجهة نفسه، وعقلَه في مواجهة ذاته، لكي نرى ما سيقول لنا. ويبدو لي أنني قد برهنت بما يكفي، على أن عقله لا يفهم نفسه بما فيه الكفاية. ومن لا يفهم ذاته، ما الذي يمكنه أن يفهم؟ «**كما لو أن المرء يمكنه أن يقيس شيئًا إذا كان لا يعرف كيف يقيس نفسه!**»[1].

365. والحقيقة أن بروتاغوراس قد حكى لنا أشياء أغرب، حين جعل من الإنسان مقياسًا لكل شيء، هو الذي لم يعرف أبدًا مقياس ذاته! فكرامته لا تسمح له أن يكون لمخلوق آخر ذلك الامتياز، إن لم يكن له هو. والحال أنه في تناقض بالغ مع نفسه، إذ إن كل حكم له ينقلب على آخر، وبحيث إن هذا الموقف الإيجابي ليس سوى مُزحة، بحيث يقودنا حتمًا إلى أن نستنتج من ذلك تفاهة الأداة، كما تفاهة القائم بالقياس. حين يعتبر طاليس أن معرفة الإنسان عسيرة جدًا على الإنسان ذاته، فهو يبيّن له أن كل معرفة أخرى مستحيلة عليه بالضرورة.

(1)Pline (77), II, 1.

366. وأنتِ[1]، وقد قمتُ بعرضٍ مطوَّل، على غير عادتي، لن تألي جهدًا في الدفاع عن سيبيودا بأسلوب البرهنة الذي تتدرّبين عليه كل يوم، وتمرّنين به خلال ذلك عقلك ودراستك؛ ذلك أن هذه الحيلة الأخيرة من المسايفة التي تحدثت عنها للتوّ، لا يلزم استعمالها إلا كدواء أخير. إنها ضربة يائسة بها تتخليْن عن سلاحك، لتُفقدي الخصم سلاحَه، فهي طعنة سرية يلزم استعمالها نادرًا وبشكل ماكر. فمن التهوّر أن يخسر المرء نفسه، كي يتسبّب في خسارة شخص آخر.

367. لا ينبغي للمرء أن يرغب في الموت قصد الثأر كما فعل غوبرياس[2]. فقد كان هذا الأخير يصارع مباشرة أحد نبلاء بلاد فارس، حين ظهر داريوش وسيفه في يده، غير أنه خشي أن يضربه بسيفه، مخافة أن يصيب غوبرياس نفسه. فطلب منه هذا الأخير أن يضرب الخصم ضربةً حاسمة بالرغم من أنه كان سيطعنهما معًا.

368. لقد كنت شاهدًا على إنكار أسلحةٍ وشروطِ مصارعةٍ خاصة ويائسة، باعتبارها غير أخلاقية، بحيث إن من يمنح نفسه لذلك يعرّض نفسه للموت حتمًا صحبة خصمه. فلقد أسر البرتغاليون في المحيط الهندي بعض الأتراك. ولأن هؤلاء لم يطيقوا حال أسْرهم، أخذوا قرارًا نجحوا فيه: فقد قاموا بحكّ مسامير السفينة واحدًا مع الآخر، وحصلوا على شرارات نار فوق براميل البارود التي كانت في محبسهم، وهكذا أشعلوا النار في أنفسهم وفي آسريهم والسفينة، ليهلك الجميع[3].

369. نحن نصطدم هنا بالحدود النهائية للعلوم: فالغلوّ فيها أمر ضارّ مثلما هو الحال في الفضيلة. الْزَموا السبيل المشترك، فليس من الجيّد أن يكون بالغ الدقة والرّقة كالسّراط. لتتذكّروا المثل التوسكاني: «ما تكثرُ رقته يسهل كسره». وأنا أنصحكم أن تتّبعوا في سلوككم، بل

(1) يُعتقد غالبًا أن هذا الفصل الأطول من بين «مقالات» مونتيني قد يكون موجهًا لمارغريت دو فالوا، ابنة هنري الثاني وكاترينا دي ميديشي، وزوجة هنري الثالث ملك نافارا الذي سيصبح هنري الرابع.

(2) هذه الشخصية تظهر في رسالة بلوتارخوس بعنوان: [78] «كيف يمكن التعرف على المتملّق»، IV.

(3) قصة مستقاة من غولار [31]، تاريخ البرتغال، الجزء الثاني عشر، ص. 23.

في كل شيء آخر، الاعتدال والاتّزان. أضْربوا عن الجديد والغريب، فالسُّبل الموارِبة لا تروق لي. فأنتِ، بالسلطة التي تمنحها لك عظمتك، علاوة على مزاياك الشخصية، يمكنك بطرِف لحْظٍ أن تتحكّمي في منْ تريدين، كان بإمكانك أن تكلفي بهذه المهمة شخصًا أديبًا كان سيغني بشكل مغاير هذه الأفكار ويعزّزها. وهاكِ مع ذلك ما يكفي منها، لما يمكنك أن تفعلي بها.

370. قال إبيقوروس عن القوانين: إن الأسوأ من بينها ضرورية، بحيث من دونها كان الناس سيتقاتلون. ويؤكد أفلاطون أيضًا أننا من غير شرائع كنا سنعيش مثل الحيوان. عقلُنا أداة جوّالة وخطيرة ومتهوّرة؛ إذ من الصعب أن نُدخل له النظام والاتزان. واليوم فإن من يملكون بعض التفوق على الآخرين، ولهم حيوية ذهن وقّاد، نراهم يتحرّرون تقريبًا، من كافة القواعد المشتركة في مجال الرأي والعوائد، بحيث من النادر أن نجد من بينهم واحدًا، يكون متزنًا، واجتماعيَّ الطبع.

371. إنّنا على حق أن في نضع للعقل البشري حدودًا ضيقة ما أمكننا ذلك. ففي الدراسة كما في أي شيء آخر يلزم أن تكون خطواته محسوبة ومنظمة كما يجب، ومن اللازم التحديد المنهجي لمجال اشتغاله. لقد تم لجْمه وتكْميمه بالديانات والقوانين، والعادات والعلوم، والتعاليم والعقوبة، والجزاء في الدنيا والآخرة؛ ومع ذلك نرى أنه ينفلت من كل هذه العُرى بفعل حركته وعدم ثباته. إنه جسم أجوف، لا نعرف من أين نمسك به ولا كيف نوجّهه؛ وهو إلى ذلك جسم متنوّع ومتعدِّد الأشكال لا يمكن عَقْده ولا التحكّم فيه. صحيح أن القليل الأقلّ من النفوس تتمتع بالصرامة والقوة وشرف الأصل، كي نثق في سلوكها، بحيث تستطيع السير مُبحرة باعتدال ومن غير تهور في حرية أحكامها، فيما وراء الآراء المشتركة. ومن الأجدى وضعها تحت الوصاية.

372. العقل البشري سيف حاد خطير، وهو كذلك حتى لمالكه، إذا لم يعرف كيف يستعمله بحذرٍ وتبصُّر. ليس هناك من حيوان يلزم منحه،عن

حقّ، غِمامات؛ كي يظل نظره مثبتًا على خطاه ومنعه من أن يهيم على وجهه، هنا وهناك خارج الدرْب، الذي خطّته العادات والقوانين. سيكون من الأمثل لكِ إذًا، أن تبقيْ ناهجةً المسالك المعبّدة مهما كانت، على أن تتركي نفسك تنصاع لحرية لا رادع لها. لكن إذا بدأ أحد هؤلاء «الدكاترة» الجدد[1] في استعراض معارفه في حضرتك، على حساب خَلاصك وخلاصه، كي يخلّصك من هذا الطاعون القاتل، الذي يتفشّى كل يوم في بلاطاتكم، فإن هذا النظام الوقائي في الضرورة القصوى، سوف يمنع عدوى هذا السمّ من أن يضرّ بك وبمحيطك.

373. كانت الحرية لدى القدماء، وجرأتهم الفكرية، تولِّد في الفلسفة والعلوم الإنسانية، العديد من المدارس ذات الآراء المختلفة، بحيث إن كل واحد منها، يجهَد في الحكم والاختيار، قبل أن ينحاز لأيٍّ كان. لكن اليوم، حيث صار الناس يسيرون بالخطوات نفسها، «**مرتبطين ومشدودين لبعض الآراء الثابتة والمحدَّدَة، حتى أضْحوا يدافعون حتى عن الآراء التي لا يتفقون معها**»[2]، وحيث أن الثقافة تفرضها علينا السلطة المدَنية، وأن المدارس ليس لها غير أنموذج واحد، ومعها التعليم نفسه، أضحى الناس لا ينظرون لوزن النقود وقيمتها، وإنما صار كل واحد بدوره، يقبَل بالثمن المتفق عليه، الذي تحدّده القيمة الجارية لها: لم تعد النقود يُحكم عليها بقيمتها الخاصة وإنما باستعمالها، وكذلك الأمر بخصوص قيمة كافة الأشياء. لقد صار الناس يقبلون بالطبّ كما يُقبل الهندسة. والحيل والسحر، أو «حلّ عقْد فحولة الرجل بالسحر»، ومناجاة أرواح الموتى والتكهن بالمستقبل، والأبراج حتى تلك المتابعة السخيفة «لحجر الفلاسفة»، كل شيء صار يتمّ قَبوله من غير نفور.

374. يكفي أن نعلم في مجال العِرافة أن «مكان مارس» يوجد في مثلث راحة اليد[3]، ومكان الزُّهرة في الإبهام، ومكان ميركوروس في الإصبع الصغير، وأن «خط القلب» إذا قطع مفْصل السبابة فذلك علامة على القسوة.

(1) يعتبر الشرّاح أن المعنيين هنا علماء جدد يزدرون كافة الديانات وينكرونها.

(2)Cicéron (21), II, 2.

(3) قراءة الطالع (أو فن «قراءة خطوط اليد» لكشف مستقبل شخص) كان أمرا متداولاً، والعديد من المصنفات تتناول هذا الأمر، بمعجم خاص يستعيده هما مونتيني، ولم يعد مستعملًا اليوم.

أما إذا مرّ تحت الإصبع الوُسطى وتقاطع خط الحظ في زاوية مع خط الحياة في المكان نفسه، فإن ذلك علامة على موتٍ مأساوي. وأخيرًا، لدى المرأة، إذا ما كان خط الحظ مفتوحًا ولا يشكل زاوية مع خط الحياة، فذلك يشير إلى أنها لن تكون أبدًا عفيفة. وأنا أستشهدكم هنا: ألا يستطيع امرؤ بهذا العلم، أن يكتسب سمعة عظيمة في كافة المجامع؟

375. كان ثيوفراستوس يقول: إن المعرفة الإنسانية التي تمرّ من خلال الحواس يمكنها أن تحكم على الأشياء حتى نقطة معينة، لكنها حين تبلغ للعِلل الأولى والأخيرة، يكون عليها التوقف إذ إن رأس رمحها ينفلُّ بسبب ضعفه وصعوبة تلك الأمور. إنها لفكرة معتدلة ورائقة أن نعتقد أن قدراتنا تمكّننا من بلوغ معرفة بعض الأشياء، غير أن لها حدودها التي يكون من التهور استعمالها فيما وراء ذلك. وهي وجهة نظر مقبولة ويُدافع عنها أناس توفيقيّون. لكن من العسير أن نمنح حدودًا لعقلنا، فهو فضولي وجشع ولا يجد سببًا للتوقف قريبًا أو بعيدًا.

376. لقد لاحظت بالتجربة أن من يصطدم بشيء يبلغه الآخر؛ وأن ما كان مجهولًا في قرن معين، يكشف عنه القرن الموالي؛ وأن العلوم والفنون لا تخرج من قالب، وإنما يُمنح لها شكل ومظهر بالتدريج ويتم استعمالها وصقلها مرات متوالية، كما الدِّببة التي تمنح لصغارها شكلها من كثرة لحسها[1].

وما لا تستطيع قُواي أن تفعله، لا أكفُّ عن الإحساس به، ومحاولة القيام به، فأنا بتلمُّس هذه المادة الجديدة وعجْنها وتناولها وتسخينها، أمنح لمن سيأتي بعدي يُسرًا ليتمتَّع بها أكثر على هواه وأجعلها له أكثر مرونة وطواعية.

«كما يلين تحت الشمس شمع هضبة هيميتيوس
وُيعجن باليد فتتشكل منه آلاف الأشكال
ويغدو أكثر نفعًا من كثرة الاستعمال»[2].

(1) كان ذلك معتقدًا شعبيًا في فترة مونتيني. وعبارة «الدب الذي لم يحظ باللحس الكافي» التي تستعمل في اللغة الفرنسية اليوم لتعيين شخص ذي مزاج سيء، هي أثر لذلك.

(2)Ovide (62), X, 284.

377. ومن سيأتي فيما بعد سيفعل الشيء نفسه مع الشخص الثالث، وهو ما يعني أنْ لا الصعوبة ولا حتى عجزي لا يُدخلان اليأس لنفسي، لأنه ليس إلا عجزي أنا. الإنسان قادر على كل شيء، كما هو قادر على لا شيء. فإذا هو اعترف، كما يقول ثيوفراستوس، إنه في جهلٍ بالعلل الأولى والمبادئ، فليغْفني صراحةً مما تبقى من علمه: فلوْ خانه الأساس، فإن حجاجه سيُطرح أرضًا. النقاش والبحث لا هدف ولا منتهى لهما إلا المبادئ، فإذا كانت هذه الغاية لا تحدّ من مسيرهما، تراهما ينطلقان في حيرة دائمة. «**الشيء لا يمكن أن يكون مفهومًا أكثر أو أقل من شيء آخر، لأنْ ليس ثمة إلا طريقة واحدة للفهم**»[1].

378. من المعقول أن النفس لو كانت تعرف شيئًا فستعرف أولًا نفسها؛ وإذا كانت تعرف شيئًا خارج ذاتها، فسيكون ذلك جسمها وما يحتويها قبل كل شيء. وإذا ما تنازعت آلهة الطبّ بصدد تشريحنا[2]:

«فقد كان فولكانوس ضد طروادة، وكان أبولّون معها»[3].

فمتى نعتقد أنها ستتفق؟ نحن أقرب إلى أنفسنا من البياض للثلج أو من الثقل للصخر. إذا لم يعرف الإنسان نفسه فكيف له أن يعرف وظائفه وقواه؟ ليس من باب المحال أن يوجد فينا مفهوم حقيقي، لكن ذلك يكون بفعل المصادفة. وبما أن الأخطاء تتسرّب إلى أنفسنا بالطريق نفسه وبالطريقة نفسها وبالوسيلة ذاتها، فهي لا تستطيع التمييز بينها، ولا أيضًا تمييز الحقيقة من الكذب.

379. كان فلاسفة أكاديمية أفلاطون يقبلون ببعض المرونة في الحكم، ويرون أن من الصرامة البالغة القول إن من غير المعقول أن يكون الثلج أبيض لا أسود، وأننا لسنا متأكدين من حركة حجر نرمي به بيدنا أكثر من حركة الكوكب السماوي الثامن. ولمجاوزة هذه الصعوبة وهذه الغرابة، التي لا يمكن لها أن تجد لنفسها مكانًا في عقلنا، وبعد توكيدهم أننا لا

---

(1)Cicéron (15), II, 41.

(2) انظر المقطع في بدايته، رقم 361.

(3)Ovide (63), I, 2, v. 5.

نملك القدرة البتّة لمعرفة الأشياء، وأن الحقيقة مخبوءة في أعمق الأغوار حيث لا يصل البصر البشري، صاروا مع ذلك يقبلون بوجود أشياء معقولة ومحتملة، بعضها أكثر من البعض الآخر، ويقبلون في أحكامهم بملكة القدرة على الميل بالأحرى إلى هذا المظهر لا إلى مظهر آخر. كانوا يسمحون بهذا الميل مانعين عليه الحسم في ذلك.

البيرونيون

380.كان موقف البيرونيين أكثر جرأة، وفي الآن نفسه أقرب إلى الحقيقة.. فهذا الميْل «الأكاديمي» وهذا النزوع إلى تفضيل مقترح على آخر، أليس ذلك اعترافًا بأن الحقيقة أكثر ظهورًا في هذا من ذاك؟ فإذا كان عقلنا قادرًا على إدراك الصورة والخطوط العامة، وما على رأس الحقيقة وحتى وجهها، فهو سيراها كاملة كما سيرى نصفها وهي تولد وغير مكتملة. هذا المظهر في التشابه مع الحقيقة الذي يجعلهم يميلون بالأحرى إلى اليمين لا إلى الشِّمال، لِنزدْ فيه؛ وهذه النّفحة من التشابه التي تجعل الميزان يميل، لنضربْها في مئة أو ألف، فما سينجم عن ذلك هو أن كفة الميزان ستميل كليةً وستُعيّن اختيارًا وحقيقة تامة.

381.لكن كيف يمكن لهم أن يميلوا إلى ما يشبه الحقيقي إذا هم لم يكونوا يعرفون ما هو الحقيقي؟ كيف يمكن لهم أن يتعرّفوا على شيء لا يعرفون جوهره؟ فنحن إمّا يمكننا أن نحكم كلّيةً أو لا يمكننا ذلك. فإذا كانت ملَكاتنا الفكرية وحواسنا من غير أساس ولا قاعدة، وإذا ما كانت فقط تطفو على هوى الريح، فليس لنا أبدًا، وبأي ثمن، أن نترك حكمنا ينْحو نحو شيء، يكون خاضعًا لفعلها، مهما كان مظهر الحقيقة الذي تقدّمه لنا. والموقف الأكثر وثوقًا لعقلنا والأمثل له، هو ذلك الذي يظل فيه هادئًا، ومستقيمًا وثابتًا، من غير حركة أو هياج.

382.نحن نرى جيدًا أن الأمور ليست مستقرة فينا، في صورتها الحقة

وبطبيعتها الواقعية، وأنها لا تأتي إلينا طواعيةً وبقواها الخاصة. وإذا كان الأمر كذلك فعلًا فسنتلقاها كما هي: الخمر سيكون في فم العليل، كما هو في فم مَن يتمتع بصحة جيدة. فمن لديه تشقُّقات في الأصابع أو صلابة بها، سيجد الصلابة نفسها في الخشب أو الحديد، الذي يتناول كأي شخص آخر. فالأشياء الخارجية تخضع كلّيةً لنا وتستقرّ فينا كما يحلو لنا.

383. وإذا ما نحن من جهتنا قبلْنا بشيء من غير تحريفه، ولو أن الإنسان كانت له سلطة أقوى وأشدّ حزمًا على الأشياء، لكي يمسك بالحقيقة بوسائله الخاصة، بما أن هذه الوسائل مشتركة بين الناس، فإننا كنا سنتداول هذه الحقيقة ونتناقلها، من يدٍ إلى يدٍ ومن شخص لآخر. وعلى الأقل سيكون ثمة في العالم شيءٌ من بين كافة الأشياء الموجودة فيه، يكون موضوعًا لاتفاق عام بين الناس. لكن بما أنْ لا وجود لأي أطروحة لا تكون موضوعًا للجدل أو النقاش بيننا، أو لا تكون مثارًا لذلك، فذلك يُبيّن جيدًا أن حكمنا الفطري لا يدرك بوضوح ما يدرك؛ فبما أن حكمي الخاص لا يحظى بالقبول من رفيقي، فذلك علامة واضحة على أني أدركته بشكل آخر، غير القدرة الفطرية التي توجد فيَّ كما في كافة الناس.

384. لنتركْ جانبًا هذا الارتباك في الآراء، الذي نلاقيه لدى الفلاسفة أنفسهم، وهذا النقاش الدائم والكوني عن المعرفة. فنحن لنا الحق في أن نعتقد أن الناس (وأنا هنا أتحدث عن العلماء المحترمين والأكفاء) ليسوا متفقين فيما بينهم على شيء، ولا حتى على أن السماء موجودة فوق رؤوسنا، ذلك أن أولئك الذين يشكِّكون في كل شيء، يشكِّكون حتى في هذا الأمر. وأولئك الذين ينْكرون أننا يمكننا أن نفهم شيئًا، يقولون: إننا لم نفهم أن السماء فوق رؤوسنا. وهذان الرأيان هما، من دون ريْب، الأكثر ورودًا.

385. وفي ما عدا هذا التنوع والتقسيم اللانهائي، فإن الارتباك الذي يخلقه

فينا والحيرة التي يحسها كل واحد منا، تبيّن جيدًا أن حكمنا لا يقوم على أسس صلبة. ألا نقوم بإصدار أحكامٍ مختلفة على الأشياء؟ كم من مرة نغيّر رأينا؟ وما أدافع عنه اليوم وما أظنّ أني أدافع عنه، أعتقد فيه بكل إيماني؛ فكافة ملكاتي وكافة قواي تمسك بهذا الرأي وتضْمنه لي بقدر المستطاع، إذ لا يمكنني أن أتبنى أيّ حقيقة وأدافع عنها بقوة أكثر من هذه الحقيقة. فأنا في ملكها كليةً وفي ملكها حقيقةً. لكن ألم يحدث لي غير مرة، بل مئة أو ألف مرة وفي كل يوم، أن أتبنى وجهة نظر بالطريقة نفسها وفي الشروط نفسها، واعتبرتها بعد ذلك خطأ؟ أن يستمد المرء الدروس من أخطائه هو أضعف الإيمان. إذا كنت قد سهوتُ عن نفسي غالبًا بالتحيُّز لهذا الجانب أو ذاك، وإذا كان معيار ذلك يبدو غالبًا مضلّلًا، وميزاني العقلي غير دقيق، فأيُّ يقينٍ يمكنني أن أستمد منه هذه المرة أو في مرة أخرى؟ أليس من الغباء أن أنْخدع مرارًا وتكرارًا؟ بالرغم من أن الصدفة تجعلنا نغير رأينا مرات ومرات، وبالرغم من أنها لا تقوم باستمرار سوى بملْء اقتناعنا وإفراغه من الآراء المتقلِّبة باستمرار، فكما هو الأمر في سطْل، فإن الرأي الآني والأخير يكون دومًا هو «الأكيد» و«السديد». ومن أجل هذه الفكرة، على المرء أن يترك خيراته وحياته وشرفه، أي كل شيء.

«الفكرة الأخيرة تُفقد قيمة الأفكار السابقة
وتغيّر ما كنا نعتقده فيها»[1].

386. مهما كانت المواعظ التي تُقدَّم لنا ومهما تعلمنا من أشياء، علينا أن نتذكر ما يلي: الإنسان هو الذي يعطي وهو الذي يتلقّى. اليد الفانية هي التي تعطينا واليد الفانية هي التي تقْبل العطاء. والأشياء التي تأتينا من السماء، هي وحدها التي لها الحق والقدرة الضرورية على إقناعنا، والوحيدة التي تحمل سمة الحقيقة. وهذه الحقيقة لا نراها بأم أعيننا، ولا نتلقاها بوسائلنا الخاصة؛ فهذه الصورة المقدسة العظيمة لن يسعها مكان بهذا الضّيق، لو أن الله لم يُعدَّها لهذا الغرض، لو أنه لم يحوّلها ويعزِّزها بنعمته وفضله الرباني. يجب على شرطنا البائس على الأقل أن يقودنا إلى التصرف بتواضع أكبر، وباحتراس أكثر في تغيير

(1)Lucrèce (47), V, vv. 1413-1414.

آرائنا. علينا أن نتذكّر أن في كل ما يبلغ أفهامَنا ثمة أشياء خطأ، وأنها جاءتنا بالوسائل نفسها، التي جاءتنا بها الأشياء الأخرى: إنها أدوات تحطم بعضها بعضًا وتخطئ غالبًا.

387. وإذًا، ليس من الغريب أن تحطّم بعضها بعضًا، وتترك الأحداث التافهة تلويها وتثنيها بسهولة. من الأكيد أن طريقتنا في إدراك الأشياء، وحكمنا، وملكات أنفسنا عمومًا، تؤثر فيها حركات الجسد وتقلباته، وهي تقلبات دائمة. أليس عقلنا أكثر يقظة وذاكرتنا أسرع وفكرنا أشدّ حيوية حين نكون في صحة جيدة منه حين يلمّ بنا المرض؟ والفرح والبهجة ألا يجعلان الأشخاص يبدون لنا في شكل آخر، مغاير لما يبدون لنا عليه، وقد ألمَّ بهم الهمُّ والغمُّ؟ هل تعتقدون أن أشعار كاتولّوس*[1] وصافّو*[2] تكون ممتعة لعجوز بخيل ومتجهّم، كما هي ممتعة لشاب قوي ومتحمّس؟ حين كان كليومينيس*[3] بن أناكساندريداس*[4] طريح الفراش، كان يعاتبه أصدقاؤه على سلوكه وأفكاره الجديدة غير المعتادة، فأجابهم: «أعتقد ذلك، لأني لم أعدْ ما كنتُ عليه، عندما كنتُ في صحة جيدة؛ وبما أني شخص آخر الآن، فإن أفكاري وأذواقي مغايرة أيضًا».

388. قال خلال المماحكات التي تملأ محاكمنا، للحديث عن المجرمين الذين يصادفون قضاة وديعين وخيّرين: «فليتمتعْ بهذا الحظ». فمن الأكيد أن الأحكام القضائية تميل أحيانًا إلى الإدانة، وتكون أشد قسوة وأكثر حدّة، وأحيانًا أكثر تساهلًا ورحمة، وأكثر ودّيةً وميلًا إلى العذر. ومن يأتي من بيته بألم مرض النّقْرس، مليئًا بالحسد أو يحمل في ذهنه السرقة، التي اقترفها في حقه خادمُه، ونفسه مظلمة ومفعمة بالغضب، فلا تشكّن في أن حكمه سوف يتأثر كثيرًا بذلك. كان مجلس شيوخ أثينا يمارس الأحكام في القضايا ليلًا، خشية أن تفسد عليهم رؤية المتقاضين أحكامهم. والهواء نفسه وسكينة السماء تثير فينا تقلبات في المزاج، كما تشهد على ذلك هذه الأبيات اليونانية التي نعثر عليها لدى شيشرون:

---

(1) * جايوس فاليريوس كاتولّوس (84 ق.م تقريبًا – 54 ق.م تقريبًا) شاعر غنائي روماني.

(2) * صافّو أو صابفو (610 ق.م تقريبًا – 570 ق.م تقريبًا) شاعرة غنائية يونانية.

(3) * كليومينيس الأول ملك إسبرطة (توفي 491 ق.م تقريبًا).

(4) * هو أناكساندريداس الثاني ملك إسبرطة (توفي 520 ق.م تقريبًا).

«أفكار الناس تشبه تلك الأشعة
المتقلّبة التي أخصب بها يوبيتر الأرض»[1].

389. ليس من شيء غير الحمى والشراب والحوادث هي التي تقلب حكمنا، فالأحداث البسيطة تربكه. وليس من شك، حتى ولو لم نحس بذلك، في أن الحمى إذا ما استمرت تسحق عقلنا، والحمى الثلاثية تحدث فيه بعض الأثر السيء حسب مستواها وأهميتها. إذا خفّفت السكتة الدماغية من ذكائنا أو أعدمته كليةً، فليس من شك أيضًا في أن ضربة برْد تعميه. من ثمَّ، نادرةٌ هي لحظات الحياة التي يوجد فيها حكمنا كاملًا مكتملًا، بما أن جسدنا خاضع لتقلّبات مستمرة وتحرّكه الكثير من النوابض، بحيث إني أصدّق عن طيب خاطر الأطباء حين يقولون: إن من النادر ألا يكون أحد النوابض يتحرك في اتجاه معاكس.

390. بل إن ذلك المرض لا يُكتشف بسهولة، إذا كان في مستواه الأعلى وغير قابل للشفاء. وما دام العقل أحيانًا ملتوي المسالك ومتعثّرًا وصعب المراس إزاء الكذب كما إزاء الحقيقة، فمن الصعب إذًا أن يدرك المرء مأزقه وتشوُّشه. وأنا أسمي دومًا «عقلًا» ذلك الضّرب من التفكير الذي يقوم به كل واحد لنفسه؛ لكن هذا «العقل» الذي يمكن أن توجد منه العديد من المظاهر المتناقضة، بخصوص الموضوع نفسه، هو أداة من رصاص وشمْع، يمكننا تمْديدها وإحناؤها وتسويتها، بكافة الطرائق ومع كافة الأبعاد: يكفي فقط أن نعرف كيف نداورها. ومهما كان الهدف النبيل لقاضٍ ما، عليه أن ينتبه جيدًا-وهو ما يهمله الكثيرون- للميول إلى الصداقة والقرابة والحُسْن والانتقام؛ وعدا الأمور المهمة، أن ينتبه إلى ذلك الانطباع العارض الذي يدفعنا إلى تفضيل شيء على شيء آخر، والذي يجعلنا نختار من غير أن يتدخل العقل في ذلك بين موضوعين متشابهيْن، أو الانتباه إلى أي حافز غامض. ذلك أن كل هذا يمكنه على الرغم منه، أن يُدخل في حكمه الإنْعامَ أو عدمه في القضية موضوع الحكم، ومن ثم قلب كفتيْ الميزان.

(1)Homère (32), XVIII,-135-136

391.أنا الذي يراقب نفسه عن قرب، والذي لا يترك عينيه تحيدان عن النظر في نفسه، كما لو كنت شخصًا ليس له ما يفعله في مكان آخر=

«لا يكاد يهتم بأي مِلْك يحكم
في بلاد الدبّ المتجمّدة
وما يمكن أن يصيب تيريديتس*[1] بالرعشة»[2].

=أكاد لا أجرؤ على التصريح بالحقارة والضعف اللذيْن أجدهما في نفسي. فخطْوي متعثّر وغير واثق، يميل نحو الترنّح، ونظري غير سديد، بحيث أحس نفسي مختلفًا وأنا صائم، عني وأنا قد انتهيت من الأكل. صحتي زاهية والجو صحْو وجميل، وهَأَنَذَا أصير إنسانًا شريفًا. وإذا ما أصابني بثْر في القدم، أصير متذمرًا وغاضبًا ومتملّصًا من كل شيء. مشية الجواد نفسها، تبدو لي، تارةً عسيرة وأخرى سهلة. والطريق نفسه أحيانًا قصيرًا وأخرى أطول؛ والصورة نفسها أحيانًا رائقة وأخرى أقلّ روعة. أحيانًا أكون قادرًا على فعل كل شيء، وأخرى غير قادر على فعل شيء بتاتًا. وما يعجبني اليوم قد يثير فيَّ الاشمئزاز فيما بعد. فأنا مَحلٌّ للعديد من الحركات المرتجلة والمزاجية. إنها الكآبة تستبد بي أو الغضب؛ وتحت سطوتها الكاسحة يغمرني الأسى أحيانًا أو البهجة. حين أفتح كتابًا، أجد أحيانًا بهاءً يُدهش مني النفس تارةً، وتارةً أخرى إذا ما أنا عدت لقراءته، أقلبه مرارًا في نفسي، فيبدو لي كتلة مجهولة ولا شكل لها.

392.وأنا لا أعثر على نغمة إلهامي الأول حتى في كتاباتي الخاصة، إذ إني لا أعود أعرف ما كنت أرغب في قوله، وأنا أتميّز غيظًا في التصحيح وإضافة معنًى جديد، لأني أكون قد فقدت ذكرى المعنى الأول، الذي كان ربما الأفضل الملائم. فلا أكف عن الحركة ذهابًا وإيابًا.

«حُكمي لا يسير دومًا قُدُمًا إلى الأمام، إنه يطفو ويتوه
كقارب هشّ فاجأته ريح عاتية
في عرض البحر»[3].

---

(1) * ملك أرمني.

(2)Horace (37), I, xxcvi, 3.

(3)Catulle (13), XXV, 12.

وغالبًا حين أنحاز لرأيٍ مغاير لي، من باب التمرين والتسلية لا غير، كما يحدث أن أفعل عن طواعية؛ ينخرط ذهني في الأمر وينساق للانحياز، وأرتبط بذلك الرأي ارتباطًا بحيث لا أعود أعثر على علّة رأيي الأول، وبحيث أهجره. فأنا أسير على هوى التيار، وأساير الجانب الذي أميل إليه مهْما كان، وهَأنا أنساق مع ثقل جسمي.

393. كل واحد يمكنه أن يقول الشيء نفسه تقريبًا عن نفسه، إذا ما راقب نفسه كما أفعل. الوُعَّاظ يعرفون غالبًا، أن التأثُّر الذي يغمرهم، وهم يتحدثون يحثُّهم على الإيمان. فنحن تحت غمرة الغضب نروم إلى التشبث أكثر برأينا، ونطبعه في أنفسنا بالأكثر من العنف والوفاق، مما لو كنا هادئين ورائقي الدم. حينما تقوم باستعراض قضية على محامٍ بشكل بسيط، يجيبك بتردّد وحيرة؛ فتحس أنه سِيّان أن يدافع عن هذا الطرف أو ذاك: فهل نفحْته ما يكفي من المال كي يقتنع بالقضية ويأخذها مأخذ الجدّ؟ هل بدأ في الاهتمام بالقضية، وهل بدأ عقله يستجيب لها؟ فعقله وعلمه يُثاران في الآن نفسه: تلكم حقيقة بدهية، لا شك فيها، تولدت في ذهنه؛ فهو يكتشف فيها نورًا جديدًا كل الجدّة، وهو يعتقد فيها بكل وعْي، ويُقنع نفسه بها. بل إني أتساءل إذا كان الحماس الذي يولد في التهيُّج والعناد، ضد الضغط والعنف اللذيْن تمارسهما السلطة والخطر الدّاهم، أو أيضًا همُّ السُّمعة الحسنة - لم تدفع أحيانًا شخصًا إلى أن يساند حتى الموت رأيًا لم يكن له، أمام أصدقائه، وأن يخاطر بقطع إصبعه الأصغر.

394. تولّد الأهواء الجسدية هزات وانكسارات لها بالغ الأثر على النفس؛ لكن التأثير الذي تَدين به لأهوائها الخاصة أكبر بكثير: فهي خاضعة لها، بحيث ليس لها من هيئة ولا من حركة إلا تلك الآتية من رياحها الخاصة، وأنها من غير هَرجها ومرجها ستظل جامدة، كما سفينة في عرض البحر تهجرها الرياح. ومن يساند هذا الرأي الموافق لأفكار الفلاسفة المشّائين لن يضرّ بنا أبدًا؛ لأن من المعروف أن أجمل الأعمال الخيّرة للنفس، محتاجة إلى دفعات الأهواء، بل إنها تجد في ذلك مصدرها. يُقال: إن الشجاعة لا يمكن بلوغها من غير معونة الغضب.

«فقد ظلَّ أيَّاس*[1] دائمًا باسلاً، خاصةً حين أصيب بالجنون»[2].

395. إننا لا نهاجم الأشرار والأعداء بشكل قوي إلا إذا كنا في حال غضب وحنق[3]. ونحن نرغب أيضًا في أن يثير المحامي غضب القضاة كي يحصل على حكم عادل. لقد حرّكت الأهواء ثيميسْتوكليس وديموستينيس، ودفعت الفلاسفة إلى الاشتغال والسهر والسفر؛ وهي تقودنا نحو تلك الغايات المفيدة التي تتمثل في الشرف والمعرفة والصحة. وجبْن النفس الذي يجعلنا نتحمّل الهموم والمضايقات، نراه يغذي في وعْينا الكفّارة والندم، كما يجعلنا نحس المصائب التي يبعث لنا بها الله عقابًا لنا، والمصائب التي تفرضها الدولة. تكون الشفقة حافزًا على الرحمة، وحكمة التحكُّم في أنفسنا والحفاظ عليها مثارهُا الخوف: كم من الأعمال الصالحة يقف وراءها الطموح أو الادّعاء؟ ليس ثمة، في نهاية المطاف، من فضيلة سامية وقوية لا يصاحبها بعض التهيُّج الفوضوي. أليس في ذلك سبب من الأسباب التي أدت بالإبيقوريين إلى إبراء ذمة الله من أي اهتمام أو عناية مفرطة بشؤوننا؛ لأن عنايته بنا، لا يمكن أن تتمَّ تجاهنا من غير إزعاج راحة نفوسنا بالأهواء، التي تعتبر مثل اللسعات والحوافز، التي تقودها نحو الأعمال الفاضلة؟ إلا إذا كانوا قد اعتبروها خلاف ذلك، مثل عواصف تنتزع النفس غصبًا من طمأنينتها. **«فكما أن هدوء البحر يؤكد لنا أنْ ليس ثمّة من ريح، مهما كانت خفيفة، ستكدّر هدوء مياهه، كذلك نحن واثقون أن النفس هادئة، وفي سلام حين لا تأتي أيٌّ من الأهواء لتهيّجها»**[4].

396. أيُّ تنوع في المعنى والحكم، وأيُّ نزاع للأفكار لا يمنحه لنا تنوُّع أهوائنا؟ أي ثقة يمكن لنا إذًا أن نستقي من شيء بهذا التذبذب والحركة، الخاضع للاضطراب بوضعيته، والذي لا يسير أبدًا إلا بخطوات مُكرهة ومستعارة؟ إذا كان عقلنا متأثّرًا بالمرض، أو فقط بما يصيبنا، وإذا كان يدرك الأشياء بواسطة الجنون والتسرُّع، فكيف يمكننا أن نضع فيه ثقتنا؟

(1) * بطل من أبطال حرب طروادة في الأساطير اليونانية.

(2)Cicéron (21), IV, 23.

(3) Cicéron, Tusculanes [21] IV, 19.

(4)Cicéron (21), V, 6.

397. 397. أليس جسارةً من الفلسفة أن تعتبر أن الناس يكون لهم أكبر الأثر، وأنهم يكونون أقرب إلى الآلهة، حين يكونون خارجين عن طوْرهم ومحْمومين ومجنونين؟ إننا نغدو أفضل حين نعلِّق اشتغال عقلنا وحين لا نعود في حاجة له. والطريقان الطبيعيان لكي نلج ملكوت الآلهة، ونتكهّن فيه بمسير مصائرنا هما «الغضب الإلهي» والنوم. وإليكم ما هو أمر مسلٍّ: بالتشويش تنتج الأهواء أمورها في عقلنا، فنغدو فاضلين؛ وباقتلاعها الذي يعود إلى الحماس المحموم أو إلى صورة الموت، نغدو أنبياءً أو متنبّئين. أنا لم أعتقد أبدًا في هذا كما اليوم: هذا الضرب من الحماس الزائد الذي نفخته الحقيقة المقدسة في العقل الفلسفي، هي التي أكرهته على قبول أن هذه الحال الهادئة المطمئنة، والأكثر لطافة التي يمكن للفلسفة أن تضع فيها أنفسنا، ليست الأفضل على الإطلاق. نحن أكثر سُباتًا حين نسهر منا حين ننام؛ وحكمتنا أقل حكمة من جنوننا؛ وأحلامنا أفضل قيمة من استدلالاتنا العقلية. وأسوأ مكان يمكننا أن نركن إليه هو في أنفسنا. لكن ألا تعتقد الفلسفةُ أننا يمكننا أن نحوز على الذكاء، الذي يمكّننا من أن نلاحظ ما يلي: هذه الكلمة التي تجعل الروح مِن العظمة وبُعد النظر، حين تكون منفصلة عن الإنسان، والتي تعتبرها بسيطة وجاهلة حين تكون فيه؛ هي نفسها كلمة آتية مع ذلك من عقل الإنسان الدنيوي الجاهل والمظلم السّريرة؛ إنها إذًا كلمة لا يمكن الوثوق بها ولا تصديقها.

الهوى العاشق

398. لما كنت بالأحرى ذا مزاجٍ بارد وكسول، فليست لي تجربة كبرى في هذه العواطف المتأججة التي عادةً ما تستبدّ فجأة بأنفسنا من غير أن تمنحها الوقت لاسترداد أنفساها. بيد أن الهوى العاشق الذي، كما يقال، يستبدُّ بقلوب الناس الشباب بسبب الخمول، حتى حين يتطوّر من غير تسرّع وبشكل تدريجي، يبيِّن بشكل بديهي لمن رغب في معارضته، قوةَ ذلك التحوّل والتغيّر الذي يطال حينئذٍ حكمنا. حاولت فيما مضى أن أعِدّ العدّة لمواجهة هجمته والتغلب عليه، ذلك أني أبْعد ما يكون عن أن أُعتبر

من بين أولئك الذين يستجذبون الرذائل، وأنا لا أتَّبعها إلا إذا استطاعت جرّي إلى ذلك. أحسست أن ذلك الهوى يولد وينمو ويترعرع، بالرغم من مقاومتي له، ليغدو حيًّا تمامًا وواعيًا مع ذلك، يستبدّ بي ويتملّكني، بحيث إني غدوت أنظر للأشياء العادية بطريقةٍ مغايرةٍ كما لو كنت تحت تأثير السُّكر. بدأتُ، طبعًا، أرى فضائل موضوع رغبتي تتضخّم وتتنامى، فقد كانت تكبر وتنتفخ بفعل مخيلتي، في حين صارت صعوبات المسألة بالمقابل تصغر وتنبسط، فيما تراجع وعيي وعقلي. لكن هذه النار ما إن تخمد، حتى تستعيد نفسي، في لحظة كما في وضوح البرق، نظرةً أخرى للأمور، وحالًا مختلفةً وحكمًا مغايرًا: لقد بدا الرجوع القهْقرى مشكلًا عويصًا بل لا يُمكن القيام به البتّة، والأشياء نفسها صارت تبدو لي الآن بمذاق مختلف جدًا، عن تلك التي أتتْني بها الرغبةُ الجيَّاشة. أي الحالَيْن أقرب إلى الحقيقة؟ حتى بيرون لا يعرف عن ذلك شيئًا.

399. لسنا أبدًا معصومين عن المرض، فالحمى لها سخونتها وبرودتها، وبعد أن نكون قد عرفنا العشق الجارف، نعود للسقوط في هوًى بارد. فطالما رميت بنفسي في الأمام هَأنا الآن أعود للوراء.

«هكذا البحر في مدّه وجزْره
تارةً يرتمي على الأرض ويغطي الصخور بزبده
مُندفعًا حتى آخر فجوة في الرمل
وتارةً جاذبًا معه الحصى في ارتداده
ويفر لينْحدر تاركًا الشاطئ عاريًا».

ولما كنت مدركًا ثبات أطواري، فإنه يحدث أن أستخلص من ذلك بعض الثبات في آرائي، مع أني لم أغيّر أبدًا الآراء الأولى التي أتتني بالفطرة. فأنا بالرغم من جاذبية الجدّة والجديد، لا أتغير بسهولة، خوفًا من أكون الخاسر في هذا التغيير. وبما أني لست قادرًا على الاختيار فإني أتبنّى اختيار الآخرين، وأكتفي بالحال الذي وضعني فيها الربّ؛ وإلا فإني أكون عاجزًا عن منْع نفسي من التدحْرج باستمرار. وبهذه الطريقة ظللت -والحمد لله- مرتبطًا بعروةٍ وثقى، ومن غير هياج أو ارتباك في الضمير، بالمعتقدات القديمة لديننا، غير عابئ بالمِلل والنِّحَل التي أنتجها

عصرنا. إن كتابات القدماء تستهويني -وأنا أتحدث هنا عن الكتابات الجيدة والرصينة والمحكمة- وتستجْذبني وتقودني شيئًا فشيئًا حيثما تبتغي؛ وتلك التي سمعت للتوّ تبدو لي دومًا الأقوى. يبدو لي أن القدماء كلهم على حق، كلٌّ بدوره، بالرغم من أنهم متناقضون. فالسهولة التي يُبدي عنها أصحاب العقول النيّرة كي يجعلوا ما يريدون أمرًا معقولًا، ويُسبغوا على كل شيء كمًّا غريبًا من الألوان، كي يخدعوا بسيطَ عقل مثلي؛ كل هذا يبيّن طبعًا كم هي ضعيفة الدلائل التي يقدّمون.

كوبرنيكوس

400.لقد بدّلت السماء والنجوم مكانها منذ ثلاث آلاف سنة؛ فكل الناس اعتقدوا في ذلك، حتى اليوم الذي تنبّه فيه كليانثس الساموسي أو -حسب ثيوفراستوس- نيكيتاس السيراقوسي*[1] إلى أن الأرض هي التي تتنقّل بالدّوران حول محورها، تبعًا للدائرة المائلة للأبراج. وفي أيامنا هذه قام كوبرنيكوس بإرساء هذه النظرية جيدًا، بحيث يستعملها عادةً في كافة حساباته الفلكية. ما الذي يمكن أن نستنتج من هذا كله، سوى أنْ لا أهمية لنا أن نعرف أيّاًمن وجهتيْ النظر هاتيْن الأصحَّ؟ بل من يدري إذا كان سيأتي شخصٌ ثالث بعد ألف سنةٍ ليفنّد النظريتين السابقتين؟

«هكذا يغيّر الزمن الأشياء في مسيره
والشيء الذي كنا نحب يصير ممقوتًا؛ فيأخذ مكانه شيء آخر
فيخرج من الخفاء، ليغدو مرغوبًا من يوم لآخر
يتلقى الجديد كافة المدائح، وبين الناس
يحصل اليوم على تقدير باهر»[2].

401.وهكذا، حين تأتينا نظرية جديدة تكون لدينا البواعث للطعن فيها، بحيث نعتبر أنها قبل أن تبرز كانت النظرية المناقضة لها هي الشائعة:

---

(1) * هكذا في الأصل، والصواب أن المقصود هو الفلكي والفيلسوف اليوناني هيكيتاس السيراقوسي، وأغلب الظن أن مونتيني نقل الاسم محرفًا كما ورد في كتاب كوبرنيكوس.

(2)Lucrèce (47), V, vv. 1275 sq.

فكما أنها قد أُزيحت بهذه الأخيرة فيمكن أن تظهر في المستقبل نظرية تنتصر على الثانية. قبل أن يتمّ تشريف مبادئ أرسطو كانت مبادئ أخرى تُرضي العقل البشري، كما أن هذه المبادئ تُرضينا اليوم. أيّ امتياز خاص تملك النظرية الجديدة كي يتوقف مسير إبداعنا، وكيف نعتقد فيها في الأزمنة المقبلة؟ بل إنها مثل سابقاتها معرَّضة للرفض. حين أتضايق من برهان جديد أعتبر أن ما لا أستطيع معارضته بشكل مُرْضٍ سيتمكّن شخص آخر من بلوغه. فمن علامات ضعف العقل، أن يعتقد المرء في كافة المظاهر، التي لا يستطيع التخلّص منها. تبعًا لذلك، فإن معتقدات العامّة، ونحن كلنا من العامّة، متقلبة على هوى الرياح، ذلك أن أنفسهم الضعيفة تكون منصاعة باستمرار لهذا الانطباع أو ذاك، بحيث إن الانطباع الأخير يمحو دومًا أثر السابق. فحسب قواعد القانون، من يعتبر نفسه في مستوى دونيّ عليه الرجوع إلى محاميه، أو أن يضع نفسه بين أيدي حكماء أكثر منه، كي يستمدّ تعاليمه منهم.

402. منذ متى يوجد الطبّ؟ زعموا أن وافدًا جديدًا يُسمّى باراسيلسوس*[(1)] قد قام بتغيير كافة القواعد القديمة وخلخلها، بحيث زعم أنها لحدّ ذلك الوقت لم تُستخدم لغير إماتة بني البشر. ويبدو لي أنه سيبرهن على ذلك بسهولة. لكن أن أضع حياتي بين يديه، هو الشاب المبتدئ، فذلك من باب المحال. فأنا أرى أن ذلك لن يكون من باب التبصّر والحذر. «لا يجب علينا أن نصدق من هبّ ودب» كما يقول المثل، لأن من هبّ ودبّ يمكنه أن يقول ما يشاء. قال لي رجل يكرِّس نفسه لتتبع الجديد والتحولات في مجال العلوم الطبيعية، من وقت قصير فقط: إن كل المؤلفين القدماء قد أخطأوا بشكل فادح في طبيعة الرياح وحركاتها، وأنه سيجعلني ألامس ذلك باليد إذا رغبت في سماعه. وبعد أن أنصتُّ بأناة وصبر لدلائله، التي كانت كلها معقولة قلت له: «كيف كان يفعل إذًا أولئك الذين كانوا، تبعًا لقوانين ثيوفراستوس، يتجهون نحو الغرب؟». فأجابني: «لقد كان ذلك صدفة سعيدة، لكنهم كانوا مخطئين في كل الأحوال». رددتُ عليه حينئذٍ أني أثق أكثر في الوقائع مني في الاستدلالات.

(1) * باراسيلسوس (1493 م – 1541 م) طبيب وخيميائي ألماني سويسري، ويعد أول من ربط الكيمياء بالطب.

403. وإذًا، إنها أمور تتناقض غالبًا. قيل لي: إن ثمة في الهندسة -وهي مبحثٌ يُعتقد أنها من بين العلوم الأخرى، قد بلغت درجةً قصوى من اليقين- براهين لا تقبل الجدل تسير ضد الوقائع التي نلاحظها في التجربة. فقد قال لي جاك بوليتي حين كان ضيفا عليّ[1]، إنه وجد خطّين يتجهان الواحد صوب الآخر لكي يتلاقيا، وأنه قادر على البرهنة على أنهما لا يمكن أبدًا أن يتلاقيا حتى في اللانهائي. بل إن أدلة واستدلالات البيرونيين لا تصلح إلا لتدمير ما يبدو أن التجربة تدلِّل عليه. ومن الغريب أن نلاحظ إلى أي حدّ اتّبعَتهم مرونة عقلنا، في هدفهم الرامي إلى محاربة بداهة الوقائع. فهم يبرهنون فعلًا على أننا لا نتنقّل ولا نتكلم، وأنْ ليس ثمة من أشياء ذات ثقل ولا ذات حرارة، بقوة الاستدلال نفسها التي نستعمل للبرهنة على الأشياء الأكثر معقولية.

404. قام بطليموس، الذي كان عالمًا كبيرًا، بإرساء حدود عالمنا. كان كل الفلاسفة في العصور القديمة يعتقدون أنهم يعرفونه في امتداده الشاسع، إلا بعض الجزر النائية التي يمكن أن تكون قد أفلتت من معرفتهم. كان الأمر ضربًا من التفكير البيروني*([2]): أن يشكك المرء ألف عام من قبل في الجغرافيا والآراء التي تبناها كل واحد. وكان من باب الهرطقة أن يعترف المرء أن ثمة تناقضات؛ وها نحن اليوم نعلم باكتشاف أراضي شاسعة صلبة، لا فقط جزيرة أو بطحاء وإنما جزءًا من العالم يكاد يساوي ما نعرفه من أرض. وجغرافيّو وقتنا لا يُحجِمون عن الزعم، مع ذلك، أن كل شيء قد تمّ اكتشافه منذ اليوم وأننا رأينا كل شيء.

«ذلك أن ما بين أيدينا يعجبنا
ويبدو لنا أفضل من كل شيء»[3].

يبقى أن نعرف، بما أن بطليموس قد أخطأ في ذلك في الماضي بثقته في عقله، إذًا لم يكن بلاهةً مني أن أثق فيما يُقال اليوم، وإذا لم يكن من المعقول أن يكون هذا الجسم الكبير الذي نسميه عالمًا، شيئًا مختلفًا عمّا يبدو لنا.

(1) جاك بيليتييه دو مان Jacques Pelletier du Mans، كان عالمًا كبيرًا في عصره، وكان عميدًا لكلية غُوين ببوردو بين 1572 و1579 م، ويبدو فعلًا أن مونتيني قد استقبله في بيته في هذه الفترة.
(2) * نسبة للفيلسوف بيرون.

(3)Lucrèce (47), v. 1541.

405. يزعم أفلاطون أن العالم يتغير بجميع الأشكال والأنواع، وأن السماء والنجوم والشمس تقلب أحيانًا الحركة التي نعرفها لها، بحيث تنقل الشرق نحو الغرب. قال الكهنة المصريون لهيرودوتس: إن الشمس، منذ أول ملك لهم، أي في مدة أحد عشر ألف سنة -وعرضوا عليه تماثيل كافة هؤلاء الملوك التي نُحتت تبعًا للأنموذج الحي- قد غيرت مكانها أربع مرات، وأن الأرض والبحر يتبادلان المواقع؛ وأن زمن خلق العالم غير متحدّد. وأرسطو وشيشرون قالا الشيء نفسه. وأحدهم[1] من بين المسيحيين، قال: إن العالم يوجد منذ الأزل، بحيث يموت ويُبعث باستمرار؛ وقد أخذ شاهدًا على ذلك سليمان وإشعيا، كي يتفادى الاعتراضات القائلة إن الله كان خالقًا من غير مخلوقات، وأنه كان في وقت ما في عطالة، وأنه تخلّص من تلك العطالة بالتكفُّل بهذا العمل، وأنه من ثمَّ ذاتٌ معرّضة للتغير.

406. أما لدى المدرسة الأكثر شهرة من بين المدارس اليونانية[2] فالعالم يُعتبر مثل إله صدر عن إله آخر أكبر، ويتكوّن من جسم وروح توجد في مركزه، وتتطور تبعًا لِنِسَب موسيقية حتى محيطه؛ وهذا العالم إلهي وسعيد وشاسع وحكيم. وفيه توجد آلهة أخرى، كالأرض والبحر والكواكب التي تحافظ بينها على هياج دائم ومتناغم، أشبه برقصة إلهية، بحيث إنها تارةً تتلاقى، وتارةً تتباعد، وتختفي وتظهر في نظام متغير طورًا في الأمام، وطورًا في الخلف.

407. يعتبر هيراقليتوس أن العالم يتكون من نار، وأنه تبعًا لنظام الأشياء سوف يتوهّج يومًا ويتحول إلى نار؛ كي ينبعث من جديد. ويقول أبوليوس عن بني البشر: إنهم «فانون كأفراد، لكنهم خالدون كنوع»[3]. كتب الإسكندر إلى أمه ليحكي لها قصة كاهن مصري منقوشة على أحد آثارهم، تبرهن على أن قدم هذا الشعب أزلي، وتصف ولادة ونمو البلدان الأخرى بشكل حقيقي. ولقد صرح شيشرون وديودوروس*([4])

---

(1) هو أوريجينيس.

(2) أي أكاديمية أفلاطون.

(3) Apulée, **De deo Socratis**, Augustin, **Cité de Dieu**, [8] XII, x.

(4) * هو ديودوروس الصقلي المؤرخ.

في وقتهما أن الكلدانيين كانوا يحافظون على أثر ما ينيف عن أربعة آلاف سنة من التاريخ. ويزعم أرسطو وبلينيوس وآخرون أن زرادشت عاش قبل وقت أفلاطون بستة آلاف سنة. ويزعم أفلاطون من جهته أن أناس مدينة «صا الحجر» كانت لهم وثائق مكتوبة تمتد على طول ثمانية آلاف سنة، وأن مدينة أثينا شُيّدت قبل ألف سنة من إنشاء مدينة «صا الحجر». أما إبيقوروس فيقول: إن الأشياء كما نراها هي هنا، وفي الآن نفسه متشابهة تمامًا في عوالم أخرى كثيرة. وكان سيقول ذلك بالأكثر من الثقة، لو كان وقف على نماذج للتشابه بين واقع العالم الجديد لبلدان الهنود الغربية في الماضي والحاضر.

تنوع العادات والتقاليد

408.وفي الحقيقة، وأنا أتأمل ما وصلنا إليه من معارف عن تطور مجتمعاتنا الدنيوية، اندهشت دومًا من أن عددًا هائلًا من الآراء الشعبية والتقاليد والمعتقدات المتوحشة، يمكنها أن تتشابه كثيرًا مع أنها متباعدة في المكان والزمن، وأنها لا تبدو، مع ذلك وبأي شكل، منتمية لعقلنا الطبيعي. العقل البشري حقًا صانع كبير للمعجزات؛ غير أن هذه المصادفات لا يزال فيها شيء ما متنافر، بحيث إننا نجدها في الأسماء كما في آلاف الأشياء الأخرى. فثمة شعوب حسبما نعرف لم تسمع أبدًا بنا، ولديها كان الختان «تقليعة»؛ وحيث دول عظيمة ومدن كبيرة كانت تحكمها النساء ومن غير الرجال؛ وحيث صيامنا كان معروفًا أيضًا، ومعه أيضًا الامتناع عن معاشرة النساء، وحيث صُلباننا كانت شعبية بطرائق كثيرة: هنا يتم تكريم المدافن، وهناك يتم استعمالها -خاصة مدافن سانت أندري- للحماية من الرؤى الليلية، وعلى أسرّة الأطفال لحمايتهم من السحر؛ وفي أمكنة أخرى تم العثور على صليب، من الخشب، كبير يتم عبادته كإله للمطر، وبعيدًا في قلب البلاد. وقد تمّ العثور أيضًا على أناس يشبهون قُسُسنا؛ فهم يستعملون قلانسهم ويعيشون عزوبة الرهبان، ويمارسون فنّ التأليه، بأحشاء الحيوانات المضحى بها؛ والصوم عن اللحم والسمك في طعامهم. كما أن لديهم الطريقة

نفسها لدى الرهبان، في استعمال لغةٍ خاصةٍ في قُداساتهم، لا اللغة الجارية؛ وأيضًا تلك الفكرة القائلة إن الإله الأول قد طرده من عرشه أخوه الأصغر؛ وأن الناس خُلقوا بامتيازات كثيرة انتُزعت منهم بعدها؛ نظرًا لخطاياهم، فتغيرت أرضهم وتدهور شرطهم الطبيعي. وهم في الماضي تعرّضوا لفيضانات جاءتهم من السماء، فأغرقت أرضهم ولم ينج منهم إلا عدد قليل من الأسر، التجأت إلى مغارات الجبال الشاهقة، وسدوا مداخلها، بعد أن حبسوا فيها أنواعًا مختلفة من الحيوانات. وحين توقف المطر عن الهطول أخرجوا كلابًا، وحين رأوها تعود نقية ومبتلّة، استنتجوا من ذلك أن الماء لم ينزل مستواه بعد. لكن حين أخرجوا بعد ذلك كلابًا أخرى، ورأوها تعود مليئة بالطمْي، خرجوا حينئذٍ لتعمير العالم، الذي بدا لهم حينئذٍ فقط مليئًا بالثعابين[1].

409. بل إننا نعثر في بعض الأماكن على الإيمان باليوم الآخِر، بحيث إن السكان كانوا يحسّون بالغضب حين يرون تصرفات الإسبان، وهم يبعثرون عظام الموتى؛ باحثين في كنوز المدافن، قائلين إن تلك العظام حين تُبعثر لا يمكن إعادة جمعها بسهولة. وفي هذه البلدان تجارة تتم بالمقايضة، لا بأي وسيلة أخرى، في المعارض والأسواق، موضوعها أقزام وأناس مشوّهو الخلقة، لتزيين موائد الأمراء؛ وكذا استعمالهم تدريب الطيور حسب طبيعتها؛ والضرائب الثقيلة؛ والطابع الراقي للبسْتنة؛ والرقصات والقفزات البهلوانية؛ وألعاب الكرة وألعاب النرد وألعاب الحظ التي يعشقونها، إلى حدّ أنهم قد يلعبون فيها حريتهم الشخصية. وثمة طبّ يقوم أساسًا على السحر؛ وطريقة للكتابة بواسطة الصور؛ والإيمان فقط بإنسان أول يعتبر أبو كافة الشعوب؛ وعبادة إله كان فيما مضى بشرًا، عاش في عذرية تامة وفي الصيام والكفّارة، يدعو لقانون الطبيعة ويمارس المراسم الدينية، ثم اختفى من العالم من غير أن يموت ميتة طبيعية. ولديهم الاعتقاد في العمالقة؛ وعادة السكر بالأشربة، وشرب أكثر ما يمكن منها؛ واستعمال الزخارف الدينية المصبوغة على العظام وجماجم الموتى؛ والمِرشّات المقدسة والماء المبارك ودرعْ الكاهن؛ والنساء والخدم الذين

(1) هذه العجائب كلها، وتلك التي ستأتي، مستقاة من كتاب غومارا، «تاريخ الهند العام»[26].

يتعاركون؛ كي يحظى أحدهم بأن يُحرق أو يُدفن مع سيدهم أو الزوج الميت. وثمة قاعدة تورِث الولد البكر كل خيرات أبيه ولا شيء يُترك للأصغر إلا الطاعة؛ وثمة عادة تَفرض خلال تقلّد بعض المهام السامية وذات النفوذ، أن يتّخذ صاحبها اسمًا جديدًا ويتخلى عن اسمه؛ وعادة دلْق الجير على رجل الوليد قائلين له: «أتيت من التراب وستعود إلى التراب»؛ وفن الاشتغال بالكهانة.

410. إن هذه المحاكاة الباهتة لديننا كما رأينا في الأمثلة السابقة تشهد على ألوهيته وعلى سموّه. فهو لم يتم التلميح له فقط لدى كافة الشعوب الكافرة في بلداننا، بنوع من المحاكاة، وإنما أيضًا لدى هؤلاء البرابرة، كما بفعل إلهام خارق ومشترك. ونحن نجد لديهم أيضًا الاعتقاد في المَطْهَر، لكن في شكلٍ جديدٍ: فما ننسبه للنار ينسبونه للبرودة ويتصورون أن الأنفس تتطهّر وتُعاقب بقوة البرد القارس؛ وهذا المثال يذكّرني باختلاف مُسلٍّ آخر: إذا كنا نجد شعوبًا يحب أهلها كشف طرف الذّكَر، ويقطعون جلدته على طريقة ختان المسلمين واليهود، فقد وجدنا شعوبًا أخرى من كثرة خشيتها الكشف عنه، يربطونه بحبل صغير مما يجعله يتمدّد لكي يربطوه فوق، خوفًا من أن يلامس طرفه الهواء. وإليكم اختلاف آخر: ففي الوقت الذي نحتفي فيه بالملوك وبالأعياد، بحيث نتزيّا بأحسن ما لدينا من ألبسة، تقوم الرعية في بعض البلدان بالتعبير عن دونيتها وخضوعها لملكها، بأن تستعرض نفسها عليه في أبسط لباسها، وحين يدخلون القصر يضعون أسمالًا فوق لباسهم، حتى يظل كل بريق وكل زخرف مخصوصًا بالملك. لكن لنتابعْ.

411. إذا كانت الطبيعة تسجن أيضًا المعتقدات والأحكام وآراء الناس، في حدود مجراها الطبيعي، كما تقوم بذلك في حق كافة الأشياء الأخرى، وإذا كان لها حوْلُها وفصولها ومولدها ومماتها، كما هو أمر نبتة الكرنب؛ وإذا كانت السماء تهزها وتحركها على هواها، فكيف يمكننا أن ننسب لها سلطة نافذة ودائمة؟ وإن كانت التجربة تجعلنا نلمس أن صورتنا الخاصة رهينة بالهواء والمناخ والأرض التي نولد فيها؛ وليس فقط اللون والقامة والمزاج والتصرفات، حتى ملكات العقل «فإن المناخ لا يشكّل

فقط قوة الجسم، وإنما أيضًا قوة العقل»، كما يقول فيجيتيوس*[1].
والإلهة المؤسسة لمدينة أثينا اختارت لموقعها مناخًا قابلًا لأن يجعل الناس حكماء، كما علَّم الكهنة المصريون ذلك لسولون: «الهواء في **أثينا لطيف؛ ولهذا السبب يُشتهَر الأثينيون بأن لهم روحًا أكثر رشاقةً ومرحًا؛ أما هواء طيبة فكثيف وسكانها يُعتبرون خشنين وأقوياء**»[2].
وهكذا، فكما أن الفواكه والحيوانات تولد مختلفة، يولد الناس مولعين أكثر أو أقل بالقتال، وأقل أو أكثر عدلًا واعتدالًا وطواعية: إنهم هنا يحبون الخمر، وفي أمكنة أخرى السرقة والنهب؛ هنا يحبون الحرية وهناك العبودية. إنهم يكونون نوابغ في العلوم أو الفنون، خشنين أو لطيفين، طائعين أو متمردين؛ خيرين أو شريرين، تبعًا لتأثير المكان الذي يوجدون فيه، وهم يتبنون سلوكًا جديدًا إذا ما نحن غيرناهم من مكانهم، مثلهم مثل الأشجار. لهذا رفض كورش أن يسمح للفرْس أن يتركوا بلدهم المقفر والجبلي، لكي يستقرْوا في آخر لطيف ومنبسط: فقد قال لهم: إن الأراضي المُتربة والرخوة تفرز أناسًا يتسمون بالرخاوة، والأراضي الخصبة أناسًا لا خصوبة لهم. وإذا كنا نرى تارةً ازدهار فن ورأي، وتارةً رأيًا آخر، فذلك يكون بفعل تأثير إلهي معيّن؛ وتلك الفترة تنتج ذلك النمط من الأفراد، وتجعل الجنس البشري يتخذ هذا السلوك أو ذاك؛ ونرى عقل الناس يكون تارةً كريمًا وتارةً بخيلًا، مثل حقولنا. فما مآل تلك الامتيازات التي نزْهو بها؟ بما أن شخصًا حكيمًا يمكنه أن يرتكب الخطأ، كما يمكن أن يخطئ العديد من الأشخاص، بل العديد من الشعوب، وأن الطبيعة البشرية نفسها يمكنها أن تتوه قرونًا وقرونًا حول هذا الأمر أو ذاك، فأيُّ يقين يمكن أن يكون لدينا في أن تكفّ أحيانًا عن القيام بذلك، أو ألّا تمارس الخطأ في هذه اللحظة بالذات؟

412. ومن بين الشواهد على غبائنا، إليكم شاهد لا يستحق أن يُنسى: أيْ أن الإنسان حتى في رغبته في شيء ما لا يعرف كيف يجد ما ينبغي له؛ وأننا لا نستطيع الاتفاق على ما نحتاج إليه لراحتنا ورِضانا، وذلك لا فقط فيما يخص ما نتمتّع به حقًا، وإنما أيضًا فيما نتخيل ونأمل. لنتركْ

---

(1) * خبير عسكري وكاتب روماني عاش في القرن الرابع الميلادي.

(2) Cicéron, **De fato**, (106), IV, 7.

إذًا فكرنا يفصل ويخيط على هواه، فهو لا يستطيع حتى اشتهاء ما هو مقدَّر له وتحقيق شبعه منه=

«... هل هو العقل الذي يتحكّم في شهواتنا؟
ما هو المشروع الذي تبنون في ظروف جيدة
كيْلا تندموا عليه حتى لو نجح؟»[1].

=لهذا فإن سقراط لم يكن يطلب شيئًا من الآلهة إلا ما كانت تعلم أنه خير له. وصلاة الإسبرطيين، كانت، سواء في الخفاء أو العلن، لا تطلب سوى أن تُمنح لهم الأشياء الطيبة والجميلة، تاركين للمشيئة الإلهية أن تختار لهم من بينها ما يلائمهم.

«ما نطلب هو امرأة وأطفال
لكن الله وحده يمكن أن يعرف من هي الزوجة
وما سيكونه أولئك الأطفال»[2].

413. يبتهل المسيحي إلى ربه أن يحميه بمشيئته من السقوط في المشكلات التي يرويها الشعراء عن الملك ميداس. فقد طلب هذا الأخير من الآلهة أن تمنحه القدرة على تحويل كل ما يمسه إلى ذهب. استجابت الآلهة لدعائه، فكان خمره من ذهب وخبزه من ذهب أيضًا. فصار يعاني الأمرّين من تحقيق ما كان يرغب فيه: فالفضل المرغوب فيه بدا غير محتمل بحيث كان يلزمه إعادة دعائه بالمقلوب.

«ألمّ به شر لم يتوقعه، فقد كان فقيرًا وغنيًا في الآن نفسه
ها هو يرغب في الهروب من ثرواته، وما كان يُرعبه»[3].

414. لكن لنتحدثْ عنّي. حين كنت شابًا، كنت أتمنى أن يمنحني القدر وسام القديس ميشيل، ذلك أنه كان الجائزة الفخرية للنبالة العليا الفرنسية، وأنه كان وسامًا نادرًا. وقد منحني الله إياه بشكل خفيف الروح. فعوض

(1)Juvénal (42), X, 4.
(2)Juvénal (42), X, 352.
(3)Ovide 62), XI, 128.

أن يدفع بي إلى الأمام ويسْمو بي من مكاني كي أبلغه، عاملني بطريقة ألطف: لقد صغَّر من شأنه وأنزله حتى كتفيّ بل أدنى من ذلك[1].

415. حين طلب كليوبيس وبيتون وتروفونيوس وأغاميديس بعضهم لإلهتهم وبعضهم لإلههم أن يمتعهم بجزاء على قدْر ورَعهم، تلقّوا الموت جزاءً، بما أن الآراء الإلهية فيما يلزمنا مختلفة جدًا عن آرائنا. الله يقدر أن يمنحنا أحيانًا الثروة والشرف والحياة وحتى الصحة، في غير صالحنا، ذلك أن كل ما هو رائق ليس بالضرورة طريقًا لخلاصنا. فإذا وهب لنا الموت أو استفحال آلامنا عوض الشفاء («عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي »[2]، فهو يفعل ذلك حسب ما يمليه عليه القدر، الذي يقدّر ما يعود لنا بالتأكيد بشكل أفضل مما يمكننا القيام به. وعلينا أن نعتبر ذلك خيرًا، وأمرًا آتيًا من يد بالغة الحكمة وصديقة.

«صدقوني، عليكم أن تتركوا الآلهة تحكم
على ما هو خير لنا وما يليق بشؤوننا
فالإنسان أعزّ عليها ممّا هو على نفسه»[3].

وأن يطلب منها المرء الشرف والمناصب العليا، يعني أن يطلب منها أن ترمي به في مغمعة المعركة، وفي لعبة النرد، أو في أي وضعية يكون المخْرج منها مجهولًا والربح فيها مشكوكًا فيه.

416. ليس ثمة من معركة أكثر شراسةً ولا عنفًا بين الفلاسفة، من تلك التي يخوضونها عن مسألة «الخير الأسمى للإنسان». وتبعًا لحساب فارو، فقد نتجت عن ذلك مئتان وثمانون مدرسة. «فإذا كنا على خلاف في قضية الخير الأسمى فنحن على خلاف في الفلسفة بكاملها»[4]:

«كأني أرى ثلاثة ضيوف يتخاصمون
كل واحد منهم يريد ثلاثة أطباق مختلفة على ذوقه

(1) لا يخلو كلام مونتيني هنا من مرح عن وسام القديس ميشيل وهيبته السابقة. انظر الفصل السابع، الفقرة الثالثة والهامش 4.

(2)Bible (2), **Psaumes**, XXII, 5.

(3)Juvénal (42), X, 346 sq.

(4)Cicéron (17), V, v.

أنت ترفض ما يبتغيه أحدهما، وما تطلب أنت يجده الآخران مزًّا ومقزّزًا»[1].

هل على الطبيعة إذًا أن تجيب على احتجاجاتهم وجدلهم؟ يقول البعض إن خيرنا يكمن في الفضيلة؛ وآخرون يرونه في الشهوة؛ وآخرون أيضًا في ترك الطبيعة تفعل فعلها؛ والبعض في العلم، وآخرون في عدم التألُّم؛ وآخرون في الانصياع للمظاهر، وهذا ما يبدو أن فيثاغوراس القديم يتبناه:

«ألّا يندهش المرء لأي شيء، يا نوماكيوس، هو ما يبدو السبيل الأوْحد والأفرد الذي يمنحه السعادة ويحافظ له عليها»[2].

وذلكم هو الهدف الأسمى للمدرسة البيرونية. يعتبر أرسطو أن عدم الدهشة من أي شيء دليل على عظمة الروح وسموها. ويعتبر أركسيلاوس أن الخير يتمثل في المقاومة ومحافظة المرء على حكم مستقيم لا يَلين، أما الرذائل والشرور فتأتي مما نقبل به ونوافق عليه. والحقيقة أنه وهو يصوغ ذلك في شكل مسلّمة قاطعة، كان يبتعد عن البيرونية. فالبيرونيون حين يقولون إن الخير الأسمى هو«الأتاراكسيا»[3]، التي هي جمود الحكم، فهم لا يعنون قوْل ذلك بشكل توكيدي: فحركة أنفسهم التي تجعلهم يتهرّبون من الهاوية، وحماية أنفسهم من رطوبة المساء، ذلك هو ما يجعلهم يقبلون برأي وينكرون رأيًا آخر.

417. كم أرغب بشدة، ما دمت حيًّا، في أن يحظى شخص كيوستوس ليبسيوس (أكبر العلماء الأحياء، والعقل المثقف الحصيف، والقريب حقًّا من تورنيبوس فقيه اللغة العزيز عليَّ) بما يكفي من الإرادة والصحة والمتعة، كي يقوم بسجلّ دقيق وصادق لآراء الفلسفة القديمة، تبعًا لتشعباتها وأقسامها، بحيث يمكننا معرفتها، وذلك بخصوص عاداتنا وطرائق حياتنا. ولْيكُن ذلك بما تضمنته من خصومة وجدال ونجاح المدارس وصيرورتها، والطريقة التي اتبع بها الطليعيون وتلامذتهم تعاليمهم نفسها خلال ظروف أنموذجية لا تُنسى. كمْ سيكون كتابًا مفيدًا وجميلًا!

(1)Horace (35), II, ii, 61sq.

(2)Horace (35), I, vi, 1-2.

(3) أي الراحة المطلقة للنفس وعطالتها [المترجم].

418. علاوة على ذلك، إذا كنا نستقي من ذواتنا القانون الذي يتحكم في عوائدنا، فأي فوضى نزجّ بأنفسنا فيها؟ وإنّ أعْقَل ما ينصحنا به عقلنا في هذا المضمار، هو أن كل شخص يخضع لقوانين بلده حسب رأي سقراط، وهو رأي استوحاه -حسب قوله- من نُصْح إلهي. ومن ثمَّ، ما الذي تعنيه هذه القاعدة، سوى أن واجبنا لا قاعدة له، سوى القاعدة النافلة؟

419. ينبغي أن يكون للحقيقة الوجه الكوني ذاته. فإذا ما لاقى الإنسان الاستقامة والعدل متجسديْن، وذويْ وجود واقعي، فلن يُرْجع ذلك إلى أحوال العوائد في هذا البلد أو ذاك. فالفضيلة لن تستقي شكلها من خيال الفرس أو الهنود، ذلك أن لا شيء يخضع للتغير المستمر أكثر من القوانين. منذ ولادتي رأيت قوانين جيراننا الإنجليز تتغير ثلاث أو أربع مرات، لا فقط في المجال السياسي، الذي لا نتوقع فيه أي استقرار، وإنما في في أهم المواضيع إطلاقًا: أي الديانة. وأنا أحس إزاء ذلك بالعار والأسى، خاصةً وأن الأمر يتعلق بأمة كان لأهلنا في الماضي معها عُرى وثيقة بحيث لا زالت منها في بيتي آثار عن قراباتنا القديمة. زِيدي على ذلك أني ألْفيتُ لدينا هنا أشياء،كانت تعتبر بمثابة جُرْم يستحق الإعدام، تصبح مشروعة مُباحة. ونحن الذين نعتبر قوانين أخرى من بينها قوانين مشروعة، يمكننا بفعل تقلبات الأمور، أن نُتَّهَمَ بجرائم المس بالذات الملكية أو الإلهية، لو أن عدالتنا سقطت بين أيدي الظلم، وفي وقت وجيز أخذت دلالة معاكسة لما هي عليه. كيف استطاع ذلك الإله في العصور القديمة[1]، أن يؤكّد بوضوح غياب الألوهية في المعرفة الإنسانية، وأن يُعْلم الناس أن ديانتهم ليست سوى ابتكار منهم، الغرض منه ضمان انسجام المجتمع، بحيث إنه صرح لأولئك الذين ينتظرون تعليماته أمام حامله، أن الديانة الحقة لدى كل واحد هي ما يمكن أن يمارسه في عوائد البلد الذي يوجد فيه؟ يا إلهي!يا لامتناننا لنعمة الخالق البارئ الذي حرّر ديننا، من هذه العبادات المتعددة والاعتباطية، وأرساها على القاعدة الأبدية لكلمته المقدسة!

420. ما الذي يمكن أن تقوله لنا الفلسفة هنا؟ أن نتّبع قوانين بلدنا، أي هذا البحر المائج من آراء شعب أو أمير سيرسم لي العدالة بالكثير من

(1) هو أبولّون، والسياق يوضح ذلك جيدًا، بما أن مونتيني سيتحدث لاحقًا عنه بالإحالات نفسها.

الألوان، ويمنحها من الأوجه مقدار ما فيه من تقلُّب الأهواء؟ وأنا لا يمكنني أن أكتفي بحكم متأرجح كهذا. ما القيمة التي يملكها هذا الشيء الذي كان بالأمس موثوقًا به، ولم يعد كذلك في اليوم الموالي؟ وهل يمكن تحويل مسير النهر ؟ أيُّ حقيقة هذه التي تغدو كذْبةً فيما وراء الجبال التي تشكل حدودًا لها[1]؟

421.كم هم ممتعون هؤلاء الفلاسفة حين، لمنح بعض اليقين للقوانين، يقولون إن ثمة من بينها ما هو قاطع وأبدي ولا يتغير، ويسمونها قوانين طبيعية، متأصلة في الجنس البشري بفعل جوهره نفسه. ومن بين هذه القوانين ثمة من يحسبها ثلاثة وآخرون أربعة، والبعض أكثر والبعض الآخر أقل، وهو علامة على أن ذلك سمة مريبة أكثر من الأخرى. وإذًا فحظهم عاثر، إذ كيف نسمّي بغير الحظ العاثر كوننا في عدد غير محدود من القوانين، لا نعثر حتى على واحد يسمح له طموح القدَر أن يكون مُعترفًا به كونيًا من كافة الشعوب؟ وحظهم عاثر كما قلتُ؛ لأن من بين القوانين الثلاثة أو الأربعة التي اختاروا، لا واحد منها لم يتعرض للإنكار، لا من شعب واحد، وإنما من شعوب عديدة. ومع ذلك فإن الموافقة الكونية هي المعيار الوحيد المعقول، الذي يمكن عليه تأسيس القوانين الطبيعية: فما ستأمرنا به الطبيعة فعلًا، سنتّبعه من دون شك، باتفاق عام. ولن يحس فقط كل شعب، بل كل فرد، بالقوة والعنف الذي سيُخضِعه له، من يريد أن يدفعه لخرق هذا القانون. فليقدموا لي إذًا قانونًا من هذا النوع!

422.يعتبر بروتاغوراس وأرسطون أن لا جوهر آخر لعدالة القوانين غير جوهر السلطة ورأي المشرِّع، وخارج هذا فإن الشخص النزيه والإنسان الخيّر سيفقدان مزاياهما، ويصبحان فقط أسماءً نافلة وأشياء مجهولة. لدى أفلاطون، يعتبر ثراسيماخوس أن القانون ليس شيئًا آخر غير ما يجهر أسه. فلا شيء في العالم يكون من التنوع ما تكونه العادات والقوانين. والشيء الذي يكون هنا ممقوتًا يحظى بالتقدير في

(1) استعاد الفيلسوف بليز باسكال هذه الفكرة في عبارته الشهيرة: «ما هو حقيقة فيما قبل جبال البرانس هو خطأ فيما وراءها».

مكان آخر، كما أن الحذق في إسبرطة، مدعاة لسرقة الآخرين. وزواج الأقارب ممنوع منعًا باتًّا لدينا، وهو في أمكنة أخرى تحظى بالأولوية.

«زعموا أن بعض البلدان تتزوج الأم
ابنها والأب ابنته
بحيث ينضاف الحب للعاطفة الأسرية»[1].

فوَأْد الأبناء وقتل الآباء، والمعاشرة المَشاع للنساء، وتجارة الأشياء المسروقة، والإباحة في كل أنواع الشهوات، لا شيء بالجملة من الأمور المتطرفة، لم تكن مقبولة في عوائد شعب من الشعوب[2].

423. يمكننا أن نعتقد أن ثمة قوانين طبيعية، كما نرى ذلك لدى مخلوقات أخرى لكنها لدينا صارت مفقودة؛ ذلك أن العقل البشري يريد ضبط كل شيء والتحكم فيه، مشوِّشًا على مظهر الأشياء انطلاقًا من غروره وتقلباته. «**لا شيء يبقى إذا كان حقًا ملكنا؛ وما أعنيه «بملكنا» ليس سوى أثر للفن**». فنحن ننظر للأشياء من وجهات نظر متعددة، ونمنحها هذا القدر أو ذاك من الأهمية، ومن ثم ينبع بالأساس الاختلاف في الرأي. فهناك شعب يُنظَر إليه بشكل والآخر بشكل مغاير.

424. ليس ثمة من شيء أفظع ولا أشقّ من أن نتخيل أنْ يأكل المرء أباه. وأبناء الشعوب التي كانت لها في الماضي هذه العادة، كانوا يعتبرونها مع ذلك شهادة على الإيمان والعاطفة الجيّاشة، ويسعوْن من خلال ذلك إلى أن يمنحوا للوالد المدْفن الأكثر شرفًا؛ بجعل جسمهم مكانًا لأجسام الآباء حتى نخاعهم، بحيث إنهم، بشكل ما، يُحيونهم، ويبعثونهم بتحويل لحمهم الحي وتناوله وهضمه. ويمكننا بسهولة أن نتصور أي قسوة وأي بشاعة، سيحس بها الناس المتشبعون بهذا المعتقد حين سيرمون برفات آبائهم كي تتعفّن في الأرض وتغدو طعامًا سائغًا للهوام والدّيدان.

425. يأخذ المشرّع اليوناني ليكورغوس بعين الاعتبار، في مسألة سرقة

(1)Ovide (62), X, 331.

(2) إننا نلاحظ أن هذا الموضوع عزيز على مونتيني، فقد سبق أن تطرق له في الفصل الأول، الفقرة 23.

شخص، الحيوية والجرأة والدقة التي جعلت السارق يختلس لجاره شيئًا مامن جهة، ومن جهة ثانية المنفعة التي تكون لهذا الفعل في الساحة العامة، بحيث يؤدي ذلك الأمر بالناس إلى الاهتمام بالحفاظ أكثر على ما يملكون. وقد اعتبر أن هذه التربية المزدوَجة، أي الهجوم والدفاع، كانت مفيدة للسلوك العسكري (الذي كان لديه العلم والفضيلة الأساسيْن، والذي أراد أن يقود شعبه له)، وأشد أهميةً من الفوضى والظلم الذي يؤدي إليه الاستحواذ على خيرات الآخرين. وقد منح ديونيسيوس طاغية سيراقوسة لأفلاطون فستانًا مصنوعًا على الطريقة الفارسية، فقال له أفلاطون إنه ولد رجلًا، وليست له رغبة في أن يلبس لباس النساء. غير أن أريستبّوس قَبِله، قائلًا له: إن لا ملبس بقادر على أن يفسد قلبًا عفيفًا. وبما أن أصحابه وبّخوه على جبْنه، لأنه لم يعر اهتمامًا لكون ديونيسيوس كان قد بصق في وجهه، أجاب: «يتحمل الآثمون أن تغمرهم أمواج البحر، من الرأس إلى القدمين، كي يصيدوا سمكة صغيرة». كان ديوجينيس ينظّف كرنْبه وحين رآه يمرّ قال له: «لو كنت تعرف العيش من أكل الكرنب فقط لما غازلت الطاغية». فردّ عليه أريستبّوس: «لو كنت تعرف العيش بين بني البشر، لن تنظف الكرنب[1]». هكذا يمكن للعقل أن يُبدي عن بعض الأمور في جوانب مختلفة: إنه مزهرية بيدَيْن، يمكننا الإمساك بها من اليمين كما من الشمال[2].

«إنها الحرب التي تحملين، أيتها الأرض المِضيافة
جيادك فيها جاهزة، تهددنا بها
لكنها كانت مربوطة لعربات حرب أولا
وسارت تجر ثقلها
ثمة إذًا أمل في السلام»[3].

426. قيل لسولون ألاّ يذرف دموع عجْز غير مجْدية على موت ابنه. فأجابهم: «لأنها عاجزة وغير مجْدية أذرفها بشكل مشروع أكثر». كانت زوجة سقراط تعمّق من عذابه بقولها: «كم هم أشرار هؤلاء القضاة في أن

(1) In Diogène Laërce (45), Aristippe, II, 67-68.

(2) اليوم غالبًا ما يتم الحديث عن «وجهي العملة الواحدة»، أو القارورة المملوءة النصف أو الفارغة النصف.

(3) Virgile [112] III, 539.

يحكموا عليك بالموت ظلمًا» . فكان يجيبها: «هل كنت ترغبين في أن يحكموا علي بالموت عدلًا؟» نحن نثقب الآذان؛ وقد كان اليونانيون يعتبرون ذلك علامة على العبودية. ونحن نقوم بالجماع مع زوجاتنا سرّا فيما أن الهنود يقومون بذلك جهارًا. كان السكوثيون يحرقون الأجانب في معابدهم؛ وفي أمكنة أخرى كانت المعابد مناطق للجوء.

«من ثم يأتي الهيجان الشعبي، من كون كل بلد
يكره آلهة جيرانه، لأنه يعتقد أن آلهته
هي الوحيدة الحقيقية من بين الآلهة جميعًا»[1].

427. سمعت عن قاضٍ حين كان يجد نفسه أمام نزاع شرس بين بارْتولوس وبالدوس[2] حول نقطة من القانون مثيرة لجدل كبير، كان يكتب في حاشية سجلّه: «سؤال للصديق»، وهو ما كان يعني أن الحقيقة كانت بالغة التشوُّش، وخضعت لنقاش طويل، بحيث إنه في هذه الحالة قد يساند رأي أحد الطرفين كما يحلو له. ولو كان أبان عن حذق وكفاءة أكبر، لكان وضع «سؤال للصديق» في كل مكان. المحامون والقضاة في عصرنا يجدون في كل الشؤون ما يكفي من العيوب لكي يطوّعوها كما يحلو لهم. ففي مجال شاسع كهذا، خاضع للكثير من الآراء وللأكثر من العسف، يقع خلط كبير في الأحكام، ولا يمكن للأمر أن يكون غير ذلك. لهذا ليس ثمّة من محاكمة مهما كان وضوحها، لا يتم فيها نزاع الأفكار: فما حكمت فيه محكمة، تحكم فيه محكمة أخرى بالنقيض، وتحكم هي نفسها بنقيض ما حكمت به في المرة السابقة. ونحن نرى عن ذلك دومًا أمثلة، بسبب هذا التسيُّب، الذي يُفسد بشكل رهيب السلطة المجيدة لعدالتنا وبريقها، والتي تتمثل في عدم الالتزام بالأحكام المعلنة، بل في البحث دومًا عن قضاة جدُد للحكم في القضية نفسها.

428. أما حرية الآراء الفلسفية عن الرذيلة والفضيلة، فذلك أمر أكيد لا ينبغي الاستفاضة فيه، ففيه وجهات نظر مختلفة من الأفضل السكوت عنها، على التعريف بها لذوي العقول الضعيفة. قال أركسيلاوس: إن

(1)Juvénal (42), XV, v, 37.

(2) عالما لاهوت معروفان في تلك الفترة.

المرء إذا كان سفيهًا، فلا يهم من أي جانب ومن أي مكان يكون كذلك. **«أما ملذات الحب، فإذا ما كانت الطبيعة تفرضها، فلا يلزم أن نأخذ فيها بعين الاعتبار لا العرْق ولا المكان ولا جمال الهيئة ولا السن ولا الحُسْن، كما يعتقد ذلك إبيقوروس»**[1]. **«وهم [الرواقيون] يعتقدون أن علاقات حب منظمة بشكل مقدّس، تكون مناسِبة للحكيم»**[2]. هذان المقطعان الأخيران للرواقيين، والمأخذ الذي وجهه ديكايارخوس لأفلاطون نفسه بخصوص هذا الموضع، يبيّن كم أن الفلسفة الأكثر استقامة تحتمل تساهلًا بعيدًا جدًا عن العادة المشتركة، ومبالغًا فيه.

429. تستمد القوانين سلطتها من وجودها واستعمالها، ومن الخطير إعادتها إلى لحظة ولادتها، فهي تكبر وتغدو أشرف بسريانها، كما تفعل ذلك أنهارنا. اتبعوها في الأعلى حتى منبعها، فهي ليست سوى سيل صغير من الماء، نكاد لا نتعرف على النهر فيه، يمتلئ هكذا زهْوًا ويتقوى بالشيخوخة. انظروا التأملات القديمة التي حركت هذا السيْل الشهير المليء بالنخْوة، والذي يوحي بالرهبة والاحترام، فستجدونها خفيفة ورقيقة، بحيث ليس من الغريب أن الفلاسفة، الذي يقيسون كل شيء ويزنونه، يتفحّصون كل شيء على ضوء العقل، أما الذين لا يقبلون بأي شيء نافذ وشائع، فيصدرون بصدد ذلك أحكامًا، تكون في الغالب بعيدة عن الرأي العام. وبما أنهم يتخذون صورة الطبيعة الأصلية أنموذجًا، فليس من الغريب، أن أغلب آرائهم تنزاح عن الرأي المشترك. والقليل من بينهم مثلًا، قد يوافقون على الشروط، التي تُفرض في عمليات الزواج لدينا، وأغلبهم رغبوا في العلاقات الحرة مع النساء، من غير روابط عقْد. كانوا يرفضون عوائدنا: ألم يكن خريسيبّوس يقول: إن الفيلسوف مستعد للقيام بدزينة من الشقْلبات أمام الملأ، بل من غير سروال من أجل دزينة من حبات الزيتون؟ ومن غير المحتمل أنه أوصى كليسثينيس أن يرفض منح يد ابنته أغاريستي الحسناء لهيبّوكليديس لأنه رآه يقوم بالحركة البهلوانية المعروفة بـ«الشجرة المشقوقة» على طاولة. وقد أحدَثَ ميتروكليس خِفية وهو

(1)Cicéron (17), III, 20.

(2) Sénèque (96), CXXIII.

يتناقش في حضرة تلامذته، ومن شدّة الخجل لزم بيته من حينئذٍ حتى جاءه كراتيس يزوره، فأضاف استدلالاته إلى المواساة وبيّن له أنموذج حريته، وبدأ يُحدِث على هواه معه، حتى انتزع منه تبكيت الضمير هذا. وعلاوة على ذلك، دفعه إلى ترك المدرسة المشائية، الأكثر تحضّرًا، التي اتبعها حتى ذلك الوقت؛ للالتحاق بمدرسته الرواقية الأكثر صراحةً.

430. أما ما نسميه «تأدُّبًا»، أي عدم الجرأة على القيام علنًا بما نرى أن من «الحشمة» أن نقوم به خِفيةً، فقد كانوا يقولون عنه إنه غباء؛ وكانوا يعتبرون رذيلةً الاحتيال لإخفاء وإنكار الأعمال، التي تُبين عنها الطبيعة والعادات ورغبتنا أمام الملأ. وكانوا يعتبرون أن من باب تدنيس ألغاز فينوس القيام بانتزاعها من معبدها، لاستعراضها على مرأى من الكلّ، وأن تقديم المرء لألعابه قرب ستار المسرح تؤدي إلى ضياعها؛ وأن العار ضرْب من العبْء، وأن التستُّر والتأدُّب وإكراه النفس هي عناصر تقْدير واحترام نحسها إزاء شيء ما. وأن الشهوة، تحت قناع الفضيلة، تحرص بشكل حاذق على عدم تداول نفسها وسط الطرقات، تدوسها الأقدام وتُستعرض على أعيان الحشود، نادمةً على كرامة أماكنها المعتادة وراحتها فيها.

431. بعضهم يستمدون الدليل من ذلك ليقولوا بأن إزالة المواخير العامة لن يقود فقط إلى نشر الفسق في كل مكان، بعد أن كان محصورًا إلى حينئذٍ في تلك الأمكنة؛ وإنما سيدفع الناس المتشردين والعاطلين إلى هذه الرذيلة، جاعلين منهم أناسًا يصعب إشباعهم.

«يا كورفينوس، كنتَ فيما مضى زوج أوفيديا، وهَأنت صرت عشيقها
وزوجُها اليوم كان فيما مضى خصمك
لماذا هي تعجبك أكثر وهي زوجة رجل آخر
فيما كانت لا تعجبك حين كانت زوجةً لك؟
ها هو الأمان يجعل منك عِنّينا؟»[1].

(1)Martial (51), III, LXIX.

هذه التجربة تأخذ مئات الأشكال.

«لا أحد في المدينة بكاملها كان يرغب في لمس زوجتك
يا كيسيليانوس، حين كان الناس أحرارًا في التقرب منها
لكن الآن بعد أن وضعت الحراس حولها
هناك حشد من الغواة يتحرشون بها... أيها الرجل الحاذق!»[1].

432. سُئِل فيلسوف بوغِت وهو في عزّ الجماع عمّا يفعل. فأجاب بهدوء: «إني أزرع إنسانًا»، بحيث إنه لم يحمرّ خجلًا وهو يفعل ذلك، أكثر مما لوْ بوغت وهو يزرع ثوْمًا. وأنا أعتبر أن من باب المعروف البالغ والاحترام من جانب مؤلف ديني عظيم [2] أن يعتبر أن ذلك الفعل يلزم أن يكون سريًا ومحتشمًا: ففي حرية القبلات التي كان يمارسها الفلاسفة الكلبيون، لم يكن القبول يصل إلى حدّ قضاء الوطر، وإنما يُعتقد بأنهم كانوا يكتفون بالقيام بحركات خليعة؛ لإبراز الوقاحة التي تدعو إليها مدرستهم. فقد كان يُعتقد أنهم كانوا بحاجة للتستُّر؛ لكي يمارسوا بحرية ما تمنع منه الحشمة وتكبحه. وصاحبنا لم ير عن قربٍ فجورهم: حين كان ديوجينيس يستمني أمام الملأ، كان يصرح لمن كانوا هناك أنه كان يتمنى أن يشبع معدته أيضًا بدلْكها بتلك الطريقة. وكان يجيب من كانوا يسألونه لماذا لا يبحث عن مكان أكثر ملاءمة يتناول فيه طعامه عوض القيام بذلك وسط الشارع: «لأني أحسستُ بالجوع وسط الشارع». وكانت النساء اللواتي التحقن بمدرستهم، يعاشرْنهم في كل مكان وبحرية تامة. فهيبّارخيا*[3] لم تُقبل في جماعة كراتيس*[4] إلا بشرط أن تتّبع في كل شيء عوائدهم وتقاليدهم، التي تفرضها قواعدُ مدرسته. كان هؤلاء الفلاسفة يثمّنون عاليًا الفضيلة، ويرفضون كل علم للأخلاق، لكنهم يمنحون السلطة العليا للاختيارات التي يقومون بها في عوائدهم، التي يضعونها فوق القوانين، ولا يضعون أي حدود أخرى للشهوات سوى الاعتدال واحترام حرية الغير.

---

(1) Martial (51), I, LXXIV.

(2) Saint Augustin, **Cité de Dieu,** [8] XIV, 20

(3) * هيبّارخيا فيلسوفة إغريقية من المدرسة الكلبية، من مواليد مارونيا باليونان، كانت زوجة الفيلسوف الكلبي كراتيس.

(4) * الفيلسوف الكلبي كراتيس الطيبي (365 ق.م تقريبًا - 285 ق.م تقريبًا).

433. حين لاحظ هيراقليتوس وبروتاغوراس أن الخمر يبدو مرًّا للمريض ورائقًا لمن يتمتع بالصحة والعافية، وأن المجداف يبدو معوجًا في الماء، ومستقيمًا لمن يرونه خارج الماء، وغيرها من المظاهر المتناقضة في العديد من الأشياء، استنتجوا من ذلك البرهان للقول : إن كافة الأشياء لها في ذاتها عِلل تلك المظاهر، وأن الخمر فيه بعض المرارة، ذات علاقة بذوق المريض، وبعض الاعوجاج في المجداف، بالعلاقة مع ما يراه من ينظر إليه في الماء، وهلم جرًّا. وهو ما يُعتبر طريقة للقول: إن كل شيء في كلشيء، ومن ثمَّ أن لا شيء في أي شيء، إذ لا شيء يوجد في ما يوجد فيه كل شيء.

تأويل النصوص

434. هذه الطريقة في النظر للأمور، تذكّرني بالتجربة التي كانت لنا، بأنْ ليس ثمة أي جانب أو استقامة، أو مرارة أو حلاوة أو انحناء، لا يمكن للعقل الإنساني أن يجده في الكتابات، التي يقوم بنبشها. ففي النص الأكثر وضوحًا، والأكثر خلوصًا والأكثر كمالًا، كم من زيْف ومن كذب كُشف فيها؟ أيُّ هرطقةٍ لم تجد فيه ما يكفي من الأسس والأدلة لكي تولد وتحافظ على حياتها؟ لهذا فإن كتّاب تلك الأخطاء لا يريدون التخلّص من ذلك «الدليل» الذي يشكله تأويل الكلمات. أحد الأشخاص المهمين، وهو يريد أن يؤكد لي بدليل قاطع البحث عن حجر الفلاسفة، الذي كان منغمسًا فيه، قام مؤخّرا أمامي باستعراض خمسة أو ستة مقتطفات من الكتاب المقدّس، التي استند إليها كما زعم، لكي يبرئ ضميره، لأنه كان من رجال الكنيسة. والحقيقة أن اكتشافه لم يكن فقط ماتعًا؛ وإنما ملائمًا للدفاع عن هذا العلم الرائع. فمن ثَمَّ تستقي الخرافات التنبؤية صدْقيتها. ليس ثمة من متكهّن، إذا كانت له سلطة، بحيث يمكننا تصفّحه، والتفحص الدقيق لثنايا كلماته وجيوبها، بحيث يمكننا أن نُقوّله كل ما نريد كما نفعل مع العرافين؛ ثمة العديد من الطرائق لتأويلها، بحيث من غير الممكن، بشكل مباشر أو من خلال المداورة، ألا يعثر فيها عقل على موضوع معيّن أو شيء ما يعزز وجهة نظره.

435.لهذا ثمة أسلوب بالغ الضبابية والشك يُستعمل منذ القدم بشكل مستمر، فالمؤلف يرغب من خلال ذلك، في أن يستجذب إليه اللاحقين عليه ويربحهم إلى جانبه، وهو مالا يستطيعه فقط بالموهبة وحدها ولا حتى بأهمية الموضوع. علاوة على ذلك، لا يهم أن يعبر بطريقة غامضة ومتناقضة شيئًا ما، غباءً أوْ حذَقًا منه، فالعديد من العقول ستفرز الحَبّ من التبن وتهزهزه لتستخرج منه كمًا من المعاني متوافقة أو لًا مع ما كان يقصد قوله، لكنها ستكون كلها مشرّفة له. وهكذا سيرى نفسه وقد أضحى أغنى بفضل تلامذته[1]. وذلك ما يمنح قيمةً لأشياء لا قيمة لها، ويمنح النجاح للعديد من المؤلفات، وأغناها بكل ما رُغب في نفثه فيها، أي الشيء نفسه أمام مئات التآويل المختلفة والتأمّلات المتنوعة، كما يحلو لنا. هل من الممكن أن يكون هوميروس قد قصد قول كل ما تمّ تقْويله له، إذ إنه كان محطً تأويلات عديدة ومتنوعة وبحيث إن علماء اللاهوت والمشرّعين والربّان الكبار والفلاسفة وغيرهم من الناس يستندون إليه ويحيلون عليه؟ وأن يكون من ثم أستاذًا لكل الوظائف والقُداسات والأعمال؟ والمستشار الكوني لكافة الأشغال؟ كل من كان بحاجة للتكهنات والتوقّعات وجَد فيه ما يبحث عنه. أحد العلماء من أصدقائي كان وراء العديد من الاكتشافات لصالح ديننا؛ ومن الغريب أن نرى أنه لا يمكن أن يتخلص من فكرة أن ذلك كان هدف هوميروس (والحقيقة أن هذا المؤلف كان أليفًا لديه كما لو أنه يعيش في عصرنا). وما يعثر فيه لصالح ديننا، كان آخرون كثيرون قبله فيما قبل التاريخ قد تأوّلوه لصالح دياناتهم.

436.انظروا كيف يتمّ التعامل المُشين مع أفلاطون والإساءة إليه. فكل واحد يحس بالفخر وهو يطبقه على حاله الخاص، ويجره من الجانب الذي يلائمه. وهكذا يُتجوّل به ويُدرج في كافة الأفكار الجديدة التي يصنعها العالم. بل يوضع في تناقض مع نفسه حسب التحول الذي تعيشه الأمور. ويُندِّد بأحكامه على العوائد، التي كانت مباحة في عصره لأنها محرّمة في عصرنا. وكل هذا بقوة وحيوية ما دام كان عقل المتأوّل قويًا وحيويًا.

(1) في وقت معرض «اللانديت» في القرون الوسطى كان التلاميذ يمنحون للأساتذة مرتباتهم.

437. وعلى الأساس نفسه لهيراقليتوس، ورأيه القائل إن كل الأشياء يوجد فيها ما نرغب في العثور عليه فيها، استخلص ديموقريطوس نتيجة مناقضة لذلك تمامًا: ففي نظره، لا يوجد في الأشياء أي شيء مما نعثر عليه فيها، وإذا كان العسل حلو المذاق لدى الواحد ومُرَّه لدى الآخر فذلك لأنه في الواقع، كما يزعم، ليس بالحلو ولا بالمرّ. وسيقول البيرونيون في ذلك إنهم لا يعرفون إن كان العسل حلوًا أو مرًّا، ولا هذا ولا ذاك أو أنه حلو ومرّ في آن، ذلك أنهم يمارسون الشك في أقصى مناحيه.

438. كان القورينيون[1] يؤكدون أن لا شيء قابل للإدراك من الخارج، وما يقبل الإدراك هو ما يؤثر فينا في الباطن كالألم والشهوة. كانوا لا يعترفون لا بالنبرات ولا بالألوان وإنما فقط ببعض العواطف التي تثيرها. وكانوا يقولون إن الإنسان لا أساس له غير ذلك، لإرساء حكمه العقلي. وكان بروتاغوراس يعتبر أن ما يبدو حقيقيًا لكل واحد هو لكل واحد الحقيقة. ويقسم الإبيقوريون كل حكم عقلي على الحواس، بخصوص المعرفة كما بخصوص الشهوة. أما أفلاطون فيعتبر الحكم على الحقيقة والحقيقة نفسها لا يرتبطان إلا بالعقل والتفكير، بغض النظر عن الآراء والحواس.

439. وهذا ما يفضي بنا إلى التأمل في الحواس، التي تُعتبر أساس جهلنا والدليل الأكبر عليها. فكل ما نعرف، نحن نعرفه من دون شك من خلال القدرة التي يتمتع بها عنه مَن يعرف؛ ذلك أن الحكم، بما أنه يأتي من العملية الذهنية لمن يقوم بالحكم، فمن العادي أن يقوم بهذه العملية بوسائله الخاصة، وتبعًا لمشيئته لا تحت إكراه خارجي، كما هي الحال إذا ما نحن عرفنا الأشياء بالقوة وتبعًا للقانون الذي يفرضه جوهرها الخاص. والحال أن كل معرفة تأتينا عبر الحواس، فهي مُعَلِّمتنا.

«هي الطريق الذي من خلاله تأتي البداهة مباشرة في قلب الإنسان وفي معبد الروح»[2].

(1) القورينية مدرسة فلسفية يونانية من القرن الرابع قبل الميلاد، أسسها أريستبوس القوريني، أحد تلامذة سقراط. وهي معروفة بالأخص بمذهبها في المتعة في مجال الأخلاق.

(2)Lucrèce (47), V, 103.

دور الحواسّ

440. الحواس، بها يبدأ العلم، وإليها ينتهي. نحن في نهاية المطاف لن نعرف أكثر من صخرة، لو أننا لم نكن نعرف أن ثمة الأصوات والروائح، والنور والمذاق، والمقياس والرخاوة، والصلابة والمرارة، واللون والظل، والعرْض والعمق. ذلكم هو مخطَّط ومبادئ صرْح العلم بكامله. وإذا ما نحن صدقنا بعضهم، فالمعرفة ليست شيئًا آخر غير ما ندرك. ومن يدفعني إلى معارضة الحواس يمسكني من العنق، فهو لا يستطيع أن يرجعني إلى أبعد من ذلك. فالحواس هي المبتدأ والمنتهى للمعرفة الإنسانية.

«سترى أن الحقيقة تأتينا من الحواس
ولا يمكننا أن نعارض شهادتها
ما الذي سنصدّق أكثر إذا لم...
نصدق الحواس؟»[1].

441. ومهما حاولنا تقليص دورها إلى أبعد حدّ، فيلزمنا أن نعترف لها بما يلي: فبها وبواسطتها يأتي إلينا كل ما نعرف. يحكي شيشرون أن خريسيبّوس وهو يحاول التحقير من قوة الحواس وقيمتها، ناقض ذاته في الاتجاه المعاكس وبتناقضات من القوة بحيث لم يستطع أن يجيب عليها. وتبعًا لذلك، استطاع كارنياديس، الذي كان يدافع عن الأطروحة المعارضة، أن يتباهى باستخدام براهين خريسيبّوس نفسه لكي يصارعه، ومن ثمّ صرخ فيه: «يا أيها التعيس، لقد خانتك قوتك». ليس ثمة ما هو أكثر عبثًا -حسْبنا- من الدفاع عن أن النار لا تسخّن، وأن النور لا يضيء وأن الحديد لا ثقل له، أو أنه ليس صلبًا. إنها مفاهيم تقدمها لنا الحواس. وليس في الإنسان من معتقد أو من علم يمكن مقارنة يقينيَّته بيقينيَّتها.

442. أول ملاحظة سأقوم بها عن الحواس هي أن أشكك في أن الإنسان يتوفر على كل الحواس التي تتوفر عليها الطبيعة. فأنا أرى بعض الحيوانات

(1)Lucrèce (47), IV, 479.

التي تعيش حياتها كاملة وبشكل تام، بعضها من غير أن يرى، والأخرى من غير أن تسمع. ومن يدري أننا لا تنقصنا نحن حاسة أو حاستان أو ثلاثة، بل أكثر من ذلك؟ إننا تنقصنا حاسة، وفكرنا لا يمكن أن ينتبه لذلك؛ إنه امتياز الحواس في أن تكون الحدّ الأقصى لما يمكن أن نُدرك، ولا شيء فيما يُجاوزها يمكن أن يصلح لنا في اكتشافها. بل أكثر من ذلك: لا يمكن لأي حاسة أن تكتشف حاسة أخرى.

«هل يمكن للسّمع أن يحسّن البصر؟ واللمس أن يحسِّن السّمع؟
والذوق هل يمكنه البرهنة على خطأ اللمس؟
أو الشمّ والعينان هل يمكنهما البرهنة على خطأ الحواس الأخرى؟»[1].
«هي تشكل الحد الأقصى لقدراتنا على المعرفة.
كل حاسة منها لها وظيفتها الخاصة
وقدراتها المتفردة»[2].

443. من المستحيل أن نُفهم أعمى بالولادة أنه لا يُبصر، ومن المستحيل أن نرغِّبه في الإبصار وأن نجعله نادمًا على عدمه. لهذا علينا ألا نستخلص أي ضمانة من أن أنفسنا سعيدة وراضية بما نملك، فهي ليس لها ما يمكنها به أن تدرك مرَض عدم كمالها، إذا ما كان الأمر كذلك. من المستحيل أن نستطيع أن نمنح لذاك الأعمى، بالاستدلال العقلي أو بالدليل والمقارنة، فكرةً ما عن النور واللون والبصر. ليس ثمة من وسيلة لكي نمنحه معنى الرؤية. والعميان بالولادة الذين يعبّرون عن الرغبة في الرؤية لا يفهمون شيئًا فيما يطلبون: فقد تعلموا منا أن لهم شيئًا يقولونه، وشيئًا يرغبون فيه ونحن نملكه، ويعرفون تسميته، كما يعرفون آثاره ونتائجه. لكنهم لا يعرفون ما هو بالضبط لا من بعيد ولا من قريب.

444. رأيت رجلًا نبيلًا من عائلة شريفة، أعمى بالولادة[3]، أو أنه أصيب بالعمى في سنٍّ كان لا يعرف فيها معنى الرؤية. إنه لا يدرك كثيرًا ما ينقصه،

(1)Lucrèce (47), IV, 487.

(2)Lucrèce (47), IV, 490.

(3) يمكننا أن نقارب هذا مع «رسالة للعميان» بعد ذلك بمئتي سنة، التي يستعرض فيها ديدرو الزيارة التي قام بها لأعمى بالولادة، ويعرض فيها تأملاته الفلسفية التي أوحت له بها هذه الحالة.

وهو يستعمل مثلنا كلمات تتعلق بالرؤية، ويستعملها بطريقته الخاصة جدًا. وحين قُدّم له طفل كان عرّابًا له، أخذه بين ذراعيه وصرخ: «يا إلهي، يا له من طفل جميل، كم نتمتع برؤيته. وكم وجهه صبوح». وهو يقول كما يقول أي واحد منا: «هذه الغرفة تمنحنا منظرًا جميلًا»، و«الجوُّ صحْوٌ»، و«اليومُ مشمسٌ جميلٌ». لكن ثمّة أكثر من ذلك؛ فبما أن القنص ولعبة الكرة والرماية هي تسليات لنا، وسمع عنها، فهو يتعلّق بها ويكرس لها وقته بشغف، ويعتقد أنه يمكنه أن يشارك فيها بطريقتنا. وهو يتحمّس لها ويتمتع بها، ومع ذلك فهو لا يدركها إلا بالسمعِ. يقال له بصوتٍ عالٍ إن الأرنب آتٍ، حين نكون في أرضٍ مستويةٍ يمكنه أن يطلق منها. وها هو يبدو فخورًا بالصيد الذي سمع به، فخر الآخرين به. وهو يأخذ الكرة باليد اليسرى ويدفعها بمضربه. وهو يطلق النار بالبندقية على سبيل التخمين، ويكتفي بما يقوله له أناسه، إنه أطلق النار بعيدًا فوق أو جانبًا.

445. مَن يدري؟ فالجنس البشري قد يقوم بحماقة من النوع نفسه، لأن إحدى الحواس تخونه؛ وربما لذلك يظل الجزء الأكبر من مظهر الأشياء مخْفيًا عنا. مَن يدري إن كانت الظلمات التي نصادف في جوانب كبرى من الطبيعة آتية من هنا، وإذا ما كانت أشياء كثيرة يقدر الحيوان على القيام بها، والتي تتجاوز قدراتنا، هي نتيجة حاسة تنقصنا؟ قد يكون بعضها له حياة أكثر امتلاءً واكتمالًا منا بسبب ذلك. نحن ندرك تفاحة بواسطة أغلب حواسنا، ونحن نجد أنها حمراء وملساء وحلوة ولها رائحة ولمعان. لكن، علاوة على ذلك، يمكنها أن تكون لها خصائص أخرى، كخاصية أن تجفّ وتذبل، وليس لنا حواس مناسبة لذلك. نحن نجد في الكثير من الأشياء خواص نقول عنها إنها «خفية»، كما خاصية جذب الحديد بالمغناطيس. ألا يمكن أن توجد في الطبيعة ملكات حسية قادرة على التعرف عليها وإدراكها، وإذا نحن لم نمتلكها سنظل في جهل بالجوهر الحقيقي لتلك الأشياء؟ ربما كانت لدى للديك حاسة خاصة تُعْلمه بوقت الفجر ومنتصف الليل، وتدفعه إلى الصّياح، أو حاسة تعلّم الدجاج الخوف من النسر، قبل أن تجرّب ذلك الإوزّة أو الطاووس مع أنهما أكبر منه حجمًا. من ينذر الدجاج الصغير بالسلوك العدواني

للقط تجاهها، وعدم الخوف من الكلب؛ والحذر من المواء لا من النباح، الذي يبدو فظًّا وعدوانيًا. ثمة حاسة معينة تمكن أيضًا الدبابير والنمل والجرذان من اختبار أفضل جبنة، وأفضل إجّاصة قبل تذوقهما، وتمنح للوعل والفيل والثعبان معرفة العشب الذي يمكّنها من الشفاء.

446. ليس هناك من حاسّة لا تكون لها سلطة مديدة، بحيث توفر بذلك عددًا هائلًا من المعلومات. لو لم تكن لنا معرفة بالأصوات والتناغم وبالصّوت، كان ذلك سينتج بلْبلة لا يمكن تصوّرها في علمنا. فعدا ما يتصل بالأثر الخاص بكل حاسّة، كم من البراهين والنتائج والخلاصات من الأشياء الأخرى نستخلصها بالمقارنة مع حاسة أخرى؟ أن يتخيل شخص ذكي الطبيعة الإنسانية باعتبارها نتاجًا أصليًا من غير البصر، وأن يتصوّر البلبلة والجهل اللذين سيثيرهما ذلك النّقص، فيا لها من ظلمات ويا له من عماء في أنفسنا؟ ومن ذلك سنستخلص الأهمية التي يكتسيها الحرمان من حاسة أخرى مشابهة أو من اثنين أو ثلاث حواسّ في معرفة الحقيقة. لقد بلورنا حقيقة ما باستشارة حواسّنا والمواجهة بينها؛ لكن هل كان من اللازم علينا أن نتوفر على ثمانية أو عشرة حواسّ لكي نراها في جوهرها ذاته؟

447. المدارس الفلسفية التي تحارب العلم الإنساني تحاربه أساسًا بالاستناد على عدم يقين حواسّنا وضعفها. وبالفعل، فبما أن كل معرفة تأتينا بوساطتها، إذا ما هي أخطأت في التقرير الذي تمنحه لنا، وإذا ما هي أفسدت ما تأتينا به من الخارج، وإذا ما كان النّور الذي يمرّ إلى أنفسنا بفضلها يتعرض للإظلام في طريقه، فنحن نكون في وضعية لا مخْرج منها. من هذه الصعوبة الهائلة وُلدت جميع الأفكار الغريبة، كأن يحتوي كل شيء في ذاته كل ما نجد فيه؛ وألا تكون الشمس أكبر مما تبدو عليه في رؤيتنا لها كما يعتقد ذلك الإبيقوريون=

«مهما كان الأمر، فحجمها ليس أكبر
مما يبدو لأعيننا في مسيرها»[1].

=وأن تكون المظاهر، التي تصور لنا جسمًا أكبر من جسم آخر قريب

(1) لوكريتيوس[47]، 577، V. لكن لدى لوكريتيوس يتعلق الأمر بالقمر لا بالشمس.

منه، وأصغر من الجسم البعيد عنه هما معًا حقيقيتان:

«نحن لا نستنتج مع ذلك أن العين تخطئ
ليس علينا أن ننسب لها أخطاء عقلنا»[1].

وفي نهاية المطاف، أن الحواس لا تخدعنا: فلنسلم لها أمرنا، من غير أن نبحث في مكان آخر عن علل لتفسير الاختلاف والتناقض الذي نجده فيها. بل الأحرى بهم اختلاقُ أي كذبة أو عِلَّة خيالية -وهم يبلغون هذا المبلغ- على اتهام الحواس بما ليس فيها.

448. كان تيماغوراس يزعم أنه حتى حين يضغط على عينيه أو يجعلهما في وضعية حَوَل، كان لا يستطيع أن يرى من نور السّراج نورين، وأن هذا المظهر يأتينا من خلَل في عقلنا لا من عضو الرؤية نفسه. ومن أكبر تُرَّهات الإبيقوريين وأسوأها إنكار قوة الحواس وفعلها=

«وهكذا فإن إدراكهم يكون دومًا حقيقيًا
وإذا ما لم يستطع عقلنا أن يفسّر لنا لماذا
الأشياء التي كانت مربّعة حين نراها عن قرب
تبدو مدوّرة عن بُعد
يُستحسَن رغم ذلك
أن يخدعنا عقلنا بعجزِه
عن سبب هذه الصورة المزدوجة
على أن يترك بداهة التخلي عن إيماننا الأول
تنفلت من بين أيدينا، وتحطم قاعدة
حياتنا وخلاصنا نفسها
ذلك أن العقل لن يتحطّم حينئذٍ وحده
وإنما حياتنا نفسها ستكون في خطر
إذا لم نجرؤ على الثقة في الحواس
كي نتفادى الهاوية والعثرات
وكافة المخاطر التي يلزم تفاديها»[2].

(1)Lucrèce (47), IV, 379, 386.

(2)Lucrèce (47), IV, 499-510.

=هذه النصيحة الخائبة وذات الطابع الفلسفي الباهت، لا تعبر عن شيء سوى عن أن المعرفة البشرية لا يمكن أن تحافظ على نفسها، إلا بعقل غير معقول ومجنون وعبثي. لكن من الأفضل أن يستعمل الإنسان تلك النصيحة، كي يُقيم لنفسه وزنًا، كما يستعمل أي دواء آخر، مهما كان خياليًا، على أن يعترف بحماقته المفرطة، وتلكم حقيقة لا نفع كبير فيها !فهو لا يمكنه أن يتفادى كون الحواس هي السيّدة المطلقة لمعارفه؛ غير أن الحواس غير موثوق بها، وخادعة في كل الظروف. هنا يلزم القيام بمعركة حامية الوطيس؛ وإذا ما خابت القوى العادلة فينا، كما هو الحال دومًا، علينا أن نستخدم فيها العناد والجرأة والوقاحة.

449. ما يقوله الإبيقوريون حقيقي، أي أن المعرفة مستحيلة علينا إذا كانت المظاهر التي توفّرها الحواس خطأ. وإذا كان ما يقوله الرواقيون حقيقيًا أيضًا، أي أن المظاهر التي توفرها لنا الحواس لا يمكنها أن تمنحنا أي معرفة، فعلينا أن نستنتج اتباعًا لهاتين المدرستين الدوغمائيتيْن الكُبْريَيْن، أن ليس ثمة من معرفة ممكنة. أما الخطأ وعدم اليقين الراجعيْن لاشتغال الحواس، فكل واحد يمكنه أن يجد الأمثلة عنها التي يرغب فيها، ما دام أن الأخطاء والخدَع التي تقوم بها لنا أمر معتاد. حين يطلق صوت البوق صداه في وادٍ صغير، فهو يبدو كما لو أنه يأتينا من الأمام، فيما هو يصدر عن مكان وراءنا.

«تنبجس جبال بعيدة من الأمواج
فتبدو كأنها تشكّل جزيرة واحدة
في حين هي بعيدة جدًا الواحد عن الآخر
وحين ننظر في مؤخرة السفينة نخال أننا نرى
السهول والتلال التي تجتازها السفينة كأنها هاربةٌ
وإذا ما وقف مركبنا الحماسي وسط النهر
ونظرنا للمُويْجات السريعة
نخال أنه مجروف بقوة ما ضد التيار»[1].

(1)Lucrèce (47), IV, vv. 397, 389, 420-423.

حواسنا تخدعنا

450. حين نتناول رصاصة بندقية ونضعها تحت الإصبع الثاني، ويكون الإصبع الوسط مُنْثنيًا فوقها، فإن علينا أن نقوم بمجهود كبير؛ كي نقنع أنفسنا أن ليس ثمة إلا رصاصة واحدة، لأن الإحساس يجعلنا نعتقد أنهما رصاصتان. ومن الأكيد أننا نرى غالبًا أن الحواس توجّه عقلنا، وتفرض عليه قَبول انطباعات، يعرف أنها خطأ ويحكم عليها بذلك. لن أتطرّق للمس، الذي تكون آثاره أكثر مباشرةً وأشدّ حيوية وأكبر أهمية، والذي يقوم غالبًا، بسبب أثر الألم الذي يسبب في الجسد، بقلب كافة تلك القرارات الرواقية، بحيث يُكره على الصراخ «آه بطني» مَن غرس في ذهنه تلك الفكرة القائلة إن «المغص الكلوي» مثله مثل كل مرض هو أمر تافه، ولا يملك القدرة على الإنقاص من الخير الأسمى والسعادة، التي لا تخلو من فضيلة[1].

451. لا يوجد قلب ناعم لا يثيره صوت طبولنا وأبواقنا؛ ولا من قلبٍ صلبٍ لا تدغدغه نعومة الموسيقى وتوقظه؛ ولا من نفس عبوس لا تحس بالاحترام أمام العظمة المظلمة لكنائسنا، وتنوع الزخارف وبهاء مراسمنا، ولا تسمع الصوت المطبوع بالورع بآلات الأرغن، والتناغم الهائل والنبرات الدينية لأناشيدنا. حتى أولئك الذين يلجونها كارهين لذلك، يحسون ببعض الرعشة في القلب، وبعض التأثر يجعلهم يرتابون في رأيهم. أما أنا فإني لا أعتبر نفسي من القوّة بحيث أنصت برباطة جأش لأبيات لهوراتيوس أو كاتولّوس، وهي تُنشد بعناية بصوت حسن.

452. كان زينون على حق في القول: إن الصوت زهرة الحُسن. لقد أرادوني أن أصدّق أن شخصًا نعرفه جميعًا [2] نحن -الفرنسيين- قد خدعني وهو ينشد أشعارًا من قريحته، زاعمًا أنها ليست هي نفسها على الورق، راغبًا في البرهنة بذلك أن عيناي لهما حكم مناقض لسمعي، لأن الإنشاد له أهمية في منح القيمة والجودة للأعمال التي تمرّ منه. وفي ذلك لم يكن فيلوكسينوس

(1) يتحدث مونتيني هنا عن تجربة، لأنه عانى جزءًا من حياته من «المغص» (المغص الكلوي). وهذه الملاحظة الساخرة على القرارات الجميلة الرواقية إزاء واقع الألم لا تخلو من زواء.

(2) لم يمنحنا أي محقق لمونتيني، أو شارح له، هوية هذا الشخص. قد يكون رونسار أو دو بيلاي.

مخطئًا حين سمع أحدهم يمزّق قطعة من تأليفه، فبدأ يسحق برجليه لوحة مكتوبة بخط المنشد قائلًا: «أنا أكسرُ ما لك، كما أفسدت ما لي».

453. ولماذا إذًا يقوم أولئك الذين يقتلون أنفسهم، بعزم لا يفلّ، بإدارة الوجه حتى لا يروا الضربة التي يوجهونها لأنفسهم؟ ولماذا أولئك الذين يرغبون بل يطلبون، مرْجاة الشفاء، أن يُحزّوا ويكووْا، ولا يستطيعون تحمُّل رؤية عملية الاستعداد، وأدوات عملية الجرّاح، إذا لم يكن للرؤية أي تأثير على الألم؟ أليست تلك أمثلة قابلة لكي نتحقق من أولوية الحواس على العقل؟قد نعرف جيدًا أن هذه الضفائر قد استُقيت من خادم للنبلاء أو تابع، وأن هذا اللون الأحمر آت من إسبانيا وأن هذا البياض وهذا اللمعان من البحر المحيط، يبقى فقط أن تفرض علينا الرؤية أن نعتبر تلك الأشياء أشدّ روعةً وأكثر بهاءً، ضدًا على العقل: فليس فيها تكمن تلك الفتنة.

«حلية المرء تفتننا؛ والذهب والأحجار الكريمة تخفي العيوب
فالفتاة ليست سوى جزء من نفسها
وغالبًا ما لا نعثر على ما نحب في كل هذا
فتحت هذا الغلاف تخدع عينينا حفلة للأثرياء»[1].
ألا يمنح الشعراء أهمية كبرى للحواس حين يصفون ناركيسوس هائمًا في عشق صورته؟
«إنه يُعجب بما هو قابل للإعجاب فيه، فهو يشتهي نفسه
ومن غير أن يعي بذلك؛ إنه الفاتن والمفتون
فهو يحترق بالنار التي أوقدها بنفسه»[2].
وما القول في ذكاء بيجماليون، الذي أربكه مرأى تمثال المرأة من العاج، بحيث صار يغويها كما لو أنها كانت حية.
«صار يغشاها بالقُبل، ويعتقد أنها تبادله إياها
ظن أن جسدها ينصاع للمسات أنامله
وخاف إن هو ضغط أكثر أن يترك عليه
بصمة داكنة»[3].

(1)Ovide (64), I, 343.
(2)Ovide (62), III, 424.
(3)Ovide (62), X, 256.

فضيلة الفراغ

454. إذا ما نحن وضعنا فيلسوفًا في قفص من خيوط الحديد ذي فتحات واسعة، وعلقنا القفص في قمة أبراج كاتدرائية نوتردام دو بّاري، فإن صاحبنا سيكون مضطرًا لقبول أنه لا خوف له من السقوط، ومع ذلك لا شيء يمنع -إلا إذا كان معتادًا على حرفة بناء الأسقُف- أن تكون الرؤية من الأعالي الشاهقة التي هو فيها، مثار للرعب والارتعاد. كما أننا نهتم بالاطمئنان على أروقة أجراسنا حين يتم خزْمها مع أنها من الحجر. بل إن ثمة أناسًا لا يحتملون حتى التفكير في ذلك. لنضعْ بين البرجيْن لوحًا خشبيًا واسعًا بما يكفي، بحيث يمكننا التجول بينهما؛ وليس ثمة أي حكمة فلسفية تكون من القوة، بحيث تمنحنا الشجاعة على المشي عليه، كما نمشي أصلًا على الأرض. ولقد قمت مرات ومرات بهذه التجربة في جبالنا؛ وبالرغم من أني لست من الناس الوجلين من هذه الأشياء، لم أكن أتحمل رؤية تلك الوهاد العميقة، من غير رعب بحيث أحس بالرعدة في فخذي وفي عراقيب الجواد. مع ذلك فقد كنت أظل بعيدًا عن الجرف، على الأقل بقامتي، ولا خطر علي في السقوط، إلا إذا رميت بنفسي هناك طواعيةً مني.

455. ولقد لاحظتُ أيضًا، مهما كان العلوّ، إذا ما صادفت في المنحدر شجرة أو مرتفع صخرة يستطيع البصر التعلق بها، وينقسم بها، فذلك يخفف عنا التوتّر ويمنحنا الثقة، كما لو أن ذلك أشبه بشيء يمكننا الاستنجاد به في حال السقوط. بيد أننا لا يمكننا أن ننظر إلى المنحدرات الصعبة ومن دون عراقيب، من غير أن نحس بالدوار: «**بحيث لا يمكننا النظر إلى الأسفل من غير أن يستبد الدوار بعيون الروح**»[1]. وفي هذا مع ذلك خدْعة كبرى فعلية تعود لبصرنا. لهذا فإن ذلك الفيلسوف الكبير[2] فقأ عينيه كي يخفِّف عن نفسه الإلْهاء الذي تشغلها به، وكي يتمكن من التفلسف بحرية.

---

(1)Tite-Live (105), XLIV, 6.

(2) ديموقريطوس.

456.لكن بهذا الحُسبان، كان بإمكانه أيضًا أن يقطع أذنيه، اللتين يعتبرهما ثيوفراستوس أخطر وسيلة نتلقى بها الانطباعات العنيفة والقادرة على أن تُدخل الاضطراب لأنفسنا وتغييرنا؛ وفي الأخير كان بإمكانه أن يحرم نفسه من كافة الحواس الأخرى، أي من وجوده ومن حياته.؛ لأنها كلها لها تلك القدرة على توجيه عقلنا وأنفسنا. «يحدث عادةً أن تضطرب العقول بشيء ما، بجهورية الصوت وبالأهازيج، أو حتى بهمٍّ ما أو وَجَلٍ»[1]. يقول الأطباء: إن ثمة أمزجة تثيرها بعض الأصوات وبعض الآلات الموسيقية حتى الجنون الجارف. وقد رأيت بعضهم لا يتحملون سماع قضم عظم تحت مائدتهم، من غير أن يفقدوا صبرهم. ولا يوجد تقريبًا أحد لا يزعجه هذا الصوت الذي يقوم به المِبرَد وهو يكشط الحديد. والأمر نفسه حين يسمع المرء شخصًا يمضغ قريبًا جدًا منه، أو يتحدث وفمه مليء بالطعام أو أنفه مزكوم، فالعديد من الناس يحسون حينئذٍ بالانزعاج حدَّ الإحساس بالغضب أو الكراهية. وعازف الناي الشهير لغراكّوس، الذي كان أيضًا مساعدًا له حين كان يقوم بخطاباته بروما، فيلطّف من صوت سيده أو يعززه أو يغيّره، لمَ كان سيصلح لو لم تكن حركة الصوت أو حُسْنه لهما القدرة على التأثير، وتغيير حكْم السامعين؟ وفي الحقيقة، ليس ثمة ما نمتدح به الثبات الجميل لهذا العضو، الذي يتحرك وينصاع للتنويعات بفعل هواء ضعيف.

457.هذه الخدعة التي تأتي بها الحواس إلى أفهامنا تخضع لها هي أيضًا بدورها. فأنفسنا تأخذ أحيانًا ثأرها منها: فهما الاثنان يكذبان ويخدعان بالتساوي،فما نراه ونسمعه في حال الغضب لا نراه كما هو حقًا=

«فنرى شمسين ومدينتين من طيبة»[2].
=والشخص الذي نحبه يبدو لنا أجمل مما هو عليه=
«غالبًا تكون نساء قبيحات ولا حُسن فهن محبوبات
ويُتعامل معهن بالتشريف والإكرام الكبير»[3].

=والذي نكره يبدو أقبح. والرجل المهموم والمنكوب يبدو له وضوح

(1)Cicéron (?), I, 37.
(2)Virgile (112), IV, 470.
(3)Lucrèce (47), IV, 1152.

النهار مظلمًا وبهيمًا. إن حواسنا لا تتغير فقط بأهواء النفس وإنما غالبًا ما تتبلّد. كم من الأشياء نرى ومع ذلك تنفلت منا؛ لأن عقلنا يكون منشغلًا بشيء آخر!

«يمكننا أن نلاحظ حتى في الأشياء البادية جيدًا
أن العقل إذا لم يتعلق بها، تظل
كما لو كانت غائبة وبعيدة جدًا»[1].

458. إننا نخال النفس تستجذب في ذاتها الحواس وتحوّر قُدراتها، بحيث يغدو الإنسان في باطنه كما من الخارج مليئًا بالضعف والكذب. ومن شبّهوا حياتنا بالحلم قد يكونون على حقّ بغض النظر عما يعتقدون؛ فنحن حين نحلم يعيش عقلنا ويقوم بالفعل ويمارس كافة ملكاته، لا أقل ولا أكثر من حال اليقظة، لكن بشكل أكثر رخاوة وغموضًا مع ذلك. فالاختلاف ليس بين الليل والنور الساطع، وإنما بين الليل والظل.إنه في ذاك ينام وهنا يغفو؛ إلى هذا الحدّ أو ذاك، لكنها دومًا الظلمات، أي الظلمات البهيمة الخرافية.

459. نحن نسهر ونحن نائمين وننام ونحن ساهرين. حين أنام لا تكون رؤيتي واضحة، لكني لا أرى أن حال يقظتي خالص بما يكفي ومن غير غيوم. والنوم العميق ينوّم أحيانًا حتى الأحلام؛ لكن حين نكون في حال يقظة، لا نكون أبدًا في ذلك إلى حدّ تبديد الأحلام كما يلزم، من حيث إنها أحلام اليقظة، وأسوأ من الأحلام نفسها. وبما أن عقلنا وروحنا يستقبلان الصور والأفكار، التي تأتيهما بالنوم، ويوافقان على الأعمال التي تأتينا في الأحلام، كما هو الحال مع تلك التي تأتينا في النهار، فلماذا إذًا لا نتساءل: إذا ما كان فكرنا وأعمالنا طريقة أخرى للحلم، ويقظتنا شكلًا من أشكال النوم؟

460. إذا كانت الحواس هي قُضاتنا الأوائل، فهي ليست الوحيدة التي يلزم أن نستدعيها للمجلس، ففي هذه النقطة، للحيوانات حقوق تساوي حقوقنا إن لم تتجاوزها. وفي الواقع فبين آثار حواسها وآثار حواس البشر ثمة اختلاف شاسع. رُضابنا ينظف جراحنا ويبرئها، غير أنه يقتل الثعابين.

(1)Lucrèce (47), IV, 809.

«هناك الكثير من الاختلاف والتنوع
بحيث ما هو طعام للبعض
سمّ قاتل للبعض الآخر
وغالبًا ما إذا مس لعاب البشر ثعبانًا
يموت ويلتهم نفسه»[1].

461. أيّ مزايا سننسب إذًا للُّعاب؟ تلك التي تظهر لنا أم للثعبان؟ أيٌّ من هذين الإدراكيْن يناسب جوهرَه الحق، ونسعى إليه نحن؟ يقول بلينيوس: إن في بلاد الهنود يوجد نوع من أرانب البحر يعتبر سمًّا لنا، كما نحن نعتبر سمًّا له، بحيث يمكننا أن نتسبّب في قتله فقط بلمسه. أين هو السمّ الحق؟ في الإنسان أم في السمكة؟ ما الذي علينا تصديقه؟ ما تحسّه السمكة من الإنسان أم ما يحسه الإنسان من السمكة؟ بعض الهواء يسمّم الإنسان ولا يضرّ بالثور. والهواء الذي يسمّم الثور لا يضرّ بالإنسان. أي النوعين من الهواء إذًا، حقًا وطبيعةً، مضرٌّ؟ من كان مريضًا بالصفراء يرى الأشياء كلها صفراء وأكثر شحوبًا مما نراه نحن.

«أما المرضى بالصفراء، فيرون كل شيء أصفر»[2].

462. ومن يصاب بهذا المرض الذي يسميه الأطباء «الطّرفة»[3]، أي تدفق الدم تحت غشاء العين، يرى كل شيء أحمر ودمويًا. وتلك الأمزجة التي تغيّر هكذا الطريقة التي نرى بها أنفسنا، هل نحن نعرف إن لم تكن مهيمنة لدى الحيوانات، وإن لم تكن طبيعية لديها؟ فنحن نرى أن بعضها لديه عيون صفراء كما مرضانا بالصفراء، وأن البعض الآخر له عيون حمراء أو دموية، بحيث لدى هؤلاء من المحتمل أن تبدو لهم الأشياء على غير ما تبدو لنا. فأي وجهة للنظر ستكون هي الحقيقية؟ لم يقل أحد إن إدراك جوهر الأشياء هو خاصية الإنسان وحده. فالصلابة والبياض والعمق والمرارة معروفة لدى الحيوان، وهو يستعملها كما نحن؛ والطبيعة حبّته بها مثلنا. حين نضغط على العين تبدو لنا الأشياء أطول وأكبر. والعديد من الحيوانات تملك عيونًا مضغوطة: فربما كان

(1)Lucrèce (47), IV, 633.

(2)Lucrèce (47), IV, 330.

(3) نزف أسفل ملتحمة العين.

هذا الشكل هو الشكل الحقيقي لذلك الشيء، وليس ما تمكّننا منه عيوننا في حالها العادي. وإذا ما ضغطنا على عينينا من الأسفل، تبدو لنا الأشياء مزدوجة.

«الفوانيس لها نور مزدوج
والناس وجه مزدوج وجسم مزدوج»[1].

463. إذا ما انسدَّت أذننا بشيء ما، أو أن مسْمعنا كان ضيقًا، فإن الصوت الذي يبلغنا يكون مختلفًا عما ندرك عادةً. فالحيوانات التي لها آذان مشعَّرة، أو التي ليس لها إلا سوى ثقب صغير بمثابة أذن، لا تسمع ما نسمع، والصوت الذي تدرك مختلف. وفي الحفلات أو المسرح، نحن نرى جيدًا كيف حين نضع زجاجًا ذا لون معيّن أمام نور المشاعل، كل ما يوجد في ذلك المكان يبدو لنا أخضر أو أصفر أو بنفسجيًا.

«والأمر كذلك مع الستائر الصفراء والحمراء والسمراء
فهي حين تسدل في مسارحنا الشاسعة، وتتماوج وترفرف
على طول الأعمدة والعوارض الخشبية التي تسندها
تصبغ بألوانها الجالسين على المدرّجات
والرُّكح نفسه، ومعها السيدات النبيلات وتماثيل الآلهة
إنها تنشر ألوانها في كل مكان»[2].

464. من المحتمل جدًا أن تمنح عيون الحيوانات التي نراها بألوان متعددة لها عن الأشياء مظهرًا من النوع نفسه. فلكي نستطيع الحكم على عمل الحواسّ، علينا أولًا أن نكون في هذا المضمار متوافقين مع الحيوانات، لكن بيننا أيضًا، غير أننا لسنا كذلك البتّة. نحن ندخل في كل لحظة في جدال، حين يسمع أحد شيئًا بشكل مخالف للآخر، أو يراه أو يتذوقه كذلك. ونحن لا نتناقش وقتًا طويلًا إلا بصدد الأشياء الأخرى؛ نظرًا لتنوع التصورات التي تمنحها لنا حواسنا. يسمع الطفل ويبصر ويذوق طبيعيًا بطريقة مخالفة لرجل في الثلاثين، وهذا الأخير بطريقة مغايرة لإنسان في الستين من عمره. تكون الحواس لدى البعض أكثر إبهامًا،

(1)Lucrèce (47), IV, 451.

(2)Lucrèce (47), IV, vv. 75 sq.

ولدى البعض الآخر نراها أكثر انفتاحًا وحِدّة. نحن ندرك الأشياء بشكل مختلف تبعًا لما نحن عليه، وحسب الانطباع الذي لنا عنه. وانطباعاتنا غير موثوق بها وقابلة للنقاش، بحيث إذا ما قيل لنا: إن الثلج أبيض، يمكننا طبعًا القبول بأنه على تلك الصفة، لكننا لا نستطيع أن نؤكد أن جوهره هو كذلك. وإذا كان هذا الأساس مكسورًا، فإن المعرفة الإنسانية ستكون في مهبّ الرياح.

465. وما القول في أن حواسنا تنزعج من بعضها البعض؟ اللوحة الزيتية يبدو أن لها تضاريس حين ننظر إليها، وحين نلمسها تبدو مسطَّحة. هل نقول إن المسْك رائق الرائحة أم لا، حين يمتّع خياشيمنا ويصدم ذوقنا؟ ثمة أعشاب ومراهم تلائم جزءًا من الجسد، وتمارس العدوان على أجزاء أخرى. العسل لذيذ المذاق وغير رائق للنظر. والخواتم التي تُنحت في شكل ريش، والتي تسمى «الريش المنطلق»، لا عين يمكن أن تميز عرضها وتتفادى ذلك الوهم، فهي من جهة تبدو منطلقة وتصبح أعرض، ومن الجهة الأخرى تتقلص في الرأس، حتى لو تم لَيُّها على الإصبع. ومع ذلك حين نلامس تلك الخواتم يبدو لنا أن لها العرض نفسه.

466. كان في سالف الأزمان أناس، لكي يزيدوا في شهوتهم، يستخدمون مرايا تكبّر حجم الشيء الذي ينعكس فيها، حتى تبدو لهم أعضاؤهم الحميمة أكثر جمالًا وإمتاعًا بالنظر لهذا التكبير الظاهر. فلأيٍّ من هاتين الحاستين كانوا في نهاية الأمر يمنحون الامتياز: للبصر الذي كان يصور لهم الأعضاء ضخمة وكبيرة، أم للّمس الذي كان يقدمها لهم صغيرة ومكروهة؟

467. هل حواسنا هي التي تمنح للأشياء هذه المزايا المتنوعة، فيما هي ليس لها غير مزيّة واحدة؟ نحن نرى مثلًا أن الخبز الذي نأكل ليس سوى خبزٍ؛ ومع ذلك فإن استعمالنا له يكون وراء إنتاج عظامنا ودمائنا ولحومنا وشعورنا وأظافرنا.

«كما الطعام وهو يُقسَم على كامل الجسد
يتحلَّل وينتج مادةً أخرى»[1].

(1)Lucrèce (47), III, vv. 703-704.

الرطوبة التي تتشرّبَها الشجرة تغدو ورقًا وفاكهةً. والهواء الذي ليس إلا شيئًا واحدًا يتحول إلى مئات الأصوات عن طريق البوق. هل هذا يعني إذًا أن حواسنا هي التي تمنح بذلك مزايا متنوعة للأشياء، أم أنها موجودة في تلك الأشياء نفسها؟ وإذا كنا نتساءل عن ذلك، فكيف إذًا نتعرّف على جوهرها الحقيقي؟ وبما أن الآثار السيئة للمرض والهذيان والنوم تُبدي لنا الأشياء في شكل مغاير لما تبدو عليه للأصحّاء وللأشخاص العاقلين، ولأولئك الذين يسهرون، أليس من المعقول أن حالنا العادي وأمزجتنا الطبيعية قادرة على أن تكون متصلةً بمزاياها، وبصياغتها على هواها، تمامًا كما تفعل ذلك الأمزجة العكِرة؟ أليست صحتها هي أيضًا قادرة على أن تمنح لها وجهها كما يفعل المرض؟ لماذا لا يمنح الإنسان المتوازن للأشياء أشكالًا تكون خاصة بها، كما يفعل الإنسان المضطرب، ولا يطبع عليها هو أيضًا مزاجه الخاص؟ الإنسان المتقزّز ينسب للخمر انعدام المذاق، والإنسان السليم ينسب له النكهة، والمتعطّش اللذة الفائقة.

468. بما أن مزاجنا يكيّف لنفسه الأشياء ويحولها على هواه، فنحن لا نعرف ما هي عليه حقًا، ذلك أن لا شيء يصل إلينا منها لا يكون محرَّفًا ومتغيرًا بفعل حواسنا. لو كان البرْكار والمثلّث والمسطرة أدوات خطأ المقاس، فإن كافة بناياتنا التي يتم تشييدها باستعمالها، ستكون بالضرورة غير سليمة ومشوبة بالعيوب. فعدم يقينية حواسنا يجعل كل ما توفره لنا غير موثوق به تمامًا.

«إذا كانت المسطرة غير مستقيمة منذ البداية في بناء ما
وإذا كان المثلث خطأ ويتنحى عن الزاوية القائمة
وإذا كان المستوى في بعض الأماكن يفقد بعضًا من استوائه
فإن البناية ستكون غير متوازنة وبالغة الاعوجاج
من غير شكل، ومائلة للأمام والخلف
متفككةً وتبدو آئلة للانهيار
وتنهار في الأخير وقد خانتها الحسابات الأولى
وهكذا أيضًا التعقُّل الذي تقوم به للأشياء
سيكون خطأً إذا كانت حواسك خادعة»[1].

(1)Lucrèce (47), IV, 514-522.

المظاهر

469.وفي الأخير، من سيكون كفيلًا بالحكم على هذه الاختلافات؟ وكما يُقال في النقاشات المتعلقة بالدين، يلزمنا قاضٍ لا يكون مرتبطًا بأيٍّ من الطرفين، قاضٍ مستقل وغير متحيّز، وهو ما ليس ممكنًا لدى المسيحيين. والأمر هو نفسه تمامًا هنا، ذلك أن المرء إذا كان عجوزًا، لا يمكنه الحكم على ما هو العجز، لأنه جزء لا يتجزأ من النقاش. والأمر نفسه حين يكون المرء شابًا، وفي صحة جيدة أو مريضًا، أو إذا ما هو نام أو صحا من النوم: علينا التوفر على شخص لا يكون في أي حال من هذه الحالات، حتى يستطيع، ومن غير فكرة مسبقة، أن يحكم على هذه القضايا كما لو كانت أشياء لا تهمه. وتبعًا لذلك يلزمنا قاضٍ ليس بموجود! وللحكم على مظاهر الأشياء، علينا التوفّر على أداة للتحقُّق. ولكي نتحقق من هذه الأداة، علينا اللجوء إلى البرهنة. ولكي نتحقق من البرهنة علينا بأداة أخرى. وها نحن ندور في مكاننا. بما أن شهادة الحواس لا يمكن أن تنهي هذا الجدل، ينبغي إذًا للعقل أن يتدخّل في ذلك؛ لكن ليس ثمة من عقل لا يقوم على عقل آخر. وها نحو ننطلق في نكوص لانهائي. من ثمَّ فإن التصور الذي يكون لنا عن شيء ما، وعن مظهره ليس هو الشيء نفسه في ذاته، وإنما هو فقط الانطباع الذي نجده عنها في حواسنا. وبما أن هذا الانطباع والشيء نفسه هما موضوعان مختلفان، فإن من يحكم تبعًا للمظاهر يقوم بالحكم بشيء آخر غير الموضوع نفسه. ولكي نقول إن الانطباعات التي توفّرها لنا تعيِّن للنفس، بواسطة المشابهة، خصائص الأشياء الغريبة التي هي أجنبية عنها، فكيف تستطيع النفس والعقل التأكّد من هذه المشابهة، بما أنْ لا علاقة لهما بهذه الموضوعات؟ من لا يعرف سقراط لا يمكن وهو يرى صورته أن يقول إنه يشبه الرجل. وإذا ما نحن رغبنا مع ذلك في الحكم على الأشياء تبعًا لمظاهرها، فإما أن نحكم تبعًا لمجموعها، وهو أمر مستحيل بسبب اختلافاتها وتناقضاتها كما تبيّن لنا التجربة ذلك، أو أن نفضّل بعضها؛ لكن حينئذٍ علينا التحقُّق من تلك التي نختار بالعلاقة مع الأخرى، والثانية مع الثالثة، وهلمّا جرا، بحيث لن ننتهي من الأمر أبدًا.

470. وفي نهاية المطاف، ليس ثمة من شيء ثابت، سواء تعلق الأمر بوجودنا أو بالأشياء. فنحن وحكمنا وكافة الأشياء الفانية، كل هذا يسيل ويسير من دون توقف. ولا يمكننا إذًا أن نقيم أمرًا يقينيًا بين البعض منها والبعض الآخر، بما أن من يقوم بالحكم ومن يقع عليه الحكم يوجدان في تحول وحركة مستمرّيْن.

471. يمكننا التواصل مع «الوجود»[1]، لأن الطبيعة البشرية دائمًا في منتصف الطريق بين الولادة والموت، ولا يمكنها أن تمنح عن نفسها إلا مظهرًا غامضًا ومحجوبًا، وفكرةً ضعيفةً وغير موثوق بها. وإذا ما كان الهدف المبتغى لفكرك أن يريد الإمساك بماهيتها، فلن يكون ذلك سوى محاولة للإمساك بالماء، إذ كلما قبضنا بيدنا وضغطنا على ما يسيل طبيعيًا، فقدنا ما رغبنا في الإمساك به وإحكام القبضة عليه. وهكذا، فبما أن كل الأشياء قابلة لأن تمر من حال إلى حال، فإن العقل الذي يبحث فيها عن ثباتٍ حقٍ، يجد نفسه في خيبة من أمره فلا يستطيع العثور على ما يبقى على الدوام: فكل شيء إما يأتي للوجود وإما لا يوجد بعدُ حقًا، وإما بدأ في الموت قبل أن يولد فعلًا.

472. قال أفلاطون[2]: إن الجسم ليس له من وجود، وإنما له ولادة، لأنه كان يعتبر أن هوميروس جعل من البحر المحيط أبًا لكافة الآلهة، وثيتيس أمها؛ لكي يبيّن لنا أن الأشياء هي دفَق وحركة وتغيّر مستمر. كان ذلك من قبْله رأيًا مشتركًا بين الفلاسفة، كما قال، إلا بارمينيدس، الذي كان ينكر الحركة على الأشياء، ويمنح قوتها مع ذلك اهتمامًا كبيرًا. كان فيثاغوراس يعتبر أن كل مادة سائلةٌ ومتغيرةٌ؛ فيما اعتبر الرواقيون أنْ لا وجود للحاضر، وأن ما نسميه كذلك ليس سوى الوصْل والمفصل بين المستقبل والماضي. وقال هيراقليتوس: إن الإنسان لا يطأ مرتين أبدًا النهر نفسه. واعتبر إبيخارموس أن من اقترض مالًا في السابق، لا يدين به لأحد الآن. وأن من دُعي الليلة ضيفًا على العشاء، فإنه هذا الصباح، حين يأتي، لم يعد مدعُوًّا؛ لأن مضيفيه لم يعودوا

(1) لقد لاحظ الشراح أن كل ما سيأتي مستقًى تقريبًا حرفيًا من بلوتارخوس.

(2) في محاورة ثياتيتوس.

هم أنفسهم. وأننا لا يمكننا أن نجد مادةً فانيةً مرتين في الحال نفسه؛ باعتبار أنها بفعل سهولة التحول وفجائيته، تتشتّت تارةً وتارةً تتجمّع، وطورًا تأتي وطورًا ترحل؛ بحيث إن ما يبدأ في الولادة لا يكتمل أبدًا، ولا يتوقف أبدًا كما لو أنه في نهايته، وإنما هو منذ بذْرته يسير دومًا في تغيُّر، متحولًا من هذا لذاك. ذلك هو حال النطفة البشرية التي تستقر في بطن الأم، فاكهةً لا شكل لها، ثم تستوي جنينًا، وحين تخرج من بطنها تكون رضيعًا، يصير ولدًا ثم فتًى ثم رجلًا راشدًا ثم كهلًا ثم عجوزًا وَهن منه العظم، بحيث إن العمر والسلالة التي تتبعها تفكّك السابقة وتحطمها.

«حقًا أن الزمن يغير العالم بكليّته
وفي كل شيء يتبع حالٌ آخر الحال السابق
ولا شيء يظل شبيهًا بنفسه
فالطبيعة تغيّر كل شيء، وتفرض التغيُّر على كل شيء»[1].

473. ونحن بني البشر نَهاب بشكل ساذج نوعًا ما من الموت، في الوقت التي تعرّضنا فيه لأنواع منه، ولا نزال نتعرض لأنواع أخرى. فليس فقط، كما يقول هيراقليتوس، أن موت النار هو ولادة الهواء، وموت الهواء ولادة الماء، بل إننا يمكننا أن نرى ذلك في أنفسنا بشكل أوضح: فزهرة العمر تذبل حين تأتي الشيخوخة، وينتهي الشباب في زهرة عمر الإنسان الناضج. وتنتهي الطفولة مع الشباب، والصبا مع الطفولة، ويوم أمس يموت مع اليوم، وهذا الأخير سيموت في يوم الغد. لا شيء باقٍ أو يظل دومًا واحدًا. فلو كان الأمر كذلك، ولو ظللنا واحدًا من غير تغيّر، كيف يمكننا التمتّع الآن بشيء ثم بآخر ثم بآخر؟

474. كيف يمكننا حبُّ أشياء متعارضة وكُرهها، ومدحها أو هجاؤها؟ كيف تكون لنا عواطف مختلفة مع أحاسيس مختلفة للفكرة نفسها؟ ليس من المعقول أننا يمكننا عيش أحاسيس مختلفة، من غير أن يكون هناك تغيُّر. فما يتغيّر لا يظل هو نفسه. وما لم يعد ما كان لم يعد موجودًا. وحين يتغير الوجود في مجموعه، فهو يتغير أيضًا في كينونته، بحيث

(1)Lucrèce (47), V, 826.

يصير باستمرار آخر الآخر. من ثمَّ فإن الحواس الطبيعية تخطئ وتخدعنا، آخذة ما يبدو لنا باعتباره ما هو موجود، بما أنها لا تعرف حقًا ما هو موجود.

475. لكن ما الذي يوجد حقًا؟ إنه ما هو أبدي، أي ما لم يكن له ولادة ولن تكون له نهاية، أي ما لا يؤثر فيه الزمن ويغيره. فالزمن شيء متحرك، إذ هو يبدو كظل للمادة السائلة والسائرة دومًا، من غير أن يظل ثابتًا أبدًا ولا دائمًا، وإليه تحيل الكلمات من قبيل: قبل وبعد، كان أو سيكون، التي تبيّن مباشرة وبشكل بدهي أن الأمر لا يتعلق بشيء يوجد. وسيكون من باب الغباء الكبير والخطأ العيني أن نقول عنه إنه شيء موجود وهو ليس في حال الوجود، أو إنه أمسَك عن الوجود. أما الكلمات من قبيل: الحاضر واللحظة والآن، فيبدو أننا بفضلها نؤسس ونعزز تعقُّلنا للزمن، ذلك أن العقل حين يكتشف الزمن، يحطمه للتوّ، إذ هو يفجّره ويقسمه لمستقبل وماضٍ، كما لو أنه يريد رؤيته منقسمًا إلى اثنين. وقسْ ذلك على الطبيعة، التي يتمّ حِسابها تبعا للزمن الذي يقيسها، فليس فيها أيضًا شيء يبقى أو يظلّ، فكل الأشياء فيها في حال ولادة أو موت. وسيكون من الخطيئة أن يُقال عن الله، واجب الوجود بذاته، أنه كان، أو سيكون، لأن هذه الاصطلاحات هي مخصوصة للتغير والمرور وتقلبات ما لا يمكنه أن يدوم، أو يستمر في وجوده. علينا إذًا أن نستخلص أن الله وحده موجود، لا بالنظر إلى وظيفة الزمن، وإنما في أزل ثابت ومستقر، لا يقيسه الزمن، وليس محط الأفول. فأمامه لا شيء يوجَد ولن يوجد بعده، ولا شيء أجدَّ منه ولا أحْدث. إنه فقط كائن، يملأ الدوام بآنٍ وحيد أفرَد، وليس ثمة ما يوجد حقًا وحقيقة إلا هو، من غير أن نستطيع القول: كان أو سيكون، لأنه من غير مبتدأ ولا نهاية. وسأضيف لهذه الخلاصة التي جاء بها وثني[1]، كلمة فقط، من شاهدٍ من الصنف نفسه[2]، كي ننتهي من هذا الخطاب الطويل والملّ، الذي يمنحني مادة لا نهاية لها. قال: «كم هو الإنسان مخلوق دنيء حقير، إذا لم يتسامَ عن وضعه». ها هي إذًا صيغة جميلة،

(1) لنتذكّر أن الأفكار التي يأتي بها هنا مونتيني يستقيها حرفيًا من بلوتارخوس!

(2) Sénèque, **Questions naturelles, Préface du livre** I.

ورغبة مفيدة لكنها في الآن نفسه عبثية. فأن يجعل الإنسان الحفنة أكثر من قبضة اليد ومِلء الذراعين أكثر من الذراعين، وأن يأمل بقفزة أطول من سعة الرجلين، ذلك أمر مُحال وضد الطبيعة، كما أن من المحال للإنسان أن يتسامى أعلى من إنسيته، لأنه لا يمكن أن يرى إلا بعينيه، ولا يمكن أن يمسك إلا بأصابعه. إنه سيتسامى لو مدّ له الله يده وبشكل استثنائي. سيتسامى إذا هو تخلى عن وسائله الخاصة وتركها، وإن انصاع للحمل والارتفاع بالوسائل الربانية. والنزوع لهذا التحول الإلهي والمعْجز ندين به لإيماننا المسيحي، لا للفضيلة الرواقية، أو لفضيلة سينيكا.

الفصل الثالث عشر

في طريقة الحكم على موْت الآخرين

1. حين نحكم على رباطة جأش الآخرين أمام الموت، وهو من دون شك الفعل الأكثر روعة في الحياة البشرية، علينا الاحتراس من أن يعتقد الناس أنهم بلغوا ذلك المبلغ. ثمة القليل من الناس يموتون وهم مقتنعين بأن أجلهم حلّ، إذْ هنا يخدعنا الأمل أكثر. فهو لا يكف عن الهمس في آذاننا: «ثمة أناس كانوا أكثر مرضًا منك من غير أن يأتي أجلهم، الأمر ليس ميؤوسًا منه كما نعتقد وليس أسوأ، فلقد قام الله بمعجزات أخرى أكبر». يبدو لي أننا نمنح لأنفسنا أهمية أكبر مما تستحق. بل الأدهى من ذلك والأمرّ أن رؤيتنا المشوهة تُبين لنا عن الأشياء مشوهة أيضًا، ونحن نعتقد أن تلك الأشياء لا تمنح نفسها لها أو أنها هي لا تتمكن من رؤيتها، كما هو الأمر لدى أولئك الذين يأخذون طريق البحر، والذين تبدأ الجبال والبوادي والمدن والسماء والأرض نفسها تتبعهم في حركتهم.

«نحن نخرج من المرسى، فتبتعد عنا المدن»[1].

هل رأينا قطّ العجائز لا يمتدحون الماضي ولا يقدحون في الحاضر، محمّلين العالم والتقاليد البشرية عبْء بؤسهم وأساهم؟

«يتنهد الفلاح العجوز ويهز رأسه
يقارن الحاضر بالماضي، ويمتدح بلا كلل
سعادة أبيه: فلا شيء على لسانه
غير ورَع الأزمنة الماضية»[2].

2. إننا نحمل كل شيء معنا. ومن ثمَّ يأتي أننا نعتبر موتنا شيئًا مهمًا، لا يمر بسهولة، ولا من غير استشارة للكواكب: «**كم من الآلهة تجتمع حول رجلٍ وحد**»[3].ونحن نعتقد في ذلك أكثر كلما كنا نمنح الاعتبار لأنفسنا أيضًا. كيف ذلك؟ الكثير من العلم يضيع، مُثيرًا الكثير من الأضرار، فهل سيسخر القدر من ذلك؟ أليست نفسٌ نادرة ومثالية أشقّ في القتل من نفس شعبية ولا جدوى منها؟ فهذه الحياة التي تحمي حيوات كثيرة أخرى، والتي ترتهن بها حيوات أخرى كثيرة، والتي يتعلّق بها نشاط حيوات كثيرة أخرى، والتي تحتل مكانًا

(1)Virgile (112), III, v. 72.
(2)Lucrèce (47), II, vv. 1164-1168.
(3)Sénèque le Rh. (99), I, 4, p. 28.

شاسعًا، هل يمكن نقلها للآخرة مثل نفس لا ترتبط بالحياة إلا بحبل واهن؟ لا أحد منا يفكّر بذلك بما يكفي، فثمة فقط شخص من بين كُثُرٍ آخرين.

3. ومن ثمّ تأتي العبارات التي وجّهها يوليوس قيصر لقائد سفينته، وهي أكثر هياجًا من البحر الذي كان يتهدّده بالخطر:

«إذا ما كنت، خوفًا من السماء، ترفض بلوغ إيطاليا
وإذا كنت خائفًا ولا تعرف من تقود هناك
وذلك سبب وجيه، إذًا فلتتوجّه إليَّ
كُن واثقًا وانطلق توًّا في العاصفة»[1].
وهذه العبارات أيضًا:
«فكّر قيصر حينئذٍ أن هذه المخاطر خليقة بمصيره:
ماذا؟ هل على الآلهة ألا تألو جهدًا في مواجهتي
وأن تهاجم السفينة التي أمتطي ببحر لجّ كهذا
كي تودي بي للهلاك؟»[2].

وما القولُ أيضًا في هذا المعتقد الشعبي، الذي يقول إن الشمس حملت على جبينها حداد موته سنة بتمامها!

«هي أيضًا عند موت قيصر، وعزاءً لروما
غلفت جبينها المشعّ بحجاب الحداد»[3].

يمكننا أن نثبت هنا مئات ومئات الأمثلة الشبيهة بهذه، التي تبيّن كيف أن بني البشر ينساقون بسهولة للخداع، معتقدين أن مصالحنا تثير عاطفة السماء، وأن لانهائيتها تنفعل لأعمالنا الوضيعة: **«التحالف بيننا وبين السماء ليس من الكبر بحيث عند موتنا يخبو نور الكواكب للتوّ»[4].**

4. يمكننا إذًا القول: ليس من المشروع الحكم على رباطة جأش وثبات من لا يعتقد بعْد أنه في خطر، حتى ولو كان مُحيقًا به. بل لا يكفي أن يكون

(1) Lucain, (46), V, 579.
(2)Lucain (46), V, 653.
(3)Virgile (114), vv. 466-467.
(4)Pline (77), II, 8.

قد مات في هذا الظرف، إذا لم يكن قد وضع نفسه فيه بالضبط لهذا الغرض. فأغلب الناس يقوّون من رباطة جأشهم ومن تمالكم لأنفسهم ومن كلماتهم، كي يكتسبوا بذلك سمعة يسعون إلى التمتع وهم لا زالوا أحياءً. ومن رأيتهم يموتون، كانت الصدفة هي التي حدّدت تمالكهم لأنفسهم، لا قصدهم ومسعاهم. ومن بين من قتلوا أنفسهم من بين القُدماء، يلزمنا أن نميّز بين الموت العاجل، والموت الذي أخذ وقتًا. فقد كان إمبراطور روماني متجبّر [1] يقول عن أسراه إنه يريد أن يجعلهم يحسون بالموت؛ وإذا ما حدث أن انتحر أحدهم في السجن كان يصرخ: «**هذا الوغد أفلت مني**»[2]. لقد كان يريد باختصار أن يمدّد لهم أجل الموت، ويجعلهم يحسون به بالتعذيب.

«رأينا هذا الجسد مليئًا بالجراح
مع أنه لم يتلق بعدُ الضربة القاتلة.
كانوا يطيلون عذابه تبعًا لعادةٍ من القسوة البالغة»[3].

5. وفي الحقيقة، ليس أمرًا كبير الشأن أن يقرر امرؤ قتل نفسه، حين يكون صحيحًا مُعافًى ونفسه مطمئنة، كما من السهل التظاهر بالشرّ قبل أن يقوم به المرء. وهكذا فإن أكثر الناس تأنُّثًا أي إيلاغابالوس (إله الجبل)[4] كان من بين شهواته الأكثر انطلاقًا، أن يفكر في أن يقتل نفسه بشكل لطيف حين تفرض الظروف ذلك؛ ولكيْلا يفنّد موته باقي حياته، بنى عن قصد برجًا فاخرًا كان أسفله وواجهته مزخرفيْن بالذهب والأحجار الكريمة، كي يرمي نفسه منه. كما أنه صنع حبالًا من الذهب والحرير القرمزي كي يشنق نفسه بها، وصنع سيفًا من الذهب ليضرب به نفسه؛ كما أنه كان يحتفظ بالسم في مزهريات من الزمرّد كي يسمِّم به نفسه، حسبما ستكون عليه رغبته في أن يموت بهذا أو بذاك.

«كان نشيطًا وشجاعًا، وذا بسالة لازمة»[5].

---

(1) يتعلق الأمر بكاليغولا.

(2) ليس الإمبراطور الروماني كاليغولا هو صاحب هذه الكلمات، بل الإمبراطور تيبيريوس.

(3)Lucain (46), II, v. 177 sq.

(4) إمبراطور روماني ذو أصل سوري، قتله حراسه عام 222م، ولم يكن قد حكم سوى أربع سنوات. وقد فتن المسرحي الفرنسي أنطونان آرتو كثيرًا بشخصيته، وألف عنه كتابًا لا يخلو من إلهام بعنوان: إيلاغابالوس أو الفوضوي المتوّج، غاليمار، 1979.

(5)Lucain (46), IV, v. 798.

ومع ذلك فيما يخص إيلاغابالوس فإن الفخامة الدافئة لاستعداداته تجعلنا نعتقد أنه كان سيكون أقل شجاعة لو وجد نفسه في ورطة من أمره. لكن بخصوص أولئك الذين كانوا أشد عزمًا، وقرروا المرور للفعل، أعتقد أن علينا التأكد إن كان الأمر قد تمّ مرة واحدة، من غير أن يكون لهم الوقت الضروري ليحسوا بآثار ذلك؛ إذ علينا أن نعرف إن كانوا قد أبانوا الثبات والإصرار في إرادة قاتلة كهذه، وهُم يرون الحياة تجري رويدًا رُويْدًا، وانطباعات الجسد تمتزج بانطباعات النفس، وهُم يحافظون على إمكان تغيير رأيهم.

6. خلال الحروب الأهلية ليوليوس قيصر، حين حوصِر لوكيوس دوميتيوس في منطقة أبروتسو بإيطاليا حاول أن يسمّم نفسه، وهو ما لم يندم عليه إطلاقًا بعد ذلك. وفي عصرنا حدث أن شخصًا عازمًا على الموت، ولم تكن الضربة الأولى قوية وقاضية، بحيث إن الألم حرَّف ساعده، جرح نفسه عميقًا وهو يحاول قتل نفسه مرتين أخريَيْن أو ثلاث مرات، من غير أن ينجح في تسديد الضربة القاضية لنفسه. وأما بلانتيوس سيلفانوس، خلال محاكمته، فلم يتمكن من قتل نفسه بالخنجر الذي بعثت له جدته، فكان عليه أن يطلب من رجاله أن يقطعوا شرايينه. وفي عهد الإمبراطور تيبيريوس، حين سدّدت ألبوكيلّا*[1] لنفسها ضربة سيف أضعفُ من أن تُجهز عليها، منحت بذلك لخصومها الفرصة لسجنها وإعدامها. وكذلك أمر الجنرال الأثيني ديموستينيس بعد هزيمته في صقلية. أما جايوس فيمبريا *[2] الذي ضرب نفسه بالخنجر بغير قوة أيضًا، فقد كلّف خادمه بالإجهاز عليه. بالمقابل فإن أوسطوريوس*[3] الذي لم يستطع استخدام يده، لم يرغب في استخدام يدي خادمه لغير أن تمسكا بقوة بالخنجر، ثم اندفع بقوة وموجهًا حنجرته، نحو رأس الخنجر الذي اخترقها تمامًا.

7. الموت في الحقيقة عبارة عن طعام يلزم بلعه من غير مضغ، إذا لم

(1) * ألبوكيلاّ سيدة رومانية من طبقة النبلاء، عاشت في القرن الأول الميلادي، اتهمت بخيانة الإمبراطور تيبيريوس، وبعد محاولتها الفاشلة للانتحار، أودعت السجن بقرار من مجلس الشيوخ الروماني.

(2) * جايوس فلافيوس فيمبريا (114 ق.م تقريبًا – 85 ق.م تقريبًا) قائد روماني، عرف بالقسوة والوحشية، انتحر تحت وطأة تخلي جنوده عنه وانضمامهم لأحد غرمائه.

(3) * بوبليوس أوسطوريوس سكابولا (توفي 62 م) قائد روماني، وشغل منصب حاكم بريطانيا.

يكن لنا حلق قادر على جميع الاختبارات والمحن. لهذا فإن الإمبراطور هادريانوس طلب من طبيبه أن يحيط بدائرة في صدره المنطقة التي عليه أن يستهدفها حين كلفه بمهمة قتله. لهذا بالضبط، حين سُئِل يوليوس قيصر عن أيِّ موت يعتبره مرغوبًا فيه، أجاب: «الذي يأتي بأقل إصرار وترصّد سابق، ويودي بالمرء في وقت أسرع». وإذا كان قيصر قد جرؤ على قول ذلك، فليس من الجبن مني أن أصدّقه. الموت القصير كما يقول بلينيوس، هو السعادة القصوى في حياةٍ بشريةٍ ما. الناس لا يعترفون بالموت. ولا أحد يمكنه القول إنه عازم على الموت إذا كان خائفًا من التفكير فيه، ولا يمكنه تحمله وهو فاتح عينيه. وأولئك الذين نراهم تحت التعذيب، يسيرون إلى حتفهم ويسرّعون إعدامهم، لا يُبينون رباطة جأش؛ فهم لا يريدون أن يكون لهم الوقت لرؤية الموت. فأن يكون المرء ميتًا أمر لا يحزنهم مقدار فعل الموت: **«لا أريد أن أموت، لكن موتي أمر لا يهمني»**[1].

إنها درجة من العزم ورباطة الجأش أعرف بالتجربة أني يمكن أن أبلغها[2]، خلافًا لأولئك الذين يرمون بأنفسهم للتهلكة، كما في البحر، وعيونهم مغمضة.

8. ليس ثمة في نظري ما هو أروع في حياة سقراط من أنه قضى ثلاثين يومًا كاملًا يجتر الحكم الذي قضى عليه بالموت، وأن يكون قد تصور الموت خلال هذه المدة كلها، وأنه انتظره واثقًا من نفسه من غير تأثر ومن غير ارتباك، وبسلوك وخطاب يؤكدان موقفًا يغلب عليه الهدوء واللامبالاة، لا القلق والعصبية، وذلك بفضل ثقْل ذلك التأمل.

9. حين كان بومبونيوس أتّيكوس، الذي كان شيشرون على علاقة مراسلة به، طريح الفراش، نادى على أغْريبّا زوج ابنته واثنين أو ثلاثة من أصدقائه. وقال لهم بأنه لما أدرك أن لا فائدة من شفائه، وأن كل ما كان يفعل لإطالة حياته لم يكن سوى تمديد لعذابه، قرّر وضع حدّ لحياته

(1)Cicéron (21), I, 8.

(2) قد يكون مونتيني يشير هنا إلى سقطته من على جواده التي تحدث عنها سابقًا.

كما لعذابه، وابتهل لهم أن يقبلوا قراره، أو على الأقل ألا يبحثوا سُدى عن إثنائه عنه. وبما أنه اختار الموت بالصيام، ها هو يُشافى من مرضه على حين بغتة: فالوسيلة التي اختار بها أن يضع حدًا لحياته، هي تلك التي أعادت له عافيته. وبما أن أطباءه وأصدقاءه احتفوا بهذا الحدث السعيد، مبتهجين معه بذلك، ها هم يصابون بالأسى؛ ذلك أنهم لم يستطيعوا ثنْيه عن قراره، إذ كان يقول لهم إنه سيموت يومًا ما، وبما أنه اقترب جدًا من ذلك، فإنه يرغب في تفادي أن يعيد الكرَّة مرة أخرى مستقبلًا. ها هو إنسان إذًا قارب الموت على مهله، فلم ينْثنِ عزمه حين لاقاه، بل بالعكس أصرّ على متابعته. وبما أنه صار راضيًا على ما حثه على الكفاح، ها هو يتحمس تحدّيًا منه ليعرف نهايته. إنه السير أبعد من مجرد عدم الخوف من الموت، حين يسعى المرء لتذوقه والتلذُذ به.

10. وقصة الفيلسوف كليانثس تشبه كثيرًا هذه. كانت لثَّته منتفخة ومتقيِّحة، فنصحه الأطباء بالصيام. وبعد يومين من الصيام استعاد عافيته تمامًا بحيث أعلنوا له شفاءه وسمحوا له باستعادة سير حياته العادي. لكنه وجد في ذلك نقصًا، فقرر عدم التراجع والسير نحو موت كان قد بدأه بالصيام.

11. أراد توليّوس ماركلّينوس استباق موته للتخلص من مرض لم يستطع تحمّله، مع أن أطباءه وعدوه بشفاءٍ عاجل لا يغادر سقمًا. فنادى على أصدقائه ليتداول معهم في الأمر. يحكي سينيكا أن بعضهم قدّموا له، من باب الجبن، النصيحة التي كانوا سيتّبعونها بأنفسهم، فيما قدم له الآخرون، من باب المحاباة والتملّق، النصيحة التي اعتقدوا أنها ستكون له الأكثر لطفًا له. غير أن أحد الرواقيين قال له: «لا تقلقْ يا ماركلّينوس، فالأمر لا يتعلق بشيء مهم. ليس أن تحيا بأمر مهم، بما أن خدمك ودوابك تحيا. لكن أن تموت بشرف وبحكمة وبرباطة جأش، فذلك شأن عظيم. فكّرْ في الوقت الذي قمت فيه بالأشياء نفسها: الأكل والشرب والنّوم والشرب والنوم والأكل. إننا ندور باستمرار في مكاننا. ليست الأحداث السيئة أو غير المحتملة وحدها التي تمنحنا الرغبة في الموت، وإنما الإشباع نفسه أيضًا». لم يكن ماركلّينوس بحاجة

لشخص لينصحه، بل كان في حاجة لمن ينجده. كان الخدم يخشون أن يُدلوا بدلوهم في الأمر؛ غير أن هذا الفيلسوف أفهمهم أنهم في كل الأحوال عُرضةٌ للتهمة، إذا ما تم الارتياب في الموت الإرادي لسيّدهم، وأنه سيكون أمرًا أسوأ أيضًا، أن يمنعوه من قتل نفسه على أن يقتلوه، لأن من ينقذ شخصًا على غير رغبة منه=

«يكون كمن قتله»[1].

=وبعد ذلك، نبّه ماركلّينوس إلى أن يوزع في نهاية حياته شيئًا ما، على من كانوا خَدَمًا له، أنه مما سيكون أمرًا مُستحْسنًا، كما نقدم للضيوف فاكهة ختام المائدة.

12. وماركلّينوس الذي كان ذا قلبٍ كريمٍ رحيمٍ ويحب منح الهدايا، قدّم بعض المال لخدمه وواساهم. أما الباقي فلم يكن بحاجة للحديد ولا للدم. فقد كان يرغب في التخلّص من هذه الحياة لا في الهرب منها؛ ولا الهرب من الموت، وإنما ليدرسه. ولكي يمنح لنفسه الوقت لتقويمه، وبما أنه صام عن الطعام، طلب في اليوم الثالث أن يُرشّ بالماء الدافئ وخارت قواه تدريجيًا ليس من غير لذة كما قال. والحقيقة أن من عاشوا هذا الضرب من الوَهن في القلب، يقولون إنهم لا يحسون بأي ألم وإنما بنوع من اللذة، كما حين يغرق المرء في الراحة والنوم.

13. هي ذي ميتات درسها أصحابها وتداولوا فيها. لكن كاتو الأوتيكي كان الأوحد الذي منحنا مثالًا كاملًا للفضيلة. ويبدو أن قدَره أراد له أن يُصاب أولًا بجرح في اليد التي كان عليه أن يصوب بها الضربة القاضية لنفسه، مانحًا له بذلك الوقت الكافي لكي يواجه الموت والاشتباك معه، معزّزا شجاعته أمام الخطر عوض أن يخفّف منه. ولو كان لي أن أصوره في موقفه الأكثر نزوعًا للفضيلة، فسيكون ذلك حين بقَر أحشاءه ويده تدمى، عوض أن يكون السيف بين يديه، كما يبدو ذلك في التماثيل الصغيرة لزمنه. فهذا القتل للنفس كان أكثر رهبة من الأول.

(1)Horace (33), v. 467.

الفصل الرابع عشر

كيف يُحرج العقلُ نفسه

1. إنها لرغبة مسلّيّة أن نتصوّر عقلًا متأرجحًا بين رغبتيْن متشابهتيْن، فنحن نكون متيقّنين أنه لن ينحاز إلى إحداهما، لأن الميل والاختيار يقومان على عدم تكافؤٍ في القيَم. لو وُضعْنا بين قنينة خمر ولحم مبخَّر حين تكون لنا الرغبة نفسها في الشراب والأكل، فلن يكون لنا من اختيار غير أن نموت عطشًا أو جوعًا. ولحلّ هذه المعضلة، وحين نسأل الرواقيين من أين يأتي الاختيار الذي يتمّ في عقلنا بين شيئيْن غير مختلفيْن، والذي يجعلنا من حزمة ريالات نأخذ هذا الريال لا ذاك، مع أننا ليس لنا حينئذٍ من سبب لتفْضيله، يجيبوننا أن حركة العقل هذه خاصة وخارجة عن عوائدنا، وأنها آتية لنا من حافز خارجي عارِض وطارئ. ويمكننا القول، في ما يبدو لي، إن لا شيء يعرِض لنا، لا يكون له اختلاف مع الأشياء الأخرى، مهما كان الاختلاف ذاك طفيفًا؛ وأن في النظر واللمس ثمة دومًا شيء زائد يستجذبنا ولو بشكل غير شعوري. وقسْ على ذلك أننا إذا ما نحن افترضنا حبلًا يكون قويًا أيضًا في كامله، فمن المحال أن ينقطع، إذ أين ستكون نقطة الانقطاع؟ وإذا ما هو انقطع من كل مكان فيه في الآن نفسه، فذلك لا يمكن أن يقع بشكل طبيعي. وإذا ما نحن أضفنا إلى ذلك قواعد الهندسة التي تقود استدلالاتها بيقين إلى استنتاج أن الحاوي أصغر مما يحتوي، وأن المركز كبيرٌ كِبَر المحيط، وأن ثمّة خطوطًا تتقارب بعضها ببعض من غير أن تلتقي. وإذا ما أضفنا أخيرًا حجر الفلاسفة وتربيع الدائرة، التي تعتبر أن العقل والوقائع متباينة، فإننا قد نستنتج من كل هذا دليلًا معزِّزًا لكلام بلينيوس القائل: إن«**لا شيء يقينيٌّ غير اليقين، ولا شيء أكثر بؤسًا وأكثر كبرياء من الإنسان**»[1].

(1) كان مونتيني قد نقش هذه العبارة باللاتينية على عارضة خشبية في مكتبته.

الفصل الخامس عشر

رغبتُنا تزْداد مع المصاعب

1. ليس ثمة من برهان لا يكون له نقيضه، كما تقول أكثر المدارس الفلسفية حكمة[1]. كنت أجترّ فيما مضى هذه العبارة الرائعة، التي جعل منها أحد المؤلفين القدماء مدْعاة لاحتقار الحياة: «**لا شيء من خيرات الدنيا، يمكن أن يمنحنا اللذة، سوى تلك التي نحن مستعدون لفقدانها**»[2]. «الأسى يكون هو نفسه حين نفقد شيئًا أو نخشى فقدانه»[3]. كان يريد القول بذلك إننا لا يمكننا فعلًا أن نلتذّ بالحياة، إذا كنا نخشى فقدانها. لكن يمكننا مع ذلك القول بالمقابل، إننا نعانق هذا الخير بما نملك من قوة، وبالكثير من العاطفة ونخشى أن يُنتزع منا. فكما يعزِّز البرد الأثر الذي تتركه النار، كذلك تحتد إرادتنا أيضًا بالمعارضة التي تُلاقيها:

«لو لم تكن ديانا قد حُبست في برج من النحاس
لم تكن لتصبح أمًّا بعد أخصبها يوبيتر»[4].

ولا شيء يكون بشكل طبيعي مناقضًا جدًا لذوقنا، غير الشبع الناجم عن السهولة: «**ففي كل شيء تتزايد المتعة، تبعًا للخطر الذي يحمينا منه**»[5].

«يا غالا، تمنّعي؛ ففي الحب
نشبع بسرعة من الملذات من غير قلق»[6].

2. لكي يعمل ليكورغوس على التشويق في الحب، أصدر مرسومًا بأن الناس المتزوجين لا يمكنهم قضاء الوطر إلا خِفيةً عن الآخرين، وأن من العار أن يجدهم المرء نائمين مع أزواجهم، إذ ذلك سيكون أكثر عارًا، ممّا لو وجُدوا نائمين مع آخرين. إنها صعوبة المواعيد والخوف من المفاجآت والعار الذي يحلق على الغد،

«والفتور والصمت
والآهات النابعة من عمق الجوف»[7].

(1) كان مونتيني قد نقش هذه العبارة لسيكستوس إمبيريكوس باللاتينية على عارضة خشبية في مكتبته.
(2) Sénèque (96), IV.
(3) Sénèque (96) LXXXVIII.
(4)Ovide (66), II, 19, v. 27.
(5) Sénèque (98), VII, 9.
(6)Sénèque (51) IV, 37.
(7) Horace (36), XI, v. 9.

=ذلك ما يمنح للأمر نكهته. كم من لعبة حبّ ماجنة وماتعة، تولد بطريقة شريفة ومحتشمة في الحديث عن أمور الحب. والشهوة نفسها تسعى لإثارة ذاتها بالألم. وهو يكون ألمًا أقوى حينما يكون ساخنًا وقارصًا. كانت الجارية فلورا تقول إنها لم تمارس الحب أبدًا مع بومبيوس من غير أن تترك على جسده آثار عضاتها.

«إنهم يقبّلون بعنف موضوع رغبتهم
ويؤلمونه، ويغرسون أسنانهم في الشفاه الناعمة
فثمة أسرار لادغة تدفعهم إلى جرح ما يولّد فيهم
بذور الاهتياج»[1].

3. يقوم سكان منطقة أنكونا بإيطاليا بنذورهم بكاتدرائية سانتياغو دو كومبوستيلا بإسبانيا، وسكان غاليسيا بكاتدرائية نوتْردام دو لوريتْ. ويقدرون حمامات لوكا بالغ التقدير، وهي حمامات عامة بالقرب مدينة لوكا الإيطالية بإقليم توسكانا. وفي توسكانا نراهم يفضلون حمامات مدينة سبا البلجيكية. ونحن لم نعد نرى الرومانيين في مدرسة المسايفة بروما المليئة بالفرنسيين. وقد أحسَّ كاتو الكبير، تمامًا مثلنا، بالتقزّز من زوجته ما دامت زوجته، واشتهاها حين صارت زوجة شخص آخر.

4. تخلّصتُ من جواد عجوز بإرساله للإصطبلات؛ لأنه كان يصير جامحًا حين يشم رائحة الفرس. وكانت السهولة تحقق له الإشباع من الإناث اللواتي يعثر عليهن، لكن حين يتعلق الأمر بالأجنبيات، فإنه يقابل أول فرس تمرّ قريبًا من مربطه، بالعودة لصهيله الصاخب ولغُلْمته الهائجة كما في السابق. إن رغبتنا تكره وتتجاهل ما بين يديها، كي تجري وراء ما هو بعيد عنها.

«إنه يتجاهل ما بين يديه
ويبسط يده لما ينفلت منه»[2].
أن نُمنع من شيء يعني أن يمّ ترغيبنا فيه:
«إذا أنت لم تحرسْ حسناءك
فستكف عاجلًا عن أن تكون لي»[3].

---
(1)Lucrèce (47), IV, 1079.
(2)Ovide (66), II, 19, v. 47.
(3)Ovide (66), II, 19, v. 47.

وأن تتركها لنا كليّةً، يعني أن تجعلنا نكرهها. فالنقص والوفرة يفضيان إلى الأمر السيّء نفسه.

«أنت تشكو من توفرك على الفائض؛ وأنا أشكو من النقص»[1].

5. الرغبة واللذة يقلقاننا بالشكل نفسه. صرامة العشيقات مملّة، لكن محاباتهن وسهولتهن في الحقيقة أكثر مللًا، لأن عدم الرضا والغضب ينبعان من التقدير الذي نكنّه للشيء المرغوب، ويؤججان الحب ويدفئانه. بيْد أن الإشباع يولّد الاشمئزاز، فهو إحساسٌ ضبابيٌّ وغامضٌ ومتعَب وغافٍ.

«إذا أرادت امرأة أن تتحكم طويلًا في عشيقها
فما عليها إلا أن تكرهه: أيها العشاق اكْرهوا بعضكم البعض
وسوف ترون من كانت تتمنّع عنك بالأمس تأتي إليك صاغرة»[2].

6. لماذا قرّرت بوبّايا سابينا[3] تقنيع محاسن وجهها، لو لم يكن ذلك لكي تزيد من قيمتها لدى عشاقها؟ لماذا حُجبت تلك المحاسن، التي يرغب في إبرازها كل شخص ويرغب في رؤيتها كل امرئ إلى ما تحت الكعبين؟ لماذا نراهنَّ يغلفن بهذا الكم الهائل من الحواجز، الواحد فوق الآخر، تلك الأماكن التي تكمن فيها أساسًا رغبتنا ورغبتهن؟ وما فائدة تلك الحصون[4] التي تحصّن بها النساء لدينا أردافهن، لو لم يكنْ ذلك لخداع شهواتنا وجذبنا لهن بإبعادنا عنهن؟

«إنها تهرب نحو الصفصاف، لكنها تريد أن يراها الناس قبل ذلك»[5].
«إنها تجعل من فستانها حاجزًا أمام محاولاتي»[6].

(1) Térence (111), **Phormion**, I, 3, v. 10
(2)Properce (80), II, 19, v. 33.
(3) عشيقة نيرون، التي كانت لها عليه تأثير كبير حتى قتلها عام 65 ق. م.
(4) كانت الصرعة حينئذٍ أن المرأة تلبس فستانًا يتم تعضيده ببنيةٍ داعمةٍ من الخشب أو الحديد.
(5)Virgile (113), III, v. 65.
(6)Properce (80), 15, v. 6.

7. ما فائدة هذه الحشمة العذرية، وهذا البرود المتحفّظ، وتلك الهيئة القاسية، وذلك التجاهل الجليّ، الذي يعرفْن أفضل منا نحن الذين علمناه إياهنَّ، إن لم يكن لتأجيج رغبتنا في النصر والسيطرة، وإخضاعهن لشهواتنا، بتحطيم كل تلك المراسم وكافة تلك الحواجز؟ ذلك أنْ ليس ثمة غير اللذة، هناك أيضًا الفخر الذي نحسه، بتخويف وتحرير تلك اللطافة الرخوة، وتلك الحشمة الطفولية، وإخضاع الصرامة والكبرياء المثاليتين لقانون هِمّتنا. إنه لأمر مجيد كما يقال أن ينتصر المرء على التحفّظ والعفّة والاعتدال. وإذا ما حذّرنا النساء من تلك المزايا فإننا نخونهن ونخون أنفسنا. علينا أن نتأكد أن قلبهن يرتعش من الرعب منها، وأن صوت كلماتنا يجرح طهارة آذانهن، وأنهن يحسسْن بالمقت لنا، وأنهن لا ينصعْن لإلحاحنا إلا بالقوة. الحسْن مهما كانت قوته لا يمكن أن يكون موضوعًا للاستحسان إلا إذا مرّ من ذلك. انظروا ما يحدث في إيطاليا، حيث وفرة الجمال والأناقة لا تُضاهى: إنه جمال يبحث مع ذلك عن وسائل غريبة، وتقنيات أخرى؛ كي يكون رائقًا. لكنه مهما فعل فهو قابل للبيع، وعُمومي، وضعيف فاتر. فنحن في مجال الأمور الفاضلة، وبين أثريْن متشابهيْن نعتبر مع ذلك، أن الأجمل والأشرف هو ما نواجه من أجله الأكثر من العقبات والمخاطر.

8. وإنّ لمِن حسنات القدر الإلهي أن يسمح لكنيسته المقدسة أن تعيش القلاقل والفتن كما هو الأمر في الاضطرابات والعواصف، وذلك لكي يوقظ بهذا التعارض النفوس الورعة، ويجعلها تتخلى عن عطالتها وعن السبات، الذي أغرقتها فيها طمأنينة طويلة المدى. وإذا نحن قمنا بوزن الخسارة، التي تلحَق بنا بسبب العدد الكبير من المؤمنين المرتدّين، والربح الذي يوفره لنا كوننا استعدنا أنفاسنا وانبعث فينا حماسنا وقوانا في هذه المعركة، فأنا أتساءل إذا ما لم تكن المنفعة تفوق الضرر. لقد اعتقدنا أننا ربطنا بشدة عقد الزواج لدينا، مُخلّصين إياه من كل ما يمكن أن يحطمه؛ بيد أن عقدة الإرادة والعاطفة قد انحلت، فيما انشدّت عقدة الإكراه. وعلى العكس من ذلك، ما جعل الزواج يظل أشْرف شيء وما ضمن له الأمان، هو الحرية في فسْخه لكل من يرغب في ذلك. فلقد كان الرومان يرتبطون بشدة بزوجاتهم، بحيث كان من

الممكن خسرانهن. ومع إمكان الطلاق بحرية، مرت خمسة قرون من غير أن يقوم أحد منهم بذلك.

«ما هو حلال لا جاذبية له؛ وما هو حرام مثير لنا»[1].

9. يمكننا أن نستشهد بهذا الصدد بأحد القدماء[2] بقوله: إن العذاب يقوّي الرذائل عوضًا عن أن يضعفها؛ وأنه لا يولّد الرغبة في فعل الخير، لأن ذلك من عمل العقل والتربية، وإنما يولّد فقط الحرص على ألا يُقبض على المرء متلبّسًا بفعل الشرّ:

«والشرّ الذي اعتقدوا أنه قد قُضي عليه، صار ينتشر بالعكس أكثر»[3].

وأنا لا أعلم إذا كان ذلك صحيحًا؛ لكن ما أعرف بالتجربة، هو أنْ ليس هناك مجتمع أُصلح بهذه الوسيلة. فالنظام والقواعد السليمة في سلوك الناس ترتهن بأمور أخرى.

10. يحكي المؤرخون اليونانيون[4]: أن الأغريبيّين جيران السكوثيين، يعيشون من غير أن يكون لديهم خيزرانة، أو عصى للتأديب بها، وأنهم لا يتعرضون أبدًا لهجوم الآخرين فقط، بل إن كل من يحتمي بهم يكون آمنًا بسبب فضيلتهم وقداسة حياتهم، بحيث لا أحد يجرؤ على رفع اليد عليهم. بل إن الآخرين كانوا يلجؤون إلى أولئك الناس، لتصفية الخلافات التي تقع بين أناس من بلدان أخرى. ثمة شعب تُسيَّج فيه البساتين والحقول التي يُبتغى حمايتها بخيط من القطن، وهو أمر أكثر نجاعة ووضوحًا من خنادقنا وسياجاتنا الخشبية[5].

11. **«المتاريس تستجذب السارقين؛ والسارق يمر قرب البيوت المفتوحة**

---

(1)Ovide (66), II, 19, v. 3.

(2) Sénèque, [96] LXXXIII.

(3) بيت شعري لروتيليوس ناماتيانوس، وهو شاعر لاتيني وُلِدَ في بلاد الغال في القرن الخامس.

(4) يتعلق الأمر هنا بهيرودوتس.

(5)Gomara, (26), III, 30.

من غير أن يدخلها»[1]. فأن يكون من السهل الدخول إلى بيتي أمر يمكن أن يحميه، من بين وسائل أخرى للحماية، من أهوال حربنا الأهلية. المنع يحرّض الناس على الخرق، والتحدّي يستجذب الخطر الضارب. ولقد أضعفتُ مقاصد الجنود بأن حرمتُ نجاحاتهم من كل خطر، ومن كل سبب يجعلهم يمتحون منهم جدهم، وهو ما يستخدمونه عادةً ذريعةً وعذرًا للنهب والسّلب. ما يقوم به المرء بشجاعة يكون دومًا أمرًا مشرّفًا، في وقت لم يعد فيه من عدالة. فأنا أجعل من احتلالهم لداري أمرًا سهلًا وخادعًا، إذ هي مفتوحة في وجه كل من يأتي لطرق بابها. وأنا لم أجعل حارسًا لها غير بوّاب، على الطريقة القديمة. وهو لا يصلح للدفاع عن باب بيتي، بقدْر ما يصلح لفتحها، بالكثير من اللباقة والرشاقة، لمن يرغب في دخوله. فلا حارس أو حامٍ غير الكواكب.

12. ليس في صالح رجل من النبلاء أن يُبْدي عن طابعه الدفاعي، إن لم يكن قادرًا على ذلك كلية، فذلك الذي يكون منفتحًا من جانب، يكون منفتحًا من جميع الجوانب. لم يفكر آباؤنا في تشييد ديار مُحصَّنة؛ فوسائل الهجوم عليها بالمباغتة، أعني من غير مدافع أو جيش، تتزايد يومًا عن يوم، أكثر من وسائل الحفاظ عليها. من هذه الناحية بالضبط تتأجّج النفوس، فالغزو يهم كل الناس، أما الدفاع فلا يهم غير الأثرياء والموسرين. كانت داري محصّنة في وقتئذٍ، غير أني لم أضف لحصانتها شيئًا وأخشى اليوم أن ترتدّ قوتها ضدي. أضِفْ إلى ذلك أننا في أوقات السلم، ننحو إلى جعل دورنا أكثر انفتاحًا، بحيث إننا نخشى أنها إذا احتُلَّت ألا يمكننا استعادتها. بل إن من الصعب أن نجعلها محصّنة، إذ في وقت الحروب الطاحنة، قد يكون الخادم نفسه منحازًا للعدوّ، وحين يغدو الدين ذريعة، لا تظل حتى علاقات القرابة موثوقًا بها، باسم العدالة طبعًا. ليست ماليتنا العامة هي التي سوف تتكلف بالصّرف على حامياتنا العسكرية، فهي سوف تستنزف مواردها في ذلك. ونحن لا يمكن أن نقوم بذلك من غير أن نسير إلى الإفلاس، أو بصيغة أكثر سوءًا وأكثر ظلمًا، من غير أن نجعل الشعب نفسه مُفلسًا. فالداء لن يكون أكثر سوءًا من دوائه. بل إذا ما خسرت في وقت الحرب شيئًا، فإن

(1)Sénèque (96), LXVIII.

حتى أصدقاؤك يقضون سحابة يومهم في الشفقة عليك، وفي توبيخك على غياب حيطتك وحذرك، وعلى تجاهلك لواجباتك أو لتهوّرك فيها.

13. إنّ كوْن العديد من الدّور المحروسة جيدًا قد تم الاستيلاء عليها، فيما داري لا تزال حرة لم يمسسْها ضرر، لَأمرٌ يجعلني أخمّن أنها ستكون قدْ احتُلت، لأنها كانت محروسة بشكل كبير، وهو أمر يثير الرغبة في المحتلين ويمنحهم بواعث لذلك. كل حماية لها جانب حربي. قد يستطيع أحدهم أن يحتل داري، إذا ما شاء الله ذلك؛ لكنه سيكون متأكدًا أني لن أدعوه لذلك. إنها الخلوة التي آتي إليها للاستراحة من الحروب. وأنا أسعى إلى أن أحمي هذا الركن من عواصف الشؤون العامة، بالشكل نفسه الذي أنتزع منها ركنًا صغيرًا من نفسي. لقد غيرت حربنا الأهلية كثيرًا من صورتها، إذ هي لا تفتأ تتزايد وتتنوّع بتحزبُّات جديدة[1]، أما أنا فلا أحيد عن رأيي في الأمر. وفي الوقت الذي توجد فيه العديد من البيوت المحصّنة. فأنا حسب علمي الوحيد في فرنسا، من وضعي الاجتماعي، الذي فوَّض أمره للسماء لكي تحمي داره. ولم أقمْ أبدًا فيها بإخفاء الأواني الفضية ولا عقود الملكية ولا الزرابي، إذْ أنا لا أرغب في أن أخشى شيئًا ولا أن أنجوَ بنفسي جزئيًا. فإذا كانت ثقتي التامة في الرب تستحق فضله ونعمته، فهو سوف يُصاحبني حتى المنتهى؛ وإلا فأنا قد عشت ما يكفي، بحيث جعلت من حياتي شأنًا مرْموقًا، ويستحق المحافظة عليه. كيف ذلك؟ ها هي ثلاثون سنة والأمر على حاله[2].

(1) إنها إحالة محتملة إلى صراع «الرابطة» ضد هنري الرابع، الذي كما نعلم اضطر للدخول في الحرب، لكي يعتنق الكاثوليكية عام 1589 م.

(2) تعتبر هذه الثلاثون سنة عموفا هي التي مرت منذ اندلاع «الفتن» حوالي عام 1560 م.

الفصل السادس عشر

في المجْد

1. ثمة الاسم والشيء، والاسم كلمة تعيّن وتدل على الشيء، إذ هي ليست جزءً من الشيء، ولا شيئًا ملموسًا. إنها عنصر غريب يرتبط بالشيء ويكون خارجًا عنه. والله الذي هو الكمال في ذاته، وذروة الكمالات لا يمكنه أن يكون أكثر مما هو عليه، فهو لا يمكنه أن يتكاثر من حيث هو كذلك؛ بيْد أن اسمه يمكنه أن يتكاثر بالتقديس والحمد، الذي نوجهه لمظاهره البادية. وبما أن الحمد لا يمكن أن يدخل في وجوده، الذي لا يمكن أن يزيد بأي خير كيفما كان، فإننا ننسبه لاسمه، الذي هو العنصر الخارجي الأقرب إليه. لهذا يعود التبجيل والمجد لله وحده؛ ولا شيء يكون غير معقول أكثر من أن نبحث عنهما فينا، لأننا فقراء وبائسون باطنيًا، وجوهرنا ليس كاملًا، بحيث يتطلب تحسينًا مستمرًا، ولهذا الأمر علينا العمل. نحن كائنات فارغة وجوفاء، وليس علينا أن نملأ أنفسنا بالهواء والكلمات، إذ لكي نصلح أنفسنا نحن بحاجة إلى مادة صلبة. والجائع الذي يسعى إلى الحصول على لباس جميل بدل طعام لذيذ - امرؤ غبي جدًا. علينا الهرولة بسرعة. وكما تقول أدعيتنا الجارية: «المجد لله في السماء، والسلام للناس على الأرض». وما ينقصنا هو الجمال والصحة والحكمة والفضيلة وغيرها من المزايا الجوهرية من هذا الضرب. أما الزخارف الخارجية فعلينا البحث عنها فيما بعد، حين نكون قد توفرنا على الأمور الضرورية. وعلم اللاهوت يتناول بتوسُّع هذا الموضوع وأنا لست من المحيطين به.

2. كان خريسيبّوس وديوجينيس من أوائل المتأملين في المجد وأكثرهم حسمًا فيه. كانا يقولان إن الأخطر من بين الملذات هي تلك التي تأتينا من موافقة الآخرين، وأن علينا الهروب منها أكثر من كل شيء. صحيح أن التجربة تجعلنا نعيش خيانات ضارة جدًا. فلا شيء أكثر من التملق يفسد طباع الأمراء، ولا شيء أكثر منه يصنع الشهرة السهلة للناس الأشرار، ولا وسيلة أكثر يقينًا وشيوعًا لكي تتخلى النساء عن عفّتهن، من إمتاعهن بكيْل المديح لهن. فلقد كان أول سحر استخدمته حوريات البحر لخداع أوليس من هذه الطبيعة.

«تعالَ، تعالَ يا أوليس الممجَّد
أنت الأعظم من بين الكل، الذي تفتخر به بلاد اليونان»[1].

---

(1) يترجم مونتيني هذين البيتين من الأوديسا لهوميروس، [32]، 184، XII-185.

3. كان هؤلاء الفلاسفة يقولون: إن مجد العالم كله لا يستحق أن يحرك من رجل عاقل إصبعه الصغير من أجل الحصول عليه. «**فمهما كانت عظمة المجد، فهو لا شيء إذا لم يكن غير المجد وحده**»[1].

وأنا أقول وأكرر: إذا لم يكن غير المجد وحده؛ وذلك لأنه يستدرج لمجاله العديد من المزايا التي يمكن أن تغدو مرغوبًا فيها. فهو يسلط علينا العناية، ويجعلنا أقل حساسية لشتائم الآخرين وعدوانيتهم، وغيرها من الأشياء من النوع ذاته.

4. إنه أيضًا أحد المبادئ الأساس لمذهب إبيقوروس. فمبدأ «أخْفِ حياتك» الذي يمنع الناس من حرج الاهتمام بالشؤون العامة، يفترض في الآن نفسه مقْت المجد، لأن هذا الأخير ليس سوى الموافقة التي يمنحها الناس للأفعال التي نستفيد منها. ومن يأمرنا بالخفاء وبأن لا نهتم إلا بأنفسنا، ولا يرغب أن نُرى من الآخرين، لا يرغب أبدًا في أن نُكرَّم ونُمجَّد منهم. ولهذا فهو ينصح إيدومينيوس*[2] ألاَّ يتَّبع في أفعاله السمعة أو الآراء المتداولة، إلا لتفادي المشكلات التي يمكن أن تنجم له عن كراهية الناس.

5. إنها عبارات حكيمة وذات معنى عميق في نظري. غير أننا غامضون بشكل غير مفهوم إلى حدّ أن ما نعتقد لا نعتقد فيه أيضًا، وأننا لا يمكن أن نتخلص مع ذلكمما نُدينه. لنتفحَّص العبارات الأخيرة لإبيقوروس، تلك التي تفوّه بها وهو يُحتضَر. إنها نبيلة وخليقة بفيلسوف من عياره. لكنها موسومة، شيئًا ما، بالمجد المتصل باسمه، وبالعيْب الذي ندَّد به في تعاليمه. إليكم الرسالة التي أملاها قُبيْل أن يسلم الروح:

«من إبيقوروس إلى هيرمارخوس*([3])، سلامًا. هذا اليوم السعيد هو

---

(1)Cicéron (17,), III, 17.

(2) * إيدومينيوس (325 ق.م تقريبًا - 270 ق.م تقريبًا) فيلسوف إغريقي من تلاميذ إبيقوروس. وهو الذي كان يتلقى رسائل إبيقوروس، وقد ذكره مونتيني في الجزء الأول من المقالات، الفصل 32، المقطع 3. وكذا في الفصل 38، المقطع 36.

(3) * هيرمارخوس أو إرمارخوس (325 ق.م تقريبًا - 250 ق.م تقريبًا) فيلسوف إغريقي، كان من تلاميذ إبيقوروس، وخلفه في زعامة مدرسته الفلسفية.

في الآن نفسه اليوم الأخير في حياتي، وأنا أخطّ هذا وأنا أعاني من آلام فظيعة لا تُحتمل في المثانة والأمعاء. ومع ذلك فإنها آلام تبدّدها المتعة، التي تمنحها لي ذكرى ما اكتشفت وذكرى خطاباتي. أما أنتَ، فكما أرادت العاطفة التي عبرتَ عنها إزائي منذ صباك وإزاء الفلسفة، أطلب منك أن تسهر على أبناء الفيلسوف ميترودوروس».

6. هي ذي رسالته. وما يذكّرني بأن هذه المتعة، التي قال إنه يحسّها بتذكّر اكتشافاته تتعلق شيئًا ما بالسمعة التي كان يأمل في أن ينالها منها بعد مماته، هو أنه في فحوى وصيّته، أمر بأن يقوم أمينوماخوس وتيموكراتيس وريثاه بالتكفّل في كل يناير، واحتفاءً بذكرى ميلاده، بالمصاريف التي يقررها هيرمارخوس، وكذا بالمصاريف المتعلقة بالفلاسفة أصدقائه، الذين يتجمعون في اليوم العشرين من بزوغ القمر لتكريم روحه وروح ميترودوروس.

7. كان كارنياديس رأس حربة وجْهة النظر المعارضة. فقد كان يزعم أن المجد يكون مرغوبًا فيه في ذاته، بالشكل نفسه الذي نتعلّق به بمستقبلنا، من غير أن تكون لنا به معرفة أو لنا فيه متعة. وهذا الرأي كان الأكثر اتباعًا، كما هو حال الآراء التي توافق أفضل نوازعنا. وأرسطو يجعل المجد في المرتبة الأولى، من بين الخيرات الخارجية. فهو يقول: «تفادَ، حين تعتبر أن الطرفيْن المتناقضيْن معًا سيئيْن، أن تبحث عن المجد أو أن تهرب منه». وأنا أعتقد أننا لو حافظنا على الكتب التي كتبها شيشرون في هذا الموضوع، فسنتعلّم منها أجمل الأشياء، ذلك أن الرجل كان مُغرمًا بالمجد، بحيث لو كان جرُؤ على ذلك كان سينساق للمبالغات التي سقط فيها الآخرون، وكان قد اعتبر أن الفضيلة نفسها لم تكن مرغوبًا فيها إلا في الشرف الذي يأتي تبعًا لها.

«الفضيلة قليلة الاختلاف مع الرخاوة البَهيمة»[1].

إنه رأي خطأ تمامًا بحيث إنني غاضب من أن يكون قد تشكّل في ذهن رجل كان له شرف حمل اسم الفيلسوف. فلو كان ذلك صحيحًا، فعلينا ألا نُبيّن

(1)Horace (37), IV, 9, v. 29.

فضيلتنا إلا للملأ. وسيكون حينئذٍ من النافل أن ننظم حركات النفس، حيث يوجد موطن الفضيلة، إلا إذا أردنا أن يعرفها عموم الناس.

8. ألا يتعلق الأمر إذًا بأن يرتكب المرء الأخطاء بطريقة ماهرة ولطيفة؟ يقول كارنياديس: «إذا كنت تعرف أن ثعبانًا مختبئ هناك، حيث يأتي ليجلس عفويًا الرجلُ، الذي تتمنى موته؛ كي تستفيد منها، فإنك ستتصرف بطريقة شريرة إذا لم تُخْطِره بالأمر». وهذا، خاصةً وأن تصرفك لن يعرفه أحد غيرك. فإذا لم نحدّد لأنفسنا لزوم فعل الخير، وإذا كان الإفلات من العقاب يبدو لنا عادلًا، فكم من ضروب النذالة سننساق إليها كل يوم؟ وما قام به سيكستوس بيدوكايوس حين أعاد تمامًا كل ما أوْدعه إياه جايوس بلوتيوس من أموال، وهو أمر قمتُ به أنا مرارًا، أعتبر أنه أمر ليس جديرًا بالثناء، لو أنني فرّطت في القيام به. وأعتبر أمرًا حسنًا اليوم أن أذكّر بمثال بوبليوس سيكستيليوس روفوس، الذي أخذ عليه شيشرون أن يكون قد جمع ميراثًا مخالفًا لضميره. فهذا الميراث لم يكن مخالفًا للقوانين، بل إنه كان منصوصًا عليه في القانون. فالأجنبي الذي كان يأمل أن يحصل على حصّته من تِركة تقوم على وصيّة مزيفة، قام باللجوء إلى ماركوس كراسّوس وكوينتوس هورتينسيوس، نظرًا لنفوذهما وتأثيرهما ليعارضا نسبةً معينة في تقسيم التركة. وقد اكتفى هذان بعدم الاعتراف باعتماد الوثيقة المزورة غير أنهما لم يرفضا أن يستخلصا من ذلك منفعةً لهما: فلقد كانا في حماية إذا هما تفاديا المتّهمين والشهود والقوانين: **«فليتذكّروا أن الله هو شاهدهم، أي كما أرى، ضميرهم الخاص»**[1].

9. الفضيلة شيءٌ نافلٌ وهشّ إذا لم تستقِ قيمتها من المجد. ولن يكون من المُجْدي في هذه الحالة أن نمنحها مكانة خاصّة وأن نميزها عن المصادفة. فهل ثمة شيء عرضي أكثر من السّمعة؟ **«من الأكيد أن القَدَر يمارس سيادته على كل الأشياء؛ فهو يمنح المجد أو الظلّ على هواه، لا تبعًا للاستحقاق الحق»**[2]. وكون أعمالنا تكون على مرأى

(1)Cicéron (19, II, 10.

(2) Salluste (86), VIII.

ومسْمع من الكل أمرًا يعود كليةً إلى الصدفة. القدَر هو ما يمنحنا المجد حسب رغبته الخيّرة. ولقد رأيت المجد مرارًا يسبق الاستحقاق، وغالبًا ما يجاوز كثيرًا الاستحقاق نفسه. والأول ممن لاحظوا أن الظلّ والمجد يتشابهان، قد قام بشيء أفضل مما كان يعتقد. فهما معًا شيئان عبثيان بشكل مطلق، فالظل يسبق غالبًا الجسد، وغالبًا ما يكون أكبر منه.

10. أولئك الذين يعلّمون النبلاء ألا يسعوْا إلا للشرف والشجاعة، «**كما لو أن عملًا غير شهير لا يمكن أن يكون مشرّفًا**»[1]، أيُّ نتيجة يحصلون عليها سوى أن يعلّموهم ألا يخاطروا أبدًا بأنفسهم إذا ما نحن لم نُعاينهم، وأن يكون ثمة شاهدون يمكن أن يحكوا أعمالهم المجيدة، هذا في الوقت الذي تسنح الفرصة مئات المرات،لأن يتميَّز المرء من غير أن ينتبه له أحد؟ كم من عمل باهر وشخصي يضيع في حِمى المعركة؟ وكل من يتسلّى بمراقبة الآخرين خلال الاشتباك في الحرب لا يمكن أن يشارك في المعركة بنفسه، ويصوغ ضد نفسه الشهادة التي يمنحها عن سلوك رفاقه!

11. «**النفس الحكيمة والعظيمة حقًا تضع في الأعمال، لا في المجد، ما نسعى إليه أكثر بطبيعتنا أي: الشرف**»[2]. المجد كله الذي أنتظره من حياتي هو أن أكون قد عشتها بطمأنينة. بطمأنينة لا حسب ميترودوروس أو أركسيلاوس أو أريستبّوس، وإنما حسبي أنا، بما أن الفلسفة لم تستطع أن تعثر على أي سبيل للطمأنينة يكون صالحًا لكل الناس، ويبحث عنه كل واحد لحسابه الخاص.

12. هل يدين يوليوس قيصر والإسكندر الأكبر بسمعتهما التي طبقت الآفاق لشيء غير الصدفة؟ كم من الناس لا فكرة لنا عنهم إبادتهم في الوقت الذي كانوا فيه بدأوا تألُّقهم، والذين كانوا يقومون بذلك بالحزم نفسه الذي كان لهما، وكان بإمكانهم النصر لو لم يوقفهم الحظ التعيس مرة واحدة في بداية مشوارهم؟ لا أتذكر أني قرأت أن يوليوس قيصر قد أصيب بجرح وسط كل

(1)Cicéron (19), I, 4.

(2)Cicéron (19), I, 19.

تلك المخاطر. والمئات غيره لقوا حتفهم في مخاطر أقلّ من تلك التي واجهها. لا يكون المرء دومًا في حافّة جُرف أو على رأس جيش تراقبه عينا جنرّاله، كما لو كان على خشبة مسرح. إذْ وَهو في قلب المعركة، يُباغَت بين الحاجز والأخدود، وعليه أن يكشف عما يختبئ في خمّ الدجاج؛ ويُخرج من إسطبلٍ أربعة جنود بؤساء؛ وعليه أن ينزاح عن فيْلقه ويتصرّف وحيدًا تبعًا لضرورات اللحظة. وإذا ما كان حذرًا، فسينتبه لا محالة إلى أن التجربة تُبين له أن المناسبات الأكثر عادية هي فعلًا الأشدّ خطرًا، وأن الحروب التي عاشها عصرنا عرفت مقتل أناس طيبين، أكثر من الظروف العادية الخالية من المخاطر، كما في عصيان مدينة صغيرة أكثر من الأمكنة الشريفة الخليقة بذلك.

13. من يعتبر أن موته لا يكون ذات أهمية إذا هو لم يتم في ظروف ممتازة، عوض أن يجعل من موته أمرًا ساطعًا يقوم بإظلام حياته؛ ذلك أنه يترك العديد من المناسبات المبرَّرة لركوب المخاطر تنفلت من بين يديه. وكل المناسبات الحقة تكون مناسبات مجيدة، لو أن ضمير كل واحد يعلن عنها له بما يكفي. «ضميرنا هو ما يشهد عليه ضميرنا»[1].

14. من لا يكون رجل خير إلا لأن الناس سيعرفون ذلك، ولأنهم سيحترمونه أكثر حين سيعرفون بذلك، والذي لا يقوم بالخير إلا إذا بلغت فضيلته سمْع الآخرين، ذلك الشخص ليس شخصًا يمكن أن نأمل فيه خيرًا.

«يبدو لي أن خلال الشتاء الموالي
قام رولان بأعمال رائعة خليقة بأن نتذكّرها
غير أنها ظلّت في طيّ الكتمان لحدّ اليوم ولا دخل لي في ذلك
إذا لم أزوها، لأن رولان
كان يتحمس للقيام بأعمال عظيمة
أكثر من حماسه فيما بعد لروايتها، ومنجزاته العظيمة
لم تتفشَّ أسرارها
إلا إذا كان هناك شاهدون عليها»[2].

---

(1) القديس بولس، رسالة إلى أهل كورنثوس، لكن الشاهد مشتق بالأحرى من «مدينة الله» للقديس أوغسطينوس.

(2)Arioste (44), XI, 81.

15. على المرء أن يسير للحرب ليقوم فيها بواجبه، ولينتظر ذلك الجزاء الذي لا يمكن إلا أن يصاحب كل عمل جليل، مهما كان سريًا، وحتى الأفكار الفاضلة، أي الاكتفاء بأن ضميرًا حسنًا يحس بأنه قام بعمل فاضل. على المرء أن يكون شجاعًا لنفسه، ومن أجل ذلك الفضل في كون المرء له قلب حازم وصلب إزاء هجمات الصُّدف.

«الفضيلة لا تعرف الفشل المخجل
فهي تلمع ببريق خالص
وهي لا تأخذ بريق السلطة القنصلية ولا تتركها
تبعًا لتقلبات الأهواء الشعبية»[1].

16. النفس لا يلزم أن تلعب دورها كي تتظاهر، إنها في بواطننا، ثمَّ حيث لا يمكن أن تصل إلا عيونُنا؛ فهي ثمَّ تحمينا من الخوف من الموت، ومن العذاب كما من العار؛ وثمَّ هي تقوّينا ضد فقدان فلذات كبدنا وأصدقائنا ومن حظنا. وحين تأتي الفرصة، تقودنا إلى مخاطر الحرب. **«لا من أجل ربح معيّن، وإنما من أجل الشرف الذي يرتبط بالفضيلة نفسها»**[2]. فهذا الربح أكبر وأحقُّ بانتظاره وتمنّيه، من الشرف والمجد، اللذين ليسا شيئًا آخر غير حكم إيجابي يُطلق في حقنا.

17. علينا أن نختار عشرة رجال من الناس للقيام بحكم على فدّان من الأرض؛ ولكي نحكم على نوازعنا وأعمالنا، وهو الأمر الأعْوص والأهمّ إطلاقًا، ترانا نضع أمرنا بين أيدي الجمهور والعامة، أمُّ الجهل والظلم وعدم الثبات. فهل من المعقول أن نرهن حياة رجل حكيم بأحكام المجانين؟ **«ليس أكثر عبثًا من أن نمقت الناس حين نأخذهم واحدًا واحدًا، ونقوم بتقديرهم أيما تقدير حين يكونون مجتمعين»**[3]. كل من يسعى إلى أن يُعجِب الناس لن يجني شيئًا من ذلك، فهو هدف غير متحدّد المعالم، ولا يمكننا التحكّم فيه. **«لا شيء أكثر تقلبًا من أحكام الجماهير»**[4].

(1)Horace (37), II, 2, v v. 17 sq.
(2)Cicéron (17), I, 10.
(3)Cicéron (21), V, 36.
(4)Tite-Live (105), XXI, 34.

18. كان ديميتريوس[1] يقول بمرح عن صوت الشعب: إنه لا يقيم وزنًا لما يخرج منه من فوق كما لما يخرج منه من تحت. وهاكم آخر يقول ما يلي: «**أما أنا فأرى أن شيئًا، حتى لو لم يكن عارًا، يبدو كذلك إذا ما امتدحته العامّة**»[2].

19. لن يستطيع أي حذق أو مرونة عقْل أن يقود خطانا وراء مرشد يكون بالغ التردّد وعدم الوثوق في نفسه. فوسط هذا الجلبة والإشاعات الشعبية التي ليست سوى هُراءٍ، ومع ذلك هي تدفع بنا، لا يمكننا أن نخطّ أي طريق صالح للسير. لذلك فلنمتنعْ عن أن نقترح على أنفسنا هدفًا ضبابيًا ومتغيرًا، ولنسرْ بالأحرى بثبات متبعّين قواعد العقل. وليتبعْنا الشعب بموافقته لو شاء، فبما أنه خاضع تمامًا للصدفة، ليس لنا أي وازع لنأمل في شيء آخر غير هذا السبيل. فمع أني لن أتّبع السبيل القويم لأنه قويم، سأتبعه؛ لأني أعرف بالتجربة أنه في نهاية المطاف الطريق الأفضل عمومًا والأكثر فائدة: «**لقد قدّم القَدَر لبني البشر هذه الهدية المتمثلة في جعل الأشياء أكثر صدقًا وأعمّ فائدة**»[3]. كان البحار فيما قبل التاريخ يتحدّث هكذا لنبتونوس وسط العاصفة الهوجاء: «يا ربّ، نجّني إذا شئت، وأفقدني إذا شئت؛ لكني سأحافظ على قيادة السفينة». لقد شهدت في حياتي مئات الناس المطْواعين والغامضين والمنافقين، والذين لا أحد منهم كان يشك في أنه شخص أكثر فطنة مني، يتيهون فيما أنا نعمت بالنجاة.

«**ضحكتُ من رؤية أن الحيَل يمكن أحيانًا أن تخيب**»[4].

20. حين قاد إيميليوس باولوس حملته الظافرة على مقدونيا، نصح أولًا شعب روما أن يمسك بلسانه عن الحديث عن أعماله خلال غيابه. فحرية الأحكام ضرر كبير للشؤون العظمى للأمة. وكل واحد منا ليس له

---

(1) فيلسوف كلبي مثله مثل ديوجينيس، عاش في القرن الأول.

(2)Cicéron (17), II, 15.

(3)Quintilien (84), I, 12.

(4)Ovide (68), I, 18.

حزم فابيوس*[1] الملقب بالمؤجّل إزاء الرأي الشعبي، الذي كان معاديًا بل شاتمًا له. فقد فضّل أن يترك شهرته طعمًا سائغًا لخيالات الناس، على أن يفرّط في القيام بمهمته طمعًا في سمعة طيبة، وفي القَبول الشعبي له. ثمّة ما لا أدري من النعومة الطبيعية في أن يحس المرء بنفسه موضوعًا للمديح الشعبي، غير أننا نمنح ذلك المديح أهمية مفرطة.

«أنا لا أهاب المدائح، ولست غير حساس بها
لكن ما أرفض، هو الهدف النهائي لسلوك حسن
أيْ «لك تهانينا. جيد جدًا»[2].

21. وإني لا أهتم بما أنا عليه لدى الآخرين أكثر من اهتمامي بما أنا عليه لدى نفسي. أريد أن أكون غنيًا بعملي، لا بما أَدين به للآخرين. الآخرون لا يروْن الأحداث والمظاهر إلا من الخارج، وكل واحد منا يمكنه أن يُبدي عن مظهر حسن في خارجه، فيما هو في باطنه مليء بالحمى والرّوْع. هم لا يرون قلبي؛ إنهم لا يرون غير مواقفي. وهم محقّون في نقد نفاق الحرب: فهل هناك ما هو أسهل وأيْسر لرجل داهية من أن يُفلت من الخطر ويتظاهر بالشرّ فيما أن قلبه مليء بالرخاوة؟ ثمة العديد من الطرق لكي نتجنّب شخصيًا المخاطرة، بحيث لا نواجه في الأخير خطرًا إلا بعد أن نخدع مئات المرات عالمنا المحيط. وحتى حين نكون متورّطين فيه فإننا نعرف كيف نُخفي لعبتنا هذه المرة، فنُبديَ عن وجه بشوش، ونتحدث بصوت واثق رغم أننا نرتعد في بواطن أنفسنا. وإذا ما كان لنا طاقية الإخفاء، التي تُخفي كل من يضعها فوق رأسه فسنرى أن ثمة أناسًا كثيرين يتوارون حيثما يلزم الظهور، ويندمون على وجودهم في مكان شريف، فيما أنهم بحكم الضرورة يُبيّنون ثقة كبرى في أنفسهم،

«مَنْ غير الخدّاع والكذّاب يكون حسّاسًا
للمديح الزائف ويخشى تشويه سمعته؟»[3].

لهذا السبب فإن كافة هذه الأحكام التي تقوم على المظاهر الخارجية

(1) * كوينتوس فابيوس ماكسيموس (280 ق.م تقريبًا – 203 ق.م) قائد عسكري روماني، لُقّب بالمؤجل؛ نظرًا لنهجه في التخطيط العسكري خلال الحرب البونيقية الثانية.

(2)Perse (70), I, 47.

(3)Horace (35), I, 16, v v. 39-40.

مشبوهة وغير موثوق بها بشكل كبير. فلا وجود لشاهد أكثر وثوقًا من أن يكون كل امرئ شاهدًا على نفسه.

22. وحين يكون المجد مُستحقًا، كمْ من خدم لنا يكونون مشاركين فيه؟ فمن يبقى رابط الجأش في خندق مكشوف، ما الذي يفعل غير ما يقوم به أمامه الجنود الكشّافة، الذين يؤمّنون له الطريق ويحمون فرقتهم، مُقابل نزْر يسير من المال في اليوم.

«ارفضْ أحكام روما المشاغبة
لا تسْعَ إلى إصلاح ميزانها الظالم
ولا تبحثْ عن نفسك في غير نفسك»[1].

23. إن ما نسميه رفْعة أسمائنا يتمثل في توسيع رقعته ونشره في أفواهٍ عديدة؛ فنحن نريد أن يُستقبل بشكل جيد، وأن يكون تزايد العارفين به نافعًا، وذلك ما يمكن أن يكون مقبولًا في هذا الهدف. بيْد أن الإفراط في هذا المرض يسير إلى حدّ أن البعض يسعوْن إلى جعل الناس يتحدثون عنهم بأي طريقة كانت. يقول بومبيوس تروجوس[2] عن هيروستراتوس[3]، وتيتوس ليفيوس عن مانليوس كابيتولينوس*[4]، إنهما كانا يفضلان أن تكون لهما سمعة تطبق الآفاق على أن تكون لهما سمعة طيبة. وذلك عيب من العيوب العادية. فنحن أكثر اهتمامًا بمعرفة إن كان الناس يتحدثون عنا، منه بالطريقة التي يتحدثون بها عنا، ويكفينا أن نعرف أن أسماءنا على كل الأفواه، مهما كانت الطريقة التي يُلاك بها. يبدو أن الشهرة تعني طريقة لوضع المرء لحياته ومدَّتها بين أيدي الآخرين. وفيما يخصّني، فإنيلا أعتبرُني إلا بين يديَّ، أما الوجه الآخر لحياتي الذي يوجد في المعرفة التي لأصدقائي عني، وحين نتأملها عارية وببساطة في ذاتها، فأنا أعرف أني لا أحس بمتعتها وفائدتها

(1)Perse (70), I, 5.

(2) مؤرخ عاش في فترة الإمبراطور أغسطس، ولد في بلاد الغال.

(3) من مدينة إفسوس صار مشهورًا بإحراق معبد آرتيميس بها. واعتُقل وأُعْدِم، ومُنع الناس من النطق باسمه تحت طائلة الإعدام.

(4) كان قنصلاً حين احتل الغاليون روما عام 392 ق.م، واستطاع أن ينقذ الكابيتولينوس من الدمار. لكن دفاعه عن الشعب جعل الأرستقراطية تمقته، فرُمي من صخرة «تاربيا» قرب الكابيتولينوس (معبد يوبيتير) بروما.

إلا بغرور الفكرة التي أكوّنها عنها. وحين سأغادر الحياة، فإن هذه الفكرة لن تهمني أبدًا، وسأفقد مرة واحدة الاستعمال الحسن للمزايا والفضائل الحقة، التي تكون مشتقَّة منها أحيانًا: فلن يكون لي مكان أمسك منه بسُمعتي، ولا هي من مكان يمكنها به أن تمسّني أو تبلغني.

اسم «مونتيني»

24. هل عليَّ أن أتوقع أن يكون لاسمي في يوم ما مجدٌ ما؟ أنا أوَّلًا ليس لي اسم هو اسمي حقًّا، فمن الاسمين اللذين أحمل، أحدهما مشترك بين كل أفراد سلالتي، بل مع أناس آخرين. فثمة في باريس ومونبولييه عائلة تسمى «مونتيني»؛ وثمة أخرى في بريتاني؛ وفي سانتونج نجد عائلات تسمى «دو لا مونتيني». فتغيير أو إضافة حرف واحد من الاسم سيمزج بين مصائرنا، بحيث يمكنني أن أشارك في مجدهم وهم ربما في عاري. بل إن أفراد عائلتي كانوا يحملون فيما مضى اسم «إيكيم»، وهو اسم بيت من البيوتات المعروفة في إنجلترا. أما اسمي الآخر، فهو ينتمي لأي شخص يرغب في أن يتخذ له منه اسمًا. وهكذا فإن لصًّا قد يتم تكْريمه في مكاني. وحين ستكون لي سمة معروفة تكون لي وحدي، ما الذي ستُعيّنُه حين لن أكون على قيد الحياة؟ فهل يمكنها أن تعيِّن العدَم وتمنح له قيمة؟

«إذا كان اللاحقون عليَّ يمتدحونني، هل ستكون شاهدة قبري
أقل ثقلًا على عظامي؟
وهل من مَنيّ، ومن رُبوتي، ومن رمادي المحظوظ
ستلبثق زهور البنفسج؟»[1].

لكن كلّ هذا قد تناولته بالحديث في مكان آخر[2].

---

(1)Perse (70), I, 37.

(2) في «المقالات»، الكتاب الأول، الفقرة 46، «عن الأسماء».

25. علاوة على ذلك، ففي معركة حيث الألوف من الجنود تُبتر أعضاؤهم أو يَهلكون، لن يتم الحديث بعدها إلا عن خمسة عشر شخصًا. فلكي يأخذ عمل فرْدي قيمته، لا فقط عمل جندي وإنما أيضًا عمل قائد، يلزم أن ترتبط به بفعل الصدفة عظمة بالغة السموّ أو نتيجة بالغة الأهمية. وفي الحقيقة، أن يقتل المرء رجلًا أو رجليْن أو عشرة، ويواجه الموت ببسالة، إذا كان ذلك يهمنا لأن الأمر يتعلق بنا، فهو لدى باقي الناس أمور عادية. فهم يرون ذلك يوميًا، وينبغي الكثير لكي يُنتج ذلك أثرًا واضحًا، بحيث لا يمكننا أن ننتظر منه سمعة أو شهرة خاصة.

«إنه أمر عادي يحدث للكثيرين من بيننا
ولا يخرج عن الأحداث، التي لا تُحصى التي تنجم عن الصدفة»[1].

26. من بين العديد من الآلاف من الناس الذي توفوا منذ خمس عشرة سنة في فرنسا والسلاح بأيديهم، لا نعرف أكثر من مئة شخص. فما يتم دفنه ليس فقط ذاكرة القادة، وإنما أيضًا ذاكرة المعارك والانتصارات. ولقد ظلت مصائر نصف العالم على حالها، وتبدّدت من غير أن تصل إلى التمدّد في الزمن بسبب غياب سجلات لتقْييدها فيها. ولو كانت الأحداث المجهولة بحوزتي، فإنها ستأخذ بسهولة، وفي كل الأحوال، مكان الأحداث المعروفة. كيف يمكن إذًا أنَّ منبين العديد من المآثر المجيدة والنادرة، القليل منها فقط يبلغنا، لدى الرومان أنفسهم، حتى لا نتحدث عن اليونانيين، مع وجود العديد من الكتاب والشاهدين عليها؟

«بالكاد ريح خفيفة تحمل شهرتهم إلينا»[2].

سيكون أمرًا حسنا أننا بعد مئة سنة سوف نتذكر إجمالًا أن فرنسا قد عاشت الحرب الأهلية!

27. **كان الإسبرطيون** يقدمون القرابين لآلهة الشِعْر قبل أن يشرعوا في **المعارك**، حتى يضمنوا أن يُكتب عنهم بطريقة تليق بهم. فلقد كانوا

(1)Juvénal (42), XIII, 9.
(2)Virgile (112), VII, 646.

يعتبرون أن من الأفضال الإلهية النادرة، أن يكون للأعمال الجليلة شهودٌ قادرون على منحها الحياة، وضمان الخلود لها. هل نعتقد أننا في أي طلقة بندقية نتلقاها، وكل خطر نواجه، يكون ثمة كَتَبة ليسجلوا ذلك؟ ولو أن مئة كاتب سجلوا ذلك، فإن المعلقين عليه لن يدوموا أكثر من ثلاثة أيام، ولا أحد سيصله خبرنا. نحن لا نملك حتى الجزء الألف من كتابات القدماء؛ فالصدفة هي التي تمنح لها الحياة، وهي حياة طويلة أو قصيرة حسب الفضل الذي يمنحه لها. وما نملك منها يمكّننا عن حق أن نتساءل إن كان ذلك هو الحصة غير الجيّدة، بما أننا لا نعلم شيئًا عن الباقي. إننا لا نؤلف كتب التاريخ بأمور وأحداث تافهة، فلكي يتمّ ذلك، على المرء أن يكون مشيّد إمبراطورية أو مملكة، وأن يكون قد ربح اثنين وخمسين معركة نظامية، من قَبيل يوليوس قيصر. فلقد مات عشرة آلاف من رفاقه في السلاح والعديد من القادة العسكريين الكبار، ببسالة ورباطة جأش، ولم تدم أسماؤهم أكثر مما عاشت نساؤهم وأبناؤهم.

«هم الذين غلّفهم النسيان بظلامه»[1].

28. ولا أحد يتحدث عن أولئك الذين رأيناهم يُبدون بسالةً نادرة، والذين لقوْا حتفهم، ثلاثة أشهر بعد ذلك، كما لو أنهم لم يوجدوا أبدًا. ومن يتفحّص بدقة، وبكامل الإنصاف من هم الناس وما هي الأحداث التي تُنقل في ذاكرة الكتب، سيجد أن في قرننا هذا ثمة القليل النادر من الأعمال والقليل الأندر من الأشخاص، الذين يمكن أن يتطلّعوا إلى ذلك. كم رأينا من أناس ذَوي شهامة وبسالة يموتون بعد شُهرتهم، والذين كان عليهم أن يتحمّلوا أمام أعينهم انطفاء الشرف والمجد، الذي نالوه منذ أيام شبابهم !وهل لنا أن نفقد حياتنا الحقّة وحياتنا الجوهرية من أجل ثلاث سنوات من هذه الحياة الزائلة والخيالية، ونندرج في موت أبدي؟ والحكماء يحدّدون أجمل الغايات وأعدلها للأعمال المهمة كهذه.

«جزاء عمل خيّر أن يقوم به المرء»[2].

«ونتيجة واجب ما، هو الواجب نفسه»[3].

(1)Virgile (112), V, v. 302.

(2)Sénèque (96), LXXXI.

(3) Cicéron (17), II, xii.

29. قد نجد العذْر لرسام أو صانع، أو أيضًا لبلاغيّ أو نحْوي، إنْ هو سعى إلى اكتساب الشهرة بمؤلفاته. بيْد أن الأعمال الفاضلة شريفة جدًا بذاتها بحيث لا يمكنها أن تسعى لقيمة سوى قيمتها ذاتها، وبحيث لا يمكنها أن تسعى لهذه القيمة في غرور حكْم بني البشر. هذا الموقف يمكنه مع ذلك أن يكون مفيدًا للمجتمع ليحصر الناس في حدود واجبهم، طبعًا إذا كان ذلك الواجب يقود الشعب نحو الفضيلة، وإذا كان الأمراء يروْن العالم كله يكرِّم ذكرى الإمبراطور الروماني ترايانوس*[1] ويلعنون ذكرى الإمبراطور نيرون، وإذا كانوا يندهشون لرؤية اسم هذا الإمبراطور النذل، الذي كان مُرعبًا ويُهاب جانبه، وصار محطًّا للعن والشتيمة من أول تلميذ يهتم بحياته، في الوقت الذي تنتشر فيه الفضيلة، وتنمو بين ظهْرانينا وبأكثر ما نستطيع ذلك.

30. كان أفلاطون الذي بذل قُصارى جَهده ليجعل من مواطني «جمهوريته» أناسًا فاضلين، ينصحهم أيضًا ألا يمقُتوا السمعة الطيبة والتقدير الشعبي لهم. وقال أيضًا: إن الأشرار أنفسهم يعرفون غالبًا، بوحي من الله، أن يميّزوا بشكل حق الأخيار عن الأشرار في الأفكار كما في الكلام. فهذا المؤلف وأستاذه[2] معه، هما فاعلان رائعان وجريئان يقومان بإدخال الأعمال الإلهية والوحي الرباني في أي مكان تخلو منه القدرة البشرية. وكان طيمون الفليوسي يشتم أفلاطون مسمّيًا إياه «الصانع الكبير للمعجزات». «مثل الشعراء الذين يلجؤون إلى إله من آلهتهم حين لا يعرفون كيف يجدون مخرجًا لحبْكتهم»[3].

31. ما دام الناس غير قادرين على أن ينفحوا الأجر بالنقود الجارية، فليستعملوا أيضًا النقود المزيّفة. وهذه الوسيلة استعملها كل المشرِّعين، وليس ثمة من مجتمع لا نجد فيه بعض الغرور الاحتفالي أو الرأي الكاذب، الذي يصلح لِجامًا للحفاظ على الشعب في ممارسة واجبه. لهذا عديدون هم الذين لهم أصول خرافية تغتني بالألغاز

(1) * هو الإمبراطور ترايانوس المعروف باسم تراجان (53 م – 117 م).

(2) سقراط.

(3)Cicéron (18), I, 20.

الخارقة. وهذا هو ما منح صِدْقية للديانات اللقيطة وجعلها تحظى بتفضيل الناس الأذكياء؛ ولهذا فإن نوما[1] وسيرتوريوس[2]، ولكي يعزّزا إيمان الناس، كانا يجعلانهم يعتقدون في هذه الترهّة: أن أحدهما يستخدم الحورية «إيجيريا» والآخر غزالة بيضاء، كي تحملا لهما من الآلهة كافة القرارات التي يتّخذانها.

32. والسلطة التي منحها نوما لقوانينه واضعًا إياها تحت سيادة هذه الإلهة[3]، منحها زرادشت مشرّع الباختريين*[4] والفرس لآلهته في شكل الإله أهورامزدا. مثلث العظمة لدى المصريين القدماء كان يستدعي ميركوريوس؛ وزالموكسيس لدى السكوثيين كان يستدعي فيستا؛ وخاروندااس لدى الخالكيديين*[5] يستدعي ساتورنوس؛ وليكورغوس لدى الإسبرطيين يستدعي أبولّون؛ ودراكون*[6] وسولون لدى الأثينيين يستدعيان مينيرفا. كل مجتمع له إله على رأسه، إنه إله مزيف إلا من ألّهه موسى لليهود عند خروجهم من مصر.

33. كانت ديانة البذْو، كما يقول السير دو جْوانفيل، تفترض، من بين ما تفترض، أن نفْس الشخص الذي يموت من أجل مبدئه يروح للالتحاق بجسم آخر أسعد وأجمل وأقوى من الأول؛ وبهذا الشكل كانوا يخاطرون كثيرًا وعن طواعية بحياتهم=

«هؤلاء المحاربون يتحدّون السيوف، وشجاعتهم تعانق الموت ومن الجبن التعامل بلطف مع حياة يلزم أن تُبعث من جديد»[7].

=وذلكمْ لعمْري مُعتقد مصيري، مهما كانت سذاجته. ولكل أمة العديد

(1) نوما بومبيليوس (714-767)، كان ثاني ملك لروما. وحسب بلوتارخوس كان للشرع والنظم للمدينة.

(2) سيرتوريوس هو جنرال روماني مات بإسبانيا عام 73 ق.م. كان متحزبًا لماريوس ودخل في العصيان على بومبيوس. وتزعم الخرافة أنه كان يسير وبصحبته غزالة بيضاء كان يتواصل بواسطتها مع الآلهة حسب بلوتارخوس.

(3) لا يوضح مونتيني أي إلهة، قد يتعلق الأمر بتلك التي يتحدث عنها بلوتارخوس بتسميتها «تاسيتا».

(4) * هم سكان منطقة باختريا القديمة (بلخ الآن في أفغانستان) وكانت هذه المنطقة من أولى بؤر انتشار الزرادشتية في العالم القديم.

(5) * سكان مدينة خالكيدا اليونانية (خالكيذا حسب النطق اليوناني الحديث).

(6) * مشرّع أثيني عاش في القرن السابع قبل الميلاد تقريبًا.

(7)Lucain (46), I, v. 461.

من الأمثلة من قبيل ذلك؛ لكن هذا الموضوع يستحق تناولًا خاصًا.

34. ولأقول كلمة عن موضوعي الأول: فأنا لا أنصح النساء النبيلات أن يسمّين واجبهن«شرفًا» **«ما دمنا لا نطلق في اللغة الدارجة نعت «شريف» إلا على ما يحقق المَجد للشعب»**. فواجبهن هو الأمر الأساس، وشرفهن ليس غير القشرة. كما لا أنصحهن أن يقدّمن لنا هذا العذر، كي يبرِّرن رفضهن؛ ذلك أنني أفترض جيدًا أن مقاصدهن ورغبتهن وإرادتهن، وهي أمور لا علاقة لها بالشرف لأنها لا تبدي شيئًا منها في الخارج، خاضعة للتنظيم أكثر من أعمالهن.

> **«إنها ترْغب، تلك التي تتمنّع. فقط لأن من المحظور عليها أن تقبل»**[1].

35. سيكون الإثم أمام الله وضميرهن، أن يحسسْن بالرغبة، أكثر من أن ينصعن لها. إنها أعمال بذاتها خفية وسرية؛ وسيكون من السهولة بمكان عليهن إخفاء بعضها على معرفة الغير، التي عليها يقوم الشرف، لو لم يكن لهن من احترام لواجبهن، ومحبة للعفة في ذاتها. فكل شخص شريف، يختار أن يفقد شرفه، على أن يفقد ضميره.

(1)Ovide (66), III, 4, v. 4.

الفصل السابع عشر

في الادّعاء

1. ثمّة نوع آخر من المجْد يتمثّل في الرأي الإيجابي الكبير الذي نبلوره عن قيمتنا. إنها عاطفة مبالغ فيها نحملها عن أنفسنا وتكون وراء التصور المختلف الذي يكون لنا عن ذاتنا ويكون من ثمَّ مخالفًا لما نحن عليه واقعيًا. وقلِ الشيء نفسه عن العشق، الذي يمنح حسنًا وجمالًا وبهاءً للشخص الذي يكون موضوع العشق، مما يجعل العاشقين يرون موضوع عشقهم مختلفًا وأكثر كمالًا مما هو عليه، لأن حكمهم عرف التغيُّر. وأنا لا أريد للناس أن تهمل معرفة نفسها وأن تعتقد أنها أدنى مرتبة ممّا هي عليه؛ خوفًا من السقوط في هذا المطبّ. فالحكم العقلي عليه أن يحافظ دومًا على صلاحياته، إذ عليه أن يرى في هذه النقطة كما في غيرها ما تقدّمه له الحقيقة. لو تعلّق الأمر بيوليوس قيصر، له أن يعتبر نفسه كأكبر قائد وأعظَمه عرفه العالم. نحن لسنا سوى مركَّب من المواضعات تتحكّم فينا، بحيث فيها ننسى الماهية الحقّة للأشياء؛ وإننا نتعلق بالأفنان من غير أن نهتم بالجذع. لقد علّمنا نساءنا أن تتضرّج وجوههن بالحمرة حينما يسمعن فقط ما لا يخشين فعله؛ ونحن لا نجسرُ على تسمية أطرافنا بأسمائها، ومع ذلك فنحن لا نخشى استخدامها في كل أنواع الفجور. تمنعنا المواضعات من أن نعبر بالكلمات عن الأشياء الحلال والطبيعية، ونحن نتّبعها في ذلك. والعقل يمنعنا من القيام بأشياء شريرة وحرام، لكن الناس كلهم لا يعيرون اهتمامًا لذلك. وهَأنا متورط في قواعد اللياقة والأدب؛ لأنها لا تسمح بأن يتحدث المرء عن نفسه، لا بالخير ولا بالسوء. لنتركْها جانبًا هذه المرة.

2. أولئك الذين قادتهم الصدفة -سواء السعيدة أو التعيسة- إلى صرْف حياتهم في منصب سامٍ ما، يمكنهم أن يبرهنوا بأعمالهم العمومية على أيّ صنف من الرجال هم. لكن مَن تركهم قدرهم من بين العامّة بحيث لن يتحدث عنهم أحد، إذا لم يتحدثوا هم بأنفسهم عن أنفسهم، هم معذورون إذا جُرِّؤوا على الحديث عن أنفسهم لمن لهم المصلحة الكبرى في معرفتهم كما كان حال لوكيليوس.

«كان يُسِرُّ بكل أسراره لكتاباته كما لأصدقائه
سواء كان سعيدًا أو تعيسًا، لم يكن يبحث أبدًا
عن حافظ أسرار آخر. وهكذا نرى حياته كلها موصوفة

كما في لوحة ستكون
منذورة للآلهة»[1].

كان لوكيليوس يُسرّ للورق بأعماله وأفكاره؛ وكان يرسم فيه نفسه كما يرى نفسه حقًا. وروتيليوس وسكاوروس تمَّ تصديقهم وتقديرهم مقدار ما قُدّر لوكيليوس.

3. وأنا أتذكّر أني منذ نعومة أظفاري، لاحظ أهلي فيَّ ضربًا من السلوك والحركات، التي تفصح عن كبرياء نافلة وغبية. سأقول: أولًا إن ليس أمرًا سيئًا أن يكون لنا ميول أو تصرفات شخصية ومندمجة فينا، بحيث لا نحسها ولا يمكننا التعرّف عليها. يحافظ الجسد على بعض ثنايا هذه الميول الطبيعية، من غير أن يكون لنا وعي بها، أو موافقة عليها. كان الإسكندر الأكبر كما ألكيبياديس يشعران جيدًا بجمالهما، ولذلك كان الإسكندر يميل برأسه عنوة إلى الجانب، فيما تبنى ألكيبياديس صوتًا رخيمًا لاثغًا بالراء. وكان يوليوس قيصر يحك رأسه بالإصبع، وهو سلوك رجل غارق في أفكار أليمة. وكان شيشرون يحكّ أنفه، وهو ما يفصح عن طبْع ساخر. ولحظات من قَبيل هذه يمكن أن تظهر علينا من غير علمنا. وثمة حركات مصطنعة لن أتحدّث عنها، كالتحايا والانحناء تبجيلًا لشخص، التي نسعى من خلالها إلى أن نمنح أنفسنا، غالبًا عن خطأ، شرف أن نكون متواضعين ومؤدّبين. وفعلًا، يمكننا أن نكون متواضعين كي نستمد من ذلك بعض المجد.

4. أنا مسْرف بعض الشيء في التحية بالقبعة، خاصةً في الصيف، ولا أتلقاها أبدًا من غير أن أردّ عليها، مهما كانت مزّية الشخص، إلا إذا كان في خدمتي. وأنا أتمنى أن يمارسها بعض الأمراء من معارفي باقتصاد، وأن يقوموا بها عن وعي أكبر، فهذه التحايا حين تُوزَّع على عواهنها تفقد قيمتها. وفي مجال التصرفات المبالغ فيها، علينا ألا ننسى كبرياء الإمبراطور قنسطنطينوس، الذي كان أمام الملأ يحافظ دائمًا على رأسه مرفوعًا، من غير أن يستدير أو ينحني هنا أو هناك، بل حتى من غير أن ينظر إلى من كانوا يحيّونه. كان يحافظ على جسده جامدًا من

(1)Horace (34), II, v v. 30-34.

غير أن يتابع به حركة عربته، ومن غير أن يجرؤ على البصق أو التمخّط أو أن يمسح وجهه أمام الناس. لا أدري إن كانت تلك الحركات التي لوحظت لديَّ، نابعة من طبيعتي العميقة، وإن كان لي نزوع سري لهذه الرذيلة؛ وهو أمر ممكن، لأني لا يمكن أن أتحمل مسؤولية حركات جسدي. لكن عن حركات النفس، سأقول هنا ما أحس به تجاهها.

5. ثمة جانبان في هذا الموقف المدّعي، أعني: أن يقدّر الإنسان نفسه أكثر من اللازم، وألا يقدّر الآخرين بما يكفي. فعنِ الجانب الأول، يبدو لي أولًا أن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما يلي: أنا خاضع لتأثير عيب في عقلي يحرجني، لأني أعتبره غير عادلٍ وأكثر من ذلك مُضجرًا. وأنا أحاول أن أصلحه، غير أني لا أستطيع اجتثاثه. فهو يقودني إلى تبْخيس الأشياء التي أملك، والتقدير المفرط لتلك التي لا أملك، أو تكون غريبة عني أو غائبة. وهذه الحالة تمتد إلى أبعد من ذلك. فكما أن الأزواج ينظرون لزوجاتهم بمقت ظالم؛ لأن لهم سلطة عليهن، أو أن بعض الآباء يقومون بالشيء نفسه مع أبنائهم، ذلك ما أقوم به أنا أيضًا، إذ بين شيئين متشابهيْن، سأمنح أهمية أكبر للآخر لا للذي لي. ولا يعود ذلك إلى أن حماسي للتقدّم والتحسُّن يربك حكمي ويمنعني من أكون راضيًا عن نفسي، وإنما إلى أن كون الامتلاك نفسه يولّد الاشمئزاز حيال ما نملك. مجتمعات وعوائد وألسن البلدان البعيدة تعجبني، وأنا أدرك أن اللغة اللاتينية بنبلها تستجذبني أكثر مما يجب، مثلما تستجذب الأطفال وأبناء الشعب. ثم إن التدبير المنزلي لصديقي وبيته وجواده، الذي يشابه قيمة ما لديّ، له قيمة أكبر من تدبيري وبيتي وجوادي لأنه ليس لي؛ خاصةً أني لست دومًا على علم بشؤوني الخاصة. وأنا معجب بالثقة واليقين اللذيْن يُبديهما أيُّ واحد في نفسه، في حين-حسب علمي- لا شيء تقريبًا[1] أُتقن معرفته، ولا شيء يمكنني أن أدّعي إتقان فعله. ليس لي جرْد مسبق بمواردي، ولا أعلم ذلك إلا بعد أن يتمَّ الأمر. وأنا أشك في نفسي كما في كل شيء. وهو ما ينجم عنه أنني حين أنجح في تدبير مسألة ما، أنسب ذلك النجاح للمصادفة أكثر منه لعملي، خاصةً وأنني أقوم بكل ما أنجز ببعض الارتجال وبقلق. كما أن من بين كافة الآراء التي بلورها ما قبل التاريخ عن الإنسان عمومًا، تلك التي أميل إليها والتي أتبناها عن طيب خاطر، والتي

(1) يمكننا أن نذكّر هنا أن شعار مونتيني كان هو: «ما الذي أعلم؟».

أرتبط بها كثيرًا، هي تلك التي تمقتنا وتحتقرنا وتُعدمنا أكثر.

6. لا تبدو لي الفلسفة في وضعية مريحة إلا حين تحارب فينا ادعاءنا وغرورنا، وحين تعترف بحسن نيّة عن تردُّدها وضعفها وجهْلها. ويبدو لي أن المصْدر المغذي للآراء الأكثر خطأً، سواء كانت عمومية أو خاصة، هو الرأي الحسن جدًا الذي للإنسان عن نفسه. وأولئك الناس الذين يحطون رجلًا هنا وأخرى هناك على فلك دائرة عُطارد[1] وينظرون بعيدًا في السماء يجعلونني أكزّ على أسناني. وما دمتُ ألاقي في الدراسة التي أقوم بها والتي يشكّل موضوعها الإنسان، الكثير من التنوّع في الأحكام، ومتاهة بالغة الغوْر من المعضلات المتراكمة بعضها على البعض الآخر، والكثير الجمّ من عدم اليقين في الفلسفة نفسها، فكيف لي أن أصدق أولئك الناس الذين لم يستطيعوا أن يسيروا بمعرفتهم لأنفسهم إلى النهاية، ولا أن يعرفوا شرطهم الذي يظل مع ذلك باديًا أمام أعينهم، والذين لا يعرفون كيف يتحرك ما هم يقومون بتحريكه، والذين لا يعرفون وصف ولا تفسير المصائر التي يتحكمون فيها بأنفسهم، كيف يمكنني أن أصدقهم في موضوع فيضانات النيل؟ فالفضول الذي يدفعهم إلى معرفة الأشياء، هو عبء مُنح لبني البشر، كما تقول الكتابات المقدسة.

7. لكن حتى أعود إلى حالي الشخصي، يبدو لي أن من الصعب أن يكون ثمة شخص آخر يقدّر نفسَه التقدير الضعيف الذي أكنُّه لنفسي، بل ليس ثمة من شخص آخر يمكنه أن يقدّرني تقديرًا أضعف من تقديري لنفسي. أنا أعتبر نفسي شخصًا عاديًا، لكن أيضًا حاملًا للعيوب الأكثر انحطاطًا والأكثر فظاظة، والتي لا أتوسَّل لها العذر ولا أنكرها. وأنا لا أقدّر نفسي أكثر مما أعرف من قيمة لي. إذا ما كان فيّ بعض الادعاء، فهو ادعاء سطحي ومبثوث فيّ بفعل مزاجي الذي يخونني. إنه لا يملك فعلًا هيئة يمكنه أن يجذّر حكمي. فهو يرشني من غير أن يصبغني بصبغه.

8. وإنّي في الحقيقة، وبخصوص نشاط العقل، لم أنتج أبدًا ما يرضيني في أي

(1) كانت نظرية أفلاك التدوير لدى بطليموس تستدعي «دوائر صغيرة» تتحرك في دوائر كبرى كي تصف الخلل الممكن في حركات الأفلاك.

شيء كان، إذ أنا لا أكتفي بقَبول الآخرين. فأنا لدي ذوق دقيق وصعب، خاصةً إزاء ذاتي. أحس بنفسي أطفو وأكبو من الضعف. ليس لي ما يأتيني من نفسي ويستطيع إرضاء حكمي. لي نظر لا يخلو من الوضوح والصحة، لكنه يضطرب حين أستعمله. وأنا أجرب ذلك خاصةً في الشعر، إذ إني أحبه إلى درجة لا توصف، وأنا أحكم جيدًا على أشعار الآخرين، لكني لست سوى صبيّ حين أرغب في نظْمه، بحيث لا أستطيع تحمّل ما أكتب. يمكننا أن نتفوَّه بالترّهات في أي مجال آخر، إلا في الشعر.

«كل شيء يحرِّم على الشعراء أن يكونوا رديئين
الآلهة والبشر والأعمدة التي تُنقش عليها أشعارهم»[1].

والحمد لله أن هذه العبارة توجد في واجهة كافة حوانيت مطابعنا، كي تمنع دخولها على المتُشاعرين.

9. لم يمنح لنا التاريخ شعوبًا من مثيل تلك الشعوب!كان ديونيسيوس الكبير لا يقدّر شيئًا آخر غير أشعاره. وفي وقت الألعاب الأولمبية، حيث كانت عربات سباق تسبق الأخرى كلها بأبّهة -أرسل أيضًا شعراء وموسيقيين لكي يُنشدوا أشعاره، تحت خيام موشّاة بالذهب ومزينة بشكل ملكي بالزرابي. وحين بدأ المنشدون يلقون قصائده، كانت الجمْهرة في الأول منجذبة لها بجمال الإنشاد. بيد أنها حين أدركت سخافة الأشعار، أحست بالازدراء، ثم إن حكمها مال إلى المرارة، وانتهت الحشود إلى الهياج مليئة بالأسى، وهرعت إلى الخيام والأجنحة ومزّقتها تمزيقًا عن كاملها. وبما أن عربات خيله نفسها لم تحقق أي نجاح في السباق، وأن السفينة التي كانت تنقل أهله وحاشيته زاغت عن صقلّية، ودفعتها العاصفة لتنكسر على شاطئ تارانتو*[2]، اعتُبر أن كل ذلك كان ناجمًا عن غضب الآلهة عليه بسبب قصيدته الرديئة. والبحّارة الذين نجوا من الغرق، لم يكونوا هم أنفسهم يفعلون سوى أن يصبوا في اتجاه رأي الشعب. وهذه الفكرة هي التي يبدو أنها أكدت النبوءة بموته. فهذه النبوءة قالت: إن ديونيسيوس سيكون قريبًا من نهايته حين سيهزم من هم أكثر قيمة منه، وهو ما تأوّله بأنهم القرطاجنّيون، الذين كانت قوتهم

(1)Horace (33), 372.

(2) * مدينة تقع في الجزء الشرقي من جنوبي إيطاليا.

تفوق قوّته. وحين كان يحتك بهم، كان يعمل دومًا على ألا يحقق الانتصار، أو يجعله انتصارًا معتدلًا حتى لا يرى تلك النبوءة تتحقق. غير أنه كان يتأول الأمر على عكس ما يلزم، فالإله كان يعلن من خلال ذلك اللحظة التي يحقق فيها الفوز في أثينا، حظوةً وظلمًا، على الشعراء التراجيديين، الذين كانوا أفضل منه، حين تم تمثيل مسرحية المعنونة بـ«اللينايين»*[1]، خلال مسابقة من المسابقات. وتوًّا بعد الحصول على الفوز، كان موته، بل كان ذلك جزئيًا بسبب الفرحة المفرطة التي أحس بها.

10. وما أعتبره قابلًا للعذر فيَّ، هو أمر ليس في ذاته وليس كذلك فعلًا، وإنما هو قابل للعذر بالمقارنة مع أشياء أخرى أشدُّ سوءًا، أرى أنها تحظى بالاهتمام. فأنا أغبط سعادة من يعرفون كيف يسعَدون بما يفعلون، ويجدون فيه جزاءً لهم، وهي طريقة ملائمة لتمتيع النفس، بما أنها متعة نستقيها من ذاتنا. وإني لأغبط بالأخص الذين يزرعون الصرامة في حزْمهم. وأنا أعرف شاعرًا يصرخ كل شيء في وجهه بأنه ليس شاعرًا في مجاله، الأقوياء والضعفاء، العامة والمقرّبون، والسماء والأرض. ومع ذلك لم يتخلَّ قيد أُنْمُلة عن الموقف الذي اتخذه لنفسه، بحيث إنه يعيد الكرَّةَ، ويفكرّ باستمرار، ويستمر بعناد في مشواره، متجذرًا أكثر في رأيه بحيث لا يرتهن إلا بنفسه وحده في التشبث بما هو عليه. أما أعمالي أنا فعلها فعل الكثير كي تعجبني، ففي كل مرة أتفحّصها من جديد تصيبني الخيبة منها، وتتركني أسِيًّا.

> **«حين أعيد قراءة ذلك أخجل من كوني كتبته، بسبب ما أرى**
> **فيه من أشياء**
> **تستحق المحْو حتى لدى صاحبها»[2].**

11. لديَّ دائمًا فكرة في الذهن تمنحني شكلًا أفضل من ذلك الذي كتبت، غير أني لا أتمكن من الإمساك بها ولا استغلالها. ومن ذلك أستخلص الاقتناع بأن ما أنتجته النفوس الرائعة والغنية في الزمن الماضي توجد فيما وراء حدود خيالي وتطلعاتي. فكتاباتهم لا تقوم إلا بإرضائي

(1) * نسبةً لاحتفالات لينايا التي تقام للإله ديونيسوس في أثينا، التي كان يتبارى خلالها الكُتاب للسرحيون.

(2)Ovide (65), I, 5, v v. 15-16.

وإشباعي، فهي تستبد بإعجابي وتستجْذبه. وأنا أحكم على جمالها وأقف عليه كاملًا، أو على الأقل باعتباره أبْعد وأشدَّ استحالة على أن أبلغ مبْلغه. مهما فعلت، فإني كما يقول بلوتارخوس عن شخص ما، أدين بقربان للآلهة كي أحوز على فضْلها ونعمتها.

«ذلك أن كل ما يثير الإعجاب
ويفتن حواس الناس
نحن ندين به لآلهة الجمال»[1].

12. بيْد أن آلهة الجمال تخونني في كل لحظة، إذ كل شيء فظٌّ لدي، كل شيء يفتقد إلى الصقْل والجمال؛ فأنا لا أعرف كيف أمنح للأشياء القيمة التي تستحق، وتدخّلي لا يقدّم شيئًا للمادة التي يطرق. لهذا أرغب في أن تكون تلك الأشياء قوية، تمسك بتلابيب القارئ وأن تكون لامعة بذاتها. حين أستخدم موضوعات شعبية وأكثر مرحًا، فذلك لأتّبع مزاجيَ الخاص، أنا الذي لا يحب الحكمة الفخمة والحزينة، مثل كل الناس. وأنا أقوم بذلك لكي أمتّع نفسي، لا لكي أدخل المرح إلى أسلوبي، الذي يفضّل الموضوعات الصارمة والجدّية. هذا إذا سميّنا «الأسلوب» شكلًا من الكلام على عواهنه ومن غير قواعد، أي كلامًا شعبيًا وطريقة غير دقيقة في العمل، من غير تقسيم أو خلاصة، أي مضطربة على طريقة أمافانيوس و رابيريوس[2].

13. وإنّي لا أعرف استجذاب الإعجاب، ولا الإسعاد ولا الدغْدغة اللطيفة. فأفضل حكاية في التاريخ تذبل وتفقد لونها بين يديّ. أنا لا أعرف الحديث إلا بجدية، ومحروم من تلك السهولة التي ألاحظها لدى الكثيرين من صحْبي، في الحديث مع من يُلاقون، وذلك الإمساك بأنفاس جمْع كامل بكلامهم، أو تسلية أذن أمير بكافة أنواع الكلام من غير كَلَل. المادة لا تخونهم أبدًا، إذ أنهم يملكون موهبة استخدام أي مادة تطرُق ذهنهم، وتكييفها مع ذوق من يخاطبون وجعلها في متناولهم. الأمراء لا يحبون الموضوعات الجافة، ولا أنا

(1) صاحب هذه الأبيات يظل مجهولاً، وبعض الطبعات تشير إلى أن الأمر يتعلق ربما بشاعر مُحدَث.
(2) يتحدث شيشرون عن هاتين الشخصيتين في كتابه «أكاديميات»، [15]، 2 ،I.

أحب حكْي القصص[1]. والبراهين الأساسية والأسْهل، تلك التي يقبلها الناس أكثر، هي تلك التي لا أعرف استعمالها، فأنا خطيب واعظ رديء للعامة. وأنا أقول عن كل الموضوعات الأشياء الأهم التي أعرف عنها. يعتبر شيشرون أن الجزء الأصعب في الرسائل الفلسفية هي الاستهلال. وإذا ما كان ذلك صحيحًا، فالأجدى بي أن أهتم بالأحرى بخاتمتها.

14. يلزم على المرء أن يعرف جيدًا كيف ينقر على الوتر كي ينتج كافة أنواع الأصوات والنغمات، وأحدُّها هو ما لا يُستعمل كثيرًا. والأكثر فائدة أن يبلور المرء موضوعًا جدّيًا على أن يجمّل موضوعًا أجْوف. ومن اللازم عليه تارةً أن يعالج الأمور بسطحية، وتارةً أخرى أن يعمقها. أعرف جيدًا أن أغلب الناس يكتفون بالبقاء في المستوى الأول، لأنهم لا يتصورون الأشياء إلا من خلال قشرتها الأولى. لكني أعرف أيضًا أن المعلمين الكبار خاصة كسينوفون وأفلاطون، غالبًا ما ينساقون إلى هذه الطريقة العامية والشعبية في قول الأشياء، ويعثرون دومًا على الصيغ الرشيقة لتعزيزها.

15. زِيدِي على ذلك أن لغتي ليست بالسهلة ولا بالصقيلة، فهي بالأحرى خشنة ومتغطرسة، وحركاتها حرة ومن غير قواعد. وهي تروقني هكذا، لا من باب العقل وإنما من باب النزوع الطبيعي. ومع ذلك فأنا أحس أحيانًا أني أستسلم لها بشكل مبالَغ فيه، وأني من كثرة الرغبة في تفادي الجانب الفني والعاطفي فيها، أسقط فيه من جانب آخر.

«وأنا حين أسعى للإيجاز
يصير كلامي غامضًا»[2].

16. يقول أفلاطون: إن الإيجاز أو الإسهاب ليس خاصية تمنح القيمة لخطاب ما أو تنزعها منه.

ومع أني ظللت أبحث عن تبنّي أسلوب منسجم وموحّد ومنتظم، فأنا لا

---

(1)

(2)Horace (33), V, 25.

أستطيع بلوغ ذلك المرام. وبالرغم من أن إيقاع سالّوستيوس*[1] وجمله المنسجمة تناسب أفضل حالتي، فأنا أجد أن يوليوس قيصر أعظم وأصعب من أن يُحاكى. وإذا كانت ميولي تقودني أكثر إلى محاكاة لغة سينيكا، فأنا أكنّ الإعجاب نفسه للغة بلوتارخوس. فأنا أتبع منحاي الطبيعي في الأفعال كما في الأقوال. لهذا ربما أكون مرتاحًا أكثر في الكلام أكثر منه في الكتابة. الحركة والإيماءات تحرك الكلمات، خاصةً لدى أولئك الذين يتحركون بشكل مباغت كما هو حالي أنا، والذين يهتاجون وهم يتحدثون. إن غطاء الرأس والوجه والصوت واللباس والتصرفات يمكنها أن تمنح قيمةً لأشياء لا قيمة لها أصلا بذاتها، مثل تجاذب أطراف الحديث. كان السيناتور والكاتب الروماني ميسّالا كورفينوس، كما ذكر المؤرخ تاسيتوس، يشكو من اللباس الضيق والطريقة التي صُنعت بها مقاعد الخطباء، التي -حسبه- تؤثر سلبًا على فصاحتهم.

لهجة مونتيني

17. لغتي الفرنسية شائهة في نطقي بها كما في مجالات أخرى، بوحشية منطقتي. لم أر أي شخص من مناطقنا الجنوبية لا يُبيّن بوضوح لكنة معيّنة تجرح الآذان الفرنسية القُحَّة. ولا يعود ذلك لأنني خبير في اللهجة البيريغوردية، فأنا لا أتقنها أكثر من عدم إتقاني للغة الألمانية، وهو أمر لا يهمني كثيرًا. إنها لغة شبيهة بتلك اللهجات المحيطة بي (كاللهجة البواتفانية والسانتونجية والأنغوموازونية والليموزينية والأوفرنية)، رخوة ومتلكّئة ومهذارة. وفوقنا جهةَ الجبال، هناك لهجة غاسكونية، أجدها جميلة بشكل خاص، حازمة ومعبرة وموجزة، وهي في الحقيقة لهجة ذكورية وعسكرية أكثر من كل اللهجات التي أفهم. وهي أيضًا قوية وعصبية وصريحة، بمقدار ما أن اللغة الفرنسية رقيقة ولطيفة ووافرة الكلمات. أما اللاتينية التي مُنِحتُها كلغة أم، فقد فقدت عادة الحديث بها، ومن ثم السرعة في إمكان استعمالها للحديث بها بل والكتابة بها، وهو ما حزت عليه في الماضي بلقب «ميتْر جون»[2]. وذلك ما لي من قيمة متواضعة في هذا الجانب.

(1) * مؤرخ روماني (86 ق.م تقريبًا – 34/35 ق.م تقريبًا).
(2) لقب كان يُطلق على الشخص الماهر.

الجمال

18. الجمال عنصر ذو أهمية بالغة في العلاقة بين الناس، إذ هو السبب الأول في التفاهم بينهم؛ وليس ثمة من إنسان مهما كان متوحشًا وفظًا لا يحس بعذوبته. والجسد يلعب دورًا مهمًا في ما نحن عليه، ويحتل فيه مكانةً كبرى. وبنيته ونظامه يستحقان أن يؤخذا بعين الاعتبار. والذين يسعون إلى الفصل بين مكوِّنيْنا الأساسيين، وعزلهما الواحد عن الآخر على خطأ؛ بالعكس علينا الجمع بينهما وتوحيدهما. يلزمنا أن نأمر النفس لا بأن تنكمش على نفسها، وتعيش منعزلة، وأن تمقت الجسد وتهجره -وهي لا يمكنها ذلك إلا بمحاكاة مصطنعة- بل أن تتوحّد به وتحتويه وأن تعزَّه وتساعده وتتحكم فيه وتضعه في الطريق القويم، وتعيده إليه حين يضلُّ عنه، أي أن تعاشره بشكل ما وتكون بمثابة الزوج له، حتى تبدو الأعمال مختلفة ومتناقضة بشدة، لكنها متناغمة وموحَّدة. والمسيحيون لهم دراية خاصة بهذا الارتباط، ذلك أنهم يعرفون أن هذا التواشج بين الجسد والروح من باب العدل الإلهي، إلى درجة جعل الجسد قابلًا لتلقي جزاء أبدي. وهم يعرفون أيضًا أن الله ينظر للإنسان نظرة شاملة، ويريده أن يتلقى في مجمله عقابًا أو جزاءً حسبما يستحق.

19. تمنح المدرسة المشَّائية، وهي الأكثر إنسانية من بين كافة المدارس الفلسفية، للحكمة مهمّة توفير الخير المشترك لهذين الجزأين المتحديْن. وهي تبيّن بذلك أن المدارس الأخرى، بما أنها لا تعتقد كفاية في تقدير هذا المزيج، قد انحازت إحداها للجسد والأخرى للنفس، بحيث اقترفت كلها الخطأ نفسه، وابتعدت بذلك عن موضوعها الحقيقي الذي هو الإنسان وعن مرشدها الذي تعترف عمومًا أنه هو الطبيعة.

20. من المحتمل أن تكون الحظوة التي يمنحها الجمال في الأصل، هي أول تمييز تمّ بين الناس منح البعض تفوقًا على البعض الآخر.

«تمّ تقاسم الأراضي وتوزيعها
على مقدار الجمال والقوة والعقل

لأن الجمال كان ذا أهمية عظيمة
والقوة كانت تفرض الاحترام»[1].

أما أنا فطول قامتي أقلُّ من المتوسط، وهذا النقص ليس فقط بشعًا، فهو له مساوئ أخرى، خاصةً لأولئك الذين يمارسون الحكم والمسؤوليات، إذ تنقصهم السلطة التي تقدمها هيبة الجسد والحضور الجميل.

21. كان القائد الروماني جايوس ماريوس*[2] لا ينتقي جنده إلا منبين من كان يفوق طوله ستة أقدام[3]. و«رجل الحاشية»[4] كان على حق في أن يفضّل أن تكون للنبيل الذي يخدم قامة عادية لا قامة فارهة، وأن ينكر عليه أي خاصية تجعل الناس يشيرون إليه بالبنان. لكن حين يتعلق الأمر بعسكري، إذا لم تكن قامته متوسطة، فأنا لن أختار أن تكون تلك القامة أقصر أو أطول. فالرجال القصيرو القامة، كما يقول أرسطو، مليحون لكنهم ليسوا جميلين؛ فالنفس العظيمة تُعرف بعظمتها، كما الجمال في القامة الفارهة.

22. يقول أرسطو: إن الهنود والإثيوبيين، حين ينتخبون ملكهم وقضاتهم، كانوا يأخذون بعين الاعتبار جمالهم وبنيتهم. لقد كانوا على حق، لأن رؤية قائد ذي بنية جميلة، وقامة فارهة، يتمشى على رأس فرقة عسكرية؛ يكون مبعثًا للاحترام لدى أولئك الذين يتّبعونه، ومبعثًا للرهبة للعدوّ.

«يسير تورنوس*[5] ذو الحضور الجميل في الصف الأول،
وسلاحه في يده مهيمنًا على من يحيطون به»[6].

وملكنا الرباني العظيم والسماوي، الذي يلزم جرد كافة مزاياه بدقة، بورع واحترام، لم ينف التميُّز الجسماني: «إنه الأجمل من بين بني

(1)Lucrèce (47), V, 1109.

(2) * جايوس ماريوس (156 ق.م تقريبًا – 86 ق.م) قائد عسكري وسياسي روماني شغل منصب قنصل سبع مرات.

(3) كانت قدم «الملك» تعادل 0،324 متر، والقدم «الإنجليزي» 0،305 متر. وفي عصر مونتيني كانت «ستة أقدام» تمثل قامة استثنائية.

(4) عادةً ما يُعتبر أن الأمر يتعلق بشخصية كتاب كاتيبوني، «رجل الحاشية» [12].

(5) * ملك أسطوري في التاريخ الروماني.

(6)Virgile (112), VII, v v. 783-784.

البشر»[1]. وأفلاطون يتمنى لمن يرغب في السهر على جمهوريته الجمال وفي الآن نفسه الاعتدال وعظمة النفس.

23. إنها لإغاظة كبرى حين يتحدث إليك شخص وسط رجالك ليسألك: «أين هو السيد؟»، بحيث لا تنال إلا ما تبقى من التحية التي تقدَّم للحلاق أو لسكرتيرك. ذلك ما حصل لفيلوبويمين[2]: لما كان قد وصل أولاً قبل فرقته العسكرية في مأوى كانت يُنتظر فيه حلوله، فإن المُضيفة التي أنكرته لبشاعته، أرسلته ليساعد نساءها على جلب الماء، وإيقاد النار للقائد اليوناني فيلوبويمين. وحين وصل النبلاء من حاشيته وجدوه منهمكًا في تلك الأعمال الشريفة (لأنه لم يرفض الإذعان للأوامر التي وجهتها إليه)، فسألوه عمَّا يفعله هناك، فأجاب: «أنا أؤدي ثمن قبحي».

24. أما المناحي الأخرى للجمال فهي مخصوصةبالنساء، فجمال القوام هو المجال الوحيد لجمال الرجال. فإذا كان المرء قصير القامة، فلا سعة مُنحنى الجبهة ولا وداعة العينين ولطفهما، ولا الشكل المستقيم للأنف ولا صغر الأذن والفم ولا انتظام الأسنان وبياضها، ولا اللحية الكثيفة والموحّدة ذات اللون الكستنائي، ولا الشعر الكث، ولا الاستدارة القويمة والمعتدلة للرأس ولا الطابع الصبوح للوجه، ولا غياب الرائحة الكريهة، ولا القوام المعتدل للأطراف - لا شيء من كل هذا يمكنه أن يجعل منه رجلًا جميلًا. وأنا أيضًا لي قوام قوي وعريض، ووجهي ليس ثخينًا وإنما ممتلئًا ومزاجي يتراوح بين المرحِ والكئيب، معتدل الدموية والحرارة.

«وصدري ورجلاي مليئان بالشعر»[3].

25. صحتي جيدة وقوية، ولم تصبني علّة تقلقني إلا نادرًا وحتى سنّ متأخرة. على الأقل كنت كذلك، لا الآن بعد أن انخرطتُ في مسالك الشيخوخة، واجتزتُ منذ سنوات عديدة الأربعين.

«وشيئًا فشيئًا يغلب التقدم في العمر القوة وهمّة الشباب

---

(1)Psaumes, XLV, 3.

(2) قائد عسكري إغريقي.

(3)Martial (51), II, 36.

وها هو وَهن العمر يصيبنا»[1].

وما سأكونه من الآن فصاعدًا هو نصف كائن فقط، ولن أكون حقًّا أنا. فأنا أنفلت من نفسي وأهرب منها يومًا بعد يوم.

«خيراتنا كلها تُسلب منا مع السنين، الواحد بعد الآخر»[2].

26. أنا لم أتلق من الحياة لا مهارة ولا رشاقة. ومع ذلك أنا ابنٌ لأبٍ بالغ النباهة، تمتع بحيوية بالغة حتى شيخوخته العتية. وهو لم يُلاقِ أبدًا رجلًا من سنه يضاهيه في الرياضات الجسدية، فيما لم أجد أنا إلا من يجاوزني، إلا في العدو، حيث كنت من بين المتوسطين. وفي الموسيقى، وبسبب عدم موهبتي في الغناء، وعدم إتقاني لأي آلة، لم ينجح أحد في أن يعلمني إياها. وفي الرقص ولعب الكرة والمصارعة لم أستطع أن أكتسب إلا مهارة محدودة جدًا وعادية، فيما لم أنجح بتاتًا في العوم والمسايفة، وفي الدوران الاستعراضي كما في القفز. يداي غير ماهرتين بحيث لا أعرف الكتابة بخط واضح حتى لنفسي، وبحيث إن ما أخطّ أفضّل أن أعيد كتابته على أن أجهَد في فك حروفه. وأنا أيضًا لا أحسن القراءة، بحيث أحس أني مُتعبٌ لمن ينصت لي. لكني عدا كل هذا رجل مثقف[3]. وأنا لا أستطيع ثنْي رسالة وختمها كما يجب. ولم أعرف أبدًا كيف يمكن تقليم ريشة، ولا تقطيع اللحم تقطيعًا حسنًا في المائدة، ولا إسراج جواد، ولا حمل طريدة طائرة في يدي وإطلاقها للطيران، ولا الحديث لكلاب الصيد والطيور والجياد.

27. وقدراتي الجسمانية عمومًا ذات علاقة تامة مع قدرات نفسي. فلا شيء يستحق الانتباه سوى قوة رائعة وصلبة. فأنا ذو بأسٍ في الكدّ إذا كان ذلك العمل يخصني، وحيثما سعت بي الرغبة:

«المتعة تنسي المرء في شظف العمل»[4].

---

(1)Lucrèce (47), II, v v. 1131-1132.

(2)Horace (35), II, 2, v. 55.

(3) تساءل الشراح عن المعنى الذي يمكن منحه لهذه الجملة. بعضهم فهمها بمعنى «عالم جيد»، آخرون يرون فيها نبرة مازحة، وهذا رأيي أيضًا.

(4)Horace (34), II, 2, v. 12.

على العكس من ذلك إذا جذبتني لذلك لذة ما وليس لي من مرشد غير إرادتي الحرة، فلا قيمة لي في ذلك. ولا شيء لديّ، عدا الصحة والحياة، يمكنه أن يجعلني أتميّز غيظًا، إذْ أنا مستعد لاستبدالهما بكل همٍّ وغمٍّ، وبباهظ الثمن:

«بهذا الثمن أنا لا أرغب في الماء العكر لنهر التاج
ولو بكل التِبْر الذي يجرفه نحو البحر»[1].
أنا شخص حرٌّ تمامًا بطبعه وبإرادته، وهو ما يجعلني مستعدًا
لمنح دمي على منح همومي[2].

28. لي نفسٌ متحررةٌ تمامًا، متعودةٌ على التصرف على هواها. وبما أني ليس لي حتى اليوم لا رئيس ولا سيد مفروض عليَّ، فقد سرت بعيدًا جدًا وبالخطو الذي يحلو لي إيقاعه. وهو أمر جعلني رخوًا، وغير قادر على خدمة الآخرين، ولم يكن أثره طيبًا إلا عليَّ. ولم يكن من الضروري أن أصارع هذا الطبع الثقيل والكسول والخامل: فقد وجدت نفسي منذ ولادتي وبحوزتي ثروة كبيرة بحيث اكتفيت بها، لكن بالكثير من الحِلْم بحيث أحسست أني قادر على ذلك. كانت تلك وضعية يعتبرها مئات معارفي مع ذلك معْبرًا لشيء آخر أكبر يُعاش في القلق والخوف. أما أنا فلم أسْعَ إلى أي شيء ولم أكسب أي شيء أيضًا.

«ريح الشمال لا تنفخ شراعي
وريح الجنوب المعاكسة لا تكبح مسيري
فأنا في القوة والموهبة والجمال والمولد
في مؤخرة الأوائل وبين الأوائل الأخيرين»[3].

29. لم أكن بحاجة إلا لموهبة أن أكتفي بما لديّ؛ وهو ما يشكل، إذا ما تفحّصنا الأمر جيدًا، قاعدة حياة يلزم اتباعها في كل الظروف. ونحن نجدها تنطبق في الممارسة على الندرة أكثر من انطباقها على الوفْرة، خاصة وأن التعطُّش للثروة، كما هو الحال ربما في كافة الأهواء، يصير

(1) Juvénal '42), III, 54.

(2) جملة غامضة لا تتسق مع ما سبق، لكن يمكن فهمها باعتبارها تدخل في النظرة الشاملة لمونتيني [المترجم].

(3) Horace [35] II, 2, v. 201 sq.

أشد حدّةً بالاستعمال أكثر منه بغيابه، وأن فضيلة الاعتدال أكثر نذْرة من فضيلة الصبر. لم يكن لي من ثمَّ سوى أن أتمتّع في طمأنينة، بالخيرات التي وضعها الله بفضله بين يديّ. فلم أضطر لأي عمل مملّ من الأعمال، ولم يكن لي سوى أن أهتمّ بشؤوني الخاصة، أو أن أقوم بها على طريقتي، وحسب ما لي من وقت، حين يكلفني بها أناس لهم ثقة فيّ ومعرفة بي، بحيث لا يحدّدون لي في ذلك آجالًا صعبة. فالناس النبيهون يعرفون كيف يجعلون جوادًا حرونًا ينصاع لإرادتهم.

30. عشتُ طفولتي نفسها بطريقة وديعة وحرة، خالية من أي طاعة عمياء. وكل هذا منحني شخصية هشة، لا تحتمل الإلحاح عليها كثيرًا، بحيث إني حتى الآن أحب أن تُخبأ عني خساراتي والقلاقل التي تمسني. وفي مجال نفقاتي، أحسب ما أؤدي ثمنًا للامبالاتي في صيانة بيتي وإعالة أهلي.

«هنا يوجد الفائض الذي يُفلت من انتباه سيد البيت
والذي يستفيد منه السارقون»[1].

أحب عدم معرفة حساب ما لديَّ، حتى أحس بشكل أقلّ دقة بما أخسر. وأدعو من يعيشون معي، حين لا يكون لهم تجاهي العطف الضروري واللباقة اللازمة المصاحبة له، أن يخدعوني ويُبينوا لي المظاهر اللائقة بي. فبما أني لا أملك الحزم اللازم كي أستحمل مساوئ الأحداث الضارة، ولا القدرة على الاستعداد لحل مشكلاتي وتنظيم شؤوني الخاصة، فإني أنمّي في نفسي، ما استطعت إلى ذلك سبيلًا وبالاستسلام التام لصدف القدَر، تلك الطريقة في رؤية الأشياء التي تتمثل في أخذ الأمور كلها في أسوأ حالاتها، والعزم على تحمل ذلك السوء باستسلام وديع وصبر أكيد. ذلكم هو ما أشتغل عليه، وذلك هو الهدف الذي يتوجَّه نحوه كل تفكيري.

31. حين أجد نفسي أمام الخطر، لا أفكر في الوسيلة للانفلات منه بقدر ما لا أهتم كثيرًا بالإفلات منه. وإذا ما هلَكت، فلا أهمية لذلك. وبما أني لا أستطيع أن أنظّم الأحداث، فإني أنظم نفسي وأتكيّف معها حين لا تتكيّف معي. أنا لست موهوبًا في تلافي ضربات القدَر، والإفلات منها أو

(1)Horace (35), I, v. 45.

التحكُّم فيها؛ ولا في تدبير الأمور في صالحي وتسييرها. بل إني لا أتحمل كثيرًا العناية الصارمة التي يلزم أن يتحلّى بها المرء حينئذٍ. والوضعية الأكثر ضنًى لي هي أن أكون معلّقًا وسط شؤون عاجلة، ممزّقًا بين الخوف والأمل. فأنا يزعجني أن أتّخذ قرارًا حتى في الأمور التافهة جدًا. وعقلي يجد صعوبة في تحمُّل الحركات والهزّات، التي يثيرها فيَّ الشك والتساؤل أكبر منه في أن أنحاز لهذا الجانب أو ذاك، وأن ألتزم بذلك حين يكون قد قُضي الأمر. القليل من الأهواء تثير الاضطراب في نومي، لكن اتخاذ أبسط قرار يؤرقني. أنا في طريقي أتفادى المسالك المنحدرة والمنزلقة، كي أغوص في جوانبها الموحلة أكثر، حيث أغوص أكثر لأني لا أخشى الانزلاق في المنحدر وأسعى إلى الأمان. الأمر نفسه أعيشه في المصائب التي تحلُّ بي، والتي أفضلها مصائب حاسمة، لا تسمح لي بالتردّد ولا تؤرقني أكثر، لأن الوقت فات لكي أجد لها حلًا ممكنًا، فترمي بي توًا في لجّة العذاب.

«المصائب غير الأكيدة هي الأكثر عذابًا»[1].

32. وإني لأتصرف أمام الأحداث برجولة، ولتوجيهها أكون كما الطفل. والخوف من السقطة يثير في نفسي الاضطراب، أكثر من السقطة نفسها. فالأمور لا تستحق. البخيل يعاني من هواه أكثر مما يعاني الفقير من حاله، والغَيور يعاني أكثر مما يعاني المخدوع من زوجته. أحيانًا أن يفقد المرء حقل كرومه أفضل من أن يتقاضى عليه لكي يحافظ عليه. والمشية المتئدة هي الأكثر ثباتًا. وأساس الحزم هو أنك لست بحاجة فيه إلا لنفسك؛ فالحزم يجد هنا أساسه ويقوم كلية على نفسه.

33. إليكم مثال واحد من النبلاء عرفه الكثير من الناس. أليس له بعض القيمة الفلسفية؟ فلقد تزوج الرجل متأخرًا، وقضى شبابه في الصحبة الطيبة، بما أنه كان حاكيًا كبيرًا للقصص ومُبسطًا كبيرًا. وبما أنه لم ينس كم أن موضوع الشجاعة كان مصدرًا خصبًا لحديثه وسخريته من الآخرين، فقد فكر في أن يحمي نفسه ويتزوج امرأة وجدها في مكان، يمكن لأي شخص أن يجدها فيه حسب ماله، وأقام معها هذه القاعدة: «صباح الخير أيها المومس، فتجيبه: صباح الخير أيها الزوج المخدوع». ولم يكن

(1)Sénèque (97), II, sc. 1, v, 29.

ثمة ما يتحدث عنه دومًا مع من يزورونه سوى تلك الترتيبات، التي كان بها يُخرس نميمة الساخرين منه، ويردع الضربات التي قد يتلقاها نهم.

34. أما الطموح القريب من الادعاء، أو هو بالأحرى ابنه، فلكي أندفع نحو التشريف، جاءتني المصادفة لتقودني إليه من يدي. فأنا لم أكن قادرًا على أن أعاني من أجل أمل غير أكيد، وتحمل كافة الصِّعاب التي يتحمل عبئها من يجهدون في بداية مشوار ترقّيهم؛ كي ينالوا الفضل والاعتبار.

«أنا لا أبتاع الأمل بهذا الثمن»[1].

وإني أتعلّق بما أرى وأمسك به، ولا أبتعد أبدًا عن المرفأ:

«فليظلَّ أحد مِجْدافيْك يلامس الأمواج، والآخر الشط»[2].

ثم إننا لا نربح الشيء الكثير في هذا الترقّي سوى أن نغامر فيه أولًا بممتلكاتنا. وأنا أعتبر أن ما اكتفينا بالحفاظ عليه في وقت ولادتنا وخلال نموّنا، من الحمق التخلي عنه من أجل أمل غامض في تحسينه. ومن يرفض له القدَر ما يمكنه أن يستقر به في مكان ما، ويعيش فيه حياة هادئة ومطمئنة، يكون معذورًا إذا ما هو غامر بما يملك بما أن الضرورة في كل الأحوال تفرض عليه ذلك.

«في وقت المحنة، من الأفضل للمرء أن يسلك الطريق المحفوف بالمخاطر»[3].
وأنا بالأحرى أعذر أخًا صغيرًا أن يخاطر بحصته في الإرث، على أن يقوم بذلك مَن يتحمل عبء شرف العائلة، والذي يوجد في حال عوز يكون هو مسؤولًا عنه مسؤولية كاملة.

35. لقد عثرت، بفضل معونة أصدقائي القدماء، على السبيل الأقصر والملائم لكي أتخلص من هذه الرغبة وألتزم الهدوء.

(1)Ternece (107), II, 3, v. 11.
(2)Properce (80, III, III, 23.
(3)Sénèque (97), II, sc. 1, v. 47.

«كرجل يتمتع بحياة ناعمة من غير غبار النصر»[1].

فأنا أدرك بوضوح أن قواي غير قادرة على الشيء الكثير، وأتذكر هذه العبارة من فم المستشار أوليفييه: الفرنسيون يشبهون قردة تتسلق الأشجار، مُتقافزة من غصن لآخر حتى تبلغ القمة، وحين تصل هناك تبين لنا عن دبرها.

«من البلادة أن يحمل المرء عبئًا لا يتحمله
كي تخور قواه بعد ذلك ويرميه عن ظهره»[2].

36. وحتى مزاياي التي لا تشوبها شائبة، كنت أجدها غير مجدية لعصرنا. فسهولة مزاجي، قد يُعتبر ضعفًا؛ ووفائي ووعيي قد يُعتبر إسفافًا وتطيُّرًا؛ وصراحتي وحريتي قد تعتبران غير مقبولتين وغير مسؤولتين ومتهورتين فلرُبّ شر كان فيه خير. من المفيد أن يولد المرء في عصر متدهور، فخلاف الآخرين أنت تُعتبر شخصًا فاضلًا ومن دون خسائر. والرجل المجرم والكافر يعتبر اليوم الرجل الخيّر الشريف.

«إذا كان صديقك الآن لا ينفي ما ائتمنته عليه
وإذا ما أعاد لك مالك وقد صدئت نقوده
فذلك معجزة صدق في النوايا، خليق بأن ينقش
على الألواح الأترورية
ويلزم الاحتفاء به بحرق شاة متوَّجة»[3].

ليس ثمة من عصر ولا من مكان لم يحز فيه الأمراء على ربح أكبر ولا أؤكد من الطيبة والعدل. وسوف أندهش إن لم يتمكّن من يرغب في تزكية فضله وسمعته بهذا السبيل من أن يتفوق على رفاقه. فالقوة والعنف لهما بعض الأثر غير أنهما لا يؤثران في كل شيء.

37. يتنافس التجار والقضاة والصناع مع النبلاء في البسالة والعلوم العسكرية. فهم يخوضون معارك شريفة، في السرّ كما في العلن، إذ هم

(1) Horace (35), I, v. 51.
(2)Properce (80), III, 9, 5.
(3)Juvénal (42), XIII, 60.

يُقاتلون ويدافعون عن مدنهم في الحروب الحالية. وشهرة أمير من الأمراء تجد نفسها مخنوقة في هذا الحشد. وإذا ما سطع نجمه بإنسانيته ونزاهته ووفائه واعتداله وبالأخص بعدله، فتلك سمات نادرة ومجهولة يُرمى بها في الركن. فهو لا يمكنه تدبير شؤونه إلا بموافقة السكان، وليس ثمة من مزايا يمكن أن تجد صدًى في قلبه إلا تلك المزايا، فهي التي تكون صالحة له أكثر. «**فلا شيء يكون مقبولًا لدى الشعب أكثر من الطّيبة**»[1].

38. في الظروف الحالية لعصرنا، إذًا، كان بالإمكان أن أعتبر نفسي عظيمًا ورائعًا، مثلما يمكن أن أحس نفسي قزمًا وإنسانًا طيبًا بالمقارنة مع قرون سابقة كان فيهاأمرًا عاديًا أن نرى إنسانًا معتدلًا في عمليات ثأره، لا يولي كبيرَ اعتبارٍ للشتيمة، دقيقًا في احترام وعوده، ليس ذا وجهين وليس مرنًا، ولا يوافق بين ما يفكر وإرادة الآخرين ولا مع الظروف، هذا إذا لم تنضفْ إلى ذلك مزايا أهم. وأنا كنت سأترك شؤوني تلوي عنقي على أن ألوي إيماني لخدمتها. فحين يتعلق الأمر بهذه «الفضيلة» الجديدة، التي صارت تقليعة قوية في أيامنا هذه، والتي تتمثل في التظاهر والإخفاء، فأنا أكنُّ لها مقتًا عظيمًا، ولا أجد من بين الرذائل رذيلة تضاهيها في الجبن والحقَارة. إنه سلوك جبان خليق بالعبيد أن يتنكّر المرء ويخفي وجهه خلف قناع وألا يجسر على أن يظهر للملأ كما هو حقًا. فبذلك يتدرّب معاصرونا على المكر والخداع. وبما أنهم معتادون على الحديث الزائف، فهم لا وعْي لهم بالحياد عن الحقيقة. القلب الشريف لا يلزم أن يقنِّع ما يفكر به. إنه يريد أن يفصح عن نفسه إلى الحدّ الأقصى، حيث كل شيء طيّب أو على الأقل كل شيء إنساني.

الكذب

39. يعتبر أرسطو أن دور النفوس العظيمة يكمن في الحب والكراهية الصريحة، وفي الحكم والكلام بكامل الصراحة، والاهتمام بالحقيقة أكثر من الموافقة أو استنكار الغير. كان أبولّونيوس يقول: إن الكذب من خصال العبيد؛ وعلى الناس الأحرار أن يَجهَروا بالحقيقة. إنه الجزء الأول

(1)Cicéron, **Pro Ligario** (106).

والأساس للفضيلة، إذ علينا حبها لذاتها. ومن يقول الحقيقة لأنه مضطر إلى ذلك بشكل أو بآخر، أو لأن ذلك ذو جدوى له، والذي لا يخشى الكذب حين لا يكون ذلك مهمًا، هذا الشخص ليس نزيهًا حقًا. إن نفسي بتكوينها ترفض الانسياق للكذب، وتكره كُرهًا حتى التفكير في ذلك. فأنا أحس بخجل باطن وبتأنيب ضمير حارق حين تنفلت من بين شفتيّ كذبة، كما يحدث لي ذلك حين تحاصرني فجأةً ظروف، تدخل في نفسي الاضطراب.

40. ليس علينا دومًا قول كل شيء، فذلك من باب البلاهة. لكن ما نقول يلزم أن يكون ما نفكر به، وإلا فإن ذلك ضرب من المكر. لا أدري أي فضل أو مزية يمكن أن يجْنِها المرء من التظاهر والتنكر باستمرار. يمكنه أن يخدع بذلك الناس مرة أو مرّتين. لكن أن يجعل من التظاهر مذهبًا له ويدّعي، كما فعل بعض أمرائنا، أنهم يُقسمون على ذلك بأغلظ الأيمان[1]، إذا كان هذا عنْ سر يحتفظون به في صدورهم، وأن من لا يعرف التظاهر والمخاتلة لا يعرف كيف يحكم، فإن ذلك يعني، إخطار من يرغب المرء في المفاوضة معهم بأنه لن يقوم سوى بالكذب والغش: «**كلما كان المرء فطنًا وماكرًا، كان بغيضًا ومشبوهًا، خاصةً إذا لم تكن له سمعة النزاهة**»[2]. فمن باب السذاجة البالغة أن ينصاع المرء لتأثير وجه أو كلام من يكون مبدؤه أن يبدو على شكل مختلف في الظاهر على ما هو في الباطن، كما كان يفعل تيبيريوس[3].وأنا أتساءل أي مكان يمكن أن يكون لأولئك الناس في علاقتهم مع الغيْر بما أنهم لا يقولون شيئًا يمكن أن يكون موثوقًا به. فمن لا يكون وفيًا إزاء الحقيقة لا يكون كذلك إزاء الكذب.

41. أولئك الذين يتحدثون في عصرنا عن واجبات الأمير، اعتبروا أن هذا الأخير لا يقوم إلا بالاهتمام بمصالحه، وفضّلوا ذلك على الاهتمام بوفائه وبوعيه، وهم بذلك سيكونون على حقّ إذا ما تعلق الأمر بأمير ساعدته المصادفات على السير الحسن لأموره، بحيث استطاع أن يُقيمها على خطأ وحيد هو ألا يفي بكلمته. بيْد أن الأمر ليس كذلك: المرء يسقط

(1) الأمير المعني هنا هو شارل الثامن.

(2)Cicéron (19) II, IX.

(3) Tacite, Annales, [100] I, 11.

غالبًا في أمور من قبيل هذه، ويوقّع أكثر من معاهدة سلْم وأكثر من ميثاق في حياته. فالامتياز يحتّهم على اقتراف أول خيانة، وهو أمر يحدث مرارًا وتكرارًا، مثله مثل كل الأفعال المشينة، من قَبيل انتهاك الحرمات والاغتيالات وحالات العصيان والخيانات. كل هذا يتم بغرض ربح ما. بيْد أن هذا الربح الأول يجرّ معه فيما بعد مضارَّ كثيرة لا حصر لها: فمثال النقص في الكلام الحي المباشر هذا يحرم الأمير من كل وسيلة للتفاوض.

في طفولتي قام سليمان الثاني، سلطان العثمانيين، بإنزال قواته في أوترانتو بإيطاليا لأنه علم أن ميركورينو دي غراتيناريو وسكان كاستِرو*[1] كانوا أسرى بعد أن أسْلموا المدينة، عكْس ما كان متّفقًا عليه بينهم وهؤلاء الناس، فأمر بإطلاق سراحهم. وقد صرّح أن له مساعٍ كبرى بهذه المدينة ولذلك فإن هذا الإجراء غير الوفي، بالرغم من نفعه وجدواه في تلك اللحظة، لن يجُرّ عليه في المستقبل غير السمعة السيئة والتحدّي لجنابه، بحيث سيتسبب له في أضرار جسيمة. أما فيما يخصني، فأنا أفضل أن أكون مُزعجًا ووقحًا على أن أكون متملّقًا ومواربًا.

42. أعترف أن ثمة نسبة من الكبرياء والعناد، وراء أن يظل المرء مكشوفًا على الدوام، من غير أن يهتم بالآخرين، كما أفعل أنا. ويبدو لي أني أنحو نحْو أن أكون حرًا أكثر، حيثما يلزم أن أكون حرًا أقل، وأنني أصير أشدَّ عنادًا، حين يزعم أحدهم فرض الاحترام عليَّ. وقد يحدث أن أنساق وراء مزاجي وطبعي، لأني لا أعرف كيف أواجه الأمر. وبما أني أتعامل مع الناس الكبار بالعفوية نفسها في اللغة والسلوك، التي أتعامل بها في بيتي، فإني أحس كم يؤدي ذلك إلى الغلوّ والنقص في التمدُّن. لكن، علاوة على أني هكذا بفطرتي، فإني لا أملك الروح الفضْفاضة لتفادي سؤال مرتجل، ولا للانفلات منه بمداورة ما، ولا أيضًا بشيء آخر غير تقْنيع الحقيقة؛ بل إني لا أملك ذاكرة كافية كي أتذكر ذلك السؤال، ولا ما يكفي من الجرأة لكي أدعمه. فأنا إذًا ألعب دوْر الشهامة بالضعف؛ لهذا أستسلم لسذاجة الإفصاح دومًا عما يخطُر بذهني، بطبعي وبشكل إرادي، تاركًا للصدفة أن تتكفّل بالنتائج. كان أريستبّوس يقول إن النتيجة الأساس التي استقاها

(1) * مدينة إيطالية.

من الفلسفة، هي أن يتحدث بحرية وبصراحة مع كلِّ شخص.

الذاكرة

43. الذاكرة أداة بالغة الإفادة والجدوى، ومن غيرها يعسر على الحكم العقلي أن يقوم بمهمته. إنها تخونني أيّما خيانة[1]. فإذا أراد أحدهم أن يستعرض عليَّ شيئًا فذلك يلزم أن يكون جزءًا جزءًا، إذ إني عاجز عن الجواب على عرْض يتضمن العديد من النقط المهمة. فأنا لا أتلقى مهمةً عليَّ أداؤها من غير أن أسجلها على ألواحي، وحين يكون لدي خطاب مهم عليَّ إلقاؤه، وإذا كان يلزم أن يكون ذا نفَس طويل، أُضطر للعودة إلى تلك الضرورة البائسة والحقيرة المتمثلة في أن أحفظ ما عليَّ قوله كلمةً كلمةً، وإلا فلن تكون لي أي سلاسة ولا يُسر في التعبير، بما أني خائف من أن تخونني الذاكرة. لكنْ ليس من الأسهل عليَّ أن أقوم بذلك؛ فلكي أحفظ ثلاثة أبيات شعر يأخذ مني ذلك ثلاث ساعات. وفي نص أكون أنا صاحبه، فإن حرية تغيير كلمة وإمكان تغيير نسقه، وتغيير كلمة بحيث يتغير معها المعنى، يجعل الأمر أصعب لكي يُنقش في الذاكرة. وإذًا، كلما احترست من ذاكرتي كلما اضطربتْ، فهي تخدمني أفضل بشكل فُجائي. عليّ أن أستدعيها من غير أن أبدو كذلك، فإذا أنا ألححت عليها تصبح مُشوَّشة وتبدأ في الترنّح، وكلما نبشت فيها تصبح حرونًا وتنزعج. فهي تخدمني على هواها لا على هواي.

44. ما أحسه بصدد ذاكرتي، أحسه أيضًا في العديد من المجالات. فأنا أنفلت من السلطة ومن الإكراه والإلزام. وما أقوم به بشكل طبيعي وبيُسر، إذا ما ألزمت نفسي بفعله بقرار حاسم ومُتوقَّع سلفًا، لا أتمكّن أبدًا من القيام به. وحين يتعلق الأمر بجسدي نفسه، فالأطراف التي لها بعض الحرية وسلطة معينة عليه ترفض أحيانًا أن تنصاع لي حين أحدِّد لها مكانًا معينًا[2]. هذا النظام الاستبدادي، المعطى سلفًا، يجعلها ترفض،

(1) يتحدث مونتيني مرارًا عن ضعف ذاكرته وهو أمر يمكننا التشكيك في صحته.

(2) مقطع يمكن الوقوف على مشابهته، للمقطع التاسع من الفصل العشرين من الجزء الأول، حيث يتعلق الأمر بمسألة «عقد الأشرطة».

فهي تنكمش على نفسها من الخوف أو الغضب، وتتجمد حرونًا في مكانها. في مرة من المرات السابقة، كنت في مكان كان فيه من باب الهمجية وقلة اللياقة، عدم الاستجابة لمن يطلب منك معاقرتهم الخمر، ومع أني كنت أُقبل هناك بشكل حرّ تمامًا، كنت أجهد في الإبانة عن الصاحب الحسن أمام النساء اللواتي كنّ مشاركات في الأمر، حسب عوائد البلد. لكن، آه، يا لها من متعة! ففكرة التهيؤ لأمر لم يكن من عوائدي ولا من طبيعتي، سدّ حلْقي بحيث لم أستطع أن أتجرع قطرة من الخمر، وبحيث لم أتمكن من الشرب خلال المأدبة. كنت مُشبعًا بالشرب، كما لو أني سكرت بكل ما شربت قبلًا في خيالي. وهذا الأمر يمكن ملاحظته أكثر، لدى أولئك الذين يملكون خيالًا أشد حيويةً وأكثر قوة، غير أنه مع ذلك أمر طبيعي، وليس ثمة من امرئ لا يحسه شيئًا ما.

45. مرة طُلب من رامٍ حُكم عليه بالإعدام، أن يُبين برهانًا قاطعًا على مهارته إن هو أراد أن ينجيّ نفسه من الموت. فرفض أن يجازف بذلك، خوفًا من أنَّ التوتر الكبير لإرادته قد يحيد بيده عن حذقها، بحيث عوض أن ينقذ حياته سيفقد بالمقابل السمعة التي اكتسبها في الرماية. فالشخص الذي يفكر في شيء آخر، لن يحيد بسنتيمتر عن أن يعيد دومًا القيام بعدد الخطوات نفسها وبالطول نفسه، حيثما كان يتنزّه. لكنه إذا كان هناك بقصد قياسها وتعدادها، فإنه سوف يلاحظ أن ما يقوم به بشكل فطري وبالصدفة، لا يُعيده بالدقة نفسها إراديًا.

46. تقع مكتبتي، وهي إحدى أجمل المكتبات التي يمكن أن نعثر عليها في قرية، في زاوية من البيت. وإذا ما طرق ذهني شيءٌ أرغب في البحث عنه أو كتابته، خوفًا من أن تنفلت مني تلك الفكرة وأنا فقط أعبر باحة البيت، عليَّ أن أُسرّ بها إلى شخص آخر.

47. وإذا ما جرُؤت وأنا أتحدث، على الحياد قليلًا عن حبل تفكيري، فذلك شيء أفقده للتوّ من ذاكرتي. لذلك، فإني ألزم في كلامي وبشكل جاف الحد الأدنى الضروري. والناس الذين في خدمتي، عليَّ أن أناديهم كل

واحد باسم مهمّته أو بلده لأني أجد صعوبة في تذكّر الأسماء. بيْد أني أستطيع أن أتذكّر أن اسمًا ما أنه يتكون من ثلاثة مقاطع صوتية، وأن تلك الأصوات فظة، وأنه اسم يبدأ بهذا الحرف أو ذاك. ولو قُدّر لي أن أعيش طويلًا لنسيت اسمي نفسه، كما حدث ذلك لأشخاص آخرين. عاش ميسّالا كورفينوس*[1] عامين من غير أي أثر للذاكرة. ويُقال أيضًا بأن الأمر حدث لجورجيوس الطرابزوني*[2]. لهذا فمن صالحي أن أتأمل دومًا في الحياة التي كانت لهما، وإذا ما كنت من غير هذه الملكة سيتبقّى لي ما يكفي كي أتصرف براحة في حياتي. وحين أتفحص الأمر، أخشى أن يكون ذلك الفقدان وراء فقدان كافة وظائف العقل.

لدي ثقوب في كل مكان؛ وأنا أفقد نفسي من كل الجوانب[3].

48. حدث لي أكثر من مرة أني نسيت كلمة السرّ الذي منحته أو تلقيته من شخص آخر ثلاث ساعات من قبل، وأن أنسى أين وضعت حافظة مالي، مهما قال شيشرون عن ذلك[4]: فأنا أفقد بسهولة أشيائي مهما وضعتها بحرص في مكان ما: «**الذاكرة تملك وحدها لا الفلسفة فحسب، وإنما كل ما هو ضروري للفنون وللحياة**»[5]. الذاكرة وعاء المعرفة. وبما أن ذاكرتي ضعيفة فليس لي أن أشكوَ من أني لا أعرف شيئًا كثيرًا. أعرف عمومًا أسماء المباحث والعلوم، وما تتناول من موضوعات، لكني لا أسير أبعد من ذلك. وأنا أتصفّح الكتب ولا أدرسها؛ وما يتبقى منها في ذهني هو ما لا أعرف أنه صادر عن شخص آخر، ومن هذا فقط استفاد عقلي، أي البراهين والأفكار التي تشرَّبها. واسم المؤلف ومكانه والكلمات والتفاصيل الأخرى كلها أمور أنساها أيضًا. فأنا ماهر في النسيان إلى درجة أني أنسى أيضًا كتبي نفسها، مثلها مثل الباقي. غالبًا ما يتم الاستشهاد بكتاب «المقالات» في حضرتي من غير أن أنتبه لذلك. ولمن يرغب في معرفة من أين آتي بالأمثلة والأشعار التي راكمتُ هنا، فأنا سيصعب عليَّ تذكّر ذلك؛ ومع ذلك فأنا لم أتسوّلها إلا من الأبواب المعروفة والشهيرة، غير مُكتفٍ

(1) * قائد عسكري روماني.

(2) *عالم إنساني بيزنطي توفي بروما عام 1468 م.

(3)Terence (110), I, ii, 25.

(4) الذي يزعم أن عجوزًا لا ينسى ذلك.

(5)Cicéron (15), II, vii, 22.

بأن تكون نادرة أو مشهورة، فشهرتها تضاهي حكمتها. ليس من الغريب إذًا أن يحظى كتابي بمصير الكتب الأخرى، وأن ينساب من ذاكرتي ما أكتب، مثله في ذلك مثل ما أقرأ وما أمنح وما أتلقى.

49. وعَدا عيب ضعف الذاكرة، لديَّ عيوب أخرى تساهم كثيرًا في جهلي. فأنا لي عقل ثقيل وحافٍ، إذ إن أبْسط غيمة توقفه في الطريق، وبحيث مثلًا لم أقترح عليه لغزًا أبدًا، مهما كان سهلًا، استطاع أن يحلّه. وليس ثمة من أمر دقيق لا يخْرجني. ففي الألعاب، التي يأخذ العقل فيها حصته، كالشطرنج والورق والضامة وغيرها، لا أفهم منها إلا القواعد الأولية. ففهمي بطيء ومُشوَّش؛ غير أنه ما إن يمسك بشيء ما حتى يمسك به جيدًا ويحضنه بعمق وقوة، ما دام هو ممسك به. عيناي بصحة جيدة وفي حال حسن، ونظري جيّد حتى عن بُعد، غير أنه يتعب بسرعة في العمل بحيث يتضبّب. لهذا لا أستطيع أن أقرأ طويلًا الكتب من غير الاستعانة بشخص آخر. وما يقوله عن ذلك بلينيوس الصغير يمكن أن يُفهم من لم يعيشوا ذلك بأنفسهم، الأهمية الكبرى التي تكتسيها هذه الوساطة لمن يتعاطون القراءة.

عدم التهيؤ للأمور العادية

50. ليس ثمة من عقل ضعيف وفظ لا نجد في ثناياه ملكة خاصة تسْطع ببريقها. فليس هناك من ملكة مخفية لا تبرز من جانب أو من آخر. أما معرفة كيف يمكن لعقل أعمى ونائم إزاء كل شيء، أن يغدو حيويًا وواضحًا وممتازًا في عمل معيّن، فذلك أمر يلزم أن نسأل الشيوخ عن سرّه. لكن العقول الجيدة هي تلك التي تكون كونية ومتأهبة ومنفتحة على كل شيء، وهي إن لم تكن مثقفة فعليها أن تكون على الأقل قابلة لذلك. وأنا أقول هذا لأوبخ عقلي إذإني، إما من باب الضعف أو اللامبالاة، لا أعرف عقلًا أكثر عجزًا ولا أشدّ جهلًا منه بخصوص العديد من الأمور العادية، التي يمكننا جهلها من غير خجل -مع أن التجاهل بلامبالاة لما هو أمامنا، وما هو بين أيدينا، وما يخص بشكل مباشر سيْر حياتنا، هو سلوك بعيد عن تصوراتي.

عليَّ أن أقدّم هنا أمثلة عن هذا: لقد وُلدت وتربيت في البادية، وسط العمل في الحقول. وأنا مسؤول عن شؤوني وشؤون بيتي، منذ أن تخلى لي أسلافي الذي كانوا مالكين لتلك الخيرات التي أتمتّع بها مكانهم. بيْد أني لا أعرف الحساب لا بالنقود ولا بالقلم، وأجهل أغلب أنواع نقودنا، ولا أفرّق بين حبَّة زرْع، وأخرى لا في المخزن ولا في الحقول، إذا لم يكن ذلك الاختلاف بيِّنًا، وبالكاد أعرف الاختلاف بين الكرنب والخسّ في بستاني. كما لا أعرف ما تنطبق عليه أسماء الأواني الأساسية في البيت، ولا أعرف المبادئ الأولية للزراعة، تلك التي يعرفها حتى الصّبيان. كما أن جهلي أكبر بالأعمال اليدوية، والتجارة والبضائع ومختلف أنواع الفواكه والخمور، والأطعمة حين يتعلق الأمر بترويض طائر أو علاج جواد أو كلب. وإذا كان عليَّ أن أعترف بكل شيء، فمنذ أقل من شهر، اكتشف أهل بيتي أني أجهل أن الخميرة تصلح لصنع الخبز، وأجهل معنى تخمير الخمر في البراميل. في الماضي في أثينا، كان يُفترض فيمَن يراكم بعناية كومة من الأعشاب، تهيؤًا لتعلم الرياضيات. أما مني فسيتم استنتاج الخلاصة المعاكسة حقًا: فإذا ما قُدّم لي كل ما ينبغي في مطبخ، يكفيني ذلك لكي أموت جوعًا.

51. بفضل هذه التفاصيل من اعترافي، يمكن تخيّل تفاصيل أخرى من عيوبي. لكن لا يهم الطريقة التي أظهر بها، فقط يلزمني أن أظهر بما أنا عليه حقًا، وهو ما أرغب في فعله. فليس عليَّ إذًا الاعتذار على أن أجرؤ على التسجيل كتابةً لأقوال فجة ونزقة كهذه، فوضاعة الموضوع تجبرني على ذلك. لِيستهْجن الآخرون مشروعي، إذا هم أرادوا ذلك، لا أقوالي. ومهما كان الأمر، أنا متيقّن من القيمة الوضيعة لكل هذا وبجنون مشروعي، ومن غير أن يقول لي أحد ذلك. وإنه لَأمر حسن ألّا يكون حكمي، الذي تصدر عنه هنا «المقالات»، أعرج كجواد فقَد حذوة حافره.

«مهما كان أنفك، حتى مثل أطلس الذي لم يرغب في شكله
وحتى لو كنت قادرًا على السخرية من لاتينوس نفسه
لن تقدر على أن تقول عن هذه التفاهات
أسوأ مما قلت عنها أنا بنفسي
ما فائدة مضغ الهواء؟
أنت بحاجة لمضغ اللحم، إذا أردت الشبع

العديد من الناس معتدُّون بأنفسهم:
احتفظ بسُمّك لهم. أما أنا فأعرف أن كل هذا
ليس في العمق مهمًّا»[1].

52. لستُ مُجبرًا على عدم قول الترّهات، فقط عليَّ ألا أخدع نفسي بنفسي، وأن أعترف بها من حيث هي كذلك. وأن أخدع نفسي عن معرفة بأسباب ذلك، فهذا أمر مُعتاد لديّ بحيث أنا لا أخدع بشكل آخر، ولا أخدع نفسي أبدًا مصادفةً. إنه أمر تافه أن تُنسب لنزق مزاجي أعمالي البلهاء، لأني لا أستطيع أن أمسك نفسي، من أن أنسُب لها عادةً تصرفاتي ذات الطبيعة الرذيلة.

53. رأيت يومًا في منطقة بار لوديك بشرقي فرنسا، أن حاشية الملك فرنسوا الثاني قدمت له، تكريمًا لذكرى رينيه ملك صقلية[2]، «بورتريهًا» رسمه لنفسه. فلماذا لا يُسمح لكل شخص بأن يقدّم نفسه بريشة الحبر، كما فعل هو بقلم الرصاص؟ لن أتجاهل هذا الندْب المعنوي، الذي ليس من اللائق عرضه على الملأ: إنه التردُّد، وهو عيب مزعج في تدبير شؤون الحياة. فأنا لا أعرف اتخاذ القرار في الشؤون التي يكون مخرجها مشبوهًا.

«وقلبي لا يشير عليَّ لا بنعم ولا بلا»[3].

54. وإنّي قادر على الدفاع عن رأي، لا على أن أختاره. ففي الأمور البشرية،ومن أي جانب تأملناها، نحن نجد دومًا مظاهر ترضينا. وقد كان الفيلسوف خريسيبّوس يقول إنه لا يرغب في أن يتعلّم من معلميْه زينون وكليانثس سوى الحقَائق الجوهرية، إذ إنه يعثر بسهولة بنفسه على الدلائل والبراهين. فأنا في أي جانب أدير الوجه أعثر بشكل كاف على العلل والمعقولية لكي أثبُت هناك. لذا أحافظ في نفسي على الشك وعلى الحرية في الاختيار، حتى تجبرني الظروف على القرار. وحينئذٍ، ولكي أقول الحقيقة، أرمي عادةً «بقلمي في مهب الريح» كما يُقال، وأنصاع لهوى القدَر، بحيث إن نزوعًا خفيفًا ومصادفةً عابرةً يكفيان كي يجرفا قريحتي.

---

(1)Martial (51), XIII, 2.

(2) رينيه دوق أنجو بفرنسا، وكونت جنوبي فرنسا (1409-1480 م)، الذي كان يسمى «ملك فرنسا»، لأنه كان قيمًا على مملكة صقلية والقدس.

(3)Pétrarque (82), CLXVIII, 8.

«ففي الشك يكفي ثقل بسيط ليُميل الكفّة
لهذا الجانب أو ذاك»[1].

55. إن تردّدي في الحكم من العمق بحيث يمكنني في أغلب الحالات أن أفوض أمري للقُرعة أو لرمية النرد. وأنا أسجّل، عند تفحّصي لضعفنا البشري، أن التاريخ المقدّس نفسه قد ترك لنا أمثلة من هذا الاختيار المتمثل في أن نفوّض للمصادفة وللحظ تحديد الانحياز لهذا الاختيار، أو ذاك في الأمور المشكوك في أمرها: **«لقد وقع اختيار الحظ على ماثياس»**[2]. والعقل البشري سيفٌ ذو حدّين. فحتى حين وضعه سقراط بين يديه، وهو صديقه الأكثر حميمية وألفة، يظل عصًا لا نعرف من أي طرف نمسك بها. فأنا لست أصلح إلا لاتباع الآخرين، وأنصاع لانجراف الجموع. وليس لي من ثقة كافية في قُواي كي أتنطّع للقيادة، أو الإرشاد للطريق الذي يلزم اتّباعه. أنا أكون مرتاحًا حين أتّبع الخطى التي يتركها الآخرون. وإذا كان عليَّ أن أخاطر باختيار مُريب، أفضل أن يتمَّ ذلك تحت إمرة فلان أو فلان يكون أكثر وثوقًا مني بآرائه، ويتشبث بها أفضل مما أفعل بآرائي، التي أعتبر أن أساسها أقل ثباتًا. ومع ذلك فأنا لا أغير أفكاري بسهولة، خاصةً حين أرى الضعف نفسه في الرأي المخالف. **«فالعادة في الموافقة تبدو أمرًا خطيرًا ومنزلقًا»**[3]. وفي الشؤون العمومية بالأخص، ثمة حقل شاسع للتردّد وللاحتجاج، إذحين تكون كفتا الميزان أيضًا مليئتين:

«فإنها لا ترتفع ولا تنخفض من أي جانب»[4].

56. كانت براهين ماكيافيلّي مثلًا قوية في موضوعه، ومع ذلك كان من السهل محاربتها. وأولئك الذين قاموا بذلك، لم يكن من الأصعب محاربة براهينهم هم بدورهم. يمكننا دومًا أن نجد في ذلك الموضوع ما يمكن الردّ به، ونقض الردّ، ونقض النقض، وهذه اللازمة التي لا نهاية لها من النقاشات، التي أطالتها الإجراءات القانونية، ما استطاعت ذلك، لصالح المحاكمات.

«نتلقى الضربة، غير أننا نرد على ضربة العدو ضربةً ضربةً»[5].

---

(1)Terence (108), I, 6, 32.

(2)**Actes des Apôtres**, I, 26.

(3)Cicéron (15), II, 21.

(4)Tibulle (104), IV, 1, v. 40.

(5) Horace [35] II, 2, v. 97.

والأسباب المذكورة هنا ليس لها من أساس قطّ غير التجربة، وتنوع الأحداث البشرية يقدم لنا عددًا لا يُحصى من الأمثلة في جميع الأشكال والأنواع.

57. يقول أحد معاصرينا من العلماء الأفذاذ: إن روزناماتنا حين يُقال في تقاويمها: إن الجو سيكون حارًا، يمكننا القول عوضًا عن ذلك: «باردًا»، وعوضًا عن ذلك الجاف نقول: «رطبًا». ومن يقابل ما هو متوقع دومًا بالنقيض، إذا ما كان عليه أن يراهن على ما سيقع، لن يخاطر بالحسم إلا بخصوص الأشياء التي لا جدال فيها، من قبيل أن يعِد بحرارة مفرطة في عيد ميلاد المسيح، أو ببرد شتاء قارس في عزّ الصيف. وأنا أفكر بالشكل نفسه في البراهين السياسية: فمهما كانت الوضعية التي وجدتَ نفسك فيها، فأنت في موقع أقوى من خصومك، عليك فقط ألا تقوم بمهاجمة مبادئ أولية وبالغة البداهة. لهذا، فمن وجهة نظري، ليس ثمة من طريقة للعمل مهما كانت سيئة لا تكون أفضل قيمةً من التغيُّر والتقلُّب، شرط أن تكون قديمة وثابتة. إن عوائدنا بالغة الفساد وتنحو نحو الأسوأ. وثمة الكثير من بين قوانيننا وعاداتنا وحشيةٌ ومرعبةُ. لكن صعوبة تحسين هذه الوضعية والأخطار الناجمة عن ذلك الانقلاب، تجعلني إذا رغبت في وضع عصا في تلك العجلة وإيقافها، سأقوم بذلك عن طيب خاطر.

«ليس ثمة أمثلة مخجلة جدًا وشائنة
لا نجد ثمة ما هو أسوأ منها»[1].

وما أعتبره الأسوأ في أيامنا هذه هو الاضطراب، وأن قوانيننا مثلها مثل لباسنا لا تستطيع اتخاذ شكل نهائي. من السهل جدًا مؤاخذة نظام حكم بنواقصه، بما أن كافة الأشياء الفانية مليئة بها. ومن السهل أن نثير لدى شعب ما الكراهية لتقاليده القديمة، فلا أحد قام بذلك ولم يبلغ مُرامه. لكن، أن نُقيم نظام حكم أفضلَ مكانَ ما قمنا بتدميره، فثمة العديدون ممن قاموا بذلك وندموا عليه حيث لا ينفعهم الندم.

58. وإني لا أقيم تقديرًا لحكمتي في تصرفاتي، أنصاع للانقياد حسب النظام العام للعالم. والشعب الذي يفعل ما يؤمَر به يكون سعيدًا أكثر من

(1)Juvénal (42), VIII, 183.

أولئك الذين يحكمونه، لأنه ليس له أن يهتم بالعلل وينصاع للحركة السماوية. الطاعة ليست دومًا خالصة ولا مطمئنة لدى من يحكّم عقله ويمارس الاحتجاج. بالجملة، حتى أعود إلى نفسي، فالنقطة الوحيدة التي من خلالها أعتبر أني شخص مهمّ، هي تلك التي لم يحس بها أحد ذو نقص؛ وثَنائي عادي وشعبي ومشترك، إذ مَن ذا الذي سبق له أن اعتبر نفسه أنه ينقصه الحكم العقلي؟ إنه سيكون مقترحًا يتضمن تناقضًا: وهو مرض لا نصادفه أبدًا حيثما نراه. بل هو مرض قوي ويتعذر استئصاله، لكن النظرة الأولى التي يلقيها عليه المريض تخترقه وتُبيده، كما شُعاع الشمس مع الضباب الكالح. وأن يتهم المرء نفسه في هذا الضمار يعني أن يقدم الاعتذار، وأن يحكم على نفسه يعني أن يحصل على الغفران. نحن نعترف بسهولة بالتفوق الذي للغير علينا حين يتعلق الأمر بالشجاعة والقوة الجسمانية والتجربة والرشاقة والجمال، لكننا لا نعترف لأي شخص آخر بالتفوق في مجال الحكم والأدلة، التي تنبع لدى الغير فقط من الحكمة الطبيعية، بحيث يبدو لنا أنه يكفي أن ندير نظرنا لذلك الجانب كي نعثر عليها. فالعلم والأسلوب وغيرهما من المزايا التي نراها في أعمال الغير، نعترف بها طواعيةً لو أنها جاوزت أعمالنا؛ أما مُنتجات العقل والذكاء، فإن كل واحد يعتقد أنه قادر على الحصول عليها بالطريقة نفسها، ولا يدرك إلا بصعوبة وزنها وصعوبتها، إلا إذا كانت قصيّةً جدًا. ومن سيرى جيدًا سموّ حكم شخص آخر، يمكنه أن يسمو بحكمه. إن ما أقوم به إذًا هو ضرب من التمرين، لا أنتظر منه الثناء الكثير، وعملٌ لن يمنحني سمعةً كبيرة.

59. ثم لمن نكتب نحن؟ فالناس العلماء الذي لهم نفوذ في مضمار الكتب لا يمنحون القيمة إلا للعلم، ولا يقبلون بأي منهج في الفكر، إلا منهج المعرفة الشاملة والفن. فإذا أنت خلطت بين سكيبيو الكبير والصغير[1]، فما يمكنك أن تقول بعد ذلك إذًا من كلام معقول؟ فحسبهما، من يجهل أرسطو يجهل في الآن ذاته نفسه. والعقول الفظة والعادية تكون حساسة شيئًا ما للفكر العميق. والحال أن ذيْنيك النوعيْن هما ما يشكّل الجمهور

(1) يحيل مونتيني هنا إلى الخلط الذي قام به بين سكيبيو الكبير والصغير في الكتاب الثالث، الفصل 13، الفقرة 117، والذي صححه في نسخة «بوردو» بخط يده.

العام. والنوع الثالث، الذي تقترح نفسك له، أي نوع العقول الحسنة التي تفكر بذاتها، هي من النّدرة بحيث إنها ليس لها من شهرة أو اعتراف بين ظهرانيْنا، وأن نرغب في التقرب منها والجهد في ذلك هو وقت نصف ضائع.

الحِلْم

60. يُقال في العادة: إن أعدل قسمة، تفضلت بها الطبيعة علينا، هي الفطرة السليمة[1]؛ وكل واحد يرضى بما قسمت له الطبيعة. أفليس ذلك معقولًا؟ ومن يريد أن يسير نظره إلى أبعد من ذلك، سيسعى إلى النظر أبْعد مما يبلغه نظره. أعتقد أن أفكاري حسنة وسليمة. لكن مَن ذا الذي لا يعتقد الشيء نفسه عن أفكاره؟ وأفضل الأدلة التي يمكنني سوْقها هنا عن ذلك، هو الاعتبار القليل الذي لي عن نفسي. فلو أن أفكاري لم تكن صلبة، فستنصاع بسهولة لخداع العاطفة التي أكنّها لنفسي، بما أني أجرُّ كل عاطفة إلى ذاتي ولا أنشرها أبدًا فيما حولي. وكل ما ينثره الآخرون منها على عدد لا يُحصى من الأصدقاء حول عظمتهم وسمعتهم، أكرسها أنا كلها لراحة عقلي ولنفسي. وما يفيض عن ذلك، لا يكون إراديًّا مني.

«فحسبي، أن أحيا وأكون في صحة جيدة، ذلك هو علمي»[2].

وإني أعتبر أن آرائي بالغة الجرأة والثبات فيما يتعلق بشجْب نواقصي. لكن من الحق أيضًا أن ذلك موضوع أمارس عليه حكمي أكثر من أي موضوع آخر. الناس ينظرون دومًا أمامهم؛ أما أنا فأدير نظري نحو الباطن، وأغرسه هناك، وهناك أمارسه. كل واحد ينظر أمامه، أما أنا فأنظر في باطني. أنا لا أهتم إلا بذاتي، أتفحص نفسي بلا كلل، أحلّل نفسي وأتذوق ذاتي. أما الآخرون فيروحون دومًا إلى أماكن أخرى، لو فكروا في ذلك فقط: فهم يسيرون قُدُمًا إلى الأمام.

(1) نحن نرى أن مونتيني قد قال هذا، قبل أن يستعيده ديكارت في عبارته الشهيرة: «الفطرة السليمة هي الشيء الوحيد الذي خضع لقسمة أفضل بين الناس».

(2)Lucrèce (47), V, 959.

«لا أحد يحاول أن يغوص في نفسه»[1].
فأنا أتمرغ في نفسي.

مهما كانت الطاقة التي أملك في فرز الحقيقي من الزائف، فإن تلك الحرية التي تجعلني لا أُخضع عنوةً ما أعتقد فيه لأي شيء آخر، أَدين بها لنفسي خصيصًا. فأفكاري الأشدّ قوة والأكثر عمومية، هي تلك التي وُلدت معي إذا جاز القول، فهي طبيعية لي وهي حقًا بنات ذهني. وقد أنتجتُها طازجة وبسيطة، ذات طريقة جريئة وقوية، وإن كانت غامضة شيئًا ما وغير مكتملة؛ لكني من حينئذٍ، أرسيتها وعزّزتها بالسلطة المرجعية للآخرين وبالأمثلة السليمة للقدماء الذين تلاقى حكمي مع أحكامهم. فلقد عضّدوا التحكم الذي لي فيها ومنحونا متعةً منها وتملّكًا أكبر لها.

أما سمعة الحيوية وسرعة البديهة التي يسعى إليها كافة الناس، فأزعم أني أحصل عليها بحياة بالغة التنظيم؛ وأما تلك التي تُنتظَر من عمل باهر ومشهور أو من قدرة معينة، فإني أنتظرها من النظام والتناغم ومن اعتدال آرائي وسلوكي. «**إذا كان ثمة شيء يمكننا امتداحه، فسيكون بداهةً هو ثبات السلوك، ذلك الذي لا يخيب في أي عمل خاص. بل من المحال الحفاظ على هذا الثبات، إذا ما ترك المرء طبعه كي يتبنى طبع الآخرين**». إلى هذا الحدّ إذًا أحس بتأنيب الضمير فيما قلت إنه الجزء الأول من رذيلة الادعاء. أما الجزء الثاني، ذلك الذي يتمثل في عدم الاعتبار الكافي للغير، فأنا لا أدري إن كنت أستطيع أن أبرئ ذمتي منه، فمهما تطلَّب مني ذلك فإنني قررت أن أقول فيه ما يلزم.

لعلَّ تعاملي المستمر مع التصورات الفكرية القديمة، والفكرة التي لديَّ عن تلك النفوس الرائعة من الأزمنة الماضية، هي التي تجعلني أشمئز من نفسي كما من غيري. أو لعلنا في الحقيقة نعيش في زمن لا ينتج إلا أشياء بالغة الوضاعة. ولذلك لا أرى فيه ما يستحق الإعجاب الكبير. لكن من الصحيح أيضًا، أني لا أعرف أناسًا كثيرين بما يكفي من الألفة معي، بحيث يمكنني الحكم عليهم، وأولئك الذين تمكنني وضعيتي من

(1) Perse.

ملاقاتهم في الغالب ليسوا إلا أناسًا يُبينون عن اهتمام ضحل بثقافة النفس، ولا يُقترح على عقولهم لكل نعيم غير الشرف، ولكل كمال غير الشجاعة. إن ما أراه جميلًا لدى الغير أمتدحه وأقدّره عن طيب خاطر. بل إني أزايد غالبًا فيما أراه فيهم وأسمح لنفسي أن أكذّبه حتى هذا الحدّ، أي أني غير قادر على الابتداع من عدم. أما أن أنسب لهم مزايا ليست من نصيبهم، فذلك أمر مستحيل لي؛ وليس بأكثر منه أن أدافع علنًا عن النواقص التي تعتريهم.

64. وأنا أشهد حتى لخصومي بشرفهم وبشكل صريح. قد تتغير أحاسيسي، أما حكمي العقلي فلا يتغير. ولا أخلط بين نزاعي وما لا يدخل فيه. فأنا غيور جدًا على حريتي في الحكم، بحيث لا يمكنني التخلي عنها إلا بصعوبة تحت ضغط نزوة من النزوات. علينا أن نسجل هذه العادة المستحسنة والنبيلة للفرس: فلقد كانوا يتحدثون عن أعدائهم من بني البشر، أولئك الذين كانوا يحاربونهم بإفراط، بالطريقة الشريفة والمنصفة التي تستحقها بسالتهم.

65. أعرف جيدًا رجالًا لهم الكثير من المزايا، بعضهم مزايا العقل والقلب والمهارة والعلم والفصاحة، وبعضهم الآخر مزية علم معين أو علم آخر. لكن الفرصة لم تسنح لي للوقوف على رجل عظيم له العديد من المزايا مجتمعةً، أو مزية واحدة، غير أنها بلغت شأوًا عظيمًا من الامتياز بحيث لا يمكن إلا أن نُعجب به ونضاهِيه بأولئك الذين نمجّدهم في القرون الماضية. والأعظم من بينهم الذي عرفته في حياته بالمزايا الطبيعية لروحه وشرف منشئه كان هو إيتيان دو لابويسي: فقد كان الرجل من النفوس الخيرة، وذا حضور رائق على جميع المستويات؛ إنه شخص على الطريقة القديمة، بحيث كان سيترك أعمالًا عظيمة لو كان القدَر شاء له ذلك، لأنه كان سيضيف الكثير لمواهبه الفطرية الغنية، بالدراسة والعلم. لكني لا أعرف كيف يحدث -وهو ما يحدث مع ذلك- أن يوجد الكثير من الغرور وضعف العقل لدى من يعتقدون بأن لهم الكثير من العلم، ويمارسون وظائف أدبية لها علاقة بالكتب، أكثر مما لدى أنواع آخرين من الناس. ربما يعود ذلك إلى أنهم يُطلب منهم الإنتاج أكثر، أو يُنتظر منهم أكثر مما

يُنتظر من الآخرين، ولا يمكن أن نعذرهم على الأخطاء العادية؛ أو لأن الفكرة التي يكوّنونها عن معرفتهم تمنحهم جسارة أكثر كي يكشفوا عن أنفسهم ويُبينوا عن حميميتهم، ومن ثمَّ يفضحون أنفسهم ويتسببون في ضياعهم. فكما أن صانعًا يكشف جيدًا عن وضاعته في اشتغاله على مادة نفيسة، إذا ما هو عالجها ونظمها بشكل غبي، ضدًا على قواعد فن صناعته، وذلك أكثر من مادة ذات قيمة بسيطة، بحيث إننا ننصدم أمام العيب الموجود في تمثال من الذهب أكثر من ذلك الذي يوجد في تمثال من الجصّ، كذلك فإن أناس الأدب يقومون بالشيء نفسه حين يستعرضون أشياء تكون جيدة بذاتها وفي مكانها، لأنهم يستعملونها بتهور، مُشرّفين ذكراهم على حساب ذكائهم وعقلهم؛ وهم حين يشرفون شيشرون وجالينوس أو القديس إيرونيموس يغدون بأنفسهم مسخرةً.

التربية

66. أعود مرةً أخرى لموضوع غباء التربية لدينا[1]. فقد كان الهدف منها لا جعلنا خيرين وحكماء، وإنما علماء؛ وقد بلغتْ ذلك بامتياز. فهي لم تعلمنا السعي للفضيلة واعتناقها، وإنما نقشت فينا حب فقه اللغة واشتقاق الكلمات. فنحن نعرف تصريف كلمة «فضيلة» إذا لم نكن قادرين على حبها. وإذا لم نكن نعرف ما الحكمة في الواقع والتجربة فنحن نعرفها بالكلام المحفوظ عن ظهر قلب. ونحن لا نكتفي عن جيراننا بمعرفة أصولهم العرقية، وقراباتهم وتحالفاتهم، بل نرغب في أن يكونوا أصدقاء لنا وإقامة حوار معهم في وئام. والحال أن تربيتنا علمتنا التعريفات والتقسيمات، وتقطيع الأجزاء المختلفة للفضيلة، مثل الأسماء التي تُمنح لتشعبات شجرة أنساب، من غير اهتمام بأن تؤالفها معنا بحيث تغدو علاقتنا بها حميمة. فالتربية لم تختر لتعليمنا الكتب التي تتضمن الأفكار السليمة والعادلة، وإنما تلك التي تتحدث بفصاحة أكثر اللغة اليونانية واللاتينية، وبهذه الكلمات الطنانة غرست في أذهاننا الأفكار الجوفاء عن العور القديمة. التربية الحسنة عليها أن

(1) الذي تناوله مونتيني في الفصل الأول، في الفقرتين 52 و26.

تغير من تفكيرنا وسلوكنا كما كان الحال مع أنطونيوس بّوليمون. فهذا الشاب اليوناني الفاسق، الذي أتى صدفةً لسماع درس من دروس زينوقراطيس لم يُعجب فقط بفصاحة الأستاذ وسعة علمه ومعرفته، ولم يعُد فقط من درسه بمعارف عن موضوع رائع؛ وإنما بربح أكبر وأكثر دوامًا، فلقد غيّر فجأة نمط حياته تاركًا مرة إلى الأبد تلك التي كان يعيشها لحدّ ذاك الوقت. من منا أحس أثرًا كهذا في التربية لدينا؟

«... أليس عليك أن تفعل
ما فعل بّوليمون في الماضي، حين تغيّر؟
أليس عليك أن تترك شارات جنونك
والشرائط والوسائد وغيرها من العَصابات
التي، كما زعموا نزعها عنه خِفيةً»[1].

الوضعية الاجتماعية التي علينا أن نزدريها أقلّ هي تلك التي في بساطتها تحتل المرتبة الأخيرة، وتُبين لنا عن علاقات إنسانية أكثر تناغمًا. فأنا أجد أن سلوك الفلاحين وكلامهم أكثر تواؤمًا مع الفلسفة الحقة، من كلام وسلوك فلاسفتنا أنفسهم: «**فالشعب البسيط أكثر حكمة لأنه لا يكون حكيمًا إلا بمقدار ما ينبغي**»[2].

67. الرجال الأكثر سطوعًا في مجال الحرب والفن العسكري، كما استطعت أن أحكم على ذلك من مظهرهم الخارجي -إذ لكي أحكم عليهم بطريقتي، كان عليَّ أن أسلط عليهم الضوء من كثب- كانوا هم فرانسوا دولورين، دوق دو غيز، الذي مات في مدينة أورليون، والراحل المارشال ستروتسي*[3]. وأوليفييه*[4] ولوبّيتال*[5]، مستشاريْ فرنسا[6]. يبدو لي أن الشعر عرف أيضًا حركة نشيطة في عصرنا، إذ إن لنا عددًا لا يستهان به

(1)Horace (34), II, 3, v. 253 sq.

(2)Lactance (43), II, 5.

(3) * بييرو ستروتسي (1510 م – 1558 م) قائد عسكري إيطالي، من عائلة ستروتسي الفلورنسية.

(4) * هو فرانسوا أوليفييه (1487 م – 1560 م) سياسي فرنسي، عين مستشارًا لفرنسا.

(5) * هو ميشيل دو لوبيتال (1403-1507 م – 1573 م) سياسي وشاعر فرنسي، عين مستشارًا لفرنسا.

(6) فرانسوا أوليفييه، كان مستشارًا في 1545 ؛ ومشيل دو لوبيتال، عينته كاترينا دي ميديشي مستشارًا عام 1560 م.

من الفنانين في هذه المهنة، كدورا*[1]، وبيزا*[2]، ولوبّيتال، وبيوكانان*[3]، ودو مونتدوريه*[4]، وتورنيبوس[5]. أما أولئك الذين ينظمونه بالفرنسية، فأعتقد أنهم سموْا بالشعر إلى أعلى قممه؛ وفي المجالات التي تبرز فيها قريحة رونسار*[6] ودو بيليه*[7]، أعتبر أنهما لا يقلان شأوًا عن الكمال الشعري القديم. وأدريانوس تورنيبوس كانت معرفته عميقة، وكان يعرف أفضل ما يعرف من أي شخص في عصره وفي عصور أخرى.

68. إن حياة دوق ألبا*[8]، الذي توفي مؤخرًا، وحياة قائد جيشنا مونتمورينسي[9] كانت حياة شريفة يقدم لنا مصير كل واحدة منها تشابهات مدهشة. بيد أن روعة الموت المجيد الذي عرفه هذا الأخير تحت أنظار الباريسيين ونظر مِلكه، في خدمته وضد أهله المقرَّبين، على رأس جيش يحقق الانتصارات بفضل قيادته الرشيدة، هذا الموت في عزّ الشيخوخة يستحق أن نجعله من بين أهم الأحداث في عصري. يمكننا أيضًا أن نشدّد على الطيبة القارّة للسيد دولانوي ولباقة سلوكه ولطافته الدائمة، وسط حشود جيوشٍ لا إيمان لها ولا قانون (إذ هي مدرسة حقة للخيانة والوحشية والسرقة) حيث عاش دائمًا كرجل حرب عظيم ومحنك.

---

(1) * هو جون دورا (1508 م – 1588 م) شاعر وأديب فرنسي. كان عضوا في «لابلياد» (مجمع أعلام الأدب والفكر)، ولم يكتب إلا باليونانية واللاتينية. كان أيضًا أستاذًا في الكوليج دو فرانس في عام 1560 م.

(2) نحن نعلم أن مونتيني كان يملك أشعارًا لاتينية لثيودور دو بيز في مكتبته. كان دو بيز تلميذًا لجون كالفِن، وعميدًا لأكاديمية جنيف.

(3) * مؤرخ إنجليزي لجأ إلى فرنسا وكان أستاذًا بمدينة بوردو بحيث كان مونتيني تلميذًا له. كان أيضًا أستاذًا لماري ستيوار. توفي عام 1582 م.

(4) * شاعر وعالم رياضيات توفي عام 1570 م.

(5) تحدث عنه مونتيني سابقًا. وتورنيبوس معروف كأديب أكثر منه كشاعر.

(6) * هو بيير دو رونسار (1524 م – 1585 م) شاعر غنائي فرنسي.

(7) هو مارتان دو بيليه (1495 م – 1559 م) مؤرخ فرنسي من طبقة النبلاء.

(8) * هو فرناندو ألفاريس دي توليدو (1507 م – 1582 م) قائد عسكري ودبلوماسي إسباني من طبقة النبلاء، وقد عرف بالشراسة. خدم الملكين كارلوس الخامس وفيليب الثاني ضد فرنسا والبرتغال وبلاد الإقليم الفلامندي، حيث قطع رأس ثمانية عشر ألف شخص ومعهم كونت هورن وكولت إيخمونت... هل كان مونتيني يعرف ذلك؟ نتمنى ألا يكون على علم به.

(9)هو آن دومونمورينسي. تقلد مناصب عدة في عهد الملك فرانسوا الأول، وقاد لفائدة الملك هنري الثاني حملة قمع ضد البروتستانتيين (وهو ما لم يمنعه من التدخل لفائدة ب. تاليسي، الذي كان معتقلًا، والذي تم سجنه من جديد ونهائيًا في معتقل «لاباستي» من 1580 إلى 1590. توفي مونتموريسي في سن الرابعة والسبعين في معركة سان دولي.

69. أما الفضائل الأخرى، فليس لها الكثير إن لم يكن لها من أهمية في عصرنا. بيْد أن الشجاعة صارت أمرًا عامًا في زمن الحرب الأهلية هذا. وفي هذا المضمار، ثمة بيننا شخصيات حازمة حتى الكمال، وبعدد لا يُحصى، بحيث يعسر الفرز بينها. ذلك ما عرفت حتى اليوم من عظمة رائعة لا نظير لها.

الفصل الثامن عشر

عن التّكْذيب

1. نعم. لكن سيُقال لي بأن هذا المشروع المتمثل في استخدام الذات موضوعًا لكتاب سيكون مقبولًا من أشخاص استثنائيين ومشهورين، يثيرون الرغبة في معرفتهم بسبب سمعتهم الطيبة. الأمر أكيد، وأنا أعترف بذلك. أعرف جيدًا أن الصانع بالكاد يرفع عينيه عن عمله لرؤية رجل عادي، أما لرؤية شخصية عظيمة معروفة، يكفيها أن تحلّ بالمدينة وها هي الورشات والمحلات كلها تُفرغ من أصحابها. ليس أمرًا مستحسنًا أن يثير المرء الانتباه إليه، إلا من يقدم لنا أسبابًا وجيهةً لكي نحْذو حذوه، ولكي تكون حياته وأفكاره لنا أنموذجًا. كان يوليوس قيصر وكسينوفون يتوفّران بعظمة ما قاما به على أساس صلب ومبرَّر يبنيان عليه قصتهما ويعززانها. ولهذا السبب نحن نأْسى لعدم اطلاعنا على يوميات الإسكندر الأكبر، أو شروح أغسطس وكاتو وبروتوس وآخرين تركوها عن أعمالهم. فحين يتعلق الأمر بشخصيات من قبيل هذه، نحب «بورتريهاتها» وندرسها، حتى لو كانت من برونز أو من حجر.

«أنا لا أقرأ ما أكتب إلا لأصدقائي، ومتى ما طلبوا مني ذلك لا في أي مكان، وأمام من هبّ ودبّ. لكن ثمة آخرون كثيرون يتلون كتاباتهم في المنتدى وحتى في الحمام العمومي»[1].
وأنا لا أنحت هنا تمثالًا كي يُنصَب في مدخل مدينة، أو في كنيسة أو ساحة عامة.
«لا أسعى إلى تضخيم
صفحاتي المليئة بالهراء
أنا أتحدث رأسًا لرأس»[2].

2. على ذلك التمثال أن يوضع في ركن من أركان المكتبة، كي يسلّي جارًا أو صديقًا سيجد متعةً في أن يلاقينا فيه ويُعيد الاتصال بي من خلاله. الآخرون وجدوا الشجاعة للحديث عن أنفسهم، لأنهم وجدوا في ذلك موضوعًا لائقًا وغنيًا؛ أما أنا، على العكس من ذلك، فقد وجدته عقيمًا وضَحْلًا بحيث لا يمكن إلا أن نرتاب فيه كموضوع للتباهي. أنا أحكم عن طيب خاطر على أعمال الآخرين. لكن أعمالي لا تستحق إلا القليل

(1)Horace (34), I, 4 v v. 73-75.
(2)Perse (70), V, 19.

من الكلام بما أنها غير موجودة. وإني لا أجد في نفسي ما يكفي من الأشياء الحسنة لأذكرها من غير أن أحمر خجلًا منها.

3. ستكون متعة رائقة لي أن أسمع أحدًا يتحدث هكذا عن طريقة الحياة والوجه والسلوك والكلمات الأكثر عادية وعن أسلافي. وكم سأكون بالغ الانتباه له. سيكون حقًا من باب الإبانة عن طبع سيء أن يزدري المرء «بورتريهات» أصدقائنا ومن سبقونا، وشكل لباسهم وأسلحتهم. فأنا أحتفظ منهم بالكتابة والخاتم وبكتاب المواقيت وبسيف كان لهم واستعملوه، ولم أنزع من مكتبي الخيزرانات الطويلة التي كان أبي يمسك بها دومًا بيده: **«لباس أب وخاتمه عزيزة على قلب أبنائه مقدار محبتهم له»**[1].

4. إذا ما كان لخَلَفي أذواق أخرى، فسيكون لي ما آخذ به ثأري منهم، إذ سيكون عدم اهتمامهم بي مقدار عدم اهتمامي بهم في ذلك الوقت! والتنازل الوحيد الذي أقوم به للجمهور، هو أن أمر بالمطبعة باعتبار أن الأمر أسهل وأكثر حيوية؛ وكجزاء على ذلك يمكنني أن أصلح للفّ قطعة زبدة في السوق!

> **«حتى يكون ثمة ما يكفي من اللفافات لقِطع التونة والزيتون[2]...**
> **وسأوفّر دومًا لسمك السّمقري حلته البهيّة»[3].**

5. وإذا لم يقرأني أحد، فهل سأكون قد أضعت وقتي بتكريس هذا العدد الهائل من ساعات الخمول لأفكار نافعة بقدر ما هي ممتعة؟ وأنا أنحت هذه الصورة تبعًا لهيئتي، كان عليَّ مرات أن أشكّل نفسي وأمنحها بعض النظام، حتى لا أستقي مني سوى الأنموذج، الذي صَلُب عوده وتشكّل بذاته. وأنا أرسم نفسي للآخرين، رسمت نفسي بألوان أوضح من تلك التي كانت لي في البداية. وأنا لم أصنع كتابي بقدر ما هو الذي صنعني. إنه كتاب يمتزج بصاحبه جوهريًا، فهو لا يهتم إلا بي، وهو يشكل جزءًا

(1) Sait Augustin (8), I, XIII.
(2) Martial (51), XIII, I.
(3) Catule (14), XCIV, 8.

لا يتجزّأ من حياتي؛ وليس له من مرمى ولا من هدف آخر خارجي عنه مثل كل الكتب الأخرى.

6. هل إنّي أضعتُ وقتي حين تفحّصت نفسي بطريقة مستمرة وبهذا القدْر من الدقّة؟ أولئك الذين ينظرون لأنفسهم فقط في الفكر والكلمات، في لحظة فقط من بين اللحظات، لا يتفحصون أنفسهم بعمق كبير، ولا يغوصون عميقًا في أنفسهم، كذلك الذي يجعل من حياته موضوع دراسة وكتابة ومهنة، ملتزمًا بأن يجعل لحياته سجلًا دائمًا بكامل إيمانه بها وبمُنتَهى قواه. أمتع اللذات تلذّذ بها المرء في باطنه، وهي تتفادى ترك آثار لها؛ إذ إنها تتوارى عن الأنظار، لا أنظار الجموع فقط وإنما أيضًا نظر شخص واحد.

7. كم من مرة جعلني هذا العمل أدير الظهر لتفكير مملّ؟ وعليَّ هنا أن أدرج في مضمار الأفكار المملّة كافة الأفكار النزقة. لقد حبَتنا الطبيعة بقدرة خارقة على أن نعزل أنفسنا في تفكيرنا؛ وهي تستدْرجنا لذلك مرّاتٍ ومراتٍ، كي تعلّمنا أننا نَدين بأنفسنا للمجتمع، لكن في الجانب الأكبر من ذلك لأنفسنا. وحتى أهدئ خيالي وأدعوه للحلم بخصوص مشروع منظَّم ما، وحتى أحميه من الضياع والتيْه مع الريح يكفي أن أجسّد أفكارًا صغيرة تعرض نفسها عليه وتسجيلها. وإني أصيخ السمع لأحلام يقظتي لأن عليَّ تقييدها في سجلّ. كم من مرّة حين أغتاظ من عمل ما تمنعني مدنيَّتي وعقلي من نقده علنًا، أقوم بالتخفُّف منه مع الإصرار في نواياي على أن أعْلم الجمهور بذلك! وطبعًا هذه الجَلْدات الشعرية:

> «ضربة في العين، ضربة في الوجه
> ضربة على ظهر القرد»[1].

تنْطبع أفضل على الورق منه على اللحم الحي. وماذا أقول سوى إنني أصيخ السمع بشكل أكثر اهتمامًا بالكتب منذ أن صرت مترصّدًا لها، كي أسْترِق منها شيئًا ما يمكّنني من تعزيز كتابي وتنويع معلوماته.

(1) Marot, **épître «Fripelipes, valet de Marot, à Sagon»**.

8. أنا لم أتابع الدراسة أبدًا كي أكتب كتابًا، وإنما تابعت الدراسة لأني قمت بذلك، إذا كانت الدراسة تعني على الأقل ملامسة مؤلف تارةً، وتارة مؤلفًا آخر بالرأس وأحيانًا بالركل بالرِّجل. وأبدًا لكي أشكِّل آرائي التي تشكلت مسبقًا منذ زمن طويل، وإنما لكي أعضّدها وأمدّ لها يد العون وأخدمها.

9. لكن، ما القول حين يتحدّث عن نفسه في وقت يعمُّه الفساد التام؟ لم يبق الكثير، بل لم يبق شيء حتى نصدقهم حين يتحدثون عن الآخرين، وهي وضعية لا فائدة فيها مع ذلك في الكذب. أول مرحلة في فساد العوائد هي نفي الحقيقة. ذلك أن الإنسان حين يكون حقيقيًا، كما يقول بنداروس، يكون ذلك بداية فضيلة كبرى؛ وهو الشيء الأول الذي يطلبه أفلاطون من حاكم «جمهوريته». الحقيقة في أيامنا هذه ليست هي ما هو كائن، وإنما ما هو يتيقّن منه الناس، بالشكل نفسه الذي نسمي به «نقودًا» ليس فقط ما هو شرعي منها وإنما ما أيضًا ما هو زائف ويُتداول أيضًا. إن أمتنا تُؤخذ عليها هذه الرذيلة منذ زمن: يقول سالفيانوس المارسيلي*[1] الذي كان يعيش في زمن فالنتينيانوس*[2]: إن الكذب والحنث ليسا رذيلتين وإنما هما طريقتان في الكلام. ومن يرغب في المزايدة على هذه الشهادة قد يقول إن ذلك قد صار لديهم فضيلة. فهم يتدربون ويتعودون عليهما، كما لو كان الأمر يتعلق بتمرين شريف، ذلك أن إحدى المزايا الرائعة لهذا القرن هي النفاق.

10. غالبًا ما تساءلت من أين أتت هذه العادة التي نتبّعها بصرامة، والمتمثّلة في أننا نحسّ بحدة أكثر بالوقْع السلبي للعتاب الذي يوجه لنا عن هذه الرذيلة، التي تبدو لنا عادية جدًا أكثر من أي رذيلة أخرى، وكيف أن الشتيمة الأشد حدّة، التي يمكن أن يوجهها لنا شخصٌ ما، هي أن يتهمنا بالكذب. لكني في الواقع أجد من الطبيعي أن ننكر العيوب التي تثقل كاهلنا أكثر. أخال أننا حين تمسنا تلك التهمة، وحين تستثيرنا، نرمي ببعض عبئها عنا. فإذا نحن

(1) كاتب لاتيني مسيحي من بلاد الغال. ولد في مدينة تريفيا حوالي 390م، وتزوج امرأة وثنية اعتنقت المسيحية، وعاشا حياة زهد في جنوب فرنسا. وصلنا منه كتابان أحدهما استقيت منه هذه العبارة.

(2) * هو فالنتينيانوس الثالث (419 م – 455 م) إمبراطور روماني.

تحملناها فعلًا، يمكننا حينئذٍ على الأقل أن نديها في الظاهر. لكن أليس ذلك لأن هذا العتاب يشمل الجبْن وجبْن القلب؟ أهناك جبن أكثر بداهةً من أن ينكر المرء كلمته؟ والأدهى من ذلك، أن ينفي أنه يعرف ذلك؟

11. ليس ثمة من رذيلة أبشع من الكذب؛ إنها رذيلة يصفها أحد القدامى بشكل مخجل حين يقول: إنها شهادة على مقْت الربّ، وشهادة على الخوف من الناس. وليس من الممكن أن نتصور بشكل كامل رعبه وانحطاطه وفساده الخلقي. فكيف يمكننا أن نتصوّر أمرًا أبشع من الخوف من الناس وإنكار الرب؟ وبما أن علاقاتنا الاجتماعية مبنية على الكلمة، فمن يخونها يخون أيضًا المجتمع نفسه. فهي الأداة الوحيدة التي يمكننا بوساطتها أن نبلغ مُبْتغياتنا وأفكارنا، فهي ترجمان أنفسنا. وإذا ما هي خانتنا، فلن نبقى مجتمعين، ولن نعرف بعضنا البعض أبدًا. وإذا ما تلاعبت بنا، فإن علاقاتنا الاجتماعية بكاملها ستنقطع، وستنهار كافة الروابط في مجتمعنا في الآن نفسه.

12. بعض الشعوب في بلاد الهند الجديدة (لا تهم أسماؤها، لأنها لم تعد موجودة؛ فالخراب الناجم عن ذلك الغزو، وهو من نوع خاص وغير مشهود، قد امتد حتى المحو الكامل لأسماء الخرائطية القديمة للأماكن)، بعض الشعوب إذًا، كانت تقدم لآلهتها دمًا بشريًا قرْبانًا، لكنه دم لا يُستقى إلا من اللسان والأذنين، وذلك كفّارةً عن خطيئة الكذب، المنطوق أو المسموع. أحد الضيوف في اليونان، سيقول إن الأطفال يتسلّون بالعظيْمات والكبار بالكلمات.

13. أما ما أنواع سُبُلنا في استعمال التكذيب، وما موقع قوانين الشرف لدينا في كل هذا، مع التغيرات التي طرأت عليها، فإني أؤجل إلى وقت آخر قوْل ما أعرفه عن الأمر. وفي غضون ذلك، سوف أسعى، إذا ما استطعت ذلك، إلى معرفة في أي وقت نشأت هذه العادة في وزن الكلمات بدقة وجعلها مرجعًا لشرفنا، ذلك أن من السهل التأكد أنها لم تكن سارية لدى الإغريق والرومان. وغالبًا ما بدا لي أمرًا غريبًا وغير مشهود، أن

يتبادلوا التكذيب والشتائم من غير أن ينجم عن ذلك صراع حقيقي. فقواعد سلوكهم كانت تتبع سُبلًا مختلفةً عن سبلنا. يُسمى يوليوس قيصر تارةً «سارقًا» وأخرى «عربيدًا» نظرًا لأنفه ولحيته. ويمكننا الوقوف على الحرية البالغة التي بها يتبادلون الشتائم، أعني القادة الكبار للحرب من هاتين الأمتيْن، حيث الثأر للكلام يتمّ بالكلام، من غير أن يكون لذلك نتيجة أخرى.

الفصل التاسع عشر

في حرية الضمير

1. من المعتاد أن نرى أن النوايا الحسنة، إذا ما هي كانت من غير محاذير، تقود الناس إلى أفعال قابلة للتجريم. ففي النقاش الذي قاد فرنسا إلى هذه الوضعية المضطربة بالحروب الأهلية، كان الطرف الأفضل والأرجح عقلًا هو بالتأكيد ذلك الذي يرغب في الحفاظ على الدين وعلى التنظيم السياسي القديم للبلاد. ومع ذلك، فمن بين الناس الأخيار المتحزبين له (فأنا لا أتحدث عن أولئك الذين يجدون في ذلك ذريعة لممارسة انتقام شخصي أو إشباع جشعهم، أو السعي إلى الحصول على فضل الأمراء، وإنما عن الذين يقومون بذلك بحماس حق نحو دينهم، وبهمّ نبيل في الحفاظ على السلم وحال وطنهم)، من بين أولئك الناس، أقول: نرى العديدين يقودهم هواهم إلى تجاوز حدود المعقول، ويدفعهم أحيانًا إلى اتخاذ قرارات غير عادلة وعنيفة بل أحيانًا خطيرة.

2. من الأكيد أن الحماس في ديننا في أزمنته الأولى، حين بدأ يحصل على بعض النفوذ بفضل الشرائع، كان وراء الحرب التي خاضها الكثيرون ضد كل الكتب الوثنية، والتي أحس أهل العلم والأدب كافة بحرقة كبيرة في فقدانها. وأنا أعتبر أن هذه الفوضى قد كانت مضرة بالآداب، أكثر من ضرر الحرائق التي كان وراءها المتوحشون. كان تاسيتوس مثالًا جيدًا على ذلك؛ فبالرغم من أن الإمبراطور تاسيتوس قريبه[1] أمَر بأن يتم وضع مصنّفاته في كافة مكتبات العالم، لم تسلمْ مع ذلك إلا نسخة واحدة منها، من البحث العنيد للذين أرادوا محو اسمه، بسبب خمس أو ست مقاطع بائسة مناقضة لديانتنا الحالية. وكان لهم أيضًا هذا الموقف الذي تمثّل في المديح المغالي لكل الأباطرة الذين كانوا مُوالين لنا نحن -المسيحيين- والإدانة الغريزية لكافة أعمال من كانوا خصومًا لنا. كما يمكن الوقوف على ذلك بسهولة في حال الإمبراطور يوليانوس[2]، الذي لُقِب بـ«المرتدّ».

3. إنه مع ذلك رجل باهر ورائع لأن روحه كانت متشبعة بعمق بالأفكار الفلسفية، وكان يحرص على أن ينظم بها كافة أعماله. والواقع أن ليس

(1) هذا الإمبراطور من مواليد عام 200 م، وقد كان يزعم أنه خلَف للمؤرخ كورنيليوس تاسيتوس الذي يأخذه مونتيني هنا مثالًا.

(2) كان ابن أخ الإمبراطور قسطنطينوس، وعاش بين عامي 331 و363 م، ولم يطل حكمه أكثر من سنتين من 362 الى 363. وقد فُرضت عليه الديانة المسيحية في طفولته، وارتد عنها بعد ذلك بسنوات. ومن ثم جاء ذلك اللقب.

ثمة نوعًا من أنواع الفضائل لم يترك لنا فيه أمثلة باهرة. فبخصوص العفّة -التي تمنحنا حياته شهادة واضحة عليها- نعلم عنه أنه كان ذا سلوك خليق بسلوك الإسكندر الأكبر وسكيبو. إذ وهُو لا يزال في عزّ الشباب –لأن البّارثيين قتلوه وهو لم يتعدّ بعد الحادية والثلاثين- ومن بين عدد كبير من الأسيرات الحسناوات، لم يرغب في أن يتمتّعبأي واحدة منهن. وحتى حين كان يسأله من يتقدم إليه من الناس وبفضول عن ديانته، لم تكن معارضته لديانتنا ذات وزن مؤثّر. فقد أصدر بنفسه العديد من القوانين الحسنة وأسقط عددًا كبيرًا من الضرائب والإتاوات، التي كان يحصل عليها سالفوه.

4. نحن نعرف مؤرّخيْن اثنيْن جيديْن كانا شاهديْ عيان على أعماله: أحدهما وهو أميانوس ماركلّينوس*[1]، يتحدث بفظاظة وفي العديد من مواطن تاريخه عن تلك التعليمات التي كان بها يوليانوس يمنع كافة البلاغيين والنحويين المسيحيين من التدريس في المدارس، مضيفًا أن هذا العمل يلزم أن يظل في طيّ الكتمان. ومن الواضح أن الإمبراطور يوليانوس لو كان قد قام بما هو أخطر من هذا، لما نسي ذكره أميانوس ماركلّينوس، لأنه كان مناصرًا لديننا. والحقيقة أن يوليانوس إذا كان فظًّا مع المسيحيين، فإنه لم يكن عدوًا قاسيًا. فحتى بعض المسيحيين يحكون عنه هذه الحكاية: حين كان يتجول يومًا حول مدينة خلقيدون، تجرأ «ماريس» أسقف المنطقة على نعته بأنهر«الخائن البائس ليسوع المسيح»، فاكتفى بالردّ عليه: «انصرف يا بائس، ابْك فقدان عينيك». فما كان من «ماريس» إلا أن أجاب: «أحْمد يسوع المسيح أنه حرمني من البصر حتى لا أرى وجهك الوقح». يحكي المؤرخون أن يوليانوس لم يقم سوى بالالتزام بالسكينة الفلسفية. يبقى أن هذه الواقعة لا تنسجم أبدًا مع الأعمال الوحشية، التي يُتّهم بأنه قام بها ضدنا. يقول فلافيوس أوتروبيوس[2] الشاهد الثاني الذي أسوقه هنا، إنه كان عدوًا للمسيحية، لكن من غير أن ينساق في ذلك للجرائم الدموية.

(1) * أميانوس ماركلّينوس (330 م تقريبًا – 395 م) هو آخر كبار المؤرخين الرومان، وهو من مواليد أنطاكية.

(2) مؤرخ لاتيني من القرن الرابع، كان سكرتيرًا للإمبراطور قنسطنطينوس. كتب موجز التاريخ الروماني في عشرة أجزاء.

5. وحتى أعود إلى مسألة العدل لديه، فليس ثمة ما يمكن أن نؤاخذه عليه، سوى الصرامة التي أبان عنها في بداية حكمه، في حقّ أولئك الذين ناصروا سلَفه الإمبراطور قنسطنطينوس. أما عن تقشفه فيمكننا القول إنه كان يعيش على طريقة الجندي، ويتغذى في وقت السلم مثل شخص يتهيّأ للتعوّد على الزهد في الطعام في وقت الحرب. وكانت حيطته من الكبَر بحيث إنه كان يقسّم الليل إلى ثلاث أو أربع فترات، بحيث إن تلك التي يكرّسها للنوم كانت الأقصر من بينها؛ أما الباقي فيخصصه لتفقُّد أحوال جيشه وحرسه بنفسه أو للدّرس. ومن بين مزاياه الأخرى الاستثنائية أنه كان أيضًا عارفًا جيدًا بجميع ميادين الآداب. يُحكى أن الإسكندر الأكبر حين كان ممدّدًا، وخوفًا من أن يداهمه النوم ويحيد به عن تأملاته ودراساتهَ، كان يجعل سريره قرب حوض ماء ويضع فوقه كرة نحاس يمسكها بيد. فإذا ما داهمه النوم يُرخي النوم قبضة يده، فتسقط الكرة في الحوض بحيث يوقظه صوتها. بيْد أن يوليانوس، الذي كان عقله مشدودًا أكثر لما يرغب فيه، وغير مشّوش بفضل عفّته الاستثنائية، لم يكن بحاجة أبدًا لهذه الحيلة.

6. أما بخصوص مقدراته العسكرية، فقد كان رائعًا في كافة الميادين التي تجعل المرء قائدًا عظيمًا. فقد كان طوال حياته أو أكثرها يقوم بالحملات العسكرية المتواصلة، وأغلبها كانت معنا نحن -الفرنسيين- ضد الألمان. ونحن لم نحتفظ في ذاكرتنا بشخص تحدى أكثر المخاطر مثله أو تعرّض لها مثله. وموته يشبه بعض الشيء موت إبامينونداس، فقد أصابه رمح حاول انتزاعه من جسده، وكان سيتوصل إلى ذلك لو لم يكن النصل حادًا فجرح يده التي أصابها الوَهَن. وطلب بإلحاح بأن يُقاد على ذلك الحال إلى لجّة المعركة كي يشجع بها رجاله. غير أن هؤلاء تابعوا المعركة من غيره، ببسالةٍ كبرى، حتى حلّ الليل وانفصل الجيشان. وهو كان يَدين للفلسفة بازدراء خاص لحياته وللأمور الدّنيوية. فقد كان يؤمن إيمانًا لا يلين بخلود الأنفس.

7. كان على خطأ تام في مجال الدين، حتى إنه لُقّب بالمرتدّ لأنه تخلى عن ديننا. ويبدو لي أنه لم يؤمن به أبدًا إيمانًا عميقًا، بل تظاهر بذلك

ليُداري القوانين حتى اللحظة التي أخذ فيها بعنان الحكم. كان إيمانه عميقًا ودقيقًا بدينه، بحيث إن أولئك الذين كانوا يتّبعونه فيه كانوا يسخرون منه، فكانوا يقولون إنه لو كان انتصر على البارثيين، كان سيعدم جنس الأبقار لكي يقدمها قرابين للآلهة. كان أيضًا يتعاطى بهلوانيات العِرافة ويمنح السلطة لكافة أنواع التكهُّنات. وقد قال وهو يُحتَضر، من بين ما قال: إنه يحمد الآلهة ويشكرها على أن أجله لم يأته مباغَتةً لأنها أخطرته مسبقًا بساعة موته ومكانه. كما شكرها على أنها لم تُمته جبانًا في حال الضعف، إذ هو موتٌ ملائم للأشخاص الرهيفين الخمولين، ولا تدريجيًا بعد معاناة طويلة، وأنها جادت عليه بموت كريم، بهذه الطريقة الشريفة وسط انتصاراته وفي عزّ مجده. لقد كانت له الرؤية النبوئية نفسها التي كانت لماركوس بروتوس[1] المرة الأولى في بلاد الغال والثانية مرة أخرى في بلاد فارس لحظة مماته.

8. والكلمات التي رواها البعض على لسانه حين أحس بالضربة القاتلة: «لقد انتصرت أيها النصراني...»، وحسب آخرين: «فلتفرحْ أيها النصراني»، لم تكن لتُنسى تأكيدًا، لو أن من أُثبت هنا شهادتهم وثقوا بها. فلقد كانوا حاضرين في جيشه، ووثّقوا نهايته بأقل حركاتها وسكناتها، غير أنهم لم يتركوا لنا أثرًا لتلك العبارات لحظة موته، ولا بعض الكرامات والمعجزات المتصلة بها.

9. وحتى أعود إلى كلامي الأول، فقد كان يغذي في نفسه من زمنٍ الديانة الوثنية كما يقول أميانوس ماركلّينوس؛ لكن بما أن جيشه كان مكونًا كله من المسيحيين، فهو لم يكن يجرؤ على الإعلان عن ذلك. وحين أحس بأنه صار قويًا بما يكفي لكي يكشف عن أحاسيسه الدينية، قام بتشييد معابد للآلهة، وسعى بكافة الوسائل لاستعادة شرف عبادة الأصنام. ولكي يبلغ مبتغاه، وبعد أن عثر في بيزنطة على شعب يعيش الانشقاق بسبب أساقفته المتصارعين، جاء بهؤلاء الأخيرين إلى قصره وألح عليهم بنزع شوكة هذا الشِّقاق المدني، بحيث يمكن لأي واحد من غير خطر أو خوف أن يتعاطى ديانته. وإذا ما رأيناه يطلب هذا بإلحاح،

(1) قاتل يوليوس قيصر.

فقد كان ذلك أملًا منه في أن تكون تلك الحرية وراء تأجيج المناورات والانشقاقات، بحيث يمنع ذلك الشعب من الإحساس بالتضامن، ومن ثم من الاتحاد ضده باتفاق أطرافه وتفاهمهم المتبادل. فلقد كان على بيّنة، بسبب خطأ بعض المسيحيين[1]، بأن ليس من حيوان في العالم يمكن أن يخاف منه ابن آدم غير ابن آدم نفسه.

10. هذا هو على وجه التقريب ما يمكن أن يقوله لنا التاريخ، وفي أي منحى يستحق موقف الإمبراطور يوليانوس التقدير. فهو لكي يؤجّج الانشقاقات المدنية استخدم الوصْفة نفسها التي استخدمها مؤخرًا ملوكنا لإخمادها، أعني حرية الضمير[2]. يمكننا القول من جهة إن إطلاق العنان وتمكين مختلف المِلل من تطوير وجهة نظرها، يعني نشر الشقاق وزرعه، بل إنه ربما طريقة للزيادة في حدّته، بما أنْ ليس ثمة من حاجز يلجمه أو يحبس انطلاقه. لكن يمكننا القول من ناحية أخرى إن منح التيارات المختلفة السهولة واليُسر وسيلةٌ لإضعافها، وأنها سبيل لتثلّم ما تشحذه بالمقابل النُّدرة والجدّة والصعوبة. وما أومن به عن طواعية، مُشرِّفًا بذلك تقيَّة ملوكنا، هو أنهم تظاهروا بالرغبة فيما يقدرون عليه بسبب عجزهم عن القيام بما يرغبون فيه.

(1) ونحن نقرأ للديح الذي يكيله هنا مونتيني ليوليانوس (ولو أنه مديح حذر)، والنقد الذي يقوم به لبعض المسيحيين، نفهم لماذا طلبت رقابة الفاتيكان منه حذف هذا الفصل.

(2) يتعلق الأمر بالمعاهدتين (1576 و1577)، اللتين منحتا للبروتستانتيين أمكنة «آمنة» حيث يكونون أحرارًا في ممارسة عباداتهم

الفصل العشرون

نحن لا نتذوَّق أي شيء خالِصًا

1. إن نقائص طبيعتنا البشرية تجعلنا غير قادرين على استخدام الأشياء بشكل بسيط وطبيعي. فالعناصر التي نستعمل يتم تغييرها وتحويلها، حتى المعادن والذهب، الذي نحطمه كي نجعله قابلًا للاستعمال. فلا الفضيلة في حدّ ذاتها التي جعلها أرسطونْ[1] وبيرّوس وأيضًا الرواقيون هدفًا للوجود، لم يمكن استعمالها أيضًا من غير مزيج، ولا لذة القورينيين وأريستبّوس نفسها. ليس ثمّة واحدةٌ من بين الملذات والخيرات التي لنا تكون خالصةً من المزيج مع الألم والإزعاج.

«ثمة في معين الملذات، نفحة مرارة
وسط الزهور تتعالى وتقلقنا»[2].

2. إن لذتنا القصوى تشبه شيئًا ما الأنين والشكوى. ألا نقول عن الشخص إنه يموت قلقًا؟ ثم إننا حين نسعى إلى أن نعبّر بالضبط عن المرض والألم، نحشوه بالنعوت والأوصاف من قبيل الخمول والرخاوة والضعف والوهن والقرف. وذلك يبيّن إلى أي حدّ تتقاسم اللذة والألم الدّم نفسه والمادّة نفسها. فالفرح العميق متشنّج أكثر منه مرِح. والسعادة القصوى تكون هادئة أكثر من كونها مرِحة: «**السعادة نفسها إذا لم تكن معتدلة تؤلمنا**».[3]. وهاكم ما جاء في بيت شعري قديم: «**الآلهة تبيعنا كل الخيرات التي تمنحنا**»[4]، وهو ما يعني أنها لا تمنحنا شيئًا يكون خالصًا، ولا نبتاعه منها إلا بشيء من الألم.

3. الألم واللذة، مع أنهما مختلفان بالطبيعة، يترابطان بعُزوة طبيعية معيّنة. يقول سقراط: إن أحد الآلهة حاول الجمع بين الألم واللذة وصهرهما معًا، لكن بما أنه لم يتوصّل إلى ذلك، جاءته فكرة أن يربطهما على الأقل من الذيل. ويقول ميترودوروس[5]: إن شيئًا ما من اللذة تتسلّل إلى الحزن. وأنا لا أدري إن كان يعني شيئًا آخر، لكن فيما

---

(1) كانت تعاليم أرسطون الخيوسي تقول إن «الخير الأسمى يوجد في الفضيلة» (حوالي 270 ق. م).

(2)Lucrèce (47), IV, v v. 1133-1134.

(3)Sénèque (96), LXXIV.

(4) يترجم مونتيني بنفسه هنا بيتًا للشاعر إبيخارموس استقاه من كتاب «المذكرات» لكسينوفون. لكنه يبدو أنه ترجمه من صيغته اللاتينية لدى استوبايوس.

(5) هو ميترودوروس اللامبساكي، تلميذ الفيلسوف اليوناني أناكساغوراس.

يخصّني أتخيّل أن ثمة بعض القصد والموافقة والمحاباة في أن ينغمس المرء في الكآبة؛ فعلاوة على الطموح الذي قد يمتزج بالكآبة، يبدو لي أن ثمة نزْرًا يسيرًا من الحلاوة والرقّة تبتسم لنا وتغرينا. أليست هناك بعض الأمزجة التي تجعل منها غذاءًا لها؟

«ثمة اللذة في الدموع»[1].

وكما يقول أتّالوس، أحد شخصيات سينيكا: «**تكون ذكرى أصدقائنا رائقة كمرارة نبيذ معتّق**[2]. **أيها العبد الشاب، أنت الذي يسقي خمرًا معتقًّا من منطقة فاليرنا، اسكب في أقداحنا خمرًا مرًّا**»[3]. مثل تفاح حامض وحلو في الآن نفسه.

4. تكشف لنا الطبيعة عن مزيجٍ من النوع نفسه. فالرسامون يعرفون أن حركات الوجه وتجاعيده التي تستعمل في البكاء تصلح أيضًا لرسم الضحك. والأمر أنك إذا شاهدت لوحة في طور التشكيل قبل أن يتم الانتهاء من أحد هذين التعبيرين، فإنك ستجد صعوبةً في معرفة أي التعبيرين تسير اللوحة نحو رسمه. بل إن الضحك الشديد، ألا يكون ممزوجًا بالدموع؟ «**ليس هناك من ألم لا يكون له بدَلٌ**»[4].

5. حين أتخيل الإنسان مُحاصَرًا بالملذات الغاوية، كما مثلًا حين تكون أطرافه فريسة للذة شبيهة بلذة الجماع، فأنا أحس أنه سينهار تحت وطأة سعادته، بحيث سيكون غير قادر مطلقًا على أن يتحمّل لذة خالصة وثابتة وكونية. والأمر أنه حين يبلغها فإنه يسرع بشكل طبيعي إلى الانفلات منها، كما من ممّر سيّء لا يمكن أن يسير فيه ثابت الخطى، بحيث يخشى على نفسه من الهلاك.

6. حين أتفحَّص نفسي بدقة، فإني أجد أيضًا في أحسن مزاياي شيئًا ما

(1)Ovide (63), IV, 3, v. 27.

(2) لم يكن ذوق القدماء شبيهًا بذوقنا، وهو ما يؤكده ما سبلي.

(3) Catulle (14), XXVII, I.

(4) Sénèque (96), LXIX.

سيئًا. أنا أحس نحو الفضيلة الصارمة التي يُبدي عنها أفلاطون تقديرًا صادقًا ووفيًا، كما هو الأمر مع كافة الفضائل من المستوى نفسه. وربما كان هو، الذي يعرف كيف يتأملها جيدًا، قد كشف فيَّ شيئًا منحرفًا، أي شيئًا له جانب «مختلط» ذو طابع بشريّ خالص. لكن الأمر مع ذلك يتعلق بجانب بَهيم لا يمكن أن نحسّه إلا بأنفسنا. فالإنسان في كل شيء وكل مكان، ليس سوى ترْقيع وتلْوين.

7. إن قوانين العدالة نفسها لا يمكن أن تحافظ على استمرارها من غير بعض الخليط من الظلم. وكما يقول أفلاطون، فأولئك الذين يزعمون قدرتهم على نزع كافة المساوئ والمزعجات من القوانين يسعون إلى قطع رأس الغول. **«كل عقاب مثالي يتضمّن شيئًا ما ظالمًا للأفراد، غير أنه يُعوَّض بالمصلحة العامة»**[1].

8. وبالشكلِ نفسه، من الممكن في الحياة العادية، وفي ضرورات العلاقات الإنسانية، أن يكون ثمّة إفراط في طهارة عقولنا وتبصُّرها. فهذا الوضوح النافذ له الكثير من الرهافة والدقة، وعلينا إضعافهما لجعلهما متلائميْن مع المثال ومع الممارسة، وتكثيفهما وتعتيمهما لكي يتناغما مع هذا الوجود الدنيوي المعْتم. لهذا فالعقول الأكثر عاديّة والأقل توقُّدًا هي الأكثر مواءمةً لتسيير الشؤون، وهي التي تنجح في ذلك أكثر، والأفكار السامية والرفيعة للفلسفة لا تتلاءم مع الممارسة. إن هذه الحيوية الحادة للعقل وتلك الطّلاقة المرنة القلقة تشوّش على المفاوضات. ففي مجال الشؤون البشرية، على المرء أن يتصرّف بطريقة فجّة وسطحية، ويترك لتلاعبات القدَر حصة كبيرة وواضحة. ولا حاجة لتوضيح تلك الأمور بشكل عميق ودقيق، إذِ المرء يضلُّ سبيله وهو يتأمل فيها العديد من الجوانب المتناقضة والأشكال المتنوعة: **«فمن كثرة التأرجح بين أسباب متناقضة، صارت عقولهم مشلولة»**[2].

(1) Tacite (100), XIV, 44.

(2) Tite-Live (105), XXXII, 20.

9. ذلك ما كان يقوله القدماء عن سيمونيديس*[1]، فبما أن الملك هيرون طلب منه أمرًا، تفكَّر في الأمر أيامًا عديدة. واخترقت ذهنه العديد من الاعتبارات الحادة والدقيقة، وظلّ غارقًا في الشكّ والحيرة، لا يدري ما كان أقرب الأمور للحقيقة، بحيث إنه يئس تمامًا من العثور عليها.

10. إن من يسعى إلى معرفة نتائج شأن من الشؤون وظروفه فيتصورها، يمنع نفسه في الآن نفسه من القدرة على اتخاذ قرار بشأنها. فالعقل المتوسط يقوم بالأمور بشكل مماثل لما يقوم به العقل الحصيف، ويكون كافيًا لإنجاز الأمور الصغيرة أو الكبيرة. تأملوا كيف أن الإداريين الكبار هم أولئك الذين لا يستطيعون أن يقولوا لنا كيف هم كذلك ناجحون، وكيف أن الناس الفصيحين لا يقومون في غالب الأشياء بأشياء نافعة. أعرف رجلًا بالغ الفصاحة والكلام ومتحدثًا بارعًا عن كافة أنواع تدبير الشؤون المنزلية، ترك بشكل بائس مئة ألف ريال من المداخيل، تنفلت من بين يديه. وأعرف رجلًا آخر يلقي الخطابات الطويلة، ويدّعي إبداء آراء أفضل من أي شخص آخر من مستشاريه، وليس له في الحقيقة مثيل في جمال مظهر العقل والمؤهلات. ومع ذلك فإن لخدمه عنه رأي آخر مخالف تمامًا في الممارسة. وأنا أقول هذا من غير أن آخذ بعين الاعتبار الحظ السيء الذي لاقى في حياته.

(1) * سيمونيديس الخيوسي (556 ق.م تقريبًا – 468 ق.م تقريبًا) شاعر غنائي إغريقي.

الفصل الحادي والعشرون

ضدّ الكسل والخُمول

1. بعد أن ألمّ بالإمبراطور فسباسيانوس مرض عُضال كان من المُنتظر أن يضع حدًّا لحياته، ظلّ يرغب باستمرار في أن يكون على اطّلاع على أخبار شؤون الإمبراطورية، ومن سرير المرض كان يحلّ العديد من المعضلات المهمة. وبما أن طبيبه كان يعاتبه على ذلك، لأنه عمل مضرّ له بصحته، قال: «على الإمبراطور أن يموت واقفًا». يا لها من عبارة رائعة وخليقة بأمير عظيم. وسوف يستعملها الإمبراطور هادريانوس فيما بعد وفي ظروف مغايرة. وعلينا أن نذكِّر بها الملوك أكثر، لكي نجعلهم يحسّون أن هذه المسؤولية العظمى الممنوحة لهم، لقيادة هذا العدد الهائل من الناس ليست مسؤولية الخاملين، وأنْ ليس هناك شيء قد يُثْني رعايا أمير عن الوفاء له والتضحية بحياتهم في خدمته أكثر، من أن يروْه يتعاطى بلامبالاة اهتمامات سطحية وغير نافعة، ولا شيء يمكن أن يُثبط عزيمتهم في الاهتمام بحياته، أكثر من أن يروه غير مُبالٍ بحياتهم هم.

2. حين سيأتي أحد ليقول لنا إن من الأفضل للأمير أن يفوضّ أمر قيادة حروبه إلى شخص آخر، فإن الصدفة ستمنحه ما يكفي من الأمثلة عن القوّاد الذين أنجزوا بنجاح أعمالًا عظيمة، كما عن أولئك الذين كان ضرَر وجودهم في ساحة المعركة أكثر من منفعته. لكن ليس ثمة من أميرٍ باسل شجاع يمكن أن يعاني من إعطائه مثل هذه الدروس المُخجلة. فبذريعة الحفاظ على الحظّ السعيد المتصل بمقامه، كما لو تعلق الأمر بهالة على رأس تمثال قديس، يتمّ حرمانه من دوره المنذور كليةً للعمل العسكري، ويتم اعتباره فاقدًا للأهلية.

3. وأنا أعرف أحدهم[1] يُفضل الهزيمة على أن يظلّ نائمًا، فيما الآخرون يحاربون من أجله، ولا يعيش من غير أن يحسّ بالغيرة من رجاله الذين ينجزون عملًا عظيمًا في غيبته. وقد كان السلطان سليم الأول[2] على حقّ في قوله، حسب ما أعتقد: إن النصر الذي يُحقَّق من غير وجود السيد نصر غير كامل؛ خاصةً، كما قال، وأن هذا السيد عليه أن يحمرّ

(1) هو هنري الرابع ملك فرنسا.
(2) السلطان العثماني (1467-1520) الشهير بفتوحاته، وخاصةً منها الاستيلاء على مصر.

خجلًا حين يزعم أنه شارك فيه، مع أنه لم يستعمل في ذلك غير الكلام والفكر. والأمر صحيح تمامًا، ففي هذه الشؤون تكون الآراء والأوامر التي تؤدي للشرف هي فقط تلك التي تُعطى في الميدان، وفي قلب المعركة نفسها. لا يمكن لأيّ ربان سفينة أن يلعب دوره من اليابسة. فالأمراء من العثمانيين قد تبنّوا بصرامة هذا الرأي؛ ويمكننا القول إن السلطان بيازيد الثاني وابنه[1]، اللذيْن أدارا الظهر لذلك، مشغولَيْن بالعلوم وغيرها من الاهتمامات العائلية، قد تسبّبا في أكبر الضرر للإمبراطورية. والسلطان الذي يحكم حاليًا، مراد الثالث[2]، يبدو أنه يسلك السبيل نفسه باتباع نهجهما. أليس إدوارد الثالث ملك إنجلترا من قال عن ملكنا كارلوس الخامس: «لم أعرف أبدًا ملكًا مثله لم يحمل السلاح، غير أني مع ذلك لم أعرف ملكًا مثله خلق لي المشكلات، وكان شوكةً في حلقي». لقد كان على حق في اعتباره ذلك أمرًا غريبًا، وأكثر في اعتباره أثرًا للقدَر أكثر منه للعقل. وليبحثوا عن شخص آخر غيري ليؤكد زعمهم، أولئك الذين يعتبرون ملوك قشتالة والبرتغال غزاةً محاربين ومتّسمين بالشهامة، ذلك أنهم صاروا بفضل وكلائهم أسيادًا لبلاد الهند الغربية والشرقية، على بُعد ألف ومئتي فرسخ من مُقامهم حيث كانوا يعيشون العطالة والخمول: ونحن نتساءل إن كان لهم فقط الشجاعة لزيارة تلك البلدان للتمتّع بها.

4. كان الإمبراطور يوليانوس يقول ما هو أفضل من ذلك، أيْ إن الفيلسوف والرجل الظريف ليس عليهما الاكتفاء بالتنفُّس، أي: ألاّ يكتفيا بمنح الجسد ما يمكننا رفضه له، وإنما أن يجعلا من نفسيهما وجسدهما مشغولَيْن بالأشياء العظيمة والجميلة والنبيلة. ولقد كان يحس بالخجل إذا ما رآه أحد يبصق أو يعرق أمام الملأ -وهو ما يُقال أيضًا عن شباب إسبرطة، ويقوله كسينوفون عن شباب بلاد فارس- لأنه كان يعتبر أن المجاهدة والعمل الدائم والرصانة عليها أن تكون قد قضت على كل هذه النوافل. وما يقوله سينيكا عن الرومان القدماء

(1) حكم السلطان بيازيد الثاني من 1481 إلى 1512 م، وعكس ما يقول مونتيني فقد قاد العديد من المعارك، غير أنه فعلًا لم يحقق الانتصارات المنتظرة ضد المصريين. والابن المذكور هنا ليس سليم الأول الذي ولاه الإنكشاريون على الحكم وإنما قورقود.

(2) كان حكمه بين عامي 1574 و1596 م.

الذين كانوا يجعلون من شبابهم أناسًا قويمين أمرٌ يجد مكانه هنا: **«كانوا لا يعلمون أبناءهم شيئًا يمكن تعلمه جُلوسًا»**[1].

5. إنها لرغبة نبيلة أن يتمنى المرء الموت بشكلٍ مفيدٍ وبشجاعة؛ لكن أن يبلغ ذلك أمرٌ لا يرتهن بقرارنا الخاص بقدر ارتهانه بالحظ. فثمة المئات من الأشخاص أرادوا إما الانتصار أو الموت في ساحة الوغى، ولم يفلحوا لا في هذا ولا في ذاك، إذ جاءت الجراح أو الأسر لتقف في وجه هدفهم، بحيث فُرضت عليهم الحياة بالقوة. وثمة أمراض تقتل حتى رغباتنا وتجعلنا نفقد الوعي.

6. لم يكن لرياح الصدفة أن تهب لصالح الجيوش الرومانية. فهذه الأخيرة فرضت على نفسها بالقسَم أن تنتصر أو تموت. «يا ماركوس فابيوس، عليَّ العودة بالنصر. وإذا ما أنا أخفقت في ذلك فلينصبَّ عليَّ غضب يوبيتر أبي الآلهة ومارس غراديفوس*([2]) وغيرهما من الآلهة». يقول البرتغاليون إنهم لاقوا في بعض الأمصار، خلال غزوهم لبلاد الهند، جنودًا حكموا على أنفسهم بصيغ مرعبة من اللعنة: بألا يقبلوا من مخرج سوى أن يُقتلوا أو يظلوا ناعمين بالانتصار. ولكي يتذكّروا هذا النذر، كانوا يحلقون رؤوسهم ولحاهم. كم ركبْنا المخاطر وحافظْنا على عنادنا، إذ يبدو أن الضربات تهرب ممن يتقدمون لها ببشاشة، ولا تصيب غالبًا من يتعرض لها طوعًا، مضلِّلةً إياهم عن هدفهم. والبعض منهم حين لا يتوصّلون إلى فقدان الحياة بسبب أعدائهم، بعد أن يكونوا قد حاولوا كلّ شيء، يجدون أنفسهم مضطرين للتلاؤم مع قرارهم، أي العودة من المعركة مشرّفين، أو عدم العودة منها بقتل أنفسهم في لجَّة المعركة. ثمة أمثلة أخرى كثيرة، إليكم بعضها: كان فيليستوس، قائد القوات البحرية لديونيسيوس الصغير في الحرب مع السيراقوسيين، قد خاض ضد هؤلاء معركة تعادل فيها الطرفان في القوة والشراسة. ثم بدأت معالم الانتصار تبدو في الأفق بفضل إقدامه وبراعته؛ لكن السيراقوسيين حاصروا سفينته الحربية كي يستولوا عليها، وبعد أن

(1)Sénèque (96), XCIC.

(2) * إله روماني يُقسم به الجنود والقادة الرومانيون تعاهدا على القتال بشجاعة قبيل المعركة.

جاهد ببسالة كي يسعى للتخلص من الحصار، عمد بنفسه إلى حرمان نفسه من الحياة التي وضعها كليةً بين أيدي العدو، وبلا جدوى.

7. ومولاي عبد الملك[1] سلطان فاس، الذي ربح مؤخرًا معركة عظمى ضد سيباستياو ملك البرتغال -وهو يومٌ شهيرٌ لأنه عرف موت ثلاثة ملوك، وانتقال التاج البرتغالي العظيم إلى تاج قشتالة- ألمّ به المرض حين دخل البرتغاليون إلى بلده مشهرين سلاحهم، وسار حاله من سيء إلى أسوأ بحيث صار ينبئ بقرب أجله. لم أعرف شخصًا أبدًا دفع حياته بقوة وبسالة في سبيل بلده. وبما أنه كان مصابًا بالوَهن بحيث لا يستطيع تحمّل الطابع الاحتفالي لدخوله إلى معسكره، الذي حسب عادتهم يكون مليئًا بروعة الاستعراضات المختلفة، كلّف أخاه بهذا الشرف، وكانت تلك الوظيفة الوحيدة التي قام بتفويضها لغيره. فقد أنجز كافة المهام الأخرى الضرورة والمجْدية بدقة وحماس. بقي السلطان طريح الفراش، غير أنه ظلّ يسهر على شؤون المعركة على قدم وساق، حتى آخر نفَس لذكائه وشجاعته، بل بشكل يفوق ذلك. كان بإمكانه أن ينكّلَ بقوى العدوّ التي كانت قد توغّلت عميقًا في أراضيه؛ غير أنه كان يشقُّ عليه، وأجلُه قد حان وليس له من يوكل إليه مهمة متابعة تلك الحرب وشؤون دولة تعمّها الاضطرابات والفتن، أن يحس أنَّ عليه السّعي إلى نصر دامٍ ومحفوف بالمخاطر، في حين كان بين يديه نصر آخر خالص وصافٍ. وهكذا تدبّر أمره بدقّة كي يطيل مرضه؛ حتى يُنهك قوة العدو، ويستدرجه بعيدًا عن أسطوله البحري والثغور البحرية التي يحتلها على الساحل الإفريقي؛ وذلك إلى آخر رمق فيه وآخر يوم من حياته، كرّسه عنوةً للإعداد لهذه المعركة الشهيرة.

8. قام السلطان عبد الملك بتنظيم جيوشه في دوائر، محاصرًا الجيوش البرتغالية من كل جانب، من خلال تقليص الدائرة وتجويفها. وهو بذلك لم يُعِق فقط عملياتهم في المعركة -وهي معركة كانت شرسة

(1) هو أبو مروان عبد الملك سلطان المغرب من 1575 إلى 1578 سنة وفاته، في الظروف التي يرويها هنا مونتيني، عشر سنوات بعد ذلك (وهذا النص المخطوط تم تحريره بعد 1588 م)، وكان المغرب الأقصى يسمّى حينئذٍ مملكة فاس، نسبة إلى عاصمتها.

جدًا بسبب الملك البرتغالي الشاب الذي كان مهاجمًا- بما أنهم كان عليهم المواجهة من جميع الجهات، بل إنه منعهم من الفرار بعد هزيمتهم النكراء. وحين أدركوا أن كافة المنافذ قد سُدّت في وجههم، وجدوا أنفسهم مضطرين للالتفاف على بعضهم «**متكدّسين ليس فقط بسبب التنكيل الذي لحق بهم، وإنما بفرارهم**»[1]. وهكذا تكدّسوا على بعضهم البعض مانحين لأعدائهم نصرًا مكينًا. ولحظة احتضار مولاي عبد الملك، طلب أن يحملوه ويقتادوه إلى حيث كانت الحاجة لحضوره، وظل متنقِّلًا بين الصفوف يثير همّة قادته العسكريين وجنوده الواحد بعد الآخر. وبما أن أحد الجوانب من جيشه صار عرضة للاختراق، لم يستطع أحد منعه من امتطاء جواده وسيفه بين يديه. ولأنه كان يجهَد في الاتجاه نحو المكان الحامي الوطيس، كان رجاله يحاولون ثنْيه عن ذلك، أحدهم بكبح العنان، والآخر بشده من لباسه أو من مهماز جواده. وهكذا انتهى هذا الجَهد البالغ إلى تجريده من النزْر اليسير من القوة التي تبقّت له. فأعيد ليتمدّد على سريره. وبعد أن انهارت كافة قواه، خرج إليهم وعليه غشاوة الموت وأمرهم بكتمان وفاته. كان ذلك الأمر الأشد أهمية الذي يمكنه أن يقوم به في لحظة الاحتضار تلك، حتى لا تعم البلبلة واليأس بين جنوده، عند وقوع الخبر في آذانهم. وأسلم الروح وإصبعه على فمه المغلق، وهي العلامة المعروفة للزوم الصمت. من استطاع من بني البشر أن يعيش طويلًا وأيضًا في لحظة الموت؟ من استطاع فعلًا أن يموت واقفًا إلى هذا الحد؟

9. إن الدرجة القصوى في التصرف بشجاعة أمام الموت، والأكثر طبيعية منها، هو أن ينظر إليها المرء لا فقط من غير اضطراب ولكن أيضًا من غير وجَل، وأن يتابع مشوار حياته بحرية حتى يقف عليه ملاك الموت. ذلك ما قام به كاتو، الذي كان يُزْجي وقته في الدراسة والنوم، في الوقت الذي كان في قلبه موتٌ دمويٌّ يمسك به في راحة يده.

(1)Tite-Live (105), II, 4.

الفصل الثاني والعشرون

عن محطّات البريد

1. لم أكن من الفرسان الرديئين في ركوب الخيل، الذي يلائم الرجال من قوامي القوي والقصير؛ غير أني أتركه لأنه يتطلب الكثير لكي يمكننا أن نمارسه طويلًا.

2. كنت بالضبط أقرأ أن الملك كورش، ولكي يتلقى بطريقة أسهل وأسرع الأخبار من كافة جهات إمبراطوريته الشاسعة، طلب أن يحدّدوا له كم من مسافة يستطيع الجواد قطعها في يوم، وأنشأ في هذه المسافة أمكنة بها رجال يتكفلون بإعداد الجياد التي يمنحونها لمن يبلغون محطتهم. ويقول البعض:إن السرعة المحصّل عليها تساوي سرعة طائر الكرْكي.

3. قال يوليوس قيصر: إن لوكيوس فيبولّيوس روفوس، بما أنه كان يتطلع إلى إيصال وثيقة إلى بومبيوس في أسرع وقت ممكن، سار إليه عدْوا بجواده ليل نهار، مستبدلًا الجواد حتى يسرع أكثر. وهو نفسه قال، حسب ما يروي سويتونيوس:إنه كان يقطع مئة ميل[1] بعربة اكتراها لهذا الغرض. لكنه كان بريدًا ناريًا، فحين يعترض نهر طريقه كان يقطعه عومًا، ولا يحيد أبدًا عن سبيله ليعثر على ممرّ أو على جسر. أما تيبيريوس نيرو فقد قطع مئتي ميل في أربع وعشرين ساعة، مستعملًا ثلاث عربات لكي يعود أخاه دروسوس المريض.

4. خلال الحرب التي قادها الرومان ضد أنطيوخوس، يحكي تيتوس ليفيوس أن تيبيريوس سيمبرونيوس غراكّوس «بلغ على متن خيول متبادلة سرعة تبدو خارقة، من مدينة أمفيسا*[2] إلى مدينة بَيلا*[3]، وذلك في ثلاثة أيام». وحين نرى الأمكنة ندرك أن الأمر كان يتعلق ببريد ثابت، لا بمحطات بريد تُنشأ لظرف معين.

5. وما قام كايكينّا بابتكاره لإبلاغ أخباره إلى أهله كان أسْرع من ذلك. كان يأخذ معه خطاطيف ويطلقها نحو أعشاشها حين كان يرغب

---

(1) الميل يناهز 150 كيلومترًا.

(2) * مدينة في وسط اليونان.

(3) * مدينة في شمال شرق اليونان.

بإبلاغ أهله بأخباره بعد أن يصبغها بألوان ترمز لما يرغب قوله، كما اتفق على ذلك معهم. وفي المسرح بروما، كان أرباب العائلات يحملون معهم حمامًا، يربطون في قدمه برسالة حين كانوا يرغبون في إصدار الأوامر لأهلهم، وكان هذا الحمام مدربًا على حمل الأجوبة. وقد عمَد ديكيموس بروتوس، حين تمّت محاصرته في مودينا، إلى استعمال التقنية نفسها، وغيره في أماكن أخرى.

6. كان الرّسُل في البيرو يوضعون على محامل ترفع على أكتاف الرجال الذي يجزْون بهم، برشاقة تجعلهم يتبادلون الحمل من غير أن يتوقفوا عن العدْو.

7. كان أفراد شعب الولاشيين البلقانيين، الذين كانوا يخدمون السلطان باعتبارهم سُعاة بريد فائقو السرعة. فقد كان لهم الحق، أن ينزلوا أي شخص يلاقونه في طريقهم عن صهوة جواده، ليتركوا له بالمقابل الحصان المنهك، ولكي يحموا أنفسهم من التعب، كانوا يحزمون وسطهم بعصابة واسعة من الثوب، كما يفعل ذلك آخرون أيضًا. لكني أنا لم أجد في تلك العصابة ما يخفف من ألمي.

الفصل الثالث والعشرون

عن الوسائل الشريرة للوصول إلى غايات خيّرة

1. ثمة علاقة مدهشة وتواؤم باهر في التنظيم الكوني للظواهر الطبيعية التي تُبين أنها ليست ثمرة المصادفة ولا ناجمة عن رغبة أسياد عديدين. فالأمراض والحالات التي تكون عليها أجسادنا نجدها في الدول والحكومات، إذ إن الممالك والجمهوريات تولد وتينع وتذبل من الشيخوخة، مثلها مثلنا تمامًا. ونحن خاضعين لوفرة فائقة من الأمزجة[1]، وهي حالة غير ضرورية ولا فائدة منها. قد تكون تلك الأمزجة رائقة، غير أن الأطباء يخشونها. فهم يقولون بما أن لا شيء مستقرّ فينا، علينا التدخل لتخفيض صحة بالغة الجودة وقوية ومرحة، والإنقاص منها خشية أن تقوم طبيعتنا التي لا مستقرّ لها والتي لها إمكان الصعود والتحسّن، من الرجوع القَهْقرى بشكل اعتباطي وفجائي. ولهذا السبب يصفون للرياضيين التطهير وإزالة الدم، لكي يخلصوهم من كل إفراط في الصحة. بيد أن الأمزجة الفاسدة يمكنها أيضًا أن توجد بإفراط، وهو ما يتسبّب عادةً في الأمراض.

2. إننا نقف دومًا على حالات مرض، يتسبب فيها ذلك الإفراط نفسه، ونحن نقوم إزاءها عادةً باستعمال مختلف أنواع التطهير. فتارةً يتم ترك عدد كبير من الأسر تهاجر، لتخفيف البلاد، وهؤلاء الناس يروحون إلى أمكنة أخرى بحثًا عن قوتهم، على حساب أناس آخرين. وهكذا فإن الفرنكيين القدماء نزحوا من عمق الأراضي الألمانية كي يستولوا على بلاد الغال ويطردوا منها سكانها الأوائل، مما أدى إلى تكوين تلك الحشود البشرية التي غشت إيطاليا تحت إمرة برينّوس[2] وآخرين. ثم جاء دور القوط والوندال، والأمر نفسه بشأن الشعوب التي تحتل اليوم بلاد اليونان، والذين هجروا بلادهم الأصلية، كي يستقروا في أمكنة أخرى، حيث يكونون في حال أفضل. ولا يوجد أكثر من مكانين في العالم أو ثلاثة فقط لم تعرف هذه التقلّبات. وبهذه الطريقة شيّد الرومان مستعمراتهم: فحين أحسوا بأن مدينتهم تنتفخ أكثر من اللازم، كانوا يخففون من ساكنيها الأقل لزومًا، ويبعثون بهؤلاء ليستوطنوا الأراضي المفتوحة ويزرعوها. وأحيانًا أيضًا كانوا يختلقون حروبًا مع بعض أعدائهم؛ وقد

(1) كانت الأمزجة (وهي سوائل عضوية يفرزها البدن) لا تزال أساس التصورات الطبية في عصر مونتيني. ومن الصعب أن نعثر على مقابل اليوم لمفهوم صار مهملًا.

(2) قائد الغاليين الذين استولوا على روما عام 190.

يكون ذلك لجعل رجالهم مقطوعي النفَس خوفًا من أن تؤدي العطالة، وهي أم الفساد، إلى نتائج تكون وخيمة.

«علينا تحمل شرور أوقات السلم الطويلة
فالبذخ أسوأ من الجيوش، إذ هو يخنقنا»[1].

لكن قد يكون ذلك بهدف استبدال الدماء لجمهوريتهم، ولبعث الإثارة الحماسية البالغة لشبابهم ولتشذيب وتهوية أفنان هذا الجذع الذي نما بشكل فائض. لهذا الغرض أعلنوا فيما مضى الحرب على القرطاجنيين.

3. رفض ملك إنجلترا إدوارد الثالث في معاهدة بريتيني أن يضمّنها مسألة دوقيّة بريتانيفي معاهدة السلم العامة التي عقدها مع ملكنا، وذلك كي يكون له بلد يتخلص فيه من العسكر، وحتى لا يقوم ذلك الحشد من الإنجليز، الذين استغلهم في أعماله الحربية في هذا الجانب بالعودة إلى إنجلترا. وقد كان ذلك أحد الأسباب التي دفعت ملكنا فيليب أن يقبل ببعث ابنه[2] للقيام بالحرب فيما وراء البحار، فلقد الهدف من ذلكهو أن يأخذ معه تلك الجمهرة من الشباب المشاكسين التي كانت تشكل جيشه.

4. ثمة الكثيرون في عصرنا الذين يقومون بالخطاب نفسه، راغبين في أن يجعلوا بشكل ما هذا الفوران المُلاحَظ لدينا يحيد نحو حرب مع الجيران، خشيةَ أن تحافظ الأمزجة الفاسدة التي تسيطر حاليًا على جسمنا على حُمّانا وتقودنا إلى التهلُكة، إذا لم ننفّس عنها في أمكنة أخرى. صحيح أن الحرب على الأجنبي شرّ أهون من الحرب الأهلية. بيْد أني لا أعتقد أن يقبل الله عملًا ظالمًا كهذا الذي يتمثّل في التهجّم على الغير والنزاع معه فقط حسب هوانا.

«يا نيميسيس، لا أرغب في شيء يغويني
إلى حدّ أن أسلبه من صاحبه!»[3].

(1) Juvénal (42), VI, 291.

(2) لا يمكن للأمر إلا أن يتعلق بجون الطيب، ابن فيليب السادس دو فالوا، لكن ليس في علمنا أنه قام بالحرب فيما وراء البحار.

(3) Catulle (14), LXVIII, 77.

5. ومع ذلك فإن ضعف طبيعتنا البشرية تدفعنا مرارًا إلى استعمال وسائل منحطة لأغراض نبيلة. فليكورغوس، أفضل المشرّعين وأكملهم في التاريخ، ولكي يحث شعبه على الاعتدال، جاءته هذه الفكرة غير العادلة في أن يُسْكر غصبًا عبيدهم الهيلوتيين، حتى حين يراهم الإسبرطيون هكذا غارقين في الخمر وضالين، يسعون إلى مقت التجاوزات التي تتسبب فيها تلك الرذيلة.

6. أما أولئك الذين كانوا يسمحون في الماضي للأطباء بأن يشرّحوا المجرمين أحياءً، مهما كان نوع إدانتهم بالإعدام؛ كي يتفحصوا فيهم مباشرة أعضاءنا ويحسّنوا من تقنياتهم الطبية، فقد كانوا على خطأ أفظع. فإذا كان علينا أن نلجأ لتدابير مُشينة، سنكون معذورين باستعمالها لصالح صحّة النفس على استعمالها لصحة الجسم. كان الرومان مثلًا يعلمون الشعب الشجاعة وازدراء المخاطر والموت من خلال المعارك الهمجية للمصارعين والمسايفين الذين كانوا يتصارعون حتى الموت، ويجرح بعضهم بعضًا ويتقاتلون فيما بينهم.

> **«أي فائدة من هذه الألعاب النكراء والعبثية**
> **وهذا التنكيل بالشباب، وهذا التعطش الشهواني للدم»[1].**

وذلك الاستعمال استمر حتى حكم الإمبراطور ثيودوسيوس.

> **«أيها الأمير أمسك بمجدٍ منذورٍ للملك**
> **وأضف لإرثك المجيد المديح الذي ينتظرك**
> **ألّا يموت أحد في روما بغية إمتاع الشعب**
> **وفي الحلبة السيئة السمعة يُكتفى اليوم بدم الوحوش**
> **ولتكفّ الألعاب القاتلة عن أن تدنّس عيوننا»[2].**

7. كان ذلك في الحقيقة مثالًا باهرًا وفي صالح الشعب، أن يجد أمام ناظرِيه يوميًا مئة أو مئتين بل ألف زوْجٍ من الرجال المسلحين، الذين يُطلق بعضهم ضد البعض، ويقطعون بعضهم بعضًا إربًا إربًا، بشجاعة

---

(1) Prudence (81), II, 672.

(2) Prudence (81), II, 643 sq.

وحزم بالغبْن، بحيث لا ينبسان بأي كلمة تخون ضعفهم أو تستجدي الرثاء، وبحيث لا يتراجعون هربًا، ولا تصدر عنهم أي حركة خوف، أو وجل لتفادي ضربة الخصم. بالعكس كانوا يبسطون عنقهم لسيفه ويواجهونه. وقد حدث للعديدين من بينهم، حين تعرّضوا لجراح مميتة عديدة، أن يبعثوا للشعب سائلين إن كانوا قد أدوا واجبهم، قبل أن يخرّوا صرعًى. لم يكن يتعيّن عليهم فقط أن يصارعوا ويموتوا برباطة جأش، وإنما أن يقوموا بذلك بحماس، إذ كان الجمهور يطلق عليهم الصفير والشتائم، إذا هو رآهم يتلكؤون في السير إلى حتفهم.

«والفتيات كن أيضًا يثْرنهم
فالبكر عند كل ضربة سيف تنهض واقفة
وحين يغرس المنتصر نصل سيفه في عنق
الخصم تعبر عن بهجتها. وحين يسقط أرضًا
توجه إبهامها لأسفل: طالبةً قتله»[1].

8. كان الرومان الأوائل يستخدمون المجرمين في هذه المصارعات «الأنموذجية». لكن فيما بعد استُخدِم عبيدٌ أبرياء، بل ورجال أحرار أيضًا يبيعون أنفسهم لذلك الغرض، بل وشيوخ الأمة والفرسان، والنساء أيضًا.

«إنهم يبيعون رؤوسهم وسيموتون في الحلبة
وكل واحد يصنع لنفسه عدوًا في حين نحن في وقت سلم
ففي هذه الارتعاشات والألعاب الجديدة
نرى حتى النساء، وهو جنس لا مهارة له في الأسلحة
يدخلن بشراسة لهذه المعارك الرجولية»[2].

كنت سأعتبر كل هذا غريبًا، بل غير قابل للتصديق، لو أننا لم نكن متعوّدين على أن نرى في كل يوم في حروبنا ملايين الناس، يرهنون حياتهم ودمهم بالمال، في نزاعات ليس لهم فيها طائل.

(1) Prudence (81), t. III, 617 sq.
(2) Stace (89), I, 51.

الفصل الرابع والعشرون

العظمة الرومانية

1. سأكتفي بقول كلمة عن هذا الموضوع الشاسع، كي أبيّن غباء أولئك الذين يضعون في المستوى نفسه أنواع العظمة الرديئة لعصرنا. في الكتاب السابع من الرسائل الأليفة لشيشرون (ولينزع عنها العلماء لقب «الأليفة» هذا إذا رغبوا في ذلك لأنه في الواقع غير مبرَّر. ومن فضلّوا «إلى ألفة الصِّحاب» على «أليفة» يمكنهم أن يجدوا مبرّرًا لفائدة ما قاله سويتونيوس في كتابه «حياة قيصر»، بوجود مجلّد من الرسائل كتبها تحمل عنوان «إلى ألفة الصِّحاب»): أقول: في هذه الرسائل هناك واحدة موجهة ليوليوس قيصر، الذي كان حينئذٍ في بلاد الغاليين، وفيها يستعيد شيشرون هذه الكلمات التي جاءت في نهاية رسالة، كان يوليوس قيصر قد وجّهها إليه: «**أما ماركوس فيريوس الذي أثنيتَ لي عليه، فإنني سأجعل منه ملك بلاد الغال؛ وإذا رغبت في أن أمنح الامتياز لأحد أصدقائك فابعثه إلي**»[1].

2. لم يكن أمر توزيع الممالك جديدًا على مواطن روماني بسيط، كما كان يوليوس قيصر يقوم بذلك حينئذٍ. فلقد سلَب المُلْك من الملك ديوتاروس[2] ليمنحه لنبيل من مدينة بيرغامون يسمى ميثراداتس. وأولئك الذين كتبوا سيرته ذكروا العديد من الممالك التي باعها. يقول سويتونيوس إنه حصل من الملك بطليموس على ما قيمته ثلاثة ملايين وستة آلاف ريال. وهو مبلغ قريب جدًا من المبلغ الذي كان سيجنيه من بيع مملكته هو.

"غالاتيا بمبلغ كذا، والجسر بمبلغ كذا، وليديا بمبلغ كذا"[3].

3. كان ماركوس أنطونيوس يقول: إن عظمة الشعب الروماني لا تتجلى فيما يمنح. ومع ذلك، قرنًا قبل هذا، كان ذلك الشعب قد استولى على مملكة بالغة القوة بحيث إني لا أعرف علامة سَمَت بسمعته أكثر من ذلك طيلة تاريخه. كان أنطيوخوس يملك مصر بكاملها؛ وبات يستعدّ لغزو قبرص وبقايا أخرى من هذه الإمبراطورية. فجاءه بوبيليوس مبعوثًا من مجلس الشيوخ، فرفض من البداية أن يسلّم عليه قبل

(1) Cicéron (106), **Correspondances**, Livre VII, lettre 5.

(2) الملك ديوتاروس (توفي عام 42 ق.م) كان حليفًا للرومان. [المترجم]

(3) Claudien (22), I, 203.

أن يقرأ الرسالة التي كان يحمل. وبعد الاطلاع عليها قال الملك إنه سيفكر بالأمر. أحاط بوبيليوس المكان الذي كان فيه الأمير بعصا، وقال له: «أعطني جوابًا أعود به لمجلس الشيوخ قبل أن تخرج من هذه الدائرة». دهش أنطيوخوس لفظاظة هذا الأمر الملحاح، وأجابه بعد أن فكر قليلًا: «سأفعل بما أمرني به مجلس الشيوخ». ثم إن بوبيليوس حيّاه كصديق للشعب الروماني. فلقد تخلى عن مملكة وعن ازدهارها الواعد، بسبب بضع كلمات مخطوطة. وكان على حق فيما بعد، حين بعث سفراءه لمجلس الشيوخ، ليبلغوه بأنه قد تلقّى أوامرهم بالاحترام نفسه، الذي سيُبين عنه لو كانت صادرة عن الآلهة الخالدة.

4. كل الممالك التي استحوذ عليها الإمبراطور أغسطس بحقّ الحرب أعادها لمن فقدها، أو منحها لأجانب. وبهذا الصدد، حين يتحدث تاسيتوس عن ملك إنجلترا كوجيدوبْنوس*[1]، يجعلنا نحس بعبارة رائعة بهذه القوة الفائقة: **«كانت عادة الروم منذ القدم أن يتركوا الملوك الذي هزموا على رأس مملكتهم، على أن يظلّوا تابعين لسلطتهم، حتى يكون لهم ملوك أيضًا كأداة للاستعباد»**[2].

5. من المحتمل أن يكون السلطان سليمان، الذي رأيناه يقوم بمنح مملكة هنغاريا وغيرها من الدول، يتّبع بالأحرى هذا المبدأ، لا ما كان يدعيه من سبب لذلك، أي أنه كان متعبًا ومغمومًا من كثرة الممالك والقوة التي اكتسبها بفضيلته، أو بفضيلة أسلافه.

(1) * تيبيريوس كلاوديوس كوجيدوبنوس الحاكم الروماني لمملكة ريجني في بريطانيا خلال القرن الأول للميلادي. والاسم محرّف في الأصل.

(2) Tacite (100), XIV.

الفصل الخامس والعشرون

في عدم التظاهُر بالمرض

1. نقرأ لدى مارتياليس قصيدة ساخرة أعتبرها من بين أفضل شعره -إذ لديه نجد قصائد من كل الأنواع- وفيها يحكي بدعابة قصة كويليوس الذي، لكي يتفادى التزلّف لبعض الشخصيات الكبرى لروما فيجد نفسه تابعًا ومساعدًا لهم، تظاهر بمرض النّقْرس. ولكي يجعل من عذره مقبولًا أكثر، كان يدهن رجليه بالمراهم، ويغلفهما ويحاكي تمامًا حركات وسكنات الرجل المصاب بالنقرس. وفي النهاية، شاء القدر أن يصاب حقًّا بهذا الداء.

«كم هو قوي علاج وفن محاكاة الألم!
فقد صار نقرس كويليوس حقيقيًا بعد أن تظاهر به»[1].

2. قرأت في أحد كتب أبيانوس الإسكندري[2]، على حسب ما أعتقد، قصة من النوع نفسه: قام أحد الرجال لكي يُفلت من عمليات المنع التي تطاله من حكام روما، ولكي يفلت من متابعيه، ظل مختبئًا ومتنكرًا، وفضلًا عن ذلك أراد أن يتخذ هيئة الأعور. وحين حصل على بعض الحرية، واستطاع أن ينزع العصابة التي وضعها لوقت طويل على عينه، وجد أنها قد فقدت فعلًا النظر تحت ذلك القناع. من الممكن أن يكون البصر قد ضعُف لأنه ظل محرومًا من الإبصار لمدة طويلة، وأن القوة البصرية كلها تركزت في العين الأخرى: فنحن نحس بوضوح أن العين التي نغطيها تمنح للعين الأخرى جزءًا من طاقتها، بحيث إن العين التي تظل ظاهرة تنتفخ وتكبر. الأمر نفسه يسْري على العطالة، التي بفعل سخونة العصابات والأدوية، قد تكون استجذبت مزاجًا ذا طبيعة نقْرسية لمارتياليس المتظاهر بمرض النّقْرس.

3. قرأت لدى الكاتب جان فرواسّار أن زمرة من الشباب النبيل الإنجليزيين قاموا بنذْرٍ يتمثل في أن يضعوا عصابة على العين اليمنى حتى يعبروا إلى فرنسا وينجزوا هجمات مسلحة ضدنا. وقد تسليت مرارًا وأنا أفكر أنه قد وقع لهم الشيء نفسه، الذي وقع لسابقيهم بحيث أصبحوا كلهم عُوْرانا

(1) Martial (51), VII, XXXIX.

(2) مؤرخ ولد بالإسكندرية، وعاش بروما في القرن الثاني للميلاد. يقدم لنا معلومات قيمة عن الشعوب التي انتصر عليها الرومان.

وهم يزورون عشيقاتهم، اللواتي قاموا بهذا النذر بالضبط من أجلهن.

4. الأمهات على حق في توبيخ أبنائهن حين يحاكون العُوران والعُرجان والحُوْلان وغيرهم من ذوي العاهات الجسمانية؛ فعلاوة على كون جسد طريّ يمكنه بذلك أن يتعوّد على عادات قبيحة، يمكننا القول إن القدَر، ولا أدري كيف، يتلاعب بنا ويحاسبنا بما نعمل. وقد سمعت قصصًا كثيرة عن أناس صاروا مرضى لأنهم أرادوا التظاهر بذلك.

5. لقد اعتدت في كل وقت على أن أحمل في اليد خيزرانةً أو عصًا راكبًا أو راجلًا، معتبرًا ذلك أمرًا من أمور اللياقة، أستعملها للاتكاء عليها بهيئة مريض. بعضهم أخبرني أن القدَر يمكنه أن يجعل من هذا العبث ضرورة واقعَة. غير أني أُطمئن نفسي قائلًا: إنني سأكون في هذه الحال الأول من سلالتي الذي يُصاب بداء النّقْرس.

6. لكن، لنُطلْ شيئًا ما في هذا الفصل ملصقين به فقرةً خاصة بالعمى. يتحدّث بلينيوس عن رجل خال نفسه أعمى وهو يحلم، وحين أفاق في الغد وجد نفسه أعمى، في الواقع من غير أن يلمّ به مرض من قبل. إن قوة الخيال قادرة على التسبُّب في ذلك، كما ذكرت ذلك فيما سبق[1]، وبلينيوس يبدو أن له هذا الرأي أيضًا. لكن قد يكون من المعقول أكثر أن بعض الحركات الباطنة للجسد، التي يمكن للطب أن يكشف فيها إذا ما كانت راغبة في العمى؛ هي التي كانت في أصل حلمه.

7. لنضفْ أيضًا هذه القصة عن موضوع قريب من ذلك، رواها سينيكا في إحدى رسائله، قال مخاطبًا لوكيليوس: «هل تعلم أن هارباستا التابعة الحمقاء لزوجتي[2] قد أقامت لديّ؛ فقد كان الأمر بلزومٍ مكتوب في وصية، لأن ليس لي قَبول لتلك الكائنات الغريبة، وإذا أردت الضحك من أحمق، فإني لا أروح بعيدًا، يكفيني أن أضحك من نفسي.

(1) في الكتاب الأول، في الفصل العشرين.

(2) هي كانت في الحقيقة امرأة قزمًا، إذ جرت العادة حينئذٍ على تبني الأقزام.

هذه الحمقاء إذًا فقدت فجأة بصرها. وما أحكيه لك أمر غريب لكنه حقيقي. فهي لم تدرك أنها عمياء، وتطلُب دومًا من خادمها أن يخرجها من بيتي لأنه مظلم! لكن ما يضحكنا لديها، أرجوك أن تصدق أنه أمر يمكن أن يحدث لأي شخص منا، إذ لا أحد يظن نفسه بخيلًا ولا أحد يعتقد نفسه حسودًا. وإذا كان العميان يطلبون مرشدًا، فنحن نخدع أنفسنا. نحن نقول عن أنفسنا إننا لسنا طموحين، لكن لا أحد في روما يمكنه أن يعيش من غير طُموح. وأنا لست مُسرفًا، غير أن المدينة تُلزمني بإسراف الكثير من المال. ليس ذنبي إن كنت ذا مزاج غضوب، وإذا لم أكن قد حدّدت بعد نهج حياتي. علينا ألا نبحث عن شرّنا خارج ذاتنا، فهو فينا ومغروس في أحشائنا. وكوننا لا نحس بأننا مرضى يجعل الشفاء أشد صعوبة. وإذا بدأنا العلاج مبكّرًا، متى سننتهي من إشفاء هذا الكم الهائل من الجراح والأمراض؟ لدينا مع ذلك ترْياق لطيف هو الفلسفة. فإذا كان المرء لا يتمتع باللذة إلا بعد الشفاء، «فمع الفلسفة نستمتع باللذة ونشفى في الآن معًا». هذا ما كتبه سينيكا، وقد حملني بعيدًا في حديثي. غير أننا لا نضيع شيئًا في هذا.

الفصل السادس والعشرون

عن دور أصابع الإبهام

1. يحكي تاسيتوس أن عادةَ بعض الملوك البرابرة، حين يريدون عقْد التزام ما بشكل حاسم، كانت تتمثّل في وضع اليد اليمنى على اليد اليمنى، وليّ الإبهام على الإبهام؛ ومن قوّة الضغط يتجمع الدم في طرفيْهما، فيُثقب الطرفان بآلة حادة فيبدآن في مص الإصبعيْن.

2. يقول الأطباء إن الإبهام هو سيّد اليد، وأن أصله اللغوي اللاتيني هو «pollere»*[1]. وهو ما يسميه اليونانيون «ἀντίχειρ»*[2]، أي «يد أخرى». ويبدو أن اللاتينيين يفهمون هذه الكلمة أيضًا بمعنى «اليد كاملة».

«لا إثارة صوت فاتن، ولا مداعبة إبهام
تمكنت من إيقافها»[3].

في روما كان ثنْي الإبهام بقوة وإحناؤه علامة على الفضل والنعمة.

«المعجبون بلعبك يصفّقون لك بإبهاميْهما»[4].

وعلامةً على النقمة حين يرفعونها ويديرونها نحو الخارج.

«ما إن يرفع الشعب إبهامه للأعلى
حتى يتم ذبح أي واحد لاسترضائه»[5].

3. كان الرّومان يُعفون من الحرب من كانوا يُجرحون في إبهام يدهم، معتبرين أنهم صاروا عاجزين عن الإمساك بسلاحهم بشدة. ولقد قام الإمبراطور يوليانوس بسلب ممتلكات فارس روماني قام بالحيلة والغشّ بقطع إبهام يديْ ابنيْه؛ كي يعفيهما من الانخراط في الجيش. وقبل ذلك قام مجلس الشيوخ خلال الحرب الإيطالية[6] بالحكم على جايوس فاتيينوس بالسجن المؤبد لأنه قطع عنوةً إبهام اليد اليسرى؛ كي يتم إعفاؤه من تلك الحملة العسكرية.

---

(1) * الإبهام في اللاتينية Pollex ويعني «الأقوى»، وهو مشتق من الفعل pollere ويعني «يتقوى».
(2) * «أنتيخير».

(3) Martial (51), XII, 98, v v. 8-9.
(4) Horace (31), I, 18, v. 66.
(5) Juvénal (42), III, 86.
(6) التي تُسمى أيضًا «الحرب الاجتماعية»، وقد أعلنت فيها الشعوب الإيطالية تمردها على روما التي انهزمت أمام سولا.

4. أحدهم نسيت اسمه، بعد أن انتصر في معركة حربية، أقدم على بتر إبهام أعدائه كي يحرمهم من وسيلة القيام بالجدف وبالمعركة. وقد قام الأثينيون بقطع إبهام رجال جزيرة أيجينا؛ كي يحرموهم من تفوقهم في فن الملاحة البحرية. وفي إسبرطة، كان السيد يعاقب الأطفال بعضّ إبهامهم.

الفصل السابع والعشرون

القساوة سليلة الجبْن

1. عادةً ما أسمع الناس يقولون: إن الجبن هو أساس القسوة. وقد لاحظت بالتجربة أن مرارة وفظاظة القلب الشرير واللاإنساني تكون مصحوبة في العادة برخاوة تكاد تكون أنثوية. وقد وقفت على أشخاص من أقسى الناس يذرفون الدمع السيّال بسهولة ولأسباب واهنة. لقد كان الإسكندر طاغية مدينة فيراي[1]، لا يتحمل مشاهدة المآسي في المسرح خشية أن يراه مواطنوه يتأوّه ويبكي مآسي هيكابي وأندروماخي، هو الذي كان ينكّل بعدد كبير من الناس كلّ يوم. هل ضعف نفوس أولئك الناس هو الذي يجعلهم ينصاعون هكذا لكل المتناقضات الحادة؟

2. **الشجاعة، التي لا تُستعمل إلا ضد من يقاومك=**

«والتي لا ترضى بقتل ثور إلا إذا قام بالهجوم»[2].

= تتوقف عندما ترى العدو تحت رحمتها. بيد أن الجبن الذي يرغب أن يكون جزءًا من اللعبة، والذي لم ينل المرتبة الأولى، يأخذ حصّته من المرتبة الثانية، أي مرتبة التنكيل والدم. تُعزى جرائم القتل بعد الانتصارات عادةً إلى الشعب وإلى الخدم. ولهذا نرى الكثير الجمّ من الفظاعات غير المشهودة في الحروب الشعبية، إذ أن هذه الرعاع من الغوغاء تلعب لعبة الحرب وتتظاهر بالبسالة، وتتضمّخ بالدم حتى المرفق، وهي تنكّل بجسد ما تحت القدمين، بما أنها لا يمكن أن تُبين أي بسالة أخرى.

«الذئب والدّببة الجبانة والحيوانات أشد نذالة
لأنها تهاجم الكائنات المحتضرة بشراسة»[3].

3. ذلك ما تفعله الكلاب الخوّافة التي تمزق كل شيء في الدار، وتعض جلود الحيوانات المتوحشة التي لا تجرؤ على مهاجمتها في الحقول. ما الذي يجعل في الأيام الحالية نزاعاتنا تغدو دموية وقاتلة؟ وأننا اليوم، في الوقت الذي كان فيه أسلافنا يلتزمون بدرجات معينة في الثأر، نبدأ بالأخير فنتحدّث في بداية الأمر عن القتل؟ ما هذا إن لم يكن غير

(1) Plutarque [79], Pélopidas, XIV.
(2) Claudien (24) **adHadrianum**, 30.
(3) Ovide (63), II, 35.

الجبن؟ كل واحد يحسّ أن ثمة شهامة وكراهية أكثر في الانتصار على العدو منه في قتله وإهانته؛ خاصةً وأن شهية الانتقام تُشبَع بذلك أكثر، ذلك أن الثأر لا يهدف سوى إلى أن يتمَّ الإحساس به. لهذا نحن لا نهاجم دابة أو حجرًا حين يجرحاننا، ذلك أنهما غير قادريْن على الإحساس بثأرنا منهما. فقتل إنسان يعني حمايته من الانتقام.

4. صرخ بيّاس[1] في رجلٍ شريرٍ: «أعرف أنك إن عاجلاً وإن آجلاً سوف تلقى جزاءك، لكني أخشى ألا أرى ذلك». وأشفق على سكان مدينة أورخومينوس على أن الثأر الذي قام به ليكيسكوس من الخيانة التي تعرّضوا لها جاءت في وقت لم يعد فيه هناك أحد من الناس المعنيين، الذين كانوا سيتلذّذون بهذا العقاب. كما أن الثأر يكون غير مكتمل، حين يكون الشخص الذي ينطبق عليه ذلك، يعدِم الوسيلة التي ستكيل له العذاب. فكما أن الآخِذ بالثأر يرغب في رؤية ثأره وهو يمارَس؛ حتى يتلذَّذ به، كذلك يلزم من يقع عليه الثأر أن يراه؛ كي يحس بالعذاب والندم.

5. ونحن نقول: «سوف يتوب على ما فعل توبة نصوحًا». وهل نظن أنه سيندم على فعلته إذا ما نحن رميناه برصاصة في رأسه؟ بالعكس، فإذا ما انتبهنا لذلك، فإنه يسقط سقْطة واحدة بحيث لا يؤاخذنا على صنيعنا، بحيث يصير أبعد ما يكون عن التوبة. وسنخدمه خدمة لم يكن لِيتمناها أبدًا في حياته، أي أننا نجعله يموت بسرعة ومن غير عذاب. وها نحن سنكون مضطرين للتواري عن الأنظار مثل الأرانب، ولقطع المسافات هربًا من ضباط العدالة الذين يطاردوننا، وهو في موته أسْعد ما يكون براحة الموت. القتل عمل يشهد على الخوف أكثر من الشهامة، وعلى الحيطة أكثر من الشجاعة، وعلى الدفاع أكثر من الهجوم. ومن الواضح أننا نتخلى بذلك عن الهدف الحقيقي للثأر، وعن الاهتمام بسُمعتنا. فنحن نخشى إن ظل الآخر على قيد الحياة، أن يقوم بالشيء نفسه في حقنا. وأنت تتخلص من ذلك، لا نكايةً فيه؛ وإنما من أجل نفسك.

---

(1) أحد الحكماء السبعة في اليونان القديمة.

6. في مملكة ناراسينغا[1] يظل هذا المخرج غيْر ذي جدوى. فهناك يحسم لا فقط رجال الحرب وإنما الصناع أيضًا نزاعاتهم بحدّ السيف. والملك لا يرفض الحلبة المغلقة لمن يرغب في المصارعة، بل هو يحضرها حين يتعلق الأمر بأناس مرموقين، ويجازي الغالب بسلسلة من ذهب. لكن للحصول عليها، يمكن للأول الذي يطمع فيها أن يستفز بالسلاح من يحملها، بحيث إنه إذا كان قد انتصر في معركة سيجد نفسه أمام عدة معارك تنتظره.

7. إذا اعتقدنا بفضل شجاعتنا أننا أسياد للعدو ويمكننا التحكم فيه على هوانا، فسنلاقي الخيبة إذا هو أفلت منا كما هي الحال إذا مات. نحن نريد الانتصار لكن بشكل أكيد لا بشكل شريف، ونسعى للنجاح في نزاعاتنا أكثر من سعينا إلى المجد. ولقد ارتكب أسينيوس بولّيو[2] الخطأ نفسه، مع أنه كان شخصًا مرموقًا. فبعد أن كتب «هجاءً لاذعًا» ضد بلانكوس، انتظر وفاة هذا الأخير كي ينشرها. فكأنه أشبه بغمْز أعمى وشتْم أصمّ. كان ذلك أيضًا أشبه بجرح رجل لا يحس بشيء، عوض التعرّض إلى غضبه. لهذا كان يقال في حقّه إن اللاتينيين وحدهم يمكنهم أن يصارعوا الموتى. فمن ينتظر موت صاحب الكتابات، التي يريد الصراع معها، ما تُراه يبرهن عليه غير ضعفه وعقليته الخصامية؟

8. قيل لأرسطو: إن شخصًا اغتابه فكان ردُّه: «عليه أن يقوم بأفضل من ذلك، كأن يجلدني، فقط عليَّ ألا أكون حاضرًا». كان أسلافنا ينتقمون من الشتيمة بالتكذيب، ومن التكذيب بضربة، وهلمّ جرّا. فلقد كانوا من الشجاعة بحيث لا يهابون خصمهم وهو حيّ وفي حال إذْلال. أما نحن فإننا نرتعش من الخوف من أن نرى الخصم على قدميه. ولا أدلّ على ذلك من أننا يمكننا القول: أليست الطريقة التي نمارس بها أفعالنا اليوم تتمثل في أننا نتْبع حتى الموت، من تهجَّمْنا عليه ومن تهجّم علينا؟

9. إنه أيضًا لَضربٌ من الجبن طال نِزالاتنا الثنائية بالأسلحة، تلك العادة المتمثلة في أن نصحب معنا أناسًا آخرين. كان ذلك النزال الثنائي في الماضي

(1) بوسط الهند.

(2) خطيب روماني كان قنصلاً ثم كتب بعض المآسي التي لم تصلنا.

يتمُّ فردًا ضد فرد، والآن صارت لقاءات ومعارك. وكانت العزلة تخيف أولئك الذي ابتكروا هذه الممارسة؛ «ذلك أن كل واحد لم يكن شديد الثقة في نفسه»[1]. فمن الطبيعي أن الصحبة كيفما كان نوعها تكون مصدرًا للطمأنينة ولتخفيف وطأة المخاطر. في الماضي كان يُستعان في النِزال الثنائي بشخص ثالث لضمان عدم حدوث خروق أو أفعال خيانة، وللشهادة على نتيجة النزال. لكن منذ أن جرت العادة على أن نراهم يدخلون في المعركة، فإن كل من دُعي للشهود عليها، لا يمكنه بكل نزاهة أن يُعتبر مشاهدًا؛ خوفًا من أن يُعزى سلوكه إلى النقص في الشجاعة أو التعاطف مع المصارع.

10. علاوة على نذالة وعدم عدالة هذا التدبير، الذي يتمثل في أن تُدخل في الدفاع عن شرفك قيمة أخرى وقوة أخرى غير قوتك، فإنني أعتبر أن من باب المساوئ التي تلحق برجل خيِّر له ثقة كاملة في نفسه، أن يُدرج مصيره في مصير شخص آخر. فكل واحد يواجه ما يكفي من المخاطر في حياته الخاصة، من غير أن يواجِهها من أجل شخص آخر، وما يكفي من العمل واثقًا في قيمته الشخصية للدفاع عن حياته، عوض أن يضع شيئًا مهمًا كهذا بين أيدي الغير. فإذا ما لم يتم التعبير عن شيء آخر بصريح العبارة، فهؤلاء الرجال الأربعة يغدون متحزبين إلى فرقتين من اثنين. فإذا كان شريكك في النِّزال ساقطًا أرضًا، يكون لك أن تصارع الاثنين بالضرورة. وهذا والحق يقال أمر غير عادل، إذ هو أشبه بالهجوم مدجَّجًا بالسلاح على شخص، لم يعد له غير قاع نصْل سيفه، أو وأنت في صحة جيّدة تهجم على شخص مثُخْن بالجراح. لكن إذا كانت تلك فضائل امتلكتَها وأنت تحارب، فيمكنك استخدامها من غير مآخذ. فالاختلاف واللاتكافؤ في الصراع لا يُقاس ولا يؤخذ بعين الاعتبار، إلا في حال إذا ما تمَّ الوقوف عليه في بداية النِّزال. أما بخصوص الباقي فعليك أن تؤاخذ القدَر. وحين سيكون عليك مواجهة ثلاثة أشخاص لوحدك، بعد أن قُتل رفيقاك، فإنهم لن يعاملوك بأسوأ مما أفعل أنا في الحرب، حين أوجّه ضربة سيف، في الوضعية نفسها، للعدو الذي أراه يهاجم أحد جنودنا. فحيثما كانت فرقة ضد فرقة (كما كان الأمر حين قام دوق أورليون، دوقنا، بتحدي هنري ملك إنجلترا مئة ضد مئة أو ثلاثمئة جندي ضد ثلاثمئة،

(1) Tite-Live (105), XXXIV, XXVIII, 4

كما كانت الحال في معركة الأرْجيين ضد الإسبرطيين، أو ثلاثة ضدّ ثلاثة كما في حال الهوراتيين ضد الكورياتيين). تفرض طبيعة التحالف ألا تُحسب جمهرة المحاربين من كل جانب إلا كرجل واحد. فكلما تعلق الأمر بالفرق الحربية يكون الخطر هو نفسه لجميع أفرادها.

11. لديَّ سبب عائلي لقول ما أقول. فأخي، نبيل ماتِكولون[1] استُدعي إلى روما ليكون الرجل الثاني لنبيل لا يعرفه، وكان على ذلك النبيل أن يدافع عن نفسه في نزال كان وراءه شخص آخر. وفي هذه المعركة، أرادت المصادفة أن يجد نفسه ضد رجل كان أحد جيرانه ويعرفه جيدًا (وحبّذا لو يبرّر لي أحد قوانين الشرف هذه التي تجري عادةً ضد العقل وبشكل صادم). وبعد أن تخلص أخي من خصمه، وحين رأى أن المتنازليْن الرئيسييْن في المعركة سليميْن ويقفان على رجليهما، راح لنجدة رفيقه. هل كان عليه ألا يقوم بذلك؟ هل كان عليه ألا يتدخّل ويرى موت من أتى إلى هنا للدفاع عنه، لو شاء القدر ذلك؟ فما قام به حتى ذلك الوقت، لا جدوى له في القضية، فقد ظلت المعركة غير متحدّدة المعالم. إن الموقف النبيل الذي تستطيعه والذي عليك القيام به حيال عدوّك حين تكون قد وضعته في موقف حرج، ويكون في وضعية دونية، لا أدري كيف يمكن أن يكون لك ذلك الموقف النبيل، حين يتعلق الأمر بمصلحة الغير، وحين لا تكون سوى مساعد، وأن الخصومة ليست خصومتك. فهو لم يكن بمقدوره أن يكون لا عادلًا ولا نبيلًا من غير أن يجرّ الخطر على الشخص، الذي قَبل أن يكون مخلصًا له. وهكذا تمّ تحريره من سجون إيطاليا بطلب سريع وحازم من مَلكنا.

12. إننا أمة تحب الغلوّ. فنحن لا نكتفي بصنع سمعة عن عيوبنا وحماقاتنا في العالم بأسره، بل إننا نأخذها معنا للشعوب الأجنبية كي نريها لهم. ضعوا فرنسييْن في صحراء ليبيا، فلن يقضيا شهرًا من غير أن يحدث بينهما الشقاق ومن غير أن يتبادلا الشتائم. وهذه البعثة ستبدو كما لو تمّ تصوّرها كي نمنح للأجانب متعة مآسينا، وفي الغالب لأولئك الذين يستمتعون بشرورنا ويسخرون منها.

(1) كان يسمى برتراند. وقد أخذه مونتيني معه إلى إيطاليا وهو يشير إلى ذلك في القصة التي يرويها عن هذه الرحلة.

13. لقد رحنا إلى إيطاليا لنتعلّم فيها فن المسايَفة، بحيث رهنّنا حياتنا به قبل أن نتعلمه جيدًا. وعلينا مع ذلك، إذا نحن أردنا اتباع نظام التعليم، أن نضع النظرية قبل التطبيق، فنحن نخون مبادئ كل عملية تعلُّم.

«لأنها باكورة تعيسة للمحاربين الشباب!
وتعلّم قاسٍ للحرب الآتية!»[1].

أنا أدرك جيدًا أن المسايفة فنّ مفيد في غايته (فتيتوس ليفيوس يقول: إنَّ في نزال الأميرَيْن ابنيْ العم بإسبانيا، تفوَّق الأكبر سنًا بسهولة على القوة الرعناء للأصغر سنًا، بفضل معرفته بالسلاح وبفضل حيله)، ومعرفته كما لاحظت ذلك، قد نفخت قلوب البعض بصورة غير معقولة. بيْد أن الأمر لا يتعلق هنا بالشجاعة وإنما بالحذق، ويجد مصدره لا في المسايفة في ذاتها وإنما خارجها.

14. يقوم الشرف في المعركة على حبّ الشجاعة لا على الإتقان. لهذا رأيت أحد أصدقائي، وهو معروف بكونه معلمًا كبيرًا في هذا المضمار، يختار ليفرّغ نزاعاته الحربية أسلحة كانت تحرمه من ذلك الامتياز، تاركًا كامل حظوظها للصدفة وللثقة التي كانت له في نفسه، حتى لا يُنسب فوزه بعد ذلك لمهاراته في المسايفة وإنما لقيمته. وفي طفولتي، كانت النبالة تتهرب من سمعة المُسايِف الماهر باعتبارها سُبَّة، فقد كانت تزدري تعلّم هذا الفنّ لأنه كان يقوم على اللطافة وينزاح عن الشجاعة الطبيعية والحقيقية.

«هم لا يرغبون لا في تفادي الضربة، ولا صدّها، ولا في التراجع
فالإتقان لا مكان له في مصارعتهم
وضرباتهم ليست تظاهرًا: تارةً مباشرة وتارةً موارِبة
فالحماس والهياج والغضب يحرمهم من استعمال الفن
أنصتوا للصليل الرهيب للسيوف، وهي تتضارب بالحديد الصارم
وهم لا يترادعون ولا بمقاس قدم
أرجلهم ثابتة في الأرض وبدهم في حركة دائبة
بالسيف أو بالنصل، كل ضرباتهم تكون صائبة»[2].

---

(1) Virgile (112), XI, 156.
(2) Le Tasse (103), XII, 55.

15. إن الرماية والمباريات والصراع «عبر الحاجز»[1]، ومحاكاة المعارك، كل هذا كان يمثل التمارين التي كان يتعاطاها آباؤنا. وفن المسايفة هذا قليل النبل بحيث لا هدف له إلا شخصي. فهو يعلمنا كيف نحطّم بعضنا البعض ضدًا على القوانين والعدالة، وهو كانت له في كل الأحوال نتائج مأساوية. فمن الأجدى والأفضل التمرن على أنشطة تعزّز دولتنا، لا تلك التي تشكل مساسًا بها؛ ومن الأجدى تعاطي تلك التي تهمّ الأمن العام والمجد المشترك.

16. كان القنصل بوبليوس روتيليوس الأول الذي علم الجنود استعمال السلاح بإتقان ومعرفتها جيدًا، والأول الذي ربط بين الإتقان والشجاعة. لم يكن ذلك لكي يتم استخدامه في النزاعات الشخصية، وإنما من أجل الحروب ونزاعات الشعب الروماني. لقد كانت مُسايفة شعبية ومواطِنة. علاوة على ذلك فإن مثال يوليوس قيصر، الذي أمر جنوده في معركة فارسالوس أن يضربوا أساسًا في الوجه جنود بومبيوس، قد دفع آلاف القادة الحربيين إلى التفنّن في ابتداع أشكال جديدة من الأسلحة، وطرقًا مبتكرة في الضرب وحماية النفس، تبعًا لضرورات المعركة الحاضرة. كما أن فيلوبويمين أدان فن المصارعة الذي كان يتقنه جيدًا مع ذلك؛ لأن الاستعدادات لهذا التمرين كانت تبدو له مختلفة عن الاستعدادات العسكرية التي كان على الناس الشرفاء أن يكرسوا وقتهم لها -حسبه، وحسب رأيي أيضًا- وأن ذلك الإتقان الذي يتم تدريب أطراف الجسم عليه، وتلك المواربات وتلك الحركات التي كان يتمّ تدريب الشباب عليها في تلك المدرسة الجديدة، ليست فقط غير مجدية وإنما مناقضة للممارسة العسكرية ومضرّة بها.

17. بل إن المُسايفين يستعملون عادةً أسلحة خاصة، مكرَّسة خصيصًا لهذا الغرض. وقد لاحظتُ أن الناس لا يستحسنون أن يحضر نبيل يكون قد دُعي لنزال في حلة عسكرية. ولا أيضًا في عباءة وبخنجر. وعلينا أن نسجل أن لاخيس لدى أفلاطون، يقول متحدثًا عن تعلم استعمال سلاح شبيه بسلاحنا، إنه لم ير أبدًا رجل حرب عظيم تخرّج من تلك المدرسة، وخاصةً من بين أولئك الذين كانوا أساتذة فيها. يمكننا قول

(1) هي مباريات بن متعاركين يكونون فريقين في هذا الجانب وذاك من حاجز موضوع بينهما في ميدان للباريات.

الشيء نفسه عن مسايِفينا. ويمكننا أن نستنتج بشكل أكيد أنْ لا علاقة بين هاتين الموهبتيْن. كان أفلاطون قد حرّم المصارعة بقبضات اليد التي أدخلها أميكوس*[1] وإيبِيوس*[2]. كما أنه حرّم المصارعة التي أدخلها أنتايوس*[3] وكيركيون*[4]؛ لأن هذه «الفنون» لها هدف آخر غير أن تجعل الشباب مؤهَّلًا للخدمة العسكرية، ولا تساهم فيها بأي نصيب. لكنني أحيد شيئًا ما عن موضوعي.

18. حين علم الإمبراطور موريكيوس[5] بالأحلام وبالعديد من التنبؤات أن جنديًا يسمى فوقاس، لم يكن لحد ذلك الوقت معروفًا، سيُقْدم على قتله، سأل زوج بنته فيليبوس: عمَّن يكون فوقاس هذا، وعن وضعيته ومزاجه وسلوكه. وبما أن فيليبوس قال له من بين أشياء أخرى: إنه رجل جبان ورعْديد، استنتج الإمبرطور لتوّه أنه كان جنديًا شرسًا وميالًا للقتل. ما الذي يجعل الطغاة أشخاصًا دمويين؟ إنه همّ أمانهم، فجُبنهم لا يقدّم لهم أي وسيلة لضمان أنفسهم غير اللجوء إلى التنكيل بمن يريدون المساس بهم، حتى لو كانوا نساءً، خوفًا من الإصابة بأي جرح بسيط.

«بما أنه يخاف كل شيء، فإنه يضرب كل شيء»[6].

19. الأعمال الوحشية الأولى تتم ممارستها لذاتها؛ ومن ثم ينبع الخوف من انتقام عادل ينجم عنه شلَّال من الهمجية الجديدة، كي يتم طمس بعضها ببعض. كان فيليبوس ملك مقدونيا[7]، الذي كانت له علاقات مشوَّشة مع الشعب الروماني، مهمومًا بالفظاعات التي كانت تُرتكب بأمر منه، وبما أنه لم يجد مخرجًا إزاء العدد الكبير من العائلات المنكوبة في فترات مختلفة، قرر أن يستولي على أبناء كل الذين أمر بقتلهم، كي يقضي عليهم شيئًا فشيئًا الواحد بعد الآخر ويضمن بذلك راحة باله.

---

(1) * ملك البيبريكيين وابن بوسايدون في الأساطير الإغريقية.

(2) * أحد أبطال الإغريق في حرب طروادة.

(3) * مصارع عملاق في الأساطير الإغريقية.

(4) * ملك إليوسيس (الفسينا حاليًا) في الأساطير الإغريقية، عرف بالقوة والقسوة وحب المصارعة.

(5) إمبراطور بيزنطة حتى عام 602 م، أعدمه الجيش مع عائلته، لأنه كان مستاءً من حكمه، وولى بدله فوقاس قائد المائة.

(6) Claudien (22), I, 182.

(7) هو فيليبوس الخامس، الملك ما قبل الأخير لمقدونية.

20. الأشياء الجميلة تحافظ دومًا على مرتبتها، أينما زرعناها. وأنا الذي أهتم بوزن الموضوعات وفائدتها أكثر من نظامها وترتيبها، لن أخشى هنا أن أدرج، على الهامش، قصة رائعة. (فحين تكون هذه القصص غنية وتبرّر نفسها بنفسها، تكفيني شعرة واحدة كي أشدها بها إلى سياق كلامي). ومن بين الرجال الذين حكم عليهم فيليبوس في البداية، كان ثمة أمير للثّيساليين يُدعى هيروديكوس. وبعده أمر بقتل زوجيْ بناته، كل واحد منهما تاركًا ابنًا صغير السن. كانت ثيوكسينا وآرخو أرملتيْ الرجليْن. ولم يستطع أحد أن يقنع ثيوكسينا بالزواج من جديد، بالرغم من كثرة الراغبين فيها. أما آرخو فتزوجت بوريس الذي كان أنبل رجل من بين سكان مدينة آينوس[1]، وخلّف منها الكثير من الأبناء، تركتهم كلهم يتامى وهم صغار السن. وبما أن ثيوكسينا كانت بالغة العطف على أبناء آرخو، تزوّجت بوريس حتى تحضنهم وتجعلهم تحت حمايتها. لكن ها هو مرسوم الملك[2] يصدر حينئذٍ.

21. وبما أن هذه المرأة الشجاعة كانت تحذَر من قساوة فيليبوس، ومن الطبع الفاجر لتابعيه إزاء هؤلاء الصبيان الجميلين والطّريين، فقد تجرأت على التوعّد بأنها سوف تقتلهم بيديها على أن تسلمهم للملك. أدخل ردّ فعلها الرعب في قلب بوريس، فوعدها بأنه سيعمل على إخفائهم واقتيادهم إلى أثينا؛ كي يضعهم بين أيدي رجال كانوا أوفياء له. وهكذا انتهزا فرصة عيد سنوي في مدينة آينوس تكريما «لإينياس»، فراحا للمشاركة فيه. وبعد أن حضرا في النهار للمراسيم وللمأدبة العامة، تسلّلا ليلًا إلى سفينة كانت معدّة للإبحار بهما. بيْد أن الرياح كانت معاكسة لهم، فوجدا نفسيهما في الصباح على مقربة من اليابسة التي انطلقا منها، فقام حرس الميناء بملاحقتهم. وفي اللحظة التي كادوا يلتحقون فيها بهما، والتي كان فيها بوريس يحث البحارة على الجدف، عادت ثيوكسينا بجنونِ حبها ورغبتها في الثأر إلى فكرتها الأولى، وهيأت السلاح والسمّ، وقدمت ذلك إلى الأطفال قائلة: «هيّا يا أبنائي، الموت صار السبيل الأوحد للدفاع عن حريتكم، وسيكون للآلهة الفرصة لإعلان عدالتها المقدسة. فهذه السيوف الحادة، وهذه الأقداح المليئة تفتح لكم الباب. تشجعوا. وأنت يا بنيَّ، الأكبر من بين

(1) مدينة من مدن تراقيا.

(2) الذي يحدد مصير أبناء المحكوم عليهم بالقتل.

إخوتك، خذْ، أمسك بهذا السيف لتعرف أشجع ميتة». وبما أن الرعب استحوذ على الأطفال وقد وجدوا أنفسهم بين هذه المرأة التي تنصحهم بحماسة، وبين العدو المتهدّد، أسرعوا لتناول ما بلغته يدهم، ورُمي بهم في البحر وهم في حال احتضار. ثم إن ثيوكسينا فخورةً برعايتها المجيدة لأمان أبنائها عانقت برقة زوجها وقالت له: «لنتبعْ هؤلاء الأطفال يا صديقي، ولنتمتعْ بالمدفن نفسه الذي كان لهم». وفي ذلك العناق رميا بنفسيهما في البحر، بحيث إن السفينة اقتيدت للمرفأ فارغة.

22. لكي يقوم الطغاة بالقتل ويُبينوا في الآن نفسه عن غضبهم، استعملوا كامل حذقهم كي يعثروا على الطريقة التي يطيلوا بها أمد الموت. إنهم يرغبون في أن يهلَك أعداؤهم لكن ليس بسرعة، حتى يجدوا الوقت للتلذّذ بانتقامهم. وهنا يصعب عليهم الأمر إذا كان العذاب قويًا، فهو يكون قصير الأمد؛ وإذا ما كان طويلًا فلا يكون بالغ الإيلام حسب هواهم. وها هم يستخدمون أدواتهم في التعذيب. ولنا المئات من الأمثلة في التاريخ القديم. وأنا أتساءل إن لم نكن، عن غير وعي منا، نحافظ على أثر من آثار هذه الوحشية.

23. كل ما يسير إلى أبعد من الموت البسيط يبدو لي همجية خالصة. فعدالتنا لا يمكن أن تأمل في أن ذلك الذي لم يردعه الخوف من الموت، ولا قطع الرأس ولا المشنقة من القيام بجرْم، سوف تردعه عن ذلك فكرة أن يُحرَق على نار هادئة أو وَهو يفكر في الملاقط الحامية[1] أو في عذاب العجلة[2]. وأنا أتساءل إن لم نكن خلال هذا الوقت نرمي بالمعذَّبين في اليأس التام. ففي أي حال ستكون نفس رجل ينتظر الموت خلال أربع وعشرين ساعة، وأطرافه مهشّمة على عجلة، أو مُسمَّرًا على صليب على الطريقة القديمة؟ يحكي يوسيفوس فلافيوس أنه فيما كان يمرّ، خلال حرب الرومان في يهودا، بمكان حيث تمَّ صلب بعض اليهود من ثلاثة أيام، تعرف من بينهم على ثلاثة من أصدقائه وحصل على الإذن بانتزاعهم من الصلبان. وحسب قوله، اثنان منهما أسلما الروح فيما بقي الثاني على قيد الحياة.

---

(1) تلك التي كانت تُحمى بالنار ويتم بها اقتلاع لحم المعذَّب.

(2) تعذيب أرساه «المَلك الطيب» فرنسوا الأول في فرنسا، خص به قطاع الطرق الكبرى. فقد كان المحكوم عليه يُربط إلى عجلة عربة وتُكسر أطرافه تدريجيًا بمطرقة حديد هائلة.

24. يروي لاونيكوس خالكونديليس*[1] الذي يمكن الوثوق بروايته، في «مذكراته» التي تركها لنا عن وقائع زمنه القريبة منه،عن تعذيب يعتبره بالغ الوحشية، كان السلطان محمد الثاني يمارسه مرات عديدة، والمتمثل في قطع الناس نصفين من وسط الجسد في مستوى الصدر بضربة سيف واحدة. وغالبًا ما كان أولئك الناس يموتون كما لو أنهم يتعرضون لميتتيْن في آن واحد، بحيث، كما يقول، كان المرء يرى قطعتي جسد مليئتين بالحياة تتحركان وقتًا طويلًا بعد الإعدام، منذورتيْن للعذاب. وفي رأيي فإن هاته الحركات لا تعبّر بالضرورة عن أحاسيس جياشة؛ فأبشع ألوان التعذيب ليست دومًا أصعبها في التحمُّل. وأنا أعتبر أفظعَ ما يرويه المؤرخون، ما كاله لنبلاء منطقة إبّيريا باليونان من عذاب؛ من أنه سلخهم بطريقة دقيقة بشعة بحيث، إنهم قضوا خمسة عشر يومًا في هذا العذاب بين الحياة والموت.

25. إليكم مثالان آخران: بعد أن اعتقل الملك كرويسوس[2] رجلاً من أصول نبيلة كان المفضّل لدى أبيه بانتاليون، قاده إلى حانوت صوّاف حيث بدأ يغزله وينشفه بأدوات الحرفة حتى قضى نحبه. وجورج سيشيل، قائد أولئك الفلاحين الذين مارسوا الكثير من الابتزاز تحت غطاء الحرب الصليبية، بعد أن هزمه وأسره أحد القادة العسكريين في ترانسيلفانيا، تمّ تقييده طيلة ثلاثة أيام، على مسند خشبي، وتعريضه لشتى أنواع التعذيب التي يمكن أن يسومه أي واحد، تاركًا باقي الأسرى من غير طعام. وفي الأخير، وحين كان لا يزال حيًّا، وكانت عيناه لا تزالان مفتوحتيْن، تم إشراب دمه لأخيه العزيز عليه لوكات، الذي كان يدعو إلى خلاصه، بحيث إنه تحمل مسؤولية كافة خطاياه وحده. ثم إنه قُطع إربًا ومُنح لحمه طعامًا لعشرين من قادته المفضّلين، الذين قطّعوا لحمه بنواجدهم والتهموها التهامًا. أما باقي جثته وأحشاؤها فقد تمّ غليُها بعد موته وإطعام أناس آخرين من أتباعه منها.

(1) * المقصود هنا هو المؤرخ لاونيكوس خالكونديليس وليس ديميتريوس خالكونديليس كما توهم المحقق. وهو لاونيكوس خالكونديليس أو خالكوكونديليس (1423 م تقريبا - 1490 م؟) مؤرخ بيزنطي، ألف كتابا مهمًا في التاريخ سمّاه «تجليات التاريخ» وهو الذي نقل منه مونتيني في هذا الصدد.

(2) ملك ليديا (القرن الخامس ق.م) اشتهر بثروانه. وقد جاء ذكره على لسان هيرودوتس.

الفصل الثامن والعشرون

كل شيء بأوانه

1. من يقارنون كاتو الرقيب بكاتو الصغير قاتل نفسه، يقارنون بين طبيعتين رائعتيْن من شكلين متقاربين. فالأول منحنا من طبيعته العديد من الأوجه، وكان الفائز بنجاحاته العسكرية وفائدة عمله العامّ. بيد أن فضيلة كاتو الصغير، عدا أن مقارنته بشخص آخر في القوة يعدّ ضربًا من الهرطقة، لا تشوبها شائبة. فمَن يستطيع حقًا أن يخلّص من كل حسد أو طموح فضيلة «الرقيب»، الذي جرؤ على المس بشرف سكيبّيو وهو لا يضاهيه عظمة، لا هو ولا غيره في عصره، لا في الطيبة الطبيعية ولا في كافة الفضائل الجوهرية كلها؟

2. فلَقد قيل عنه، من بين ما قيل، إنه في عزّ شيخوخته: بدأ يتعلم اللغة اليونانية بحماسٍ كبير، كما ليُشبع عطشًا يحمله في داخله من زمان. وهذا لا يبدو لي حجة كبرى لصالحه، فذلك ما نسميه حرفيًا «النكوص لمرحلة الطفولة». ثمة وقتٌ لكل شيء، الأشياء الطيبة والأشياء الأخرى. فبإمكاني أن أتلو صلاتي في وقت غير ملائم، كما في حال ت. كينتينيوس فلامينيوس، الذي حين كان جنرالًا عسكريًا، وُجّهت له التهمة بأنه شوهد وقت المعركة يُضيع الوقت في الصلاة لله، خلال معركة أحرز فيها مع ذلك النصر.

«الحكيم يضع الحدود حتى لما هو خيْر»[1].

3. حين رأى يوداميداس العجوز زينوقراطيس يهرول للالتحاق بالدروس، التي كان يقدمها في مدرسته، قال: «كيف له أن يعرف في النهاية شيئًا هو الذي لا زال يتعلم؟». وقد قال فيلوبويمين لمن كان يُكنّ تقديرًا كبيرًا للملك بطليموس، على الطريقة التي يعضّد بها نفسه بالاشتغال بفنون الحرب يوميًا: «ليس أمرًا محمودًا للملكِ من عمره أن يتمرّن على السلاح، فعليه الآن بالأحرى استعماله».

4. على الشاب أن يتهيأ للحياة وعلى العجوز أن يتمتّع بها، كما يقول الحكماء. والعيب الكبير الذي يلاحظونه فينا هو أن رغباتنا تتشبّبُ

(1)Juvénal (42), VI, 444.

باستمرار. فنحن نعود بلا كلل للحياة. وذوقنا ورغباتنا يلزمها في يوم ما أن تأخذ بعين الاعتبار الشيخوخة. فنحن لنا رجْل في القبر وشهيّتنا وحاجاتنا تستمر في الانبعاث.

«أنت تأمر بنحت الرخام في لحظة الموت
وعوضًا عن أن تفكر في القبر
تبني البيوت»[1].

5. لا تمتد أكثر مشروعاتنا عمرًا لأكثر من سنة واحدة، فأنا لا أفكر من الآن إلا في نهايتي[2]. وأنا أتملّص من كافة الأماني والأعمال الجديدة، وأودّع كل الأماكن التي أرحل منها، وأنفصل كل يوم شيئًا ما عما أملك: **«من وقت طويل وأنا لا أفقد شيئًا، ولا أملك شيئًا البتّة. ولم يعد لي من مؤونة إلا بقدر الطريق التي بقي لي قطعُها»**[3]. **«لقد عشت وعبرت المشوار الذي حدّده لي القدَر»**[4].

الارتياح الذي وجدته أخيرًا في شيخوختي، هي أنها تخفّف فيَّ العديد من الرغبات والهموم التي تضجّ بها الحياة، كهمّ مسير العالم والثروات والعظمة والمعرفة وهمّ ذاتي. فنحن نرى من لا يزال يتعلم كيف يتكلم، في الوقت الذي حان الوقت له أن يصمت إلى الأبد.

6. يمكننا أن نتابع الدراسة في كل عمر، لكن ليس أكثر بلاهة من عجوز يتعلم الأبجدية.

«الكثير من الأشياء تلائم العديد من الأشخاص
لكن أيّ شيء لا يلائم أيَّ عمر»[5].

وإذا كان علينا أن ندرس شيئًا ما يلائم الحال الذي نحن عليه، حتى

(1) Horace (37), II, XVII, 17.

(2) إنها بالتأكيد صيغة بلاغية. لكن مونتيني قد كتب ذلك عام 1588م، وتوفي فعلاً سنوات قليلة من ذلك في عام 1592 م.

(3) Sénèque (96), LXXVII.

(4) Virgile (112), IV, v. 653.

(5) Pseudo-Gallus (52), I, 104.

نستطيع الجواب، كما ذلك الشخص الذي سُئل عن فائدة دراسته في وَهَن العمر فأجاب: «ستساعدني على الرحيل وأنا أفضل وبشكل أسْهل». هذا النوع من الدراسة، هو ما قام به كاتو الصغير، حين أحس باقتراب أجله، بحيث إنه صادف محاورة أفلاطون المتعلقة بخلود النفس[1]. كان مع ذلك مجهَّزًا بما يكفي من أجل رحيل للآخرة من قبيل ذلك: فقد كان يملك ثقة أكبر، وإرادة أكثر حزمًا، وثقافة لا يُبين عنها أفلاطون في كتاباته. ولقد كانت شجاعته ومعارفه تفوق الفلسفة. وهو لم يكرّس نفسه لها كي يستعد لموته. كما أن أهمية القرار الذي سيتخذ لم يمنع النوم من أن يداعب أجفانه، بحيث إنه تابع تلك الدراسة رابطًا إياها بمشاغله المعتادة من غير أن يقوم باختيار أو بتغيير خاصّ. وفي الليلة التي تلت فقدانه لمهمة القضاء، قضاها في اللعب. وفي الليلة التي كان سيُحكم عليه بالموت إعدامًا، قضاها في القراءة. ففقدان الحياة، أو مهمة عمومية، كان سيّان لديه.

(1) محاورة فيدون.

الفصل التاسع والعشرون

في الشجاعة

1. أنا ألاحظ اختلافًا كبيرًا بالتجربة بين سوانح النفس وانفلاتاتها، وبين سلوك قائم على الحزم والثبات. وأرى جيدًا أن لا شيء يستعصي علينا فعله، بل يمكننا مجاوزة الألوهة كما قال أحدهم[1]؛ ذلك أن بلوغنا التحكم في النفس والربط بين حزْم الله ويقينه والضعف البشري، هو أمر مغاير لأن يكتفي المرء بأن يوجد ببساطة حسب طبيعته الأصل؛ لكن ذلك في الحقيقة لا يكون إلا عبارة عن إشارات خاطفة. بيْد أن هذا الأمر لا يقع إلا خطوة خطوة. ففي حيوات الأبطال في الأزمنة الغابرة، ثمة أحيانًا عناصر إعجازية تفوق قدراتنا الطبيعية؛ ومن الصعب أن نصدّق أننا من فرط حشْو النفس وتغذيتها، بمواقف سامية من قبيل تلك، سوف تنتهي إلى أن تبدو لها عادية وطبيعية. يحدث لنا نحن أنفسنا الذين لسنا سوى سَقْط مَتاع، أن ندفع أحيانًا بأنفسنا إلى ما وراء حالها العادية. لكنه ضربٌ من الهوى هذا الذي يحركها ويندفع بها فيما وراء ذاتها؛ ذلك أننا ما إن نجاوز تلك العواصف، حتى نلفيها تنبسط طبيعيًا من تلقاء ذاتها، بشكل كامل أو على الأقل حتى تكف عن أن تكون هي ذاتها. وهو ما يتم كذلك بشكل ننصاع معه للتأثر كما أي شخص عادي، وفي كل لحظة أمام طيرٍ تائهٍ أو كأسٍ مكسورة.

2. أعتبر أن كل شيء في متناول شخص قليل الموهبة ومليء بالعيوب، إلا حين يتعلق الأمر بالنظام والاعتدال والحزم. لهذا، كما يقول الحكماء، لكي نحكم بشكل صحيح على إنسان ما، علينا أساسًا أن نتفحّص أعماله الجارية ونفاجئه في أفعاله اليومية.

3. حاول بيرّون الذي بنى معرفة غريبة جدًا على الجهل، كما جميع الفلاسفة، أن يجعل حياته ومذهبه منسجميْن. ولأنه كان يعتبر أن ضعف الحكم العقلي البشري بالغ بحيث لا يمكنه أن يختار أو يحسم، وبما أنه كان يرغب في أن يترك حكمه هو معلّقًا ودومًا متأرجحًا، معتبرًا كل شيء غير مهم، قيل بأنه كان يقف دومًا بالطريقة نفسها، ويُبدي دومًا عن الوجه نفسه. وإذا ما هو بدأ عرضًا كان يسير به إلى نهايته، حتى لو كان من يتوجه إليه ذلك العرض قد غادر المكان. وإذا ما هو

(1)Sénèque (96), LIII.

سافر لا يحيد أبدًا عن سبيله بسبب أي شيء، وكان على أصحابه أن يجعلوه يتلافى الهُوّات وأن تصدمه العربات أو أن يقع له أي حادث آخر. فقد كان الخوف من شيء ما أو تفاديه، يعني له المسّ بقناعاته، التي كانت تستبعد كل إمكان للاختيار أو اليقين. وقد حدث له أن حزّه نصل أو اكتوى بنار، وأبان عن رباطة جأش لم ترمش معها له عين.

4. وإنه لأمر مهم أن نبلغ بالنفس هذه الأفكار؛ وسيكون أفضل أن نضيف إليها الأفعال، وهو أمر ليس بالمستحيل. لكن الربط بينها بمثابرة وثبات كبيريْن، إلى حد بناء المرء لسلوكه العادي على مواقف بعيدة جدًا عن العوائد المشتركة، فهذا ما يبدو غير قابل للتصديق. ولهذا حين صودِف يومًا في بيته يتخاصم بحدّة مع أخته، وعوتب حينئذٍ على الإخلال بمبدئه في التجاهل، ردّ قائلًا: «ماذا؟ هل يعني هذا أن تلك المرأة المسكينة تصلح للشهادة عن مبادئي؟». ومرة أخرى، حين شوهد وهو يدافع عن نفسه ضد كلب، أجاب: «من الصعب جدًا أن نتجرّد كلّية من الإنسان الذي في أنفسنا؛ علينا الجَهد في مصارعة الأشياء، أولًا بالأفعال ولكن أيضًا بالعقل والحُجج».

5. من حواليْ سبع أو ثماني سنوات، على بعد فرسخيْن من هنا، كان يعيش قروي لا يزال على قيد الحياة، وكان قد ضاق ذرعًا بغيرة زوجته. وفي أحد الأيام التي كان فيها عائدًا من عمله، تلقته المرأة بصراخها المعتاد، فدخل داره في غضب عارم وقطع توًّا بمنجله الذي كان في يده الأعضاء التي كانت تتسبب في تلك الغيرة، ورماها على وجهها. ويُروى أيضًا أن أحد النبلاء من منطقتنا، وكان عاشقًا ومتوثّب الذهن، وبعد أن نجح في استمالة قلب عشيقة حسناء بمثابرته، أحس باليأس من أن يكون رخوًا وخائبًا لحظة الجماع، لأن:

«من العار على رجل
ألا يكشف عضوُه إلا عن رأس أخرق»[1].

فعاد إلى بيته، وأمسك بعضوه وبتَرَه، وأرسل بهذه الأضحية الدامية

(1)Tibulles, **De inertia Inguenis**, in **Priapea** (4), LXXXII, 4.

لغفران مهانته. ولو كان ذلك الفعل ناجمًا عن تديُّن أو استبصار، كما هو حال كَهنة «كيبيلي» في اليونان، فما سيكون رأينا في عمل جليل كهذا؟

6. من بضعة أيام، في منطقة بيرجُراك، على بعد خمسة فراسخ من بيتي ونحن نصعد نهر دوردونْي، قامت امرأة كدَّر زوجها الكريه الطبْع صفوها وضربها في اليوم السابق مساء، باتخاذ قرار الإفلات من معاملته السيئة بالتضحية بحياتها. وعند الصباح وبعد أن كلمت جاراتها على عادتها، أسرّت لهن ببعض الكلمات عن مطالب تخص شؤونها، وأخذت معها إحدى أخواتها من يدها، وراحت معها إلى الجسر. وبعد أن قامت بتوديعها، رمت بنفسها في النهر حيث لقيت حتفها غرقًا. وما علينا تسجيله أيضًا في هذه الحالة، أنها قد قضت الليلة كاملة تخطط لمشروعها ذاك.

7. الأمر مخالف لدى نساء بلاد الهنود. فحسب عوائد هذا البلد، يكون للرجل عدة نساء، والمفضّلة من بينهن عليها أن تقتل نفسها بعد وفاة زوجها. ولدى كل امرأة من هؤلاء النساء، يكون الهدف الوحيد لحياتهن كلها هو أن تحظى بهذا الامتياز ضدًا على ضَرّاتها، والخدمات الجيدة التي يقدمنها لزوجهن لا يرذن من ورائه جزاءً، غير أن تكون الواحدة منهن عند حظوته كي ترافقه في موته.

«وما إن تُرمى الشعلة على السرير الجنائزي
حتى تحضر زمرة الزوجات الورِعات
ويبدأ الصراع لمعرفة مَن مِن بينهن حيةً
ستتبع الزوج: فمن العار ألا تحظى المرأة بالاختيار
واللواتي يفزن يمنحن أثداءهن للنار
ويلصقن شفاههن الحارقة على شفتي زوجهن»[1].

8. وفي أيامنا هذه، كتب أحدهم أنه رأى لدى الشعوب الشرقية أن

(1)Properce (80), III, XIII, 17.

العادة ما زالت جارية لا بأن تُفني النساء أنفسهن بعد أزواجهن، وإنما أيضًا العبيد المفضلون لهؤلاء الأخيرين. وهذا الأمر يتمّ هكذا: فبعد وفاة الزوج، يمكن للأرملة أن تطلب شهرين أو ثلاثة أشهر مُهْلة كي تنظم شؤونها، إذا رغبت في ذلك، لكن القليلات يرغبن فيه. وفي اليوم المعلوم، تركب الأرملة على متن جوادها في أبهى حللها، كما لو كانت في عرس، وتقول بفرح إنها رائحة لترقُد مع زوجها، ماسكةً في يدها اليسرى بمرآة، وفي الأخرى بسهم. وبعد أن تتجول في أبّهة كبيرة مصحوبة برفقائها وأبويها وبحشد كبير مُحتفٍ بها، تصل إلى المكان العمومي المنذور لهذه الاحتفالات.

9. إنها ساحة كبرى في وسطها حفرة مليئة بالحطب وقربها مكان عال يتم بلوغه بأربعة أو خمسة أدراج، تقاد إليه وفيه يُمنح لها طعام شهي. وبعدها تشرع في الرقص والغناء وتأمر بإشعال النار حين ترى أن الوقت حان لذلك. ثم إنها تنزل الأدراج وتأخذ أقرب شخص لزوجها الفقيد من اليد، فيذهبان معًا إلى أقرب نهر حيث تتجرد من ثيابها تمامًا، موزعةً حليها وكسوتها على أصدقائها، قبل أن تغوص في النهر كما لتتطهّر من آثامها. وبعد أن تخرج من الماء تدثِّر نفسها بدثار أصفر طوله أربع عشرة ذراعًا، لكي تمنح يدها مرة ثانية لقريب الزوج، وتعود إلى المرتفع، ومنه تتوجه بالكلام إلى الجمهور، وتطلب منه أن يهتم بأبنائها، إذا ما كان لها أبناء. وبين المرتفع والحفرة عادةً ما يوضع ستار لإخفاء النار الحارقة؛ غير أن البعض يعارض ذلك، كي يبدي عن رباطة جأش وشجاعة أكبر. وبعد أن تنتهي من كلامها، تقدم لها امرأة إناءً مليئًا بالزيت لتدهن به الرأس وباقي الجسد، وتقذف به بعد ذلك في النار، لترمي نفسها فيها للتوّ. ثم إن الجمهور يرمي عليها بقطع الخشب كي يجنِّبها موتًا بطيئًا، وبعدها تتحول فرحته إلى حزن ومأتم.

10. حين يتعلق الأمر بأناس أقلّ قدْرًا، يُحمَل جثمان الميت إلى المكان الذي يُرغَب دفنُه فيه، وهناك يوضع على محمله والأرملة جاثية أمامه، معانقةً إياه ومقبّلة له، وهي تظل في وضعها ذاك في الوقت الذي يبني فيه الناس سورًا حولهما حتى مستوى كتف المرأة؛ وفي تلك اللحظة،

يأخذها أحد أقربائها من العنق ويخنقها من الوراء. وحين تُسلم الروح، يتمُّ إكمال بناء السور وإغلاق المكان حيث يظلان مدفونيْن.

11. وفي البلاد نفسها، كان ثمة شيء شبيه بذلك لدى حكمائهم العُراة[1]. ولقد كانوا لا يقومون بذلك تحت إكراه الغير، ولا بسبب مزاج مفاجئ، وإنما بتقيُّد صارم بقواعدهم: فحين يبلغون عمرًا معينًا، ويحسون بأنفسهم عرضة للأمراض، كانوا يقيمون محرقةً، وفوقها يضعون سريرًا بهيًّا. وبعد أن يحتفلوا بمرح مع أصحابهم ومعارفهم، يتمدّدون على ذلك السرير بحزم بالغ، بحيث حين توقد النار لا نراهم يحرّكون ساكنًا. هكذا مات أحدهم وهو كالانوس في حضرة جيوش الإسكندر الأكبر بكاملها. ناهيك عن أنْ لا أحد من بينهم يكون خليقًا بالتقدير والقداسة والسعادة إلا من يموت هكذا، ومن يُسلم الروح وقد كفّرت عن آثامها وتطهّرت بالنار التي تحرق فيها ما كان فانيًا ودنيويًا. فما يمكّن من معجزات كهذه، هو الإصرار المسبق والثابت على الموت.

12. من بين الأمور التي تستدعي النقاش هناك مسألة القدَر. ولكي نربط الأمور المستقبَلة بل وإرادتنا أيضًا إلى ضرورة محدّدة لا يمكن تفاديها، نقوم باللجوء إلى حجَّة الزمن الماضي: «بما أن الله يقدّر الطريقة التي ستحدث بها كافّة الأمور، كما هو يفعل ذلك بالتأكيد، فمن اللازم إذًا أن تحدث كما قدّرها». وهو ما يجيب عليه لاهوتيّونا بأن رؤية شيء يحدث كما نفعله نحن (والله نفسه أيضًا يراه، بما أن كل شيء يكون في الحاضر له، فهو يرى ولا يتوقّع)، لا يعني أن ذلك إلزامًا له على الحدوث. نحن نرى أن الأشياء تحدث، والأشياء لا تحدث لأننا نراها. الحدث ينتج المعرفة، والمعرفة لا تنتج الحدث. وما نراه يحدث، يحدث؛ لكنه قدْ يحدث بشكل مغاير. ففي سجل علل الحوادث الموجود في العلم الأزلي لله، توجد أيضًا الأحداث «الطارئة» والأسباب الإرادية التي ترتهن بحرية الاختيار التي نملك. وهو يعلم أننا سوف نفشل لأننا سنكون قد أردنا الفشل.

(1) فلاسفة يسمون كذلك لأنهم كانوا يعيشون تقريبًا عراة، وكانوا يعيشون حياة الزهد.

13. وفيما يخصني، رأيت كفايةً من الناس يحثون فرقهم بهذه الضرورة القدَرية. والواقع أن «أجلنا» إذا كان مُقدَّرًا في وقت محدّد، فلا بنادق العدوّ ولا جسارتنا ولا فرارنا وخوفنا يمكنها أن تقدم ذلك الأجل أو تؤخره. وهذا أمر سهلٌ قوله، لكن من سيأخذه بعين الاعتبار؟ وإذا كان حقًا أن إيمانًا عميقًا وقويًا يؤدي إلى أعمال من الطبيعة نفسها، فينبغي أن يكون ذلك الإيمان الذي نتشدّق به اليوم مصطَنعًا؛ إلا إذا كان الازدراء الذي يُبدي عنه الإيمان لـ«الأعمال» يقوده إلى ازدراء صحبتها[1]؟

14. لكن وفي هذا الموضوع، يروي السيد دو جوانفيل، وهو شاهد موثوق به مثله مثل أي شخص آخر، ما يلي: البدْو وهم شعب من المسلمين، والذين كان الملك المقدس لويس التاسع قد واجههم في الأراضي المقدّسة، كانوا يؤمنون إيمانًا قاطعًا، حسب دينهم، أن أيام كل شخص محسوبة ومقدّرة مسبقًا من الأزل، تبعًا لقدَرية لا يمكن تفاديها، بحيث إنهم كانوا يسعون إلى الحرب من غير درع، حاملين فقط سيفًا معقوفًا ومدثّرين بعباءة بيضاء.

15. ثمة دليل من قبيل هذا قدّمه رجلا دين من فلورنسا في زمن أسلافنا. فبما أنهما كانا يختلفان في بعض أمور الدين، اتفقا على أن يرميا بنفسيهما معًا في النار، في حضرة الشعب وفي الساحة العامة، كي يقدم كل منهما الدليل على حقيقة وجهة نظره. لكن بعد أن تمت الاستعدادات كلها لذلك، والأمر أقرب إلى أن يتحقّق، جاء حادث غير منتظر ليوقف الأمر.

16. حقّق أحد الأعيان من الأتراك بطولة غير مشهودة في الحرب أمام جيشيْ السلطان مراد الثاني ويوحنا هونياد[2] وقد كانا على أهبة

(1) كان تعارض الكاثوليكيين والبروتستانتيين يقوم بالأخص على القيمة التي يمكن منحها «للأعمال» و«للإيمان»: فالأوائل يمنحون أهمية كبرى للأعمال، فيما يطالب الآخرون بأن يكون الإيمان مستقلًا عنها.

(2) مراد الثاني سلطان العثمانيين من 1421 و1451 م؛ وقد سعى ملك هنغاريا لازلو، وحاكم ترانسيلفانيا عبثًا أن يوقفا غزوه. وكان أمير ألبانيا إسكندر بك هو من تمكن من ذلك.

المواجهة. وبما أن السلطان مراد سأله عمّن مكّنه من تلك البسالة الباهرة بالرغم من حداثة سنه وانعدام تجربته، أجابه بأن معلمه الرئيس كان أرنبًا بريًا. وأضاف: «في يوم خرجت فيه للصيد، عثرت على أرنب بريفي جحره. ومع أني صحبت معي سلوقييْن ممتازيْن فقد بدا لي، لكيْلا يُفلت مني، أن أفضل وسيلة لذلك هي أن أستعمل قوسي، لأن الأرنب كان يشكل لي مرمىً صائبًا. بدأت أستل نبالي حتى السهم الأربعين الذي يمكن لجعبتي أن تحملها، وصوبتها كلها نحوه من غير أن أصيبه، بل من غير أن أوقظه من سباته حتى. وبعدها أطلقت سلوقيًّ عليه فلم يمسكا به. فأدركت حينئذٍ أن قدَره يحميه، وأن النبال والسيوف لا وقْع لها إلا بمشيئة القدر المرتبطة بنا، وأنْ ليس لنا القدرة على التقدم أو التراجع». هذه القصة تصلح لنا كي نبيّن، في هذا السياق، إلى أي حدّ يمكن لعقلنا أن يكون مُصيبًا بكافة أنواع الأمور.

17. حكى لي رجل كبير بعدد سنوات عمره وشهرته وكرامته، كيف حدث له تغيير مهم في عقيدته بمثير خارجي من الغرابة والتفاهة بحيث وجدته أنا بالعكس قمينًا بأن يكون مُقنعًا له. وقد سماه «كرامة» وأنا أيضًا لكن بمعنى مخالف.

18. يروي مؤرخو الأتراك أن هؤلاء مقتنعون بالغ الاقتناع بالقدَر وبالأجل المسمّى بحيث إن ذلك يساهم في منحهم تلك الثقة والإقدام أمام المخاطر. وأنا أعرف أميرًا عظيمًا[1] يستخدم ذلك بسعادة، إما لأنه مقتنع بالقدَر أو لأنه يستخدمه ذريعةً للمخاطرة بنفسه. وأتمنى له ألا يتعب القدَر من تقديم يد العون له.

19. وحسب ما تُسعفنا به الذاكرة، نحن لم نعرف أبدًا فعل عزم أروع ولا أفضل من عزم الرجليْن اللذين تآمرا على أمير منطقة أورانج بفرنسا. فمن العجيب أن نرى كيف تمّ إيقاد حماس الثاني حتى إنه قام بإنجاز فعل كانت له نتائج وخيمة على رفيقه، الذي كان قد قام بما

(1) هو هنري الثالث ملك نافارا، الذي سيصير الملك هنري الرابع على ما يبدو.

يجب فعله تمامًا. لقد كان من المدهش أن نراه يقتفي خطاه بالسلاح نفسه، ويهاجم أميرًا كان قد أُخْطِر أخيرًا بالأمر ومحميًا من جمهرة من أصحابه وبقوته الجسمانية، في قاعته الكبرى، وسط حرَسه في مدينة تكنّ له أعمق الوفاء. صحيح أنه كان مليئًا بالعزم وبإقدام يحركه شغف كبير. والخنجر أكثر نجاعة للطعن، لكن بما أنه يتطلب حركة أكبر وقوة ساعد أكثر من المسدّس، فإن ضربته يمكن أن تحيد أو يتم اعتراضها. فأن يكون هذا الرجل قد سار إلى موت أكيد، هو أمر لا أشك فيه، ذلك أن الآمال التي تمّت دغدغتُه بها لا يمكن أن تجد لها مكانًا في عقل يقظ. والطريقة التي تصرّف بها لم يكن ينقصها الصفاء ولا الشجاعة. وأسباب قناعةٍ بهذه القوة يمكن أن تكون بالغة التنوّع، ذلك أن خيالنا يجعل منها ومنّا ما يريد.

20. أما عملية الإعدام التي تمّت قرب مدينة أورليون*[1] فكانت مختلفة. فلقد كانت من محض المصادفة أكثر من القوة. فالضربة لم يكن لينتج عنها الموت لو أن القدر لم يشأْ ذلك. وإطلاق النار من فوق جواد، على رجل يتحرك جواده بحدة، كان عمل رجل يحب أن تحيد طلقته عن هدفها على أن يفشل في الهرب. وما سيلي يوضح ذلك؛ ذلك أنه تحمس وأحس بالخدَر للقيام بعمل بهذه الخطورة، وكان ذلك بشكل كبير بحيث إنه فقد وجهته، ولم يعرف لا التحكم في الهرب ولا التحكم في لسانه، حين تمّ استنطاقه. كان يكفيه أن يلتحق بأصدقائه بعبور أحد الأنهار، فذلك كان مخرجًا استعملته أنا أيضًا في ظروف أقل خطورة وأعتبره قليل المحاذير، يكفي فقط أن يكون جوادك يقبل الدخول للماء بسهولة، وتكون قد اخترت مُسبقًا في الشط الآخر مكانًا ملائمًا تبعًا لتيار الماء. لكن الرجل الآخر[2] حين تم إعلان الحكم عليه صرّح قائلًا: «كنت متهيئًا لذلك. وسوف أدهشكم بصبري وجلَدي».

(1) * المشار إليه هنا اغتيال فرنسوا دو غيز على يد البروتستانتي بولترو دو ميري خلال حصار مدينة أورليون عام 1563 م.

(2) يبدو أن الأمر يتعلق فعلاً بلتازار جيرار. ومونتيني يعارض كلامه الحازم مع تصرفات الأول وكلامه للتهرب. لكن النص بالغ الإيجاز في ذلك.

21. الحشاشون[1] وهم طائفة ترتبط بالفينيقيين، يعتبر المسلمون أن لهم ورعًا كبيرًا وصفاءً في العوائد. فهم يعتقدون أن السبيل الأقصر لاستحقَاق الجنة يتمثّل في قتل شخص من ديانة منافية لديانتهم. وذلك هو السبب الذي يجعلهم بعباءتهم إما فرادى أو مثْنى، يهاجمون أعداء أقوياء مخاطرين بحياتهم تمام المخاطرة. وهكذا تم اغتيال (وهذه الكلمة آتية من الغلوّ/الغلاة) الكونت رايموند كونت طرابلس، في وسط مدينته، خلال حروبنا في الأراضي المقدّسة، وكذلك كونراد ماركيز منتفيرا. والقتلة الذين كان يتم اقتيادهم للمشنقة كانوا مشبعين بالفخر، معتزّين بما كانوا يسمونه عملًا عظيمًا.

(1) اسم أطلق على طائفة إسلامية إسماعيلية نزارية ظهرت في بلاد فارس في القرن الحادي عشر، وسعت من خلال «فدائييها» نشر دعوتها في بلاد فارس والشام، ودخلت في صراعات مع الدول الإسلامية وقتئذٍ.

الفصل الثلاثون

عنْ طفلٍ غولٍ غريب الخِلْقة

1. ستكون هذه الحكاية بالغة البساطة، وسأترك للأطباء عناية أن يتخاطبوا في الأمر[1]. رأيت أول أمس[2] طفلًا بمعيّة رجلين ومرضعة، زعموا أنهم الأب والعم والعمة، يتجولون به لاستعراضه وليكسبوا من وراء ذلك بعض المال، بسبب غرابة خلقته. كان ذا هيئة عادية، ويقف على رجليْه، ويمشي تقريبًا مثل كافة الأطفال. وهو يرفض لحد الآن أن يتغذى من شيء آخر غير الرضاعة من ثدي مرضعته، وما حاولوا أن يضعوا في فمه أمامي، يقوم بمضغه قليلًا قبل أن يلفظه من غير أن يبلعه. كانت لصرخاته شيء ما غريب. وكان قد بلغ لتوه الرابعة عشرة من العمر. وهو تحت الحلمتيْن كان متصلًا ولصيقًا بطفل آخر من غير رأس، وكانت قناته النخاعية للعمود الفقري مغلقة، والباقي سليمًا. وإذا كان أحد ذراعيه أقصر فلأنه تكسّر جرّاء حادث عند ولادته. كانا متلاصقين وجهًا لوجه، كما لو أن طفلًا أقصر يريد أن يقبّل طفلًا آخر أكبر منه[3]. والمنطقة التي كانا مترابطين بها لم تكن تنيف عن أربعة أصابع، بحيث إذا نحن أدرنا الطفل الناقص الرأس، يمكننا أن نرى صرّة الثاني. فالتلاصق يوجد بين الحلمتيْن والصرّة. ولم نكن نرى ذلك في جسم الطفل الناقص، لكننا كنا نرى باقي بطنه. وهكذا فإن ما لم يكن متلاصقًا من هذا الطفل، كالذراعين والعجيزة والفخذين والرجليْن يظل متدلّيًا ومتأرجحًا يلامس الآخر ويصل منه حتى نصف الركبة. وقد قالت لنا المرضعة أيضًا: إنه كان يتبول من القُبُل والدُّبر، وأطراف الصبي الثاني تتغذى وتتمتع بالحياة، وهي في الحال نفسه لأطراف الصبي الأول، سوى أنها أقصر وأصغر.

2. هذا الجسد المزدوج وأطرافه المختلفة التي تتصل برأس وحيدة، يمكنه أن يشكّل للمَلِك فألًا حسنًا يُبيّن أنه سوف يحافظ تحت سلطته على وحْدة مختلف أطراف دولتنا وأمصارها. لكن، خوفًا من أن تكذّب

(1) لقد تحدث أمبرواز بباريه فعلاً عن البشر الأشبه بالغيلان في مؤلفاته. وهو يرى فيها «غالبًا آيات على شر آت لا ريب فيه». أما مونتيني، فهو خلافًا له، يعتبر أن كل غول يمكن أن نجد له تفسيرًا طبيعيًا، حتى لو لم نعثر عليه بفعل عدم كفاية عقلنا أو نقصان تجربتنا.

(2) يبدو أن هذه المقالة حررت حوالي 1578 م.

(3) ذلك ما نسميه منذ القرن التاسع عشر «الإخوة السياميين». فلقد ولد في سيام عام 1808 م أخوان مترابطان كذلك، لكن برأسين، وتمّ التجوال بهما عبر العالم قبل أن يستقرا بالولايات المتحدة. وقد توفيا الواحد بعد الآخر بفاصل ساعات فقط.

ذلك الأحداث، من الأفضل أن نتركه يقوم بعمله أولا[1]. ذلك أن أفضل شيء هو أن نتكهّن بالأشياء المعمولة سلفًا: «**حين تكون الأشياء قد تمّت، نجد لها تأويلًا معيّنًا نتحقّق به مما كان مُتوقّعًا**». بالشكل نفسه، كان يُقال عن إبيمينيدس إنه كان «يتكهّن بالعودة للوراء».

3. رأيت حديثًا في منطقة ميدوك راعيًا يُناهز الثلاثين عامًا ليس له أعضاء جنسية، إذ له فقط ثلاثة ثقوب يسيل منها الماء بلا انقطاع؛ لكنّ له لحيةً ويحس بالشهوة ويسعى لمعاشرة النساء.

4. إن ما نسميه «غيلانًا» ليست كذلك لدى الربّ، الذي يرى في شسوع خلقه لانهائية الأشكال والصور والهيئات التي ضمَّنه إياها. ويمكننا الاعتقاد في أن هذه الهيئة التي نندهش لها ذات علاقة مع هيئة أخرى غير معروفة من بني البشر. فمن حكمته الكاملة لا يمكن أن يتأتّى إلا ما هو طيب وعادي ومنتظم. لكننا لا نرى في ذلك العلائق والترابطات: «**إن ما يرى الإنسان بالاعتياد لا يبدو له مدهشًا، حتى لو غابت عنه أسبابه. لكنه أمام شيء لم يره أبدًا يفكر في معجزة**»[2]. وإننا نسمي «شاذًا عن الطبيعة» ما يعارض عوائدنا، ومع ذلك فليس ثمة شيء، لا يكون حسب الطبيعة، مهما كان ذلك الشيء. فليطردْ هذا العقل الكوني والطبيعي من أذهاننا الخطأ والدهشة التي يأتي لنا بها الجديد.

(1) من الواضح أن مونتيني يسخر هنا من الدور «النبوئي» الذي كان يُعزى في عصره للغيلان.

(2)Cicéron (16), II, 27.

الفصل الحادي والثلاثون

في الغضب

1. يظل بلوتارخوس دومًا مثير للإعجاب، خاصةً حين يجعل من نفسه قاضيًا يحكم على الأعمال البشرية. ويمكننا أن نقف على الأشياء الحسنة التي يقول، في مقارنته ليكوغوس بنوما بومبيليوس، بخصوص النزق الكبير الذي يلمّ بنا حين نترك الأطفال في كنف آبائهم وتحت مسؤوليتهم. أغلب دُولنا، كما يقول أرسطو، تترك لكل واحد، على عادة الآلهة ذات العين الوحيدة، تدبير أمور نسائه وأطفاله تبعًا لأفكاره واستيهاماته. ولا يوجد غير دولتيْ إسبرطة وجزيرة كريت اللتين أصدرتا القوانين المتعلقة بطريقة تربية الأبناء. ومَن منّا لا يرى مع ذلك كيف أن كل شيء يرتهن في دولة معينة بالطريقة التي تتمُّ بها تربية الأطفال وتنشئتهم؟ ومع ذلك توكَّل هذه المَهَمَّة من غير تبصُّر للآباء وحدهم، مهما كانوا مغفّلين أو أشرارًا.

2. كم من مرة وأنا أمرّ في الشارع، استبدّت بي الرغبة في أن أقوم بمناورةٍ لأثْأر لصبيان أراهم يُنكَّل بهم ويُصفعون ويُجرحون مِن أبٍ ثارت ثائرته أو أمّ هائجة، خرجا عن طورهما من الغضب=

«نرى النار تقدح في عيونهم والغضب يتطاير منها
مشتعلين غضبًا، خارجين عن طورهم
كما الصخور التي، حين تُقتلع من القمّة
تنحدر سريعًا نحو الأسفل»[1].

=(وإذا ما نحن وثقنا بقول أبُقراط، فأخطر الأمراض هي تلك التي تشوه الناس). إن لهم أصواتًا حادة وراعدة، ويهجمون عادةً على كائنات خرجت لتوّها من المهد فيقومون بتعنيفها وجرحها بالضربات. أما عدالتنا فلا يهمها الأمر بتاتًا، كما لو أن هذه الاعتداءات لا تهمّ أفرادًا من مجتمعنا.

«الوطن والشعب ممنونان لك لأنك منحتهما
مواطنًا، أتمنى فقط أن تجعله قادرًا على خدمة الحقول
وعلى الاشتغال بفنون الحرب أو السلم»[2].

(1) Juvénal (42), VI, v v. 647-649.

(2) Juvénal (42), XIV, 70.

3. ليس ثمّة من نزوة تشرخ صدق الأحكام العقلية أكثر من الغضب. ولا أحد سيشك في ضرورة عقاب القاضي، الذي قد يحكم على مجرم تحت تأثير الغضب. وإذًا، فلماذا يُسمَح للآباء والمعلمين في المدارس، حين يستبدّ بهم الغضب، أن يجلدوا الأطفال ويعاقبوهم شرّ عقاب؟ إن ذلك لم يعد «توبيخًا» بل صار انتقامًا. العقاب ضرب من الدواء للأطفال؛ لكن هل يمكننا أن نستحمل طبيبًا في حال غضب وهيجان ضدّ مريضه؟

4. ونحن أيضًا، ما دمنا في حال غضب، ولكي نتصرَّف بطريقة سليمة، علينا ألا نرفع اليد أبدًا على خدَمنا. فما دامت الحياة دبّت في جسمنا، واستمرت العاطفة في حَضْنِنا لنؤجلْ ذلك إلى ما بعد. آنذاك ستبدو لنا الأمور في صورة أخرى مختلفة بعد أن تهدأ أعصابنا ويبرد دمنا. ففي تلك اللحظة، يتحكم فينا الغضب وهو الذي يتكلّم فينا، لا نحن. ومن خلاله، تبدو لنا الأخطاء عظيمة كما الأجسام في الضباب. من يتلوى جوعًا يتناول طعامًا، لكن من يريد العقاب لا يلزم له أن يكون عطشانَ أو جوعانَ له. بل إن العقاب الذي يُمارَس باعتدال وتبصُّر يصبح مقبولًا أكثر ويكون له أثر أفضل لدى من يقَع عليه. لكنه بالمقابل، لا يعتقد أنه قد عوقِب بطريقة عادلة حين يكون ذلك من شخص في حال غضب وهُياج، فهو لكي يبرّر فعلته يعزوها إلى التصرف الغريب الأطوار لسيّده ووجهه المحتقن والوعود الكاذبة وقلقه وتهوره البالغ.

«وجهه متورّم بالغضب
وشرايينه منتفخة بالدم الأسود
وعيناه تتوقّدان بنار أكثر لهيبًا من الغورغون»*[(1)].

5. يحكي سويتونيوس أن ما خدم كثيرًا قضية جايوس رابيريوس لدى الشعب الذي استجار به كي يدافع عنه حين أدانه يوليوس قيصر، كان هو العداء والقسوة اللتان صاغ بهما قيصر تلك التهمة ضده.

(1)Juvénal (42), XIV, 70.

* الغورغون في الأساطير الإغريقية إحدى ثلاث أخوات ممسوخات، شعورهن أفاعي سامة، ونظراتهن تمسخ من ينظر إليهن حجرًا.

6. القول والفعل أمران مختلفان أشدّ الاختلاف. فعلينا أن نرى الموعظة من جهة والواعظ ومن جهة أخرى. لقد كانت المهمة صعبة أمام أولئك الذين سعوا في عصرنا إلى الاحتجاج على حقيقة كنيستنا باستخدامهم لرذائل رجال الكنيسة: فدلائلها آتية من عالم آخر، وما ذلك إلا طريقة دنيئة للحِجاج لا تعمل إلا على زرع الفوضى. قد يكون لرجل ذي أخلاق حسنة آراء سيئة؛ ورجل مشكوك في فكره يمكنه أن يدعو إلى الحقيقة حتى لو لم يكن يؤمن بها. ومن الأكيد أن القول والفعل حين يتماشيان معًا يشكّلان تناغمًا رائعًا، ولا يمكنني الشك في أن الكلام يكون ذا سلطة أبلغ وفاعلية أكبر حين تتبعه الأفعال. وكما قال يوداميداس حين سمع فيلسوفًا يتحدث عن الحرب: «**هذه الكلمات جميلة، لكننا لا يمكننا أن نصدق من يتفوّه بها، لأن أذنيه غير متعودتين على نفير الحرب**»[1]. والأمر نفسه مع كليومينيس، الذي حين سمع عالم بلاغة يقوم بخطبة يمجّد فيها الشجاعة بدأ بالضحك. وبما أن الآخر أحس بالإهانة، ردّ عليه: «**كنت سأقوم بالشيء نفسه لو كان خُطّاف هو الذي تحدّث؛ لكن لو كان الخطيب نسرًا لأنصتُّ له عن طيب خاطر**»[2].

7. يبدو لي أني أدركت في كتابات القدماء أن من يقول ما يفكر به يقوم بذلك بالكثير الأكثر من القوة ممّن يفكر في شيء آخر. أنصتوا لشيشرون يتحدث عن حب الحرية، وأنصتوا لبروتوس يتحدّث عنها: فما كتبه هذا الأخير له صدًى يُبيِّن لنا أنه رجل يدفع حياته ثمنًا لها. يتحدث شيشرون، أبو الفصاحة، عن ازدراء الموت؛ ويتناول سينيكا الموضوع نفسه: يبدو الأول متهاديًا وخاملًا، بحيث تحس جيدًا أنه يريد إقناعك بشيء ليس مقتنعًا به هو نفسه. أما الثاني فيحرك بواطنك ويوقدها. وأنا لا أقرأ أبدًا مؤلفًا، خاصةً من يتناولون الفضائل والأعمال، من غير أن أسعى ببعض الفضول إلى معرفة ما كانه في الواقع ذلك الشخص.

8. حين رأى أتباع أيفوروس في إسبرطة رجلًا ذا أخلاق منحلّة على أهبة أن يقدّم للشعب رأيًا مفيدًا، أمروه بالصمت، وطلبوا من رجل صادق أن يتكلّف بالأمر وأن يقدم هذا الرأي في مكانه.

(1) Plutarque (78), **Dicts des Lacéd.**, f° 216 F.

(2) Plutarque (78), **Dicts des Lacéd.**, f° 218 C-D.

9. يكشف بلوتارخوس عن نفسه جيدًا في كتاباته إذا ما نحن تمتعنا بها كما يلزم، وأنا أزعم أني أعرفه حتى أعماق النفس. وأريد مع ذلك أن نتحدّث عن بعض آثار حياته. وأنا إن قمت بهذا الاستطراد الآن، فذلك لأعبر عن امتناني الكبير لأولوس جيلّيوس لأنه ترك لنا كتابةً هذه القصة المتعلقة بعوائده، والتي تتّصل شيئًا ما بموضوعي عن الغضب. كان أحد عبيده، وهو رجل شرير ومحب للرذائل مع أن ذهنه امتلأ بالأمور الفلسفية، قد اقترف خطأً. وبما أن بلوتارخوس أمر بتجريده من ثيابه وجَلده، بدأ العبد بالاحتجاج بأنه لم يقترف شيئًا وأن الأمر ظلمٌ بحقه. لكنه بدأ بعدها في الصراخ وتوجيه الشتائم لسيّده عنوةً، معاتبًا إياه بأنه ليس فيلسوفًا كما يدّعي ذلك، لأنه سمع عنه دومًا يقول إن من القبح أن ينساق المرء للغضب، بل إنه ألف كتابًا في هذا الشأن، وأنه الآن في حال غضب ويأمر بضربه وهو ما يكذّب تمامًا كتاباته. فردّ عليه بلوتارخوس بهدوء وبرود أعصاب: «كيف يمكن أن تحكم أيها الأجْلف على أن الغضب مستبدّ بي؟ هل وجهي وصوتي ولون بشرتي وكلامي تمنحك دليلًا على أني خارج عن طوري؟ فأنا لا أعتقد أن عينيَّ جاحظتان وأن ملامحي متشنّجة، ولا أطلق صراخًا مرعبًا. وهل يخرج من فمي كلام قد أندم عليه؟ وهل أقفز أو أقشعر من الغضب؟ فتلك، هي العلامات الحق للغضب...». ثم توجه إلى من يمسك بالسوط: «تابع عملك في حين نحن نتناقش». تلكم هي الحكاية.

10. كان أرخيتاس التارنتي عائدًا من إحدى الحروب التي كان منخرطًا فيها كقائد جنرال، فوجد بيته رأسًا على عقب، وأراضيه غير محروثة بسبب التدبير السيّء لمقتصده. ثم إنه دعاه وقال له: «انصرفْ، لو لم أكن غاضبًا لكنت سلخت جلدتك». وأفلاطون أيضًا حين غضب على أحد عبيده، كلّف سبيوسيبّوس بتأديبه، معتذرًا عن عدم قدرته على القيام بذلك بنفسه، لأنه كان في حالة غضب. وقال الإسبرطي خاريلاوس لأحد عبيد إسبرطة، كان يتصرف بطريقة بالغة الوقاحة والصفاقة معه: «وحق الآلهة، لو لم أكن في حال غضب كنت قتلتك للتوّ».

11. الغضب نزوة معجَبة بنفسها وتتملّق لذاتها. ففي الكثير من المرات حين يغلي الدم في عروقنا لأسباب غير وجيهة، إذا ما جاء أحدهم ليقدّم لنا

دفاعًا حصيفًا أو اعتذارًا، نكون غاضبين من الحقيقة نفسها والبراءة ذاتها. وقد بقي في ذاكرتي بهذا الصدد مثال مأخوذ مما قبل التاريخ. كان بيزو، وهو شخصية شهيرة بفضيلتها، قد ثارت ثائرته على أحد جنوده. فقد كان الرجل عائدًا من عمل حصد العلف وحده، وبما أنه لم يخبر بيزو بمكان رفيقه، فقد اعتبر أنه قد أقدم على قتله، فقام لتوّه بالحكم عليه بالإعدام. وحين كان الجندي قرب المشنقة، ها هو رفيقه الذي كان مفقودًا يظهر. فقام الجيش بكامله بالاحتفاء بقدومه، وبعد عناق طويل بالأحضان بين الرفيقيْن، قاد الجلّاد الواحد منهما والآخر أمام بيزو، بحيث إن الكل اعتقد أن الأمر سيسره كثيرًا. لكن الأمر كان على العكس تمامًا من ذلك. فتحت تأثير الخيبة والعار، لم يهدأ غضبه بل تأجّج، وجموحه منحه فجأة حجَّة دقيقة لكي يجعل من رجل بريء واحد ثلاثة آثمين قام بإعدامهم جميعًا: الجندي الأول لأنه قد حُكم عليه بالإعدام؛ والجندي الثاني أي الذي كان مفقودًا، لأنه كان سببًا في إعدام رفيقه، والجلّاد لأنه لم يُطع الأوامر التي أُعطيت له.

12. كل من عرفوا نساء عنيدات سيكونون قد أحسّوا بالحنق الذي نثير فيهن حين نواجه صخبهن بالصمت وبرودة الأعصاب، ولا نقوم بتغذية غضبهن. كان الخطيب كايليوس*[1] ذا طبع بالغ الغضب والهيجان. وحين كان يتعشى صحبة شخص كان حديثه لطيفًا وعذبًا، وكان هذا الشخص، لكيْلا يثير غضبه، يتفق معه في كل ما يقول ويؤكد كلامه بوفرة، لم يتحمّل أن يبقى طبعه الغضوب من دون غذاء، فقال له: «باسم جميع الآلهة، عارضْني في أي شيء، حتى نكون غاضبين اثنين». الأمر نفسه مع تينك النساء العنيدات اللواتي لا يغضبن، إلا لكي يثرن الغضب عليهن بدورهن، محاكاةً منهن لقوانين الحب. وبما أن أحدهم منع فوكيون من الكلام شاتمًا إياه بحدّة، لم يقم هذا الأخير سوى بلزوم الصمت، تاركًا للآخر كامل الوقت كي يفرغ غضبه. وما إن تمَّ له ذلك، حتى استعاد كلامه في النقطة، التي انقطع فيها من غير أن يشير أبدًا إلى الحادث. ليس ثمّة من ردّ أكثر حرقة من هذا المقْت.

(1) * هو ماركوس كايليوس روفوس (88 ق.م – 48 ق.م) سياسي وشاعر روماني. والاسم ورد محرفًا في الأصل. كان تلميذًا لكراسوس ولشيشرون، وانحاز لهذا الأخير ضد كاتالينا.

13. أن يكون المرء غضوبًا عيب لا مثيل له، غير أنه عيب معذور لدى العسكري، ففي هذه المهنة ثمة لحظات لا يمكن فيها إلا أن نكون كذلك. أقول دومًا عن أغضب رجال فرنسا: إنه الرجل الأكثر صبرًا الذي عرفت في حياتي للجْم غضبه، إذ هو يثيره بعنف بالغ وهُياج كبير=

«حين يزمجر الخشب المشتعل تحت الإناء النحاسي
يغلي الماء، والزبد الهائج يطلق بخاره ويتطاير
يفيض ولا يبقى في مكانه
وبخار كثيف يتعالى في الهواء»[1].

=بحيث يلزمه قهر النفس لاحتوائه. أما أنا، فلا أعرف نزوةً أو هوًى من الأهواء يمكنني أن أقوم بجهد كهذا لاحتوائه ومقاومته. فأنا لا أهتم بما نقوم به بقدر ما أهتمّ بقيمة ألا أقوم بالأسوأ.

14. أحدهم كان يتباهى أمامي باعتدال مزاجه ولطافة تصرفاته التي أعتبرها، والحق يُقال، استثنائية. قلت له: إنه لأمرٌ حسن، خاصةً لأشخاص مشهورين مثله وعليهم تقع جميع الأنظار، أن يظهروا دومًا هادئي الطبع؛ لكني قلت له أيضًا: إن الأهم هو أن يكون المرء هادئًا في داخله ولنفسه، وأنَّ من المستهجن في رأيي أن يتصرف المرء بهدوء مقدار استهجاني لأن يتآكل باطنيًا، وهو ما أخشى أنه يقوم به للحفاظ على ذلك القناع، وذلك المظهر المعتدل خارجيًا.

15. المرء يستبطن الغضب حين يخْفيه. وكما قال ديوجينيس لديموستينيس الذي كان، خشْية أن يُرى في حانٍ، يخفي نفسه في قعره: «كلما تراجعت، دخلته». أعتقد أن من الأفضل أن يُكيل المرء ضربة عصا لخادمه العاصي في غير ميقاتها على أن يلجم نوازعه العميقة كي يتظاهر بامتلاك حكيم لأعصابه. وأنا أفضّل أن أكتشف أهوائي ونوازع ونزواتي على أن أخفيها عنوةً عن نفسي، ذلك أنها تتلطّف في الحرية وفي الظهور لا في الخفاء. فمن الأفضل أن يكون رأسها الحاد موجهًا للخارج على أن نديره نحونا: «**العيوب الظاهرة أقل خطورة؛ إنها تغدو ماكرة**

(1) Virgile (112), VII, 462-466.

حين تتوارى خلف مظهر الصحة»[1].

16. وإني أقدم هذه النصيحة لأفراد عائلتي الذين لهم الحق في الغضب والقدرة عليه: أولًا أن يقتصدوا فيه ولا يبذّروه في كل الأنحاء، لأن ذلك يعوق مداه وأثره. فالزعيق العادي وغير المتحكّم فيه يغدو عادةً، ومن ثمّ لا يهتم به أحد. وسوْرة الغضب التي تنتابك إزاء خادم سرق منك شيئًا تكون من غير أثر، إذ هي السَّوْرة نفسها، التي رآك تستعملها عشرات المرات ضدّه لأنه لم ينشّف جيدًا كأسًا أو لم يضع في المكان المناسب سُلّمًا. ثانيًا: ألا تثور ثائرتهم من أجل شيء نافل، وأن يحرصوا على أن يبلغ التوبيخ الشخص الذي يشْكون منه. فغالبًا ما تراهم يزمْجرون قبل أن يكون صاحب الفعلة حاضرًا، ويستمرون في الزعيق قرْنًا بعد أن يرحل.

«الضلال يستدير ضدّ نفسه»[2].

إنهم يهاجمون شبحًا، وينفثون عاصفة حيث لا أحد يلقى عقابه، ولا حتى أن يكون معنيًّا بالأمر، سوى ذلك الذي يتحمل هرج ومرج صوتهم، والذي لم يعدْ يحتمله. وأنا أشجب أيضًا أولئك الذين يتظاهرون بالبسالة في نزاعاتهم ويغضبون من غير أن يعرفوا من سيصبّون عليه جامَ غضبهم. على المرء أن يحتفظ بذلك الحديث الصاخب للمناسبات التي يكون له فيها أثر.

«وهكذا فإن الثور الذي يصارع للمرة الأولى
يطلق خوارًا رهيبًا، ويجرّب قرنيه ضد شجرة
ويضرب في الهواء بهما، ويتأهب للمصارعة بنبش الرمل»[3].

17. حين يحدث أن ينتابني الغضب، تثور ثائرتي، لكن لأقصر مدّة وبشكل مكتوم، ما استطعت لذلك سبيلًا. وأنا أنصاع للتسرّع والعنف، لكني لست مضطربًا إلى الحدّ الذي أطلق الشتائم على عواهنها، بحيث إن تلك الحال لا تمنعني

(1) Sénèque (96), LVI.
(2) Claudien (22), I, v. 237.
(3) Virgile (112), XII, 103.

من أن أصيب مقتلًا بكل كلمة أطلقها، غير أني لا أستعمل إلا اللغة في ذلك. وخدَمي يحسون بذلك في الأمور الخطيرة أقلّ منها في الأمور التافهة. فهؤلاء الأخيرون يأخذونني على حين بغتة، والمأساة هي أنك من إن تنطلق في هذه الهاوية (مهما كان السبب المثير لذلك) حتى تسير دومًا إلى القعر، والسقطة تنطلق وتتسارع من ذاتها. أما في الأمور الخطيرة، فعلى العكس من ذلك، ما يواسيني هو أنها ذات أسباب وجيهة، بحيث ينتظر كل واحد أن يرى سوْرة غضب مُبرّرة. وهكذا فإني أعيش مجد تخْييب توقعهم، وأتصلّب وأستعد للمقاومة، ذلك أنها تمسني في العمق ويمكنها أن تسير بي بعيدًا لو انصعت لها. وهكذا فأنا أحترس منها، إذ لي من القوة الكثير إذا ما كنت أتوقعها، كي أرْدع مثيرات هذا المنزع الغاضب مهما كان عنف علّته. لكن بالمقابل، منذ الوهلة التي يستطيع الغضب أن يستبدّ بي، يحملني معه مهما كانت غباوَة علّته.

18. أعقِد دومًا هذه الصفْقة مع أولئك الذين يمكن أن يحتجوا على تصرفي: «حين ترون أني قد ثارت ثائرتي الأول، اتركوني أنساق معها عن حق أو عن خطأ، وسأقوم بالشيء نفسه من جهتي». فالعاصفة لا تتولّد إلا بتنافس سوْرات الغضب بحيث تغذى الواحدة منها الأخرى. لنتركْ كل سَوْرة غضب تتابع انسيابها، وسنكون في سلام. إنه مبدأ نافع لكنه صعب التطبيق. يحدث لي أنا أيضًا، بُغية الحفاظ على النظام الحسَن لبيتي، أن أتظاهر بالغضب من غير أن أكون غاضبًا حقًا. وبمقدار ما يمنح التقدم في العمر لشخصيتي من قساوة، أجهد في معارضة ذلك. وسوف أعمل من الآن فصاعدًا على أن أكون أقل ثقْلًا وصعوبة، إذا ما استطعت ذلك، بحيث سأكون معذورًا وقابلًا للأمر. وأنا أحسب نفسي من بين مَن هم الأقل ثقلًا وصعوبة.

19. كلمة أخيرة كي ننتهي من هذا. يقول أرسطو: إن الغضب يكون أحيانًا سلاحًا للفضيلة والشجاعة. إنه أمر محتمل جدًا. ومع ذلك فإن الذين يعتقدون في العكس يجيبون بمرح أنه سلاح ذو استخدام جديد، ذلك أننا إذا أشرعنا الأسلحة الأخرى، فإن هذا السلاح هو الذي يدخل القلق إلى أنفسنا؛ فيدنا لا تتحكم فيه، بل هو الذي يتحكّم فيها ويوجّهها. إنه سلاح يمسك بنا ولا نمْسك به.

الفصل الثاني والثلاثون

دفاعًا عن سينيكا وبلوتارْخوس

1. الألفة التي أعيشها مع هاتين الشخصيّتيْن والمعونة التي يقدمانها لشيخوختي ولكتابي هذا المبني كلّيّةً بمقاطع اقتبستها منهما، يدفعاني إلى الدفاع عن قضيتهما.

2. سأقول ما يلي عن سينيكا: من بين مئات الآلاف[1] من الكتيّبات التي ينشرها أصحاب الدين الذين يزعمون أنه قد أُصلح، بقصد الدفاع عن قضيّتهم، والتي تصدر أحيانًا عن عقول نيّرة كنا نتمنى لو استُخدمت في تطارح موضوعات أفضل، وقعت عيناي من قبل على كتاب، لكي يبلور ويعزز التشابه بين حكومة ملكنا الراحل المسكين شارل التاسع، وحكومة نيرون، يقوم بمقارنة الكاردينال الراحل لمنطقة اللّورين مع سينيكا، أي سلوكهما ومزاجهما وظروفهما ومصائرهما التي جعلتهما معًا يُنذران نفسهما لخدمة أميرَيْهما في النصح والاستشارة. وهذا برأيي أمر يشرف كثيرًا هذا السيد الكاردينال. فأنا بالرغم من أني من أولئك الذين يقدّرون تقديرًا كبيرًا عقله وفصاحته، وحماسه للدين ولخدمة ملكه، والحظ في أنه ولد في عصر كان فيه من الجدة والندرة ومن الضرورة لما فيه الخير العام أن يكون لفرنسا رجل كنيسة بهذه النبالة والكرامة، وبكفاءته وفعاليته في مهامه، فإني حتى أقول الحق، لا أقدّر مع ذلك أن مزيّته ولا فضيلته الواضحة والكاملة والحازمة يمكن أن تكون هي نفسها مزية وفضيلة سينيكا.

3. وعليَّ القول إن هذا الكتاب الذي أتحدث عنه، ولكي يبلغ مبتغاه، يرسم لسينيكا صورةً غير إيجابية، مستقيًا المآخذ التي أخذها عليه المؤرخ لوكيوس كاسيوس ديو[2]، الذي لا أعتدّ أبدًا بشهادته. فهذا المؤلف متقلب في أحكامه، بحيث نراه يصف سينيكا تارةً بأنه «بالغ الحكمة» وأحيانًا أخرى «العدو اللدود لرذائل نيرون»، ليصفه بعد ذلك بأنه بخيل ومراءٍ وطموح ورخو وشهواني، وأخيرًا كشخص يتظاهر بأنه فيلسوف، من غير أن تكون له المزايا لذلك. بيْد أن فضيلة سينيكا تتبدّى من الحيوية والقوة في كتاباته، ومعارضته لهذه الادعاءات من

(1) هنا أيضًا يبالغ مونتيني في العدد الذي ألفه البروتستانتيون للدفاع عن دينهم الإصلاحي.

(2) لوكيوس كاسيوس ديو (155-235). تقلّد مناصب عليا بروما. ومونتيني يحيل هنا إلى كتابه: التاريخ الروماني.

الوضوح -كما بخصوص الزعم الذي يخصّ ثروته وإسرافه- بحيث لا يمكن أن أصدق عن ذلك أي شهادة مناقضة. بل من الأعقل لنا والأوْثَق أن نصدق في هذا المضمار المؤرخين الرومان لا اليونانيين أو الأجانب. وقد تحدث تاسيتوس وآخرون عن حياته ومماته واصفين إياهما بالشرف، وهم يرسمون لنا الشخص باعتباره كائنًا مرموقًا وفاضلًا. ويكفيني أن أقوم بمأخذ واحد على حكم لوكيوس كاسيوس ديو، هو هذا ولا مرَدّ له: لقد كان الرجل غير قادر على تسيير الشؤون الرومانية، بحيث إنه تجرّأ على مساندة قضية يوليوس قيصر ضد بومبيوس، وقضية ماركوس أنطونيوس ضد شيشرون.

4. ولْنأتِ الآن للحديث عن بلوتارخوس. إن جان بودان[1] بالتأكيد مؤلف جيّد من عصرنا، وهو يُبين عن الكثير من الأحكام العقلية،أفضل مما تقدمه جمهرة الكتبَة من معاصريه، وهو يستحق أن نحكم عليه حكمًا نتفحصه بدقة. وأنا أجد أنه جسور في المقطع من كتابه «منهاج التاريخ»، حيث يتّهم بلوتارخوس ليس فقط بالجهل -وهو ما كنت سأتغاضى عنه، لأنني لا أهتم بهذا- وإنما أيضًا أنه يكتب أشياءً غير قابلة للتصديق وخرافية تمامًا (وتلك كلماته). لو أنه اكتفى بالقول: «الأشياء بشكل مغاير عما هي عليه»، لم يكن ذلك ليشكّل نقدًا خطيرًا، ذلك أن ما لم نره بأم أعيننا، نأخذه من أفواه الغير وعلى مسؤوليتهم. وأنا أرى من ناحية أخرى أن بلوتارخوس يروي أحيانًا القصة نفسها بطرائق متعددة، مثلًا: حين يتحدث عن محاكمة حنبعل للقادة الثلاثة الأفضل في التاريخ. فهذه المحاكمة يتم تقديمها بشكل في حياة فلامينيوس، وبطريقة أخرى في حياة بيرّوس. لكن أن نؤاخذ على بلوتارخوس بأنه صدّق بسذاجة أمورًا غير قابلة للتصديق ومستحيلة، فذلك يعني أن نتهم بالخطأ في الحكم، أحد المؤلفين الأكثر أهلية وكفاءة في العالم.

5. وإليكم المثال الذي يقدمه جان بودان: «مثلًا: حين يروي بلوتارخوس أن طفلًا من إسبرطة كان سرق ثعلبًا صغيرًا، وخبأه تحت عباءته فمزق

(1) قاض وفيلسوف وعالم اقتصاد فرنسي (1530-1595). وكتابه الذي يتحدث عنه مونتيني يحمل في الواقع عنوان: «طريقة لتسهيل معرفة التاريخ».

أحشاءه، بحيث إنه فضل الموت على أن يكشف عن سرقته»[1]. في المقام الأول أجد المؤلف غير موفَّق في اختيار هذا المثال. فمن الصعب وضع حدود لملكات النفس، في الوقت الذي يكون فيه من الأسهل القيام بذلك حين يتعلق الأمر بالمقدرات الجسمانية، التي يمكننا الوقوف عليها بسهولة. لهذا، وفي ما يخصّني، كنت سأختار مثالًا من هذا النوع الثاني، وثمة هنا ما هو أقل قابلية للتصديق، كما هذا المثال من بين أمثلة كثيرة، حيث يحكي بلوتارخوس عن بيرّوس، الذي وجّه ضربة سيف قاطعة لأحد الأعداءالمدجَّج بالسلاح، وهو مثخن بالجراح، فقسمه نصفيْن من قمة رأسه إلى ما بين فخذيه، بحيث إن جسده انقسم إلى شطرين.

6. وأنا لا أجد شيئًا مُعجزًا في مثاله؛ ولا أقبل العذر الذي به يدافع عن بلوتارخوس، الذي، حسْبه، قد أضاف عبارة «حسب ما يزعمون»، كي يخطرنا أن نلجم تصديقنا لذلك. فما عدا الأشياء التي نقبلها لسريانها أو احترامًا لقِدمها أو طابعها الديني، فهو بالتأكيد لم يرغب في التصديق أو في جعْلنا نصدّق أنها غير قابلة للتصديق بذاتها. فهو إذًا لا يستخدم لهذا الغرض تلك الصيغة: «كما زعموا». من السهل رؤية ذلك لأنه هو نفسه يروي لنا في مكان آخر بخصوص صبر وجَلَد الإسبرطيين، أمثلة مأخوذة من زمنه، وأصعب من أن يتم تصديقها، كما ذلك الذي أثبته شيشرون أيضًا قبله، حين وجد نفسه -حسب قوله- في عين المكان: يتعلق الأمر بجَلَد الأطفال الذين كانوا يخضعون للاختبار، في زمنه أيضًا، أمام مذْبح الإلهة دينا، والذين كان يتمّ جلدهم بالسياط حتى يسيل دمهم من كل مكان، من غير أن تصدر عنهم صرخة ولا حتى أنين، بحيث إن بعضهم يفقدون في ذلك حياتهم بمحض إرادتهم. ثمة أيضًا ما يحكيه بلوتارخوس بعد مؤلفين آخرين قبله: خلال قربان من القرابين، سقطت قطعة فحم حامية في كمّ أحد الأطفال الإسبرطيين وهو يؤجج نار المبخرة، وقد تركها تحرق منه الذراع بكامله حتى بلغت رائحة اللحم المشوي إلى أنوف الحاضرين.

---

(1) كان مونتيني نفسه قد استشهد بهذا المثال في الكتاب الأول، الفصل 40، الفقرة 32، من غير إبداء أي ملاحظة نقدية.

7. لم يكن هناك شيء في حياة الإسبرطيين لم يكن يرتهن بسمعتهم، ولا من شيء كان يمكن أن يعانوا من التوبيخ عليه والإحساس بالعار أكثر من أن يُفاجأ أحدهم وهو يسرق شيئًا. وأنا مقتنع اقتناعًا كبيرًا بعظمة أولئك الناس بحيث لا يبدو لي فقط أن تلك القصة غير قابلة للتصديق، خلافًا لبودان، وإنما أيضًا أني لا أجدها بالغة الغرابة ولا خارقة. وتاريخ إسبرطة مليء بأمثلة أكثر فظاظة وأشدّ غرابة، وتبعًا لذلك فإن هذا التاريخ بكامله سيكون من باب المعجزات.

8. وبخصوص السرقة، يحكي أميانوس ماركلّينوس أنه في زمنه لم يتمّ العثور على أي شكل من التعذيب قادر على إجبار المصريين الذين كانوا يُفاجَؤون متلبّسين بالسرقة (التي كانت منتشرة لديهم)، حتى على ذكر أسمائهم.

9. أحد الفلاحين الإسبان[1] تمّ استنطاقه كي يقرّ بأسماء الذين شاركوه في قتل الكاهن لوكيوس بيزو[2]، صار يصرخ في أصحابه، وسط عملية التعذيب، بأنهم يمكنهم البقاء قربه في أمان، وأن الألم لن يستطيع أن ينتزع منه أي اعتراف. لقد عجزَ الجلادون أن يحصلوا منه على شيء في اليوم الأول، وفي اليوم الموالي، عادوا به للاستمرار في التعذيب والاستنطاق، فانفلت بقوة من أيدي حراسه وهشّم رأسه على سور وهلَك لتوّه.

10. استطاعت إبيخاريس أن تقاوم جلادي نيرون، وانتهت إلى أن تُتعب قساوتهم بتحمّل نارهم وضرباتهم وأدوات تعذيبهم طيلة اليوم من غير أن تفشي بشيء عن مؤامرتها. وحين عادوا بها في اليوم الموالي على كرسي محمول، بما أن أطرافها كانت قد كُسرت، مرّرت خيطًا من فستانها في أحد مسنديْ الكرسي وعقدت فيه عقدة مررت فيها رأسها وشنقت نفسها به وماتت اختناقًا تحت وطأة ثقلها.

---

(1)Tacite (100), Annales, IV, 45.

(2) هو لوكيوس كالبورنيوس بيزو (100 ق.م تقريبًا – 43 ق.م تقريبًا) عضو مجلس شيوخ الروماني

11. مَن سيقوم بسؤال رُماتنا الفرسان عن التجارب التي عاشوها في حروبنا الأهلية، سيجد أن ثمّة أمثلة في عصرنا البائس، وفي هذه الجماهير الرخوة والمؤنّثة أكثر من العامة بمصر، عن الصبر والجَلد والعناد خليقة بالمقارنة مع نظيراتها في فضيلة أناس إسبرطة الذين ذكرنا سابقًا. أعرف أنه قد وُجد فلاحون بسطاء تعرّضوا لحرق باطن القدمين، وسحق رؤوس أصابعهم بكعب المسدس، وانسلت أعينهم من محاجرها من كثرة ضغط الحبل على عنقهم، قبل أن يتمكنوا من افتداء أنفسهم. وقد رأيت أحدهم وقد تُرك محتضرًا في خندق، وعنقه منتفخ يسيل دمًا محاطًا بحبل مشنقة لا يزال عالقًا به، وقد تمَّ جرّه به الليل كله خلف جواد، وجسده يحمل آثار عشرات ضربات الخنجر التي تلقاها، لا لقتله وإنما لتعذيبه وإرهابه. وقد تعرّض لكل هذا حتى فقد القدرة على الكلام وأغمي عليه، مقرِّرًا، حسب ما قال لي، أن يموت ألف ميتة من قبيل تلك التي تحمّل على أن يفوه بكلمة واحدة. ولقد كان الرجل مع ذلك أحد أغنى المزارعين في كامل البلد. كم من شخص رأى الناس ينصاعون للحرق والشيّ تدريجيًا من أجل آراء أخذوها عن آخرين، وكانت في الواقع غريبة عنهم؟

12. عرفت مئات النساء -إذ يُقال إن الناس في منطقة غاسكونيا هم بالأحرى عنيدون- يمكنك أن تجعلهن يعضُضن في الحديد المحمر بالنار من غير أن يتخلين عن رأي يبلورنه في لحظة الغضب. والإكراه والضربات لا تزيد إلا في سخطهنّ. ومن ابتدع[1] قصة المرأة التي لم تكفَّ عن مناداة زوجها بصفة «القذر المقمَّل» بسبب تهديداته وتأديبه لها وضربها، والتي رمى بها في الماء المغلي، فظلت ترفع يديها فوق رأسها مجسدة حركة قتل القمل، هذا الرجل ابتدع شيئًا نرى في كل يوم تجسيدًا له في عناد النساء. والعناد أخٌ للثبات، على الأقل في ما يخصّ القوة والحزم.

13. ليس علينا أن نحكم في ما هو ممكن وما هو غير ممكن حسب ما يبدو

(1) بالداساري كاستيليوني من ضمن آخرين، في كتاب «رجل حاشية الملك».

لنا قابلًا للتصديق أو غير قابل له، كما قلت ذلك سابقًا[1]. إنه لخطأ جسيم يقترفه مع ذلك أغلب الناس ألا يريدوا تصديق أن الآخرين يمكنهم أن يفعلوا ما لا يستطيعون فعله أو لا يرغبون في ذلك، لكني لا أقول هذا بخصوص بودان. كل واحد يحسب نفسه أفضل عيّنة من الطبيعة البشرية، بحيث نراه يقارن كافة الآخرين بهذه العيّنة، ويعتبر أن السلوك غير الشبيه بسلوكه شيء مصطنع. يا له من هراء! إنه يعتقد أن الآخرين يُقاسون انطلاقًا منه. وإذا ما نحن ذكرنا أمامه عملًا أو مَلَكة تعود لشخص آخر، سيكون أول شيء سيُقيم عليه حكمه هو طابعه النموذجي الخاص: فعلى العالم أن يكون ما يكون هو عليه. يا لها من بلاهة خطيرة وغير محتملة!

14. وفي ما يخصّني، أعتقد أن بعض الناس يجاوزونني بشكل كبير خاصةً من بين القدماء. وبالرغم من أني أعترف بوضوح بعجزي عن اتّباعهم ولوْ ألف خطوْة وراءهم، فإني أجهَد في تأملهم من بعيد، والحكم على الأمور التي تمكّنهم من أن يكونوا في هذا المستوى، وهي الأمور التي أراها في نفسي عبارة عن براعم. لكني أقوم بالشيء نفسه مع العقول الأدنى من مستواي، التي لا تثير فيَّ الدهشة والتي لا أرفض أيضًا تصديقها. وأنا أرى جيدًا الطرائق التي يستعملها أولئك الرجال القدماء للسموّ وأقدّر عظمتهم أبلغ تقدير. وتلك الإشراقات التي أجدها رائعة، أتبناها لحسابي الخاص، وإذا ما لم تسطع قواي بلوغ ذلك، فعلى الأقل يرتبط بها حكمي العقلي عن طيب خاطر.

15. أما المثال الثاني الذي يقدمه بودان عن الأمور غير القابلة للتصديق والخرافية تمامًا التي جاءت على لسان بلوتارخوس، فهو يتعلق بأجيسيلاوس الذي عاقبه مجلس القضاة بإسبرطة بغرامة لأنه اجتذب لصالحه قلوب المواطنين وإرادتهم. وأنا لا أرى أي أمارة على الزيْف يجده في ذلك. لكن الأكيد هو أن بلوتارخوس يتحدث هنا عن أمور يعرفها أكثر منا. وليس أمرًا مستجدًّا في بلاد اليونان أن نرى أناسًا يُحكم عليه بالمنفى لأنهم فقط حظوْا بإعجاب وتقدير مواطنيهم. وما

(1) «المقالات»، الجزء الأول، الفصل 26.

يشهَد على ذلك هي القوانين الخاصة بالنفي في أثينا كما في سيراقوسة.

16. إننا نجد أيضًا في هذا المقطع اتهامًا آخر يوجهه بودان لبلوتارخوس يزعجني. يتعلق الأمر بقوله إن بلوتارخوس قد قارن بنزاهة الرومان بالرومان، لا الرومان باليونانيين. ويبرهن على ذلك بالمزاوجة التي قام بها بين ديموسثينيس وشيشرون، وكاتو وأريستيديس، وسولّا وليساندروس، وماركيلّوس وبيلوبيداس، وبومبيوس وأجيسيلاوس، معتبرًا أنه في هذه الأزواج قد فضّل اليونانيين بذلك التمييز مع رفقائهم. لكن ذلك يعني بالضبط التهجم على بلوتاخوس في ما هو أروع وأكثر جدارة بالثناء، ففي هذه المقارنات -التي تشكل في رأيي واسطة عِقْد أعماله والتي برع فيها بشكل خاص- لا يضاهي الوفاء والصدق اللذان يتحلى بهما هذا الحكم إلا عمقهما ووزنهما. لنرَ إذًا إذا كنا سنضمن ذلك ضد هذا المأخذ المتحيز والزائف.

17. وإني لَأعتقد أن ما كان وراء حكم بودان ذاك هو بريق ولمعان الأسماء الرومانية التي نحتفظ بها في أذهاننا. فيبدو لنا أن مجْد ديموسثينيس لا يمكن أن يُضاهي مجْد قنصل أو نائب قنصل أو قاضٍ من هذه الجمهورية الشاسعة. لكن إذا تفحّصنا حقيقة الوقائع، وحقيقة الرجال في ذاتهم، وهو ما رمى إليه بلوتارخوس حين الموازنة بين سلوكهم وأمزجتهم ومعارفهم، لا مصائرهم، فإني أعتقد على عكس بودان، أن شيشرون وكاتو الكبير أدنى مرتبةً من أولئك الذين يزاوجهم معهم. فأنا مكان بودان، ومن منظوره نفسه، كنت سأختار بالأحرى أن أقارن كاتو الصغير مع فوكيون: فمن بين هذين الرجلين سنمنح الأفضلية بالأحرى للروماني منهما. أما في ما يتعلق بماركيلّوس وسولّا وبومبيوس، فأنا أعتقد أن منجزاتهم العسكرية أعظم وأكثر سطوعًا ومجْدًا من المنجزات اليونانية التي يشابهها بها بلوتارخوس. بيْد أن الأعمال الفاضلة، في الحرب كما في غيرها، ليست هي دومًا المعروفة أكثر. وأنا أرى غالبًا أسماءً لقادة تغطيها روعة قادة آخرين يكونون مع ذلك أقل استحقَاقًا. وذلك حال لابينوس وفنتيديوس وتليسينوس وغيرهم. وإذا ما نحن تفحصنا الأمر من هذه الزاوية،

وكان عليَّ أن أدافع عن اليونانيين، ألا يمكنني القول إن كاميلّوس أدنى مرتبةً من ثيميستوكليس، والأخوين غراكّوس أقل مرتبة من أجيس وكليومينيس، ونوما أسفل ليكورغوس؟ لكنْ من باب الجنون الحكم بضربة واحدة على أمور لها جوانب مختلفة.

18. حين يقارن بلوتارخوس هؤلاء الرجال، فهو لا يقوم بمقارنة الرجال المتساوين. مَن أفضل منه يمكنه الوقوف على اختلافاتهم؟ وحين يصل إلى مقارنة الانتصارات والوقائع الحربية وقوة الجيوش التي قادها بومبيوس وانتصاراته مع مقابلاتها لدى أجيسيلاوس، يصرّح قائلًا: «لا أعتقد أن كسينوفون نفسه لو كان على قيد الحياة، وبالرغم من أنه حاز على حرية كتابة كل ما يرغب فيه لصالح أجيسيلاوس، كان سيجرؤ على مقارنته بهذا الرجل». هل هو يتحدث هنا عن ليساندروس وسولاّ حين يقول: «ليس ثمّة مجال للمقارنة لا في عدد الانتصارات ولا في المخاطر التي احتوت عليها المعارك، ذلك أن سولّا لم يحز إلا على انتصاريْن في المعارك البحرية، الخ».

19. ذلك أمر لا يُنقص أبدًامن قيمة الرومان: فهو حين وضعهم مقابل اليونانيين لم يسئ إليهم، بالرغم من الاختلافات التي يمكننا أن نلاحظها بينهم. بل إن بلوتاخوس لا يقوم بالموازنة كلية بينهم، ولا يقوم بأفضلية شاملة. فهو يقارن كلًّا بدوره بين الوقائع والظروف ويحكم عليها كلَّ عنصر على حِده. لهذا، إذا أردنا أن نبرهن على تحيُّزه، علينا أن نتفحّص بإمعان وتفصيل كل حكم خاص على حِده، أو نصرّح بصفة عامة أنه قد قارن مقارنة سيئة بين هذا اليوناني وذلك الروماني، في الوقت الذي يوجد فيه آخرون يتجاوبون ويتشابهون أكثر، ويصلحون أكثر للمقارنة.

الفصل الثالث والثلاثون

قصة سبورينّا[1]

(1) لا يتعلق الأمر به في الواقع في هذا الفصل، الذي يمنحه مونتيني اسمه. ومونتيني يشير فقط في الفقرة 17 الى أنه شاب توسكاني حباه الله بجمال أخّاذ شوه وجهه حتى لا يكون موضوعًا للفتنة.

1. تعتبر الفلسفة أنها أحسنت استخدام قدراتها حين توصّلت إلى أن تعيد للعقل التحكّم في أنفسنا والسلطة الضرورية للجْم رغباتنا. وأولئك الذين يعتقدون أن أعنف تلك الرغبات إطلاقًا هي تلك التي يولّدها الحب، يعتبرون أنها تتعلق في الآن نفسه بالجسد والنفس، وأنها تتملّك الإنسان بكامله؛ إلى حدّ أن الصحة نفسها ترتهن بها، وأن الطب يغدو أحيانًا أشبه بقوّاد لها.

2. لكننا يمكننا أيضًا القول بالمقابل إن كوْن الجسد يشارك في تلك الرغبات أمرٌ يلطّف منها ويضعفها، ذلك أن تلك الرغبات خاضعة للإشباع وقد تجد الدواء المادي الناجع. كثيرون هم الذين، وَهُم يسعون إلى تخليص أنفسهم من الهموم المستمرة التي تغرقهم فيها هذه الشهوات، اختاروا أن يبتروا الأعضاء المعنية والمصابة بها. والبعض الآخر لطّف من قوتها وحرارتها بتبريدها بوضع الثلج أو الخلّ عليها. وذلك كان الغرض من «قماش العفّة»، ذلك القماش الذي كان يستعمله أسلافنا، المصنوع من شعر الخيل، والذي كان يصنع منه البعض قمصانًا، وآخرون نطاقًا مهمته وخْز الكلى.

3. أحد الأمراء، من وقت ليس بالطويل، قال لي إنه في شبابه، وخلال يوم عيد ملكي في ديوان الملك فرنسوا الأول، حيث كان الكل في أبْهى حلله، جاءته الرغبة في ارتداء قماش عفّة أبيه الذي كان ما زال يحتفظ به. لكن، ومهما كان ورعه، لم يقْدر على أن ينتظر الليل لنزعه، وقد ظل مريضًا بسببه وقتًا طويلًا. وأضاف أنْ ليس ثمة من هياج للشباب، حسب رأيه، لا يهدئه استعمال هذا الدواء. لكن ربما أنه لم يعرف أحرق الإثارات التي يعرفها الشباب، ذلك أن التجربة تبرهن على أنها تستمر في الغالب تحت أخشن الثياب وأبلاها، وأن قماش العفّة لا يحوّل الفحولة إلى عِنّة[1].

4. أما زينوقراطيس فإنه واجه الأمر بطريقة أكثر صرامة. فبما أن أتباعه

(1) لعب بالكلمات من المتعذر إيجاد مقابل له، فترجمنا المعنى.

لكي يختبروا عفّته وضعوا في سريره المحظية الحسناء لايس في كامل عُريها، مجردةً من كل شيء إلا من سلاح حسنها، وشراكها اللذيذة التي هي إكسيرها، وأنه أحسّ أن جسده، الذي ظل متحفظًا على حجاجه وتعاليمه، قد بدأ يتمرّد، أقدم على إحراق الأعضاء التي مالت لهذا العصيان.

5. الأهواء والنوازع التي توجد في النفس كالطموح والبخل وغيرها من مثيلاتها، تُقلق العقل كثيرًا، لأنه لا يمكنه أن يعتمد في هذه الحال إلا على نفسه، بما أن تلك الشهوات لا تعرف الإشباع. فهي بالأحرى تصير أشدّ حدّة وأكثر تزايُدًا بذلك الإشباع.

6. والمثل الوحيد ليوليوس قيصر يمكن أن يكفي ليوضّح لنا اختلاف هذين النوعين من الأهواء، إذ لم يتعاط أحد مثله ملذات الحب. والعناية الدقيقة التي كانت له بشخصيته، تقدم لنا البرهان على ذلك. فقد كان يذهب في ذلك حتى لاستخدام الوسائل الأكثر إثارة للشهوة التي كانت مستعملة حينئذٍ، كأن يزيل الشعر من جسمه كاملًا، ويرشّه بمختلف أنواع العطور النادرة. كان ذا هيئة حسنة، وذا لون ناصح، طويل القامة ورشيق الجسم، وذا وجه ممتلئ وعينين بسمرة فاتحة، إذا ما نحن وثقنا بوصف سويتونيوس. أما التماثيل التي يمكننا معاينتها بروما ليست موافقة تمامًا لهذا الوصف[1].

7. إن يوليوس قيصر،إضافة إلى زوجاته اللواتي غيّرهن أربع مرات، ومن غير أن نحسب عشق الصبا الذي عاشه مع نيقوميديس ملك بيثينيا*[2]، قد كان له الدخول على كليوباترا ملكة مصر الشهيرة بكرًا، وهو ما يشهد عليه قيصرون الصغير[3] الذي كان ثمرة هذا الزواج. وقد ضاجع إينو ملكة موريتانيا، وفي روما ضاجع بوستوميا

(1) ملاحظة أضافها مونتيني بعد رحلته لإيطاليا ولروما بالأخص.

(2) * يشير مونتيني هنا إلى شائعة العلاقة الجنسية المثلية بين الملك نيقوميديس ويوليوس قيصر، التي رددها أعداء قيصر، وكان ينفيها.

(3) ولد عام 47 ق. م، وقد قتل بأمر من أكتافيوس بعد معركة أكتيوم عام 30 ق م.

زوجة سيرفيوس سولبيكيوس؛ وكذا لولّيا زوجة غابينيوس؛ وترتولّا زوجة كراسّوس، وموكيا زوجة بومبيوس نفسها. ولهذا السبب كما يقول المؤرخون الرومان، أقدم زوجها على تطليقها، وهو ما يعترف بلوتارخوس أنه أمر كان يجهله. وقد آخذ آل كوريونوس، الأب والابن، دومًا على بومبيوس، حين تزوج ابنة قيصر، أنه صار صهر رجل جعل منه زوجًا مخدوعًا، وهو نفسه الذي كان يناديه آيجيسثوس[1].وكان ليوليوس قيصر، إضافة إلى كل هؤلاء النساء، عشيقات من قبيل سيرفيليا، أخت كاتو وأم ماركوس بروتوس. والكل يعتقد أن ذلك كان وراء العطف الذي كان يكنّه لبروتوس، إذ وُلد هذا الأخير في وقت يُحتمل كثيرًا أن يكون فيه ابنه. ويبدو لي أني على حقّ أن أعتبره رجلًا بالغ الفجور، وذا مزاجٍ عاشقٍ جدًا. لكن الطموح، وقد كان هواه الآخر الذي يتعارض مع الهوى الأول، سوف يحتل بسرعة المرتبة الأولى.

8. وأنا أتذكر الآن بهذا الصدد السلطان محمد الثاني، الذي احتل القسطنطينية[2]، والذي كان سببًا في زوال اسم «الإغريق» نهائيًا. وأنا لا أعرف حالة أخرى يتكافأ فيها ضربان من الهوى: الفجور والجندية، إذ إنه لا يكلّ ولا يملّ من الواحد منهما ولا من الآخر. لكنه خلال حياته، حين صار هذان الشغفان في حال تنافس، كان الحماس للحرب يأخذ الأولوية على الحماس العاشق؛ وهذا الأخير طبعًا، ولو كان خارج موسمه الطبيعي، لم يستبد بالسلطة والسيادة على الأول، إلا حين وجد السلطان نفسه، بسبب سنه المتقدّمة، غير قادر على تحمّل عبء الحرب.

9. وما يُحكى، بمثابة مثال مضادّ، عن لاديسلاو[3]، ملك نابولي، أمر بالغ الروعة. يُقال إنه كان قائدًا جيدًا وطموحًا، وقد قرّر هدفًا أساسًا له إشباع شهواته والتمتع بالحُسن النادر. وكانت وفاته موافقة لهذا الطموح. فبعد أن احتل مدينة فلورنسا من خلال حصار متقن

(1) في مسرحية «الأوريستيا» لايسخيلوس، آيجيسثوس هو عشيق كليتيمنيسترا، زوجة أغاممنون، وقد قُتل أغاممنون، ملك موكناي وآرغوس قائد الإغريق في حرب طروادة.

(2) عام 1453 م.

(3) لاديسلاو أو لازلو الشهم (1376-1414)، ملك نابولي من 1386 إلى 1414 م. دخل في صراع مع ملك أنجو، وسعى الى غزو ايطاليا واحتل روما عام 1408 م. لكن هزمه الملك لويس الثاني في روكاسيكا عام 1411 م، واضطر إلى التراجع.

التدبير، بحيث إن سكانها سعوا إلى التفاوض في انتصاره، وعدهم بأنهم لن يَدينوا له بشيء إذا هم منحوه مقابل ذلك فتاةً ذات حُسن نادر سمعوا بها في مدينتهم. وما كان عليهم إلا أن يذعنوا لطلبه، ويخلصوا مدينتهم من دمار عمومي بضرر خصوصي. كانت الحسناء ابنة طبيب شهير في وقته، وجد نفسه مضطرًا لضرورة بشعة، فقرّر الإقدام على عمل تضحية كبير. وبما أن كل الناس كانوا يعدون الفتاة بحليتها ومجوهراتها التي ستجعلها مقبولةً لهذا العشيق الجديد، منحها الأب من جانبه منديلًا رائعًا بعطره كما بتطريزاته، كي تستعمله في جماعهما الأول. كان الأب قد قام بتسميم ذلك المنديل الذي سوف يمسح لحمًا محمومًا بالحب ومسامَّ مفتوحة دافئة وناضحة بالعرق، تحولت فجأة إلى برودة مميتة، بحيث إنهما قضَيا نحبهما، والواحد منهما بين أحضان الآخر. لكن لنعدْ إلى يوليوس قيصر.

10. لم يترك يوليوس قيصر أبدًا ملذاته تسرق منه لحظة واحدة أو تجعله يَحيد قيْد أُنمُلة عن الفرص المواتية التي تصادف مشواره. فهذا الهوى كان لديه يتحكّم بشكل تام في كافة الأهواء الأخرى، ويستبد بنفسه بتسلّط تام، بحيث قاده حيثما ابتغى. الأكيد أن هذا الأمر يخيّب ظني فيه، خاصّةً حين أتأمّل في عظمة هذا الرجل ومزاياه الباهرة، ومعارفه في جميع الميادين بحيث لم يكن ثمة موضوع لم يكتب فيه. كان خطيبًا بارعًا بحيث إن العديدين فضلوا فصاحته على فصاحة شيشرون، وهو نفسه في نظري كان يعرف أنه ليس أقلّ منه قيمةً في هذا المضمار. بل يمكننا القول إن كتابه «كاتو المضاد»[1] قد ألّفه أساسًا لمعارضة اللغة الجميلة التي استخدمها شيشرون في كتابه عن كاتو.

11. والواقع، هل كان ثمة عقل أكثر اتقّادًا وأحدُّ نشاطًا في العمل من عقله؟ لقد كان رجلًا مُرصّعًا بفضائل أخرى عديدة ونادرة، كانت جنينية وفطرية وغير مُفكّرٍ فيها. فقد كان لا يعاقر الخمر أبدًا وغير متطلّب في طعامه بحيث إن أوبّيوس[2] حكى أنهم قدموا له يومًا في مائدته مرقًا

(1) نحن لا نعرفهما إلا من خلال ما جاء من ذكر لهما لدى المؤلفين القدماء.

(2) قائد ليوليوس قيصر؛ وبعد وفاة هذا الأخير تحالف مع أوكتافيوس.

استُخدم فيه زيت مكرّس للأدوية لا للطبخ، فاستهلك منه كثيرًا كيلا يخجل مُضيفه. وفي مرّة أخرى، أمر بجَلد خبّازه لأنه قدّم له خبزًا مخالفًا لخبز الآخرين. وقد كان كاتو نفسه قد اعتاد على القول عن يوليوس قيصر: إنه أول شخص لا يعاقر الخمر وقاد بلاده إلى الدمار. وإذا كان كاتو نفسه قد نعته يومًا بأنه «عربيد»، فذلك في الظروف التالية: كان الاثنان في مجلس الشيوخ، حيث كان الكل يناقش مؤامرة كاتيلينيا، التي كان يوليوس قيصر مُتهمًا في المشاركة فيها. جاءه أحد من الخارج يحمل له خطابًا خِفيةً، وبما أن كاتو اعتقد أنها أخبار آتية من المتآمرين، أمره أن يمنحه الخطاب، وهو ما قام به يوليوس قيصر مُكرهًا؛ كي يتفادى تعزيز الشكوك في أمره. بيْد أن الخطاب كان عبارة عن خطاب حب كتبته لقيصر سيرفيليا أخت كاتو. وبعد أن اطلع عليه كاتو رماه في وجهه قائلًا: «خذْ أيها العرْبيد». ذلك كان بالأحرى علامة احتقار وغضب لا مؤاخذة ليوليوس قيصر على رذيلة العربدة، كما نقوم نحن مرارًا بشتم من يثيرون غضبنا بأولى الشتائم التي تأتي على لساننا، بالرغم من أنها لا تنطبق على من نوجهها لهم. زيدي على ذلك أن هذه الرذيلة التي يؤاخذه بها كاتو قريبة جدًا من الرذيلة التي أمسك كاتو بيوليوس قيصر متلبسًا بها، ذلك أن «فينوس وباخوس يتفاهمان تفاهمًا تامًا» كما يقول المثل. لكن فينوس تكون لدي أكثر حيوية حين لا أكون سكرانا.

12. أما الأمثلة عن لطف يوليوس قيصر وطابعه الرحيم، تلك التي سببت له الضّرر، فعديدة؛ حتى تلك التي قدّمها خلال الحرب الأهلية، والتي يبيّن بوضوح في كتاباته، أنه كان يستخدمها لمداهنة أعدائه، ويجعلهم أقل خوفًا من نصره ومن سيطرته الآتية. علينا القول إن تلك الأمثلة، إذا لم تكن كافية للبرهنة أنه كان ذا طبع لطيف جدًا، فهي توضح لنا على الأقل أن لديه ثقة كبيرة في النفس وشجاعة استثنائية. فقد حدث مرارًا أنه أعاد للأعداء جيوشًا بكاملها بعد أن حقق النصر عليها، حتى من غير أن يكرههم بالقسَم إما أن ينضموا لعمله الحربي أو على الأقل أن يمتنعوا عن محاربته. لقد أسَر ثلاث أو أربع مرات قادة لبومبيوس وقام بردّ الحرية لهم مرات. كان بومبيوس يصرح أن كل من لا يصحبونه للحرب هم أعداؤه؛ أما هو فعلى العكس من

ذلك، أمر بالتصريح بأنه يعتبر أصدقاء، كل من لم يشارك في الحرب، ولا يحملون السلاح ضده. وأولئك من بين قادته الذين كانوا يتركونه للالتحاق بمعسكر آخر، كان يبعث إليهم بأسلحتهم وخيلهم وعتادهم. والمدن التي احتلها بالقوة، كان يتركها حرة في اتّباع هذا الجانب أو ذاك على هواها، غير تارك لها من جيش غير لطفه ورحمته. وفي يوم الوقعة الكبرى لمعركة فارسالوس، منع جيشه من بسط اليد على المواطنين الرومان إلا في الحال القصوى.

13. تلك أفعال تحمل جانبًا كبيرًا من المخاطرة. وليس من الغريب أن من يحاربون مثله في حربنا الأهلية الدولة القديمة لبلادهم، لا يتّبعون مثاله: إنها طرائق استثنائية، ووحده مصير يوليوس قيصر وبصيرته النافذة، يمكنهما القيام بذلك على أحسن وجه. حين أتأمل العظمة الفريدة والباهرة لهذا الشخص، أعذر النصر أنه لم يخذله، حتى حين تعلق الأمر بقضية مكروهة وظالمة من كل المناحي[1].

14. وعودةً إلى طابعه الرحيم، فلنا في ذلك الأمثلة العديدة التي لا غبار عليها، حين كان يمارس سيادته، مالكًا لكافة السلطات بين يديه، وحين لم يكن بحاجة للتظاهر بأي شيء كان. وقد كتب ضده جايوس ميمّيوس[2] خطابات بالغة القساوة، ردّ عليها بشكل حاد. وجايوس كالفوس، الذي كان قد كتب ضده العديد من القصائد الهجائية، التي يكيل له فيها الشتائم، استعان ببعض أصدقاء يوليوس قيصر للمصالحة معه؛ فاقترح عليه قيصر أن يكاتبه هو الأول. وكاتولّوس، الذي كان أذاقه الأمرّين حين كان اسمه مامّورّا[3]، عندما جاءه ليقدم له اعتذاره، استضافه في اليوم نفسه ليتعشى معه على مائدته. وحين تم إخطاره بما يقوله فيه البعض من شرّ، لم يقم بأكثر من التصريح في خطاب عمومي بأنه قد أُعلم بذلك. كان لا يخشى أعداءه بقدر ما كان يكرههم. كما تم إعلامه بمؤامرات أخرى تمت حِياكتها ضده،

(1) أي أنه أراد الاستيلاء على الحكم بشكل غير عادل. ومونتيني يتحدث عن ذلك فيما بعد.
(2) عن هذا المثال والمثالين اللاحقين، انظر سوطونسوس [91]، حياة قيصر، LXXIII.
(3) مامّورّا كان اسم غلام قيصر في فترة من حياته.

وبتجمعات تمّ تنظيمها للمساس بحياته. فاكتفى بنشر خطاب يعلن فيه أنه على علم بذلك، من غير أن يتابع أصحابها أبدًا. وإليكم مثال عن التقدير والاهتمام الذي كان يُبين عنه إزاء أصدقائه: سقط جايوس أوبّيوس مريضًا وهما على سفر معًا، فمنحه الخيمة الوحيدة التي كانت بحوزتهما، ليقضي ليلته في العراء على الأرض. أما بخصوص عدْله فيمكننا قول ما يلي: فلقد أمر بقتل أحد خدمه، وكان عزيزًا على قلبه، لأنه ضاجع زوجة فارس روماني، بالرغم من أنْ لا أحد اشتكى له من الأمر. ولا أحد مثله أظهر اعتدالًا في انتصاراته، ولا حزمًا إزاء العدوان.

15. بيْد أنَّ كافة هذه الفضائل كلها طمسها الهوى الكاسح للطموح، الذي انغمس فيه حتى القاع بحيث يمكننا التوكيد بأنه كان يمسك بعنان كافة أعماله ويوجه دفّتها. فلقد حوّل ذلك الرجل من كائن عظيم المكارم إلى سارق عمومي، كي يغذيَ وفرة مجونه، وكي يهمس في أذنه هذه العبارة الماكرة وغير الصحيحة، أن أسوأ الناس وأفجرهم لو كانوا أكثر وفاءً له في ارتقائه السياسي، فإنه كان سيعزُّهم ويرقّيهم بفضل سلطاته، مثلهم في ذلك مثل الرجال الشرفاء. هذا الطموح جعله يحس بالخدر من ذلك الغرور بحيث صار يجرؤ على التصريح أمام مواطنيه أنه جعل من الجمهورية الرومانية مجرّد اسم لا شكل له ولا فحوى، وأن آراءه يلزم من الآن فصاعدًا اعتبارها قوانين. وقد جرؤ أيضًا على أن يستقبل هيئة مجلس الشيوخ الذين يأتون إليه وهو جالس على كرسيه، وصار يحب أن يُقدَّس، وأن يُقدَّم له في حضرته الولاء الرباني. بالجملة فإن هذه الرذيلة وحدها في نظري قد أفسدت فيه أجمل الطباع وأكرمها في التاريخ، وجعلت منه رجلًا سيّءِ الذّكْر لدى كل الناس الطيبين، لأنه سعى إلى المجد على حساب خراب بلده، وتحطيم الدولة الأكثر ازدهارًا التي عرفها العالم.

16. يمكننا بالمقابل أن نجد العديد من الأمثلة لأشخاص عظماء أنستهم الشهوة تدبير شؤونهم، كما هو حال ماركوس أنطونيوس وآخرين غيره. لكن حين يتوازيان الحب والطموح، ويتصادمان بقوى متكافئة، فليس هناك من شكّ في نظري أن الطموح يكون هو الغالب.

17. وحتى أعود لموضوعي، أقول: إنه لأمر جَلَل أن نستطيع لجْم شهواتنا بالتعقُّل، أو أن نُكره أعضاءنا بالعنف على أن تظل على طريق الواجب. لكن حين يتعلق الأمر بأن نجلِد أنفسنا بأنفسنا لصالح جيراننا، وأن نقوم بما هو أكثر من الحياد عن هذا الهوى اللطيف الذي يدغدغنا، وعن اللذة التي يمكن أن نحسها بملاطفة الغير، وهو أمر محبوب لدى الكل ومرغوبٌ منهم، وحين يتعلق الأمر بمقتنا لأنفسنا ولمحاسننا المتسبِّبة في كل هذا مرغمين على ذلك، وحين يتعلق الأمر بإدانة جمالنا لأنه يثير في أحدهم الامتعاض - فعَنْ ذلك لا أعرف مثالًا إلا هذا: مثال سبورينّا وهو شاب من توسكانا=

«مثل جوهرة تلمع، مغروسة في الذهب الأصفر
تزيّن جِيدًا أو تشدُّ جبينًا
أو مثل العاج يرصع الخشب، أو البُطْم
ببريق لمعانه»[1]

= حباه الله بجمال أخّاذ ولا نظير له، بحيث إن العيون الأعفّ لم تكن تتحمل ذلك البريق من غير رغبة. وبما أنه لم يعد يرضى بأن يترك من غير إشباع كل تلك الحمى واللهب الذي يوقِد حيثما حلَّ وارتحل، استبدّ به غضب عارم على نفسه، وضدًا على تلك الهدايا الوافرة التي حبته بها الطبيعة، قام بحزّ نفسه وغيَّر بالعديد من الجراح والندوب، الخِلْقة الكاملة والصورة المتناسقة التي أبدعتها الطبيعة في وجهه.

18. ولو طُلب مني رأيي، فأنا أنظر باندهاش للأعمال من هذا النوع، أكثر مما أقدّرها. إن هذا الغلوّ مناقض لطبْعي. فلقد كان هدفه نبيلًا ودقيقًا، غير أنه في نظري خالٍ من الحكمة. فما القول إذًا إذا ما صار قبح صورته يدفع رجالًا آخرين إلى خطيئة المقْت والكراهية، أو الحسد على هذا الفعل الاستثنائي أو الافتراء، إذْ يمكن أيضًا أن نتأوّل هذا السلوك باعتباره صادرًا عن طموح مُغالٍ في العنف ومسعور؟ هل ثمة شيء لا تتوصل الرذيلة إلى الاستفادة منه بشكل من الأشكال لو رغبت في ذلك؟ كان من الأجدى والأعْدل أن يقوم الرجل بجعل عطاء الله هذا مناسبة لفضيلة أنموذجية، وسلوك على الطريق القويم.

(1) Virgile (112), X, vv. 134-137.

19. أولئك الذين يتهرّبون من الواجبات العادية، ومن ذلك العدد الهائل من القواعد الشائكة ذات الأشكال التي لا تحصى، والتي تجعل منا إنسانًا ذا نزاهة كاملة في الحياة المجتمعية، هؤلاء يقومون باقتصادٍ غريب، مهما كانت الصرامة التي يفرضونها على أنفسهم فيه: إنه بشكل ما، الموت لتفادي عناء العيش الكريم. وحسب ما يبدو لي قد يحصدون الجوائز، لكنهم لن يحوزوا أبدًا على جائزة المصاعب والمتاعب؛ فمن المتاعب، ليس ثمّة أسوأ من أن يقف المرء وقفة رجل وسط الحشود، مستجيبًا بوفاء لمواجهة كافة إكراهات مسؤوليته. ربما كان من الأسهل أن يستغني المرء تمامًا عن المرأة، على أن يتعامل في كل شيء كما ينبغي مع المرأة. كما يمكنه أن يعيش أيامًا من غير هموم في الفقر، على أن يعيش في فيضِ خيرٍ عميمٍ منظم. فاستعمال الأشياء بشكل معقول أصعب من الاستغناء عنها. الاعتدال فضيلة أكثر إيلامًا مما هو العذاب. و«العيش الرائق» لسكيبّيو الصغير له مئات الأوجه؛ أما لدى ديوجينيس فثمة طريقة واحدة فحسب، وهي تفوق في براءتها الحياة العادية، بقدر ما تفوق طرق العيش الحافلة بالإنجاز طريقته من حيث المنفعة والصرامة[1].

(1) صيغة مونتيني غير واضحة، لكننا عملنا على استيضاحها بالتأويل [المترجم].

الفصل الرابع والثلاثون

عن الوسائل التي استعملها يوليوس قيْصر في الحرْب

1. يُحكى أن العديد من قادة الحروب كانوا يفضلون بعض الكتب، كما الإسكندر الأكبر الذي كان يفضل هوميروس، وسكيبّيو الإفريقي يفضل كسينوفون، وماركوس بروتوس يفضّل بوليبيوس، وكارلوس الخامس يفضل فليب دو كومين[1]. ويقال في أيامنا هذه أن ماكيافيلّي تُفَضَّل قراءته في أماكن أخرى. بيد أن المارشال الراحل ستروتسي[2]، الذي كان يفضل قراءة يوليوس قيصر كان اختياره أفضل، لأن كتابات قيصر تشكل كتاب أدعية لكل رجل حرب، باعتبار أن قيصر كان السيد بلا منازع لفن الحرب. والله يعلم بأي أناقة وجمال رصّع مادة كتاباته، بأسلوب ناصع ودقيق وبالغ الكمال بحيث إنه، حسب ذوقي، لا يمكن لأي مكتوب أن يضاهيه بتاتًا في هذا الموضوع. وأنا أريد هنا أن أسجّل بصدد حروبه بعض الجوانب الخاصة والرائعة، التي حفظتها ذاكرتي[3].

2. بما أن جيشه أصيب بالرعب إثر الخبر الذي شاع عن القوى الهائلة التي حشدها الملك يوبا لمهاجمته، فعِوَض أن يهوّن من الفكرة، التي كونها جنوده عن ذلك العدو، ويحجّم من العتاد العسكري الذي يتوفّر عليها، جمعهم كي يطمئنهم ويخفّف من روعهم وينفث فيهم الشجاعة، واختار لذلك الوجهة المعاكسة لما يُختار عادةً في مثل هذه الظروف. فقد قال لهم إنهم ليسوا بحاجة للاستخبار عن قوى العدو؛ لأنه يعرفها حقّ اليقين، وأعطاهم رقمًا يفوق بكثير الحقيقة والإشاعة السارية بين الجنود. وهو قد قام بذلك بما نصح به كورش في كتابات كسينوفون: ذلك أن الخدعة ليس لها الأثر نفسه، حين نجد عدوًا أقل ضعفًا مما اعتقدنا، كما حين نجده في الواقع قويًا جدًا بعد أن اعتقدنا أنه كان ضعيفًا.

3. كان يعوّد جنوده على الطاعة البسيطة، من غير أن يتدخّل في التحكّم في مخططات قُوّادهم، أو حتى الحديث عنها. بل هو لم يكن يُبلغهم بها إلا في لحظة تنفيذها، وحين يكتشفون بعضًا من تفاصيلها، يجد متعته في تغيير

(1) تؤرخ مذكراته لفترة 1464-1468، وضمنها حكم لويس الحادي عشر.

(2) ينحدر من عائلة شهيرة في فلورنسا، انخرط في الجيش الفرنسي وأصبح ماريشالاً لفرنسا عام 1556 م. تُوفي إثر جراحه في حصار تيونفيل عام 1558.

(3) نحن نعلم أن مونتيني قد قرأ كتاب يوليوس قيصر بين 25 فبراير و21 يونيو 1578، بما أن النسخة التي استعمل تحمل هذين التاريخين مكتوبين بخط يده ومصحوبًا بتوقيعه.

رأيه توًّا؛ ليخدعهم. ولهذا الغرض، كان غالبًا حين يحدّد إقامة معسكره في مكان معيّن، يمدّد سيره خاصةً إذا كان الوقت ماطرًا والجوّ عكرًا.

4. وفي بداية حروبه ببلاد الغال، وجّه له الهلفيتيون طلبًا للمرور عبر التراب الروماني. وبعد أن قرر أن يمنعهم من ذلك بالقوّة، تظاهر بالتفكير في ذلك، واستغل الأجل المحدّد للجواب على طلبهم في بضعة أيام؛ كي يستجمع جيوشه. وأولئك المساكين لم يكونوا يعرفون كم كان الرجل بارعًا في تنظيم وقته؛ وهو كان يردّد مرات أن الميزة الأولى لقائد حربي تتمثّل في معرفة الإمساك بفرصة ما في الوقت المحدد وفي سرعة التنفيذ، التي كانت حقًا في منجزاته العسكرية أمرًا غير مشهود ويكاد لا يصدّقها العقل.

5. وإذا لم يكن الرجل مهتمًا أبدًا بالتقدّم على أعدائه تحت حجّة معاهدة ما، فإنه لم يكن أيضًا صارمًا إزاء جنوده، الذين لم يكن يطلب منهم غير الشجاعة، ولا يعاقبهم أبدًا على أي خطأ غير التمرد والعصيان. وغالبًا ما كان بعد انتصاراته، يطلق لهم العنان لكافة التجاوزات، معفيًا إياهم لوقتٍ من كافة قواعد الانضباط العسكري، بحيث كان يقول إن له جنودًا من الانضباط بحيث لن يتوانوْا عن الإقبال بشراسة على الحرب، حتى وهم معطّرون وتنبعث منهم رائحة المسك. وهو كان في الواقع يحب أن يكونوا وافري العتاد، وكان يأمرهم بارتداء دروع منقوشة ومذهبة ومفضّضة؛ كي تجعلهم العناية بسلاحهم أكثر شراسة في الدفاع عن أنفسهم. وحين كان يحادثهم كان يناديهم برفاقي، وهو اسم لا يزال متداولًا. وقد أقْدم الإمبراطور أغسطس الذي خلفه في الحكم بإبطال ذلك، معتبرًا أنه فعل ذلك في صالحه الخاص، ولكي يتزلّف لمن كانوا يتبعونه عن طيب خاطر=

«وأنا أعبر نهر الراين، كان قيصر جنرالي
وهنا في روما هو رفيقي:
فالشركاء يكونون متساوين في الجريمة»[1].

---

(1)Lucain (46), V, 289.

=لكن هذه الطريقة في التصرّف بدت له متدنّية المستوى لكرامة إمبراطور وجنرال جيش، بحيث إنه أعاد إرساء صفة «الجنود» في التداول.

6. كان يوليوس قيصر مع ذلك يزاوج بهذه اللباقة قساوة بالغة في العقاب. فبما أن الفيلق التاسع قام بالعصيان قرب مدينة بياتشنزا، قام بسحقه بتدابير شائنة، بالرغم من أن القائد بومبيوس كان لا يزال يقاومه، ولم يصفح عنه إلا بعد استرحام شديد. فلقد كان ينجح في تهدئتهم بسطوته وجرأته أكثر منها بلطفه ووداعته.

7. وثمَّ حيث يتحدث عن عبوره نهر الراين نحو الأراضي الألمانية يقول إنه حين اعتبر أن من المهانة للشعب الروماني أن يعبر بجيشه في سفن، أمر ببناء جسر ليمر عليه فوق اليابسة. هناك إذًا بنى ذلك الجسر الرائع الذي يتحدث بإسهاب عن تفاصيل تشييده؛ ذلك أنه لم يتوقف أبدًا عن سرد أعماله، إلا ليبيّن لنا دقائق ما تصوّره في هذه المأثرة المعمارية.

8. ولقد لاحظت أنه كان يهتم اهتمامًا بالغًا بنصائحه للجنود قبل المعركة، بحيث حين كان يريد أن يوضح أنه بوغِتَ، يدعي دومًا أنه لم يجد حتى الوقت ليخطب في جيوشه. وقبل المعركة الكبرى ضد شعب تورناي[1] يقول: «بعد أن أعطى يوليوس قيصر الأوامر بخصوص الباقي، هرع حيث تقوده خطاه كي يخطب في جيوشه، وحين وجد نفسه أمام الفيلق العاشر، لم يكن له الوقت سوى ليقول لهم أن يتذكروا بسالتهم المعتادة، وألا يتركوا العدوّ يربكهم وأن يساندوا بحزم الهجوم عليه. وبما أن العدو كان على بعد رمْية رمح، أطلق شارة الهجوم؛ ثم إنه لما مرّ بسرعة إلى مكان آخر كي يشجع فيلقًا آخر، وجده قد دخل ساحة الوغى»[2]. والحقيقة أن فصاحته قد نجمت عنها فوائد جمّة في العديد من المواطن؛ وحتى في عصره، كانت خطاباته العسكرية من الشهرة بحيث إن العديدين

(1) لا يأتي ذكر هذه المدينة في كتاب يوليوس قيصر، بل هو يذكر فقط قبائل النيرفيين. وتلك هي المعركة التي تسمى معركة سامبر.

(2) قام مونتيني هنا بترجمة المقطع الثاني، الفقرة الحادية والعشرين من كتاب قيصر، حرب الغال.

في جيشه كانوا يدوّنون خطبه. وهكذا فإن تلك الخطب ملأت مجلدات عديدة، بحيث ظلّت تُتداول زمنًا طويلًا بعده. لقد كانت طريقة كلامه ذات مزايا خاصة بحيث إن أصحابه، كأغسطس، حين يسمعون ما دوُّن أو حُفظ منها، كانوا يتعرّفون حتى على الكلمات التي ليست له.

9. وحين خرج أول مرة من روما في مهمة رسمية، وصل في ثمانية أيام قرب نهر الرون، وأمامه في عربته كاتب أو كاتبان يدوّنان أقواله بلا انقطاع ووراءه حامل سيفه. والواقع أن المرء، حتى ولو سار من غير توقّف، سيجهَد جهدًا في بلوغ هذه السرعة التي بلغها يوليوس قيصر، فبعد أن ترك بلاد الغال ولاحق بومبيوس حتى مدينة بريندزي الإيطالية، قام بالاستيلاء على إيطاليا في ثمانية عشر يومًا، ليعود من بريندزي إلى روما، ويسير من روما إلى عمق إسبانيا، حيث لاقى صعوبات جمّة في الحرب على أفّرانيوس وبتريبوس[1]، لينتهي إلى الحصار الطويل الأمد لمرسيليا[2]. ومن هناك توجه لمقدونيا وهزم جيش روما في فارسالوس[3]، ليلاحق باستمرار بومبيوس، مارًا من مصر محتلاً إياها. ومن مصر سار إلى سوريا ومنطقة البنطس[4] حيث حارب الملك فارناكيس[5]. ومن هناك توجه نحو إفريقيا، حيث تحدى سكيبّيو الإفريقي ويوبا، ليعود عبر إيطاليا إلى إسبانيا ويتحدى فيها أبناء بومبيوس.

«كان أسرع من البرق، ومن نَمِرة تحمي أبناءها[6].
كما جلمود صخر ينحدر من علٍ
أمسك به ماء العاصفة، واقتلعته الرياح، فسقط
أو أن الزمن نخره بالعمل المثابر للسنين
جبل أهوج، يحمله الحماس؛ وينحدر توًّا
راقصًا ويجرف معه الناس والشجر»[7].

(1) ملازمان للقائد بومبيوس.
(2) مرسيليا كانت قد انحازت لبومبيوس.
(3) مدينة يونانية من منطقة تيساليا. وقد وقعت المعركة الشهيرة في ضواحيها عام 48 م.
(4) تركيا حاليا [المترجم].
(5) هو ابن متريداتيس. كان ملك بلاد البنطس والبوسفور. هُزم عام 47. فكتب قيصر لمجلس الشيوخ الصيغة الشهيرة: «Veni, vidi, vici» (أتيت ورأيت فغزوت أنا أغزو).

(6) Lucain (46), V, 405.
(7) Virgile 112), t. 1, p. 583.

10. وعن حصار أفاريكوم (مدينة بورج الحالية بفرنسا)، قال إنه اعتاد أن يكون ليل نهار بقرب العمال الذين يستخدمهم. كان في كل المسائل المهمة يتفحّص بنفسه الميدان، ولا يترك جيوشه تمرّ أبدًا من مكان لا يكون قد تعرَّف عليه شخصيًا. ولو وثقنا بكلام سويتونيوس، فهو حين شرع في العبور نحو إنجلترا، كان هو أول من سبَر أعماق المياه[1]. كان معتادًا على القول إنه يفضل النصر الذي يُنتزع بالحذق لا بالقوة. وفي حربه على بيتريوس وأفرانيوس في إسبانيا، وعندما جاءته الفرصة بالصدفة كي يتفوّق على العدو، رفضها قائلًا إنه يأمل في القضاء على العدو، بقدْر أوفر من الوقت، وبأقل المخاطر والأضرار.

11. وإليكم الآن هذا العمل المدهش: أمر يوليوس قيصر كافة جنود جيشه بقطع نهرٍ سباحةً مجرّدين من أي شيء.

«أخذ الجندي، ليهرع إلى المعركة
الطريق الذي لم يجرؤْ على الهرب منه.
مبتلًا بالماء، يغطي نفسه بسلاحه، وبالجري
يدفئ أطرافه المتجمدة بمياه التيار»[2].

وأنا أجده أكثر حذرًا وحيطة في أعماله من الإسكندر الأكبر؛ فهذا الأخير كان يتابع بكامل قواه المخاطر والأهوال، مثل تيار جارف يصدم ويضرب بلا هوادة ومن غير تمييز كل ما يلاقي=

«هكذا هو نهر الأوفانتو، ثور هائج يروي
مملكة داونوس أبوليانوس
غاضبا يجري ويهدّد
بالغمْر الرهيب للحقول»[3].

(1) يقول سويتونيوس: إن قيصر «كان قد درس بنفسه المرافئ، والملاحة وطرائق الدخول لتلك الجزيرة» [91]، «قيصر»، LVIII). بيد أن قيصر قد فنّد هذا التوكيد بنفسه، إذ قال فقط في كتاب «حربالغال»: «وقبل أن يشرع في العبور، أرسل قيصر جايوس فولوسينوس [...] بسفينة حربية. وكان الأمر يتمثّل في استطلاع عام وأن يعود أدراجه بسرعة». ونحن نلاحظ هنا أن كلام مونتيني يتسم ببعض المبالغة.

(2) Lucain (46), IV, 151.

(3) Horace (37), IV, XIV, 25.

=بل إن الإسكندر الأكبر كان محاربًا منذ نعومة أظفاره، وبدءًا من الحماسة الأولى لحياته، فيما أن يوليوس قيصر دخل المجال ناضجًا ومتقدمًا عليه في السن. إضافة إلى ذلك كان الإسكندر ذا مزاج أكثر دمويّة وحارٍ وغاضب، وكان يعزّز ذلك بمعاقرة الخمر، في حين كان قيصر يمتنع عن تناولها. لكنه حين يكون مضطرًا لذلك، لا يكون هناك شخص يبرع في ذلك مثله.

12. أما أنا، فيبدو لي أني أقرأ في العديد من منجزاته عزمًا كبيرًا على الضلال، لكي يتفادى عار الهزيمة. فخلال المعركة العظيمة ضد أناس بلاد التورناي، هرع للظهور أمام العدوّ كما هو من غير درقة[1]، حين أدرك أن تماسك مقدمة جيشه ينفرط، وهو أمرٌ قام به مرات عديدة. وحين سمع مرة أن جيوشه محاصَرة، مرّ عبر صفوف جيش العدوّ متنكّرًا لكي يُنهض همَّتهم بوجوده. وبعد أن عبر نهر الدّيراخيوم*[2] بجيش قليل العدد، وحين رأى أن باقي جيوشه التي تركها تحت إمرة أنطونيوس قد تأخرت في الالتحاق به، قرّر عبور البحر بنفسه من جديد وحيدًا، وكان الجوّ عاصفًا؛ ساعيًا لاستعادة باقي قواته العسكرية، منفلتًا من جيوش بومبيوس، التي كانت تسيطر على ثغور الساحل بكاملها.

13. أما المساعدات الحربية، فقد قام بالكثير منها، مما يعجز العقل عن استيعابه، من وجهة النظر العسكرية، مثلًا حين شرع في احتلال مملكة مصر بوسائل ضعيفة، ليسعى بعدها إلى مهاجمة قوى سكيبيو الإفريقي ويوبا، التي كانت أكثر عددًا من قوته العسكرية بعشر مرات. إن رجالًا من طينته لهم إيمان خارق بطالِعهم الحسن. فقد كان يقول: إن من اللازم القيام بالأعمال العظيمة عوضًا عن التفكير فيها.

14. وبعد معركة فارسالوس، وبما أنه كان قد أرسل جيوشه قبله إلى آسيا، لقي في البحر لوكيوس كاسّيوس وسفنه الحربية العشرة الهائلة. وقد كانت له الشجاعة لا فقط لانتظاره بل انطلق جهته بسرعة وأمره بالاستسلام.

---

(1) يصرح قيصر بنفسه أنه قد أخذ «من جندي من الصفوف الخلفية درقته».

(2) يصب في ساحل إيليريا بألبانيا.

وبما أنه قام بذلك الحصار الرهيب لأليسيا في حربه ضد الغاليين، وكان يدافع عنها ثمانون ألف رجل، لأن كافة بلاد الغال وقفت وقفة رجل واحد، للهجوم عليه ورفع الحصار عنها، بمئة وتسعة ألف فارس ومئتين وأربعين ألف من المُشاة؛ فأيُّ جرأة وأي ثقة عمياء في نفسه لم يبرهن عليهما، حين لم يتخلّ عن ذلك الحصار، وقرر مواجهة صعوبتيْن كبريَيْن من قَبيل تينك الصعوبتيْن؟ ومع ذلك فقد تحملهما بنجاح. وبعد أن ربح معركة كبرى ضد الجنود الغاليين خارج المدينة، جعل من سَجَنهم داخلها تحت رحمته. وذلك ما وقع أيضًا للوكولّوس في حصار تيغرانوكيرتا*[1] ضد الملك ديكرانوس*[2]؛ بيد أن الظروف كانت بالغة الاختلاف، بالنظر إلى قلة حماس الأعداء الذين واجههم لوكولّوس.

15. وإني أرغب في أن أسجّل هنا حدثيْن استثنائيين وباهريْن عن حصار أليسيا: أولهما أن الغاليين حين تجمعوا لمواجهة يوليوس قيصر، بعد أن أعدّوا لذلك كامل قواهم، قرروا في اجتماع لهم أن ينقصوا عددها خوفًا من أن تؤدي الكثرة إلى البلْبلة. إنه لأمر غير مشهود هذا الخوف من أن يكونوا أكثر عددًا من العدو. لكن إذا نحن تفحّصنا في الأمر عن كثب، فمن المعقول أن يكون حجم الجيش معتدلًا، محصورًا في حدود معينة؛ إما لصعوبة تغذية أفراده، وإما لصعوبة ضبط سلوكه، والتحكم في نظامه. بل سيكون من السهل أن نبيّن مثلًا أن تلك الجيوش الهائلة بعددها لم تقم بشيء يُحْسب لها.

16. وحسب ما يقوله كسينوفون على لسان كورش: ليس عدد الرجال وإنما عدد الرجال الباسلين هو ما يضمن النصر، أما الباقي فهو يخلق البلبلة أكثر مما يوفّر من المعونة. وقد بَنى السلطان العثماني بايزيد قراره بمحاربة تيمورلنك، ضد آراء مستشاريه العسكريين كافة، على أن العدد الغفير لعساكر العدوّ تمنح له أملًا كبيرًا في أن يسقطوا في البلبلة. كان إسكندر بك[3]، وهو خبير ألباني وحَكَم موثوق به في هذا

(1) عاصمة للملكة الأرمينية.
(2) * هو الملك الأرمني ديكرانوس الكبير.
(3) زعيم ألباني وأمير إبيروس، كان يحارب الأتراك، سبق لمونتيني ذكره في الكتاب الأول، الفصل الأول، الفقرة 2.

المضمار، يقول عادةً: إن عشرة أو اثني عشرة محاربًا أوفياء، كافون لقائد حرب، كي يضمنوا له سمعته في أي ظرفٍ من الظروف الحربية.

17. النقطة الثانية التي تبدو معاكسةً لممارسة الحرب ومبادئها، هي أن ويركينغيتوريكس*[1]، الذي عُيّن رئيسًا وجنرالاً لكافة أطراف بلاد الغال التي أعلنت العصيان، قرر الالتجاء إلى مدينة أليسيا. والحال أن من يحكم بلدًا ليس عليه أن يتخذ هذا القرار إلا في الضرورة القُصوى، إذا ما تعلّق الأمر بالمكان الأخير الذي فضَل له، وحين لا أمل يبقى إلا الدفاع عن هذه المدينة. على العكس من ذلك، كان عليه أن يظل حرًّا في تحركاته؛ كي يكون قادرًا على الاستجابة لطلبات أطراف بلده.

18. وحتى نعود ليوليوس قيصر، فلقد غدا الرجل مع الوقت أهدأ وأعقل، كما يشهد على ذلك أنيسه أوبّيوس. فقد اعتبر أنه لا حقَّ له في المخاطرة بشرف انتصارات عديدة حقّقها، بحيث إن هزيمة واحدة يمكنها أن تتكفّل بذلك. هذا ما يقوله الإيطاليون، الذين ينتقدون تلك الجرأة المتهوّرة التي يلاحظونها لدى الشباب بتسميتهم «المحتاجون للشرف». وهم يضيفون أن هذه الشهيّة الكبرى، وهذا الغياب للسّمعة، يمنحهم الحقّ في البحث عن مرتبة الشرف، مهما كان ثمن ذلك، وهو ما لا يلزم أن يقوم به من حاز عليه. من الممكن أن يكون ثمة بعض الاعتدال في هذه الشّهية كما فيما سواها، فالعديد من الناس يتصرّفون كذلك.

19. لقد كان بعيدًا عن أن يكون له أي تبكيت للضمير، كما كان الأمر لدى الرومان القدماء، الذين لم يكونوا يرغبون في التميّز في حروبهم بغير الشجاعة البسيطة والفطرية. بيْد أنه كان ينفث في ذلك الكثير من الوعي، مما لا نقوم به اليوم، ولا يوافق مع ذلك على أي وسيلة لبلوغ النصر. ففي الحرب التي قادها ضد أريوفستس[2]، وفي الوقت الذي كان فيه يتفاوض معه، وقعت مشادة بين الجيشيْن؛ بسبب خطأ

(1) * زعيم وقائد عسكري غالّي (82 ق.م - 46 ق.م).

(2) قائد السويبيين، وهم شعب جرماني استقر في البداية بين نهر الراين والدانوب، والذي عبر الراين عام 406 م للانتشار حتى إسبانيا.

ارتكبه بعض فرسان أريوفستس. وفي هذه البلبلة، وجد يوليوس قيصر نفسه في موقع قوّة بالنظر إلى أعدائه؛ غير أنه لم يرغب في أن يستفيد من ذلك؛ خوفًا من أن يُعاب عليه أنه استخدم النية السيّئة في تلك الظروف.

20. كان من عادته أن يرتدي في وقت المعركة حلّة رفيعة وبلون ناصع؛ كي يجذب الانتباه إليه. وكان لا يطلق العنان لجنوده، بل يلجمهم أكثر حين يكونون في تماسٍ مع العدو.

21. حين كان الإغريق يريدون اتهام شخص بأنه لا يصلح لشيء، يستخدمون عبارة جارية ويقولون إنه «لا يعرف القراءة ولا السّباحة». ولقد كان يوليوس قيصر هو أيضًا، يعتقد أن معرفة السباحة أمر مفيد في الحرب، ولها محاسن كثيرة، إذ لو كان بحاجة للإسراع، فسيعبر سباحةً الأنهار التي يصادفها في طريقه. لقد كان شغوفًا بالسفر راجلًا، كما كان يفعل الإسكندر الأكبر. ففي مصر، كان مضطرًا، لكي ينجو بجلده، أن يركب في سفينة صغيرة؛ لكن بما أن الكثير من الناس قاموا بالشيء نفسه، فضّل أن يرمي بنفسه في البحر ويلتحق عوْمًا بأسطوله، الذي كان راسيًا على بُعد أكثر من مئتي قدم من هناك، ممسكًا بألواحه[1] خارج الماء في يده اليسرى، وجارًا معه سترته العسكرية بين أسنانه؛ حتى لا يستولي عليها العدوّ. وقد كان مع ذلك وقتئذٍ في سنّ متقدّمة.

22. لم يستطع أي قائد حربي قبل يوليوس قيصر أبدًا أن يحظى بثقة جنوده. ففي بداية «حروبه الأهلية»، كان القواد العاملون تحت إمرته، يستخدمون رجُل سلاح أو واحدًا من المشاة، يؤدي كل واحد منهم أجرته من حسابه الخاص كي يخدمه. ومن كانوا موسرين من بينهم يتكفّلون أيضًا بمعونة أحْوج جنودهم. ولقد مكننا أميرال شاتيّون الراحل من الوقوف على حال مشابه في حروبنا الأهلية، فقد كان الفرنسيون من جيشه يتكفلون من جيوبهم بتأدية أجرة الأجانب المصاحبين لهم. ونحن

(1) كان الرومان يكتبون على ألواح من خشب.

لن نعثر أبدًا على مثال عن عاطفة جياشة كهذه بين الذين يتّبعون التقاليد القديمة[1] وسلطة القوانين القديمة. وقد حدث مع ذلك، في وقت الحرب ضدّ حنبعل، أن الجنود وقوادهم، اتباعًا للكرم الذي أبان عنه الرومان في المدينة، رفضوا أن يتقاضوا أجرة على عملهم. وكان أولئك الذين يتقاضون أجرًا في معسكر ماركيلّوس.

23. بعد هزيمة جنود يوليوس قيصر قرب نهر الديراخيوم، قرروا أن يعاقبوا أنفسهم بأنفسهم، بالرغم من أنهم كانوا يستحقون المواساة عِوَضًا عن التوبيخ. وواحدة فقط من فرقه ساندت هجمة على أربعة فيالق لبومبيوس لما ينيف عن الأربع ساعات، قبل أن يتم القضاء عليها تقريبًا بالنبال، بحيث تم العثور على ما يناهز المئة وثلاثين ألف جثة في الخندق. أحد الجنود يسمى سكايفا، كان يحرس إحدى المداخل، ظل صامدًا هناك بعينٍ مفقوءة، وكتفه وفخذه قد اخترقتهما النّبال، ودرقته قد تعرضت لأكثر من مئتي ضربة[2]. وقد حدث للكثيرين من جنوده الذين تعرّضوا للأسر أن يفضلوا الموت، على أن يغيروا معسكرهم. أسَر سكيبيو[3] غرانيوس بيترونيوس في إفريقيا؛ وبعد أن قتل سكيبيو رفاقه، أخبره بأنه لن يمسّ بحياته لأنه كان قاضيًا ورجلًا من مرتبة رفيعة. فردّ عليه بيترونيوس بأن جنود يوليوس قيصر كانوا معتادين على حفظ حياة الغيْر، لا تلقّيها من الغير، فقتل نفسه بنفسه. ثمة ما لا يُحصى من الأمثلة عن وفائهم: فمن غير أن ننسى عمل المُحاصَرين بسالونا، وهي المدينة التي انحازت لمعسكر يوليوس قيصر ضد بومبّيوس بسبب حدث غير عادي. كان ماركوس أوكتافيوس يقود الحصار؛ وعاش المحاصرون في المدينة أقسى حالات التقشف، بحيث إنهم لكي يدرؤوا النقص في الرجال، لكون أغلبهم كانوا قد قضوا نحبهم أو جرحى، عمدوا إلى تحرير عبيدهم، واضطُرّوا إلى قطع شعور كافة نسائهم كي يصنعوا منها حبالًا لآلاتهم الحربية، وطبعًا من غير أن نتحدث عن ندرة المؤونة. ومع ذلك فقد ظلوا مصمّمين على ألا ينصاعوا للاستسلام.

---

(1) بعبارة أخرى، الحرب الكاثوليكي، الوريث للتقاليد.

(2) يقول سويتونيوس إن الأمر يتعلق بأحد القواد، ويتحدث عن «مئة وعشرين ضربة» تلقتها درقته.

(3) هو ماتيلّوس سكيبيو، كان مواليا لبومبيوس، غير أنه لن يعيش طويلاً بعد موت بيترونيوس.

24. بما أن هذا الحصار امتدّ أجله، صار أوكتافيوس أكثر لامبالاة وأقلّ اهتمامًا بمهمّته. وهكذا فإن المحاصَرين اختاروا يومًا في عِزّ الظهيرة، وبعد أن وضعوا النساء بدل الرجال في أعلى الأسوار، خرجوا هاجمين بهياج بالغ على المُحاصِرين لهم، بحيث إنهم اخترقوا كتيبة الحرس الأولى والثانية والثالثة ثم الرابعة حتى أتوْا على آخرها، ودفعوا الأعداء إلى هجر خنادقهم وطاردوهم حتى سفنهم في عرض البحر. بل إن أوكتافيوس نفسه فرّ هاربًا بنفسه إلى مدينة ديراخيوم الألبانية ليلتحق ببومبيوس.

25. وإني حتى اليوم لا ذكْرى لي، أني رأيت مثالًا لمحاصَرين يهزمون المحاصِرين لمدينتهم، ويصبحون أسياد الميدان، ولا أن خروجًا من المدينة المحاصَرة انتهى إلى نصر مُبين في معركة من المعارك.

الفصل الخامس والثلاثون

عن ثلاث زوْجات صالحات

1. ليس ثمة الكثير من الزوجات الصالحات، كما يعرف كل واحد، وخاصةً في مجال واجبات الزواج. فذلك سوق مليء بالظروف الشائكة، بحيث من العسير أن تحافظ فيه امرأة على إرادتها. والرجال أيضًا، برغم وضعهم أفضل من وضع النساء، بعيدون أيضًا عن الصلاح.

2. إن الحجر الأساس لأي زواج ودليله الحقّ، يتمثل في ديمومة هذا الاجتماع، إذا ما ظل دومًا لطيفًا ووفيًّا ورائقًا. ففي زمننا تتباهى النساء أكثر وبشكل طوعي بخدماتهن الطيبة لأزواجهن، وبحرارة عواطفهن تجاههم؛ حين يكونون قد فارقوا الحياة. وهن يسعيْن على الأقل لمنحنا شهادة على حسن نيّتهن. وهي شهادة متأخّرة بل لا سياق لها. فهن يبرهنَّ بالأحرى بذلك على أنهن لا يحببْنهم إلا أمواتًا.

3. الحياة مليئة بالاضطرابات والتقلبات الفائرة. بالموت، وبالحب وباللياقة. فكما أن الآباء يخفون عطفهم عن أبنائهم، تخفي النساء طواعية مشاعرهن الرقيقة عن أزواجهن؛ كي يُحافظن على سلوك كريم ومحترم. إن هذا الإخفاء لا يلائم ذوقي. أما أنا فأهمس في أذن خادمة الغرف أو السكرتير: «كيف كانا، كيف عاشا معا؟». وهنا أتذكر جيدًا هذه العبارة الحكيمة: «ثمة دموع أكثر من الألم». فطريقتهن في العبوس مكروهة للأحياء ولا أهمية لها للأموات. وقد نقبل بالبسمات بعد الموت شرط أن تكون تلك البسمات قد عاشتها المرأة في حياتها. ألن أنبعث من قبري من الغضب، لو أن من بصق في وجهي وأنا حيّ، جاء ليقبّل قدمي وأنا ميّت؟

4. إذا كان ثمة شرف ما في البكاء على زوج مات، فهو لا يكون إلا لدى أولئك اللواتي كان يبتسم في وجههن؛ فلتبتسم بعد مماته أولئك اللواتي بكيْن طيلة حياته، ظاهرًا وباطنًا. لا تثقوا في تلك العين المترقْرقة دمعًا، وذلك الصوت الذي يأسى له السامعون، انظروا بالأحرى للوشاح، وذلك اللون، وتلك الوجْنات النافرة تحت الخمار الكبير، فعبر هذه التفاصيل نراها تتكلم بوضوح. ثمة القليلات ممن تتحسّن صحتهن، وهو أثر لا يمكن تكذيبه. وهذه الطلعة الاحتفائية لا تنظر للماضي بقدر ما ترْنو

للمستقبل، فذلك ربح أكثر منه خسارة. في طفولتي، كانت امرأة بالغة الحسن والنزاهة لا تزال حية ترزق، أرملة أحد الأمراء، تهتم كثيرًا بأناقتها أكثر مما تبيحه قواعد الترمّل. وكانت تجيب من يؤاخذونها على ذلك: «لأني لا أسعى إلى اكتساب صداقات جديدة، ولا إلى الزواج من جديد».

5. حتى لا أكون متفقًا تمامًا مع ما جرت به العادة، اخترت الحديث هنا عن ثلاث نساء أحطن أيضًا بطيبتهن وعطفهن وفاة أزواجهن. بيْد أن هذه الأمثلة مختلفة شيئًا ما، إذ كان فيها الهوى من القوة بحيث وضع حدّا لحياتهن.

6. كان لبلينيوس الصغير غير بعيد عن بيته بإيطاليا[1] جار يعيش عذابًا رهيبًا بسبب حرْقة ألمّت به في أعضائه الحميمة. فرجته زوجته التي كانت تراه يعاني الأمرّين لمدة طويلة أن يتركها تفحص عن قرب وبحرية حالة دائه، حتى تفصح له بصراحة أكبر من أي واحد إذا ما كان هناك أمل في شفائه. وبعد أن حصلت على الإذن بذلك، وفحصته مليًّا أدركت أن من المحال شفاؤه، وأن كل ما يمكنه انتظاره هو أن يعيش طويلًا حياة الألم والضنى. ثم إنها نصحته بأن الدواء الأنْجع والأضْمن هو أن يقتل نفسه. وبما أنها تعرف أنه أضعف من أن يُقدِم على عمل قاس كهذا، قالت له: «لا تعتقدْ يا صديقي، أن الآلام التي أراك تقاسي منها تمسني أقل مما تمسّك. ولكي أتخلص منها فإني سوف أتناول أنا أيضًا من هذا الدواء الذي سأعدُّ لك. فأنا أرغب في أن أصاحبك في شفائك كما صاحبتك في مرضك. انسَ مخاوفك، وفكرْ أننا لن نحس سوى باللذة في هذا العبور الذي سيخلصنا من هذه الهموم. سنكون سعيديْن ونحن نرحل معًا».

7. وحين انتهت من قولها، وبعد أن أجَّجت عزيمة زوجها قررت أن يرميا بنفسيهما في البحر من نافذة في بيتهما التي تشرف مباشرة عليه. ولكي تحافظ حتى النهاية على هذه العاطفة العميقة والوفيّة التي أحاطته بها، أرادته أن يموت في حضنها. لكنها خوفًا من أن تخونها يداها، فتضعفان باحتضانه وبسبب السقطة والخوف، ربطت نفسها إلى جسده من

(1) Pline le Jeune, **Correspondance** [39] Livre VI, 24.

الخصر، وتركت بذلك الحياة من أجل راحة زوجها.

8. كانت تلك الزوجة من وسط فقير. ولدى هؤلاء الناس البسطاء ليس من النادر أن نلاقي عملًا ذا مزايا استثنائية.

«لديهم هم سارت
العدالة بخطاها الأخيرة»[1].

أما الزوجتان الأخريان اللتان سأحدثكم عنهما فهما من وسط نبيل وموسِر، حيث تعِزّ الأمثلة عن الفضيلة.

9. كانت آريا زوجة كايكينّا بايتوس، وهو قنصل سابق، أمًّا لامرأة أخرى تسمى بدورها آرّيا، وهي زوجة ثراسي بايتوس الذي كان رجلًا فاضلًا شهيرًا في وقت حكم نيرون، والتي بهذا الصهر كانت جدّة فانّيا (وتشابُه أسماء الرجال والنساء أمر يضلّل العديد من المؤلفين). وعندما أسَر رجال الإمبراطور كلوديوس كايكينّا بايتوس، بعد هزيمة سكريبونيانوس الذي كان مُواليًا له، ابتهلت زوجته آرّيا لمن كانوا يقتادونه إلى روما، أن يصحبوها معهم على متن سفينتهم حتى تعفيهم من مصاريف خدمة زوجها، قائلة إنها وحدها ستهتم بغرفته وبطعامه ويمكنها أن تقوم بما رغبوا من المهام الأخرى. لكنهم رفضوا طلبها. فاكترت سفينة صيد حالًا وتبعت زوجها منذ سلافونيا. وحين بلغوا روما، وفي أحد الأيام وفي حضرة الإمبراطور، اقتربت جونيا، أرملة سكريبونيانوس من آرّيا بشكل أليف، بسبب تشابه مصائرهما، غير أن آريا صدّتها بعنف قائلة: «أنا لن أكلمك أو أنصت لك، وقد مات سكريبونيانوس جنبك وأنت لا زلتِ على قيْد الحياة». هذه الكلمات وغيرها من الإشارات جعلت أبويها يدركان أنها تفكر في الانتحار، لأنها لن تتحمل المصير المأساوي لزوجها. فتضرّع لها ثريسا صهرها ألا تضع حدًّا لحياتها قائلًا: «ماذا؟ إذا كان مصيري شبيهًا بمصير كيكينّا، هل ترغبين في أن تقوم زوجتي، أي ابنتك، بالأمر نفسه؟». فردّت آريا: «كيف تسألني عن ذلك؟ نعم، نعم، أرغب في ذلك إذا هي عاشت طويلًا وفي توافق تام معك، كما عشت أنا مع زوجي».

---

(1) Virgile (114), II, 473

10. أجَّجت هذه الكلمات المخاوف التي دارت حول آرّيا، مما جعل أهلها يراقبون عن كثب تصرفاتها. وفي أحد الأيام قالت لمن كان يسهر عليها: «لا تضيعوا وقتكم. يمكنكم أن تميتوني بشكل أسوأ لكنكم لن تمنعوني أبدًا من الموت». ثم إنها فجأة رمت بنفسها بقوة من الكرسي الذي كانت جالسة عليه، وضربت رأسها على الحائط جنبها. وانهارت لتوّها ممدَّدةً، وقد أغمي عليها وجروحها خطيرة. وبعد أن استعادت وعيها بصعوبة قالت: «لقد قلت لكم بصريح العبارة إنكم إن رفضتم لي موتًا لائقًا، سأجد لنفسي موتًا آخر مهما كان صعبًا».

11. وإليكم كيف أنهت فضيلتها الرائعة. بما أن زوجها بايتوس لم يكن بما يكفي من القوة لكي يحقق بنفسه الموت الذي يدفعه إليه الإمبراطور، فإنها في أحد الأيام، وبعد أن استعملت معه الحجاج والمواعظ الملائمة للنصيحة، التي كانت تقدمها له في هذا الاتجاه، أخذت الخنجر الذي كان يحمل، وأمسكت به بيدها، وقالت في نهاية موعظتها: «افعل ما يلي يا بايتوس». وفي اللحظة نفسها، بعد أن وجهت طعنة قاتلة لصدرها، اقتلعت الخنجر من الجرح ومدته له وهي تُحتضر، ونبست بهذه العبارات النبيلة والكريمة والخالدة: «أمسك يا بايتوس، إنه ليس مؤلمًا». ولم يكن لها الوقت لغير النبس بهذه الكلمات حتى أسلمت الروح.

«حين مدّت آرّيا العفيفة الخنجر لبايتوس
بعد أن سلّته من صدرها،
قالت: صدّقني، هذه الطعنة لم تؤلمني
لكن تلك التي ستوجهها لنفسك تؤلمني من الآن»[1].

12. كلمات آرّيا لا تزال حية أكثر في صيغتها الأصل[2]، بل بمعنى أكثر غنى؛ ذلك أن الجراح وموتها هي وزوجها، كل هذا لم يكن له أن يكون مؤلمًا أبدًا لها، هي التي كانت المرأة النصوح والملهمة. لكنها بعد أن أنجزت هذا العمل الشجاع والنبيل لفائدة زوجها فقط، فهي تهتم به أيضًا في الفصل الأخير من حياتها، ساعيةً إلى أن تنزع من قلبه الخوف من

(1)Martial, (51), 14.

(2) تلك التي يثبتها بلينيوس الصغير: «Pæte, non dolet».

اتباعها في موتها. وجّه بايتوس بالخنجر نفسه طعنة لنفسه، ولعلّه كان -في رأيي-خجِلًا من أنه كان بحاجة لهذا التوجيه الثمين والنادر.

13. تزوجت بومبيّا باولينا، وهي امرأة نبيلة الأصل، سينيكا وقد بلغ من العمر عِتيًّا[1]. أرسل إليه نيرون تلميذه «العزيز»، تابعيه كي يبلغوه بالحكم عليه بالإعدام. وقد مرّت الأمور هكذا: حين كان الأباطرة الرومان في تلك الفترة قد حكموا بالإعدام على شخص مُميَّز، كانوا يبلغونه بواسطة ضباطهم الأمر باختيار الموت الملائم له، في هذا الأجل أو ذاك، يحدّدونه حسب درجة غضبهم منه، بحيث يكون تارةً قريبًا وأخرى بعيدًا، واضعينَ له أجلًا لتصفية شؤونه مسبقًا، لكن أحيانًا أيضًا بحرمانه من ذلك بتحديد أجل قريب جدًا. وإذا ما قاوم المحكوم عليه بالإعدام أوامرهم، يبعثون له بأشخاص قادرين على قتله، إما بقطع الوريد والكحيل، أو بإرغامه على تجرّع السمّ. بيد أن الناس الشرفاء لم يكونوا ينتظرون أن يبلغوا هذا المبلغ، ويستخدمون أطباءهم وجرّاحيهم لهذا الغرض.

14. أنصت سينيكا لرجال نيرون بملامح هادئة وحازمة، وطلب بعد ذلك ورقًا كي يحرّر وصيّته. وبما أن رئيسهم رفض له ذلك، استدار نحو أصدقائه وقال لهم: «بما أني لا أستطيع أن أترك لكم شيئًا اعترافًا بجميلكم عليّ، سأترك لكم على الأقل أجمل شيء لدي، أي ذكرى مزاجي وحياتي، التي أطلب منكم الحفاظ عليها في ذاكرتكم، حتى تتمّ لكم سمعةُ كونكم حقًا أصدقاء لي صادقين». وكان في الوقت نفسه، يهدئ تارةً من روع الألم الذي يحس به لديهم، وتارةً أخرى يغلظ من صوته لتوبيخهم: «أينَها المبادئ الرائعة للفلسفة؟ أين راح الزّاد الذي تشبعنا به طيلة سنين ضد عَوادي القدر؟ أأَنتم جاهلون بضراوة نيرون؟ ما الذي كان من الممكن أن ننتظره من رجل قتل أمه وأخاه، سوى أنه سيقتل أيضًا أستاذه، أي ذلك الذي رباه وعلمه؟».

15. وبعد أن خاطب الكلّ استدار نحو زوجته، وبعد أن عانقها وقلبه

(1) هذا المقطع يستقيه مونتيني من تاسيتوس.

ينفطر من الألم، ابتهل إليها أن تتحمل معه بجلَد هذا الحادث، حبًا فيه. وقال لها: «إن الوقت حان لكي يُبين المرء لا بالحجاج والخطابات وإنما بالأفعال النتيجةَ التي استقاها من دراساته؛ وأن ما من شك في أنه يستقبل الموت لا فقط من دون ألم وإنما بالحبور. وأضاف: «لهذا صديقتي، لا تدنّسيه بدموعك؛ ولا تتظاهري بحبي أكثر من محبة سمعتي. هدّئي من ألمك، وعَزّ نفسك بما عرفتِ عني وعن أفعالي، وتابعي بقية حياتك بالاهتمامات الشريفة التي تتعاطين لها».

16. وبعد أن استعادت باولينا بعضًا من وعيها، وأحستْ أن مزايا شجاعتها قد تعززت بشحنة كبيرة من الحنان ردّت عليه: «لا يا سينيكا، لن أتركك من غير رفقتي في ظروف قاسية كهذه. لا أريد أن تظن أن الأمثلة الفاضلة لحياتك لم تعلمني أن أموت بشكل حسن. ومتى أستطيع ذلك أفضلَ وبشكل أكثر كرامة وأكثر حريّة إلا معك؟ كن واثقًا من شيء: سأرحل في الوقت نفسه معك».

17. ثم إن سينيكا بعد أن قدَّر أعظمَ تقدير القرار الرائع والأنوف لزوجته، وبعد أن تحرّر من هموم تركها بعد موته تحت رحمة أعدائه وخاضعة لشراستهم، قال لها: «لقد قدمتُ لكِ يا باولينا النُّصح بخصوص ما يمكن أن يسيّر حياتك بطريقة سعيدة. وأنت تفضّلين الموت بشرف. لن أعارض ذلك. فليكنِ الحزم والإصرار معًا متساوييْن لدينا في نهايتنا المشتركة، لكن الجمال والمجد أعظم لديك».

18. وبعدها قُطع وريدُ يديهما. لكن، بما أن أوْردة سينيكا كانت متصلّبة بسبب عمره وحياته العفيفة، فقد سال دمها بشكل بطيء وشحيح. فأمر بقطع أوردة الرجليْن أيضًا. وخوفًا من أن يليّن القلق الذي أثاره فيه ذلك قلْب امرأته، ولكي يتحرّر هو أيضًا من الأسى الذي أحس به وهو يراها في حال يدعو للشفقة بعد أن ودّعها بحبٍّ غامر، طلب منها أن تسمح لهم بحملها إلى غرفة مجاورة، وهو ما تمّ القيام به. لكن بما أن تلك الحزّات كلها ظلت غير كافية لموته، طلب من طبيبه ستاتيوس

أنّيوس أن يمنحه سُمًّا، بيد أن السمّ نفسه لم يفعل مفعوله أيضًا، إذ هو لم يصل إلى القلب بسبب الوهَن وتصلُّب عضلاته.

19. وهكذا قام أصحابه بإعداد حمام ساخن له. وحين أحس بقرب أجله، وما دام له بعض النَّفَس، ظلّ يتفوه بعباراتٍ رائعة عن الحال الذي يوجد فيه، جمعها كُتّابه ما داموا سمعوا صوته. وعباراته الأخيرة ظلّت شهيرة لزمن طويل في ذاكرة الناس (وإنها لخسارة عظيمة ألا تكون قد وصلتنا). وحين أحس بالنّفَس الأخير، أخذ ماء الحمام الساخن المليء بالدم ورشَّ به رأسَه وهو يقول: «أَنذر هذا الماء ليوبيتر، الإله المحرّر».

20. حين بلغ خبر كل ذلك إلى نيرون، وخشي أن يؤاخذَ على موت باولينا، التي كانت تنتمي إلى أشراف الرومان، والتي لم يكن له معها أي أُلفة، بعث بسرعة أناسه لتضميد جراحها. وهو ما تمّ من غير أن تحسّ به، بما أنها كانت محتضرةً ومن دون وعي. وإذا كانت قد عاشت بعد ذلك من غير رضاها، فقد كان ذلك بشرف وتبعًا لمزايا شخصيتها، مُبينة بشحوب وجهها كم أن حياتها قد سالت من جراحها.

21. تلك هي قصصي الثلاثة الحقيقية، التي أعتبرها جميلة ومأساوية مقدار جمال ومأساوية تلك التي نبتكرها بأنفسنا لأجل اجتذاب الجمهور. وأنا مندهش كيف أن أولئك الذين يتعاطوْن التأليف في ذلك لم تطرق ذهنهم بالأحرى فكرة الاقتباس من آلاف القصص التي تحبل بها الكتب. فسيربحون الجهد والأكثر منه من المتعة والفائدة. ومن يرغب في أن يجعل من ذلك مؤلَّفًا جامعًا تتناغم جميع أجزائه، لن يكون عليه أن يضيف له غير الروابط، مثلما نفعل للحْم معدنيْن مختلفين بينهما. فبإمكانه أن يراكم بتلك الطريقة العديد من الحوادث المتنوعة، مُنظِّمًا ومُنوِّعًا إياها حسب ما يتطلبه نجاح الكتاب، تقريبًا مثلما ألف أوفيديوس كتابه «التحوُّلات» انطلاقًا من شتيت الحكايات.

22. ولدى الزوجين الأخيرين اللذين تحدثت عنهما، من المهم جدًا أن نشير

إلى أن باولينا إذا كانت قد منحت حياتها لحب زوجها، فإن زوجها فيما قبل قد هجر الموت حبًّا فيها. ونحن لا نرى تكافؤًا كبيرًا في هذا التبادل. لكنه بالنظر إلى آرائه الرواقية، أعتقد أنه كان يظن مع ذلك أنه قد قام من أجلها بالكثير بتمديد حياته من أجلها أكثر مما لو أنه مات من أجلها. ففي إحدى رسائله التي كتبها للوكيليوس، يحكي في الأول كيف استبدت به الحمى في روما، وأنه ركب فجأة عربة متوجّهًا لبيت له في البادية، معاندًا زوجته التي أرادت منعه من ذلك، والتي أجابها أن الحمى التي انتابته ليست حمى الجسد وإنما حمّى المكان. ثم إنه تابع قائلًا:

23. «لقد تركتني أروح هناك، مُنهمرة عليَّ بالكثير من التوصيات عن صحّتي. لكني أنا الذي أعرف أن حياتها كلها فيَّ، أنشغل أولًا بنفسي كي أستطيع أن أهتم بها. فميزة الشيخوخة التي تجعلني أكثر حزمًا وقرارًا بصدد بعض الأمور، تمنحي حين أتذكر أن في هذا العجوز، ثمة كائن شاب أنا له ضروري. وبما أني لا أستطيع أن أجرّها إلى حبي بشكل أكثر شجاعة فإنها هي تقودني إلى أن أحب نفسي بالكثير من العناية. فمن اللازم منح شيء ما للعواطف الحقة، وأحيانًا مهما دفعتنا الظروف في الاتجاه المعاكس، علينا أن نستدعي الحياة من جديد مهما كان ذلك أمرًا مُضنيًا، علينا أن نوقف بأسناننا الروح[1] المتأهّبة للتحليق خارجنا، بما أن قاعدة الحياة لدى الناس الخيّرين ليس أن يحيوا أطول مدّة تروق لهم، وإنما أطول مدة يلزمها لهم. ومن لا اعتبار كافٍ لديه لامرأته، أو صديق له لكي يمدّد حياته، ويسعى جاهدًا للموت، هو ضعيف ورقيق جدًا. فعلى النفس أن تعرف كيف تفرض على نفسها هذا، حين تتطلّب مصلحة أهلنا ذلك. علينا أحيانًا أن نكرّس أنفسنا بإخلاص لأصدقائنا، وحين نريد أن نموت من أجلنا، أن نتخلى عن ذلك من أجلهم.

24. إنه لَدليل على نبل القلب أن يعود الإنسان للحياة اعتبارًا للغير، كما أوضحت ذلك شخصيات عظيمة عديدة. وإنه لَلمَخُّ حكمةٍ عظيمةٍ أن يحافظ المرء على الشيخوخة (التي تكمن ميزتها الكبرى في اللامبالاة بمدتها، مع شجاعة أكبر واشمئزاز أكثر من الحياة)، إذا ما هو أحس

(1) الروح هنا بمعناها كنفس حيوي، أي الروح للحركة (أنيما باللاتينية).

أن ذلك يمكن أن يكون لطيفًا ومفيدًا لشخص يحبه كثيرًا. وهو يتلقى جزاءً رائقًا عن ذلك. هل ثمة ما هو ألطف فعلًا من أن يكون المرء عزيزًا جدًا على زوجته بحيث إنه، تقديرًا لها، يغدو أعزَّ على نفسه؟ وهكذا فإن عزيزتي باولينا قد أغدَتني ليس فقط بخوفها وإنما أثارت خوفي. ولم يكفني أن أتأمل بأي حزم يمكنني أن أموت، وإنما تأملت أيضًا كم من الضنى سيغشاها في تحمّل ذلك. لهذا فرضت على نفسي أن أحيا، وأن يحيا المرء أحيانًا دليلٌ على شهامته». تلك هي كلماته الرائعة كما كان سلوكه، أثبتُّها هنا حرفيًا.

الفصل السادس والثلاثون

عن الرجال الأعْلام

1. لو طُلب مني الاختبار بين كل الناس الذين تمكنت من معرفتهم، أعتقد أن ثمة ثلاثة من بينهم سأضعهم فوق كافة الآخرين وأولهم هو هوميروس؛ لا لأن أرسطو أو فارّو مثلًا لم يكونا بمقدار علمه، ومن الممكن أن يكون فرجيليوس مُضاهيًا له في فنه. فأنا أترك الحكم في ذلك لمن يعرفانهما هما الاثنين. أما أنا الذي لا يعرف إلا واحدًا منهما، فلا أستطيع سوى القول إن آلهة الشعر نفسها من وجهة نظري لا يمكنها أن تسير أبعد من الروماني.

«هو ينشد على قيثارته أشعار أبولّون
حين يمس هذا الأخير قيثارته بأنامله»[1].

2. ومع ذلك لا ينبغي أن ننسى في هذا الحكم أن فرجيليوس يستقي حذقه من هوميروس، وأن هذا الأخير مرشده ومعلمه. بل إن بيتًا واحدًا من الإلياذة لهوميروس كان كافيًا ليمنح جسدًا ومادةً لهذه الإنيادة العظيمة والربانية لفرجيليوس. لكن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ، لأني سأضيف لهذه المزايا خصائص أخرى كثيرة تجعل من هذه الشخصية رجلًا رائعًا، وتبوئه مكانةً فوق مكانة بني البشر. والحقيقة أنني اندهشت كثيرًا أنه، هو الذي خلق الكثير من الآلهة وجعلها مقبولة في أنحاء العالم، فقط بنفوذه، لم يتم وضعه هو نفسه من بين الآلهة.

3. ومع أنه كان فقيرًا وضريرًا، وعاش قبل أن تتكون العلوم انطلاقًا من الملاحظة اليقينية ذات القواعد، فهو مع ذلك عرفها معرفة جيدة بحيث إن كل من دفعهم الواجب من حينئذٍ إلى تأسيس المجتمعات وتدبير الحروب، والكتابة سواء عن الدين أو الفلسفة، استخدموه باعتباره السيّد المطلق للمعرفة الكونية، وتعاملوا مع كتبه باعتبارها مشتملًا لكافة أنواع المعارف. إنه يعلمنا أفضل من خريسيبّوس وكرانتور.

«ما هو خير أو عار، ومفيد أو لا[2]
أو كما يقول الآخر
في كتبه، يعُبّ الشعراء

(1) Properce (80), II, XXXIV, 79
(2) Ovide (66), 9, v. 25

مياه جبل بييروس كما من معين لا ينضب»[1].

وما قاله ذلك الآخر:

«أضيفوا لهم رفقاء آلهة الفن، ومن بينهم هوميروس
فهذا الذي لا يُضاهى تسامى حتى الكواكب»[2].

وما قاله أخيرًا ذلك الآخر:

«عينٌ وفيرٌ ماؤها حيث السَّلف
متَحوا أناشيدهم
من غير أن يخشوا تقسيم غنى رجل واحد
إلى مئات الغُدران»[3].

4. لقد ألف أجمل عمل يمكن أن يؤلَّف ضد نظام الطبيعة، مع أن الأشياء عند الولادة تكون عادةً غير مكتملة. فهي تنمو وتتقوّى وتتزايد. إنه هو الذي جعل الشعر وفنون أخرى ناضجة وكاملة مكتملة منذ ولادتها، ولعَمري ذلكهو السبب الذي يجعلنا نسميه أول الشعراء وآخرهم، تبعًا للشهادة الرائعة التي تركها لنا التاريخ القديم عنه: بما أنه لم يكن له من يحاكي، لم يستطع محاكاته أحد. فحسب أرسطو، كلماته هي الوحيدة التي تكون حركةً وفعلًا في الآن نفسه، فهي الوحيدة التي لها ماهية.

5. حين عثر الإسكندر الأكبر على أشياء كانت في ملك داريوش في صندوقٍ نفيس، أمر بأن يُحفظ له، كي يضع فيه كتب هوميروس قائلًا إنه خير نصيح ومشير، والأوثق في شؤونه العسكرية. ولهذا السبب نفسه قال كليومينيس[4] بن أناكساندريداس إنه شاعر الإسبرطيين، لأنه معلم جيد في فن الحرب. وهذه السمعة الاستثنائية والفريدة ظلت تلازمه حتى في الحكم على بلوتارخوس الذي قال عنه: إنه المؤلف الوحيد في العالم الذي لا يشبع المرء

(1)Horace (35), I, II, 3.
(2)Lucrèce (47), III, 1050.
(3)Manilius (50), II, 8.
(4) الذي عاش بين بين 519 و540 ق. م.

أو يتقزز منه، إذْ يكون دومًا مختلفًا في عيون قرائه، متجدّدًا باستمرار بحيث يمارسدومًا جاذبية جديدة. وهذا الغريب الأطوار ألكيبياديس، حين طلب من أحد المتأدبين كتابًا لهوميروس، أشبعه شتيمةً؛ لأنه لم يعد له منه كتاب، مثل شخص يكتشف أن أحد رهباننا لا يملك كتاب الأدعية. كان كسينوفانيس[1] يشتكي يومًا لهييرون، طاغية سيراقوسة، من أنه كان فقيرًا وأنه ليس له ما يطعم به خادمَيْن له. فأجابه: «وماذا؟ هوميروس الذي كان أشدّ فقرًا منك، لا يزال يغذي أكثر من عشرة آلاف، وهو في الآخرة». أليس ذلك ما كان يبتغيه أيضًا بانايتيوس، حين نعت أفلاطون «هوميروس الفلاسفة»؟

6. وبعد هذا، أي مجد يمكن أن يضاهي مجده؟ ليس ثمة شيء بقي حيًا في أفواه الناس غير اسمه وعناوين مؤلفاته؛ إذ لا شيء معروف أكثر من طروادة وهيلينا وحروبها، التي ربما لم تحد قطّ! ونحن نمنح لأبنائنا أسماءً ابتدعها الرجل منذ أكثر من ثلاث آلاف سنة. من لا يعرف فعلًا هكتور وأخيلّيوس؟ الأمر لا يتعلق فقط ببعض العائلات، ولكن بأغلب الشعوب التي تبحث عن أصول في ما تخيَّله[2]. كتب السلطان العثماني محمد الفاتح للبابا بطرس الثاني: «أنا مندهش من الطريقة التي يقاومني بها الإيطاليون، بالنظر إلى أن لنا في الطرواديين أصول مشتركة، وأني مثلهم أنوي الثأر لدمِ هكتور من الإغريق، الذين يريدون أن يمنحوه الحظوة على حسابي». أليس ذلك كوميديا نبيلة، يلعب فيها الملوك والدول والأباطرة أدوارهم منذ قرون عديدة، ويشكّل العالم بأسره مسرحًا لها؟ ومسقط رأسه كان مدار جدل بين سبع مدن يونانية بما أن غموضه كان مصدر شرف له: إزمير ورودس وكولوفون وسالاميس وخيوس وأرغوس وأثينا.

7. والشخصية الثانية هي في نظري الإسكندر الأكبر. فالسن التي شرع فيها في

(1) كسينوفانيس الكولوفوني (آسيا الصغرى)، فيلسوف يوناني من المدرسة الإيلية، عاش في القرن السادس ق. م. وقد دان بالأخص الطابع الإنساني وغير الأخلاقي لتمثيل الآلهة لدى هوميروس وهسيودوس.

(2) فعدا قصيدة الإنيادة لفرجيليوس، التي منحت لروما أصولاً طروادية، يمكننا أن نذكر كتاب الفرنسي رونسار («الفرنسيادة»)، الذي يجعل من شخصٍ يُدعى فرانكوسين هكتور، سلفًا للفرنسيين.

فتوحاته، والوسائل البسيطة التي حقق بها مشروعًا بالغ الطموح آمن به، والسلطة التي اكتسبها منذ نعومة أظفاره لدى القواد الذين اتّبعوه، وهم من بين الكبار والمحنكين في العالم، والحظ العظيم الذي منحه القدر، وأنجح مشروعاته المحفوفة بالمخاطر التي يمكن أن أنعتها بالمتهوّرة.

«قالِبًا كل عائق لصالح طموحه
وسعيدًا أن يشقّ طريقه بين الأطلال»[1].

وأن يكون في سن الثالثة والثلاثين قد عبَر كافة أطراف المعمور آنذاك، كل هذا يمنحه عظمة لا مثيل لها، بحيث لا يمكننا تصوّر ما كانته مدّتها المشروعة، والتطوّر المستمرّ لفضيلته، وقدَره السعيد، من غير أن نتصوّر أن الأمر يتعلق بمصير خارق. فقد ولَّد الرجل من جنوده العديد من الفروع الملكية، بحيث ترك بعد موته العالم يقتسمه أربعة من خلَفه كانوا فقط قادةً لجيوشه، وبحيث إن من خلفوهم ظلوا في الحكم طويلًا محافظين على دولتهم. كان يملك في ذاته العديد من الفضائل الباهرة، بحيث إن شخصيته لا تستحق أي مؤاخذة إلا بعض الأفعال النادرة. لكن من المستحيل القيام بأعمال عظيمة باحترام قواعد العدل، فأناس مثله يلزم الحكم عليهم من خلال مجموع أعمالهم والهدف العام لها. وخراب طيبة[2]، ومقتل ميناندروس[3] وطبيب إفيستين، والعديد من الأسرى الفرس ضربة واحدة، ومقتل فيلق من العساكر الهنود -وبالرغم من العهد الذي أُعطي لهم- ومقتل قبيلة الكوساي حتى الصبيان منهم، تلكم أعمال يصعب غُفرانها له.

8. أما كلايتوس فقد تمّ غفران خطئه بما يفوق أهميته؛ وفعل كهذا وغيره، يشهد على طبيعة مزاج الإسكندر التي كانت تميل كليةً للطيبة. ولقد قيل عنه، عن حق، إنه كان يمتح عيوبه من طبيعة فضائله وقدْره. أما كونه كان متفاخرًا شيئًا ما، وأنه لم يكن يحتمل الحديث عنه بالسوء، وأنه حين كان في بلاد الهند، أمر برمي مذاوده وكوابح جواده وأسلحته، فكل هذا يمكن عزوه إلى تقدّمه في السنّ وإلى النجاح الباهر لمسيره. ولنتأمّلْ أيضًا من جهة أخرى في فضائله العسكرية العديدة،

(1)Lucain (46), I, 149.

(2) قام الإسكندر الأكبر بتدمير طيبة عام 335ق.م، غير أنه لم يقم بتدمير أثينا.

(3) لا يتعلق الأمر بالشاعر الذي يحمل الاسم نفسه.

وفي جدّيته وحسن تقديره وصبره وجلَده ونظامه ودقته وشهامته وعزمه ونجاحه، ففي كل هذا، وبالرغم من أن سطوة حنبعل قد أعلمتنا بذلك، فقد كان الأول بين الرجال. وما القول في المزايا النادرة والحسنة لشخصه، التي كانت تقارب المعجزة، أعني قلنسوته، وذلك الوقار في وجه لا يزال شابًا، ذي اللون القرمزي الناصع؟

«وهكذا فإن لوكيفير مشرقًا من مياه البحر المحيط
هو الذي تعزه الإلهة فينوس من بين الكل، يكشف عن وجهه
فيبدّد ظلمات الليل»[1].

9. ناهيك عن سعة علمه ومؤهلاته، ومدة وعظمة مجده الخالص والواضح، الخالي من العيوب ومن الكراهية، وكونه زمنًا طويلًا بعد وفاته، ظلت الميداليات التي تحمل تمثاله تشكل فألًا حسنًا لمن يحملونها، وبشكل أشبه بالمعتقد الديني؛ وأن ثمة من الملوك والأمراء الذين سردوا منجزاته، أكثر من المؤرخين الذين سردوا منجزات ملوك أو أمراء آخرين. وأن المسلمين، الذين يمقتون كافة التواريخ الأخرى، لا زالوا لحد اليوم، يقبلون بقصته ويمنحونها مكانة رفيعة*[2]. فإذا ما نحن جمعنا كل هذا، فمن اللازم القبول بأني على حق في تفضيله على يوليوس قيصر نفسه، الوحيد الذي ترددت شيئًا ما في اختياره. ولا شك في أن ثمة حصة كبرى شخصية في منجزات ومآثر يوليوس قيصر، وتدخلًا كبيرًا للقدَر في منجزات الإسكندر الأكبر ومآثره. فهما قد أنجزا أشياء مهمة متكافئة، وربما منجزات من بين الأهم والأعظم لدى يوليوس قيصر. لقد كانا سَيْلَيْن جارفيْن خرّب العالم هنا وهناك.

"وبما أن النار تلتهم الغابة من كافة الجهات
غابة جافة يحترق فيه شجر الدفلى
كما لو أن سيولًا مُزبدة ومزمجرة
تنحدر نحو البطحاء
وفي طريقها تدمّر كل شيء..."[3].

(1)Virgile (112), VIII, 589-591.

(2) * إشارة إلى قصة ذي القرنين في سورة الكهف على الأرجح.

(3)Virgile (112), XII, 521-525.

لكن إذا كان طموح يوليوس قيصر يتسم ببعض الاعتدال، فهو مع ذلك قد تسبّب في الكثير من المآسي منذ أن صار هدفه خراب بلده، وكان سببًا في الكثير من الكوارث في العالم. وبعد الموازنة بينهما لا يمكنني إلا أن أميل إلى جانب الإسكندر الأكبر.

10. والشخص الثالث وأسمى الشخصيات وأرفعها هو إبامينونداس. فهو رجل أبعد من أن يكون قد عرف مجدًا يضاهي مجْد الآخرِين، لكن المجد هنا ليس عنصرًا حاسمًا. فهو كان له من العزيمة والشهامة، لا تلك التي يشحذها الطموح وإنما الشهامة والعزيمة اللتين يجذّرهما العقل والحكمة في نفس مكتملة، ما لا يمكن تصوّره. إنه في رأيي قدّم الكثير من الدلائل عن قيمته التي تضاهي دلائل الإسكندر، بل حتى يوليوس قيصر. فإذا كانت منجزاته الحربية لم تكن كثيرة العدد، ولا مشهورة، فإنها إذا نحن تأملناها جيدًا في كافة ظروفها، ذات أهمية خاصة وحاسمة، وتشهد له على الإقدام والجسارة والمعرفة بعلم الحرب. ولقد شرّفه اليونانيون بأن نعتوه «الأول من بينهم». وأن يكون الرجل «أول اليونانيين»، أليس هو «الأول في العالم»؟ أما عن علمه وقدراته، فيمكننا اليوم أن نستشهد بهذا التقدير القديم الذي يقول عنه: «لم يوجد أبدًا رجل مثله له علم غزير ولا يتحدث إلا قليلًا». ولقد كان ينتمي للمدرسة الفيثاغورية، ولا أحد تكلم مثله أمام الملأ، فلقد كان خطيبًا فصيحًا وبالغ الإقناع.

11. أما عن مزاجه وأخلاقه، فقد جاوز كثيرًا كل من اهتم قبله بالشؤون العمومية. ففي هذا الميدان الذي يلزم أن يُؤخذ بالاعتبار قبل كل شيء، والذي يشير وحده إلى ما نحن عليه حقًا وفعلًا، والذي أمنحه أهمية كبرى تضاهي كل الشؤون الأخرى مجتمعةً، نراه لا يقلّ مرتبة عن أي فيلسوف، ولا حتى عن سقراط ذاته. فلدى هذا الرجل، تُعتبر النزاهة مزيّة شخصية مهيمنة وموحَّدة وغير قابلة للفساد، وهي لدى الإسكندر الأكبر تبدو أقلّ مرتبة وغير موثوق بها ومتغيرة وضعيفة ونافلة.

12. في ما قبل التاريخ،كان تفحص كافة القُواد تبعًا لمنجزاتهم يفضي إلى أن كل واحد من بينهم يملك مزيّة خاصة جعلت منه قائدًا مرموقًا. لكننا نقف لدى صاحبنا هذا على فضيلة ممتلئة كاملة وثابتة، لا نقص فيها في كافة الميادين الإنسانية سواء كانت خاصة أو عمومية، في زمن السلم كما في زمن الحرب، وسواء تعلّق الأمر بالحياة أو بالموت بشرف. وأنا لم يسبق لي أن عرفت شخصية أو مصير رجل أنظر إليه بهذا القدر من الاحترام والتأثُر. صحيح أني أجد أن عناده في أن يظل فقيرًا، كما يصف ذلك أصدقاؤه المقرَّبون، كان أمرًا مبالغًا فيه؛ وأجد أن تلك الطريقة في التصرّف، النبيلة مع ذلك والخليقة بالكثير من الإعجاب، أصعب من أن أتّبعها أنا، بل حتى من أن أتصوّرها في الشكل الذي اتخذتها في سيرته.

13. وحده سكيبيو إيميليانوس، إذا ما نحن نسبنا له نهاية بالغة الفخر والروعة، ومعرفة بالعلوم بعمق وكونية معارف صاحبنا، يمكنه أن يضاهيه في ذلك. يا لها من خيبة خبأها لنا القدَر بأن حرمنا[1] من هاتين السيرتين الأكثر نبلًا في كتابات بلوتارخوس. فالأول بشهادة الجميع، كان الأرفع من بين اليونانيين، والثاني الأرفع من بين الرومان. فيا لها من مادة خصبة، ويا له من فاعل هو الزمن.

14. وبما أن الأمر يتعلق برجلٍ لم يكن قديسًا صالحًا، وإنما «رجلًا رفيعًا» كما يقال، ذا عوائد مدنية وملائمة للعوائد المقبولة، من مستوى اجتماعي متوسّط، فإن من عاش حسب علمي حياة وافرة الغنى لم يعشها بشر من بين الأحياء، مصحوبة بمزايا غزيرة ويُحسد عليها في كل الأحوال، هو ألكيبياديس. لكني سأضيف هنا عن إبامينونداس باعتباره مثالًا لخيرة الناس، بعضًا من طرائق تفكيره:

15. كانت السعادة الأكثر وداعة التي أحس بها طيلة حياته تلك التي أدخلها على قلب أبيه وأمه حين حاز على النصر في معركة ليوكترا[2]. وهو شرَّفهما كثيرًا بأن فضل سعادتهما على سعادته المبرّرة والكاملة، بعد

(1) هاتان «الحياتان» لبلوتارخوس ضاعتا فعلاً.

(2) هو النصر الذي حققه في بيوتيا عام 371 ق.م ضد الإسبرطيين.

عمل بقدر ذلك المجد.

16. كان يعتبر أنَّ من غير الممكنِ قتلَ رجلٍ، من غير معرفة إنْ كانت له يدٌ في الأمر، حتى لو كان ذلك لإعادة الحرية لبلده. لهذا كان بالغ التحفظ على ما قام به بيلوبيداس ورفيقه، لفك الحصار عن طيبة. وهو كان يعتبر أيضًا أن من اللازم في معركة ما تفادي مهاجمة صديق يكون في معسكر العدو، وأن من اللازم الحفاظ على حياته.

17. كان طبعه الإنساني إزاء أعدائه أنفسهم كسكان بيوتيا مثلًا يجعل منه شخصًا مشكوكًا في أمره. فبعد أن أكره بشكل رائع الإسبرطيين، على أن يفتحوا أمامه الممر الذي سعوا إلى الحفاظ عليه، في مدخل المورة قرب كورنثوس،اكتفى بأن هزمهم من غير أن يلاحقهم طويلًا، ولهذا تمت إقالته من منصبه كجنرال قائد للجيش. كان ذلك أمرًا مشرّفًا له، وعارًا على البيوتيين الذين اضطروا إلى إعادته لمنصبه في ما بعد، والاعتراف إلى أي حدّ كان مجدهم وخلاصهم مرتهنًا به. كان النصر يتبعه أينما حلّ وارتحل مثل ظله، بحيث إن ازدهار بلده تبدّد مع وفاته، كما وُلد معه.

الفصل السابع والثلاثون

عن شبَه الأبناء لآبائهم

1. إن هذا التجميع لأجزاء عديدة يتمّ هكذا: فأنا لا أمسّه إلا حين يقودني إليه خمول رخْو، وأبدًا خارج بيتي. فهو قد أُلِف إذًا بوقفات وفواصل متنوعة، بما أن الظروف تشدّني إلى مجال آخر أحيانًا لعدة شهور. علاوة على ذلك، فأنا لا أصحح أفكاري الأولى بأفكاري التالية إلا في بعض الكلمات، ولكن، لكي أنوِّع فيها لا لكي أنقص منها. أريد هنا أن أصوّر تطور شخصيتي، بحيث يمكن رؤية كل جزء منها كما في لحظة ولادته. ولو أني بدأت ذلك من قبل، لكنت تمتَّعت بملاحظة الطريقة التي عشتُ بها تغيُّراتي. كان خادم يكتبها لي من إملائي يظن أنه سوف يجمع مالًا وافرًا، بسرقة بعض المقاطع مني اختارها على هواه. وأنا أواسي نفسي بالقول إنه لن يربح منها أكثر مما سأخسره فيها.

2. لقد شِخْت بسبع أو ثمان سنوات حين بدأت هذا العمل. وهو أمر لم يتمَّ من غير أن أكون فيه رابحًا لشيء ما. فقد تعرفت على المغص الكلوي مع توالي السنين، الذي لا يمرّ التعامل معه والتآلف معه من غير أن يمنحنا نتائج من قبيل هذه. كنت آمُل أن يكون من بين الهدايا الكثيرة التي يجازي بها من يسكنه ذلك المرض طويلًا، أن يختار لي هديّة تكون أيسر عليّ كي أقبلها؛ ذلك أنه مغص لم يختر لي منها إلا واحدًا أرهبُه منذ طفولتي، إذ من بين الأحداث السيئة التي ترتبط بالشيخوخة كان هو بالضبط ما أخشاه أكثر. فلقد اعتقدت مرارًا في دواخلي بأني أجاوز الحدود، وأنني من السير كل تلك المسافة الطويلة لن أعْدم صدفة لقاء سيّء في طريقي. ظللْتُ أحس بقوة وأصرح عن طيب خاطر أن الوقت قد حان للرحيل، وأن من اللازم قطع الحياة «في المكان الحي والسليم» كما يقول الجرّاحون، حين يكون عليهم أن يبتروا عضوًا من الجسم؛ وأن الطبيعة اعتادت على أن تجعل من لا يعيدها إليها في وقتئذٍ يؤدي أرباحًا ربَوية. لكنها تصريحات واهية.

3. كنت غير مستعد كثيرًا للرحيل عن هذا العالم، بحيث مرت ثمانية عشر شهرًا أو ما يناهزها وأنا في هذه الحال البائسة، وقد تعلمت منذ مدة أن أتكيّف معها. لقد بدأت الاعتياد على هذا المغص الكلوي، وأجد فيه ما يواسيني وما يجعلني ذا أمل. فالناس مرتبطون عميق الارتباط

بحياتهم البائسة بحيث ليس ثمة من حال، مهما كان مؤلمًا، لا يقبلونها كي يحافظوا عليها. اسمعوا ما يقول مايكيناس رجل السياسة الروماني:

«فلْيبتروا رجلي
مصابًا بالنقرس، مُقْعَدًا
وليبتروا الجذور أيضًا
فقط أن أعيش، وهو أمر يروقني»[1].

كان تيمورلنك يخفي بحسٍّ«إنساني» الشراسة، التي كان يعامل بها المصابين بالجذام، إذ كان يقوم بإعدام كل مجذوم يبلغه خبر مرضه، كي يخلصهم من الحياة المضنية التي يعيشونها، حسب زعمه. ولم يكن مع ذلك من بينهم مَن لم يكن يفضّل أن يكون مُصابًا ثلاث مرات بالجذام على ألا يكون كذلك. حين ألمَّ المرض بأنتيستينيس الرواقي وتفاقم حاله صرخ: «من سيخلصني من آلامي؟». وبما أن ديوجينيس الذي جاء لعيادته قدّم له سكينًا قائلًا: «هاك السكين حالًا، لو رغبت في ذلك»، ردّ عليه أنتيستينيس: «أنا لا أتحدث عن الحياة، بل عن آلامي».

4. الآلام التي تلمُّ فقط بأنفسنا تحزنني أكثر من مما تحزن أغلب باقي البشر. وهو أمر يعود جزئيًا إلى التصور الذي لي عنها، ذلك أن الناس يعتبرون أن العديد من الأمور رهيبة وعلينا تفاديها، ولو دفعنا حياتنا ثمنًا لذلك، والحال أنها تقريبًا لا تهمني. بيد أن ذلك أيضًا يعود إلى طريقتي في الحياة، التي تتسم بكوني قليل الحساسية والاهتمام بالمآسي، التي لا تتصل بي مباشرة؛ وهي طريقة في الحياة أعتبرها من أفضل العناصر في طبْعي. بيْد أن الآلام القاسية حقًا، والواقعية والجسمانية أحسها بشكلٍ حادٍّ. ومع ذلك، وإذ إنني توقعتها في الماضي، بالنظر الضعيف الواهن الذي لطَّفته في الماضي الصحة والعافية، التي حباني بها الله طيلة مُجمل حياتي، فقد تصورتها في خيالي صعبة الاحتمال، بحيث كنت أخشاها أكثر مما كانت تسبّب لي الضرر. وهو ما يعزّز اعتقادي في أن ملَكات أنفسنا، وبالطريقة التي نستخدمها، تعمل على بلْبلة راحة حياتنا أكثر مما تخدمها.

(1) أبيات بلغتنا عن طريق سينيكا. حيث إن مايكيناس كان وزيرًا لدى الإمبراطور أغسطس وكان معروفًا بمساعدة الفنانين وخاصةً الشعراء.

مرض الحَصيّ

5. أنا الآن أصارع أسوأ الأمراض، أي أكثرها مباغتةً وأشدّها إيلامًا وأعْسرها علاجًا. وقد تعرضت لأربع أو خمس حالات حادّة منها أطول وأكثر ألمًا؛ لكني إما أخدع نفسي أو أن ثمة سبيلًا في هذه الحال للمقاومة لمن نفسه خالية من الرهبة من الموت، ولا تعير اهتمامًا للتحذيرات والتنبؤات والنتائج التي يصمُّ بها الطب آذاننا. فواقع الألم نفسه ليس من الحدّة والرهبة والمعاناة، بحيث إن رجلًا رصينًا يغدو مدفوعًا للغوص في الحنق واليأس. لقد استنتجت على الأقل هذه الفائدة من مغصي الكلوي، بحيث إنه سوف يقوم بما لم أستطع فعله بنفسي، أعني أن يصالحني كليةً مع الموت، ويجعلني أتفاهم معه. فكلما كثرت هجماته وإزعاجه كلما قلّ جزعي من الموت. لقد ربحت ما يلي: ألا أتمسّك بالحياة إلا لأني لا زلْت أحيا. وهو ما سوف يفكّك ذلك التفاهم البيّن، وفي النهاية، إذا ما انتصر عنفها على قواي، سوف تدفعني مشيئة الله إلى ذلك الطرف الآخر الذي ليس بأكثر سوءًا، أي أن أحب الموت وأرغب فيه.

«لا تخْشَ يومك الأخير ولا ترغبْ فيه»[1].

إنهما ضربان من الأهواء علينا الاحتراس منهما، غير أن أحدهما دواؤه أفضل من الآخر.

6. علاوة على ذلك، فقد أدركت الطابع المدّعي لذلك المبدأ، الذي يفرض على المرء بشكل صارم الصبر والجلَد إزاء المرض وتحمله بسلوك ازْدراء وهدوء. لماذا تعمَد الفلسفة، وهي التي لا تهتم إلا بالماهية الواقعية للأشياء، إلى إضاعة وقتئذٍ في هذه المظاهر الخارجية؟ فلتتركْ ذلك لعناية الممثلين وأصحاب البلاغة، الذين يُبدون اهتمامًا بالغًا بحركاتنا وسكناتنا. ولتجرؤْ على أن تسمح للألم بذلك الجبْن، ولتنسبْ تلك الشكاوى الإرادية لنوع الآهات والشهيق والارتعاش والشحوب، التي تتركها الطبيعة خارج مُتناولنا. فقطْ أن يظل القلب غير مرعوب،

(1) Martial (51), XLVII, 13.

والكلمات من غير يأس وأن تكون النفس راضية. ما همَّ أن نلْوي أذرعنا، فقط ألّا نلوي أفكارنا. الفلسفة تكوّننا لأجل أنفسنا لا لأجل الآخرين؛ ولكيْلا نُبدي عن أعراضنا. فلتكتفِ بالتحكّم في عقلنا، الذي أوجبت على نفسها أن تقوم بتعليمه. وأمام هجمات المغص الكلوي، فلتجعل النفس تتعرّف على ذاتها، ومتابعة مسيرها العادي بمحاربة الألم وتحمل هجماته، لا بالركوع بجبن له؛ وليحمِّسْها الصراع ويدفئْها لا أن تكون مهزومة ومضطربةً؛ وأن تكون قادرةً على التحاور مع شخص وأن تهتم بانشغالات أخرى؛ في حدود معينة طبعًا.

7. في ظروف عصيبة كهذه، يكون من الصعب أن يُطلب منا اتخاذ موقف بالغ التأثّر. فإذا كنا متحكّمين في الأمور، لا يهم أن تكون سحْنتنا سيئة. وإذا كان الجسد ينفّس عن ذاته بالشكوى، فليفعلْ ذلك. وإذا كان التقلب يلائمه فليستدرْ ما شاء ذلك ويتحركْ ما حلا له الأمر. وإذا ما بدا له أن الألم يتبدّد شيئًا ما بالصراخ العاتي (إذْ يقول بعض الأطباء أن ذلك يساعد النساء الحوامل على الوضْع)، أو إذا كان ذلك يخدع شيئًا ما العذاب، فليصرخْ. ليس علينا أن نأمر صوتنا بإسماع نفسه، لكن لنسمحْ له بالقيام بذلك. لا يكتفي إبيقوروس بالسماح لحكيمه بالصراخ من جراء آلامه، بل هو يوصيه بذلك. «فالمصارعون في العصور القديمة أنفسهم وهم يوجهون الضربات إلى خصومهم بمِجْلدهم[1] كانوا يئنّون لأن مجهود الصوت يصلّب الجسد كاملاً فتكون ضربتهم بذلك أعنف وأقوى». نحن معذّبون بما يكفي بالألم من غير أن نعذّب أنفسنا بقواعده النافلة. وإني أقول هذا لأولئك الذين نراهم عادةً يتحركون بهياج، عند صدمات هذا المرض وهجماته؛ فأنا قد استطعت تحمله بجلَد أكبر، إذ كنت أكتفي بالأنين من غير صراخ. وهذا لا يعني أني كنت أجْهد جَهْدًا كي أحافظ على مظهر لائق، فذلك لا يهمني كثيرًا. أنا أمنح للألم كل ما يرغب فيه؛ لكن، إمّا أن آلامي ليست عصيّة على التحمل، أو أنني أتحملها بحزم أكثر من الناس. وأنا أشكو وأتأسّى حين تخترقني الآلام الحادة، غير أني لا أبلغ حال اليأس، مثل هذا الرجل.

(1) قطعة جلد مجهزة بالرصاص كان رياضيو العصور القديمة يلوونها على يدهم في للصارعات.

«صرخات وأنين وعويل
تتعالى بصوت شاكٍ».

8. وإني في ذروة الألم أشعر بنفسي وأظلّ دومًا قادرًا على الكلام والتفكير، وعلى أن أجيب بتعقّل أكبر من أوقات أخرى، لكن ليس بثباتي المعهود لأن الألم يزرع فيَّ الاضطراب. وحين يحس الآخرون أن المرض قد هدّني فيعاملني من حولي برأفة، أحاول غالبًا استعادة قواي واستخدامها في الحديث عن موضوعات بعيدة عن حالي. وأنا أبلغ كل شيء بجَهد مفاجئ، لكن بشرط ألا يدوم ذلك طويلًا. آه، لو كانت لي ملكة ذلك الحالم لدى شيشرون، الذي حلم أنه يضاجع فتاة، وأدرك أنه تخلص من «حصاته» في السرير. وفي الفواصل بين هذه الآلام العاتية حين تهدأ مجاري البوْل فيَّ وتتوقف عن نخْري، أستعيد فجأة حالي العادي، باعتبار أن نفسي لا تنفعل إلا بالإنذارات المحسوسة والنابعة من الجسد، وهو ما أَدين به بالتأكيد للعناية باستعدادي بالتفكير لمواجهة هذه الحوادث.

9. ومع ذلك فقد عانيتُ أكثر مما يعانيه مبتدئ، إذ أن التغيير كان مباغتًا وبالغ القساوة. ومن حياة هادئة وسعيدة هَأنا أغوص فجأة في ألم حياة أضنى مما قد أتصوّر. فعدا أن هذا المرض مرضٌ عُضال في ذاته، فقد ألمّ بي بشكل أعنف وأشقَّ من العادة. تنتابني الأزمات بشكلٍ مستمرٍ، بحيث لا أحس بنفسي إلا نادرًا في صحة جيدة. وأنا أحافظ لحد الآن مع ذلك على عقلي في حال توازن، فقط عليَّ أن أعزّزه بالثبات؛ وهكذا أعيش بالأحرى في ظروف حياة أفضل مئات المرات من حياة أناس آخرين غير مُصابين بالحمّى، ولا ألمَّ بهم مرض سوى المرض الذي يصيبون به أنفسهم، بفعل تفكيرهم الدقيق.

10. ثمة نوع من التواضع الخفيّ يجد مصدره في الادّعاء، وهو هذا: حين نعترف بجهلنا في العديد من الأمور، ونكون من النزاهة لكي نعترف بأن في صنائع الطبيعة، مزايا وطرائق للوجود لا يمكننا إدراكها، ولا يستطيع علمنا أن يكتشف وسائلها وعللها، ففي هذا التصريح الصائب والوجيه، يوجد الأمل بأن الناس سيصدقوننا، بخصوص الأمور التي

نزعم معرفتها. ما فائدة أن نسعى للبحث بعيدًا عن معجزات وصعوبات غريبة عنا؟ يبدو لي أن من بين الأشياء التي نرى يوميًا، ثمة أشياء غريبة ومستعصية على الفهم، بحيث إنها تُجاوز كثيرًا غموض المعجزات.

الوراثة

11. يا للمعجزة أن تحتوي النُطفَة التي وُلدنا منها ليس فقط أشكال آبائنا، وإنما طرائق تفكيرهم ونوازعهم. هذه النطفة، أين تضع هذا العدد الذي لا يُحصى من الأشكال؟ وكيف تتمكن تلك الأشكال من نقل التشابهات بشكل اعتباطي وغير منتظم، بحيث إن الحفيد الثالث يشبه جده الثاني، ويشبه ابن الأخ عمه؟ في روما، وُلد أعضاء عائلة ليبّيديوس كلهم بالعين نفسها يغشاها غضْروف، وليس ذلك تباعًا، وإنما بفواصل بين الواحد والآخر منهم. وفي طيبة، كان ثمّة عائلة يحمل فيها أفرادها، منذ خروجهم من بطن أمهم، سِمة في شكل رأس رمح، ومن كان لا يحمل تلك السمة يعتبر ابنًا غير شرعي[1]. يقول أرسطو إن لدى شعب من الشعوب كانت النساء مشاعًا بين أفراده، كان يتم نسب الابن للأب تبعًا للتشابه بينهما.

12. عليّ الاعتراف أني أدين لأبي بهذا التهيؤ لمرض «الحُصَيَّة»، ذلك أنه توفي في ألم عظيم بسبب حُصَيَّة كبيرة كانت في مثانته. ولم ينتبه لمرضه إلا وهو ابن السابعة والستين، وهو لم يحس قبل ذلك بأي خطر أو علامة على ذلك، لا في الكليّ ولا في الجنب ولا في مكان آخر. فلقد عاش حتى ذلك الوقت بصحةٍ وافرةٍ، بحيث لم يُصبْ إلا قليلًا بالمرض، وعاش سبع سنوات أخرى مُعانيًا من هذا المرض، بحيث عاش نهاية حياة مؤلمة. أين إذًا يمكن أن يُقيم كلّ هذا الوقت التهيؤ لهذا المرض؟ وحين كان لا يزال بعيدًا عن هذا المصاب الذي ينتظره، كيف أن هذه القطعة الصغيرة التي أورثني إياها من ماهيته، كان يمكن أن تحمل سمة بهذه القوة؟ وكيف أنها كانت بهذا الخفاء، بحيث إني بدأت أحس بها أربع أو خمس

(1) استقى مونتيني هذه القصة من بلوتارخوس، والأولى من بلينيوس.

سنوات بعد وفاته، أنا الوحيد من بين إخوتي وأخواتي العديدين، ومن الأم نفسها[1]؟ ومن سينوّرني بخصوص انتقال هذا الميراث. سأعتقد في أي معجزة أخرى سيقولها لي. أتمنى فقط، كما يتم عادةً، أن يُقدَّم لي تفسير أكثر إعجازًا وأصعب على التصديق من المرض نفسه!

النُّفور من الطبّ

13. ليسمحْ لي الأطباء ببعض الحرية؛ فمن هذا الطبْع الذي حباني به القدر أستقي النفور والقرف إزاء علمهم. وكراهيتي لعملهم تعود إلى الوراثة. لقد عاش أبي أربعًا وسبعين سنة، وجدي تسعًا وستين سنة من غير أن يتناولا أي دواء كان. فهما كانا يعتبران أن كل ما يخرج عن الاستعمال العادي يعتبر عَقارًا من العقاقير. يتشكّل الطب من خلال الأمثلة والتجارب، وذلك هو ما يسري على رأيي. أوَليس ذلك تجربة واضحة ومقنعة؟ لا أدري إن كان الأطباء سيجدون في سجلاتهم ثلاثة أشخاص وُلدوا وتربوا وماتوا في البيت نفسه، تحت السقف نفسه قد عاشوا طويلًا متبعين قواعدهم فقط. عليهم بالضرورة أن يتفقوا معي في هذا: فإذا لم يكن العقل يقف بجانبي، فالحظ على الأقل يُحالفني. لكن الحظ لدى الأطباء يحظى بأهمية أكبر من العقل. وأتمنى ألا يأخذوني الآن كمثال لصالحهم وأنا مريض كما ترى، فسيكون ذلك ضربًا من الشَّطَط. والحقيقة أني كنت دومًا متفوقًا عليهم بما يكفي بنماذجي العائلية، وإن توقفت تلك النماذج عندي. الأمور الإنسانية لا تستمر طويلًا، ومع ذلك، فمنذ مئتيْ سنة -لا يخصنا لاستكمالها إلا ثمانية عشرة سنة- ونحن نسعى للعيش هكذا، لأن جدي ولد في عام ألف وأربعة مئة واثنين. ومن العادي إذًا أن هذه التجربة بدأت تبلغ نهايتها. فلا يأتِ الأطباء إذًا لكي يؤاخذوني بالأمراض التي تلم بي بحدّة. أفَليس كافيًا أنني عشت بصحة جيدة خلال سبع وأربعين سنة؟ وحين سأبلغ نهاية الطريق سيكون ذلك لي نهاية الطريق، وسيكون قد دام بما فيه الكفاية.

(1) لا يتحدث مونتيني عن أمه إلا بشكل نادر، مرتين فقط في «المقالات» كلها.

14. كان أسلافي يمقتون الطب باستعدادٍ خفيٍ وفطريٍ. فرؤية الأدوية كانت ترعب أبي. وعمي القس، السيّد دو غافْياك الذي ظل يعاني من المرض منذ ولادته، والذي رغم ذلك أطال تلك الحياة البلهاء حتى السابعة والستين عامًا، أصيب يومًا بحمى خطيرة وعنيفة ومستمرة. قرّر لنا الأطباء أن نخبره إنه إن لم يردْ أن يعين نفسه بنفسه -وهم يسمون «إعانة» ما يكون عادةً عبارة عن امتناع- فإنه سيموت حتمًا. بيْد أن الرجل الطيب بالرغم من أنه ارتعب من هذا الحكم الرهيب صرح قائلًا: «لقد متُّ إذن». لكن بعدها بقليل جعل الله تلك النبوءة باطلة.

15. كان السيد دو بوساغي، آخر الإخوة الأربعة، الوحيد الذي أخضع نفسه لفن الطب، ويبدو أن ذلك راجع إلى العلاقات التي كان يُقيمها مع «الفنون» الأخرى، لأنه كان مستشارًا بديوان مجلس النواب. ولم يُفده ذلك كثيرًا بالرغم من تكوينه الجسماني القوي، بحيث إنه توفي مع ذلك وقتًا طويلًا قبل إخوته الآخرين إلا واحدًا منهم، هو السيّد دو سانت ميشيل.

16. من الممكن أني ورثتُ عن أجدادي هذا النفورَ الفطريَ من الطبِّ، لكن لو تعلق الأمر فقط بذلك، لكنت سعيت جاهدًا كي أتغلّب عليه؛ ذلك أن كل النوازع التي تولد فينا من غير سبب سيئةٌ، إذ هي ضرْبٌ من المرض الذي يلزم التغلب عليه. وإذا ما كان ممكنًا أن لي هذا الميْل فإني لم أكف عن تشذيبه وتعزيزه بالاستدلالات العقلية، التي زرعت فيَّ الرأي الذي أومن به اليوم. فأنا أمقت أيضًا تلك الطريقة التي بها يرفض بعضهم دواءً نظرًا لمرارته، وسأعتبر بالأحرى أن الحياة تستحق أن تُشترى بجميع أنواع الكيّ والجراحة الأكثر إيلامًا التي يمكن أن نخضع لها. وحسب إبيقوروس، يبدو أن من اللازم تفادي الملذّات إذا ما كانت ستحمل معها في ما بعد آلامًا وعذابًا أكبر، وأن الآلام يلزم السعي إليها إذا ما هي كانت تفضي إلى ملذاتٍ أكبر منها.

17. الصحة شيءٌ ثمينٌ، وهي الوحيدة التي تستحق في الحقيقة أن نُضيّع ليس فقط الوقت والجَهد والخيرات، بل حياتنا أيضًا، كي نسعى للتمتّع بها؛ خاصة وأن من دونها تغدو الحياة مُضْنية لنا ولا تُحتمل. فمن دون الصحة تكبو اللذة والحكمة والمعرفة والفضيلة وتتبدّد. أما أصلب الاستدلالات العقلية وأوثقها، التي تسعى الفلسفة من خلالها إلى أن تقنعنا بالعكس، فليس علينا أن نعارضها سوى بصورة أفلاطون وقد ألمّ به الصرَع وأصيب بسكتةٍ دماغيةٍ، وأن نتحداه بأن يدعو لنجدته الملكات الغنية التي حظي بها نفسه. لا يمكن أن نقول عن كل سبيل يمكن أن يفضي بنا إلى الصِحّة: إنه عسير أو باهظ الثّمن. وأنا لا أدعّي أننا لا يمكننا أن نستخلص منه شيئًا مفيدًا، فمن الأكيد أن ثمة في تنوع ما تمنحه لنا الطبيعة أشياء تساعد على الحفاظ على صحتنا.

18. وأنا أعني أن هناك أعشابًا مرطِّبة وأخرى مجفِّفة. فأنا أعرف بالتجربة أن الفجل الحارّ يسبب الهواء المعوي، وأن أوراق عشبة السّنا مثيرة للإسهال. بالشكل نفسه، أعرف أيضًا أشياء كثيرة، مثلًا، أن الخروف يغذيني والخمر يسخّنني. كان سولون يقول: إن الطعام مثل كافة الأدوية الأخرى دواء ضد مَرض الجوع. وأنا لا أنكر الاستعمال الذي يمكننا القيام به للأشياء التي نستخلصها من الطبيعة، ولا أشكك في قوتها وخصوبتها، ولا في كونها يمكن أن تلائم حاجاتنا. فأنا أعرف مثلًا أن سمك الكراكي والخطاطيف، تستفيد من ذلك أيّما استفادة. بيد أني أحذر من بِدَع عقلنا، ومن علمنا ومهاراتنا، إذ أننا لصالح ذلك تركنا الطبيعة وقواعدها، ونحن لا نعرف القيام بها لا باعتدال ولا في حدود معينة.

19. إننا نسمي «عدلًا» الترميق الذي نقوم به للقوانين الأولى التي تقع بين أيدينا؛ بحيث يكون تطبيقها غالبًا اعتباطيًا وغير عادل، وأولئك الذي يستهزئون بالعدل ويعيبونه لا يبتغون مع ذلك الاستهزاء بهذه الفضيلة النبيلة، وإنما فقط التنديد بالشطَّط في استعمال هذه الكلمة المقدسة وتدنيسها. وأنا أقوم بالشيء نفسه إزاء الطبّ. فأنا أكرّم كما يلزم هذه الكلمة المجيدة وما تقترح وما تعِد به، من حيث هي مفيدة للبشرية؛ بيد أن ما يقدَّم لنا واقعيًا من كل هذا لا أكرّمه ولا أقيم له وزنا.

20. التجربة هي ما تجعلني متوجّسًا؛ فحسب ما أعرف، لا أرى ثمّة شخصًا يمرض باكرًا ويبرأ متأخرًا غير ذلك الذي يخضع لشريعة الطب. فصحته تصبح عليلة بفعل الإكراه الناجم عن أنواع الحمْية. والأطباء لا يكتفون بالسيادة على المرض، بل إنهم يجعلون الصحة نفسها عليلة، كي يجعلونا لا نستطيع الانفلات من سطوتهم. أليسوا يرون في الصحة المزدهرة والدائمة علامة مرض خطير مقبل؟ لقد سقطتُ مرارًا مريضًا، وكنت أجد الأمراض -وأنا قد ألمت بي تقريبًا جميع أنواع المرض-من غير معونتهم أكثر لطفًا في التحمّل وأقصرها مدّةً مما هي لدى أي واحد آخر. وأنا على الأقل لم أضف لها مرارة محلولاتهم. الصحة لديَّ حرة وتامة، لا قواعد لها ولا نظام غير نظام عوائدي ومتعتي. فكل مكان يحلو لي أن أتوقف فيه في سفري، لأني حين أكون عليلًا لا حاجة لي بوسائل الراحة، إلا راحة ما ينبغي لي حين أكون في صحة جيدة. وأنا لا أقلق أن أجد نفسي في تلك الحالة من غير طبيب ومن غير صيدلي ومن غير نجدة، إذ إني أرى أن أغلب الناس الآخرين يعيشون مصيبة ذلك الغياب، أكثر مما ألمَّ بهم من مرض. أيُبْدي لنا الأطباء أنفسهم عن طول عمر وسعادة يمكنهما أن يمنحانا دليلًا قاطعًا على علمهم؟

21. ليس هناك من شعب لم يعِش قرونًا عديدةً من غير طب، وتلك كانت القرون الأولى لوجود البشرية، أي الأفضل عيْشًا والأسعد. واليوم من يستعملون الطب لا يُجاوزون عُشُر سكان العالم. ثمة العديد من الشعوب لا تعرف الطب، وهي تعيش حياتها بشكل أكثر سلامة ويعمّر أناسها أطول من الناس لدينا. بل حتى لديْنا، لا يلجأ له أناس الشعب. لقد قضى الرومان ستمئة سنة قبل أن يتعاطوه، لكنهم بعد أن جربوه طرده كاتو الرقيب من المدينة مبرهنا بذلك على سهولة التخلي عنه. بل إنه هو نفسه عاش أربعًا وثمانين عامًا، وجعل زوجته تعيش حتى سنّ متقدّمة جدًّا، لا من غير طبّ طبعًا، وإنما من غير طبيب؛ ذلك أن كل شيء يكون صحيًا لوجودنا يمكننا تسميته «طبًّا». فلقد قال عنه بلوتارخوس: إنه كان يهتم بصحة عائلته بتناول الأرنب البرّي. كان أناس أركاديا، كما يقول بلينيوس، يُداوون كل الأمراض بحليب البقر؛ والليبيون، حسب هيرودوتس، كانوا يتمتعون عمومًا بصحّة جيّدة بسبب هذه العادة: فحين

يبلغ أبناؤهم أربع سنين، يكوون لهم عروق الرأس والصّدغيْن، بحيث يقطعون الطريق بذلك طيلة حياتهم على كل إصابة بالزكام. وقرويّو هذا البلد لا يستعملون غير أشدّ الخمور قوة لديهم ممزوجّةً بالزعفران والبهارات، في حال أي مرض كان؛ وكل ذلك بالنجاح الصحّي نفسه.

22. وفي الحقيقة، أيّ غاية وأيّ تأثير نتوخّاه من كثرة هذه الوصفات الطبية المتناقضة سوى أن نفرغ بطننا؟ وهو ما تستطيعه مئات الأعشاب الطبية من بلْدتنا. وأنا لا أدري حتى إن كانوا على حق في القول إن جسدنا ليس بحاجة للحفاظ على فضلاته: ربما، حتى حدّ معيّن، مثل الخمر بحاجة إلى تَفلهكي يختمر. ونحن نرى عادةً أناسًا في صحة جيدة يصابون بالقيْء أو الإسهال لسبب عرضي غير معروف، بحيث يفرزون فضلات كثيرة من غير ضرورة لذلك ولا من غير فائدة منتظَرة، بل بالعكس مع إمكان تدهور حالهم. وإني تعلمت من أفلاطون العظيم[1] في ما مضى أن في الحركات الثلاثة التي تعتمل فينا، الأخيرة والأسوأ هي تطهير البطن، فلا أحد عليه أن يقوم بها، إذا كان سليم العقل، إلا عند الضرورة القصوى. فنحن نُنْهض المرض ونثيره من خلال معارضته. ومن اللازم أن تكون طريقة الحياة هي التي تقوم بهدْهدته وتقوده إلى نهايته. فالمشادّات العنيفة للعقاقير والمرض تكوندومًا في غير صالحنا، لأن الصراع بينها يتم في داخلنا، ولأن الدواء ليس منجدًا يمكننا أن نعتمد عليه، بل هو بطبيعته عدوّ صحّتنا، ولا يلج بواطننا إلا بواسطة قلقنا.

23. لنتركْ إذًا الأمور تسير على حالها. فالنظام الذي يسهر على البراغيث والجرذان هو الذي يسهر على بني آدم، الذين يبرهنون عن الصبر نفسه في أن يكونوا مسيَّرين مقدار ذلك الذي لدى البراغيث والجُرذان. لقد تعبنا من الصراخ بالتقدّم في المسير، ولم نتقدّم قيْد أنملة. بل بُحَّت حناجرنا. فالنظام الذي يسيّرنا متكبّر وغير رحيم. وخوفنا ويأسنا يغيّر مسيره ويُثنيه عن معونتنا، عِوَضًا عن يدعوه لذلك. عليه أن يترك المرض يتابع عمله، كما يفعل ذلك مع الصحة. ولن يمهل لصالح هذا أو ذاك، إذ لن يكون حينئذٍ «نظام» بل فوضى. لنتّبعْه بحق الرب، فهو يقود من

(1) في محاورة «تيمايوس»، فمونتيني قرأها بترجمة مارسيليوس فيكينوس.

يتّبعه، ومَن لا يتّبعونه يقوم بجرّهم بالقوة ومعهم حَنَقهم وطبُّهم. قوموا بتطهيرٍ دماغكم، فسيكون ذلك أفْيَد لكم منْ التطهير الطبي لمعدتكم.

24. حين سُئل رجل إسبرطيٌّ عمّا مكّنه من العيش طويلًا وفي صحّة جيدة، كان جوابه: «عليك بتجاهل الطب». وكان الإمبراطور هادريانوس يصرخ باستمرار وهو يُحتضر أن جمهرة الأطباء هي التي قتلته. قام أحد المصارعين الفاشلين بالاشتغال بالطب، فقال له ديوجينيس: «تشجّع، فأنت على حق؛ سوف تطرح أرضًا كل من طرحوك أرضًا في ما قبل»[1].

25. لكن حسب نيكوكليس، للأطباء هذا الحظ في أن تنير الشمس نجاحهم وأن تخفي الأرض خطاياهم. بالإضافة إلى ذلك فلهم طريقة مميزة في استغلال كافة الحوادث، ذلك أن القدَر والطبيعة أو أي سبب غريب (وعددُها لا يحصى) تنتج فينا الحياة والموت، وميزة الطب أنه يستحوذ على ذلك لحسابه الخاص. فكل النجاحات العديدة التي تحدث للمريض خلال حميته تعود إليه. وما يُشفيني أنا ومئات الآخرين مثلي ممّن لا يطلبون عوْن الطب، يستحوذون عليه ليحسبوه لصالحهم. وحين يتعلق الأمر بأحداث مؤسفة، يكذّبونها كليةً بنسْب الخطأ للمريض، بعِلل غير مقنعة تمامًا بحيث لا يمكنهم إلا أن يجدوا لنا ما يكفي منها، مثل هذه: كشف ساعده، وسمع صوت عربة=

«مرور العربات
في منعطفٍ ضيّق من زقاق»[2].

=فُتحت نافذته، تمدّد على جنبه الأيسر، مرت بذهنه أفكار مضْنية. بالجملة، فحلم أو غمزة، تبدو لهم ذريعة كافية لأن ذلك «ليس خطأهم». أو إنهم حين يحلو لهم، يحوّرون تفاقم مرض العليل لصالحهم، باستعمال هذه الوسيلة التي لا تخطئ هدفها أبدًا: أن يطمئنونا حين يتعزّز المرض بعلاجهم، أن الأمر كان سيكون أسوأ من غير أدويتهم. وذلك الذي جعلوه يمرُّ من زكام حادّ إلى نزْلات حمى

(1)Diogène Laerce (45), VI, 62.
(2)Juvénal (42), III, 236.

مرتفعة يومية يجعلونه يتوهّم أنه كان سيصاب بحمّى مزمنة. وهم لا يهمهم أن يقوموا بعملهم بشكل سيء، بما أنهم يتوصّلون إلى الربح من الأضرار التي يتسبّبون فيها. فهذه الثقة يلزم أن تكون من غير حدود وليِّنة، حتى تنطبق على تدخلات طبية صعبٌ تصديقُها.

26. كان أفلاطون على حقٍّ في القول: إن الأطباء وحدهم يحق لهم الكذب بحرية تامة، لأن خلاصنا يرتهن بغرور وعودهم وزيْفها[1]. وأيسوبوس، وهو مؤلف نادر التميز، والذي ما انتبه الناس كافة إلى روْعته إلا لِمامًا، يصف لنا بشكل جميل هذه السطوة المتجبّرة التي يمارسونها على النفوس الضعيفة التي هدّها المرض والخوف. فهو يحكي أن مريضًا، حين سأله طبيب عن الأثر الذي تركته الأدوية عليه، ردّ عليه قائلًا: «لقد عرقْت كثيرًا». فقال له الطبيب: «إنه لأمر حسن». وفي مرة أخرى سأله من جديد عن حاله منذ المرة الأخيرة، فأجاب: «لقد أحسست ببرد شديد، وبرعشة كبيرة». فأضاف الطبيب: «إنه لأمرٌ حسن». وحين سأله للمرة الثالثة عن حاله، أجابه المريض: «أحس بنفسي منفوخًا كما لو أن بي داء الاستسقاء»، فقال له الطبيب: «إنه لأمر جيد». وحين جاءه أحد الخدم بعد ذلك ليسأله عن حاله أجابه: «في الحقيقة يا صديقي، من كثرة ما أني في حال جيدة أنا أحس بالموت».

27. كان في مصر قانون عادل يفرض على الطبيب أن يتكفّل بالمريض في الأيام الثلاثة الأولى على مسؤولية المريض، وبعد الأيام الثلاثة الأولى يكون ذلك على مسؤولية الطبيب. أيُّ سبب يقف وراء كون آسكيليبيوس*[2]، رئيسهم، قد قتلته الصاعقة لأنه أعاد هيبوليتي للحياة=

"لكن يوبيتر الأعظم وقد كان ساخطًا من أن رجلًا فانيًا
عاد من ظلال جهنم إلى أنوار النهار
وهو نفسه رماك بالصاعقة في مياه نهر سْتيكس
يا ابن فيبوس، الذي صنع هذا الفن وهذا الدواء"[3].

---

(1)Platon, **République**, III.

(2) * إله الطب لدى الإغريق، وقد جرى لاحقًا إطلاقه على إمحوتب المصري وهو المشار إليه هنا.

(3)Virgile, (112), VII, 770-773.

=وأن يتم الغفران لتابعيه، هم الذين يرسلون أنفسًا عديدة من الحياة إلى الموت؟

28. كان طبيب يتباهى بفنه إزاء نيكوكليس، زاعمًا أنه ذو فاعلية كبرى. فقال له هذا: «حقًا، الأمر أكيد، لأنه يمكن أن يقتل بلا عقاب الكثير من الناس». بل إني لو كنت طبيبًا من بين الأطباء، لكنت جعلت من علمي أكثر قدْسية وأشدَّ عجبًا. لقد بدأوا بشكل جيّد لكنهم انتهوا بشكل سيء. كانت بداية حسنة أنهم جعلوا من الآلهة والشياطين مصدر علمهم، واستعملوا لغةً خاصةً وكتابة خاصة؛ مع أن الفلسفة تعتقد أن من الحمق تقديم نصيحة لشخص في صيغة غير مفهومة: «**كما لو أن طبيبًا أمر مريضًا أن يتناول ابن غبراء يمشي على العشب حاملًا بيته على ظهره وخالٍ من الدم**»[1].

29. إن ثقة المريض يلزمها أن تتصوّر بأملٍ ويقين الأثر الناجم عن عمليات الأطباء، فتلك قاعدة أساسية في فنهم، وهي قاعدة موجودة في كل الفنون الوهمية الزائفة والخارقة. وهم يحترمون تلك القاعدة، بشكل يجعلهم متيقّنين أن أكثر الأطباء جهلًا وفظاظة، هم أكثر نجاعة لمريض واثق به من طبيب محنّك لكنه لا يعرفه. وحتى الاختيار الذي يقومون به لعقاقيرهم، فيه شيء عجيب وربّاني. الرجْل اليسرى لسلحفاة، وبوْل سحْلية وروث فيل وكبد جُرَذ والدم المأخوذ من الجناح الأيمن لحمامة بيضاء. أما نحن المريضين بالمغص الكلوي من كثرة استغلالهم لبؤسنا، فإنهم يصفون لَنا براز الفئران مسحوقًا، وغيرها من المسْخرات من النوع نفسه تجعلنا نفكر في سحْر ساحر منه في علم راسخ. وأنا أترك جانبًا العدد الوِتْر لحبوبهم والقيمة المشؤومة لبعض الأيام وبعض الأعياد في السنة، والساعات التي يلزم احترامها لجمع بعض الأعشاب لعقاقيرهم، وذلك المظهر الخارجي المملّ لهم، وذلك التأنيب للضمير الذي يسخر منه بلينيوس نفسه.

30. لكنهم أخطأوا في رأيي في أنهم لم يضيفوا، لما كان عملًا حسنًا، السرّيّة

(1) يتعلق الأمر طبعًا بالحلزون.

والتديّن في تجمعاتهم وفحوصهم. فلا أحد كان عليه حضورها، ولا أيضًا المراسم السرية لإله الطب آسكيليبيوس. هذا الخطأ جعل تردّدهم وضعف أدلّتهم وتكهناتهم ومبادئهم ومرارة مناقشاتهم المشحونة بالكراهية والحسد والنزاعات بين الأشخاص وكل هذا على مرأى ومسْمَع من الكل، المرءَ يحسّ بالخطر وهو بين أيديهم بحيث يلزم المرء أن يكون أعمًى، كيْلا يحسّ ذلك. مَن منكم رأى طبيبًا يستعمل الدواء نفسه كزميله، من غير أن يضيف له أو يحذف منه عنصرًا؟ إنه أمر يكشفهم ويبيّن جيدًا أنهم مهتمون بسمعتهم، ومن ثمَّ بالربح منه أكثر من إيلائهم اهتمامًا بمصلحة المريض. والمعلم الأكبر الذي علمهم في الماضي أن طبيبًا واحدًا، يلزم أن يهتم بالمريض كان رجلًا حكيمًا. فذلك لأنه إذا لم يقم بشيء ناجع، لا يمكننا أن نؤاخذ على ذلك الطب، لأن الأمر يتعلق بخطأ طبيب واحد. بالمقابل، إذا هو نجح في العلاج، فهو أمر سيشرّف الطب أجلّ تشريف. وحين يكونون أطباء عديدين، تراهم غالبًا ما يرمون باللائمة على المهنة، خاصةً وأنهم في الغالب ما يقومن بالشر أكثر من الخير. وهمْ عليهم التكيُّف مع الاختلافات الدائمة في الرأي بين المعلمين الكبار لهم وبين المؤلفين القدماء الذين كتبوا في هذا العلم، وهو اختلاف لا يعرفه غير الناس العارفين بالكتب، من غير أن يكون الشعب على معرفة بالجدل القائم وبالتقلُّب في الأحكام التي يعيشونها في ما بينهم باستمرار.

31. هلْ علينا أن نقدّم مثالًا عن النقاش الذي عرفه الطب منذ العصور القديمة؟ كان هيروفيلوس يجعل سبب الأمراض في الأمزجة[1]. ويجعله إراسيستراتوس في دم الأوردة؛ وأسكليبيادوس في الذرات غير المرئية التي تنضح بها مسامنا؛ وألكاميون في فرط قواتنا الجسمانية أو نقصها؛ وديوكليس في عدم توازن عناصر الجسم، وفي جودة الهواء الذي نتنفس؛ وستراتون في وفْرة أطعمتنا وطابعها الطازج أو الفاسد؛ وأبقراط في «الأجسام اللطيفة». أحد أصدقائهم القدامى[2]، الذي يعرفونه أفضل مني، صرخ بهذا الصدد أن العلم الأهم الذي نستعمل،

(1) فقد اعتبر القدماء فعلاً أن ثمة في الإنسان أربعة أمزجة أساسية: الدم والبلغم والصفراء والسوداء (أي الليلنخوليا).
(2) بلينيوس الكبير أو القديم.

والذي يتكفّل بالحفاظ علينا في صحة جيدة، هو للأسف الأقل وثوقًا والأغمض، والأشدّ عرضةً للكثير من التغيرات. ليس ثمة من خطر إذا نحن أخطأنا في علوّ الشمس أو في جزء من حساب فلكي معيّن؛ لكن هنا، حيث يتعلق الأمر بسلامة حياتنا، ليس من المُجدي أن نسْلم أنفسنا لرحمة هذه الرياح الكثيرة الهوجاء التي تتلاطم ببعضها البعض.

32. قبل الحرب البيلوبونيسية لم يكن أحد قد سمع بهذا العلم، وكان أبقراط هو من منحه مجْده[1]. وكل ما أرساه هذا الأخير جاء خريسيبّوس فقلبه. ثم إن إراسيستراتوس حفيد أرسطو قام بالشيء نفسه مع ما كتب خريسيبّوس في هذا المضمار. وبعدهم جاء الأمبريقيون الذين نهجوا سبيلًا مختلفًا عن القدماء في استعمال هذا الفن. وحين بدأت سمعة هؤلاء تشيخ، قام هيروفيلوس بإشاعة استعمال نوع آخر من الطب، وجاء بعده أسكليبّيادوس[2] لمحاربته وإعدام ذكره بدوره. ثم إن الحظوة راحت بعد ذلك لآراء ثيميسون[3] ثم آراء موسى، وأخيرا آراء فيكسيوس فالنس الطبيب الروماني الشهير بعلاقته بميسّالينا زوجة الإمبراطور كلوديوس الثالثة. وفي عهد نيرون عادت إمبراطورية الطب إلى ثيسالوس الطبيب الإغريقي، الذي حطّم كل ما كان يُعتبر صحيحًا قبله. ثم إن مذهب هذا الأخير أبطله كريناس المارسيلي الذي أعاد الحظوة للطب المعتمد على التقويم الفلكي وحركة الكواكب، والأكل والشرب والنوم في الساعة التي تلائم القمر وعطارد. غير أن نفوذه سوف يعود بعده لشارينوس، وهو طبيب من مرسيليا أيضًا، كان يحارب ليس فقط الطب القديم، وإنما أيضًا الاستعمال الشعبي والقديم للحمام الساخن. كان يجعل الناس يستحمون في الماء البارد حتى في عزّ الشتاء، ويغمس المرضى في الماء الطبيعي للغُدْران.

33. حتى زمن بلينيوس، لم يكن أي روماني قد تجرّأ على الاشتغال بالطب. فقد كان يقوم بذلك أجانب ويونانيون، كما أنه يُمارَس لدينا نحن

(1) إنا لم يكن أبقراط هو من ابتكر الطب، فهو على الأقل الذي تمكّن من المعرفة الطبية لعصره وطبقها.
(2) كان أسكليبيادوس شهيرا في عصره (224-96 ق م).. وقد كان معارضًا لمنهج أبقراط.
(3) تلميذ أسكليبيادوس، تبنى الطب التجريبي. (القرن الأول ق. م).

الفرنسيين من أناس لا يتحدثون إلا اللاتينية. فكما يقول طبيب كبير[1] نحن لا نقبل بسهولة الطبّ الذي نفهم، بالشكل نفسه الذي لا نقبل بالعقاقير التي نجمع أعشابها بأنفسنا. إذا كانت الشعوب التي سنبحث لديها عن نبتة عود الأنبياء (الغاياك)[2] والفُشاغ[3] وخشب السكينا[4]. فلهم أيضًا أطبّاء، فأي أهمية نعتقد أنهم يولونها للكرْنب والبقْدونس لدينا بسبب ندرتهما وغرابتهما وغلائهما؟ مَن سيتجرأ على ازدراء أشياء جاء الناس بحثًا عنها من بعيد، مع ما يتطلّبه ذلك البحث من سفر طويل مطبوع بالتعب ومحفوف بالمخاطر. منذ التغيرات القديمة التي تحدثت عنها آنفًا، عرف الطب عددًا لا يحصى من التحولات كانت عمومًا جذرية وشاملة، كما تلك التي في زمننا، تعود لباراسيلسوس وفيورافنتاني وأرجنتيريو. فهم لا يغيرون صيغة الدواء فقط، حسب ما قيل لي، بل التنظيم العام بكامله للهيئة الطبية، متهمين بالجهل والغش كل من جعلوا من ذلك مهنة لهم قبلهم. وأترك لكم التفكير في موقع المريض المسكين من كل هذا.

34. ولو كنا على الأقل واثقين من أنهم، حين يخطئون، لن يكون لذلك ضرر علينا إذا لم يكن له من فائدة لنا، فسيكون من باب الصفقة المعقولة أن نخاطر بالتحسُّن في حالنا من غير المخاطرة بفقدان شيء ما. يحكي إيسوبوس حكاية ذلك الرجل الذي اشترى عبدًا، معتقدًا أن لون بشرته الأسمر جاءه من حادث أو تعامل سيء من سيده السابق، فاتبع معه علاجًا صارمًا، وبمحلولات وحمامات علاجية. وما حدث هو أن العربي لم يتغير لونه الأسمر، بل فقد عافيته تمامًا.

35. كم مرة حدث أن رأينا الأطباء ينسبون لبعضهم البعض مسؤولية وفاة مرضاهم؟ أتذكّر وباءً خطيرًا وقاتلًا ألمَّ بمدن قريبة من منطقتنا من سنوات قليلة. وبعد مرور هذه العاصفة، وبعد أن حصدت عددًا لا يحصى من الأرواح، قام أحد أشهر الأطباء بالمنطقة بنشر كتيّب عن المسألة، وفيه

(1) هذا الفحوى قريب مما قاله كورنيليوس أغريبا.

(2) مأخوذ من شجرة في بلاد الأنتي، ويستعمل ضد مرض الزّهري.

(3)عشب من بلاد الأنتي كانت تستعمل جذوره لتيسير التبوّل بالأخص.

(4) شجر من آسيا تعتبر جذوره صالحة لمداواة التهاب المفاصل.

يعترف للتوّ بأن أحد الأسباب في تلك الكارثة يتمثّل في عمليات الحِجامة التي مارسها الأطباء في تلك المنطقة. والمؤلفون في مجال الطب يؤكدون أن ليس ثمة دواءً لا يحمل جانبًا ضارًّا؛ بل إن ذلك الذي يكون مفيدًا لنا يُضرّ بنا. فما القول في تلك التي تُفرض علينا بشكل خطأ تمامًا؟

36. أما أنا، فحين لا يتعلق الأمر إلا بهذا، أعتقد أن من يكرهون مذاق الأدوية، سيكون جهدًا مُجازفًا ومضرًّا بهم أن يتناولوا دواءً في وقت غير مناسب وغصبًا عنهم. وأنا أعتقد أن ذلك ينهك المريض كثيرًا، خاصةً حين يكون بحاجة للراحة. علاوة على ذلك، فحين نتفحّص في الظروف التي يُقيمون عليها عمومًا عِلل أمراضنا، نجد أنها بالغة الضعف والدقة بحيث أستنتج من ذلك أن خطأً بسيطًا في وصفة الأدوية يمكن أن يكون بالغ الضَّرر لنا.

37. وحين يكون خطأ الطبيب خطيرًا يكون الأمر وخيمًا علينا، لأن من الصعب عليه ألا يُعاود الكرة في الخطأ مرات أخرى، إذ يلزمه الكثير من العناصر والاعتبارات لكي يصلح مسعاه. عليه أن يعرف تكوين المريض وحرارته وأمزجته ونوازعه وأفعاله بل حتى أفكاره وآراءه. وعليه أن يستخبر عن الظروف الخارجية وطبيعة المكان وحالة الهواء والوقت، ووضعية الكواكب وتأثيراتها؛ وأن يعرف علل المرض وعلاماته ومظاهره وأيامه العسيرة؛ وليصف الدواء عليه أن يعرف وزنه وقوته وأصله وقِدمه ومقاديره. وعليه أن يكون قادرًا على المقاربة بين هذه العناصر كلها في مقاديرها الحقة كي يتوصل إلى تواز كامل. فمثلًا كيف يمكن التعرف على الأمارة الخصوصية لمرض ما، بما أن كل مرض يمكن أن تكون له أمارات لا تُحصى؟ ألا يتجادل الأطباء في ما بينهم عن تأويل البول؟ وإلا فمن أين تأتي تلك الخصومات المستمرة بخصوص تحديد المرض؟ كيف يمكننا أن نغفر لذلك الخطأ الذي يقترفون مرارًا في أنهم «يخالون الذئب كلبًا»؟

38. وفي الأمراض التي أصابتني، والله يعلم أني لم أواجه فيها صعوبةً تُذكر، لم أجد قطّ ثلاثة من بينهم متفقين عليها. وأنا أقوم دومًا بتسجيل الأمثلة التي تخصّني. لكن، مؤخّرًا بباريس، تعرض رجل نبيل لعملية

جراحية على الحصى حسب تعليمات الأطباء، ولم يجدوا فيه بعد العملية حصىً أكثر مما في راحة يده. وفي باريس أيضًا، ألحَّ على أسقفٍ صديقٍ لي أغلبُ الأطباء الذين فحصوه أن يخضع لعملية جراحية. وقد قمت أنا أيضًا بإيعاز من غيري بإقناعه بذلك. وحين توفي وتم تشريحه وجدوا أنه لم يكن مريضًا إلا بالكلي. وفي هذا أعتبر أن الطبّ الجراحي أكثر وثوقًا من الطب، فهو يرى ويمكنه أن يلمس باليد ما يتدخّل فيه. والتكهن واللغز لا مكان كبير لهما فيه. الأطباء ليس لهم من مشرح مِرْناء[1] يمكنهم به النظر إلى دماغنا ورئتيْنا وكبدنا.

39. بل إن الوعود التي يقدمها لنا الطبّ قليلٌ الوثوقُ بها. فهو عليه أن يواجه أمراضًا متعددة ومتنافرة تلمّ بنا مجتمعةً وبينها عُرى وثيقة، كحرارة الكبد مثلًا وبرودة المعدة. ويوهمنا الأطباء أن من بين مكونات عقاقيرهم، هذا يصلح للمعدة والآخر سيبرد الكبد؛ والآخر موجّه مباشرة للكُلى، وحتى للمثانة، من غير أن نمدّد أكثر فضائله وقوته في هذا الطريق الطويل في الجسم المليء بالتعرّجات حتى المكان الذي يوجَّه إليه بمزيته السريّة. وثمة دواء آخر لتجفيف الدماغ، وآخر لترطيب الرئة. وفي هذا الركام الذين يصنعون منه محلولاتهم للشرب، أليس هناك وهْم بأن هذه الفضائل سوف تنقسم بعد ذلك وتتوزّع، كي يمارس كل واحد منها مهمّاته البالغة التنوّع؟ وأنا أخشى كثيرًا أن تُضيع تلك الفضائل يافطاتها أو تتبادلها، وتختلط عليها السُّبُل والوجْهات. ومن يتخيل أن في هذا الخليط المحلول، لا تفسُد تلك المزايا وتتمازج ويُفسِد بعضها بعضًا؟ هذا من غير أن نتحدث عن كون إنجاز الوصْفة يرتهن بصيدلي آخر، نمنحه نيّتنا ونضع مرةً أخرى حياتنا تحت رحمته.

40. لدينا صنّاعٌ للصّدْريات والأحذية لنرتديها، وهم يقدمون لنا أفضل خدمة بحيث إن كل صانع لا يهتم إلا بمهمته الخاصة، وله معرفة أقل شسوعًا من الخياط الذي عليه أن يعرف كل شيء. بالشكل نفسه، ولكي يتغذى المرء بشكل أكثر نجاعة، تستخدم الشخصيات الراقية خدمات مميزة للشوائين وطباخي الحساء، لأن الطباخ مهمته عامة، ولا يمكنه أن ينجز

(1) Speculum، أي الأداة التي تمكن من فحص فجوات الجسم البشري.

كل شيء بمهارة. كما أن المصريين، لكي يُعالجوا أنفسهم، كانوا على حق في التخلي عن الطبيب العام وتقسيم هذه المهنة، مانحين لكل مرض ولكل قسم من الجسم الطبيب المتخصّص فيه، بحيث إن ذلك القسم يتم معالجته خصيصًا وبشكل أقل غموضًا باعتبار أن الاهتمام يتم به حصرًا. أما لدينا فإن الأطباء لا يدركون أن مَن مِن بينهم يهتم بكل شيء لا يهتم بأي شيء، وأن التدبير العام لهذا الكون المصغَّر أمر مستحيل عليهم. ولقد قتل لي الأطباء صديقًا لي[1] كان أفضل منهم مهما كانت مرتبتهم، لأنهم لم يجرؤوا على وقف الإسهال لديه كي يجنبوه الحمّى. فهم يوازنون بين تكهناتهم والأمراض الحالية، ولكيْلا يشفوا الدماغ ويضروا بالمعدة، يتسببون في ضرر بالمعدة والدماغ معًا بعقاقيرهم المهيّجة والمثيرة للاضطراب.

41. إن تغيّرات أدلّة هذا الفن وضعفها ظاهرة فيه أكثر من أي فنّ آخر. فالمواد المُمَدِّدة صالحة لشخصٍ مريضٍ بالمغص الكلوي، وهي بفتح المنافذ وتمديد الممرات تسّهل نقل تلك المادة اللزجة التي يتكون منها الحصى وتقود للأسفل ما يبدأ في التكلّس والتجمّع في الكليتين. لكنها أيضًا محلولات خطيرة على شخص مريض بالمغص الكلوي، لأنها وهي تفتح وتمدّد الممرات تسهل تنقل المادة المشكلة للحصاة نحو الكليتين؛ وهذه الأخيرة تتلقاها بالنظر إلى نزوعها الطبيعي إلى ذلك، ولا يمكننا أن نمنعها مَن أن تمسك بأغلب تلك المادة. فضلًا عن ذلك، إذا وُجد هناك جسم أكبر حجمًا مما ينبغي، كي يمرّ من كافة تلك القنوات الضيقة قبل أن يُرمى به في الخارج، فإنه حين يتم تحريكه بفعل المحلول الممدِّد ويُدفَع به في تلك القنوات الضيقة، قد يسدّها ويؤدي إلى موت محقَّق وأليم جدًا.

42. الأطباء يكونون واثقين من أنفسهم جدًا في النصائح التي يعطونها إيانا عن نظام حياتنا. إنه لأمر حسن أن «نلفظ الماء»[2]، لأننا بالتجربة نلاحظ أننا حين نتركه راقدًا فينا، نمنحه الفرصة لأن يتخلص من نفاياته ورواسبه، التي تشكل مادةً لتشكل الحصاة في المثانة. كما أنْ ليس حسنًا أيضًا أن «نلفظ الماء» مرارًا، لأن النفايات الثقيلة التي يجرفها معه لا يمكن لفظها

(1) هو الكاتب إيتيان دو لابويسي.

(2) هذه العبارة التصويرية العزيزة على مونتيني يسهل فهمها في سياقها.

إلا بتيار عنيف، كما هو الأمر في السيل الذي ينزل بعنف ويجرف معه كل شيء في الأمكنة التي يمر منها، بشكل أكبر من الأمكنة التي يمر منها غدير بطيء وضعيف المنسوب. ومن اللازم بالشكل نفسه، الإكثار من مجامعة النساء، لأن ذلك يفتح الممرات ويقود الحصاة إلى الخروج. لكن ذلك أيضًا له مضارّه لأنه يسخّن الكليتين وينهكهما ويضعفهما.

43. من المفيد الاستحمام بمياه ساخنة لأن ذلك يمطّط الأماكن التي يقبع فيها «الرمل والحصى» ويرخيها. لكن ذلك لها مضارّه أيضًا، لأن استخدام الحرارة الخارجية يُساعد الكليتين على تصليب وتحجير المادة الموجودة فيهما. ولمن يتعاطون الحمام، من الأسلم لهم أن يأكلوا قليلًا في المساء، حتى يكون الماء الذي سيشربون في الصباح أكثر نجاعة وهو يخترق المعدة الفارغة ولا عوارض فيها. لكن بالمقابل، من الأفضل الأكل قليلًا في الغداء لكيْلا تعاق حركة الماء التي تكون لم تكتمل بعد، وحتى لا تُشحَن المعدة بعد عمل الالتهام هذا ولكي يترك المرء لليل مهمة الهضم، لأنه يتم حينئذٍ بشكل أفضل من النهار، حيث الجسم والعقل في حركة دائبة وفي انشغال دائم.

44. ها إذًا كيف يصبح الأطباء مشعوذين ويطلقون كلامًا يحكون فيه الترّهات على حسابنا. إنهم عاجزون عن أن يقولوا لي جملةً لا أستطيع أن أُفْحمها بنقيضها، وبالقوة نفسها. فليتوقفوا إذًا عن الصراخ خلف أولئك الذين، وسط هذه البلبلة، ينصاعون بهدوء لذوقهم وينقادون لمرامي الطبيعة، وللمصير المشترك.

45. خلال رحلاتي زرتُ أغلب الحمامات المسيحية الشهيرة، ومنذ بضع سنوات بدأت أستخدمها. فأنا عمومًا أعتقد أن استعمال الحمامات أمر صحّي، وأعتقد أننا نخاطر بالتعرض لاضطرابات صحية قاسية لأننا تخلّينا عن تلك العادة التي كانت متداولة بشكل واسع في القديم لدى العديد من الشعوب واليوم لدى العديد منها، المتمثلة في الاغتسال يوميًا. ولا أتصور أننا لا نحس بحالنا بجدية ونحن نترك أطرافنا مغطاة بقشرة الوسخ ومسامنا وقدت سُدَّت به. من ناحية أخرى، فإن الماء الذي نشرب

في «الحمّامات»، ليس منفِّرًا لذوقي لحسن الحظ، لأنه زيادة على ذلك طبيعي وبسيط، ولا خطر فيه بالرغم من أنه ليس فعالًا كما يُعتقد. ولا أدلَّ على ذلك من العدد الغفير من الناس من جميع الأشكال والأحجام الذين يتجمهرون فيها. وأنا لم أكتشف فيها لحد الآن أي أثر خارق أو معجز؛ بل بالعكس حين استخبرت بصددها بشيء من التفصيل أكثر من عادتي، وجدت أن الإشاعات المنتشرة في تلك الأماكن، عن مفعول من قبيل ذلك خطأ، ولا أساس لها من الصحة. بيْد أن الناس يعتقدون في ذلك لأنهم ينخدعون بسهولة وهم يسمعون ما يرغبون في سماعه.

46. ومع ذلك، فالحقيقة أني لم أر قطُّ أحدًا يتردّى حاله بسبب ذلك الماء، وللنزاهة، لا يمكن أن ننكر له بعض المفعول، كفتح الشهية وتيسير الهضم ومنح الحيوية، إذا لم نأت هناك طبعًا في حال من الوهن والضعف، وهو ما أنصح بعدم فعله. فهي مياه لا يمكنها أن تعيد صحةً منهارةً تمامًا، غير أنها يمكنها تعزيز ما يمكن تعزيزه، أو إيقاف انهيار محتمل للصحة. ومن لا يرتادها بما يكفي من الفرح كي يستمتع بالصحبة التي يجدها فيها، وبالتنزّه والتمارين البدنية، وهو ما يدعونا له جمال الأمكنة التي توجد فيها عادةً تلك المؤسسات، فذلك الشخص يفقد الجزء الأفضل والأوثق في مفعولها. لهذا اخترت أنا حتى اليوم أن أتوقف لأخذ الماء في الأماكن التي يكون فيها الموقع أكثر روعةً، حيث شروط الإقامة والطعام والرفقة هي الأفضل، كما هو الحال في فرنسا في حمّامات بانييز[1]، وفي الحدود بين الأراضي الألمانية منطقة اللورين، في حامّات بْلومبيير[2]، وفي سويسرا في حمّامات بادن؛ وفي توسكانا في حمامّات لوك، وخاصةً منها إقامة «ديلاّ فيلا»، حيث أقمت مرارًا وفي أوقات مختلفة من السنة[3].

47. لكل أمة تصور خاص عن استعمال «المياه»، وأنظمةُ وطرائقُ استعمالها بالغة التنوع، بيْد أن مفعولها متشابه حسب تجربتي. ففي الأراضي الألمانية لا تُستعمل تلك المياه للشرب. وهم يستحمون فيها

(1)Bagnères-de-Bigorre.

(2) كانت منطقة اللورين في دوقية مستقلة. وقد أقام فيها مونتيني بلومبيير في سبتمبر 1580.

(3) يتحدث مونتيني عن ذلك في مذكرات رحلته.

لشفاء كافة الأمراض، بحيث تراهم مقرْفصين في الماء طيلة اليوم. وفي إيطاليا تراهم يشربونها لمدة تسعة أيام، ويستحمون فيها ما لا يقل عن ثلاثين يومًا، وهم يضيفون لها غالبًا بعض العقاقير لتعزيز مفعولها. فهنا يأمرونك بالنزهة لهضمها؛ وهناك يضعونك في سرير حيث تتناولها حتى تتبوّلها، مدلكين باستمرار يديْك ورجليْك. والألمان لديهم شيء خاص إذ هم يضعون منافذ هواء محزَّزة في حمامهم. والإيطاليون من جهتهم لهم «حماماتهم الفردية»، وهي مزاريب يمر منها الماء الساخن عبر قنوات؛ وهم يرشون منها الرأس والبطن أو أي جزء من الجسم يتطلب العلاج، ساعة في الصباح وساعة بعد الغداء لمدة شهر.

48. ثمة عدد آخر لا يُحصى من الاختلافات في العوائد حسب البلدان، أو بعبارة أفضل، ليس ثمة تشابه بين بعضها البعض. وهكذا فإن هذا القسم من الطب، الوحيد الذي انصعتُ له بالرغم من أنه الأقل اصطناعًا، له هو أيضًا حصته من البلبلة والحيرة التي نعاينها في جميع مجالات هذا الفن.

49. يقول الشعراء كل ما يرغبون فيه، بالكثير من الانتقاء والبهاء، كما تشهد على ذلك هذه الأبيات الهجائية:

«لمس ألكونيوس البارحة تمثال يوبيتر
ومع أن الله من مرمر خضع للمفعول الطبي
ها هو اليوم مع أنه إله
يخرج من معبده ويُدفن»[1].

ويقول آخر:

«استحم أندراغوراس معنا وتعشى
وهذا الصباح ها هو ميت. هل تريد يافوستينوس أن تعرف
ما هو سبب موت مفاجئ كهذا؟
كان قد رأى في منامه الطبيب هيرموقراطيس»[2].

(1)Ausone (10), Epigrammes, LXXIV.
(2)Martial (51), VI, 53.

.50 كنت أنا وبارون كوبّين أون شالوس[1]لنا شيء مشترك هو حق التدبير[2] لقطعة أرضية شاسعة في سفح الجبال تسمى «لاهونتان». وكان سكان ذلك المكان حسب ما يُقال يشبهون سكان واد «أنغرونيْ»، فقد كانت لهم حياةً خاصة، في طريقة عيشهم ولباسهم وعوائدهم. وكانت لهم قواعد وعادات خاصة بهم، ورثوها أبًاعن جدّ يلتزمونها من غير إكراه أبدًا، ويحترمونها بشكل تقليدي. وقد عاشوا على هذه الحال منذ القدم، في سعادة تامة بحيث لم يتدخّل أي قاض من جيرانهم قطّ في أحوالهم، ولم يتم استدعاء أي محام لإبداء رأيه في قضية، ولا أي غريب كي يخمد نزاعًا من نزاعاتهم. بل لم يرَ أحد يومًا أيًا منهم يطلب الصدقة. كانوا يتفادون الزواج أو التعامل مع باقي العالم حتى اليوم الذي عَنّ لأحدهم، حسب ما يحكون، مدفوعًا بطموح أن يمنح لاسمه الشهرة والسطوع، أن يسمي أحد أبنائه «المعلم يوحنا» أو «المعلم بطرس». وبما أنه أرسله لتعلم الكتابة في مدينة مجاورة، صار الولد موثّقًا رائعًا للقرية. وبعد أن كبر الولد، صار ينفر من عوائدهم القديمة، ويزرع في أذهان أبناء البلدة طرائق عمل وعيش مناطقنا. وهكذا نصح الأول من أصحابه الذي كُسر له قرن عنزة أن يطلب الجزاء لدى قضاة الملك في الأحواز المجاورة؛ ثم إنه فعل الشيء نفسه مع شخص آخر، وهكذا دواليك حتى أفسد كل شيء.

.51 وبعد فساد عوائدهم هذا، يُحكى أن فسادًا من نوع آخر تبعه سريعًا وكانت له نتائج وخيمة على البلدة، بسبب طبيب أراد الزواج من فتاة منها والاستقرار بها. فبدأ يعلمهم أسماء أنواع الحمى والزكام والأورام، والمكان الذي يوجد به القلب والأمعاء وحتى الأمور البعيدة عن معارفهم. وبدل الثوم الذي كانوا به يتداووْن به من جميع أمراضهم مهما كانت حدّتها وخطورتها، عوّدهم على أن يُداووا الزكام أو السعال بمحلولات غريبة عليهم، وأضحى يمارس التجارة، لا فقط بصحتهم، وإنما أيضًا بموتهم. وهم يزعمون أنهم أدركوا منذ ذلك الوقت أن المساء يُثقل رؤوسهم، وأن الشراب مع الدفء غير صحي، وأن رياح الخريف أضرّ للصحة من رياح الربيع. ومنذ أن بدأوا يتعاطون ذلك

(1) منطقة في جنوب غربي فرنسا يخترقها نهر الأدور.

(2) هو عبارة عن امتياز كنسي، يتمثل في قطعة أرض ينعم بها على راهب أو أسقف وغيرهما. وحق التدبير يتعلق بحق اختيار شخص للاستفادة منها.

الطب، صاروا عرضةً لجحافل من الأمراض غير المعتادة، ولاحظوا تدهورًا في قواهم القديمة، ولم يعودوا يعمرِّون طويلًا لأن حيواتهم نقصت بالنصف. تلك حكايتي الأولى.

52. وإليكم الثانية. قبل أن أصاب بمرض الحَصى سمعت الكثير من الناس يمتدحون دم التَّيْس كمِنّة إلهية بُعثت في القرون الأخيرة سنَدًا لإطالة العمر. وبما أن أناسًا نُبهاء يتحدثون عنه كدواء باهر ذي مفعول ناجع، فإني أنا الذي كنت في معزل عن كل الحوادث التي تمس الآخرين، وبما أني كنت في صحة جيدة، استمتعت بحيازة هذه المعجزة، وأمرت بتربية تيْس تبعًا للطريقة الموصوفة. فالتيس يلزم عزله في الأشهر الأحرّ من الصيف، وأن يُعلف بأعشاب ذات مفعول يمدِّد المسالك، وأن يشرب النبيذ الأبيض. وقد حدث أني وصلت إلى بيتي في اليوم الموعود لنحْره، وجاء أحدهم ليقول لي إن طباخي وجد في أحشائه ثلاث أو أربع كرات تتصادم وسط مأكله. استبدَّ بي الفضول وطلبت أن يحضروا تلك الأحشاء وأمرت بفتح هذه الجلدة الضخمة، فأخرجوا منها ثلاثة أجسام كبيرة تشبه الإسفنج وتبدو فارغة، غير أنها علاوة على ذلك كانت متماسكة في الأعلى ومخططة بالعديد من الألوان الداكنة. كانت إحداها مدورة تمامًا وبحجم كرة حديدية صغيرة، والأخريان أصغر حجمًا وبشكل غير كروي تمامًا، كما لو أنهما كانتا غير مكتملتيْن. وحين سألت عن الأمر لدى من تعودوا على فتح أحشاء الحيوانات، أخبروني أن الأمر نادر وغير معتاد.

53. ومن المحتمل أن تلك الحصى قريبة لحَصانا؛ وإذا كان الأمر كذلك، فلا جدوى للمرضى بالحصى أن يأملوا بالشفاء بدم دابِّة، كانت على وشك الموت من المرض نفسه. فعوض الادعاء بأن الدم لا يتأثر بهذا التماسّ وأن جودته المعتادة لا يصيبها الفساد بذلك، من الأعْقل أن نعتقد أن لا شيء يولد في جسم ما، إلا بالتماس بين الأجزاء وبعملها المشترك. فالجسم يقوم بالعمل بكُلِّيّته، حتى حين يساهم عنصر بشكل أكبر من آخر في النتيجة النهائية، وذلك بسبب تنوع الوظائف العملية.

وهكذا من المحتمل جدًا أن ثمة «فضيلة تجْجيرية»[1] في كافة أجزاء هذا التيْس. وأنا لمْ أقمْ بفضول بهذه التجربة خوفًا من المستقبل؛ لقد رغبت في أن أفعل مثل النساء اللواتي في بيتي كما في بيوت أخرى، يراكمْن كومة من الأدوية لكي يداوين بها أبناء الشعب. فهن يستعملن الوصفة نفسها لعلاج خمسين مرضًا ويتباهيْن بالحصول على نتائج حسنة، بالرغم من أنهن لا يستعملنها لمداواة أنفسهن.

54. علاوة على ذلك، فأنا أكنّ الاحترام للأطباء، لا تبعًا لتعاليم سِفْر الجامعة[2] لأنه إلزامي (إذ إننا يمكننا معارضة هذا المقطع للنبي الذي عاب على الملك آسا لجوءه إلى طبيب)، وإنما عطفًا عليهم، لأني وجدت من بينهم عدة رجال جديرين بالتقدير وبالمحبة. وإني لا أؤاخذهم همْ وإنما «فنهم»، وأنا لا أعاتبهم أبدًا على استغلال غبائنا؛ بما أن أغلب الناس يقومون بذلك أيضًا. فالعديد من المهن، إما أقلّ شرفًا أو أكثر نبلًا من مهنتهم، لا تجد أساسًا ولا سندًا إلا في الغباء الشعبي. وأنا أستدعيهم إليّ حين أصاب بمرض، إذا كان ثمة أطباء في الجوار؛ وأطلب النقاش معهم، وأؤدي لهم أجرتهم مثل الآخرين. وأسمح لهم بأن يأمروني بأن أتغطى جيدًا طلبًا للدفء، إذا ما كان ذلك ما أفضّل. ولهم الخيار بين الكراث والخسّ كي يكون حسائي على هواهم، وأن يكون خمري أبيض أو أحمر، وهلمّ جرّا، بخصوص كافة الأشياء التي تخالف شهيتي وعوائدي.

55. وإني لَأتفهّم جيدًا أنهم يعتبرون هذا شيئًا غير مهم، لأن الغرابة والخصوصيات تنتمي للجوهر ذاته للدواء. كان ليكورغوس يصف للمرضى الإسبرطيين النبيذ. لماذا؟ لأنهم حين يكونون بصحة جيدة يكرهون تناوله. وهو ما يقوم به بالضبط رجل نبيل من جيراني إذ يستعمله كدواء ناجع ضد أنواع الحمى التي تلمّ به، لأنه يكره جدًّا مذاقه حين يكون في حاله الطبيعي.

(1) نحن نعرف السقايات التحجيرية، وكذا الصواعد والهوابط التي تشكل جاذبية للغارات تحت الأرض. وقد لاحظنا في الفترة نفسها أن برنار بَاليسي قد اهتم في كتابه: «خطابات رائعة»... (1580 [69])، وعن قرب بهذه الظاهرة وسعى إلى تفسيرها عقليًا وانطلاقًا من الملاحظة العينية.

(2) «وفّوا التبجيل للطبيب فهو حق عليكم».

56. وكم نرى من بين الأطباء أناسًا مثلي يكرهون اللجوء للطب لأنفسهم، وينتهجون لأنفسهم طريقة عيش حرّة مناقضة تمامًا لتلك التي يأمرون بها الآخرين؟ أليس ذلك استغلالًا لسذاجتنا؟ فهم لا يعيرون اهتمامًا أكبر منا لحياتهم ولصحّتهم، وكانوا سيوافقون بين أفعالهم وعلمهم لو لم يكونوا على علم بزيْفه.

57. إن ما يجعلنا عُميانًا هكذا هو الخوف من الموت، وعدم القدرة على تحمل المرض، والرغبة الرهيبة والجامحة في الشفاء؛ وإنَّلَمنَ الجبن أن نكون بهذا الضعف فتتلاعب بنا الرياح. ومع ذلك فأغلب الناس لا يثقون أبدًا في الطب، بالرغم من أنهم يتركونه يفعل فعله ويتحمّلونه. وأنا أسمعهم يشتكون منه ويتحدثون عنه مثلنا تمامًا. لكن، عليهم أن يتخذوا قرارًا في الأخير: «وهل لنا أن نفعل غير ذلك؟»، كما لو أن رفض العذاب هو في ذاته دواء أفضل من العذاب. هل هناك شخص، من بين أولئك الذين استسلموا لهذا الخنوع البائس، لا ينصاع أيضًا لكافة أنواع الدّجَل؟ ولا يضع نفسه تحت رحمة شخص يجرؤ على وعده بالشفاء؟

58. كان البابليون ينقلون مرضاهم إلى الساحة العامة[1]، فقد كان الطبيب هو الشعب. فكل مارٍّ، كان من باب الأدب والإنسانية، يسأل عن حال المريض وينصحه بالقيام بشيء حاسم يستقيه من تجربته. ونحن نقوم تمامًا بالشيء نفسه. فليس ثمّة امرأة لا تستعمل ما تتمتم به في عباراتها السحرية. وإذا كان لي أن أقبل بطبّ معيّن فسيكون الأولى هو هذا، لأنه يمنحنا على الأقل امتياز أننا لا خوف علينا من شيء.

59. كان هوميروس وأفلاطون يقولان عن المصريين إنهم كانوا كلهم أطباء. وهو أمر يمكن أن ينطبق على كافة الشعوب، إذ ليس ثمة من لا يتباهى بمعرفته لدواء معيّن ولا يكون مستعدًا لتجريبه على جاره على مسؤوليته إذا أراد الوثوق به. وجدت نفسي في أحد الأيام الماضية وسط جمع من الناس حيث أعلن أحدهم، وهو يعاني مما أعاني منه،

(1) ذلك على الأقل ما يزعم هيرودوتس.

عن خبر حبة دواء مصنوعة من عشرات المواد المحسوبة جيدًا. عمّت الفرحة، وأحس الجميع بالانشراح وعودة الطمأنينة. فأيّ صخرة يمكنها فعلًا أن تقاوم طلقة ذلك المدفع؟ بيْد أنني علمت من أولئك الذين جرّبوها، أن أصغر حصاة لم تتفتّت بعد تناولها.

60. لن يمكنني أن أترك هذه الورقة، من غير أن أقول أيضًا كلمة، عن كونهم يقدمون لنا دليلاً عن نجاعة عقاقيرهم، هذه التجربة التي قاموا بها. أغلب الفضائل الطبية، بل أكثر من الثلثيْن منها، هو «النسغ»[1] أو الخاصية الباطنة للأعشاب. وهو أمر لا يمكن معرفته إلا بالتجربة، لأن هذا «التقطير الخامس» أو النسغ، ليس شيئًا آخر غير خاصية لا يستطيع عقلنا أن يمكِّننا من معرفة علتها. ومن بين دلائلهم، أنا أسعد بقَبول تلك التي يزعمون الحصول عليها بإلهام من آلهة معيّنة -إذ حين يتعلق الأمر بالمعجزات، فأنا لا أعترف إلا بالقليل النادر منها- أو أيضًا الدلائل المستقاة من الأشياء التي، لأسباب أخرى، تشكل جزءًا من تلك التي نتداولها عادةً. ذلك هو حال الصوف الذي عادةً ما نستعمله لصناعة ملابسنا، والذي تمّ العثور فيه على مزيّة باطنة في الشفاء من تقرّح القدَم، أو أيضًا الفجْل الحار الذي نتناول، والذي عُثر فيه على فضائل مُسْهلة.

61. يحكي جالينوس أن أحد المصابين بالجذام حصل له الشفاء بفضل النبيذ الذي تناوله، لأن حيَّة تسللت بالصدفة للإناء. وهذا المثال يوضّح لنا بأي وسيلة وبأي طريقة حدثت الأمور. والأمر نفسه ينسحب على النتائج التي يقول الأطباء كيف أنهم بلغوها بمثال بعض الحيوانات. لكن في أغلب الحالات الأخرى، حين يقولون إن الحظ حالفهم، وأن لا مُرشدَ لهم غير الصدفة، فأنا أعتبر الطريقة التي تمّ بها الاكتشاف غير موثوق بها كثيرًا.

62. أتصوّر الإنسان يتأمل حواليه في العدد اللانهائي من الأشياء والنباتات والحيوانات والمعادن. وأنا لا أعرف من أين أجعله يبدأ ملاحظته تلك.

(1) أو التقطير الخامس، أي نتاج التقطير الخامس للأعشاب، حسب المبادئ الكيميائية التي عليها أن تقدم العنصر الأساس لكل شيء.

وإذا كانت الفكرة الأولى أن أجعله يرمي بنفسه بين قرني أُيَّل، اللذين يرتبط بهما معتَقَد معيّن وغير موثوق به كثيرًا، فلن يفيده ذلك في ما سيلي من حياته. فالعديد من الأمراض والظروف سوف تنتظره. والعقل البشري يفقد لسانه ولا تعود له رغبة في الفهم قبل أن يبلغ اليقين الذي ستمكّنه منه التجربة، وقبل أن يعثر في ما بين هذه الأشياء التي لا تُحصى على ماهيّة ذلك القرن؛ وقبل أن يتيقّن أن من بين العدد الذي لا يُحصى من الأمراض هو يشفي من الصّرع؛ ومن بين العديد من الأمزجة تقابله الميلانخوليا؛ ومن بين العديد من فصول السنة يقابله الشتاء؛ ومن بين العديد من الأمم تقابله فرنسا، ومن بين العديد من الأعمار تقابله الشيخوخة، ومن بين العديد من الحركات السماوية يقابله لقاء الزُّهرة وزحل، ومن بين أعضاء الجسم يقابله الإصبع؛ وفي كل هذا، حين لا يكون المرء مسترشدًا بأي تعقُّل، وأي تكهُّن وأي أنموذج وأي وحي إلهي، بل فقط الصدفة، أليس ذلك أمرًا لا يتقبَّله العقل! عليها بالأحرى أن تكون صدفةً صادرة دومًا عن ذلك الفنّ. ثم إن الشفاء حين يحصل، كيف نعلم أن المرض لم يبلغ نهايته بنفسه أم أن الأمر محض صدفة؟ أو أن المريض تعافى من فعل أي شيء آخر مما أكله أو شربه أو لمسه في ذلك اليوم؟ أو أنه تماثل للشفاء بفضل دعوات جدته؟ ثم فضلًا عن ذلك، حين يتم القيام بهذا الدليل، كم من مرة تكرّر، وتلك السلسلة من الصدف السعيدة واللقاءات الإيجابية، كم من مرة عاشها الناس، بحيث يمكن أن نستخلص منها قاعدة؟

63. وهذه القاعدة، ما إن تُرسى، من سيكون قد قام بذلك؟ فمن بين ملايين الناس ثمّة ثلاثة يسعوْن لتسجيل تجاربهم. فهل صادف القدَر في الوقت المناسب أحد أولئك الثلاثة؟ وما الذي سيحدث إذا ما قام شخص آخر أو ست مئة آخرون بتجارب مناقضة؟ ربما ستتوضح لنا الرؤية شيئًا ما إذا ما عرفنا الأحكام والاستدلالات العقلية كافةً. وينبغي للطبيعة البشرية أن تكون قد انتقتهم، وانتخبتهم ممثِّلين لنا كي نمنحهم لذلك توكيلًا شرعيًا.

«إلى السيدة دو دوراس»[1]

64. سيدتي، كنتُ قد توقفتُ هنا في «مقالاتي» حين زرتيني في الأيام الأخيرة. وبما أن هذا الهراء قد يسقط في يوم من الأيام بين يديكِ، أرغب أيضًا في أن تشهد تلك الكتابات بأن مؤلفها يحس بتشريفٍ عظيمٍ بالفضل الذي منحْتيه إيّاه. وسوف تتعرّفين فيها على المواقف والسلوك الذي تعرفينه عنه في محادثاته. ولو أني أستطيع أن أتّخذ هيئة ليست هي هيئتي المعتادة، أكثر أناقة وأكثر شرفًا، فإني لن أتّخذها، ذلك أني لا أتطلع من هذه الكتابات إلى أي شيء سوى أن تعيدني إلى ذكراكِ كما أنا بشكلٍ طبيعي. إن هذه الطرائق في الوجود وهذه الملكات الفكرية التي عرفتِها، سيدتي، وتلقَّيتها بتقديرٍ ولباقةٍ أعظم مما تستحق، هي تلك التي أرغب في وضعها، من غير تغييرٍ أو تحريفٍ، في شيء متينٍ يمكنه أن يدوم بضعَ سنوات وأيام بعدي، وحيث ستلاقينها حين يحلو لكِ أن تستثيري ذاكرتِك من غير أن تجهَدي في تذكُّرها، لأنها لا تستحق ذلك. ورغبتي هي أن أراكِ تحافظين على صداقتك لي بفضل المزايا نفسها التي كانت في أصل ولادتها.

65. وأنا لا أرغب في أن يحبني الناس أو يقدّروني ميتًا أفضل مما فعلوا ذلك حين كنت حيًا. فتصرف تيبيريوس كان سخيفًا، مع أنه أمر معتاد؛ إذ كان همُّه أن يمدّد شهرته في المستقبل أكثر من أن يكون أهلًا للتقدير، ولطيفًا من أناس زمنه. لو كنتُ من أولئك الذين يَدين لهم العالم بالمديح، فإني لن أطالبه بشيء، إذا ما منحني النصف منه فقط مسبقًا: فلتتراقص المدائح أمامي وتتراكم، أكثر كثافة لا طولًا، وأكثر امتلاء لا امتدادًا في الزمن. ولتتبدّدْ مرة واحدة حين لن أعود واعيًا بها، وليكفّ صوتها الشجي عن طرق أذني بعد ذلك.

66. سيكون من البلاهة وأنا أتهيأ للرحيل عن مجتمع بني البشر، أن أروح

(1) هي مارغريت دو غرامون، أرملة جان دو دورفور الذي قُتل قرب منطقة ليبورن بجنوبي فرنسا. كانت من ضمن حاشية مارغريت ملكة نافارا إحدى أهم الدوقات المؤثرة في السياسة الفرنسية في تلك الفترة.

الآن لأستعرض نفسي عليهم بذريعة استحقاقٍ جديدٍ معيّن. فأنا لا أقيم الحساب للخيرات التي لم أستعملها في حياتي. ومهما كنت فأنا أريد أن أكونه في مكان آخر سوى على الورق. ففنّي ومهارتي استخدمتهما في أن أمنح القيمةلنفسي؛ ودراساتي أستخدمها للتعلّم والعمل لا للكتابة. فلقد وظفت كامل جهودي كي أمنح شكلًا لحياتي، فتلك هي مهنتي وصنيعي. أردت أن تكون لي بعض القدرات، لا لكي أكنزها ولا لكي أجعل منها مخزونًا لورثتي.

67. وكلُّ من له قيمة، فليعلنْ عن ذلك بطريقة حياته، وفي كلامه العادي وفي طريقة تناوله للحب أو معالجته للنزاعات، وفي اللعب وعلى السرير والمائدة، وفي تسيير شؤونه، واهتمامه ببيته. ومن أراهم يؤلفون كتبًا جيدة وهم لا يحسنون اللباس، لو سمعوا كلامي كان الأوْلى بهم أن يهتموا بأناقتهم. اطلبوا من رجل من إسبرطة إنْ كان يحب أن يكون بلاغيًا فصيحًا أم جنديًا. وأنا بنفسي كنتُ أفضل أن أكون طباخًا ماهرًا، لو لم يكن لديّ من يتكفّل بذلك.

68. يا إلهي، سيدتي، كم سأمقت أن تكون لي سُمعة شخص حاذق في ما يكتب، وشخص تافه وأبله فوق كل ذلك. فأنا أفضّل أن أكون أبله في هذه الدنيا وفي الآخرة، على أن أكون شخصًا لم يعرف أين يوظّف قيمته. لذلك إني أبْعد ما أكون عن السّعي إلى حيازة شرف جديد بهذه السخافات، وسيكون خيرًا لي ألا أفقد فيها بعضًا مما اكتسبته. فعدا ما يمكن أن يُخفيه هذا «البورتريه» الميت والأبكم من وجودي الحق، فهو لا يتّصل أيضًا بوقتي الأمثل، وإنما يحيل إلى الوقت الذي فقدت فيه القوة والعزم اللذين كانا لي في بداياتي، حين صرت أعيش الذبول والمرارة. فأنا في قعر البرميل، أحس بالنهاية وبالفضلات.

69. ناهيك، سيدتي، أني لم أكن لأنبش بجرأة في عجائب الطبّ، بالنظر إلى الثقة التي توليها أنت وآخرين له، لو لم أجد نفسي مُنقادًا لذلك وبالمؤلفين فيه أنفسهم.. ولي كامل اليقين أن ثمة اثنين فقط لدى

اللاتينيين هو بلينيوس الكبير وكلسوس[1]. وإذا ما اطلعتِ على مؤلفاتهما يومًا سترين أنهما يخاطبان بفظاظة أكثر مني هذا الفن، فأنا لا أقوم سوى بقرْصِه، أما هما فيذبحانه من الوريد إلى الوريد. يسخر بلينيوس، من بين ما يسخر منه، من الوسيلة السهلة التي عثروا عليها للهرب حين يجدون أنفسهم «وقد التف الحبل حول عنقهم»، فهم يقومون بصرف المرضى الذين أرهقوهم وأزعجوهم بلا فائدة بعقاقيرهم وحِمياتهم، لكي يطلب البعض منهم النجدة بالنذور والكرامات، والآخرون بالحمَّامات. (لا تجْزعي، سيدتي، فهو لا يتحدث عن حمَّامات فرنسا، التي يشرف عليها بيتك، والتي تحمل كلها اسم عائلة أسلافك). بل لهم أيضًا طريقة ثالثة لكي يبعدونا عنهم، ويتخلصوا من المآخذ، التي يمكن أن نوجّهها لهم، عن التحسّن غير البيّن لأمراضنا، التي سادوا عليها مع ذلك زمنًا طويلًا بحيث لم يعد لهم وسيلة لتضليلنا، أعني أن يبعثونا للبحث عن الهواء النقي في بلد آخر. بيْد أني قلت في الأمر ما فيه الكفاية سيدتي، فسوف تمنحينني بالتأكيد الإذن لاستعادة حبل كلامي، الذي حدْت عنه لكي أحادثك.

70. كان بيريكليس على ما أذكر هو من أجاب حين سُئل مرة عن حاله: «يمكنكم أن تحكموا على ذلك من هذا...»، وأشرع التمائم التي يحملها في جيده وفي يده. كان يريد أن يقول بذلك إنه كان بالفعل مريضًا؛ لأنه بلغ به الأمر لأن يلجأ لأشياء تافهة كالسحر، وأنه انصاع للتغرير به بهذه الطريقة. وأنا لا أزعم أني في يوم ما يمكنني أن أنصاع لهذه الفكرة السخيفة فأضع حياتي وصحتي تحت رحمة أوامر الأطباء. قد أسقط يومًا في هذه السخافة، إذ إني لا يمكنني أن أعلم الغيب. لكن، حتى وقتئذٍ، إذا ما سألني أحد عن حال صحتي، فسأقول له كما بيريكليس: «يمكنكم أن تحكموا على ذلك بهذا...» وأنا أُشرع يدي مليئة بستة دراهم وبالأفيون[2]. سيكون ذلك العلامة الأكيدة على مرض عُضال، وسيرى الناس في ذلك أن حكمي أرعن. فإذا ما أكرهني الرعب والعجز على تحمل الألم على ذلك، فسيتم بسهولة استنتاج أن النفس فيَّ ضحيّة حمى رهيبة جدًا.

---

(1) عاش كلسوس في زمن الإمبراطور أغسطس. وكتابه الأساس بعنوان: «عن فن الطب».

(2) الدرهم كان يساوي ثمن أوقية التي كانت القسم السادس عشر من نصف الكيلو الباريسي. أما الأفيون فهو محلول من العسل ومن أنواع من لب الفواكه.

71. لقد أخذت على عاتقي مناقشة هذه القضية، التي لا كفاءة لي فيها، لأسند وأعزّز، شيئًا ما، نزوعي الفطري إلى الانفلات من العقاقير ومن ممارسات الطبّ لدينا، وهو نزوع ورثته عن أسلافي. وقد قمت بذلك حتى لا يكون فقط نزوعًا بليدًا وأهوج، بل أن يكون فيه بعض اللباقة. وكذلك لكيلا يعتقد من يرونني حازمًا ضد النصائح والتهديدات، التي أتلقاها حين تستبد بي أمراضي، أن الأمر يتعلق فقط بعنادٍ؛ وحتى لا يكون ثمة شخص لئيم كي يعتقد أن الأمر يتعلق بالبحث عن مجْدٍ بائسٍ. بل إنها رغبة محسوبة أن أتشرف بموقف أتقاسمه مع بستانيَّ وسوّاق بغلتي. صحيح أني لا أملك قلبًا منتفخًا ومليئًا بالهواء، كي أستبدل متعةً كالصحة لها هذه الصلابة والقيمة، بمتعة خيالية وغير مادية وجوفاء. فالمجد، حتى لو كان مجدَ الأبناء الأربعة لآيمون[1]، يُؤدّى ثمنه غاليًا مقارنةً مع رجل مثلي، إذا ما هي كلّفته فقط ثلاثة قروش من «المغص الكلوي». إنها الصحة وحقّ الرب.

72. أولئك الذين يحبون طِبَّنا يمكنهم أيضًا أن يكون لهم عنه وجهات نظر قد تكون وجيهة وكبيرة وصلبة. أنا لا أكره الآراء المعاكسة لرأيي. فلا يخيفني أبدًا أن أرى تنافرًا بين أحكامي وأحكام الغير. وأنا لا أنقطع بنفسي عن مجتمع الناس، الذين لهم وجهة نظر مغايرة من حزب ليس حزبي. بالعكس –ما دام التنوع هو الطريقة الأعمّ التي تتّبعها الطبيعة، خاصةًبصدد الأرواح أكثر من الأجسام؛ ذلك أن الأرواح مصنوعة من مادة لطيفة وتقبل أن تتجسد في صور متنوعة- فأنا أعتبر أن من النادر أن نرى التلاؤم بين الأمزجة والمصائر. ولم يوجد قطّ في العالم رأيان متشابهان، ليس أكثر من عدم تشابه جواديْن أو حبّتيْ قمح. فطريقة وجودها الأعمّ تكمن في التنوُّع.

نهاية الكتاب الثاني

(1) هي ملحمة «رونو دو مونتوبان» التي واجه فيها الأبناء الأربعة للكونت أيمون دو دوردوني للملك شارلماني، بالكثير من الشهامة، والتي كانت متداولة، وتم تقييدها في القرن الثالث عشر.

ثبت بالمراجع

• [1] ***Les Stoïciens***, Gallimard, Coll. « Pléiade », 1962.

• [2] ***La Bible***, Seuil,1973, Trad. ÉmileOsty, Joseph Trinquet.

• [3] Dante Alighieri, ***La Divine Comédie***, La Différence,2003, bilingue, traduction juxtaliéaire de Didier Marc Garin.

• [4] Anonyme, ***Priapea ou Diversorum veterum poetarum lusus***, Alde, Venise, 1517, Recueil de poésies licencieuses.

• [5] Aristote, ***Histoire des Animaux***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, 180 p.

• [6] Aristote, ***Politique***, Les Belles-Lettres, Coll. des Universités de France, 2003, 2e tirage - T. I: livres I et II, T. II: livres III et IV.

• [7] Aristote, ***Morale à Nicomaque***, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, à partir de 1926.

• [8] Saint Augustin, ***La Cité de Dieu***, Seuil, 2 tomes, Coll. Points sagesse, 3 vol., traduction de Louis Moreau (1846), revue par jean-ClaudeEslin.

• [9] Aulu-Gelle, ***Nuits attiques***, Les Belles-Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, trad. R. Marache.

• [10] Ausone, **Œuvres *complètes***, C. L. F. Panckoucke, 2 tomes, 1843, En ligne à : http://remacle.org/bloodwolf/ historiens/ausone/table.htm.

• [11] Jean Bouchet, ***Annales d'Aquitaine, faits & gestes en sommaire des roys de France & d'Angleterre...***, Jehan & Enguilbert de Marnef, Poitiers, 1545, Numérisation BNF: http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/ bpt6k522330.

• [12] Baldassare Castiglione, ***Il libro del Cortegiano***, Venise, 1528, Traduit en français par J. Chaperon en 1537.

• [13] Catulle, ***Poésies***, Les Belles Lettres, 2002, Coll. « Classiques en poche ».

• [14] Catulle, **Épigrammes**, Les Belles Lettres, 2002, Coll. « Classiques en poche ».

• [15] Cicéron, ***Académiques***, Belles-Lettres, Œuvrescomplètes. Coll. universités de France (G. Budé), bilingue.

• [16] Cicéron, ***De Divinatione***, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.

• [17] Cicéron, ***De finibus***, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.

• [18] Cicéron, ***Denaturadeorum***, Belles-Lettres, Œuvrescomplètes. Collection des universités de France (G. Budé), bilingue.

• [19] Cicéron, ***De Officiis***, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France (G. Budé), bilingue. [20] Cicéron, Paradoxes, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France (G. Budé), bilingue.

• [21] Cicéron, Tusculanes, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.

• [22] Claudien, Oeuvres: contre Eutrope, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, série latine, 1936 et 1942, 2 tomes, texte établi et traduit par J.-L. Charlet.

• [23] Claudien, **Œuvres*: In Ru ffinum***, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, série latine, 1936 et 1942, 2 tomes, texte établi et traduit par J.-L. Charlet.

• [24] Claudien, **Œuvres**, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, série latine, 1936 et 1942, 2 tomes, texte établi et traduit par J.-L. Charlet.

• [25] Jules César, ***La Guerre des Gaules***, Les Belles-Lettres, Paris, 1926, 19891990-, trad. L. A. Constans, 2 vol.

• [26] Francisco Lopez de Gomara, ***Histoire generalle des Indes Occidentales, et terres neuves, qui jusques à present ont esté descouvertes***, composée en espagnol par François Lopez de Gomara & trad.

en françois par le S. de Genille Mart., Fumée, 1605, Texte numérisé sur Gallica (1995).

- [27] Guy de Pernon, ***Les Essais de Montaigne*** traduits en français moderne, 2008-2009, D'après le texte de 1595. Disponible en PDF sur Internet à l'adresse: http://hyperlivres.net.
- [28] [Divers], ***Les Stoïciens***, Gallimard, Collection Pléiade, 1962, Trad. Émile Bréhier.
- [29] D. M. Frame, ***The Complete Essays of Montaigne*** translated by D. M. Frame, Stanford University Press, 1965.
- [30] Froissart, ***Chroniques***, Le Livre de Poche, coll. « Lettres Gothiques », 2001, Tome 1, Livres I -II.
- [31] Simon Goulard, ***Histoire du Portugal.***
- [32] Homère, ***l'Odyssée***, Babel, 1995, traduction en vers de F. Mugier. [33] Horace, Art Poétique, Œuvres, 3vol., texte et trad.franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris, 1927-1934.
- [34] Horace, ***Satires***, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris, 1927-1934.
- [35] Horace, ***Épîtres***, Les Belles Lettres, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Paris, 1927-1934.
- [36] Horace, ***Épodes***, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris - Œuvres, *3* vol., trad. F. Richard, GF-Flammarion, 1927-1934 - et 1967.
- [37] Horace, ***Odes***, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris et Œuvres, 3 vol., trad. F. Richard, GF-Flams marion, 1927-1934 et 1967.
- [38] Hérodote, ***L'enquête***, coll.Folio,Gallimard, Paris, 2 vol., A. Barguet éd., 1985 et 1990.
- [39] Pline Le Jeune, ***Correspondance***, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, 1968-88, Tomes I à IV.

• [40] Flavius Josèphe, ***Autobiographie***, Belles-Lettres, Coll. des Unniv. de France, bilingue français-grec,155p.,1984, trad. André Pelletier.

• [41] Juste Lipse, ***Politiques***, 1886, in « Œuvres », Gand, Vyt.

• [42] Juvénal, ***Satires***, Belles Lettres, Paris, 1921, 1983., P. de Labriolle et F. de Villeneuve.

• [43] Lactance, ***Choixde monuments primitifs de l'Église chrétienne***, Delagrave, Paris, 1882, trad. de J.-A.-C. Buchon; texte numérisé accessible partiellement à : Bibliotheca Classica Selecta (Louvain), http://bcs.fltr.ucl.ac.be.

• [44] L'Arioste, ***Roland Furieux***, Garnier-Flammarion (Poche), 1993, 345 p., Coll. « Poésie étrangère».

• [45] Diogène Laërce, ***Vies et doctrines des philosophes illustres***, Livre de Poche, 2003, 10 livres.

• [46] Lucain, ***La Guerre civile ou La Pharsale***, Les Belles Lettres, 2003, Coll. des Universités de France, Trad. Abel Bourgey.

• [47] Lucrèce, ***De la Nature***, Les Belles Lettres, Coll. des Universités de France, 1972, 2 tomes, bilingue, trad. (prose) A. Ernout.

• [48] Lucrèce, ***De Natura Rerum - De La Nature***, Aubier Montaigne, Bibliothèque philosophique bilingue, 1993, Trad. juxtalinéaire par José Kany-Turpin.

• [49] Ariosto Ludovico, ***Orlando Furioso***, Einaudi, 2006, 2 t., broché. coll. «Einaudi TascabiliClassici».

• [50] Manilius, ***Astronomica***, in Œuvres complètes de Stace, martial, manilius, lucilius junior, rutilius, gratius faliscus, nemesianus et calpurnius avec leur traduction en français publiéessousladirectiondeM. Nisard-Didot,Paris,1860. [51] Martial, Épigrammes, Arléa, Paris, 2001, 15 livres.

• [52] Pseudo-Gallus (Maximianus), ***Poetae Latini Minores***, Baehrens, Leipzig, 1879-1923, 7 vol. - voir aussi : édition numérique à http://

www.thelatinlibrary.com/ maximianus.html.

- [53] Montaigne, ***Les Essais de Michel de Montaigne***, P.Villey et F. Strowski, 1906-1922, 4 tomes grand format et un glossaire.
- [54] Montaigne, ***Apologie de Raymond Sebond***, Aubier-Montaigne, 1937, Texte établi et présenté par Paul Porteau.
- [55] Montaigne, **Œuvres complètes**, Les Belles Lettres, 1959, édition de Jean Plattard.
- [56] Montaigne, ***Les Essais***, Presses Universitaires de France, 1965, édition P. Villey, 3 tomes.
- [57] Montaigne, Œuvres complètes de Montaigne, édition d'Albert Thibaudet et Maurice Rat, Gallimard, coll. Pléiade, 1965,
- [58] Montaigne, ***Les Essais de Michel Eyquem de Montaigne***, Imprimerie Nationale, 1999, Édition de Marcel Guilbaud.
- [59] Montaigne, Essais, Honoré Champion, 2002, 3 t., Traduction en français moderne par André Lanly.
- [60] Montaigne, Les Essais, Arléa, 2002, Mis en français moderne et présentés par Claude Pinganaud.
- [61] Montaigne, Les Essais, Gallimard, coll. « Pléiade », 2007, éd. établie par Jean Balsamo, Michel Magnien, et Catherine Magnien-Simonin, avec les « notes de lecture » et « sentences peintes » par Alain Legros, 1970 p.
- [62] Ovide, ***Les Métamorphoses***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1972, éd. G. Lafaye, 3 tomes.
- [63] Ovide, ***Tristes***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1988.
- [64] Ovide, ***Remèdesàl'amour***, Mille et une nuits, 1997.
- [65] Ovide, ***Pontiques***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2000, B. G. Teubner- 1863 (Latin seulement).
- [66] Ovide, ***Amours***, Les Belles Lettres, Coll. Classiques en Poche,

2002, Bilingue, Trad. Henri Bornecque; introduction et notes par jean-Pierre Néraudau.

- [67] Ovide, ***Fastes***, Œuvres, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, ed. R. Schilling.
- [68] Ovide, ***Héroïdes***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, Trad. Henri Bornecque et M. Prévost.
- [69] Bernard Palissy, ***Discours Admirables des eaux et des fontaines... chez Martin Le Jeune***, Paris, 1580., Édition numérique, avec texte original et modernisé en regard, par G. de Pernon, 2002, http://numlivres.fr/Palissy.html.
- [70] Perse (AulusPersius-Flaccus), ***Satires***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, éd. A. Cartault.
- [71] Platon, ***Les Lois***, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, éd. A. Diès.
- [72] Platon, ***Théétète***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, sous la direction d'Auguste Diès.
- [73] Platon, ***La République***, Gallimard Coll. « Folio- Essais », 1993, Traduction de Pierre Pachet.
- [74] Platon, **Œuvres *complètes***, tome X: Timée, Critias, Les Belles Lettres, Coll. Univ. de France, 2002.
- [75] Platon, **Œuvres *complètes***, Gallimard, « La Pléiade », 2003, 2 tomes, traduction nouvelle de Léon Robin.
- [76] Platon, ***Le Politique***, Garnier-Flammarion, 203, trad. Luc Brisson, 316 p.
- [77] Pline l'Ancien, ***Histoire naturelle***, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1951, éd. Jean Beaujeu.
- [78] Plutarque, **Œuvres *mêlées***, 1572, Traduction Jacques Amyot. Michel de Vascosan, 1572 Paris (BNF « Gallica », fac-similé, téléchargeable).

- [79] Plutarque, ***Vies Parallèles***, Gallimard, Coll. « Quarto », 2001, trad. Anne-Marie Ozanam, éd. sous la direction de F. Hartog.
- [80] Properce, ***Elégies amoureuses*** - Cynthia, éd. de l'Imprimerie Nationale, 2003, éd. de Pascal Charvet, bilingue latin-français.
- [81] Prudence, ***Contre Symnaque***, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, Tome III, texte établi et traduit par M. Lavarenne.
- [82] Pétrarque, ***Canzoniere***,Gallimard, Coll.«Poésie»,1983, Voir aussi: http://digilander.libero.it/testi_di_petrarca/ petrarca_canzoniere.html.
- [83] Quinte-Curce, ***Histoire d'Alexandre le Grand***, Gallimard Coll. Folio, 2007, éd. Claude Mossé et Annette Flobert.
- [84] Quintilien, ***Institution Oratoire***, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1979, trad. Jean Cousin, 6 tomes.
- [85] Ronsard, ***Poésies choisies***, Classiques Garnier, 1969, introd. par Françoise Joukovsky.
- [86] Salluste, ***Histoires*** (fragments), LesBelles-Lettres,1946, 1994, éd. A. Ernout.
- [87] Salluste, ***La Guerre de Jugurtha***, Belles Lettres, Coll. « Classiques en poche », 2000, Trad. Alfred Ernout.
- [88] Sophocle, ***Ajax***, Les Belles Lettres, Coll. « Classiques en poche », 2002, édition bilingue, trad. Paul Mazon, texte établi par A. Dain.
- [89] Stace, ***Sylves***, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1992, Texte établi par H. Frère et traduit par H. J. Izaac. 2 tomes.
- [90] Stobée, ***Fragments de Stobée***, Les Belles Lettres, 1983, Présentés par andré Festugière, I-XXIII.
- [91] Suétone, ***Viesdes Douze Césars***, Les Belles Lettres, coll. Poche bilingue, 1975, Trad. Henri Ailloud, introd. et notes de Jean Maurin.
- [92] PubliusSyrus, ***Sentences***, BibliothecaAugustana, (texte numé-

risé).

- [93] Sénèque, ***Les Phéniciennes***, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, Paris, Tragédies, tome I: Hercule furieux, Les Troyennes, Les Phéniciennes, Médée, Phèdre; broché, 441 p. trad. F. R. Chaumartin.
- [94] Sénèque, ***Œdipe***, Les Belles Lettres, coll. des Universités deFrance,Paris, TomeII:Œdipe-Agamemnon-Thyeste.
- [95] Sénèque, ***Dialogues***, Les Belles Lettres, 1971, t. 1: De la colère.
- [96] Sénèque, ***Épitres***, ***ou«Lettres à Lucilius»***, Texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1992, Trad. François Préchac.
- [97] Sénèque, ***Tragédies***, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, Paris, 2002, Tragédies, tome II: Œdipe, Agamemnon, Thyeste; broché, 336 p.
- [98] Sénèque, ***De Beneficiis***, Arléa, Coll. « Retour aux grands textes », Poche, 2005, trad. Aude MAtignon.
- [99] Sénèque le Rhéteur, ***Controverses et déclamations*** (latin), Teubner, Fac-sim. de l'éd. de Stuttgart: Teubner 1872., 1967, Texte latin disponible à : http://www. thelatinlibrary.com/seneca.suasoriae.html.
- [100] Tacite, ***Annales***, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, 3 tomes, éd. de P. Wuilleumier, J. Hellegouarc'h, Paul Jal.
- [101] Tacite, ***Vied'Agricola***, ***La Germanie***, Les Belles Lettres, Coll. « Classique en poche », 2001, bilingue.
- [102] Le Tasse(TorquatoTasso), ***Rimes et prose***, Ferrare,1585.
- [103] Le Tasse (Torquato Tasso), ***Jérusalem délivrée***, Gallimard, Folio Classique, 2002, Trad. de Michel Orcel (en vers libres non rimés).
- [104] Tibulle, ***Elégies***, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, « Corpus Tibullianum« », Coll. Budé des Universités de France, 1924.

• [105] Tite-Live, ***Annales ou Histoireromaine***, Les Belles Lettres, Paris, 1943 sqq.; éd. et trad. E. Lasserre, 1934 sqq.; éd. et trad. P. Jal, 1976-1979, éd. et trad. J. Bayet et G. Baillet,.

• [106] Cicéron Marcus Tullius, ***Œuvres complètes*** de Cicéron dans: Collection des auteurs latins publiés sous la direction de M. Nisard, Dubochet, Paris, 1841, Sur Gallica.fr et http://agoraclass.fltr.ucl.ac.be/concordances/.

• [107] Térence, ***Les Adelphes***, Œuvres complètes, Gallimard, coll. La Pléiade, 1971, éd. et trad. P. Grimal.

• [108] Térence, ***Andrienne***, Œuvres complètes, Gallimard, coll. La Pléiade, 1971, éd. et trad. P. Grimal.

• [109] Térence, ***Heautonti morumenos***, Œuvres complètes, Gallimard, coll. La Pléiade, 1971, éd. et trad. P. Grimal.

• [110] Térence, ***L'eunuque***, Œuvres complètes, Gallimard, coll. La Pléiade, 1971, éd. et trad. P. Grimal.

• [111] Térence, **Œuvres*complètes***, Gallimard, coll. La Pléiade, 1971, éd. et trad. P. Grimal.

• [112] Virgile, ***Énéide***, in Œuvres complètes, tome I, Ed. de La Différence, 1993, texte bilingue juxtalinéaire - trad. J.-P. Chausserie-Lae prée.

• [113] Virgile, ***Bucoliques***, Gallimard, Coll « Folio », 1997, Bilingue, trad. Paul Valéry et J. Delille. [114] Virgile, Géorgiques, Gallimard, Coll « Folio », 1997, Bilingue, trad. Paul Valéry et J. Delille. [115] Xénophon, Mémorables, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1979, Trad. E. Delbecque.


MANA.NET



هذه هي الترجمة العربية الأولى لكتاب «المقالات» للفيلسوف الفرنسي الكبير مشيل دو مونتيني، والذي يُعدّ أحد أبرز كُتب التراث الإنساني، وفيه أولّ ظهور لفنّ المقالة. ظلّ هذا الكتاب على قوائم الفاتيكان للكتب المحظورة زهاء ثلاثة قرون، لكن حظره لم يكبحه عن الذيوع في أوروبا، والتأثير في كبار مفكريها، من عصر التنوير حتى العصر الحديث، ولقد دان العديد منهم لهذا الكتاب بالفضل في أدبهم وفلسفتهم.



الطبعة الأولى: 2021

